الدكتور عبد الرحمن حميدة

أعلام الجغرافيين العرب

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

أعلام الجغرافيين العرب

ومقتطفات من آثارهم

أعلام الجغرافيين العرب

ومقتطفات من آثارهم

الدكتور
عبد الرحمن حميدة
دكتوراه الدولة في الآداب من السوربون
استاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق
رئيس قسم الجغرافيا سابقاً

دار الفكر

الرقم الاصطلاحي : ٢٤٤
الرقم الموضوعي : ٩٢٠
الرقم الدولي : ISBN : 1 - 57547 - 234 - 1
الموضوع : التراجم والسير والأنساب
العنوان : أعلام الجغرافيين العرب
التأليف : الأستاذ الدكتور عبد الرحمن حميدة
الصف التصويري : دار الفكر بدمشق
التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية بدمشق
عدد الصفحات : ٧٢٠
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٥ سم
عدد النسخ : ١٠٠٠

إصدار ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م
ط ١ / ١٩٨٤ م

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
سورية - دمشق - ص.ب (٩٦٢)
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
برقياً: فكر - فاكس ٢٢٣٩٧١٦
تلكس FKR 411745 Sy

الإهداء

إلى ابنتي تمارة

الدكتور عبد الرحمن حميدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

حمداً وشكراً لك ربي على نعمك التي لا يحصيها العد ، وأسألك منها المزيد

بعد نفاد الطبعة الثانية أقدم لقرائي الكرام الطبعة الثالثة مع تنقيحات يعود الفضل الكبير فيها للأستاذ أحمد راتب حموش ، وزيادات في النص ، وفي الخرائط ، والصور التوضيحية ، آملاً أن تجد لديهم القبول الحسن ، مثلما أثنوا على الطبعتين السابقتين .

والله ولي التوفيق .

دمشق ١ صفر ١٤٠٤ هـ

٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٣ م

الدكتور عبد الرحمن حميدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

حمداً وشكراً لله المتفضل بوافر النعم ، وأزكى صلاة وأعطر سلام على محمد الذي بعثه الله هادياً لبني الإنسان من عرب وعجم ؛ وبعد :

قبل عشرة أعوام خلت ، ظهرت الطبعة الأولى من « أعلام الجغرافيين العرب » ، ونفدت خلال السنوات الثلاث الأولى ، وتواترت الطلبات على « دار الفكر » من شتى المكتبات العامة والجامعية في أنحاء العالم العربي ، ومن الكثير من الإخوة الزملاء الجغرافيين ، حتى كدت أعيد طباعته كما هو ، تصويراً . ولكنني ترددت كثيراً ، لأنني كنت أرجّح أن أضيف إليه بحوثاً عدة ، تتعلق بزمرة من مشاهير الجغرافيين من ذوي الأصالة ، من الذين لم يسمح لي الوقت ، أو لم تسنح لي الفرصة للاطلاع على مؤلفاتهم ، هذا فضلاً عن تنقيحات كثيرة كان لا غنى عنها .

بيد أني كنت أفتقر للوقت الكافي لانشغالي بعملي الأساسي ، وهو التدريس في جامعة دمشق ، وفي الجامعة الأردنية ، وفي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وفي معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة . ولكن كل هذا لم يحل بيني وبين اقتناص العديد من الساعات واختلاس الكثير من أوقات الراحة والاستجمام ، كنت أنصرف خلالها لسدّ بعض ثغرات الكتاب آخذاً بعين الاعتبار ومهتدياً بالملاحظات التي وردتني كتابة أو قولاً من علماء أجلاء ، لهم وزنهم في هذا المجال الجغرافي ، أو من الزملاء الكرام العاملين في ميدان تدريس هذه المادة في جامعات الأقطار العربية ، أو من هواتها .

وكان الوقت يمضي سريعاً ، حتى لقد خشيت أن ينصرم حبل العمر وتأزف ساعة الأجل المحتوم قبل ظهور الطبعة الثانية ، في انتظار ظهور المزيد من كتب التراث الجغرافي مطبوعة ومحققة ؛ إلى أن أيقنت بأن من المستحيل عليّ تقديم عمل متكامل وشامل . يتناول أبرز الذين اشتغلوا بهذا العلم ، مثلما أدركت أن من المتعذر إطلاقاً أن أفي هذا الموضوع حقه ، على غرار ما فعل المستشرق الروسي الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكي قبل أكثر من ثلاثين عاماً في كتابه « تاريخ الأدب الجغرافي » العربي ، أو ما قام به المستشرق الفرنسي الفذ آندريه ميكل في كتابه الواقع في جزأين وهو « الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي » الذي يعد دون مبالغة أفضل دراسة ظهرت حتى الآن في هذا المجال ، والذي نشرته دار موتون في باريس عام ١٩٧٥ في مجلدين .

بيد أن طريقتي وهدفي في عرض هذا الكتاب ، يختلفان بصورة جذرية عن الكتابين السابقين اللذين سلخ مؤلفاهما السنوات الطوال في دراسة متعمقة ، لست في مستواها ، تناولت كل جوانب التراث الجغرافي العربي ، فلم يتركا زيادة لمستزيد . أما غرضي فهو تقديم لوحة مختصرة تواكب التدرج التاريخي ، تشتمل على ترجمة حياة زهاء خمسين من أبرز الجغرافيين المسلمين ، مع قوائم بأهم إنتاجهم العلمي ، تعقبها نصوص مختارة تبرز أهم نواحي اهتماماتهم واتجاهاتهم الجغرافية ، هذا في عصر استحوذت فيه وسائل الإعلام المغرية الكثيرة من مقروءة ومسموعة ومرئية بالإضافة إلى تعقيد مشكلات الحياة اليومية ، على معظم أوقات الناس والدارسين فلم تترك لهم سوى النزر اليسير من سويعات ينصرفون فيها للدراسة التي تغلب عليها سمة الجد . وأنّى للطالب الجامعي الذي ينوء بأعباء مواد مستحدثة في الجغرافية ، أكثر مساساً بأوضاعنا وعصرنا وبالعالم الذي نعيش فيه ، أن يتفرغ لقراءة كتب الجغرافيين القدامى ، ما بين مطبوعة ومخطوطة ، والتي تحتل عشرات الآلاف من الصفحات ، هذا فضلاً عن عدم توفرها في أكثر المكتبات بله اقتنائها .

والهدف البعيد الذي أتوخاه من هذا الكتاب ، هو سدّ ثغرة مُخلّة وفراغاً مؤلماً في مناهج تدريس الجغرافية في البلدان العربية ، والتي أهملت - ويا للأسف - جزئياً أو كلياً دراسة تراثنا الجغرافي العظيم ، الذي تتباين نظرة الجغرافيين المعاصرين إليه بصورة رهيبة ، لأن البعض يرى أن لا طائل في التعرف عليه استخفافاً لما تشتمل عليه بعض المؤلفات ، ولا سيما الكوزوغرافية منها ، كعجائب المخلوقات للقزويني ، من خوارق ومعلومات لا تصمد أمام منجزات العلم الحديث ومكتسباته ، وبين الذين يمنحونه أهمية تفوق كثيراً ما يستحقه لدرجة تلامس التعصب والغلوّ . ولكن من الإنصاف مع ذلك أن نضع أنفسنا « في جلود » أولئك الرواد ، بعد التعرف على ظروف معيشتهم وضآلة وسائلهم في الانتقال والأسفار ، والمشاقّ التي تكبدوها - رحمهم الله - في الحصول على المعلومات كي يقدموا لنا عصارة أفكارهم ضمن مؤلفات ضخمة حازت إعجاب كبار المستشرقين ، وكان يحرص على اقتنائها هواة الكتب وتزدان بها خزائن الملوك والأمراء .

وإذا كان المجال لا يتسع للتعبير عن عرفاني لكل العلماء الأجلاء والأساتذة الجامعيين الذين ألحوا عليّ في إعادة طباعة الكتاب ، أو الذين زودوني بملاحظاتهم القيّمة التي كانت لي عوناً ثميناً في إضافة ما استجدّ في هذه الطبعة ، وتلافي الكثير من النواقص والمآخذ ، فهذا لا يمنعني من تسجيل عميق شكري وخالص امتناني للعلامة الجليل عبد القدوس الأنصاري صاحب مجلة « المنهل » الغرّاء ، والأساتذة : الدكتور أسعد عبده ، أمين جامعة الرياض ورئيس قسم الجغرافية في كلية الآداب سابقاً . وأستاذنا المرحوم الدكتور عزة النص ، عميد كلية الآداب في جامعة الرياض ورئيس قسم الجغرافية فيها سابقاً ، وأستاذي المرحوم عمر الحكيم ، والدكتور إبراهيم رزقانة رئيس قسم الجغرافية بجامعة القاهرة سابقاً ، والدكتور عبد الله الوهيبي الأستاذ في قسم التاريخ بجامعة الرياض ، والدكتور طه عثمان الفرا ، المسؤول عن قسم الجغرافية في كلية التربية بجامعة الرياض سابقاً ،

والدكتور محمد فاتح عقيل الأستاذ في قسم الجغرافية بجامعة الاسكندرية ، والدكتور شاكر خصباك ، الجغرافي الأديب ، والأستاذ في كلية الآداب بجامعة بغداد ، والدكتور علي عبد الكريم رئيس قسم الجغرافية بجامعة البصرة سابقاً ، والدكتور عبد الله يوسف الغنيم رئيس قسم الجغرافية بجامعة الكويت ، والدكتور حسن عبد القادر ، رئيس قسم الجغرافية بالجامعة الأردنية ، وفضيلة الشيخ محمد بن عبد الله عرفة عميد كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، والأستاذ محمود شاكر المدرس بالكلية المذكورة ، والزميلين الدكتور صفوح خير رئيس قسم الجغرافية بكلية الآداب بجامعة دمشق ، والزميل الدكتور أحمد بدر ، رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة دمشق .

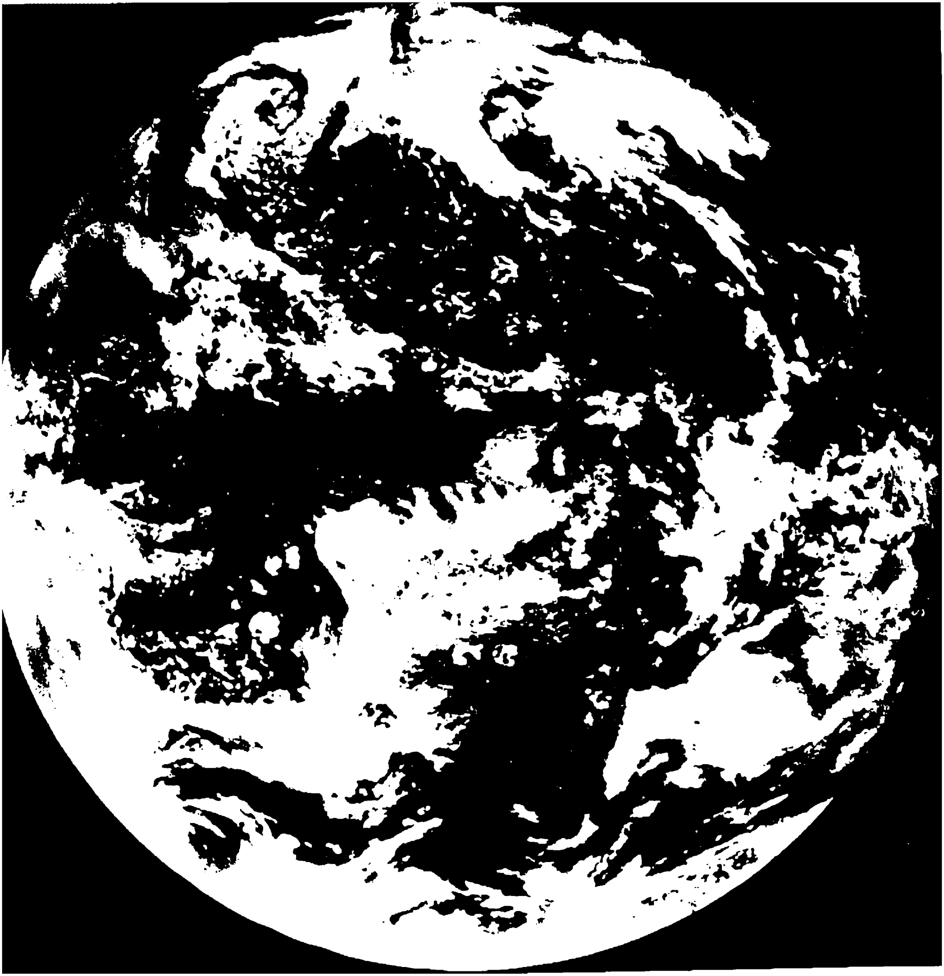
وفي الختام أرى لزاماً عليّ أن أنوّه بفضل أصحاب دار الفكر والعاملين في مطبعتها وعلى رأسهم الأستاذ عدنان سالم والأستاذ أحمد المفتي والمهندس عمرو سالم الذين بذلوا الجهد المشكور الذي يستحقون عليه الثناء في إخراج هذا الكتاب لحيز الوجود على الشكل الذي يراه عليه القارئ الكريم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الرياض ٢٠ ذو القعدة ١٣٩٩ هـ

الموافق ١١ / ١٠ / ١٩٧٩ م

الدكتور عبد الرحمن حميدة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطّبعة الأولى

لقد كان المستشرق الهولندي دي غويه De Goeje أول من أصدر كتاباً في ليدن عام ١٩٠٧ يشتمل على صفحات مختارة من الجغرافيين العرب دعاه « المختارات من الأدب الجغرافي العربي » ، وجاء من بعده المستشرقان الفرنسيان ريجيس بلاشير وهـ . درمون فأخرجا « منتخبات من آثار الجغرافيين العرب في القرون الوسطى » في عام ١٩٣٢ ، وأعيد طبع هذا الكتاب في عام ١٩٥٧ . وقد حاول هذان المؤلفان تقديم مخطط عن تطور الأدب الجغرافي عند العرب مع ترجمة حياة قرابة عشرين جغرافياً عربياً شهيراً باللغة الفرنسية مع نصوص حرفية من مؤلفاتهم .

هذا كما صنّف المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي المتوفى عام ١٩٥١ كتابه الضخم « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » الذي نقله الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم إلى العربية ، في جزأين ، عام ١٩٦١ . وهذا الكتاب المطوّل عبارة عن دراسة منهاجية موسّعة لتطور المعرفة الجغرافية عند العرب حتى القرن السادس عشر ، يتردد أمام مطالعتها غير المختصين ، كما لا تشتمل على مقتطفات كثيرة تسمح بمعرفة مميزات كل من هؤلاء العلماء والنواحي التي برز فيها أكثر من سواه .

ومهما يكن من أمر فقد اعتراني شعور بالمرارة والحسرة لاهتمام الأجانب بدراسة تراثنا المجيد والتنقيب عنه بدقة وإمعان رغم ما يعانون في سبيل ذلك من عناء وبلاء ، ومن تقصيرنا نحن في هذا المضمار إن لم أقل إهمالنا كلياً لهذا النوع من المعرفة التي خلّفها لنا الأجداد . فلم يدخل تدريس مادة الجغرافية العربية حتى

الآن ـ حسبما أعرف ـ في أي سنة من سني إجازة الجغرافيـة وفي أيٍّ من جـامعـات الوطن العربي ، اللهم إلا ما يرد بشكل عرضي لا يتعدى السطور المعدودات وعلى هامش الكلام عن تطور العلوم الجغرافية في العصور القديمة والوسطى .

والواقع هناك صعوبة يعانيها حتماً كل من يتصـدى لـدراسـة الجغرافيـة عنـد العرب أو تدريسها ، ألا وهي ندرة المؤلفات الجغرافية العربيـة لأن معظمهـا نشر في أوروبـا ، وبـأعـداد قليلـة ، ولا تتوفر نسـخ منهـا إلا في المكتبـات الكبرى ، بحيث يتعذر حتى على الأساتذة الحصول عليها أحياناً بَلْـهَ الطلابَ . كما أن بعضهـا لا زال بحالة مخطوطات تنتظر همم الباحثين الشبان للكشف عن مكنوناتها .

لهـذا شعرت ، كما شعر إخواني الزملاء ، الـذين لم ألق منهم إلا كل تشجيـع ، أننا أصبحنـا في أمسّ الحـاجـة لكتـاب يعرّف مثقفينـا وطلابنـا على هؤلاء الرواد العظـام الـذين كانـوا منـارات عصرهم ، وكـواكب زمنهم ، تستنير بهم الأمم من حولهم ، وكانوا حقاً على مستوى الرسالة التي ندبتهم الأقدار لحملها .

وقـد اقتصر اختيـاري على نصـوص المـؤلفين الأعـلام الـذين يمثلـون النماذج المتنوعة والمميزة لمختلف أنماط الجغرافية الأدبية وأهملت ، بالتالي ، الكتّاب الـذين لا يمثلون أي أسلوب ذي أصالة ، أو النصوص التي لا تضيف اتجاهاً جديداً .

ولما كان من صميم اهتمامي أن أجعل هـذا الكتـاب مقرَّبـاً من القرّاء الكرام ، ومحبَّباً إليهم كي يستشفُّوا من خلالـه بعض ملامح تراثنـا التليـد ، فقـد لجأت إلى شرح بعض ما يستعصي من العبارات بـاذلاً في ذلـك جهـد استطـاعتي عوضـاً عن التماس السلامة في الصمت وإيثار العافية في الإغفال .

وبعد أن قدمت دراسة مقتضبة عن تطور الأنماط الجغرافيه عنـد العرب قمت بترجمة حياة كل من هؤلاء الجغرافيين وأهم أعماله واتبعت ذلك بنصوص مختارة من آثاره تبرز أهم نواحي اتجاهاته الجغرافية .

وليس لي بعد هذا الجهد إلا أن أرجو عند الله وحده الأجر ، فقد عملت ما عملت خدمة لجيلنا الصاعد الذي أتمنى أن يحقق الله على يديه ما عجزت الأجيال السابقة عن إنجازه ، وها هو يشرئب بأعناقه باحثاً عن رجاله العظام من السلف كي يتخذ منهم القدوة الطيبة والأسوة الحسنة ، لا ليفتخر بهم ويتباهى فحسب كما يقول المثل الإنكليزي : « مَثَل الذين يفتخرون بأجدادهم مثل نبتة البطاطا أهم ما فيها مدفون بالتراب » ولله در من قال يرد على المفتخر بمثل ذلك :

أقول لمن غدا في كل يوم	يباهينا بأسلاف عظام
أتقنع بالعظام وأنت تدري	بأن الكلب يقنع بالعظام

بل لكي يجعل منهم نبراساً يهتدي به ، ولكي يتحفَّز بحزم وعزم ليصنع لأمته في المستقبل القريب ما صنع أجداده لها في الماضي . وبذلك نسترد مكانتنا التي بوأنا الله إياها وعزتنا التي لا حياة لنا بدونها .

وكلي أمل ورجاء أن تجد الصفحات القادمة التي تعرضت فيها لقرابة أربعين مؤلفاً من أعلام الجغرافيين العرب من التقدير والاهتمام ما تلقى أمثال هذه الدراسات عند المستشرقين من تقدير يليق بها حتى أجد العزاء والسلوان عما بذلت من وقت ، وجهد ، وراحة ، والحمد لله على ما وفق إليه وأعان .

دمشق ٣٠ جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ
الموافق ١٣ آب (أغسطس) ١٩٦٩ م

الدكتور عبد الرحمن حميدة

تمهيد

ماوراء الأفق ؟

كثيراً ما تتكرر على مسامعنا عبارة تقول : إن عالمنا صغير . هذا صحيح ، إن أرضنا صغيرة ، بالنسبة إلينا ، نحن الذين نستطيع أن نجوب أرجاءها بالطائرة ، أو في بواخر سريعة ، أو في سيارات أو قطارات تتجاوز سرعتها مئة وخمسين كيلو متر بالساعة ، نحن الذين نقرأ في جريدتنا الصباحية نبأ الزلزال الذي وقع في الليلة الفائتة في اليابان ، ونستمع بواسطة جهاز المذياع إلى سمفونيات تعزفها فرقة الأوبرا في فيينا أو نيويورك أو موسكو ، كما أصبحنا نرى على شاشة التلفزيون ونسمع أحداث العالم الحالية وزاد ذلك سهولة دخول الأقمار الصناعية في مجال التلفزة والمكالمات الهاتفية .

نعم لا داعي للدهشة مطلقاً إذا قلنا : إن عالمنا صغير جداً ، بعد أن استطاع الإنسان أن يدور حول الأرض ضمن كبسولة يقذفها صاروخ موجه ، كما طاف حولها رائد الفضاء الأول غاغارين وبعده تيتوف في عام ١٩٦١ ، أو كما دار حولها الكولونيل غلين الأميركي ثلاث دورات في مدة ٤ ساعات و ٥٦ دقيقة في ٢٠ شباط ١٩٦٢ ، إلى أن هبط على سطح القمر رائدان أميركيان في ٢٣ تموز ١٩٦٩ ، وفي الحادي عشر من الشهر التالي دارت مركبة سوفياتية حول القمر وقدمت صوراً ومعلومات هامة عنه وهي المركبة (زوند) .

ولكن أرضنا كانت شاسعة الأبعاد ، أو غير محدودة بالنسبة لأولئك الذين

كانوا على ظهرها في العصور الغابرة لأنهم لم يتوصلوا إلى التعرف عليها إلا ببطء عظيم وعبر الكثير من الأخطاء والأخطار .

وهكذا نجد أن الجغرافية أخذت تحتل في نفوسهم تدريجياً مكان الأسطورة . ولكن لا نعلم علم اليقين كيف تمت أوائل الاكتشافات ، ولا كيف كانت العصور التي سبقتها ، إذ نجهل حياة أوائل الجماعات البشرية ، أي الذين كانوا في حقب ما قبل التاريخ ، ولا نعرف عنها شيئاً إلا بالافتراض واللجوء إلى الخيال ، فليس هناك كتابات ولا قصص مباشرة .

غير أن هذا التطور أو الخيال يستند إلى أساس متين ، فالآثار التي خلفها أناس تلك الأزمنة ، والتي ظلت محفوظة بصورة سليمة نوعاً ما في طبقات الأتربة ، أو على جدران الكهوف ، والتي يدرسها العلماء ، ويقارنون فيما بينها أو مع آثار حضارات أحدث منها ، أصبحت معروفة بشكل أفضل مما يسمح لنا باكتشاف أصولها .

وهذا العمل الدائب القائم على التبصر والتأمل والمحاكمة العلمية هو الذي أدّى لقبول هذه الآثار كدلائل مقبولة على حياة الدهور البشرية الأولى ، ومنها نتوصل إلى الزمن التاريخي ، حيث ينحسر الشك كي يترك مكانه لليقين خاصة بعد دخول الكربون ١٤ في تحديد الزمن التقريبي .

ليس هناك من سبب لدهشتنا إذا عرفنا أن الناس قد رغبوا في التعرف على الكرة التي يقطنون . وهذا فضول طبيعي جداً ، فقد أرادوا أن يعرفوا ما وراء تلك الغابات التي تصد الأنظار وما خلف تلك الجبال التي ترد البصر خاسئاً وهو حسير ، ومن هو ذاك الذي يعيش على الضفة الأخرى من النهر ؟

فمنذ أن ظهر الإنسان على وجه الأرض أغرم بحب الاكتشافات ، ولكنه وجد في بداية الأمر صعوبات جمة اضطرته إلى النضال نضالاً مريراً ضد قوى

الطبيعة وضد الحيوانات الضارية ، ولذلك مضت قرون عديدة توقف فيها الإنسان عن الانتقال لمسافات بعيدة .

بيد أن هذا الفضول لم يكن لدى الرجل البدائي الدافع الرئيسي للأسفار . فقد كانت عنده حاجة أكثر إلحاحاً تدفعه وهو الجوع ، أي البحث عن الغذاء . وبعدئذ ظهرت الدوافع المشتقة عن هذا الدافع الرئيسي ، أي الرغبة في المبادلات التجارية مع الشعوب الأخرى ، والبحث عن حاصلات الأراضي الجديدة ، والتعطش إلى ثرواتها ... ثم ظهرت دوافع أخرى كالأسباب الدينية والسياسية والرغبة في المغامرة ، والفضول العلمي إلخ ..

غير أن هذا الاكتشاف التدريجي للأرض ، مهما كانت الدوافع متفاوتة في نبلها ، لم يكن ممكنا إلا بفضل النمو التدريجي في الذكاء البشري . لأن الإنسان ، منذ أن ظهر على الأرض ، كان يجنح إلى تحسين وضعه وإلى الاقتراب حثيثاً من الكمال . وما بدأه في الأول في بحثه المتردد للتعرف على الوجه الحقيقي لهذا الكوكب دون أسلحة ، ودون أدوات ، أصبح شيئاً فشيئاً ميسوراً بالنسبة إليه ، وذلك كلما اخترع المزيد من الأدوات المتقنة ، وكلما اعتاد أن يربط بين الأقطار التي زارها بشكل واضح وأكثر صحة ، ربطاً خالصاً من كل تشويه ناجم عن المعتقدات والأوهام الوثنية التي أتى بها أوائل المكتشفين ، وأخيراً كلما زادت مهارته في استخدام مكتشفاته ومخترعاته . فلما تيسرت له السبل أخذ يضرب في مشارق الأرض ومغاربها ، ويركب متون البحار ويتجشم أعظم المشاق ويصبر على ما يعترضه من مكاره لكي يكتشف بلاداً جديدة أو يختط طريقاً جديداً لم تطأه قَدَمُ إنسان من قبله .

وقد كانت المحاولات الأولى لوصف الأرض ، أو وصف أجزاء منها ، غير مستندة إلى مشاهدة لأحد المعاصرين ، بل كانت معلومات استقاها الرواة ممن سبقهم ، ولكنها كانت بداية الجغرافية على كل حال .

وهكذا يبدو لنا تاريخ اكتشاف الإنسان للأرض كَسِفْر ضخم يحوي جهود الإنسان منذ العصور الأولى ، في حركته البطيئة والثابتة الدؤوبة نحو المعرفة . وسنرى قبل كل شيء كيف استطاع الإنسان البدائي الخروج من الفوضى ما دامت حالة معرفتنا الحالية تسمح لنا بهذا القول ، لأننا لا نملك في هذا المضمار سوى القليل من الدقة والكثير من الافتراضات .

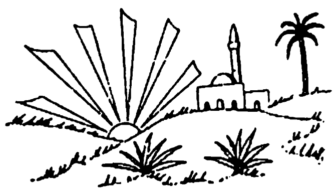
ومن معرفة الإنسان القديم سننتقل لما تسمح لنا حالة معارفنا الحالية بتصوره عن العالم البدائي . ومن ثم سنرى تتابع مختلف المراحل في اكتشاف الأرض حتى أواخر العصور الوسطى .

بيد أننا لا نتبع طريقاً تاريخياً بسيطاً ، إذ يجب أن نعرف ، بالواقع ، أن نمو العقل البشري لم يسلك اتجاهاً منتظماً . ففي بعض نقاط الأرض استطاع الناس أن يتقدموا بسرعة أكبر من سكان مناطق أخرى ، إذ قامت حضارات رائعة ، ثم بادت ، دون أن تخلف وراءها سوى أوابد عظيمة وأبنية نحاول اليوم ، من خلالها ، أن نفك رموز تاريخ الشعوب البائدة . ولا شيء يسمح لنا بالتأكيد بأن الحضارة الغربية ، التي تكاد تهيمن اليوم على كل وجه البسيطة لن تتعرض ، في يوم من الأيام ، إلى مصير مماثل ، تحت تأثير كارثة مجهولة وأن الإنسان لن ينطلق من نقطة الصفر مرة أخرى .

إذن سيكون من خطل الرأي أن ننظر إلى اكتشاف الأرض وكأنه من صنع الرجل الأبيض وحده . وسنحاول البرهنة على أن الرحلات الاستكشافية لم تنحصر بالرجل الأبيض فحسب ، لأنه في الفترة التي كانت أوربا غارقة في بربريتها ، وقبل أن تبزغ حضارة أقوام البحر الأبيض المتوسط ، كان العرق الأصفر ، مثلاً ، يعيش تحت ظلال حضارة مزدهرة ، راقية ، سامية وأنه كان يرسل بعثات لاكتشاف الأقطار المجاورة ، وأن هؤلاء الرحالة البواسل كانوا يقومون ، ولاسيما عند اجتياز المناطق الجبلية ، بمغامرات لم تتجدد إلا على أيدي

رواد القمم الجبلية في أيامنا هذه . وكلما تعرفنا على اكتشافات تمت على يد هؤلاء الرحالة ، حاولنا أن نبيِّن أن الاكتشافات كانت عملاً بشرياً مشتركاً عالمياً بحيث نجد أن اكتشافات الأوروبيين لم تحتل مكانتها وشهرتها التي نعرف اليوم إلا بفضل التفوق المادي في حضارتهم ذلك التفوق الذي ساعد على تخليد آثارهم البارزة في هذا المجال .

وأخيراً لن ندرس هذه الرحلات الأولى من وجهة النظر التاريخية فحسب ، بل من وجهة النظر الإنسانية خاصة ، وستكون لدينا الفرصة الكافية للتأمل في الدور الذي لعبته التيارات التجارية الكبرى والدور الذي لعبه كبار المكتشفين والجغرافيين الأوائل وخاصة العرب منهم ، وللإعجاب بذلك الحماس والعناد اللذين تحلّى بهما المكتشفون .



العُصُور القَديمَة

لقد انهارت حضارة ما بين النهرين القديمة على إثر طغيان موجة من الأقوام البرابرة عليها ، وذلك بعد أن تفاقم الجفاف في سهوب آسيا الوسطى ، وهؤلاء هم أقوام جوتّي الذين اجتاحوا قسماً من هذه المنطقة . ثم ما لبثت مصر أن تعرضت لتهديد أسيوي مماثل ولكنها استطاعت أن تصده ، ولكن بعد فترة من الزمن ، أي في حدود ٢٠٠٠ ق . م ، تداعت أمام هجمات الهيكسوس القادمين من البوادي الشرقية .

ومن بين الشعوب القديمة التي نجهل تاريخها تقريباً ، والتي استطاعت أن توسع الأفق الجغرافي ، كانت شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وهو أوّل بحر معروف ، نذكر الكريتيين والمصريين والفينيقيين والرومان . ويعود الدور الأول إلى الإغريق ، وهم شعب التصقت حياته بالبحر وتميز بحب الاستطلاع ، مما ساعد على نمو تذوق المغامرات البعيدة لديهم .

المصريون :

قام المصريون القدامى ، في عهد سنيفرو ، فرعون مصر ، برحلات عديدة بغية الاستكشاف . ونعرف اليوم أن الإمبراطورية المصرية القديمة تعود لفترة تزيد على ٣٥٠٠ عام قبل المسيح . وتدل الآثار الباقية من معابد وسواها على أنها كانت دولة مزدهرة ، ذات نشاط اقتصادي كبير ، ومتمتعة بجهاز إداري جيد التنظيم ، وكانت سلطتها تمتد حتى السودان وإثيوبيا . وفي عام ٣٢٠٠ ق . م حصل سنيفرو على أربعين سفينة مشحونة بخشب أرز لبنان .

كما أرسلت مصر البعثات لكشف حوض النيل وارتياد الصحراء الشرقية والليبية وشبه جزيرة سيناء . وتيسيراً لنقل التجارة من داخل البلاد إلى البحر الأحمر حفرت قناة سيزوستريس بين النيل وذلك البحر ، بقصد الملاحة النهرية والتجارة بآن واحد وكانت تمتد من فرع دمياط إلى البحيرات المرة ومنها إلى السويس . وفي عهد الملكة حتشبسوت وصلت تجارة مصر إلى بلاد أوفير وجنوب الجزيرة العربية .

ومع أن قدامى المصريين عرفوا الملاحة الواسعة باكراً ، فقد سبقهم في هذا المجال سكان جزيرة كريت الذين جابوا ساحل إفريقية الشمالية ومصر منذ الألف الرابعة ق . م وسواحل جنوبي فرنسا وإسبانيا .

الكريتيون :

منذ مطلع التاريخ كانت شعوب العالم القديم تنقسم بشكل واضح إلى زمرتين : البرابرة أو المتوحشون من جهة ، والدول المتحضرة من جهة أخرى . وكان يضم إلى الفئة الأولى كل شعوب أوروبا ما عدا بضع نقاط في اليونان وروما الناهضة ، وكل إفريقية ، ما عدا قرطاجة ومصر . أما في آسيا ، فكانت حضارة ما بين النهرين والحضارة الهندية والصينية تعود إلى آلاف السنين في القدم ، في حين ظلت سهوب آسيا الوسطى ، خلال عصور طويلة ، موطن البداوة .

هذا وتشير أعمال التنقيب الأثرية التي تمت في جزيرة كريت وفي مختلف جزر بحر إيجة منذ مطلع القرن العشرين إلى وجود شعب بحري ضاعت كل معالم تاريخه من الذاكرة . وظهر أن نشاطهم في مضمار الملاحة كان سابقاً للفينيقيين وهم أقدم من ركب متن عرض البحر .

ويختلف الكريتيون كثيراً عن الإغريق الذين ظهروا فيما بعد ، فقد كانوا يخضعون لسلطة ملك هو مينوس كما حفظته الأساطير اليونانية وقد استطاعوا أن

يوجدوا حضارة لامعة وذات أصالة بكل ما في الكلمة من معنى . ولا تزال لغتهم ونقوشهم مجهولات كما لا يزال تاريخهم محفوفاً بالأسرار بيد أن السلع التي كانت تنقلها مراكبهم لا تزال بقاياها مبعثرة على ضفاف بحر إيجة . إذ كان بحارتهم يقومون بتجارة نشيطة مع مصر ، وكانوا يعرفون كل سواحل الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط كما عرفوا غرباً سواحل صقلية وإيطاليا الجنوبية دون أن يتجشموا مخاطر الابتعاد أكثر من ذلك .

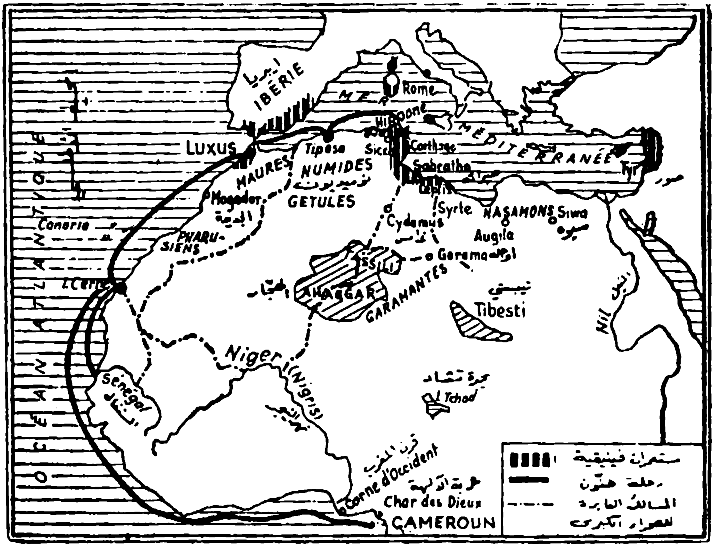
الفينيقيون :

وهم شعب صغير قدم من سواحل الخليج العربي حوالي العام ٢٢٠٠ ق . م واستقر على ضفاف السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . وقد شغل الفينيقيون هامشاً ضيقاً من الأرض ، محصوراً بين جبال لبنان والبحر . وكان البحر يمارس جاذبية قوية عليهم . فقد كان من السهل عليهم أن يبنوا مراكب كبيرة مسطحة الظهر وشراعية بفضل أخشاب غابة الجبل التي تلف معظمها في أيامنا . وهكذا أصبحوا بحّارة يتميزون بالجرأة وتجاراً مهرة . وإذا اقتضى الأمر ، محاربين أشداء ، وقد بدؤوا بالتعرف على الحوض الشرقي للبحر المتوسط ثم ما لبثوا أن خاضوا عباب حوضه الغربي . وانطلق بحارة ميناء صيدا ، الذي كان مزدهراً بالبداية ، ثم تبعهم بحارة صور وجابوا أرجاء البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ، دون أن يبتعدوا عن السواحل ، ثم أخذوا يقيمون أسواقاً تجارية وبعض المستودعات ومعبداً صغيراً وحصناً فوق الجزر أو فوق النقاط التي يسهل الدفاع عنها وكانوا مهرة جداً في اجتذاب السكان الوطنيين إليهم . وهكذا أقاموا عدداً كبيراً من المستعمرات . وراحوا يبحثون عن معدن الفضة في بلاد ثارسيس (جنوب إسبانيا) . وبعد أن اجتازوا أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) أخذوا يستوردون القصدير اللازم لصناعة البرونز من جزر Cassite'rides (جنوب غربي بريطانيا) . كما عملوا أحياناً في خدمة الأجانب فقد أرسلهم النبي سليمان إلى بلاد

أوفير Ophir (الصومال) حيث جلبوا معهم الذهب والعاج والقردة والطواويس . وقد كان لتأسيس قرطاجة على يد جالية من صور في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد دور هام في إعطاء النشاط الفينيقي اندفاعاً حماسياً . فاكتشفت قرطاجة جزر الخالدات (كناري) كما كانت ترتبط بالسودان عن طريق البر والبحر بعلاقات تقوم على تجارة الذهب بشكل خاص .

واستناداً إلى رواية هيرودوت ، نجد أن أول حملة اكتشافية هامة إنما تمت على أيدي الفينيقيين وقد جهزها فرعون مصر نيخاوس الذي حكم في النصف الثاني من القرن السابع قبل المسيح بالسفن وبالمؤن . واستطاعت في عام ٦٦٥ ق . م أن تدور حول إفريقيا بعد أن انطلقت من البحر الأحمر وعادت عن طريق البحر الأبيض المتوسط . وقد استغرقت هذه الرحلة الدائرية مدة عامين . وكان البحارة يتوقفون في كل خريف عند السواحل المناسبة لزراعة الحبوب ثم يستأنفون سفرهم بعد الحصاد . ولا يعطينا هيرودوت سوى القليل من التفاصيل عن هذه الحملة ، مما دفع بعض العلماء إلى الشك في صحتها ، ولكن بعد تدقيق روايته وتمحيصها واستناداً إلى الشروح العظيمة التي أثارها العلماء ، نجدنا أقرب إلى اليقين وأدنى إلى الاعتقاد بصحة حدوث هذه الرحلة التي قطعت ما يعادل نصف محيط الكرة الأرضية . وشاهدوا الشمس تسطع من يمينهم في طريق العودة .

وقد قام القرطاجيون ، الذين كانوا يسكنون بلاد تونس ، في الفترة الواقعة قبل الميلاد بخمسة قرون ، بإرسال القائد حنُّون لاكتشاف ساحل إفريقية الغربية . فذهب على رأس أسطول مؤلف من ستين سفينة يركبها ثلاثمئة بحار بالإضافة إلى عدد من المهاجرين . واستمرت الرحلة فصل صيف بكامله ، وأسس بعض المستعمرات على ساحل المغرب الأقصى ، وتقدم حتى شاهد هيجان بركان الكاميرون الكبير ، ورأى أناساً يغطي أجسادهم الشعر الكثيف سماهم الغوريلا ثم توقف عن التقدم لنفَاد المؤن (الشكل ١) . وفي الوقت نفسه كان القائد



الشكل (١)

تشير المناطق المخططة عمودياً إلى مناطق النفوذ الفينيقية ، ويدل الخط الأسود على الطريق التي سلكها حنون الكبير من قرطاجة إلى الكاميرون .

هيميلكون القرطاجي يكتشف سواحل أوروبا الغربية وتوغل في بحر الشمال .

والواقع رأى الفينيقيون الكثير من معالم العالم القديم ولكنهم كتموا كل ما عرفوه تقريباً بحرص شديد ، شأن كل الشعوب المتاجرة ، لأن كتمان اكتشافاتهم يكفل لهم احتكار التجارة وتحاشي المنافسة .

ومن المعروف أنهم كانوا يؤثرون الموت على البوح بأسرار طرقهم التجارية . ويروى أن إحدى سفنهم تعقبتها سفينة رومانية فما كان من السفينة الفينيقية إلا أن جنحت إلى أقرب شاطئ ولم تستأنف رحلتها إلى أن يئست منها السفينة الرومانية . وابتعدت عنها .

فراحوا يشيعون أساطير تستثير خيال الإغريق اليقظين ؛ فكانوا يصفون المحيط الأطلسي بأنه كثير الضباب والتيارات السريعة ولا يصلح للملاحة ، كما ينشرون الأخبار المخيفة عن بعض مناطق البحر الأبيض المتوسط الغربي مثل ممري سيلا وشاربيد الخطرين بين صقلية ونهاية شبه الجزيرة الإيطالية إلخ .. ولكن يبدو من المحتمل أن الإغريق عرفوا بعض التفاصيل عن رحلات الملاحين الفينيقيين .

هذا وقد تم اكتشاف سواحل إفريقية الشرقية أيضاً على يد سيلاكس الذي أرسله كسرى الفرس داريوس قبل قرن من رحلة حنون كي يرتاد البحر الأحمر وسواحل الصومال .

الإغريق :

تقدم لنا أشعار هوميروس فكرة عن معارف الإغريق الجغرافية حوالي القرن العاشر ق . م . فالمعلومات الدقيقة التي نجدها في الإلياذة تمتد جنوباً من سواحل ليبيا ومصر (طيبة) ، وإلى بلاد فينيقيا (صيدا) وآسيا الصغرى شرقاً . وشمالاً حتى إيبير وتراقيا ، وغرباً حتى صقلية . وفيما وراء ذلك تصبح المعلومات غامضة جداً وغير موثوقة كما تذكرها الأوديسية ، والمرجح أنها مستقاة من الأساطير الفينيقية أو من روايات مشوهة عن شعوب خرافية وعن كائنات غريبة تسكن جزر الحوض الغربي للبحر المتوسط . وكل هذه الشعوب المذكورة تعيش على سطح الأرض التي تأخذ شكل قرص دائري يطيف به النهر المحيط .

وقد خضع اليونانيون ، الذين كانوا يقطنون ضفاف بحر غني بالملاجئ الطبيعية ، بدورهم ، لسحر البحر الجاذب ، ذلك البحر الملائم للرحلات نظراً لرياحه الموائمة وأرخبيلاته العديدة حيث تظل الأرض دوماً مرئية في حالة الطقس الصاحي .

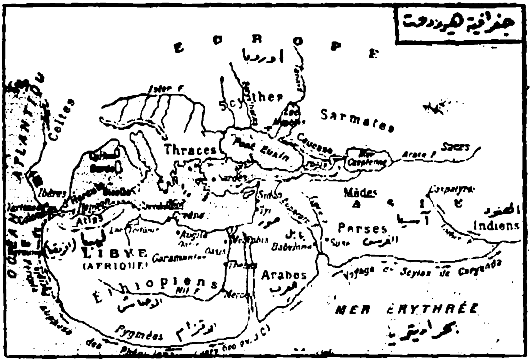


الشكل (٢)

خارطة الأرض حسب أوصاف هوميروس من كتاب « الأرض والسماء »

ومن بين الأسباب العديدة التي حثتهم على الأسفار البحرية يجب أن نأخذ بعين الاعتبار شدة حبهم للاستطلاع وشغفهم بالتجارة كما كانوا يمارسون الزراعة في بعض مستعمراتهم . وقد كان تأسيس هذه المستعمرات ، الذي يعود لأقدم الأزمنة ، مستمراً طيلة الحقبة التاريخية . فأقاموا مستعمرات في صقلية ، وفي اليونان الكبرى (إيطاليا الجنوبية) وفي تراقيا ، وعلى ضفاف الدردنيل وفي آسيا الصغرى . وقام Phoce'c بدوره وأسس في عام ٦٠٠ ق . م مدينة مرسيليا ، واستقر معمرون من Milet على ضفاف البحر الأسود حيث حصلوا على معرفة

دقيقة عن الدانوب وعن شعوب السيت Scythes المستقرة أو البدوية ، كما ساعدت القوافل التجارية القادمة من البلطيك بالتعرف على منطقة هـذا البحر . وكانت هناك مستعمرات إغريقية في إقليم برقة وفي مصر وفي إسبانيا . وفي أواسـط القرن السابع ق . م اجتازت الملاحة اليونانية أعمدة هرقل أو مضيق جبل طارق .



الشكل (٣)

جغرافية هيرودوت

وقـام المؤرخ هيرودوت ، وكان يتميز بحب المعرفـة ، برحلات كبيرة في برقـة ومصر وفينيقيـة وبـلاد بـابـل ، كما زار المستعمرات الإغريقيـة في سـاحـل آسيـا الصغرى الشمالي ، وجزر بحر إيجـة وصقليـة وجنـوب إيطـاليـة ، ويعتبر كتـاب التـاريخ الـذي ألفـه وجيزاً للمعـارف الجغرافيـة لـدى الإغريـق في أواسـط القرن الخامس ق . م .

فتوحات الإسكندر :

لم تحرز المعرفة الجغرافية تقدماً ملموساً حتى جاءت فتوحـات الإسكنـدر بين ٣٣٦ ـ ٣٢٥ ق . م ، فكانت حدثاً هاماً في تاريخ الاكتشافات . فقـد توغل شمالاً حتى نهر سيرداريـا ، واجتـاز نهر الهنـدوس وتقـدم حتى رافـده Hyphase شرقـاً .

وقام نيارك بارتياد ساحل دلتا نهر الهندوس حتى صدر الخليج العربي ، وبذلك أمكن الحصول على مجموعة قيّمة من المعارف الجغرافية الجديدة ، إذ جاءت الجبال الثلجية العالية ، والرمال المحرقة في صحراء كرمان ، وأمطار الهند الصيفية ، والنباتات والحيوانات المجهولة ، أقول جاءت لتكشف للإغريق عن وجود عالم شديد الاختلاف عن العالم الذي كانوا يعرفون .

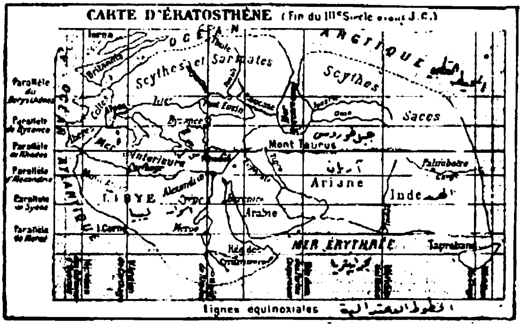
وفي عهد السلوقيين ، خلفاء الإسكندر في آسيا ، قامت علاقات مع شعوب وادي الغانج إذ زار الإغريقي ميغاستين مدينة باتنا Patna كما تعرف اليونانيون على حضارة البراهمة العجيبة .

وفي عام ٣٣٠ ق . م قام يوناني من مرسيليا ، اسمه بيتياس ، الذي اشتهر بجرأته الفائقة وبسعة اطلاعه برحلة واسعة المدى في أوربا الغربية ، التي كان يجهلها هيرودوت . فقد كان تجار مرسيليا يتشوقون للحصول على معلومات عن المناطق التي تنتج القصدير والعنبر . وهكذا ارتاد بيتياس بحر الشمال ، وحاذى سواحل بريتانيا وتقدم حتى جزر أوركاد في شمالي الجزر البريطانية (عرض ٦١° شمالاً) وتحدث عن جزيرة مليئة بأسرار دعاها Thulé ولعلها إيسلندا ، مغلّفة بالضباب الرهيب ، في بحر مثقل بالجليد ، وكانت هذه الرحلة أول رحلة تلقي الأضواء على تلك المناطق النائية .

أما في المحيط فلم يقم الإغريق بأية رحلة ، وظلت الجغرافية الإغريقية ، من هذه الناحية ، تجتر الأساطير والفرضيات .

الإسكندرية وبطليموس وإيراتوستين :

لقد أصبحت مدينة الإسكندرية التي أسسها الإسكندر الكبير في عام ٣٣٢ ق . م مركز دراسات علمية احتلت بينها الجغرافية مكاناً فسيحاً ، وكان ذلك نقطة انطلاق نحو رحلات استكشافية . وكان يعيش في الإسكندرية عدد من



الشكل (٤) خارطة إيراتوستين : نهاية القرن الخامس قبل المسيح

الجغرافيين الذين اختفت مؤلفاتهم مع الأسف . غير أن أبحاث أحد أكبر جغرافي الإسكندرية ، وهو إيراتوستين (ولد في شحات Cyrene ببرقة عام ٢٧٦ ق . م وتوفي عام ١٨٧ ق . م) ، تدل على تقدم الجغرافيا في ذلك العصر بالنسبة للمناطق الواقعة إلى الجنوب ، والجنوب الشرقي من بلاد اليونان ، فقد كانت هناك علاقات تجارية أكثر انتظاماً بين مصر والهند سمحت بمعرفة أكثر دقة عن ساحل إفريقية ابتداء من مصر حتى القرن الإفريقي (رأس العطور) ، وكان لدى إيراتوستين معلومات لا بأس بها عن الحبشة ، وعن الأنهار الكبرى كالنيل الأبيض والنيل الأزرق اللذين يؤلفان نهر مصر الكبير ، كما علم بوجود بحيرات كبرى وجبال عالية عند منبعث نهر النيل ، وكانت معرفته تقف عند بلاد الصومال .

الرومان :

إذا كانت التجارة هي الدافع على اكتشافات الفينيقيين والإغريق فإن الحملات العسكرية كانت في أساس اكتشافات الرومان . وكانت نتائجها هامة بشكل خاص في شمال وشمال غرب أوروبا .

فبعد أن استولى الرومان على مصر عام ٢٩ ق . م توغلوا في الحبشة ، وقد أرسل الإمبراطور نيرون بعثتين لاكتشاف النيل ، ووصلتا إلى مناطق المستنقعات الفسيحة في بحر الغزال . كما اجتاز القائد بولينوس سوتيونيوس جبال الأطلس لمطاردة المغاربة الثائرين .

وفي عهد الإمبراطور كلود ذهب الرحالة الإغريقي ديوجين واكتشف جبل كينيا وجبل كليمنجارو أعلى قمم إفريقيا . كما ذهب حاكم تونس كورنيليوس بالبوس لاكتشاف منطقة فزان الليبية واحتل عدداً من المواقع وحولها إلى محطات محصنة على طريق القوافل التجارية . وقد أدت الرحلات العسكرية والتجارية إلى إغناء العلم الجغرافي إلى حد كبير ، حتى إن أحد علماء الإغريق وهو هيكلاته ، من مدينة Milet ، الذي عاش في القرن السادس قبل المسيح قال بكروية الأرض متفقاً بذلك مع مذهب فيثاغورس . وبذلك أصبح مثقفو العالم القديم في مطلع التاريخ الميلادي يمتلكون فكرة قريبة من الصحة عن الأصقاع المحيطة بهم .

هذا وقد تمتعت تجارة الإسكندرية بازدهار رائع في القرون الأولى من التاريخ المسيحي ، وعن طريق مسالك التجارة أتت المعلومات الثمينة . فقد كان الإغريق والرومان يجوبون منذ عهد بعيد سواحل المحيط الهندي . وبدؤوا يستغلون تيارات الرياح الموسمية المتناوبة ، وأصبحت الرحلات أقصر مدة وأكثر انتظاماً من الإسكندرية باتجاه الهند عن طريق ميناء برنيق Berenice على البحر الأحمر . فكانت الرياح الصيفية تدفع مراكبهم باتجاه الهند بينما تؤمن الرياح الشتوية العودة . وبذلك تعرف تجار الإسكندرية على جزيرة سيلان وعلى شبه جزيرة مالاقا . وفي القرن الميلادي الثاني أصبح لديهم بعض المعرفة عن الجزر الكبرى الواقعة إلى الشرق من ذلك لأن سفنهم كانت تصل إلى ميناء غاتيغارا على الساحل الصيني .

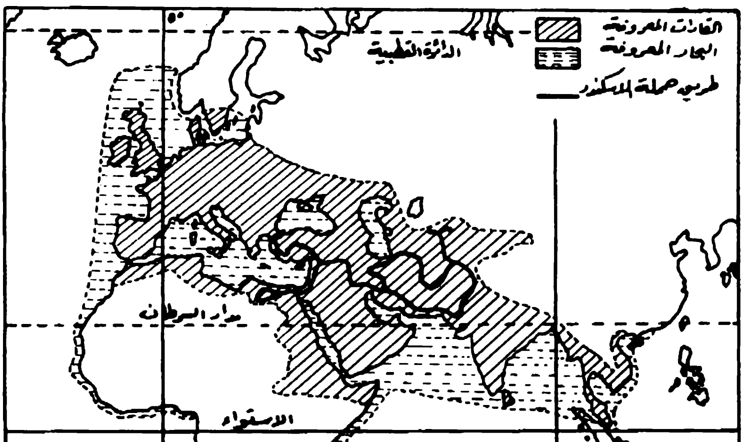
وفي الوقت نفسه كانت تجارة الحرير تدفع بالإغريق والرومان نحو هضاب

آسيا الوسطى . وكان سترابون ، الذي عاش في أيـام يوليوس قيصر ، أول جغرافي يتكلم عن الصينيين الـذين كانوا يعيشون بين نهر آمـو داريـا وبين البحر الشرقي . وقـد أوجـدت القوافل والبعثـات الـدبلـومـاسيـة التي كانت تخترق صحـاري آسيـا الوسطى علاقات مع بلاد الصين .

سترابون و بطليموس :

لقد أعطتنا مؤلفات سترابون الـذي عـاش في القرن الأول الميلادي فكرة عن مجموع العالم المعروف لدى الأقدمين . وكانت مؤلفاته وصفية وتهتم كثيراً بـالتـاريخ على خلاف بطليموس الذي كان جغرافياً ريـاضيـاً اهتم خـاصـة بحسـاب درجـات الطول والعرض .

واستناداً إلى « جغرافيـة » بطليموس كان العـالم ، المعروف لـدى الأقـدمين ،



الشكل (٥) العالم الذي عرفه القدامى

يمتد من جزر الخالدات غرباً إلى الصين الجنوبية شرقاً . أما حدوده الشمالية فكانت الجزر الواقعة شمالي بريطانيا ، في حين لا تتعدى حدوده الجنوبية منطقة السودان والبحيرات الكبرى . وكان كتاب بطليموس مزوداً بـ ٢٧ خارطة ، كانت إحداها تمدُّ البحر المتوسط بحوالي ٢٠ درجة شرقاً ، مما أدى بالتالي إلى استطالة الأراضي بشكل مفرط باتجاه الشرق .

العرب قبل الإسلام :

يبدو أن الشعب العربي كان مفطوراً على حب الرحلة والسفر منذ فجر تكوينه . فيذكر لنا التاريخ أنباء متواترة عن تنقله وأسفاره في سبيل البحث



الشكل (٦) بلاد العرب قبل الإسلام والطرق التجارية العالمية

عن مصادر رزقه وتجارته وإغناء معرفته . فزار كثير من أفراده بقاعاً وأقاليم عديدة ، فبلغ أقاصي بلاد الشام والعراق ومصر ، وتجول كثير من أبنائه في أقطار نائية ، فكأنه لم يعرف الهدوء والقرار ولم يثنه عائق عن تجشم مصاعب السفر والرحلة آنذاك ، ولعل ذلك يعود للفقر الطبيعي الذي عرفت به جزيرة العرب في الماضي . وقد كان للقبائل رحلات ، وللأفراد أسفار ، ذكر بعضها في الشعر ، فكانت رحلات الشعراء إلى الحيرة حيث المناذرة ، وإلى أطراف دمشق حيث كانت منازل الغساسنة ، حتى لقد بلغ امرؤ القيس القسطنطينية ونسب إليه شعر قاله في أنقرة . وكان لقريش رحلتان إحداهما في الصيف والأخرى في الشتاء .

وفي جنوب الجزيرة العربية قامت حضارات زاهرة في اليمن ، كان اعتمادها على النشاط التجاري في البحر العربي والمحيط الهندي . فاتصل اليمنيون بشعوب إفريقية الشرقية وجزرها ، وكان لهم عليها بعض النفوذ ، وكانوا يتجرون مع أهلها في الطيوب والأفاوية . كما اتصلوا بالهند وسواحل الخليج العربي وما جاوره من بلاد . وإلى هؤلاء اليمنيين القدامى يعود الفضل في معرفة الطرق البحرية في تلك الجهات . ويقول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم .

ملأنا البر حتى ضاق ذرعاً   وظهر البحر نملؤه سفينا

استهْلال
الجغرافية عِنْدَ العَرَب

جاء حين من الدهر أخذت فيها روح البحث العلمي في الخمود ، حينما فشل علماء الإغريق الوثنيون والآخذون بفلسفتهم بكسب رضى علماء المسيحية في عصورها الأولى ، ويعود فشلهم إلى أن بعض رعاة الكنيسة من أمثال القديس امبرواز (٣٣٠ ـ ٣٩٧ م) أخذوا يجهرون بأن دراسة الكون ووضع الأرض لن يفيد الإنسانية في تحقيق أملها في الحياة الآخرة ، وأدى ذلك إلى أن بدأ الكثيرون يعزفون عن الرغبة في المعرفة ويعتبر مثل هذه الأمور ضرباً من السحر ، واستمر الحال حتى القرن الخامس عشر فقد عانى كل من كوبرنيك (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) وغاليله (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢ م) الكثير من المضايقات من رجال الكنيسة[١] .

وكان الجغرافيون العرب أول من خرج على هذه المعتقدات ، وعادوا إلى بعث النظريات الإغريقية ، وربطوا بذلك بين العلم القديم والعلم الحديث ، واختلفوا عن الإغريق والرومان معاً ، فقد كان الأولون أصحاب ثقافة ، وكان الآخرون قوم حروب وفتوح ، أما العرب فقد قاموا بالعملين معاً ، وأسسوا إمبراطورية واسعة منظمة ترتكز على أسس وقوانين ثابتة وبنوا في الوقت نفسه حضارة عالمية[٢] لم تكتف بالحدود المحلية ، بل أخذت من الثقافات التي سبقتها في مصر

(١) الدكتور محمد محمود الصياد « فكرة الجغرافيا عند العرب » .

(٢) الحضارة الحقيقية ليست في الغاز . ولا في البخار ، ولا في الكهرباء بل الحضارة كما يقول بودلير هي في الكفاح ضد وحشية الغرائز ، والحضارة التي لا تكون أكثر من حضارة مادية هي حضارة بربرية . فاليونان والرومان كانوا من الشعوب المثقفة ، وهذا أمر مختلف جداً عن الحضارة . فالثقافة هي طلاء وليست أكثر من طلاء الحضارة .

=

والهند وفارس واليونان ، وحينما تم لهم فتح سورية الشمالية اتصلوا بالنساطرة ، وكانوا حينذاك سدنة العلوم القديمة ، والقوامين عليها ، فأكرموا مثواهم ونقلوا من علومهم ومعارفهم ما اتسعت له الحضارة الجديدة ، وما لم يتعارض مع التطور .

ولكي نتفهم الأدب الجغرافي[٣] عند العرب[٤] في العصر الوسيط ، يجب أن نصرف النظر ، مؤقتاً ، عن معظم الأفكار التي هي ثمرة الثقافة الحديثة . ومن المناسب أن نتخلى إلى حين ، عن التقسيمات التي طرأت على الجغرافية في أيامنا هذه ، والتي تقضي بأن نميز على حدة كلاً من الجغرافية الطبيعية ، والجغرافية البشرية ، والاقتصادية أو التاريخية أو السياسية . ومما لا ريب فيه أننا سنجد نظريات يقول بها العرب القدامى تقترب من أفكارنا الحديثة لدرجة يصعب تمييزها عنها . ولكن سنرى بالمقابل أنه من المناسب أن نشير إلى التباين بين مفاهيم الشرق في العصور الوسطى وبين مفاهيم الغرب الحديث ، أي إلى الاختلافات العميقة التي يبدو أنه من الأفضل ألا نحاول القيام بأية تقريبات تبدو مقسورة واصطناعية في أغلب الحالات ، وبالتالي قليلة الجدوى .

فإذا تركنا جانباً أفكارنا الحديثة ، وتعرضنا لدراسة الأدب الجغرافي عند العرب بصورة مباشرة ، فلن نتخلَّص أبداً من ظاهرة غريبة نوعاً ما ، وهي أنه لم

= وكانت الحضارة العربية هي التي ساهمت في أكبر قسط في تمدين العالم لأنها جعلت من السلطة المركزية شيئاً ذا حرمة . وجعلت من الطاعة لهذه السلطة أمراً مقدساً ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [النساء ٤ / ٥٨] وبذلك نفت وجوب أي طاعة للحكام الأجانب والمستعمرين . وأخيراً جعلت من نكران الذات ومن التضحية والإحسان شيئاً إلهياً ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ [التوبة ٩ / ٤١] و ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ [النحل ١٦ / ٩٠] .

(٣) من أجل التعرف على التطور الإجمالي للأدب الجغرافي راجع : بروكلمان في الموسوعة الإسلامية ، وكارادوفو Carrd de Vaux في كتابه Penseurs جـ ٢ ، ورينو Reinaud في كتابه « المدخل إلى جغرافية الشرقيين » ، وجرجي زيدان في « تاريخ التمدن الإسلامي » وأخيراً كراتشكوفسكي في كتابه « تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب » والجغرافية البشرية للعالم الإسلامي للأستاذ المستشرق أندريه ميكل .

(٤) لا نقصد بالعرب هنا عرقاً معيناً فحسب ، بل كل العناصر التي تبنت لغة العرب ، واتخذتها لغة تخاطب وكتابة .

يكن عند العرب ، حتى القرن السادس عشر ، عبارة « جغرافية » للدلالة على العلم الذي يدرس الأرض . فصفة « جغرافيّة » التي يستعملونها بالفعل أحياناً ، والتي اقتبست من اللغة الإغريقية ، شأن الكلمة المستعملة بالفرنسية والإنكليزية ، ظلت تعتبر في الشرق حتى العصر الحديث كلمة علمية « لا تجد في العربية أي كلمة مقابلة » كما لاحظ ذلك حاجي خليفة ، والتي لا تمثل الفكرة التي أخذها العرب أنفسهم عن هذا العلم ، بل تمثل فكرة الجغرافيين الإغريق ، ولاسيما فكرة الجغرافي بطليموس . وإذا كان الكتّاب العرب قد استعملوا صفة « جغرافيّة » فلا تكون مسبوقة بأل التعريف مما يدل على أنهم اعتبروا هذه الكلمة أجنبية . وقد استعملوا في حالات نادرة كلمة « جغرافية » كعنوان لمؤلفاتهم ، مثل محمد الزهري الأندلسي ، ولكن ذلك ابتداء من القرن الثاني عشر فقط . وقصد بها الزهري خارطة البلدان والطرق . ولعل إخوان الصفا هم أول من استعمل كلمة جغرافية للدلالة على علم خاص وذلك في رسائلهم المشهورة .

إذن ما هي الاصطلاحات التي استخدمها العرب للدلالة على العلوم الجغرافية ؟

إذا تركنا كلمة « جغرافية » جانباً ، وجدنا أربعة اصطلاحات وهي :

علم الأطوال والعروض ، علم تقويم البلدان ، علم المسالك والممالك ، وعلم عجائب البلدان . وعند أول تدقيق يتراءى لنا أن هذه العبارات الأربع لا تشير إلى الجغرافية بشكل عام بل إلى تقسيمات هذا العالم . فالعبارتان الأوليتان تشيران ، حسب مدلولها نفسه ، إلى دراسة جغرافية الكون « كوزموغرافيا »[٥] وعلم المصورات « كارتوغرافيا » وإلى تحديد عرض وطول المدن ، ولتقسيم الأرض إلى مناخات ، وإلى صنع قوائم تضم التضاريس الجغرافية والبلدان والمدن ، أي تشير باختصار إلى **الجغرافية الرياضية** .

---

(٥) Cosmographie : هي علم الحركات الفلكية للأرض والكون .

أما العبارتـان الأخيرتـان فتشيران ، على العكس ، إلى تقسيمـات فرعيـة من العلـوم الجغرافيـة . وهمـا على الرغم من استخـدامها في أبحـاث الكـوزمـوغرافيين الرياضيين ، والرحالة ، والمؤرخين ، ترميان ، بالأحرى ، إلى إلقاء نظرة إجماليـة على الأرض والعـالم ، بمعـزل عن الصبغـة التقنيـة جـداً ، وعن جفـاف الجغرافيـة الرياضيـة تلـك هي إذاً **الجغرافيـة الأدبيـة أو الوصفيـة** . ولكن الجغرافيـة المـذكورة تتعرض بـالواقـع ، وفي أكثر من مكان ، للريـاضيـات والفلـك ، ولكن ضمن الحدود التي تكون المعطيات المتوفرة فيها قابلة للصب في قالب أدبي .

وتتميز بجلاء عن الجغرافية الرياضية بالأهمية التي تضفيهـا على وصف الـدول من وجهة النظر الإدارية ، والتاريخية والاقتصادية ، وبالمكانة التي يحتلهـا وصف المجموعات البشرية المدروسة سواء من الناحية الخُلُقية والخَلْقيـة ، وبـالأهميـة التي تمنحها لعجائب الطبيعـة ، وللعـادات المستغربـة لـدى الشعوب البعيـدة ، وأخيراً بالرغبة الدائمة في إكسـاب المؤلفـات المتعلقـة بهـذا النمـط شكلاً لطيفـاً محببـاً جهـد الاستطاعة .

ومن الجلي أن من الممكن النظر إلى الجغرافيـة الـوصفيـة من وجهـة النظر الأدبية بحيث يمكن دراستها مثلما ندرس التاريخ . فهي وحدهـا التي أدت لظهور مـؤلفـات ، كان الاهتمام بـالأسلـوب ، والرغبـة في التـوجـه لجمهور غير مختص ، الدافعين اللذين جعلا المؤلفين مبسّطين أو كتّـابـاً وليسوا علميين تقنيين فحسب . وكما هو الحال بالنسبة لسائر المؤلفـات الأدبيـة ، فقـد اتخـذت الجغرافيـة الوصفيـة صوراً متباينة حسب الأزمنة وأمزجة الرجال الـذين انصرفوا إليهـا . إذن سيكون من المفيد دراسة الأنماط المتعاقبة التي اصطبغت بها خلال تطورها في الزمان .

بيد أن دراسة هذا التطور يصطدم بالواقع بعـدد من الصعوبـات . أولا لأن مؤلفات الجغرافية الوصفية التي وصلت إلينا ، لم تصل إلينـا ، عمومـاً ، إلا بحـالـة سيئـة نوعـاً مـا ، وذلـك على شكل نبـذات ، أو على شكل أجزاء متفرقـة إذ يجب الاحتياط قبل إصدار حكم على مؤلفـات جـار عليهـا الزمن . ومن جهـة ثـانيـة ،

عندما نرغب في التعرف على مجمل فروع الجغرافية الوصفية فإننا كثيراً ما نجد عملنا وقد عرقلته كثرة الثغرات : فهناك مؤلفات ، هامة جداً أحياناً ، قد اختفت ، أو لا تكون معروفة إلا عن طريق بعض النبذات الواردة في كتب أخرى أو عن طريق فقرات في مصنفات المؤلفين المتأخرين .

وأخيراً وما هو أكثر خطورة ، هو أن الجغرافيين العرب ، شأنهم شأن الجغرافيين الذين سبقوهم ، مثل سترابون ، لم يشعروا بضرورة حصر أبحاثهم في الجغرافية الوصفية التي ارتبط منهجها ، وخاصة في بداية ظهورها ، بعلم التعدين والنبات والحيوان ، مثلما ارتبط ارتباطاً وثيقاً بقصص الرحلات وبعلوم الشريعة واللغة ثم بالأدب الفني والفلسفة والاقتصاد ، الأمر الذي لم يحل بالطبع دون تشبعه بين آونة وأخرى بالجغرافية العلمية . إذن لن نتمكن أن نجد فيهم ممثلين للأدب الجغرافي إلا بعد أن نستبعد ، بصورة اتفاقية ، كل العلوم التي لا علاقة لها بالجغرافية ضمن مؤلفاتهم . ولكن يجب الإقرار بأن المنهج الثاني ، أي منهج الجغرافية الوصفية هو الذي يسترعي النظر بغزارة مادته وهو الغالب على الأدب الجغرافي العربي ، ويسبغ عليه طابعه المميز ، ويمنحه سيماءه الخاصة به ، مما يتعذر أن نجد مثيلاً له في آداب الأمم الأخرى .

أضف إلى ذلك أن تذوقنا وحبنا للوضوح سيحول بيننا وبين إدراك حقيقة الأمور ضمن تعقيدها الذي يبعث على الحيرة ، وبين ضرورة تصنيف كل شيء ؛ فهناك ضرورة لدراسة بعض المؤلفين بصورة مزدوجة ، أولئك الذين كانوا جغرافيين ومؤرخين بآن واحد كالمسعودي وابن خلدون ، أو البتاني الذي كان جغرافياً وفلكياً . الخ .

إذن من الجدير تعداد كل هذه المصاعب التي تجابهنا بالبدء لكي نشير إلى النتائج النسبية والمؤقتة التي يصل إليها اليوم من يتصدى لدراسة تطور هذه الجغرافية الأدبية .

☆ ☆ ☆

وكانت عناية العرب بالجغرافية وليدة ظروف البيئة إلى حد كبير فقد نشؤوا في وسط يحتم عليهم أن يلموا ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، بالمعلومات الجغرافية المختلفة ، فلم يكن بمقدورهم أن يقوموا بنجعاتهم السلمية أو حملاتهم الحربية في الصحراء والبوادي الشاسعة ، إلا إذا عرفوا شيئاً عن النجوم والكواكب ، التي تلمع في سمائهم الصافية الأديم ، يتخذون منها علامات ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ [النحل ١٦/١٦] . وما كان لهم أن ينتقلوا بإبلهم وأغنامهم ، وهي أثمن ما يقتنون ، إلا إذا عرفوا موارد المياه ومنابت الكلأ ، وعرفوا الوحش من حيوان البادية وأين يعيش .

وقد اشتملت أشعار العرب على الكثير من الحقائق الخاصة بوصف بيئتهم الطبيعية ، وبهذا أصبح الشعر العربي القديم مصدراً هاماً من مصادر الكتابات الجغرافية الأولى ، فهو غني بالأعلام الجغرافية من أودية وآبار وجبال وتلال .

وانتقلت هذه المعلومات من جيل إلى جيل على ألسنة الرواة ، فقد كانت رواية الشعر من أهم ما عني به العرب على مر العصور وكر الدهور ، ولذلك لم يكن غريباً أن نجد الجغرافية بين الفنون التي يعنى بها اللغويون .

وكان الأصمعي الذي عاش في القرن الثامن الميلادي ، وهو من نعرف من علماء اللغة ، من العارفين بجغرافية بلاد العرب معرفة المدقق الخبير ، وظلت هذه الصلة وثيقة بين الجغرافية واللغة حتى عصر متأخر . نجدها في معجم ياقوت وهو من كتب الجغرافية ، كما نجدها في تاج العروس للزبيدي وهو من معاجم اللغة .

وهكذا لم يكن من المستغرب أن يساهم العرب في تشييد صرح الجغرافية بالكثير من اللبنات ، حتى قبل أن يبدأ عهدهم بالجغرافية المنظمة التي تقوم على أساس علمي متين .

لقد كانت العلوم الجغرافية ، حسب مفهومنا الحديث ، نتاجاً متأخراً نسبياً

في الثقافة الإسلامية . فبينما كان لدى العرب بعض مؤرخي عصورهم Historiographes ، لم نجد لديهم أي مؤلف انصرف فقط وبصورة منهاجية لوصف مشهد الأرض الطبيعي . وكان علينا أن ننتظر حتى مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كي نجد لدى بعض التأريخيين chroniqueurs كالواقدي مثلاً (توفي في ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م) بعض أوصاف جزيرة العرب وهي أولى المحاولات الأدبية المطبقة على وصف العالم . وهكذا ظهرت الجغرافية في بداياتها ، عند العرب مثلما ظهرت عند القدامى ، شديدة الارتباط بالتاريخ وأحياناً كتابعة له . ترى تحت أي تأثير تمكنت أخيراً من الانفصال عنه دون أن تتمكن من ذلك تماماً ؟ هذا ما سنحاول دراسته بعد قليل .

عوامل ظهور الجغرافية عند العرب :

يجب علينا ، بادئ ذي بدء ، أن نكشف عن الأسباب العديدة التي استحثت همم العرب على جوب الأرض وعلى التبريز في تقويم البلدان ومسالك الممالك . فقد سبق أن رأينا ما حمل الأمم القديمة كالفنيقيين واليونان والروم على التوسع في معرفة الأرض والتنقل في البلدان بقصد التجارة والاستيلاء على البلاد والسياحة في الأمصار . ولكن العوامل التي دفعت بالعرب كانت أكثر تعقيداً وتنوعاً ؛ فمنها ما اختصوا بها دون سواهم ، لأن رسالة الإسلام التي حملها العرب كانت عالمية لا تختص بمكان ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٧] :

الأول : الدين : لقد كان العرب في فجر الإسلام ، يتلون آناء الليل وأطراف النهار كتاباً يحثهم على السير في الأرض ، والاعتبار بآثارها الداثرة ، وأممها الغابرة فقال : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم كانوا أكثرَ منهم وأشدَّ قوةً وآثاراً في الأرض ﴾ [المؤمن ٤٠ / ٨٢] وقال : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذان يسمعون

بها ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٦] وقال : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [الأنعام ٦ / ١١] .

كما تؤيد ذلك الأحاديث النبوية : عن أبي هريرة : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر ، وهو ميزان الأخلاق ، إن الله بالمسافر رحيم » ويروي أبو هريرة عن الرسول الكريم قوله : « اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل » « اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال » وقوله : « اللهم اطوِ لنا الأرض ، وهوّن علينا السفر » . وروى الطبراني في الأوسط عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : اغزوا تغنموا ، وصوموا تصحوا ، وسافروا تستغنوا » .

الثاني : الأقوال المأثورة والحكم :

قال الخليفة المأمون : « إنه لاشيء ألذ من السفر في كفاية وعافية ، لأنك تحل كل يوم في محلة لم تحل فيها ، وتعاشر قوماً لم تعرفهم » .

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه :

سافر تجد عوضاً عمّن تفارقه ... وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة ... لملّها الناس من عجم ومن عرب

ويقول أحد الأدباء : « السفر أحد أسباب العيش التي بها مقامه ، وعليها انتظامه ، والمسافر يسمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب . وقال أحد حكماء العرب : السفر يسفر عن أخلاق الرجال .

وقال بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه :

ألا خلّني أمضي لشأني ولا أكن ... على الأهل كَلاً إنّ ذا لشديد
تُهَيِّبُني ريب المنون ولم أكن ... لأهرب عما ليس عنه محيد
فلو كنت ذا مال لقُرِّبَ مجلسي ... وقيل إذا أخطأت : أنت رشيد
فدعني أجول الأرض عمري كله ... يُسَرُّ صديقٌ أو يُغاظ حسود

ومنذ خلافة أبي بكر الصديق نجد عبادة بن الصامت ، وهشام بن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، يذهبون إلى القسطنطينية في رسالة من الخليفة إلى قيصر الروم يدعوه فيها إلى الإسلام ، ويقول عبادة بن الصامت : وأقبلنا حتى أنخنا تحت غرفة هرقل ، فقلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى كأنها عذق سعفة ضربها الريح .

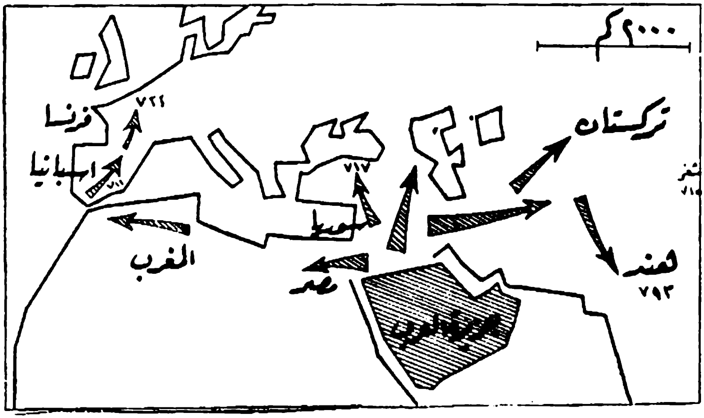
ولما لقوا قيصر سألهم : ما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، فالله يعلم أنه انتفض سقفه حتى ظن هو وأصحابه أنه سيسقط عليهم ... ثم دعاهم قيصر ليلاً وعرض عليهم صندوقاً فيه صور الأنبياء من آدم إلى محمد عليه السلام[٦] .

الثالث : الأمور السياسية :

وهنا يجب أن نحسب حساب الوضع الجديد الناجم عن الفتح . فقد اندفع العرب من جزيرتهم بقوة خارقة ، لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في عنفوانه ، لافتتاح الممالك والاستيلاء على البلاد وانتشروا في القارات الثلاث : آسيا وإفريقية وأوروبا . ففي النصف الأول من القرن السابع للميلاد التهب العرب حماسة بدين جديد ، وبهرهم أمل الفتح في سبيل الله ، فاندفعوا من جزيرتهم الجدباء كي ينتشروا من إسبانيا غرباً إلى الصين والهند شرقاً . وهذا الفتح إنما تمّ على أيدي عدد قليل من الرجال يتفق المؤرخون على أن عددهم لم يتجاوز المائتي

---

(٦) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ص١٤١ ـ ١٤٣

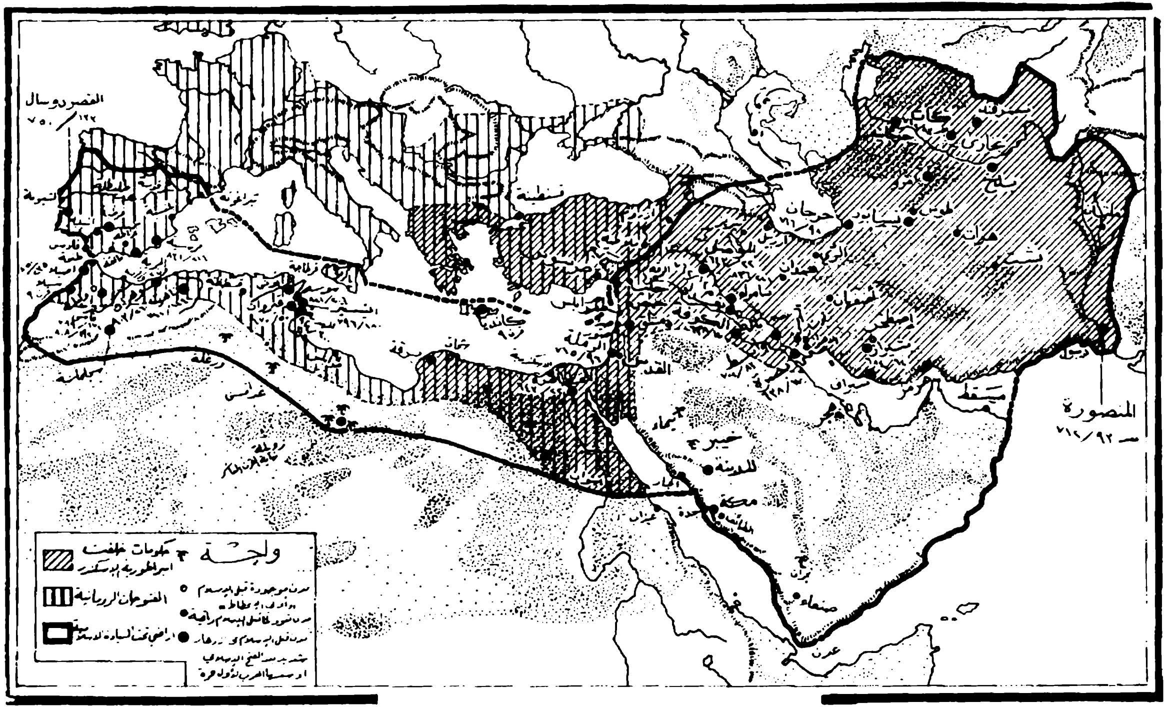


الشكل (٧)

الفتح بعدد قليل من الرجال . الفتح العربي في القرن السابع والثامن ميلادي عن ماكس ديّروو Derruau « جغرافية الصف الثاني الثانوي في فرنسا » .

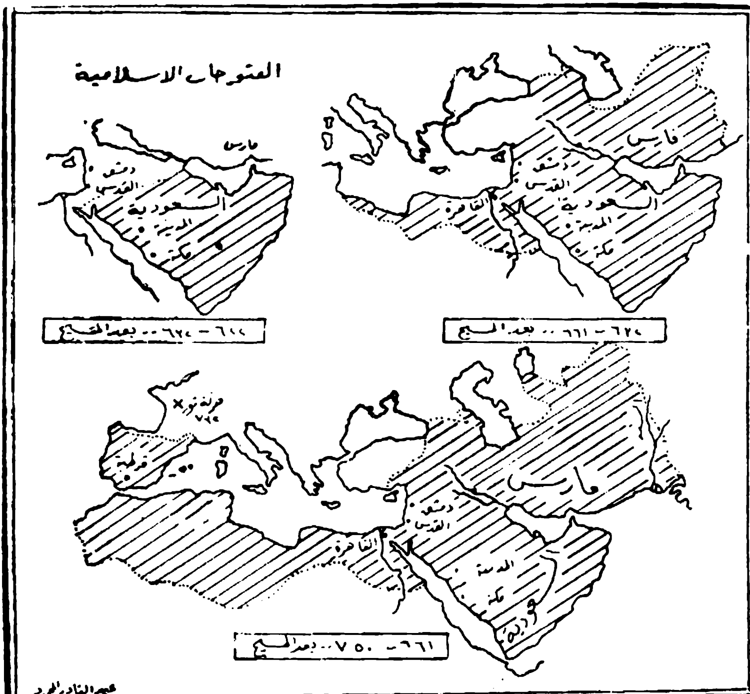
ألف بحيث لا يمكن تفسير دوافع هذا الفتح بعوامل مادية ودوافع اقتصادية بحتة ، لأن هجرات العرب بالماضي لم تكن تتجاوز نطاق الهلال الخصيب في أطراف بلاد الشام والعراق ، وهي الهجرات التي نجمت عن ضعف موارد الجزيرة الاقتصادية ، وسني القحط ، أو تهدم بعض السدود في اليمن كسد مأرب ، مع أن دوافعها المادية أقوى بكثير من دوافع الفتح العربي الإسلامي فيما بعد ، الذي كان فيه نشر الدين الجديد وهداية البشر هما الرائد الأساسي والرسالة السامية .

وهكذا استولوا على بلاد الشام والعجم والعراق ومصر بسرعة مذهلة ، وكسبوا معركة « ذات الصواري » البحرية على البيزنطيين عام ٦٥٤ م ، وفتحوا السند بقيادة محمد بن القاسم عام ٧١٣ م ، والأندلس بقيادة طارق بن زياد عام ٧١١ ، ووصلوا كاشغر في التركستان الصينية عام ٧١٥ م ، وحاصروا القسطنطينية بزعامة الصحابي أبي أيوب الأنصاري سنة ٧١٧ م ، واندفعت موجتهم حتى بواتييه



[الشكل ٨١) الامبراطورية الإسلامية في أواسط القرن العاشر]

حيث جرت موقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ م . وإذا عرفنا أن هجرة الرسول إلى المدينة المنورة كانت في ١٦ تموز ٦٢٢ م وانتقاله إلى جوار ربه كان عام ٦٣٢ م عرفنا أن هذا الفتح العظيم في خارج الجزيرة العربية ، وفي القارات الثلاث ، إنما تم في خلال قرن واحد من الزمن وأوجد العرب في أعقابه إمبراطورية لا يضاهيها في الاتساع إلا الإمبراطورية البريطانية في أواخر الحرب العالمية الأولى وهي التي استخدمت الأساطيل وكل مكتسبات القرن التاسع عشر والقرن العشرين من علم ومخترعات حربية جهنمية في سبيل تكوينها ودعمها .



الشكل (٩)

الفتوحات الإسلامية عن دزموند ستيوارت في كتابه العالم العربي « دار لايف » .

ويقول أبو دلف الخزرجي الينبوعي[(٧)] :

جفـــون دمعهـــا يجري   لطـــوب الصـــدّ والهجر
وقلب ترك الـــوجـــد   بـــه جمراً على جمر
لقـــد ذقت الهـــوى طعميـ   ـــن من حلـــو ومن مرّ
ومن كان من الأحرا   ر يسلـــو سلـــوة الحر
ولا سيما في الغربـ   ـــة أودى أكثر العمر
وشـــاهـــدت أعـــاجيبـــاً   وألـــوانـــاً من الـــدهر
فطـــابت بـــالنـــوى نفسي   على الإمســـاك والفطر
على أني من القـــوم الـ   ـــبهـــاليـــل بني الغرّ
فنحن النـــاس كل النـــا   س في البر وفي البحر
أخـــذنـــا جـــزيـــة الخلـــق   من الصين إلى مصر
إلى طنجـــة بـــل في كلْ   ـــلِ أرض خيلنـــا تسري
إذا ضـــاق بنـــا قطر   نـــزل عنـــه إلى قطر
لنـــا الـــدنيـــا بمـــا فيهـــا   من الإســـلام والكفر
فنصطـــاف على الثلـــج   ونشتـــو بلـــد التمر

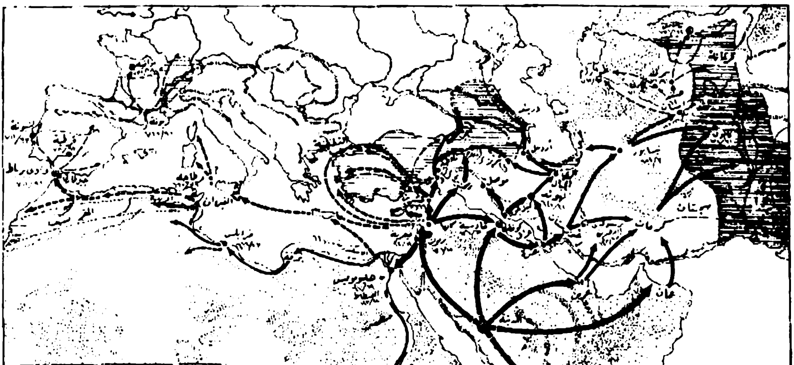
وهي القصيدة التي عارض بها أبو دلف الأحنف العكبري :

على أني بحمـــد الله في بيت من المجـــد
بـــإخـــواني بني ســـاســـا   ن أهـــل الجـــدّ والحـــدّ
لهم أرض خراســـا   ن فقـــاشـــان إلى الهنـــد
إلى الروم إلى الـــزنـــج   إلى البلغـــار والسنـــد

(٧) هو مسعر بن مهلهل . رحالة وشاعر وأديب . اتصل بالأمير الساماني نصر بن أحمد الذي أوفده إلى الصين حوالي سنة ٣٢١ هـ / ٩٤٢ م مع بعثة كان أحد الأمراء الصينيين قد أرسلها إلى البلاط الساماني ليخطب ابنة أمير بخارى . وقد زار أبو دلف بلاد الهند ، وآخر نقطة كانت تصل إليها السفن الإسلامية . وحتى عهد قريب لم نكن نعرف عنه شيئاً كثيراً سوى اتصاله بالصاحب بن عباد وزير بني بويه .

إذا مـــا أعـــوز الطرق ... على الطراق والجنـــــد
حـــذاراً من أعـــاديهم ... من الأعراب والكرد
قطعنـــا ذلـــك النهـج ... بـــلا سيف ولا غمـــد
ومن خـــاف أعـــاديـــه ... بنـــا في الروع يستعـــدي

وهكذا اندفع الشعب العربي بعد الإسلام إلى خارج الجزيرة ، وبلغ في عصر واحد تخوم المشرق والمغرب ، فعرف بلاداً كانت في قمة الرقي ، وأخذ عنها ، وأفاد منها ، فأدخل منها في حياته وملبسه ما أدخل ، ووقف عند مستوى حضاري رفيع ، ظل يرقى به ، ويحافظ عليه ، حتى تحدرت من حوله الأمم ، وفترت في الرقي منها الهمم . وما أشرق القرن الثامن الميلادي حتى كان للعرب ملك فسيح الرقعة ضمن إطار إمبراطورية حدودها تخوم الهند في الشرق والمحيط الأطلسي وجبال البيرينيه غرباً وجبال القوقاز في الشمال وصحارى إفريقية والمحيط الهندي جنوباً .



الشكل (١٠)

خارطة الفتوحات الكبرى بعد وفاة الرسول (٦٣٢) وفاة الرسول ﷺ (٧٣٢ ـ معركة بلاط الشهداء)

وأدى التوسع السياسي وقيام أخوّة روحية واسعة إلى زيادة أهمية المعلومات عن أطراف العالم الإسلامي ، وأصبح من الضروري معرفة الطرق التي تربط بين أجزاء هذه الدولة الفسيحة . أضف إلى ذلك أن كتلة عظيمة من الشعوب التي دانت للعرب بالسيادة ، واعتنقت الدين الحنيف ، ظلت حاوية على رواسب عرقية ودينية ، مما جعل العرب يستشعرون منذ وقت باكر ضرورة التعرف على أوضاع هذه الأمم التي حكموها ، والتي كانت بالبدء مصدر فضولهم ، ثم صارت فيما بعد مصدر تحسُّبهم بعد أن ذرت الحركات الشعوبية قرنها ، ولا سيما أن الإسلام ساوى بين الشعوب فيقول القرآن الكريم : ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات ٤٩ / ١٣] ويقول الرسول الكريم : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » . وكان العرب ولا زالوا أبعد الأمم عن الشعوبية و « الشوفينية » الضيقة .

وقد منح وصول السلالة العباسية إلى الحكم عام ٧٥٠ م هذه الرغبة اندفاعاً جديداً . فسرعان ما شعر الخلفاء الجدد أن السياسة الكسولة التي اتبعها أسلافهم الأمويون قد مضى زمنها ، كما أنه لم يعد من الممكن الاكتفاء بتبني الأنظمة الإدارية القديمة الموروثة عن الفرس والبيزنطيين ، والتي لم تتعرض لتطوير يستحق الذكر . وقد أدرك العباسيون ، المدفوعون بمزاجهم نحو السلطة المطلقة ، أن الإدارة يجب أن تخضع لتحول جذري ، أو على الأقل عليها أن تتواءم ، بصورة أدق مما كانت عليه بالماضي ، مع الأوضاع السياسية وأن تنسجم مع وضع الأقاليم الجغرافي . كما لاحظوا بجلاء أن عليهم ، إذا أرادوا الاحتفاظ بمختلف أجزاء امبراطوريتهم ، وإذا رغبوا في أن يحولوا بين الأقاليم النائية وبين الانفصال عن بقية ممتلكاتهم ـ كما هو القانون الذي لا محيد عنه في كل الدول الواسعة جداً ـ أن يقيموا ارتباطاً وثيقاً ودائماً بين أعضاء هذا الجسم الجبار الذي يحوي الكثير من عوامل التفكك .

وهكذا ظهر منصب صاحب البريد ، الذي كان يلعب دوراً هاماً في إدارة دفة سياسة الدولة ، لأن عليه أن يعرف كل الأوضاع السياسية في هذه الإمبراطورية ، وأن ينقل أنباءها إلى الخلفاء والملوك .

وقد منح العباسيون مصلحة البريد عناية وتنظيماً يتناسب مع أهميتها والدور الذي ينتظر منها أن تلعبه . وهكذا أصبح صاحب البريد من أكبر شخصيات نظام الخلافة . فكان يمركز في يديه كل وسائل الإعلام التي تسمح للسلطة المركزية بأن تكون على اطلاع بكل ما يجري في الإمبراطورية . ولكي يقوم بواجبه على أتم وجه ، كان عليه أن يحتفظ تحت يده دوماً بوثائق حديثة ، تتعلق سواء بوضع الأقاليم السياسي أو الضرائبي أو بالتنظيم الإداري البحت في مختلف مصالحه : كالمسافات بين المحطات والطرق ووسائل المواصلات المستعملة . وقد استفادت العلوم الجغرافية أجزل فائدة من تنظيم دائرة البريد هذه . وسنرى فيما بعد أهمية مصلحة البريد في ظهور الجغرافية الأدبية .

ثم إن مصالح الدولة ، التي أصبحت أكبر قوة عالمية لذلك العهد ، حالت دون اكتفائها بمعرفة أراضيها وحدها ، بل كان من الضروري أن تحصل على معلومات دقيقة عن الأقطار الأخرى والمجاورة لها خاصة . وقد ساعد على هذا الحرب والسلم معاً ؛ فقد أكثر الخلفاء والملوك من السفارات الدبلوماسية مثل :

سفارة عمارة بن حمزة الذي حمل رسالة من المنصور إلى ملك الروم ، ورحلة سلاّم الترجمان إلى سور الصين الشمالي بأمر الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) . ثم رحلة سليمان السيرافي ، وقد زار الهند والصين مراراً ، وكتب وصف رحلته عام ٢٣٧ هـ ، ولهذا الوصف ذيل ألفه في القرن الرابع الهجري مؤلف رحالة من سيراف اسمه أبو زيد حسن . وقد نشر هذه الرحلة المستشرق رينو عام ١٨٤٥ م .

والسيرافي هو أول رحالة مسلم يشير إلى الشاي الذي يشربه الصينيون كثيراً ويسمونه « ساج » وسفارة ابن فضلان رسول المقتدر إلى ملك البلغار .

وسفارة يحي بن الحكم الغزالي إلى بريطانيا من طرف عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس .

كما أتى الأسرى العائدون إلى أوطانهم بمعلومات مفيدة ، ولأحد هؤلاء ممن كانوا في أسر البيزنطيين ندين بأول معلومات حصل عليها العرب لا عن بيزنطة وحدها بل أيضاً عن جيرانها من الصقالبة وغيرهم من سكان جنوب أوروبا .

الرابع : التجارة وكسب العيش :

لقد استخدمت التجارة الطرق البرية والبحرية على السواء ، ونجم عن ذلك ربط أقاصي أراضي الخلافة بعضها ببعض ، فكانت هناك سوق مشتركة حقيقية ظلت قائمة حتى بعد تفكك هذه الإمبراطورية . بل إن التجارة تجاوزت تلك الحدود ، فجذبت إلى فلكها أواسط إفريقية وشمال شرقي أوروبا وجنوب شرق آسيا ، وهي التي ابتدعت شخصية السندباد البحري الذي ترتبط أسفاره بالأدب الجغرافي ارتباطاً أوثق مما كان يتصور البعض . وطبيعي أن يرحل كثير من المسلمين في طلب الرزق تطبيقاً لتعاليم القرآن الكريم : ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الجمعة ٦٢ / ١٠] . وحسبنا أن نشير في هذا الصدد إلى الخياط البغدادي الذي قابله ابن فضلان في إقليم الفولغا . ثم كان أعلام الفنانين ومهرة الصناع ينتقلون من إقليم إلى آخر لينتفع الأمراء بجهودهم ، أو كانوا يؤمرون بالسفر إلى بعض الأطراف النائية للاشتراك في الإنشاءات العمرانية الجديدة ، أو المساهمة في تجديد بناء أو زخرفة عمارة أو إنتاج التحف الفنية النفيسة .

ولذلك نبغ في الجغرافية كثير من تجار المسلمين مثل سليمان البصري وابن

حوقل الموصلي ، والبشاري المقدسي ، وياقوت الحموي . وقد أكثر الرحالة العرب من نقل كلام التجار وما رأته أعينهم . ويكفي أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التي عثر عليها في روسيا وفنلندة والسويد والنروج أو الجزر البريطانية .

الخامس : السياحة : هناك ميل غريزي عند العرب للبحث والاطلاع . ولذلك اتخذ كثير منهم من السياحة وسيلة للدراسة والوقوف على ما في البلاد الأخرى من عجائب وغرائب . فكانت السياحة في أكناف الأرض والنزهة في البلدان من أكبر عوامل إغناء المعرفة الجغرافية لديهم . وأكثر جغرافيي العرب هم السائحون ، مثل أبي إسحاق الإصطخري ، والشريف الإدريسي ، ومحمد بن علي الموصلي ، وابن عبد الله بن شداد ، وأبي محمد العبدري ، وابن الحسن المسعودي ، ومحمد بن جبير الكناني ، وابن بطوطة وغيرهم . ومما شجع على السياحة شعور العربي بأنه في بلده ما دام في ديار عربية بشكل خاص وإسلامية بشكل عام . وكان للعروبة هيبة في سائر دول العالم ، فكان العرب المسافرون يلقون من كرم الضيافة وحسن المعاملة ما يحبب إليهم الرحلات والأسفار . وكان العالَمُ العربي في العصور الوسطى يمثل دائما كتلة ثقافية وروحية واحدة على الرغم من المنازعات السياسية ، فكان الرحالة ينعمون بوحدة عربية شاملة ؛ فلا جواز سفر ، ولا تصريح ، بل ترحيب وأُخوّة بين أفراد الأمة الواحدة التي تكره التجزئة ، ولا تضن باحتقارها على الملوك والحكام الصغار كقول ابن رشيق الأندلسي :

مما يزهدني في أرض أندلس	أسماء معتمد فيها ومعتضد
أسماء مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

السادس : الحج : من فروض الاسلام الخمسة الحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً ، أي إذا ساعدت الظروف وكانت الطرق سالكة ، وهذا مما أتاح لبعضهم مشاهدة مناطق مختلفة وأقطار متعددة ، فتناولوها بالوصف

والتحليل فيما رووه أو كتبوه . وكانوا بذلك يعملون على أن ينفعوا المؤمنين بتجاربهم ، فيصفون رحلاتهم تسجيلاً لفضلهم وهداية لغيرهم . ولفتاً لنظر أولي الأمر على ما يجب إصلاحه توفيراً لراحة الحجاج . كما كان أهل الخير والتقوى في شتى البلاد الإسلامية يرحبون بإخوانهم المسلمين الميممين شطر الأراضي المقدسة ، ويعنون بإقامة الرباطات ، وحبس الأوقاف للإنفاق منها في سبيل راحتهم . وأكثر أهل الأندلس من هذا النوع مثل الكناني والعبدري والبلدي وغيرهم . وتفصيل ذلك كما قال ياقوت في مقدمته :

« ومن ذا الذي يستغني من أولى البصائر عن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها وضبط أصقاعها وتنقيحها ، والناس في الافتقار إلى علمها سواسية ، وسر دورانها على الألسن في المحافل علانية لأن من هذه الأماكن ماهي مواقيت للحجاج والزائرين ، ومعالم للصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، ومشاهد للأولياء والصالحين ، ومواطن سرايا سيد المرسلين » .

السابع : الاستكشاف : وحب الاطلاع على معرفة ما جهلوا عنه من الأرض ؛ مثل البعثات التي بعثها الخليفة الواثق لاكتشاف سواحل بحر الخزر وسد يأجوج ومأجوج ومدينة الرقيم ، وقيام الملاحين المدعوين بالمغرورين من لشبونة لاكتشاف مجاهل بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ، والبعثة التي بعثها الشاه شجاع من أبناء ملوك الهند لاكتشاف البلاد .

الثامن : طلب العلم : إن الإسلام يحث على طلب العلم وعلى تجشم المشاق في سبيله لقوله تعالى : ﴿ فلولا نَفَر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة ٩ / ١٢٢] وقد جاء في الحديث الشريف : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . فأصبح الارتحال في طلب العلم منذ القرن الأول للهجرة أشبه بالضرورة اللازمة لتكلمة « دورة الدراسة » .

ففي طلب العلم رحل الناس من الأندلس إلى بخارى ومن بغداد إلى قرطبة .

فكانوا يتنقلون في البلدان لأخذ العلم عن الشيوخ ، ولقاء جهابذة العلماء . فقلما نجد من العلماء الأول العظام من لم تلفظهم شدة شغفهم بالعلم إلى المرامي البعيدة والنواحي القاصية ؛ ومنهم الحافظ ابن طاهر القدسي (توفي ٥٠٧ هـ) الذي طلب العلم في العراق والحجاز ومصر وسورية وأصفهان والأهواز ، وأبو ريحان البيروني الذي دخل الهند قبل أن يفتحها المسلمون تماماً وأخذ عن البراهمة علومهم وبرع فيها ودونها في كتابه « عجائب الهند » .

ويجدر بنا أن نذكر عالم النبات الشهير بابن البيطار ، الذي ولد في مالقة ودفعه حب العلم ودراسة النباتات إلى ركوب متن البحار ، فسافر إلى بلاد الإغريق وأقصى بلاد الروم والمغرب ، وعاين منابتها وتحقق منها ، وعاد بعد أسفاره واتصل بالملك الكامل الأيوبي ، فقربه وأعلى مكانته وعينه رئيساً على العشّابين ، لما أنس منه سعة المعرفة في الأدوية والحشائش وخصائصها .. وتوفي بدمشق سنة ٦٤٦ للهجرة أي في سنة ١٢٤٨ للميلاد .

وكم نجد من علماء العرب من ركب ظهور المهالك لفائدة يكسبها أو صحيفة يطلبها . قال ابن حجر في مقدمته : « بلغ جابر بن عبد الله ، أحد أجلّة الصحابة ، أن عبد الله بن أنيس يروي عن رسول الله ﷺ حديثاً لم يبلغه ، فاشترى جملاً وركب من المدينة إلى الشام وأخذه عنه والشام على مسافة شهر من المدينة . وقد رحل أبو أيوب الأنصاري إلى مصر ليسمع حديثاً يرويه علي أمير المؤمنين في الكوفة . فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العملية تقوم مقام ما نصنعه اليوم من تتبع المراجع والمؤلفات التي تزدحم بها خزانات الكتب الخاصة والعامة . وفضلا عن ذلك ، فقد تعددت مراكز الثقافة في ديار الإسلام ، وكان رجال العلم ينتقلون في طلبه من إقليم إلى آخر ، يدرسون على مشاهير الأساتذة ويلقون أعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين والأطباء والفلاسفة والرياضيين .

التاسع : شدة افتقارهم في الأسفار البعيدة والرحلات النائية إلى تخطيط

الطرق والمسالك وتقدير أبعاد البلاد بالفراسخ والأميال كما فعل الذين ألّفوا في علم المسالك مثل ابن خرداذبة وصاعد بن علي الجرجاني وأبو زيد البلخي وأبو العباس السرخسي وأبو عبد الله الجيهاني .

العاشر : شدة رغبتهم في معرفة ما أودع الله الأرض والبحار والجبال من مدهشات العجائب ومكنونات الغرائب . كتب في ذلك كثير من أدباء العرب وجغرافييهم ؛ منهم شمس الدين الدمشقي وزكريا القزويني وعمر بن الوردي وأبو دلف مسعر وأحمد القرماني الدمشقي وابن الجزار وصاحب عجائب البلدان وغيرهم .

الحادي عشر : معرفة ماجاء ذكره في القرآن الكريم وكتب الحديث وأشعار العرب وأخبارهم ، من الأماكن والجبال والمياه والقفار والرمال والبلاد ، ومعرفة أنساب العلماء إلى البلاد . وقد صنف فيها كثير من الأدباء أكثرهم في الكلام على جزيرة العرب ، أمثال أبو عبيد البكري ، والزمخشري والسمعاني وابن عمر الأصفهاني وصفي الدين عبد المؤمن وياقوت الحموي .

الثاني عشر : الحاجة الفقهية إلى معرفة الأماكن والبلاد ، وهل فتحت صلحاً أو عنوة ليعرف الفقهاء حكمها في الجزية والخراج والفيء كما قال ياقوت : « ومن هذه الأماكن ماهي فتوحات الأئمة من الخلفاء الراشدين » .

الثالث عشر : قَدَّرَ الدين الإسلامي متاعب السفر ، فخفف على المسافرين بعض الواجبات الدينية في الصوم والصلاة ، مما سهل الرحلات وشجع على القيام بها . ومن المحتمل أن إباحة تعدد الزوجات في الإسلام كان تخفيفاً لبعض مشاق السفر ، ولا تجعل الرحالة محل شكوك أو مصدر متاعب اجتماعية . فكان بعضهم يتزوج في البلاد التي ينزل فيها فترة من الزمن . ومن الطريف في هذا الصدد أن الرحالة ابن بطوطة تزوج في مصر مرتين على الأقل ، وكانت له في جزيرة المديف ، في جنوب الهند ، أربع زوجات شرعيات .

ومن القصص الطريفة التي تشهد باتساع الأسفار الإسلامية قصة رواها الرحالة ابن بطوطة . وتشير إلى أن الرحالة العربي كان يعثر أحياناً في أقاصي أنحاء المعمورة على مواطن له من التجار أو السياح . فيذكر ابن بطوطة ، في كلامه عن إقامته في مدينة قنجنفو بالصين الشمالية ، كيف التقى بمواطنه قوام الدين السبتي ، مثلما صادف في دهلي أبا القاسم المرسي .

ولكن إلى جانب هذه المؤثرات يجب أن نترك مكاناً لمجموعة من المؤثرات البعيدة عن الأغراض المباشرة . وأهم هذه بالطبع هو تأثر الثقافة الإسلامية بمثيلاتها من الثقافات كالفارسية واليونانية وذلك ابتداء من القرن الثاني للهجرة (السابع الميلادي) . ففي عهد خليفة بغداد أبي جعفر المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) ابتدأ اطلاع العرب على العلوم الرياضية والكوزموغرافية . ويقال أن هندياً وصل إلى العراق سنة ٧٧٢ م ، وعرض مؤلفاً يبحث في علم الفلك الشرقي ، أعجب به المنصور إلى حد كبير ، فأمر أن يترجم إلى العربية كما أمر بتأليف كتب تنسج على منواله .

وهكذا انطلقت الحركة الأولى . وكان لغيره من الخلفاء العباسيين مساهمة مشكورة في تشجيع البحوث العلمية ؛ فأسس هارون الرشيد بيت الحكمة لترجمة أمهات الكتب ، وكان متسامحاً إلى أبعد حدود التسامح ، فاستخدم المترجمين من كل البلاد دون نظر إلى جنسياتهم أو عقائدهم . وبلغت النهضة أوجها في عصر ولده المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) الذي راح يجمع الكتب من كل جهات العالم دون النظر إلى ثمنها ، وعمل خاصة على جمع مؤلفات يونانية كلفته الكثير من الأموال ، وفي عهده اشتد تذوق العلماء للدراسات الإغريقية لدرجة كبيرة ، وكان فيما يقال يدفع للمترجمين عَدْل كتبهم ذهباً ، وبلغ من شغفه بالعلم والعلماء أن يعرض على إمبراطور بيزنطة صلحاً دائماً ومبلغاً ضخماً من الذهب مقابل أن يرسل إلى بغداد واحداً من العلماء .

ولم تكن غالبية هؤلاء التراجمة بالواقع من العرب أو من المسلمين بل من الآراميين النصارى الذين يعرفون اللغة اليونانية والسريانية واللغة الرسمية الجديدة بآن واحد . وهناك من يجنح إلى الاعتقاد أن المؤلفات اليونانية لم تترجم مباشرة إلى العربية بل عن طريق الترجمات السريانية . وكان من بين هذه الكتب المترجمة في ذلك الوقت كتابي بطليموس ومارينوس الصوري[٨] .

ومن المرجح أن الجغرافية الرياضية كانت المستفيدة الأولى من هذه المؤثرات الجديدة ، ولم تلبث أن أخذت شكلها النهائي في أسرع وقت . ولا نرى الآن ضرورة لتتبعها في مراحل نموها وتطورها . ولكن يجب على كل حال أن نشير إلى أن أبحاث هؤلاء الفلكيين الجغرافيين في ذلك العصر ، كالخوارزمي والفرغاني ومن بعدهما البتاني ، هي التي دعمت الجغرافية الأدبية بكل معلوماتها الواسعة عن رسم الكون « الكوزموغرافيا » .

ولكن لا يجوز الاكتفاء بالإشارة إلى التأثير العلمي للهند واليونان ، بل يجب أن نضيف إليه أثر الرحالة الذين كانوا يجوبون أرجاء المناطق الواقعة خارج نطاق الإمبراطورية الإسلامية ، براً وبحراً ، وينقلون معهم روايات أسطورية أحياناً ، ومعلومات تحولت تحت تأثير خيالهم ، عن مناظر مختلفة ، مستغربة ، عجيبة وغير مفسرة ، رأوها في هذه الأصقاع التي كان اسمها مجهولاً من سواد الناس حتى عهد قريب . وقد بلغ بعضهم الدقة والتوفيق حين سجل ما رأى ، ونقد ما سمع . وفشل بعضهم في جمع كل ما طرق سمعه من أخبار لا يكاد العقل يصدقها . وهذا التأثير جدير بالاهتمام . فقد كان عميقاً ومستديماً لأنه يمثل بالنهاية إحدى أعمق الرغبات جذوراً في قلب الإنسان : أي تذوق كل عجيب

---

(٨) مارينوس الصوري Marin de Tyr نسبة إلى صور . وهو جغرافي روماني ظهر في نهاية القرن الأول الميلادي ويعتبر من مؤسسي الجغرافية الرياضية . وقد ألف مارينوس كتاباً في الجغرافية ووضع خارطة للعالم سنة ١٢٠ للميلاد تستند إلى معلومات جغرافية فينيقية (كنعانية) . ويرى رولنسون أنه كان أول كاتب في الجغرافية اتخذ الطريقة الرياضية في صنع الخرائط المعتمدة على خطوط الطول والعرض وعليه ارتكز بطليموس .

فضلاً عن أثر جاذبية المجهول . ولكنهم على كل حال ، كانوا صورة لما يدور في حلقات العلم والمعرفة لعصرهم من آراء ومعلومات وأخبار ، قد نقف أمام بعضها موقف الشك والنقد ، بعد عشرة قرون أو تزيد ، وقد توفرت لنا سبل عديدة لم تكن متوفرة لدى أبناء ذلك الزمان ، فأصبح رسم الدروب والمناطق ووضع الخرائط والمصورات بحثاً علمياً مستقلاً في أبعد حدود الرقي ، وغدت الرحلة والتنقل والمشاهد على أيسر ما يستطيع الإنسان أن يفعل ، ولكن الفضل أبداً للمتقدم ، والموازنة المنصفة تقتضينا أن نذكر ما بين زمانهم وزماننا من وسائل ووسائط وطرق .

وسيكون من خطل الرأي الاعتقاد بان هذه المؤثرات المختلفة ، كالضرورات السياسية والإدارية ، والتوسع في الدراسات الإغريقية والهندية والفارسية ، والمنقولات من الأقطار الأجنبية ، قد لعبت دورها كلاً على حدة وبصورة متتابعة . بل الحقيقة هي أنها مارست عملها جميعاً بآن واحد . ولكن يبدو أن عمل كل منها لم يكن مستمراً بالدرجة نفسها ، ولا بالعمق نفسه . والتعرف على مجريات الأمور هذه يسمح لنا منذ الآن بالتوصل إلى النتيجة المتوقعة . ونظراً لتوقف بعض المؤثرات عن العمل في بعض العصور ، فإنه سيكون من الممكن تمييز عدة حقب في تطور الجغرافية الأدبية . وبما أن هذه المؤثرات المذكورة قد تبدلت من حيث أهميتها ، من جهة أخرى ، فسيكون من السهل علينا أن نستشف أنماطاً مختلفة بالتالي .

وهكذا ظهرت الجغرافية الفلكية على شكل مؤلفات في (علم الأطوال والأعراض) أو (علم تقويم البلدان) . أما الجغرافية الوصفية فقد أطلق عليها اسم (علم المسالك والممالك) في حين أطلق (علم البرود) على الأبحاث التي تبحث في مراحل الطرق بشكل خاص . أما وصف الكون أو « الكوزموغرافيا » وما يصحبه عادة من عجائب وغرائب فقد أطلقت عليه تسمية « علم عجائب البلدان » .

ولا تقل أهمية التعرف على تطور أنماط الجغرافية العربية عن معرفة مصطلح التسميات الآنفة الذكر ، نظراً لتنوع هذه الأنماط في أسلوب البحث والأهداف .

وقد كان هذا التطور الذي سندرسه كما يلي :

١ ـ ظهور الجغرافية الأدبية في القسم الثاني من القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الهجري أو الثامن والعاشر ميلادي .

فقبل القرن التاسع لم تكن هناك مصنفات جغرافية قائمة بكل معنى الكلمة ، إنما نجد بين حين وآخر معلومات جغرافية متفرقة ضمن كتب الأدب . وقد رأينا أن القرن التاسع كان عصر ازدهار الترجمة ، إذ تمكن العرب خلاله من الاطلاع على أفكار بطليموس ومارينوس الصوري . ومع ظهور هذه الترجمات وتداولها بدأت سلسلة الجغرافية العلمية التي سرعان ما تبعتها أنماط متعددة للجغرافية الوصفية . وفي أواخر هذا القرن أخذت تظهر الوجيزات الجغرافية لفائدة كتاب الدواوين والتي أصبحت بعد قليل في متناول رجال الأدب ومن ثم عامة الناس . وفي نهاية هذه الفترة تنوعت أوصاف الرحلات فساد في بعضها الطابع الواقعي في حين احتفظت الأخرى بالعنصر القصصي .

٢ ـ ازدهار المؤلفات من النوع المبسّط (القرن الرابع ـ السادس هـ / العاشر ـ الثاني عشر م) .

ففي القرن العاشر بلغ الأدب الجغرافي ذروته ، وذلك على أثر ظهور مؤلفات من نوع المسالك والممالك ، أي بظهور المدرسة التقليدية للجغرافيين العرب ، التي كانت على صلة وثيقة « بأطلس الإسلام » الذي يمثل قمة علم المصورات عند العرب ، أو علم الخُرَط . كما حظي التبسيط الجغرافي بمجال رحب لدى الجمهور الذي أقبل عليه بشغف ، وتعددت مناهج وصف الرحلات . وإجمالاً يمكن القول بأن القرن العاشر كان عصر تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية .

وفيه قال العرب بكروية الأرض وكان أكبر المدافعين عن هذه النظرية أبو عبيدة مسلم البلنسي في القرن العاشر . وقد حافظ العرب على هذه النظرية حتى عصر الاكتشافات . ونقل مؤلف لاتيني عنهم سنة ١٤١٠ م فكرة (الارين) التي أخذوها عن الهنود .

٣ ـ وكان التطور الختامي لأنواع المصنفات الجغرافية في نهاية القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي والقرون التالية : ففي هذه الفترة ظهرت المعاجم الجغرافية والمؤلفات الكوزموغرافية والجغرافية العالمية . واحتلت الموسوعات التاريخية والجغرافية مكانة هامة أيام المماليك في مصر . وأخيراً كثرت أقاصيص الرحالة الجغرافيين . وبدءاً من عصر الانحطاط ينتهي الطور الإبداعي في الأدب الجغرافي العربي ، الذي أصيب بالعقم فيما بعد ، فلم ينتج أي صور جديدة ، بل اكتفى بمحاكاة الأنماط السابقة ، عدا بعض التعديلات الطفيفة في المضمون انسجاماً مع متطلبات العصر الذي كتبت فيه . واستمرت الحالة على المنوال نفسه حتى في أيام العثمانيين .

٤ ـ الحقبة العثمانية : وفيها بدأ الاحتكاك بالجغرافية الأوروبية الحديثة والاكتشافات الجغرافية الكبرى .

٥ ـ النهضة الجغرافية الحديثة : وقد ابتدأت في مصر التي استفاقت من سباتها على مدافع نابليون وظهور أسرة محمد علي . وظهرت عدة مؤلفات في الجغرافية الرياضية والرحلات ولا سيما في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي ومطلع القرن العشرين .

نقد الأدب الجغرافي عند العرب (عن كراتشكوفسكي) :

ويجب منذ البداية ملاحظة الاتساع الهائل في مدى المعلومات الجغرافية لدى العرب عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم ، فقد عرف العرب أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شماليها ، وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا كما عرفوا إفريقية

الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمالاً ، وساحل إفريقية الشرقي إلى رأس كرينتس قرب مدار الجدي ، وترك لنا العرب وصفاً مفصلاً لجميع البلدان من إسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقاً ، مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة وللمناطق المزروعة والصحاري ، وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة وأماكن وجود المعادن . ولم يجتذب اهتمامهم الجغرافية الطبيعية أو الظروف المناخية فحسب ، بل أيضاً الحياة الاجتماعية والصناعة والزراعة واللغة والتعاليم الدينية . كما لم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان . ومعرفة الأخيرين بالبلاد الواقعة إلى الشرق من بحر قزوين كانت ناقصة ، كما لم تكن لديهم أي فكرة عن الساحل الشرقي لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية . هذا ، بينما عرف العرب طريق اليابس الذي يرتفع إلى أعالي نهر ارتيش ونهر ينيسئي . وعرفوا سواحل آسيا إلى كوريا شمالاً ، ولا يزال موضع شك معرفتهم المباشرة باليابان ، ولو أن ذكرها ظهر في الآونة الأخيرة على مصور جغرافي وضعه لغوي تركي ببغداد في القرن الحادي عشر ، ومن المحتمل أنه قد حصل على معلومات بشأنها في آسيا الوسطى التي عرفها جيداً . أما عن طريق البحر فمن الثابت أن العرب لم يبلغوا اليابان .

١ ـ **والعيب الأساسي للأدب الجغرافي العربي هو في خضوعه للنظريات** العلمية الموروثة عن الأوائل ، على الرغم من أن تجارب العرب العلمية كثيراً ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها ، بل حتى إلى صرف النظر عنها ، أضف إلى هذا أن نظرياتهم العلمية لم ترق إلى مستوى تجربتهم العملية . فهم على غرار اليونان قد ظنوا أن المعمور من الأرض هو ربعها فقط وذلك في النصف الشمالي منها وهو ما عرف باسم « الربع المعمور » .

٢ ـ **كما اعتنقوا الرأي القائل باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة** أو القاسية البرودة ، وإن كان اعتناق اليونان أو أوروبا الوسيطة لهذه

النظرية الأخيرة له ما يبرره في عدم إلمامهم بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء ، فإن العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيداً تلك الجهات من إفريقية مثل زنجبار ومدغسقر ، حيث رأوا رأي العين عدداً من المراكز المأهولة ، وعلى الرغم من هذا فقد استمرت هذه النظرية العقيمة عائشة بين ظهرانيهم دونما أدنى تعديل .

٣ ـ **وهذا الإجراء نفسه قد ظهر بوضوح** في تمسكهم بالرأي القائل بوجود سلسلة جبلية تنتظم الأرض من الغرب إلى الشرق ، وبالرغم من أن هذه الفكرة تتعارض تعارضاً تاماً مع ما شاهدوه من واقع الأحوال .

٤ ـ وتحت تأثير الأفكار المسيحية الأولى لم يكن من النادر أن تقابلنا لديهم الفكرة القائلة بأن **الأنهار الكبرى تنبع من الفردوس** ، على الرغم من أنه كثيراً ما كانت هذه الأنهار معروفة لديهم من منبعها إلى مصبها تقريباً .

٥ ـ وثمة تأثير عاق تقدم العلوم لوقت ما ؛ **كانت نظرية** تقسيم المعمورة إلى **سبعة أقاليم** ، وهي أحزمة عريضة مرتبة من الجنوب إلى الشمال في موازاة خط الاستواء ومبتدئة منه على وجه التقريب . هذا التقسيم وضعه اليونان على أساس الطول النسبي للنهار والليل أو ميل الشمس على خط الاستواء (باليونانية Klima) ، وكانت عروض الأقاليم تتفاوت ، بحيث يختلف أطول أيام السنة بمقدار نصف ساعة من إقليم إلى آخر ، هذا وقد اكتسبت نظرية « الأقاليم » انتشاراً واسعاً سواءً في الشرق العربي أو في أوروبا الوسيطة ، غير أن الوحدة التامة في التقسيم لم تراع ، كما وأن التباين في عروض الأقاليم بلغ حداً ملحوظاً نتيجة لعدم الاتفاق حول درجات العرض الفاصلة بين كل إقليم والذي يليه . هذا البون الشاسع بين النظرية والواقع قد ترك أثره في الكارتوغرافيا العربية أيضاً ، فهي وإن تمكنت في القرن العاشر ، أي عصر ازدهار علم الجغرافية ، من أن تبرز إلى الوجود « أطلس الإسلام » الطريف المنظم ، إلا أنها عجزت بالتالي عن إنتاج

ما يشبهه ، ولو على شكل مصورات جغرافيـة منفردة ، بحيث لم يجد اتسـاع أفق المعلومات الجغرافية انعكاساً كافياً في المصورات الجغرافية المتـأخرة التي كانت مجرد تقليد للنماذج السابقة ، بل أحياناً تكراراً حرفياً لها .

مجال الجغرافية العربية والتجارة :

أدت مشاريع العرب التجارية إلى ارتياد منـاطق مجهولـة حملتهم إلى أطراف المعمورة ففتحوا طرقـاً تجـاريـة جـديـدة . ولم يزدهم اطلاعهم على كتب اليونـان والهنود والرومان الجغرافية إلا رغبة في الاستكشاف ، وبذلك كانت حركة التوسع التجاري مصحوبة بالاكتشافات الجغرافيـة ، وأصبحت الكتب الجغرافيـة العربيـة من أهم الآثـار الأدبيـة والعلميـة التي خلفتهـا العصـور الـوسطى . ففي القـارة الإفريقية أخذ العرب يتوغلون في المناطق الصحراوية بعد أن فتحوا أقطار الشمال الإفريقي كلـه . ولم يـأت القرن الرابع الهجري إلا وكانوا قـد بلغوا بحيرة تشـاد في إفريقية الاستوائية . وكانت المدن الثلاثة التي تنطلق منها الطرق إلى قلب القـارة طرابلس الغرب في الجهـة الشرقيـة من السـاحـل المغربي والقيروان في الـوسـط ، ومراكش في الغرب . وكانت المدينة الأخيرة تتصل بمدينة تومبوكتو على النيجر . وكانت تستغرق رحلة القوافل بين التشاد والسـاحل تسعـة شهور . وكانوا يحملون من تلك البلاد التبر والجلود والعـاج وريش النعـام ويـأخـذون إليهـا الملح والتمر والمرجان والحرير والسكر والتوابل ، وكذلـك توسع العرب على سواحل إفريقيـة الشرقية وأسسوا مدينة مقديشو في الصومال ، وممباسا في سـاحل كينيـا ، وبمبـا في جزر زنجبار وموزامبيق . وكانت جزر البحرين وعـدن والجزر الموجودة قرب مضيق بـاب المنـدب مثل سـوقطرة قـواعـد انطلقـوا منهـا في حركاتهم التـوسعيـة السلميـة . وقـد عرف العرب روديسيـا أو زيمبـابوه الحـاليـة ولامسـوا جـزيرة مدغسكر .

أمـا في آسيـا فقـد توسع العرب عن طريق البر والبحر . ومن أهم طرقهم إلى

أواسط آسيا طريق خراسان العظيم الذي يبدأ بمدينة بغداد ، ومنها يجتاز جبال زاغروس إلى كرمنشاه ، فالري ، ثم يجتاز البوادي إلى نيسابور وطوس ومرو ومنها إلى بخارى وسمرقند فحدود الصين عند كاشغر . وأهم فروع هذا الطريق كانت عند مرو أو سمرقند حيث يذهب فرع إلى الجنوب الشرقي حتى يصل الهند عن طريق بلخ وكابل . ومنذ القرن الثامن ميلادي بدأ العرب يترددون على الصين واتسعت علاقاتهم بها في عهد نصر بن أحمد الساماني الذي كانت علاقاته حسنة مع ملوك الصين .

وإذا تقيدنا بالوثائق التاريخية المثبتة وجدنا أن العرب والمسلمين كانوا يعدون بعشرات الألوف في موانئ الصين في القرن التاسع الميلادي وقد دخلوها من مرفأ كانتون أو من مرفأ خانفو . وفي عام ٨٧٨ م قام الصينيون في كانتون بثورة على الأجانب ، قتل فيها نحو ١٢٠ ألفاً من العرب والمسلمين ، ويقدر المسعودي في مروج الذهب أن عدد الذين ذهبوا ضحية هذه الثورة بلغ مئتي ألف شخص . ولكن هذه الثورة لم تكن إلا غمامة ، سرعان ما انقشعت ، فعاد التجار العرب إلى سابق نشاطهم ورخائهم ، بل ازداد عدد الموانئ التي استقروا بها في جنوب شرق آسيا عامة وفي الصين خاصة ، ولم يأت القرن العاشر حتى استحوذوا على أغلب تجارة تلك البلاد ، وحتى أصبحت السفن الصينية ذاتها يقودها ربابية من العرب ، وتركزت التجارة في أيدي عائلات كبيرة آلفت ما يشبه الشركات في أيامنا هذه .

ويقول الجغرافي ابن حوقل الذي عاش في النصف الثاني من القرن العاشر أنه قابل في البصرة تاجراً اسمه أبو بكر أحمد السيرافي يملك ، على حد قول ابن حوقل ، كل السفن التي تنقل البضائع إلى الهند والصين وإفريقية الشرقية ، وتغص مخازنه بالأحجار الثمينة والعطور الغالية والحرير ، ويبلغ مجموع ثروته على ما يزيد على ثلاثة آلاف دينار (ثلاثة ملايين) وهو مبلغ ضخم جداً في

ذلك العصر بل في زمننا هذا . وكان المسلمون في الموانئ الصينية يتمتعون بكامل الحرية في أعمالهم وشؤون دينهم ودنياهم . ولهم قاض ينظر في أمورهم باسم إمبراطور الصين الذي يمثله في الموانئ موظفون يتقاضون رسوماً عن البضائع المستوردة والمصدرة . وكان للمسلمين أحياء خاصة أو ضواحٍ منفصلة عن المدن يقيمون فيها كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة في رحلته .

وهكذا نرى أن الطرق البحرية كانت الطرق الرئيسية التي سلكها العرب للوصول إلى أقطار الشرق الأقصى . فقد قصد العرب ساحل مالابار في الهند ، ومنه إلى سيلان ، ثم تابعوا سيرهم عن طريق خليج البنغال إلى جزر أندونيسيا ، فأسسوا جاليات قوية في سنغافورة وكليمنتان وجاوه وسومطرة حتى الصين كما أسلفنا . فقد زار ماركو بولو جزيرة سومطرة سنة ١٢٩٢ م ووجد هناك مسلمين عرباً . ولكن الأوروبيين لم ترسخ أقدامهم في الملايو إلاّ في سنة ١٥١١ م وكانوا في البدء من البرتغاليين الذي ناصبوا العرب والمسلمين العداء . وكان ديجو لوبيز دي سكويرا قد زار ملقا سنة ١٥٠٩ م . ولكن أهلها العرب (المغاربة كما يدعوهم) أحبطوا مساعيه في المتاجرة .

وبعد ذلك بعامين ثأر الفونسو البوكيرك باستيلائه على ملقا وانتزاعه إياها من أيدي العرب والملاويين ، فظلت مدة ١٣٠ سنة مركز السلطة البرتغالية هناك . ونتيجة لازدهار التجارة العربية ازدهر ميناء عدن بشكل منقطع النظير لدرجة دفعت بالمقدسي إلى أن يسميها دهليز الصين ، لأنها كانت تلعب دور عقدة مواصلات بحرية بين الهند والصين ومصر وبين إفريقية وبلاد العرب .

هذا وتوسع التجار المسلمون كذلك في أوروبا ، فدخلوا بلاد الروس حتى أصبحت استراخان وكييف وموانئ البحر الأسود مألوفة لديهم . وكانوا يستبدلون بضائع البلاد الجنوبية التي يأتون بها كالفواكه المجففة والأفاوية والأقمشة والخمور والعطور ببضائع البلاد الشمالية كالرقيق والفرو والجلود والعسل والشمع

والأخشاب والقنب . ووصل بعض التجار إلى براغ وكانت أكبر سوق للرقيق في أوروبا .

وذكر الطرطوسي الذي زار ألمانيا في القرن العاشر في عهد أوتو الكبير أنه شاهد الحرائر الشرقية والتوابل تباع في مدينةماينس Mayence على الرين . ووجدت نقود إسلامية وأكثرها سامانية في أعالي نهر الفولغا وعلى سواحل البلطيق وخليج فنلندا وجزر الدانمرك وجنوبي النروج وفي روسيا والسويد .

وكان العرب يقطعون البحر الأبيض المتوسط في طوله في مدة ستة وثلاثين يوماً ، من أقصى الغرب إلى سلوقية (السويدية) في الشرق ، وهي أهم ميناء تجاري في بلاد الشام ، بينما كانت صور الميناء الحربي الإسلامي المواجه لبيزنطة . وكان على الذي يريد أمراً في هذا البحر في القرن العاشر الميلادي أن يكسب صداقة العرب وودهم كما فعل تجار نابولي وأمالفي في إيطاليا .

وهكذا تمكن العرب في العصور الوسطى من الوصول إلى مناطق قاصية في العالم القديم الذي أصبح قسم كبير منه تحت نفوذ الدولة العربية وحضارتها . وكان التجار المسلمون أينما وجدوا يحملون معهم ديانتهم ولغتهم ، حتى إن الإسلام انتشر في داخل القارة الإفريقية ، وعلى سواحلها الشرقية والغربية ، وكذلك في الهند والجزر الأندونيسية وقسم من الصين . وانتشرت اللغة العربية وشاع استعمالها حتى احتلت في بلاد إفريقية وآسيا المنزلة التي احتلتها اللغة الإنكليزية فيما بعد . وشبه أحد مؤرخي العصر الحاضر العرب بالإنكليز اليوم في نشاطهم التجاري وسماهم : « إنكليز العصور الوسطى » ، وقال : إن التاريخ لم يعرف إمبراطورية بلغت اتساع إمبراطوريتهم سوى الإمبراطورية البريطانية في النصف الأول من القرن العشرين . وكلاهما إمبراطوريتان تجاريتان[٩] .

---

(٩) آدم متز جـ ٢ . وجرجي زيدان في تاريخ التمدن الإسلامي . والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي في القرون الوسطى لمؤلفه J. W. Thompson نيويورك ١٩٢٨ . و W. Heyd في كتابه « تاريخ تجارة الشرق في العصر الوسيط . باريس ١٨٨٥ » .

تَطور المدرَسَة الجغرافية عِندَ العَرَب[1]

الحقبة الأولى

من (٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) إلى (٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م)[2]

١ ـ ظهور الجغرافية الأدبية : النطان المبسّطان .

أ ـ الوجيزات التي يستعملها كتاب الدواوين : إذا كانت المحاولات الأولى في الجغرافية قد ظهرت بشكل متواضع جداً ، كما رأينا في مطلع القرن الثالث هـ / التاسع م فيجب أن ننتظر مدة نصف قرن آخر كي نشهد تكوُّن الجغرافية الأدبية بكل معنى الكلمة . وهكذا نجد ، ولأول مرة بالواقع ، كتاباً ، ليس له علاقة تستحق الذكر بالتاريخ ، يتصدى لدراسة مشهد الأرض الطبيعي بشكل خاص . هذا الكتاب من تأليف ابن خرداذبة المتوفى عام ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م ويحمل عنوان « كتاب المسالك والممالك » ذلك العنوان الذي اعتمده الكثيرون فيما بعد .

وبعد بضعة أعوام تلت وفاة ابن خرداذبة ، وعلى كل بعد عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ، ألّفَ ابن رستة ، المولود في أصفهان ، كتاباً موجزاً لفائدة أمناء سر الخلافة أو كتاب الدواوين دعاه « الأعلاق النفيسة »[3] . وقد كان هذا المصنف كما يظهر أكثر اتساعاً وشمولاً بكثير من كتاب ابن خرداذبة . وبعبارة أخرى كان

---

(١) اعتمدنا في هذا الباب على كتاب بلاشير « الجغرافيون العرب في العصر الوسيط » .

(٢) من المعلوم أن هذه التواريخ تقريبية جداً ونذكرها كنقاط ارتكاز تاريخية لا أكثر .

(٣) الأعلاق : الحلي والمجوهرات .

عبارة عن موسوعة تشتمل على كل المعلومات التي يجب أن يحيط بها كاتب ديوان كفء ، أو نوعاً من مذكرات تبحث في العلوم والتاريخ والأدب والجغرافية . ولم يصلنا سوى قسم منه ، وهو السابع ، الذي يختص بالجغرافية فقط .

وأخيراً ، وبعد بضعة أعوام من وفاة ابن رستة ، كتب موظف آخر من سكان بغداد ، هو قدامة ، المتوفى بعد عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، موسوعة أخرى تماثل في روحها وأسلوبها موسوعة ابن رستة تماماً . ولا نعتقد بوجود انتحال لأن قدامة ، كما يرجح الكثيرون ، لم يطّلع على كتاب سلفه ، وفي حالة افتراض وجود تقليد ما فإننا مضطرون للاعتراف بأن موسوعة قدامة المعنونة : « كتاب صناعة الكتابة » ، تؤلف مجموعاً أكثر كمالاً ومنهاجية بكثير وذا اتجاه أدبي بارز أكثر من الكتاب الذي قلّده .

ولسنا بحاجة إلى التشديد على التماثل القائم بين المؤلفين الثلاثة المذكورين ، فجميعهم أبناء مدن يحتلون في الجهاز الإداري العباسي مكانة متفاوتة الأهمية ، وعلماء وجغرافيون إذا اقتضى الأمر ، ومن قليلي الأسفار ، وكانوا جمّاعي معلومات استقوها من مصادر رسمية ، أو من روايات رحالة ، أو من مؤلفات سابقة اغترفوا منها .

ب ـ الكتب الجغرافية الموضوعة لعامة الناس : لا تستطيع الكتب الجغرافية الوجيزة المعدّة لكتاب الدواوين ، من حيث المبدأ ، أن تفيد أكثر من فئة محدودة تستخدمها لا للتثقيف الذاتي بل للحاجة . وسيكون من الخطأ الاعتقاد بأن هذه المؤلفات لم يكن يقرؤها سوى أولئك الذين كتبت من أجلهم . ومن الواضح ، على كل حال ، أن القارئ العادي ربما أحب أن يدرس الجغرافية في كتب أقل جفافاً ، وتداعب الخيال بصورة أكبر ، وذات طابع أدبي أوسع .

وتقريباً في الوقت نفسه الذي كان فيه ابن خرداذبة يكتب وجيزه ، ظهر كتاب يلبي هذه الرغبة على يد عالم متنوع المعارف ، هو الجاحظ المتوفى سنة

٢٥٤ هـ / ٨٦٩ م . وكان عنوان المؤلف المذكور « كتاب البلدان » الذي لم يصلنا مع الأسف . ولكننا نعرف ما فيه الكفاية عن « طريقة » هذا الكاتب مما يسمح لنا بأن نتصور ما احتواه ، وذلك عندما يعطي تعريفاً لهذا الكتاب مفاده : « إنه سلسلة من الاستطرادات في موضوعات جغرافية » . وهو ما لا يمكن أن يكون بعيداً عن الحقيقة ، ومما يدعم ما ذهبنا إليه وجود كتاب يحمل عنوان كتاب الجاحظ نفسه ، ومقتبس في معظمه فعلاً عنه ، ألّفه ابن الفقيه في الربع الأخير من القرن الثالث هـ / التاسع م .

وعلى كل حال يبدو لنا الجاحظ من خلال هذا الكتاب المقتبس أنه جامع حكايات مشكوك بها . وأقاصيص مستغربة ، وروايات صبيانية مجموعة كيفما اتفق ، مركومة جميعاً في فوضى مذهلة ، وهذه الطريقة التركيبية ـ إذا صح القول ـ هي طريقة الجاحظ نفسه في كل مؤلفاته المعروفة . أي أن ابن الفقيه ينتسب لمدرسة الجاحظ .

ويبدو لأول وهلة بأنه يحق لنا التفكير بأن تكديس معلومات من هذا النوع وتأليفها في روح بعيدة عن الأسلوب العلمي ، أو حتى عن الحس السليم ، لا يضيف شيئاً لمعرفتنا عن العصر الوسيط ، ولكن محاكمتنا هذه ستكون محاكمة متسرعة ، متهافتة ، ومن علو كبير لا تحول بيننا وبين الوقوع في الخطأ . فما لا ريب فيه أنه لا يجوز لنا أن ننظر إلى ابن الفقيه وأضرابه ـ وهم كثر ـ كما ننظر إلى ابن خرادذبة والذين نسجوا على منواله . فابن الفقيه أو الجاحظ يرغب أولاً في كسب الإعجاب والاستحسان ومن ثم في التثقيف ، فهو يرى كل شيء من خلال نفسية تلتفت قبل كل شيء للناحية الأدبية . غير أن له ميزة تزداد أهمية كلما ازداد جهله بالمعلومات . فقد نقل ابن الفقيه إلينا قسماً كبيراً من أساطير ومعتقدات ومفاهيم تمثل الفلكلور الجغرافي في عصره .

فالطريقة الأدبية التي أوجدها الجاحظ ، والتي يمثلها أمامنا ابن الفقيه ،

تخضع إذاً بكليتها لتأثير الرحالة والبحارة الذين كانوا يجوبون أرجاء العالم ويعودون أغنياء بالمال وأحياناً مزودين بالكثير من الروايات البديعة . هذا ، ويجب الاحتراز من القول بأن حاجات العصر النفعية والتأثير العلمي الإغريقي لم يمارسا أي تأثير على هذا الأدب الجغرافي المعد لعامة الناس . وبما أننا نكاد نعثر على كل شيء في كتاب مثل كتاب ابن الفقيه ، فمن المستغرب ألا نعثر ضمن هذا الفلكلور على قائمة مسالك أو بعض النظريات الكوزموغرافية المستعارة من بطليموس ، ولكن هذه المعطيات لا تكون أكثر من معلومات مضافة ، فهي لا تؤلف شيئاً أساسياً في نظر الذي حشرها ، فالجوهري عنده هو الأسطوري والروايات العجيبة ، الأمر الذي كان ثانوياً عند ابن خرداذبة والذين ساروا على نهجه .



الحقبة الثانية

(من القرن الرابع هـ / إلى السادس هـ) = (العاشر م / إلى الثاني عشر م)

أ ـ ظهور وانتشار الأنماط المبسّطة :

ترى كم من الوقت استغرقت ولادة هذه الجغرافية الأدبية ؟ وخلال كم من السنين اقتصر المؤلفون على كتابة مذكرات جغرافية أو مجموعات فلكلورية ؟ هذا ما يبدو من العسير تحديده . فقد كان الأدباء محافظين جداً ، ومن العسير جداً العزوف فجأة عن الأنماط الأدبية التي استهوت الناس واستقطبت انتباههم خلال بضع عشرات من السنين . إذن لا يجوز لنا أن نطرح هذا السؤال بهذا الشكل ، بل علينا أن نتساءل ابتداءً من أي فترة أنتجَ هذان النمطان من الجغرافية أنماطاً أخرى طغت عليهما ولكن دون أن تطمس معالمها كلية ؟ إن وضع السؤال بهذه الصيغة يجعل الإجابة عليه ميسورة إلى حد ما . فابتداءً من مطلع القرن الرابع هـ / العاشر م أخذ النمط الذي دشنه ابن خرداذبة في التقهقر ، ولكن يجب الانتظار حتى القرن التاسع الهجري / الرابع عشر ميلادي كي تظهر من جديد موسوعة شهيرة ، هي صبح الأعشى للقلقشندي المصري (توفي في ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) . كما نجد في أوائل أعوام القرن السادس هـ / العاشر م أن التبسيط الجغرافي الذي يمثله الجاحظ وابن الفقيه أخذ يتجه اتجاهاً مخالفاً ، دون أن يحول هذا الاتجاه . مع ذلك ، دون ظهور كتب من أمثال « التحفة » لأبي حامد الغرناطي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ / ١٢١٩ م والذي يماثل تماماً في روحه كتابي الجاحظ وابن الفقيه .

إذن يبدو من المعقول اعتبار الربع الأول من القرن الرابع هـ / العاشر م

نقطة انطلاق لحقبة جديدة ازدهرت في خلالها التآليف الجغرافية التي تكلمنا عنها ، وهذا الاتجاه الجديد الذي سلكته الجغرافية الأدبية ، أو بالأحرى التنوع الذي ستتعرض له أبحاث هذه الجغرافية ، هو نتيجة تأثير لم يمارس مفعوله بصورة رئيسية حتى ذلك العصر . والواقع هو أنه ابتداءً من القرن الرابع هـ / العاشر م لم يعد الكتاب الجغرافيون خاضعين ، إلا فيما ندر ، للتأثير النفعي أو التثقيفي الذي شجع ودفع لظهور أنماط ابتدعها ابن خرداذبة والجاحظ . فمنذ ذلك الوقت وصاعداً أصبح التأثير العلمي هو المهيمن . وهكذا أخذت الثقافات اليونانية القديمة ، والفارسية والهندية ، تمارس أثرها سوية بشكل محسوس ، على الجغرافيين الأدباء عن طريق الجغرافيين الرياضيين . كما أخذ الجغرافيون الأدباء يطّلعون بشكل أكثر جدية وعمقاً على مختلف أجزاء العالم سواء عن طريق الرحالة أو بأنفسهم .

ب ـ روايات الرحالة :

لقد ذكرنا كل ما تدين به الوجيزات المعدَّة لاستعمال كتاب الدواوين ، وما تدين به كتب الفلكلور الجغرافي للرحالة وموظفي البريد والبحارة والتجار الذين قدَّموا ، أو استمروا في تقديم القسم الأعظم من الوثائق والمعلومات ، للكتاب القاعدين أمثال ابن خرداذبة وابن الفقيه . كما قد يبلغ الأمر بهؤلاء المؤلفين أن ينقلوا الروايات التي يسمعونها من هؤلاء الرواة بالتمام . تلك هي حالة سلاَّم الترجمان الذي ذهب بتكليف من الخليفة الواثق (٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) للتعرف على سد يأجوج ومأجوج الأسطوري ، فاندفع حتى جبال الأورال ، وعاد عن طريق تركستان وفارس ، وترك لنا سرداً عن رحلته المفرطة في غرابتها ، والتي ينظر إليها كتاب عصره أنفسهم باستغراب وريبة . هذا ويعود الفضل أيضاً للبحارة في تلك الروايات الخيالية التي ازدانت بها أوائل المؤلفات في الجغرافية الأدبية .

فانطلاقاً من البصرة أو سيراف ، على الخليج العربي ، كان الرحالة العرب والفرس يمخرون عباب المحيط الهندي ، ويقصدون موانئ المالابار ، ويطوفون بشبه جزيرة ملقا ، ويجتازون « أبواب الصين » باحثين في الإمبراطورية السماوية عن المنتجات النادرة المرغوبة في الغرب . وكانوا حين عودتهم لوطنهم يسردون قصص الحوادث الخارقة التي يدّعون أنهم كانوا عليها شاهدين ، ويقدمون أوصافاً ، تبدو أحياناً غير معقولة ، عن البلاد التي رأوها دون أن يقصّروا في تزويق المواضيع التي تثير الاستغراب . ويبدو أن أقدم تقرير وصلنا عن هذه الرحلات البحرية هو زمرة القصص المندمجة في ألف ليلة وليلة تحت عنوان « أسفار السندباد البحري » .

وابتداءً من القرن الرابع الهجري ، تعددت هذه الأسفار الاستكشافية ، وبذلك ازداد أفق الجغرافيين الوصفيين اتساعاً كما ازدادت معلوماتهم دقة ووضوحاً . ففي عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م أرسل خليفة بغداد المقتدر بعثة إلى بلغار الفولغا ، وعهد إلى ابن فضلان بكتابة تقرير عن أخلاق شعوب هذه المنطقة . وظل هذا الكتيِّب ، حتى القرن الثاني عشر ميلادي ، أفضل مصدر وثائقي يملكه العرب عن الروس وعن سكان ضفاف بحر الخزر .

وفي ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م عهد وزير خراساني إلى أبي دلف مسعر الخزرجي بمرافقة سفراء قادمين من الصين ، وبأن يسجل كل ما قد يلاحظه من أمور مفيدة ، سواء أثناء اجتيازه بلاد التركستان أو خلال إقامته في الإمبراطورية السماوية . ومن جهة أخرى أصبحت أقاصيص البحارة في آخر القرن الثالث هـ / التاسع م ، وحتى خلال القرن التالي ، ذات شعبية أكثر من أي وقت مضى ، فانصرف رجال أدب وتجار وبحارة قدامى لتأليف كتب يقرؤها جمهور متنوع جداً .

ففي خلال السنوات الأخيرة من القرن الثالث هـ / التاسع م كتب هاو من البصرة ، هو أبو زيد السيرافي ، مصنَّفاً لا يدل اسمه على محتواه دعاه « سلسلة التواريخ » يضم معلومات قيّمة عن الملاحة في المحيط الهندي وعن الهند والصين . كما قام في النصف الثاني من القرن الرابع هـ / العاشر م ملاح فارسي هو القبطان برزك بتسجيل روايات استقاها من ملاحين جابوا أرجاء بحار الشرق الأقصى .

وقد كونت هذه الروايات عن الأسفار البرية والبحرية أدباً طريفاً في حد ذاته ، وهاماً من حيث تأثيره على تطور الأنماط الجغرافية الأخرى . وقد صيغ هذا الأدب في أسلوب يختلف تماماً عن الأسلوب الذي كتبت وجمعت فيه النماذج المبسَّطة على يد كل من ابن خرداذبة وابن الفقيه . ومهما بدا ذلك مستغرباً بالنسبة لقارئ هذه الروايات ، فإن مؤلفيها سعوا إلى تقديم إنتاج علماء ، وليس إنتاج كتَّاب يقصدون تسلية القارئ . فكاتب مثل ابن فضلان لا يمكن أن يهزل عندما يكتب تقريراً بتكليف من الخليفة عن مهمته في بلاد البلغار . كما أن أبا زيد السيرافي يشدد على رغبته في أن لا يكتب سوى الحقيقة : « لقد أحجمت عن تسجيل الروايات الكاذبة التي يرويها البحارة والتي لا يصدّقونها هم أنفسهم » . ومما لا شك فيه أن كثيراً مما احتوته هذه الأقاصيص حقيقي . ويكون من المستحيل في كثير من الحالات معرفة مقدار انخداع الرحالة بأوهامه أو بأقوال مخبريه . ولكن يبدو من الصحيح القول مع هذا بأن هذه المؤلفات تظل ، بصورة عامة ، مصدر معلومات أكثر صحة مما يخطر ببال الكثيرين .

وعلى كل حال ، فإن الجغرافيين من ذوي الاتجاهات الذين سنتكلم عليهم سواء كانوا من ذوي الخيال الخصب أم من المتمسكين بالحقيقة ، يستمدون من روايات هؤلاء البحارة أو الرحالة تقريباً كل وثائقهم عن الأقطار البعيدة التي لا تدخل في دار الإسلام .

وهناك أمر هام جداً بالنسبة لتطور الجغرافية الأدبية هو بدء تماس الجغرافيين بالمناطق التي يعتزمون القيام بوصفها . فبينما كان مؤلفو الوجيزات والمجموعات التاريخية ، على الغالب ، من القاعدين والمقيمين وعلماء يؤلفون كتبهم بالاستعانة بمعلومات مكتوبة أو بأخبار شفوية ، نجد أنه بدءاً من نهاية القرن الثالث هـ / التاسع م راح الجغرافيون بدورهم ، أو عدد منهم على الأقل ، يجوبون معظم أرجاء العالم المعروف . وقد شعر هؤلاء الرحالة بأنفسهم بما في هذه الطريقة من خصب وأصالة .

وهاكم مثلاً ما كتبه أحدهم وهو ابن حوقل (أواخر القرن الرابع هـ / العاشر م) في مقدمة كتابه « صورة الأرض » طبع ليدن سنة ١٩٣٨ : « وقد يقع فيما كان يعتقده ـ أي القارئ ـ شك في طول الأرض وكبرها وحالها في تقارب عرضها وطولها وصغرها ، ولا يقارب هذا التأليف عنده كتاب الجيهاني ، ولا يوافق رسم ابن خرداذبة ، وسبيل قارئه ـ أرشده الله ـ أن يُنعم النظر فيما شك منه ، ويتأمله تأمل من حُمِلَ عنه بتحري الصدق فيه ، من غثاثة الناقلين وكذب المسافرين الذين لا يعلمون ولا قصدهم الحق فيما يبغون ، وليعلم أن الأسباب المحرضة على تأليفه ، المقتضية لعمله ، اللذة بالإصابة في المقصد ، والمحبة للظفر بإبانة كل بلد ، والذكر الجميل من أهل التحصيل في كل مشهد » .

ولا يتعرض ابن حوقل هنا لذكر كل المؤلفين الذين اعتمد عليهم . بيد أن هذا النص جزيل الفائدة لأنه يسمح لنا بأن نستبين طريقة مدرسة الجغرافيين الجديدة . فمن ناحية لا زال مصدر الخبر كتابياً بحتاً ، إذ اقتبست من كتب القدامى مفاهيم كوزموغرافية وكارتوغرافية ، كما أخذت من وجيزات ابن خرداذبة ومقلديه في كتب المسالك ، مثلما قدمت المؤلفات الفولكلورية والمعطيات

الأثنوغرافية ومصنفات الرحالة والملاحين المعلومات عن الأقطار النائية والعسيرة البلوغ . ومن جهة ثانية أصبح الإخبار شفوياً : إذ راح الجغرافيون يستجوبون التجار والحجاج والملاحين عن المناطق التي جابوها ، وبعد اللجوء للمقارنة ، جرت محاولات لتكوين فكرة صحيحة عن الأقطار التي كان يجهلها الجغرافيون القدامى تقريباً ، وتصحيح معلوماتهم التي أصبحت قديمة لا يجوز الركون إليها والوثوق بها . وبما أنه لا شيء يمكن أن يحل مكان التجربة الشخصية فقد أخذ معظم الجغرافيين - وليس كلهم بالطبع - يقومون بالأسفار بقصد تصويب وتكميل كتلة المعلومات بالمقتبسة شفوياً أو من الكتب . وهكذا نشأت جغرافية وصفية تستحق اسمها عن جدارة ، جغرافية يمكن تسميتها نمط المسالك والممالك لأن معظم الكتب التي تمثلها نالت هذه التسمية من مؤلفيها .

وقد ظهر هذا النمط قبل نهاية القرن الثالث . هـ / التاسع . م في كتاب ، يبدو مع ذلك شبيهاً جداً بالوجيزات الجغرافية ، هو « كتاب البلدان » لليعقوبي (توفي بعد عام ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م) ، ولهذا المؤلف كتاب تاريخي ذو فائدة كبيرة . وفي النصف الثاني من هذا القرن كان هذا النمط الجغرافي الجديد قد أخذ شكله النهائي . وظهر جغرافي آخر هو الإصطخري (توفي بعد عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) ، واستند على كتاب سابق في الجغرافية الرياضية اسمه : كتاب « صورة الأرض » لصاحبه البلخي (توفي في ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) وألّف كتاباً في الجغرافية الوصفية عن العالم الإسلامي والأقطار المتاخمة . وقد جرى انتحال الكتاب المذكور وإتمامه بعد بضعة أعوام على يد بغدادي هو ابن حوقل (توفي بعد عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) . وأخيراً سنجد في الربع الأخير من القرن الرابع هـ / العاشر م مؤلفاً من الطراز الأول ، وهو فلسطيني عرف بالمقدسي (توفي بعد عام ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) يمكن اعتبار كتابه « أحسن التقاسيم » كنموذج لهذا النمط .

إن كل المؤلفين الذين أتينا على ذكر أسمائهم مشارقة . ونستشف ذلك من

خلال كتبهم ، وإذا استثنينا ابن حوقل الذي وصل إلى بلاد الأنـدلس ، فـإن أقل المنـاطق معرفـة بـالنسبـة إليهم كان الغرب الإسلامي . ولا يستطيع ابن حـوقـل ذاته ، الذي كانت إقامته في هذا الجزء من العالم قصيرة نوعاً ما ، أن يعطينا لوحة غنية بالتفاصيل كاللوحة التي أعطـانـا إيـاهـا عن سوريـة ومصر مثلاً . وسيكون الفضل للجغرافيين المسلمين من أصل غربي في سد الثغرة في هذه الجغرافية الوصفية عند العرب . وعلى خلاف معاصريهم المشارقة ، فقـد كان هؤلاء عبـارة عن علمـاء قـاعـدين اعتمـدوا على وثـائق مكتوبـة أو على معلومـات شفـويـة . لهـذا سنجـد طريقتهم في العمل مماثلـة إذن تمـامـاً لطريقـة ابن خردانبـة والـذين سـاروا على نهجه . وفي القرن الخامس هـ / الحادي عشر م قام أندلسي ، من أصل عربي ، هو البكري (المتوفى عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) بتقديم وصف عام للعـالم لم يصلنـا منـه سوى القسم المتعلق بالمغرب وبعض نبـذات أخرى . وفي القرن التـالي قـام شريـف مراكشي هو الإدريسي (المتوفى سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٦ م) بـدوره بتـأليف مطولين في جغرافية العالم المعروف ، أحـدهمـا لملوك صقليـة النورمـان حيث عمل فترة من الزمن في بلاطهم .

وإذا تركنـا جـانبـاً اختـلاف المنـاهـج الـذي يميز الجغرافيين القـاعـدين عن الجغرافيين الرحالة ، فإننا نجد المؤلفات المنتسبة لزمرة المسالـك والممالـك حـاويـة على شبه كبير فيما بينها . فهي تتشابـه في طريقـة العرض أولاً : ذلـك أن المؤلفين يقسمون العـالم بصورة اتفـاقيـة ـ أو الجـزء الـذي يـدرسـونـه منـه ـ إلى عـدد من المنـاطق . ثم يعودون إلى أسلوب العرض الـذي سبق أن رأينـاه كي يقوموا بوصف مختلف الطرق التي تخترق هـذه المنطقـة ، واحـداً تلو الآخر ، ويتوقفون عنـد كل موقع هام أو كل مدينة ، ذات شأن ، كي يقدموا وصفاً لها .

هذا كما تتشابه المسالك والممالك أيضاً ، بالمكان الـذي يحتلـه التـاريخ فيهـا . وتعالج هذه الكتب التـاريخ بشكل مقتضب إجمـالي ، وغني جـداً بـالمعلومـات ،

وجاف جداً في الوقت نفسه . ولا يغرب عن بال المؤلفين أن هذا لا يؤلف القضية الجوهرية في عملهم .

كما تتماثل المؤلفات أخيراً في الثغرات التي نجدها غالباً فيها . ونظراً لأن اليعقوبي وابن حوقل والإدريسي مسلمون ، فهم لا يعرفون الأقطار النصرانية أو أقطار الشرق الأقصى إلا عن طريق ما وصل أسماعهم أو عن طريق الأوصاف التي يوفرها لهم السُفَّار . لهذا تكون معارفهم ، في هذه الناحية ، ناقصة جداً ، كما أنهم أنفسهم لا يحاولون نكران ذلك . ولهذا نجدهم يقتصرون ، عند الكلام عن هذه المناطق ، على جمع روايات الرحالة الموثوق بهم . فعندما يتكلم الإصطخري عن مناطق الخزر يكتفي بذكر نبذات من رسالة ابن فضلان .

ومن الميسور رؤية كل ما يدين به نمط المسالك والممالك للوجيزات التي كتبت لفائدة كتاب الدواوين . وقد يتراءى لنا لأول وهلة أن المؤلفات التي تمثل هذا النوع ليست أكثر من تقليد حرفي لكتاب ابن خرداذبة . فكما هو الأمر في الكتاب المذكور نجد بالواقع أن العرفية[٤] الجغرافية تحتل فيها مكاناً فسيحاً . وقد رأينا قبل قليل أن أسلوب العرض على شكل مسالك ظل متبعاً فيها . وعلى هذا علينا أن نلاحظه أن نمط المسالك والممالك يتميز بأصالة فريدة . ذلك أنه رغم احتفاظه بكثير من الارتباطات مع أرومته الأصلية ، فهو ليس عبارة عن تعداد جاف لأسماء مراحل أو ظاهرات جغرافية .

وهؤلاء المؤلفون وصفيون ، وينحصر كل انتباههم في تسجيل المشاهد العامة لكل قطر وتثبيت التفاصيل المتعلقة بكل مكان ، وبحياة المناطق الجغرافية ، وبماضيها ، وبحياتها الحاضرة . ومما لا ريب فيه أن كل ما ذكر قد كتب على العموم بطريقة راتبة جداً . وليس هذا بيت القصيد ، بل إن ما كتبوه يعتبر كافياً لكي يخلق اختلافاً واضحاً عن الوجيزات المؤلفة لحساب كبار موظفي

---

(٤) بالفرنسية : nomenclature .

الإدارة ، تلك الوجيزات التي تدل على أن مؤلفيها لم يرغبوا أن يكونوا كتّاباً وأدباء بكل ما في الكلمة من معنى . وباختصار يعتبر نمط المسالك استمراراً للنمط الذي ابتدعه ابن خرداذبة ولكنه استمرار موسع ومطول .

التبسيط الجغرافي الجديد

في الوقت الذي كانت تزدهر فيه الجغرافية من نمط المسالك والممالك ابتداءً من القرن الرابع هـ / العاشر م نلاحظ ظهور زمرة من المؤلفات التي تختلف تماماً عن الوجيزات الجغرافية ، وتختلف بدورها كلياً عن المطولات الوصفية من أمثال كتاب اليعقوبي ومصنفات الذين قلدوه . وقد كانت هذه الكتب بالواقع استمراراً لعمل التبسيط الذي بدأه الجاحظ وابن الفقيه كما سبق ورأينا ذلك . غير أن هذه الكتب تبدو مشبعة بروح جديدة جداً ، لأنها إذا كانت ترمي للتثقيف فهي لا تفعل ذلك عن طريق التسلية . فهي تتوجه لجمهور مثقف ورصين وليس إلى هواة . وهذا التبسيط الجغرافي الجديد كان إذن ، وبصورة عامة ، تحت هيمنة الاهتمامات العلمية ، وكان الذين ألفوا فيه من المتأثرين بمؤلفات بطليموس ومارينوس الصوري وبالفلكيين الإغريق والذين ساروا على غرارهم من العلماء العرب في القرن الثالث والرابع الهجريين ، والذين عرفوا كتابات البحارة والرحالة . كما أن ثقافتهم الواسعة كانت تستوعب كل علوم عصرهم . فكان هؤلاء العلماء الموسوعيون يكتبون طبعاً عن كل شيء وبلا نظام . ويندر أن تتجه مؤلفاتهم نحو مادة وحيدة إلا فيما ندر . ولكنهم كانوا يضعونها حسب مخطط صمموه مسبقاً ، ويتقيدون به على العموم ، ولكنه يكون غالباً تحت وطأة استطرادات تقود قارئها بشكل عشوائي نحو هدف غاب عن ذهنه ، مما يؤدي به لأن يفقد خيط أفكاره ويشعر بأنه مجروف بتيار أو مصاب بنوع من دوار .

وقد اشتهر مؤلفان في التبسيط الجغرافي الجديد هذا ، هما المسعودي المتوفى عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م ، والبيروني المتوفى في ٤٣٠ هـ / ١٠٤٨ م .

الحقبة الثالثة

(القرن السادس هـ / الثالث عشر م والقرون التالية)

التطور النهائي للأنماط

من المتفق عليه اليوم أن نشاط العرب الثقافي أخذ ينطوي على نفسه ويتقوقع منذ نهاية القرن السادس هـ / أو الثاني عشر ميلادي ، كي يغط في غيبوبة مقدارها ستة قرون من الزمن . فقد ساهم انحطاط العلوم الإسلامية في الشرق وفي الأندلس ، ووصول طبقات عسكرية إلى السلطة في مصر وبلاد الشام غالباً ما كان أفرادها قليلي الميل لدعم أية حركة ثقافية ، والاجتياحات المنغولية التي كالت لثقافة بلاد الرافدين الضربة القاضية ، أقول ساهمت كل هذه العوامل في تسارع نسق الانحطاط الذي ابتدأ منذ عهد بعيد[٥] .

ومن الميسور جداً أن نستشف أثر تلك الأزمة الأخيرة على الأدب الجغرافي . فقد تلاشى أولاً نمط المسالك والممالك . فقد كان آخر ممثل لها في القرن السابع هـ / الثالث عشر م هو ابن سعيد ، المتوفى عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م ، وهو أندلسي الأصل عاش في المشرق ، وكان عبارة عن جمّاعة عكف على أبحاث الشريف الإدريسي وأوجزها وصححها وأضاف إليها بعض المعلومات الحديثة .

---

(٥) يقول المستشرق جاك ريسلر في كتابه « الحضارة العربية » الصادر عام ١٩٥٥ معللاً أسباب انحطاط العرب وضعفهم : « لقد نتج عن إفراط من كل نوع ، وخاصة في حياة الحريم التي أدت بسرعة إلى تلف الذكاء والقوى العقلية ، انحطاط وتفسخ أسر مالكة بكاملها : فلم تعد تقدم سوى أمراء ضعاف . كما أن الإفراط في الشهوات الجنسية والكسل ، والإفراط في الرقص والغناء ، وفي الموسيقا والشراب أعطى نتائج مماثلة على الطبقة الحاكمة . وهكذا انحل دم الفاتحين في دم المغلوبين فأصبحوا منحطين . وقد بدأ هذا التدهور منذ عام ١٠٠٠ م » .

وفي الوقت نفسه توقف التبسيط الجغرافي الجديد ، منذ القرن الخامس هـ / الحادي عشر م وذلك على الأقل في الشكل الذي أضفاه عليه المسعودي والبيروني . وتمت على يد أبي حامد الغرناطي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ / ١٢١٩ م ، والذي سبق لنا الكلام عنه ، العودة إلى مفهوم الفلكور الجغرافي المعروف عند ابن الفقيه ، وقد تأثر الغرناطي بالجغرافي المذكور لحد كبير فأخذ نصوصاً منه أكثر من مرة وهذا التوقف في استمرار ازدهار النمطين ، اللذين كان لهما في القرون الماضية أتباع لامعون ، يدل على أن الجمهور المثقف لم تعد لديه الاهتمامات نفسها التي كانت بالماضي ، وأصبح على الجغرافية الأدبية أن تتخذ وجهة أخرى إذا رغب أربابها في الحيلولة دون تلاشيها .

وابتداءً من نهاية القرن السادس هـ / الثاني عشر م ، أخذ تجاذب المؤثرات يلعب دوره حسب نظام جديد مماثل إلى حد ما للنظام الذي سبق لنا أن وجدناه في فترة تشكل الجغرافية الأدبية : فتأثير اليونان والفرس والهنود وتأثير المكتشفين والرحالة أخذ في الاندثار في وجه الأثر الذي أصبحت تمارسه حاجات العصر النفعية من جديد . وهكذا لم يعد الكتاب الجغرافيون يهتمون من الآن فصاعداً بفتح آفاق جديدة أمام معاصريهم بقدر ما يرغبون في أن يقدموا لهم مؤلفات معتمدة على كتب سابقة تتميز بتنظيم أفضل وباستعمال عملي . وقد ظهر هذا الاتجاه بالمعاجم الجغرافية بشكل واضح جداً .

أ ـ المعاجم الجغرافية : لقد كان ظهور المعاجم الجغرافية في المكتبة العربية نتيجة حاجات تتعلق بفقه اللغة أكثر مما كانت تلبية لرغبة الجمهور في العثور ، في أية لحظة ، على المعلومات الجغرافية التي يحتاج إليها مباشرة ضمن مؤلفات يسهل الرجوع إليها عند اللزوم . ففي الواقع كان المثقف العربي لا يصطدم ، عند وقوفه أمام نص يشتمل على أسماء أمكنة ، بجهله موقع هذه الأمكنة ذاتها فحسب بل ، أيضاً ، وقبل كل شيء ، بعجزه عن قراءة الكلمات

بشكل مضبوط إلا إذا كان يعرفها مسبقاً . ومن المعروف فعلاً أن كثيراً من الحروف العربية ، عندما تكون مكتوبة ، لا يمكن تمييزها إلا بعدد النقط وموضعها . وهذا أول مصدر للالتباس عندما نكون بمعرض أسماء محلية ، أو قليلة السماع ، ولكي تستطيع المعاجم الجغرافية أن تسد كل هذه المطالب كان عليها أن تكون مؤلفات في فقه اللغة مثلما هي مؤلفات في وصف الكون « كوزموغرافية » .

وربما نكون غير مخطئين ، إذا قبلنا مع المستشرق رينو Reinaud . بأن هذه المعاجم تعود من حيث النسب إلى مؤلفات سابقة كمصنفات الدارقطني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، أو الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م حيث نجد فيها أسماء الأمكنة وأسماء الأقوام المعروفة مرتبة حسب الأبجدية مع شروح ومميزة بعضها عن بعض بعناية فائقة . ولكن يجب الانتظار حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي كي نعثر على أول معجم جغرافي بكل معنى الكلمة ، وهو من تأليف البكري الأندلسي المتوفى عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م . ويهتم هذا المعجم بشكل خاص بجزيرة العرب ويخدم ، بالدرجة الأولى ، القراء الذين يلاقون المصاعب من التسميات الواردة في الشعر القديم والتي لا تحصى ، أو في الحديث والأقاصيص القديمة .

وبعد نصف قرن من الزمن كتب لغوي كبير وفقيه هو الزمخشري ، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م ، كتاباً مماثلاً ولكنه أقل تقيداً بالمنهاجية من سابقه تحت عنوان : « كتاب الجبال والأمكنة والمياه » نشره المستشرق سالفردا دوغراف Salverda'de Grave في ليدن سنة ١٨٥٦ م . ولا يضيف الزمخشري شيئاً لطريقة سلفه .

ولكن الذي سلك اتجاهاً مخالفاً تماماً هو ياقوت الشهير ، المتوفى سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٧ م ، وذلك بتأليفه معجماً جغرافياً دعاه « معجم البلدان » الذي

يمكن اعتباره من روائع هذا النمط ، ويشتمل على كل الأصقاع التي عرفها العرب في ذلك العصر .

ولم يمض وقت طويل حتى قام القزويني ، المتوفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ، بتقليد الكتاب المذكور ، فكتب في عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م كتاب « أعاجيب البلدان » والذي أعاد صياغته مع توسع محسوس في سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م تحت عنوان « آثار البلاد وأخبار العباد » (نشره وستنفلد في غوتنجن عام ١٨٤٩) . غير أن هذا الكتاب لا يتصف بسهولة الاستعمال كما هو الحال في كتاب ياقوت . فهذا المؤلف الذي اعتمد على تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم حسب نظرية بطليموس يقسم بدوره الأرض إلى سبعة نطاقات ، ثم يعطي بعدئذ أسماء كل الأقطار والأنهار والجبال والمدن إلخ .. التي تصادف فيها حسب الترتيب الأبجدي . ويعتمد القزويني على المصادر نفسها التي اعتمد عليها سلفه ولكنه يترك أكثر من سابقة مكاناً أكثر رحابة للأخبار التاريخية والوثائقية والروايات المستغربة .

ب ـ مصنفات الكوزموغرافيا والجغرافية العالمية : إن الاتجاه الذي ظهر منذ نهاية القرن السادس هـ / الثاني عشر م لدى الكتّاب في العمل لتلبية حاجات عصرهم النفعية ، نعثر عليه لدى صنف من المؤلفين الذين تطلق عليهم تسمية « الكوزموغرافيين » . ولا يجوز لنا أن نفهم من هذه الكلمة العلماء الذين يهتمون فقط بعرض موجز للقوانين التي تهيمن على المنظومة الشمسية ، بل الاختصاصيين الذين ينصرفون لدراسة كل الحادثات الحاصلة على سطح كرتنا الأرضية ، والذين هم فلكيون وجغرافيون وعلماء تعدين وعلماء نبات وحيوان ، وعلماء أجناس أثنوغرافيون . وسيكون هؤلاء الأثنوغرافيون ، بصورة عامة ، من السائرين على منهج المسعودي والبيروني وأضرابهما . ولكنهم يتميزون عن هؤلاء ، على كل حال ، في عديد من النقاط ، فهم صوفيون يجهدون في أن يعثروا في هذا الكون على يد الخالق : فكتاباتهم ستكون إذن ، ومن هذا القبيل ، عبارة

عن مؤلفات رصينة تحث على الاعتبار بصغار الإنسان اللامتناهي في هذا الكل العظيم . ولا يطمع هؤلاء الكوزموغرافيون من ناحية أخرى في أن يكونوا ذوي أصالة في كتبهم ، بل اكتفوا بأن يكون جامعين صادقين وتركيبيين لامعين .

وهكذا تكاد تكون مؤلفاتهم خالية من أية مساهمة شخصية أضافوها ، ولكنها تتصف بوضوح كبير في الأسلوب ، مسكوبة حسب منطق قد يختلف عن منطقنا ، لكنها تتصف بشدة إيجازها . وعلى هذا الشكل تظهر مصنفات القزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م والدمشقي المتوفى عام ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م في كتابه « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » وابن الوردي المتوفى سنة ٨٦١ هـ / ١٤٥٧ م في مصنفه « خريدة العجائب » .

وسنعثر على هذا الميل للتجميع Compilation ، والحاجة للإيجاز والتبسيط أيضاً في جغرافية عالمية شهيرة جداً هي : « تقويم البلدان » لأبي الفدا المتوفى سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣١ م . ونجد في هذا الكتاب ، مثلما نجد في كل كتب معاصريه ، أن جهد المؤلف الشخصي ضئيل ، ولا يتعلق بالجوهر ، غير أن عرض كتابه بشكل جديد بكل معنى الكلمة ، في ذلك العصر ، هو الأمر الذي يمنح هذا الكتاب كل قيمته وأصالته .

جـ ـ الموسوعات التاريخية الجغرافية : مهما بلغ تأثير الحاجات المنفعية في تطور الكوزموغرافيا والجغرافية العالمية فإن من الواضح كثيراً أن التبسيط الجغرافي هو الذي كان له التأثير العميق على هذا التطور أكثر من سواه . فتجاه التطور العظيم الذي طرأ على الإدارة في عصر المماليك ، في سورية ومصر ، أصبح من المحتم أن نشهد ولادة أدب خاص بكتّاب الدواوين ، يماثل في روحه ، الأدب الذي ابتدعه كل من ابن خرداذبة وابن رستة وقدامة قبل ثلاثة قرون ونصف خلت . تلك هي بالواقع حالة بعض المؤلفات مثل « نهاية الأرب في فنون الأدب » للنويري المصري المتوفى سنة ٨٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، ومؤلفات أحمد العمري

السوري المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م ، وكتاب « صبح الأعشى في صناعة الإنشاء » للقلقشندي الذي توفي عام ٨٤١ هـ / ١٤١٨ م .

وإذا تركنا جانباً الكتاب الأخير فيجب علينا أن نقر ، مع ذلك ، بأن موسوعات القرن الرابع عشر الميلادي هذه تبدو صالحة لأن تتوجه لجمهور أكبر عدداً من الجمهور الذي كان يهتم بوجيزات القرن التاسع الميلادي . فهذه الموسوعات المصنفة لصالح رجال الإدارة يمكن أن يستفيد من مطالعتها كل المثقفين . أي أنها تتميز بشكل أكثر ميلاً للأدب عن مثيلاتها . ومن جهة أخرى تتصف هذه الموسوعات بأنها ذات مدى أكثر اتساعاً بكثير وتعالج ، بصورة تركيبية ، ومفصلة بآن واحد ، علوماً يرمي المؤلف إلى التعريف بها . وأخيراً يجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المؤلفات لا تعالج الجغرافية بشكل خاص بل تهتم بالتاريخ وبالثقافة بشكل عام .

د ـ **قصص الرحلات** : لقد سبقت الإشارة إلى ما كان لأقاصيص الملاحين والرحلات من تأثير على تطور الجغرافية الأدبية في القرن الرابع هـ / العاشر م . ومن المناسب ، على كل حال ، أن نشير إلى أن هذه المصنفات كانت عبارة عن تقارير عامة ، وأحاديث إجمالية تتعلق بأسفار ، وليست عبارة عن حكايات موقوتة بظروفها تسجل يوماً بعد يوم ، وأحياناً ساعة فساعة ، كل المصاعب والمفاجآت التي تعرض لها المسافر . ففي الربع الأخير من القرن السادس هـ / الثاني عشر فقط ، بدأنا نشهد ولادة هذا النمط الجديد ، أي حكايات الأسفار بالمعنى الذي نفهمه اليوم وعلى خلاف كل الأنماط الجغرافية التي سبقت لنا دراستها حتى الآن ، والتي كانت من أصل مشرقي عربي ، فقد كان مصدر هذا النمط على العكس من المغرب العربي . وليس في هذه الظاهرة ما يبعث على الدهشة من حيث الأساس . فبين القرن الثالث هـ والخامس هـ / أي بين التاسع والحادي عشر م كان يقصد الأندلس من الشرق فنانون وشعراء وعلماء ، ينقلون معهم

جوهر الثقافة الإسلامية تماماً كما كانت في بغداد وبلاد الشام والقاهرة . وكانت الأندلس في البدء لا تقدم شيئاً بالمقابل . ثم ما لبثت أن أخذت بدورها ترسل أبناءها ، عن طريق الحج إلى مكة ، كي يقتبسوا من الشرق ، أي من مصادر الثقافة التي لم تعرفها الأندلس إلا عن طريق المشارقة المهاجرين إليها . وقد اشتدت حركة التبادل الثقافي هذه خلال القرن العاشر ميلادي . وبلغ الأمر في القرن الحادي عشر نفسه أن عدد الأندلسيين ، الذين كانوا يجوبون أرجاء الشرق ، كان يفوق عدد الذين يذهبون في الاتجاه المعاكس . وربما كان ذلك عائداً لبدء تقلص النفوذ العربي عن إسبانيا . وكان لبعض هذه الرحلات أهمية عظيمة بالنسبة لتاريخ إسبانيا والمغرب . ففي أعقاب ذهاب المهدي بن تومرت إلى مكة بقصد الحج وإقامته في بغداد استطاع أن يرسي قواعد إصلاح ديني خرجت منه أسرة الموحدين .

وهكذا كان مسلمو المغرب يقصدون المشرق لأداء فريضة الحج إلى مكة المكرمة وللتعلم ، أي لطلب العلم أيضاً . وكان الاهتمام الثاني يقودهم إلى توسع رقعة وإطالة مدى أسفارهم لحدّ كبير . ومما لا ريب فيه هو أنهم كانوا يذهبون إلى مكة والمدينة لزيارة الأماكن الإسلامية المقدسة ، ولكنهم كانوا يذهبون أيضاً إلى مدن المشرق حيث ازدهرت الثقافة الإسلامية في أبهى مظاهرها ، كبغداد ودمشق والقاهرة . وقد بلغ الأمر ببعضهم لأن يندفعوا في البحث عن المجهول حتى بلاد فارس والهند والصين .

فالرحلات التي صنفها هؤلاء الرحالة تدل على اهتمامهم بذلك . وأولهم أو أحد أولئك الذين خطر ببالهم تسجيل انطباعاتهم عن الحج ، وتدوين مشاهداتهم في المشرق ضمن يومية Journal هو الأندلسي ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، . فكتاب رحلته الذي خلفه لنا عن سفره إلى مكة وبلاد الرافدين وسورية ، ليس ذا فائدة عظيمة للمؤرخ والمهتم بعلم الأقوام (الأثنوغرافي) فحسب

بل تستحق أيضاً دراسة دقيقة من وجهة النظر الأدبية الصرفة . وليس لرحلة ابن جبير ميزة الأسبقية فحسب ، بل لها أيضاً ميزة فريدة ، وهي أنها كانت نموذجاً لهذا النمط الجغرافي . ولهذا لم يكن هناك بد من تقليدها . وقد تم تقليدها فعلاً ولكن دون نجاح كبير . ففي نظر خلفاء ابن جبير أخذت الناحية الجمالية في الأشياء تتلاشى شيئاً فشيئاً أمام الفائدة العلمية لهذه الرحلات . وقد بدأ هذا الاتجاه بالظهور عند ابن بطوطة المتوفى عام ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م الذي يعدد أسماء العلماء والأولياء الذين التقى بهم خلال رحلاته ، بعناية ودقة . غير أن ابن بطوطة يبدو قريباً جداً من ابن جبير من ناحية الفضول الذي يبديه تجاه الناس والأشياء . ولكن ابتداءً من ظهور رحالتين مغربيين آخرين هما العبدري الذي أخذ بالترحال ابتداءاً من عام ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م والعياشي المتوفى عام ١٠٩٠ هـ / ١٦٧٩ م يظهر الانفصام الكامل والنهائي بين كتب الرحلات كالتي عرفناها لدى ابن جبير ، وبين المفهوم الجديد الذي نجده أيضاً لدى بعض المشارقة أمثال عبد الغني النابلسي المتوفى بدمشق سنة ١١٤٣ هـ / ١٧٣٧ م .

وابتداءً من هذا الاتجاه الجديد لم يعد لوصف البلاد التي يجتازها الرحالة أكثر من قيمة ثانوية . وأصبح المهم هو تسجيل أسماء الأساتذة الذين صادفهم والإلحاح على التعليم الصوفي ، والفقهي ، والشرعي الذي أخذه عنهم . وذكر الأحاديث النبوية مع قائمة الكتب التي درسها تحت إشرافهم ، وذكر كل ذلك بدقة وعناية فائقة . ومثل هذه المصنفات يبدو ثميناً بلا ريب بالنسبة للمؤرخ رغم أن عدد التفاصيل العديمة الجدوى يوهم القارئ بوفرة المعلومات الموجودة فيها . أما من وجهة النظر الأدبية فإن نمط الرحلات فقد كل شيء نظراً لعزوفه عن الطريق الذي اختطه ابن جبير . فهؤلاء المؤلفين ، أمثال العبدري والعياشي ، الذين كان يتنازعهم حب الموضوعات الدينية والشرعية والصوفية وميلهم الشخصي إلى الأسلوب البديعي ، لم يفلحوا في إنتاج أكثر من مؤلفات عديمة اللون تذكرنا

فقط وبشكل بعيد جداً بالكتاب الشديد الحيوية والتنوع والغني بالملاحظة والألوان الذي عرف ابن جبير أن يكتبه في الموضوع نفسه .

وقد كان على مثل هذا النمط أن يندثر فيا إذا ظل على هذا المنوال . لكننا لا نزال نجده حياً حتى الوقت الحاضر ، أو بالأحرى ، نراه ينبعث بعد انقراض . فهو يستجيب بالواقع لحاجة عميقة في قلب الإنسان ، وهي الحاجة إلى تثبيت الانطباع العابر في لحظة ما ، أو الرؤية التي تمر كيلا تمر مرة أخرى بعد يوم أو بعد آخر . فقد أخذ بعض الكتاب العرب المتأثرين بالثقافة الأوروبية أو بتقليدها ، أخذوا من جديد يؤلفون كتب رحلات مثل محمد ثابت وأحمد فارس الشدياق تكون عبارة عن استطلاعات على غرار الاستطلاعات التي نجدها في صحف أوروبا . وأحياناً أخرى نجدها عبارة عن انطباعات سطحية ، تستثير الغرائز البهيمية ، تماثل انطباعات بيير لوتي Loti . وفي هذا المجال أيضاً لم يقل الأدب الجغرافي كلمته الأخيرة بعد ويجب أن نظل واثقين به . فإذا لم يقدم لنا القرن العشرين مثيلاً لابن جبير فليس معنى ذلك أننا لن نعثر عليه في غد قريب إن شاء الله .

الفترة العثمانية : حين تداعت الخلافة العباسية في البلاد الإسلامية ، توالت على الحكم فيها مختلف السلالات المالكة وساد الاضطراب معظم أقطارها ، وانقطعت طرق الاتصال البرية تماماً بين المشرق العربي والمغرب الأقصى ، كما تقطعت أسباب الاتصال مع الغرب بعد أفول نجم العرب عن شبه الجزيرة الإسبانية وظهور أساطيل البنادقة والجنويين والإسبان والبرتغال في البحر الأبيض المتوسط الذين راحوا يغيرون على الثغور العربية في إفريقية ويعملون فيها قتلاً ونهباً . وهكذا شهد كل من القرن الخامس عشر والسادس عشر انقراض السيطرة العربية على البحار والاتجار مع الشرق والغرب لسببين :

الأول : استيلاء الترك على العالم العربي وهم حينذاك محاربون لا يعرفون التجارة ولا يهتمون بها فلم يولوها أي اعتبار .

الثاني : بدء حركة الاستكشاف العظيمة في أوروبا واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند والصين مما جعل الملاحين والتجار الأوروبيين يدخلون معركة التنافس على التجارة مع الشرق الأقصى ويتغلبون على التجار العرب فيه .

وإذ نشهد أفول شمس الملاحة العربية في المحيط الهادي ، نجد أن الإسلام أخذ يتغلغل في الصين من سبيل آخر حين بدأ المغول احتلالهم لها فهاجر إليها عدد كبير من المسلمين من عرب وترك وفرس ، واستقروا فيها وشغل كثير منهم مناصب مهمة في بلاط أباطرتها . وتذكر التواريخ الصينية أن أحد الأباطرة اعترف عام ١٣٣٥ للميلاد بأن الإسلام (دين حق) وفي عام ١٤٢٠ سمح إمبراطور آخر ببناء المساجد في عاصمتي بلاده سنغان فو ونانكنغ . وحين تولى (قوبلاخان) الحكم ، وهو الذي زاره ماركو بولو لم يكن يستخدم في بلاطه غير المسلمين . فشجع ذلك انتشار الإسلام حتى قال ماركو بولو : إن سكان عاصمة يونان كانوا مسلمين . ويزيد عدد أحفادهم اليوم ـ رغم عدم وجود إحصاء مضبوط ـ على خمسة وثلاثين مليوناً . وتعوض انحسار الإسلام البحري في الغرب بتقدم عن طريق البر إثر الفتح العثماني الكاسح في أوروبا بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، فوصلوا إلى أبواب فيينا ولم تنكمش سيطرتهم عن البلقان تماماً إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

والواقع لم تغز المعرفة الغربية حياة العثمانيين العلمية إلا في حقل الجغرافية بالإضافة إلى ما ورثوه عن العرب الذين تخلوا لهم عن السيادة على العالم الإسلامي نتيجة عوامل معقدة وعديدة لا داعي هنا لذكرها . ذلك بأن الرواد اللاتين كانوا قد وضعوا ـ حتى قبل عصر الكشوف الكبرى ـ وعلى إثر عصر النهضة في أوروبا ،

كتاباً في الملاحة الشراعية وأطالس لرحلاتهم . وقد نحا نحوهم في القرن السادس عشر أمير البحر التركي (بيري رئيس) فوصف لنا شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، بعد أن تمت له معرفتها عن طريق الرحلات العديدة التي قام بها تحت قيادة عمه (كمال رئيس) وتحت قيادة خير الدين بربروس[٦] فيما بعد . وفضلاً عن ذلك فقد جمع ، استعداداً للحرب ضد إسبانيا والبرتغال ، معلومات قيمة عن الاكتشافات التي تمت لهما في أمريكا ، وإذا كانت هاتان الدولتان شديدتي الحرص على إحاطة هذه المعلومات بسياج من الكتمان فقد تعين عليه أن يتلقفها عن طريق العملاء الطليان . ثم إنه رسم في غاليبولي سنة ١٥١٣ خريطة موضوعة على أساس خريطة كريستوف كولومب ، تمثل المحيط الأطلسي مع أمريكا والشواطئ الغربية من أوروبا وإفريقية ، وقد ظهرت عليها الأسماء بالشكل الذي تلقاه من عملائه .

وفي سنة ١٥١٧ رفع خريطته هذه إلى السلطان سليم الأول في القاهرة . وإذا كان من المفروض في هذه الخريطة أن تخدم أهدافاً سياسية معينة فقد حفظت في قصر السلطان ولم تنشر شأن الكتاب الذي وضعه صاحبها عن الملاحة واسمه (بحريت) . والواقع أنه لم يعثر عليها من جديد إلا سنة ١٩٢٩ في مكتبة السراية بعد زوال إمبراطورية بني عثمان من الوجود . وكذلك قدم إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥٢٩ بعد ثلاث سنوات من إنجاز كتابه عن الملاحة ، خريطة ثانية عثر على جزء منها في المكان نفسه ، وهي تمثل أيضاً اكتشافات البرتغاليين في أمريكا الجنوبية والوسطى وفي الأرض الجديدة (نيوفاوندلاند) ، هذه الاكتشافات التي جاءته أنباءها في تلك الفترة .

---

(٦) بربروس : كنية لشقيقين من كبار رجال البحر المسلمين . أولهما عروج الذي قتله الإسبان أمام أبواب تلمسان سنة ١٥١٨ م . والثاني وهو أشهرهما خير الدين . وكان أمير البحر عند السلطان سليمان الأول . وقد عمل على تحصين مدينة الجزائر وكسر أسطول آندريا دوريا الجنوي وجاء بأسطوله إلى مرسيليا كحليف للملك فرانسوا الأول وتوفي في إستانبول عام ١٥٤٦ م .

ونجح (بيري رئيس) بوصفه أمير البحر بمصر في أن يفتح عدن سنة ١٥٤٧ ومسقط سنة ١٥٥١ وطرد منها البرتغاليين ثم إنه حاصر فيا بعد هرمز على الخليج العربي ، حتى إذا جاءته الأنباء بأن أسطولاً معادياً يقصده ، اضطر إلى الانسحاب ، ولكن عاصفة هوجاء حطمت سفنه عند جزر البحرين ، فعاد أدراجه إلى السويس ولم يبق من أسطوله غير سفينتين اثنتين . وفي سنة ١٥٥٤ حكم عليه بالموت في القاهرة بسبب الكارثة التي حلت بأسطوله .

كما أن القرن الثامن عشر حفل بالإضافة إلى كتاب (سياحتنامه) للرحالة العثماني أولياجلبي بجمهرة صالحة من كتب الرحلات ، مثل كتاب (رسمي) عن انطباعاته كسفير لدى بلاط فريديريك الكبير مثلاً . ولكن أحداً من أصحاب هذه الكتب لم يكن ليضاهي جلبي في وصفه الرشيق وصوره النابضة بالحياة ، وإن كان يؤخذ عليه إيثاره للقصص الموضوعة على ألسنة الحيوان وللخوارق والمعجزات . إلا أن كتابه يعتبر عملاً فريداً ، بما ينتظم من مادة غزيرة عن أحوال الإمبراطورية العثمانية ، لا في الأدب العثماني فحسب ، بل في الثقافة الإسلامية جميعاً ولاسيا الثقافة العربية .

النهضة الجغرافية في مصر : تمخضت مصر في مطلع القرن التاسع عشر عن نهضة شاملة ، امتدت إلى الناحية الجغرافية ، وذلك بجهود كبيرة بغية الكشف عن حوض النيل وشرقي إفريقية ، إذ حاولت أن تجعل من وادي هذا النهر كله دولة موحدة ، وسارت البعثات العلمية في أعقاب الجيوش المصرية ، فبحثت ونقّبت ودونت ما تسنى لها أن تطلع عليه في مضار الجيولوجيا والنبات فضلاً عن رسم الخرائط الدقيقة . وقد تم ذلك على أيدي ضباط مصريين عملوا بإرشاد بعض الضباط الأجانب ولاسيا الفرنسيين الذين تخلفوا في مصر بعد حملة نابليون . وكان من أهم ما قاموا به رسم خريطة لجزيرة العرب ظهرت عليها الجبال والوديان ، بالإضافة إلى أبحاث تتعلق بالسكان وقبائلهم وطبائعهم ،

صدرت في كتاب يحمل عنوان « الأبحاث الجغرافية والتاريخية على بلاد العرب » . كما صدر كتاب عن سيوه عقب فتحها سنة ١٨٢٠ ، وفيه مصورات وأبحاث عن جغرافيتها وتاريخها .

وبعد فتح السودان صدرت عدة كتب تتعلق بطرقه وطبيعته ، وتكاملت الأبحاث عن النيل الذي كان يكتنفه الكثير من الغموض . وتم ذلك بفضل الرحلات التي قام بها البكباشي سليم أفندي سنة ١٨٣٩ و ١٨٤٠ و ١٨٤١ ، والتي وصل فيها إلى غندوكورو جنوب الخرطوم ، ولكنه لم ينجح في الوصول إلى منابع النيل بسبب الصعوبات الطبيعية العديدة . ووضع سليم تقارير تتعلق بمناخ جنوبي السودان وفروعه وقبائله وطرقه الرئيسية .

وقد ترجمت هذه التقارير إلى الفرنسية ، ونشرت بعضها مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية ، مما حفز الكثير من المكتشفين الأوروبيين ، وخاصة الإنكليز ، على الكشف عن منابع النيل ومنهم سبيك وصموئيل بيكر وستانلي ولفينغستون . وقد عمل بعضهم في خدمة مصر ولحسابها أمثال بيكر .

ولما نظمت هيئة أركان حرب الجيش المصري في السبعينات من القرن الفائت ، قام بعض ضباطها بأعمال تسجل لهم بمداد الفخر في سبيل المساهمة في الكشف عن مجاهل بعض المناطق الإفريقية ووضع مصورات تفصيلية ومن هؤلاء :

١ ـ محمد مختار باشا (١٨٢٥ ـ ١٨٩٧) : الذي اشترك في فتح هرر سنة ١٨٧٥ ، ورسم لها ، وللمناطق المجاورة لها ، ولزيلع في شمالي الصومال خرائط دقيقة . وساهم في رسم خريطة للقارة السوداء سنة ١٨٧٧ ، وارتاد شواطئ الصومال التابعة لمصر حينذاك سنة ١٨٧٨ لاختيار مكان مناسب لإقامة فنار وبناء ميناء على الساحل . وفي سنة ١٨٨٠ جاب أنحاء السودان الشرقي عندما كان رئيساً لأركان حرب الجيش المصري بالسودان . وقام بنشر عدة أبحاث جغرافية

هامة بجريدة أركان حرب الجيش المصرية وبمجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، كما ألقى محاضرات عديدة في الجمعية المذكورة .

ومن أشهر مصنفاته كتاب (التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية) ويبدأ من مطلع التاريخ الهجري حتى عام ١٥٠٠ هجرية .

٢ ـ محمود باشا الفلكي (١٨١٥ ـ ١٨٨٦) : ويعد من ألمع رجال مصر الحديثة في الفلك والرياضيات . وهو خريج مدرسة المهندسخانة التي عمل مدرساً بها . وقد وضع أول تقويم سنوي (نتيجة) في سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م وقارن فيه التواريخ الهجرية والميلادية والقبطية ، ثم أوفِدَ في بعثة إلى فرنسا لدراسة الفلك ، ووضع أثناء إقامته فيها عدة رسائل فلكية هامة . ولما عاد سنة ١٨٥٩ وضع خريطة جامعة للوجه البحري لم يسبقهِ أحد لمثلها ، كما وضع خريطة ثانية للوجه القبلي وأخرى للإسكندرية ، كما خطط معالم الإسكندرية القديمة ، وله رسالة ممتعة عنوانها : (عمر الأهرام والغرض من بنائها) . ووضع رسالة في التنبؤ عن ارتفاع النيل قبل وقوعه . وتقلب في عدة مناصب علمية ، منها نظارة مدرسة المهندسخانة والرصدخانة ووزارة الأشغال ثم المعارف . وفارق الحياة وهو وزير للمعارف ورئيس للجمعية الجغرافية .

٣ ـ إسماعيل باشا الفلكي : وهو من تلاميذ محمود باشا الفلكي . درس بالمهندسخانة وقصد باريس لدراسة الفلك واشتغل بعد عودته ناظراً للرصدخانة ، ثم المهندسخانة ، ومن أهم أعماله إصلاح مقياس النيل عند أسوان سنة ١٨٧٠ . وله مؤلفات في الفلك والرياضيات أهمها : (الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة) وتوفي عام ١٩٠١ .

وكان للمصريين نشاط بحري ورحلات جريئة . فقد قام القبودان سليمان حلاوة (١٨٢٨ ـ ١٨٨٥) في سنة ١٨٧٠ برحلة حول القارة الإفريقية على الباخرة

المصريـة سمنود ، فكان أول عربي طـاف بسفينـة عربيـة حـول القـارة واستغرقت رحلته ثلاثة شهور وستة أيام . وعمل في المدرسة البحرية ولـه كتـاب « الكوكب الزاخر في فن البحر الزاخر » .

وأحدث رحلة بحرية قام بها مصريون ، كانت رحلـة البـاخرة (مبـاحث) التي قصدت المحيط الهندي في خريف ١٩٣٣ ، وعليها علماء بريطانيون ومصريون لدراسة قيعان هذا المحيط ، ورواسب قعره ، وأحيائه البحرية ، وخواص مياهه ، وتياراته وأحواله البحرية . وقد نجحت بالحصول على مجموعة قيمة من الاكتشافـات والمعلومات . وفي العام التالي أقلعت الباخرة المـذكورة ، وعلى ظهرهـا أول بعثـة مصرية لدراسة علم البحار ، فاتجهت إلى البحر الأحمر لدراسة طبوغرافيـة قـاعـه ، وعادت بمعلومات قيمة أضيفت إلى الدراسات السابقة عن هذا البحر .

وتبلـور النشـاط الجغرافي المصري بظهـور الجمعيـة الجغرافيـة المصريـة سنـة ١٨٧٥ ، التي استهـدفت دراسـة الجغرافيـة في سـائر فروعهـا والكشف عن البـلاد الإفريقية التي لا تزال مجهولـة أو غير معروفـة تمـامـاً . وتولى رئـاستهـا في بـدايـة عهـدهـا المكتشف المشهـور جـورج شفيتفـورت ، ثم خلفـه مشـاهير المصريين في الجغرافية مثل أيوب بـاشـا ومحمود الفلكي . وقـامت هـذه الجمعيـة بنشر الكثير من البحوث القيمة ، مثلما أصدرت عـدداً من الكتب الجغرافيـة الهـامـة . واستضـافت هذه الجمعيـة عـدداً هـامـاً من كبـار رجـالات الجغرافيـة والمكتشفين مثل ستـانلي وبورتون الذين ألقوا محاضرات فيها ، كما حاضر في قاعتها محمد مختار باشا ، ومحمود باشا الفلكي ، وأحمد زكي باشا ومحمود بك سالم .

ويعتبر أحمد حسنين باشا من أنبغ الرحالة المصريين وأكثرهم جرأة ، فقد قام سنة ١٩٢٢ برحلـة اجتـاز فيهـا الصحراء الليبيـة من السلوم إلى حـدود السودان ، واستغرقت سنة كاملة وتوصل بفضل هذه الرحلة التي قـام بهـا مع قـافلـة خـاصـة به ، على ظهور الخيل والإبل ، إلى نتائج هامة منها : تحـديـد موقع آبـار الطيمن

وواحة الكفرة ، وكشف واحتي أركنو والعوينات في الزاوية الجنوبية الغربية من مصر ، واكتشاف طريق بين جنوب غرب مصر وسهل إيندي في التشاد ومنهـا إلى دارفور . وقد ألّف عن رحلته كتـابـاً بـالعربيـة يقع في جزأين دعـاه « في صحراء ليبيا » ، وكتاباً آخر بالإنكليزية في الموضوع نفسه .

وعلى كل حال يعتبر المرحوم محمد ثابت أكبر رحـالـة في فترة مـا بين الحربين العالميتين وله عدة كتب مطبوعة عن رحلاته .

ويماثلـه في النصف الثـاني من القرن العشرين الرحـالـة السعودي محمـد عبـد الحميد المرداد وله كتاب « مداين صالح » .



الجَاحِظ

(١٥٠ هـ - ٢٥٤ هـ ٧٦٨ م - ٨٦٩ م)

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، البصري ، المعتزلي ، المعروف بالجاحظ ، عالم ، أديب ، وكان عبقرياً فذاً تعددت جوانب عبقريته وكان نابغة من نوابغ عصره ، تنوع نبوغه في شتى المجالات . كان نابغة في العلوم نبوغه في الأدب والتاريخ وفي الرواية والشعر ، اجتمعت له ثقافات متعددة فكان موسوعة من الموسوعات أو دائرة معارف عصره ، مشاركاً في أنواع من العلوم .

ولد الجاحظ في البصرة حوالي العام ١٥٠ للهجرة ، وهي يومئذ مهد العلم وعش الأدب ، ومنتدى الثقافة . فسمع من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري ، وأخذ النحو عن الأخفش بن الحسن ، وأخذ الكلام عن النظام ، وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد ، وتنسب إليه الفرقة الجاحظية . وأغرم بالمطالعة إغراماً شديداً ، فلم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته ، ولما كانت حوانيت الورّاقين في البصرة زاخرة بشتى الرسائل والمدوّنات في العلوم المختلفة ، فقد كان يكتري حوانيتهم ، ويعتكف فيها للدرس والمطالعة ، وحبه الشديد للقراءة هو الذي دفعه إلى أن يتحدث عن فضل الكتاب في أكثر من موضع ، وينوه بقيمته في أكثر كتاب من كتبه .

وقد عاش الجاحظ في البصرة أكثر سنوات حياته المديدة ، ولكنه كان يقصد بغداد التي أقام فيها مدة من الزمن في عصر أوائل خلفاء بني العباس كالمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . وقد امتد به العمر فعاش زهاء قرن من الزمان صارع فيه البؤس ، وتجرع غصص الحاجة ، وعرف الناس وطباعهم وأخلاقهم ، وتذوق طعم الراحة بعد العناء والثراء بعد الفاقة ، وحقق لنفسه من المجد الأدبي والذكر الذائع ما أراده ، وما كانت تصبو إليه نفسه منذ حداثته .

وأصيب في أواخر حياته بالفالج ، ووافته منيته حوالي سنة ٢٥٤ هـ .

وقد كان الجاحظ علماً من أعلام الأدب الشوامخ في تاريخ أدبنا العربي ، وإماماً من أئمة البيان وأستاذاً من أساتذة النقد والبلاغة ، الذين تتلمذ له آلاف الدارسين .

وكان من أعظم الكتاب الذين لمعوا في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وصاحب أسلوب أصيل اختطه لنفسه ، وعرف به ، ومبتكر طريقة في الكتابة نسبت إليه .

ألف في اللغة والأدب والتاريخ ، وصنف في الأخلاق والسياسة والاجتماع ، وكتب في الحيوان

والنبات ، وردّ على اليهود والنصارى والشعوبيين[1] ، حتى لقد أربت مصنفاته ورسائله على المئتين في مختلف العلوم والآداب والفنون ، أهمها الحيوان في سبعة أجزاء ، البيان والتبيين ، الطباع ، النبيء والمتنبئ ، وسلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف . وله كتاب التبصر بالتجارة ، وكتاب الحنين إلى الأمصار . وفي غضون الفترة التي عاشها الجاحظ كان العراق مقر الخلافة العباسية يزخر بالثقافات المختلفة ، والدراسات المتعددة ، فهنالك أولاً الثقافة الإسلامية العربية وهي النبع الثر ، وتجاوزها ثانياً إلى الثقافة الفارسية التي أخذها العرب عن الفرس ، وتجاوزهما ثالثاً إلى ثقافة الإغريق التي ترجمت عنها كتب الفلسفة والمنطق .

ومن العجيب أن يحذق الجاحظ هذه الثقافات المختلفة ، ويمزجها ويخلط بين عناصرها في عمق وفهم ، ويتمثلها ، وأن تكون مؤلفاته وكتبه عصارة تلك الثقافات المتعددة بعد هضمها وتفاعلها ، وإضفاء الطريقة الجاحظية عليها ، وتقديمها للقراء شراباً سائغاً عذب المذاق ، والواقع أننا لا نجد في تاريخ الفكر الإسلامي رجلاً استوعبت مؤلفاته ما استوعبته مؤلفات الجاحظ من جوانب الحياة المتعددة في عصره .

ويذكر ياقوت في قائمة كتب الجاحظ التي أوردها في إرشاد الأريب كتاباً اسمه (كتاب البلدان) كما ذكر في معجم البلدان للجاحظ واقتطف منه أيضاً . ويدعوه المسعودي (الأخبار عن الأمصار وعجائب البلدان) . أما الشذرة المحفوظة في إحدى مخطوطات المتحف البريطاني فتحمل عنوان (كتاب الأوطان والبلدان) . ويقول المقدسي : « وأما الجاحظ وابن خرداذبة فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منها فائدة كبيرة » . ووجد المستشرق شارل بيلا وصفاً لكتاب البلدان للجاحظ يقول : « وهو كتاب في غاية الغثاثة لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تقرّى الممالك والأمصار ، وإنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين » .

ويذكر الجاحظ في المخطوطة أنه ألّف الكتاب بعد مئة وستة عشر سنة من ملك بني هاشم الثاني ، أي تأسيس الدولة العباسية ، فيكون تأليفه قد تم سنة ٢٤٨ هـ أي في أواخر حياة الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٤ هـ أو ٢٥٥ هـ .

وتبدأ رسالته بفصل عن ميل الناس إلى الاستقرار ومزايا حب الوطن ، ثم فصل عن خصائص قريش ، وفصل آخر عن البيت الحرام ، ثم فصل عن المدينة ، وفصل عن مصر ، وفصل عن خراج مصر ، وفصل عن خصائص المغرب ، ثم فصل عن تغيير الأهواز للناس ، ثم يتكلم عن ماء دجلة والفرات وعن البصرة والكوفة ويختم ذلك بفصل عن الحيرة .

---

(١) وورد عن الجاحظ قوله : خلق الله الحكمة في ثلاث : في لسان العرب ، وفي عقول الفرنجة وفي أيادي الصين ، وللمستشرق دزموند ستيوارت قول مماثل : حضارة العرب في الجاهلية كانت تتمثل في الشعر .

وأبرز من نقل عن كتاب البلدان هو ابن قتيبة في (عيون الأخبار) ، وابن رستة في (الأعلاق النفيسة) وياقوت في (معجم البلدان) . كما صرح ابن الفقيه الهمداني بنقله عن الجاحظ في ثلاثة مواضع .

ويتجلى من مؤلفات الجاحظ أنه كان إنسانياً واجتماعياً ، اهتم بالإنسان ضمن مجتمعه ، ويظهر هذا الاهتمام حتى في المؤلفات التي لا يدل عنوانها على صلتها بالإنسان . فكتابه الكبير عن الحيوان يحتوي من المعلومات عن البشر والقبائل والقضايا الفكرية التي تشغل بال الإنسان أكثر بكثير مما يحتويه من مادة خاصة بالحيوان .

وينمّ كتابه « التبصر بالتجارة » عن شدة اهتمامه بالجغرافيا ، إذ يمكن اعتباره أول محاولة قام بها العرب في ميدان الجغرافية الاقتصادية ، أو بالأحرى جغرافية الاستيراد والتسويق .

الكوفة

النزاع الكلامي والتنافس بين أهل المدن المتجاورة قديم ، ومنتشر في كل أصقاع العالم ، ولكن النزاع بين أهل الكوفة والبصرة في صدر الإسلام أدى إلى تنافس في ميدان النحو أيضاً . فظهرت المدرسة الكوفية والمدرسة البصرية . ويذكر لنا الجاحظ في النص التالي بعض ما يتقوّله أهل كل من المدينتين في المدينة الأخرى ، وتحيّزه لأهل البصرة واضح .

قال زياد[١] : الكوفة جارية لا مال لها ، فهي تخطب لجمالها . والبصرة عجوز شوهاء ، موسرة ، فهي تخطب لمالها .

والفرات خير من ماء النيل ، وأما دجلة فإن ماءها يقطع شهوة الرجال[٢] ويذهب بصهيل الخيل ، ولا يذهب بصهيلها إلا مع ذهاب نشاطها ونقصان قواها ، وإن لم يبتسم النازلون عليها أصابهم قحول[٣] في عظامهم ، ويبس في جلودهم .

---

(١) جاء في لطائف المعارف عن الجاحظ وفي العقد الفريد عنه : « الكوفة بكر حسناء والبصرة عجوز بخراء أوتيت من كل حلي وزينة » والبخراء هي المرأة ذات الفم الكريه الرائحة .

(٢) كثيراً ما يرد على ألسنة العامة بأن ماء المدينة الفلانية ذكر أي يزيد النشاط الجنسي ، وماء المدينة الفلانية أنثى ، على خلاف الأول .

(٣) القحول : التصاق الجلد على العظام من الهزال ، ومنه البلاد القاحلة أي القليلة الأمطار aride .

وجميع العرب[٤] النازلين على شاطئ دجلة من بغداد إلى بلد[٥] لا يرعون الخيل في الصيف على أواريها[٦] على شاطئ دجلة ، ولا يسقونها من مائها ، لما يخاف عليها من الصرام[٧] وغير ذلك من الآفات . وأصحاب الخيل من العتاق والبراذين إنما يسقونها بسرّ من رأى مما احتفروها من كارباتهم (؟) ولا يسقونها من ماء دجلة ، وذلك أن ماءها مختلط ، وليس هو ماء واحد ، ينصب فيها من الزابين[٨] والنهر أوانات وماء الفرات وغير ذلك من المياه ، واختلاف الطعام إذا دخل جوف الإنسان من ألوان الطبيخ والإدام غير ضار ، وإن دخل جوف الإنسان من شراب مختلف كنحو الخمر والسكر ونبيذ التمر والداذي كان ضاراً ، وكذلك الماء لأنه متى أراد أن يتجرع جرعاً من الماء الحار لصدره أو لغير ذلك ، فإن أعجله أمر فبرده بماء بارد ثم حساه ضرّه ذلك ، وإن تركه حتى يفتر ببرد الهواء لم يضره . وسبيل المشروب غير سبيل المأكول ، فإن كان هذا فضيلة مائنا على ماء دجلة ، فما ظنك بفضله على ماء البصرة ، وهو ماء مختلط من ماء البحر ومن الماء المستنقع في أصول القصب والبردي . قال الله عز وجل ﴿ هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٥٣] والفرات أعذبها عذوبة ، وإنما اشتق الفرات لكل ماء عذب من فرات الكوفة .

في ذكر البصرة

وكان يقال : إن الدنيا بصرة . وقال الأحنف لأهل الكوفة : نحن أغذّ منكم برية وأعظم منكم بحرية وأبعد منكم سرّية وأكثر منكم ذرية .

---

(٤) أي البدو

(٥) « بلد مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل » وبلد أيضاً بليدة معروفة من نواحي دجيل قرب الحضيرة وحربى من أعمال بغداد (ياقوت) وتسمى الأولى اليوم اسكي موصل ، أي موصل القديمة ، أما الثانية فتحتفظ اليوم باسمها القديم ، والراجح أن الجاحظ أشار في النص إلى الثانية .

(٦) المعالف .

(٧) داء يأخذ رؤوس الدواب .

(٨) أي نهر الزاب الأعلى ونهر الزاب الأدنى .

وقال الخليل بن أحمد في وصف القصر المذكور بالبصرة :

زُرْ واديَ القصرِ نعمَ القصرُ والـوادي ... لابـدّ من زورة من غير ميعـاد
ترقى بهـا السفن والظلمـان واقفـة ... والضب والنـون والملاح والهـادي

ومن أتى هـذا القصر ، وأتى قصر أنس ، رأى أرضاً كالكافـور وتربـة ثريـة ، ورأى ضبّاً يُحترش ، وغزالاً يُقتنص ، وسمكاً يُصطـاد ، مـا بين صـاحب شعر ، وصاحب شبكة ، ويسمع غناء ملاّح على سُكّانه وحِداء جمّال على بعيره »

قالوا : وفي أعلى جبّانة البصرة موضع يقال لـه الحزيز ، يـذكر النـاس أنهم لم يروا قط « هواء أعدل ولا نسيماً أرَقّ ولا ماء أطيب منها في ذكر ذلك الموضع » .

وقـال جعفر بن سليمـان : « العراق عين الـدنيـا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة ، وداري عين المربد » .

وقـال أبـو الحسن وأبـو عبيـدة بُصّرت البصرة سنـة أربـع عشرة[٩] . وكوّفت الكوفـة سنـة سبع عشرة . زعم أهـل الكـوفـة أن أهـل البصرة أسرع أهـل الأرض خراباً ، وأخبثهـا ترابـاً ، وأبعـدهـا من السماء ، وأسرعهـا غرقـاً ، ومغيض مـائهـا البحر ، ثم يخرج ذلـك إلى البحر الأعظم . وكيف تغرق وهم لا يستطيعـون أن يوصلوا مـاء الفيض[١٠] إلى حيـاضهم إلا بعـد أن يرتفع ذلـك المـاء في الهواء ثلاثين ذراعاً في كل سقاية بعينها لا بحوض بعينه ..

وهذه أرض بغداد ، في كل زيادة ماء ينبع الماء في أجواف قصورهم الشارعـة بعد أحكام المسنيّات[١١] التي لا يقوى عليها إلا الملوك ، ثم يهـدمون الـدار التي على دجلة فيكنسون بها تلك السكك ، ويتوقعون الغرق في كل ساعة .

---

(٩) أي أنشئت سنة أربع عشرة للهجرة .

(١٠) الفيض نهر في البصرة كان يمر بين بيوتها .

(١١) وفي مصدر آخر المبنيات .

قال : وهم يعيبون ماء البصرة[١٢] وماء البصرة رقيق قد ذهب عنه الطين والرمل المشوب بماء بغداد والكوفة ، لطول مقامه بالبطيحة ، وقد لان وصفا .

وإن قلتم إن الماء الجاري أمرأ[١٣] من الساكن ، فكيف يكون ساكناً مع تلك الأمواج العظام والرياح العواصف والماء المنقلب من العلو إلى الأسفل ، ومع هذا إنه إذا صار من مخرجه إلى ناحية الدير ونهر أبي الأسد وسائر الأنهار ، وإذا بَعُد من مدخله إلى البصرة من الشق القصير ، جرى منقضاً إلى الصخور والحجارة فراسخ وفراسخ حتى ينتهي إلينا .

ويدل على صلاح مائهم كثرة دورهم ، وطول أعمارهم ، وحسن عقولهم ، ورفق أكفهم ، وحذقهم لجميع الصناعات ، وتقدمهم في ذلك لجميع الناس ، ويستدل على كرم طينهم ببياض كيزانهم ، وعذوبة الماء البائت في قلالهم[١٤] وفي لون آجرهم كأنما سُبك من محّ بيض ، وإذا رأيت بناءهم وبياض الجص الأبيض بين الآجر الأصفر لم تجد لذلك شبهاً أقرب من الفضة بين تضاعيف الذهب ، فإذا كان زمان غلبة ماء البحر فإن مستقاهم من العذب الزلال الصافي النير في الأبدان على أقل من فرسخ ، وربما كان أقل من ميل[١٥]

ونهر الكوفة الذي يسمونه إنما هو شعبة من أنهار الفرات ، وربما جف حتى لا يكون لهم مستقى إلا على رأس فرسخ[١٦] وأكثر من ذلك ، حتى يحفروا الآبار

---

(١٢) جاء في عيون الأخبار : « وكان يقول زياد مثل الكوفة كمثل اللهاة يأتيها الماء ببرده وعذوبته ، ومثل البصرة كالمثانة يأتيها وقد تغيّر وفسد » .

(١٣) ألذ وأطيب .

(١٤) الكوز أو الجرة أو ما يسمى بالحابية أو المزمّلة الواسعة الفوهة والقلّة : الشربة الضيقة الفوهة .

(١٥) كان توفير المياه العذبة الصالحة للشرب من المشاكل التي واجهت ولاة البصرة منذ أوائل إنشائها . لأن مياه البحر المالحة كانت تؤثر في عذوبة شط العرب ، فكان لابد لأهل البصرة من الاعتماد على مياه البطيحة التي تقع في أطرافها الشمالية ، وقد حفر لهذا الغرض نهر عدي ، ونهر ابن عمر ، لتوفير الماء العذب من البطيحة .

(١٦) إن لإشارة الجاحظ إلى قلة ماء الكوفة أهمية كبيرة في دراسة تاريخ توزيع المياه في العراق ، فمن المعلوم أن الفرات يتشعب إلى عدة شعب في هذه المنطقة ، أما كمية المياه في كل شعبة فلم تكن ثابتة . ومن المعلوم أن =

في بطون نهرهم ، وحتى يضر ذلك بخضرهم وأشجارهم ، فلينظروا أيّما أضرّ وأيما أعيب ، وليس من نهر من الأنهار التي تصب في دجلة إلا هو أعظم وأكبر وأعرض من موضع الجسر .... من نهر الكوفة وإنما جسره سبع سفاين ، لا تمر عليه دابة ، لأنها جذوع مقيدة بلا طين ، وما يمشي عليه الماشي إلا بالجهد ، فما ظنك بالحوافر والخفاف والأظلاف .

وعامة الكوفة خراب يباب ، ومن بات فيها علم أنه في قرية من القرى ورستاق من الرساتيق بما يسمع من صياح بنات آوى وضباح الثعالب وأصوات السباع[١٧] وإنما الفرات دما[١٨] إلى ما اتصل به إلى بلاد الرقة وفوق ذلك . فأما نهرهم فالنيل[١٩] أكبر منه وأكثر ماءاً وأدوم جرّة .

وقد تعلمون كثرة عدد أنهار البصرة ، وغلبة الماء ، وتطفح الأنهار ، وتبقى النخلة عشرين ومائة سنة وكأنها قرواح[٢٠] ، وليس يرى من قرب القرية التي يقال لها النيل إلى أقصى أنهار الكوفة نخلة طالت شيئاً إلاّ وهي معوجة كالمنجل ، ثم لم نر غارس نخل قط في أطراف الأرض يرغب في فسيل لو كان في علمه بخبث مغرسه وسوء نشوه وفساد تربته ولؤم طبعه .

وليس لليالي شهر رمضان في مسجدهم غضارة ولا بهاء .

= سدة الهندية أنشئت في أوائل القرن العشرين لتنظيم توزيع المياه بين فرعي الفرات الرئيسية بعد أن كاد يجف الفرع الشرقي وهو نهر الحلّة .

(١٧) إن وصف الجاحظ للكوفة يظهر مدى تقهقرها في عصره ، ولابد أن لإنشاء بغداد أثراً في ذلك . ويندر أن نجد في المصادر من وصف انحلال الكوفة إلا الجاحظ . وليس للكوفة وجود في عصرنا .

(١٨) تقع دما عند فوهة نهر عيسى الذي يأخذ من نهر الفرات ويصب في دجلة في بغداد جنوبي مدينة المنصورة المدورة . وملاحظة الجاحظ طريفة من حيث أن الفرات بعد دما تتشعب منه عدة أذرع .

(١٩) يقصد الجاحظ بالنيل هنا النهر الذي يتفرع من نهر سورا بالقرب من بابل ويتجه شرقاً حتى يصب بزائره في دجلة قرب جبل . وتقع على هذا النهر مدينة النيل .

(٢٠) قرواح : النخلة التي انجرد كربها وطالت ، أو مستقية عالية منتصبة .

وليس منار مسجدهم على صور منار البصرة ولكن على صور منار الملكية واليعقوبية .

ورأينا بها مسجداً خراباً تأويه الكلاب والسباع وهو يضاف إلى علي بن أبي طالب مالو كان بالبصرة لتمسّحوا به وعمروه بأنفسهم وأموالهم . وخبرني من بات فيها أنه لم ير كواكبها زاهرة قط ، وأنه لم يرها إلا ودونها هفوة : وكأني في مائهم مزاج دهن . وأسواقهم تشهد على أهلها بالفقر . وهم أشد بغضاً لأهل البصرة من أهل البصرة لهم .

وأهل البصرة هم أحسن جواراً وأقل بذخاً وأقل فخراً . ثم العجب من أهل بغداد وميلهم معهم وعيبهم إيانا في استعمال السماد في أرضنا ولنخلنا : ونحن نراهم يسمدون بُقولهم بعذرة اليابسة صرفاً ، فإذا طلع وصار له ورق ذروا عليه من ذلك العذرة اليابسة حتى يسكن في خلال ذلك الورق . وإذا أراد أحدهم أن يبني داراً فيجيء إلى مزبلة ، فيضرب منها لبناً : فإذا كانت داره مطمئنة ذات قعر ، حشا من تلك المزبلة التي لو وجدها أصحاب السماد عندنا لباعوها بالأموال النفيسة ، ثم يسجرون تنانيرهم بالكساحات التي فيها من كل شيء ، وبالأبعار والأخثاء وكذلك مواقد الكيران .

وتمتلئ ركايا دورهم عذرة فلا يصيبون لها مكاناً فيحفرون لذلك في بيوتهم آباراً حتى ربما حفر أحدهم في مجلسه ، وفي أنبل موضع في داره فليس يبقى لمن كان كذلك أن يعيب البصريين بالتسميد .

وليس في الأرض أرفق بأهلها من بلدة لا يعزّ بها النقد ، وكل مبيع بها يمكن ، فالشامات وأشباهها الدينار والدرهم بها عزيزان ، والأشياء بها رخيصة ، لبعد المنقل وقلة عدد من يبتاع . ففيما يخرج أرضهم أبداً فضل عن حاجتهم . والأهواز وبغداد والعسكر[٢١] يكثر فيها الدراهم ويعز فيها المبيع ، لكثرة عدد

(٢١) المقصود بها على الغالب عسكر المعتصم أي سامراء .

الناس وعدد الدراهم . وبالبصرة الأثمان ممكنة والمثمنات ممكنة ، وكذلك الصناعات وأجور أصحاب الصناعات ، وما ظنك ببلدة يدخلها في البادي من أيام الصّرام إلى بعد ذلك بشهر ما بين ألفي سفينة تمراً وأكثر في كل يوم ، لا يبيت فيها سفينة واحدة ، فإن باتت فإنما صاحبها هو الذي يبيتها ، لأنه لو كان حط في كل ألف رطل قيراطاً لانتسفت انتسافاً .

ولو أن رجلاً ابتنى داراً يتمها ويكملها ببغداد أو بالكوفة أو بالأهواز أو في موضع من هذه المواضع فبلغت نفقتها مئة ألف درهم ، فإن البصري إذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألفاً ، لأن الدار إنما يتم بناؤها بالطين واللبن وبالآجر والجص والأجذاع والساج والخشب والحديد والصناع . وكل هذا يمكن في البصرة على الشطر مما يمكن في غيرها . وهذا معروف .

ولم نر بلدة قط تكون أسعارها ممكنة مع كثرة الجماجم بها إلا البصرة ، طعامهم أجود الطعام ، وسعرهم أرخص الأسعار ، وتمرهم أكثر التمور ، وريع دبسهم[٢٢] أكثر ، وعلى طول الزمان أصبر ، ببقاء تمرهم الشهريز[٢٣] عشرين سنة ، ثم بعد ذلك يخلط بغيره فيجيء له الدبس الكثير وأعذب الحلو والخاثر القوي . ومن يطمع من جميع أهل النخل أن يبيع فسيلة بسبعين ديناراً أو بجونة[٢٤] بمئة دينار أو جريباً بألف دينار غير أهل البصرة . قال : ولأهل البصرة المد والجزر على حساب منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئاً . يأتيهم الماء حتى يقف على أبوابهم ، « فإن شاؤوا أذنوا له وإن شاؤوا حجبوه » .

ومن العجب لقوم يعيبون البصرة لقرب البحر والبطيحة ، ولو اجتهد أعلم الناس وأنطق الناس أن يجمع في كتاب واحد منافع هذه البطيحة وهذه الأجمة ،

---

(٢٢) الدبس عصير التمر وهو مشهور في العراق .

(٢٣) من أصناف التمور في العراق .

(٢٤) وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر يكنز فيها .

لما قدر عليها ، قال زياد : قصبة خير من نخلة . وبحق أقول : لقد جهدت جهدي أن أجمع منافع القصب ، ومرافقه ، وأجناسه ، وجميع تصرفه ، وما يجيء منه فما قدرت عليه حتى قطعته . وأنا معترف بالعجز مستسلم له . فأما بحرنا هذا فقد طمّ على كل بحر وأوفى عليه ، لأن كل بحر في الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئاً إلا بحرنا هذا الموصول ببحر الهند إلى ما لا تذكر ، وأنت تسمع بملوحة ماء البحر وتستسقطه وتزري عليه ، والبحر هو الذي يخلق الله تعالى منه الدر الذي يبعت الواحدة بخمسين ألف دينار ، ويخلق في جوفه العنبر ، وقد تعرفون قدر العنبر ، فشيء يولد هذين الجوهرين كيف يحقر[٢٥] ، ولو أنا أخذنا خصال هذه الأجمة وما عظمنا من شأنها فقذفنا بها في زاوية من زوايا بحرنا هذا لضلّت ، حتى لا نجد لها حسّاً ، وهما لنا خالصان دونكم ، وليس يصل إليكم منها شيء إلا بسببنا ، وتعدينا فضل غنا[٢٦] .

وقال بعض خطبائنا : نحن أكرم بلاداً ، وأوسع سوراً ، وأكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً وأكثر خراجاً ، لأن خراج العراق مائة ألف ألف واثني عشر ألف ألف وخراج البصرة من ذلك ستون ألف ألف وخراج الكوفة خمسون ألف ألف .

(٢٥) قال الجاحظ : ما ظنك بماء إذا حبث وملح ولّد الدر وأثمر العنبر .

(٢٦) ربما المقصود : وزيادة على حاجتنا .

ابن خرداذبة

(توفي حوالي ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م)

أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المشهور بابن خرداذبة ، ينتسب إلى أسرة فارسية اعتنقت الإسلام وكان جده مجوسياً . أما والده فكان حاكماً على طبرستان جنوبي بحر قزوين في أوائل القرن التاسع ، وذاع صيته بسبب النجاح الذي أحرزه في إخضاع بعض مناطق الديلم التي لم تدخل ضمن أراضي الخلافة الإسلامية حتى زمانه . أما عبيد الله فقد حصل على تعليم جيد وكان لوالده فضل كبير في دراسته الموسيقا ، فتتلمذ ردحاً من الزمن على إسحاق الموصلي ، المغني والموسيقي الشهير . وقد شغل منصب مدير البريد والخبر بنواحي الجبال بفارس (ميديا القديمة أو أذربيجان وكردستان الحالية) ثم شغل وظيفة رئيس هذه المصلحة في بغداد وفي سرَّ من رأى . غير أن مكانة أسرته جعلته مقرباً من الخليفة المعتمد (ولد في ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م وتوفي في ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) بسامراء ومن ندمائه أصحاب النفوذ . وفي الوقت نفسه سمحت له مكانته والمناصب التي شغلها بأن يحصل على الوثائق التي استمد منها المواد اللازمة لمؤلفاته البالغ عددها عشرة ، والتي لا نعرف منها سوى أسمائها ، ومن المقتطفات المثبتة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشارات إليها في المراجع المختلفة . وجميع هذه المؤلفات تقريباً تدور في فلك الأدب الخفيف والحياة المرحة ، وقد نعثر في بعضها على بعض الاتجاهات الشعوبية كما في كتابه « جمهرة أنساب الفرس » وبعضها يرمي إلى إمتاع علية القوم مثل « كتاب الشراب » و « كتاب الطَّبيخ » وقد كشف النقاب مؤخراً عن مخطوطة واحدة عنوانها « اللاهي والأسمار » وذلك ضمن مجموعة أحد الهواة . وله فضلاً عن ذلك مصنف في « التاريخ » يعالج تاريخ العرب قبل الإسلام ، كما يذكر المسعودي ، كما تحتوي قائمة مؤلفاته على « كتاب الأنواء » كما هو مألوف لدى أدباء عصره .

لكن ما يهمنا هو كتابه الجغرافي الذي أسماه « المسالك والممالك » ، والذي بدأ بتأليفه حوالي عام ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م ، وتابع العمل فيه إلى أن أدركته المنية في تاريخ أعقب عام ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م ، ومن المحتمل أن وضع هذا الكتاب جاء استجابة لطلب أحد العباسيين .

وقد أصبح عنوان كتابه هذا شائعاً جداً من بعده . وينقسم إلى سبعة أقسام متفاوتة جداً في طولها . فالقسم الأول يشتمل على نظريات كوزموغرافية[١] مستمدة على الأرجح من بطليموس ، بينما

---

(١) الكوزموغرافيا : علم الحركات الفلكية للأرض والكون .

يضم القسم الثاني عرفية nomenclature جغرافية لإقليم بغداد ، باعتباره مركز العالم حينذاك .

أما في الجزء الثالث والرابع والخامس والسادس فيعطينا المؤلف ، بالتتالي ، معلومات إضافية عن مسالك الشرق (فارس ، الهند والصين) والغرب (بلاد الشام ، مصر ، المغرب ، شمالي مابين النهرين ، وبيزنطة) والشمال (أرمينيا ومنطقة بحر الخزر) وجزيرة العرب . ونجد أخيراً في الجزء السابع معلومات عامة عن أقسام العالم وغرائبه ، ويتراءى لنا أن شطراً من هذا الجزء ، على الأقل ، ليس من إنتاج جهده الشخصي . وقد ضمّن ابن خرداذبة كتابه إحصاء جباية الإمبراطورية العباسية ، وطول المسافات بين البلاد ، وقبلة أهل كل بلد ، وفوائد تاريخية كثيرة .

وعند تحقيقه ونشره عام ١٨٨٩ على يد المستشرق دي خويه ألحق به قطعة من كتاب « الخراج وصنعة الكتابة » لقدامة بن جعفر البغدادي .

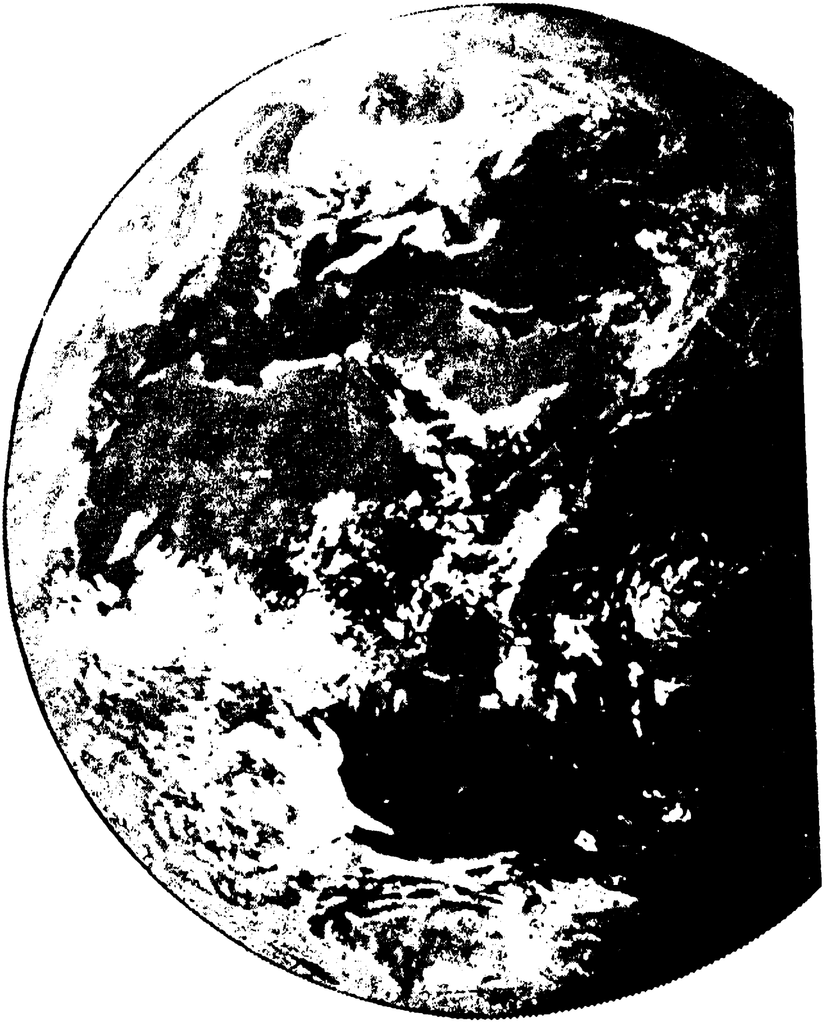
ويبدو أسلوب ابن خرداذبة جافاً جداً عندما يتكلم عن العرفية ، مثلما يظهر عديم اللون في المقاطع الوصفية . ونميل للظن بأن المؤلف لم يهتم بتحسين أسلوبه ، لأنه لم ينظر لكتابه كصنف أدبي بل كوجيز معد لجمهور معين .

وقال الأصبهاني في كتابه الأغاني ينتقد ابن خرداذبة :

« وذكر ابن خرداذبة أنه غنّى (أي معبد) في أول دولة بني أمية وأدرك دولة بني العباس ، وقد أصابه الفالج وارتعش وبطل صوته ، فكان إذا غنى يُضحك منه ويُهزأ به . وان ابن خرداذبة قليل التصحيح لما يرويه ويُضمنه كتبه ، والصحيح أن معبداً مات في أيام الوليد بن يزيد وهو عنده . وقد قيل : « إنه أصابه الفالج قبل موته وارتعش وبطل صوته . فأما إدراكه دولة بني العباس فلم يروه أحد سوى ابن خرداذبة ، ولا قاله ولا رواه أحد وإنما جاء به مجازفة » .

« النص الأول »
الأرض في الكون وأبعادها

يغلب على الاعتقاد أن كوزموغرافية ابن خرداذبة مقتبسة من كتاب بطليموس . ونجد ذلك تماماً لدى الكثير من الجغرافيين العرب ، دون أن يكون من المستطاع الجزم فيما إذا كانوا قد نقلوها عن ابن خرداذبة ذاته أو من المصدر نفسه الذي اعتمد عليه المؤلف .



« إن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك[٢] كالمحّة في جوف البيضة . والنسيم[٣] حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك وبنية[٤] الخلق[٥] على الأرض لأنّ النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد . والأرض مقسومة بنصفين بينهما[٦] خط الاستواء وهو من المشرق إلى المغرب وهذا طول الأرض ، وهو أكبر خط في كرة الأرض كما أن منطقة البروج[٧] أكبر خط في الفلك . وعرض الأرض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سُهَيْل إلى القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نَعْش[٨] . فاستدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاث مئة وستون درجة والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً[٩] والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع والذراع أربع وعشرون إصبعاً ، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ . وبين خط الاستواء وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة أصطرلابية[١٠] ، واستدارتها[١١] عرضاً مثل ذلك ، إلا أن العمارة[١٢] في الأرض بعد[١٣] خط الاستواء أربع وعشرون درجة ، ثم الباقي قد غمره البحر الكبير . فنحن على الربع الشمالي من الأرض ،

---

(٢) الفلك : الفراغ .

(٣) النسيم : الجو .

(٤) البنية : تعني هذه الكلمة عموماً هيكل الجسم أو « سقالة » بناية . وتعني هنا التركيب الطبيعي .

(٥) الخلق : تعني هنا المخلوقات ، أي الكائنات المخلوقة .

(٦) بينهما : منفصلين عن بعضهما بـ ..

(٧) خط البروج .

(٨) ان الفعل المضمر في هذه الجملة الإسمية هو : يمتد من ... إلى .

(٩) تعني هذه الكلمة الفارسية الأصل مقياساً يعادل المسافة التي يقطعها حصان مشياً في مدة ساعة . وطوله عند الفرس ٥٢٥٠ م وعند العرب ٥٧٦٢ م .

(١٠) الأصطرلاب : أداة لقياس وضع الكواكب وارتفاعها فوق الأفق .

(١١) استدارة : دائرة .

(١٢) أي المناطق المأهولة .

(١٣) أي ماوراء .

والربع الجنوبي خراب لشدة الحر فيه ، والنصف الذي تحتنا لاساكن فيه . وكل ربع من الشمالي والجنوبي[١٤] سبعة أقاليم ، وذكر بطليموس[١٥] في كتابه[١٦] أن مدن الأرض على عهده كانت أربعة آلاف ومئتي مدينة .

« النص الثاني »
الطريق من قابس إلى المغرب

تتصف المسالك ، في كتاب ابن خرداذبة ، بالكثير من جفاف الأسلوب إذ لا تحتوي على أكثر من قائمة للمحطات المتناثرة على الطرق وعلى ذكر المسافات الفاصلة بين هذه المراحل . غير أن المؤلف قد يعطي ، لا سيا عندما يتكلم عن مسالك الأقطار النائية ، بعض التفاصيل التاريخية عن القطر المذكور كما هو الحال في الطريق التالي . قارن هذا النص مع نص اليعقوبي فيا بعد .

« ثم من الفوّارة إلى قابس مدينة الأفارقة الأعاجم ثلاثون ميلاً . ثم إلى بئر الزيتونة ثلاثة عشر ميلاً . ثم إلى كتانة أربعة وعشرون ميلاً . ثم إلى اليسر ثلاثون ميلاً . ثم إلى القيروان مدينة المآجن[١٧] أربعة وعشرون ميلاً ، وهي مدينة إفريقية ، وهي في وسط المغرب[١٨] ، وهي مدينة في يد ابن الأغلب[١٩] ، وفي يده قابس وجلولا وسُبَيْطلة مدينة جرجير[٢٠] الملك ، وكان رومياً وبينها وبين القيروان سبعون ميلاً ، وزَرود وغَدامس وقلسانة وقفصة وقصطيلية ومدينة

(١٤) ومعناها ينقسم كل من الربع الشمالي والربع الجنوبي إلى سبعة .

(١٥) كلوديوس بطليموس . فلكي وجغرافي يوناني . توفي عام ١٦٨ م . وقد لعبت مؤلفاته التي ترجمت إلى العربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين (٨ م و ٩ م) دوراً كبيراً في تطوير العلوم الفلكية والجغرافية لدى العرب .

(١٦) ويقصد بها هنا جغرافية بطليموس التي نقلها ثابت بن قرة ، المتوفي عام ٩٠٣ م ، إلى العربية .

(١٧) جمع مأجن أي صهريج أو خزان مائي .

(١٨) يبدأ المغرب عند الجغرافيين العرب في ليبيا ، وعلى هذا الأساس تقع القيروان في وسط المغرب .

(١٩) إبراهيم بن الأغلب مؤسس أسرة الأغالبة التي حكمت بلاد تونس الحالية بين ٨٠٠ و ٩٠٠ م .

(٢٠) أي غريغوار ، بطريق بيزنطي أعلن استقلاله عن سبيطلة أثناء الفتح العربي للمغرب . وحاول صد الزحف العربي غير أنه قتل في معركة سبيطلة التي انتصر فيها المسلمون سنة ٦٨٤ م .

الـزاب وتَهـوذة وسلـسان وودّان وطفر جيـل وزغـوان وتــونس ، وبين إفريقيــة وبينها مرحلتـان على البغـال ، واسم مـدينـة تونس قرطـاجَنـة وهي على سـاحل البحر يحيـط بسورهـا أحـد وعشرون ألف ذراع . وبين تـونس وبين بر الأنـدلس عرض البحر وهو هناك ستة فراسخ . ثم إلى قرطبة مدينة الأنـدلس مسيرة خمسـة أيام .

وفي يـدي الرّستَمي الإبـاضّي[٢١] ، وهـو ميـون بن عبـد الـوهـاب بن عبـد الرحمن بن رستم ، وهو من الفرس[٢٢] ، ويسلَّم عليه بالخلافة ... ، تاهرت[٢٣] ومـا والاهـا وبين إفريقيـة وبين تـاهرت مسيرة شهر على الإبـل ... وفي يـدي ولـد إدريس بن إدريس بن عبـد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طـالب[٢٤] رحمه الله عليهم تلمسان ، ومن تاهرت إليهـا مسيرة خمسـة وعشرين يومـاً ، عمران كلها ، وطنجة وفاس وبها منزلـه ، ومن تـاهرت إليهـا مسيرة أربع وعشرين ليلـة وخلفهـا[٢٥] طنجـة وخلف طنجـة السـوس الأدنى[٢٦] وهي من القيروان على ألفي ميـل ومئـة وخمسين ميـلاً وأهلهـا بربر . وخلف السـوس الأدنى والسـوس الأقصى وبينهما مسيرة نيف وعشرين يوماً . وفي يديه وليلة[٢٧] ومدركة ومتروكة ومدينـة زقّـور وغـزّة وغميرة والحـاجر وتـاجراجرا وفنكـور الخضراء ، وهي على البحر ، وعرض البحر عنـدهـا سـتـة فراسخ ، وأوراس ومـا يتصل ببلاد زاغي بن زاغي ،

---

(٢١) تأسست الأسرة الرستمية في عام ٧٦١ على يد عبد الرحمن بن رستم المستند على المذهب الخارجي الإباضي كي يوطد حكمه بين البربر . وقد تلاشت هذه الأسرة في مطلع القرن العاشر الميلادي .

(٢٢) ضمير هو يعود إلى رستم .

(٢٣) أي وفي يدي الرستمي تاهرت . وتدعى هذه المدينة حالياً تيارت .

(٢٤) حكمت الأسرة الإدريسية شمالي المغرب وإقليم تلمسان حتى أواسط القرن الحادي عشر الميلادي . ولكنها كانت في ذلك العصر في الحضيض من الانحطاط بعد أن انقسمت المملكة الإدريسية إلى عدة إقطاعيات .

(٢٥) أي ماوراء فاس .

(٢٦) يميز الجغرافيون العربي بين السوس الأدنى والسوس الأقصى . فالأول كان يشتمل على كل المغرب الشمالي حتى نهر أم الربيع بينما كان يضم الثاني كل جبال الأطلس .

(٢٧) مدينة أثرية تقع قرب فاس واسمها القديم Volubilis .

والسودان العراة إلى ما يحاذيه من نواحي البحر ، وليس يسلم عليه بالخلافة ، وإنما يقال السلام عليك يا بن رسول الله .

« النص الثالث »

طريق تجارة منطقة ناربونة اليهود[٢٨]

وقد يذكر لنا ابن خرداذبة ، أحياناً ، المسالك الكبرى التي كان يمر بها التجار الأجانب في عصره . وهاكم طريق تجار اليهود الذين كانوا ينطلقون من منطقة ناربونة نحو الشرق كي يتاجروا بسلع أوروبا الغربية .

« هذا مسلك التجار اليهود الراذانية[٢٩] الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية[٣٠] ، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز[٣١] والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي[٣٢] فيخرجون بالفَرَما[٣٣] ، ويحملون تجارتهم على الظهر[٣٤] إلى القُلْزم[٣٥] وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم

---

(٢٨) أو Narbonnaise وهو إقليم يقع في أقصى جنوب فرنسا على حافة ألبيرنيه وساحل البحر الأبيض المتوسط . ومدينة نربونة Narbonne ظلت مدة طويلة في أيدي عرب الأندلس .

(٢٩) لا نعرف أصل هذه الكلمة على الضبط التي تكتب أحياناً على شكل رهدانية وجمعها رهادنة ، ويظن بعضهم أن أصلها فارسي لأن كلمة رهدان تعني دليل الدرب ، في حين ينسبهم الآخرون إلى منطقة نهر الرون الفرنسي .

(٣٠) أي اللغة التي يتكلمها الصقالبة أي السلاف .

(٣١) الخز أي كلب الماء Castor .

(٣٢) أي البحر الأبيض المتوسط .

(٣٣) الفرما ، ميناء ومدينة مصرية على البحر الأبيض المتوسط غربي العريش وقد خربها الصليبيون سنة ١١٠٠ م .

(٣٤) على الأرض .

(٣٥) مدينة صغيرة ، غير موجودة في أيامنا ، كانت على ساحل البحر الأحمر في نهاية القناة القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر وكانت تدعى قناة أمير المؤمنين نسبة إلى عمر بن الخطاب .

إلى الجار[٣٦] وجُدّة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم يركبون في البحر الغربي ، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وإن شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي ، فيخرجون بأنطاكية ، ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية[٣٧] ، ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ، ثم يركبون دجلة إلى الأبُلّة[٣٨] ، إلى عُمان والسند والهند والصين وكل ذلك متصل بعضه ببعض .

« النص الرابع »
وصف روما

لا نعثر لدى ابن خرداذبة على التفاصيل الغريبة أبداً ، تقريباً ، مادام يتكلم عن عرفية nomenclature المسالك في العالم الإسلامي . غير أننا نجد في فصول كتابه التي تتعرض للأقطار الأجنبية زمرة من المعلومات الساذجة ، بعضها مغلوط والآخر ثمين ، جمعها المؤلف بلا تمييز . ووصفه لمدينة روما . الذي صاغه بأسلوب قليل التثبت للغاية ، يميز طريقة ابن خرداذبة إلى حدّ كبير ، في الفقرات القصصية أو الوصفية .

« رومية لها ثلاثة جوانب منها الشرقي والجنوبي والغربي في البحر ، والجانب الشمالي يلي البر وطولها من الباب الشرقي إلى الباب الغربي ثمانية وعشرون ميلاً ، ولها حائطان من حجارة بينهما فضاء له ستون ذراعاً ، وعرض السور الداخل[٣٩]

---

(٣٦) ميناء عربي قديم على البحر الأحمر شمالي جدة .

(٣٧) مدينة صغيرة على الفرات هي بالس أو مسكنة القديمة .

(٣٨) ميناء على الخليج العربي .

(٣٩) أي الداخلي .

اثنتا عشرة ذراعاً ، وسمكه اثنتان وسبعون ذراعاً ، وعرض السور الخارج[٤٠] ثماني أذرع ، وسمكه اثنتان وأربعون ذراعاً . وفيما بين السورين نهر مغطّى ببلاط نحاس ، طول كل بلاطة ست وأربعون ذراعاً ، يقال لهذا النهر فسطيطالس[٤١] ، وبين باب الذهب وباب الملك اثنا عشر ميلاً ، وسوق الطير بها فرسخ ، وسوق المادّة[٤٢] من الباب الشرقي إلى الباب الغربي بثلاث[٤٣] أصطوانات[٤٤] ، وحُنَيّتا[٤٥] الوسطى منهنّ بعمد نحاس أصفر رومي قصبة العمود ، وقاعدته ورأسه مفرغ منه[٤٦] ، وفيه[٤٧] حوانيت التجار وسمك الأعمدة ثلاثون ذراعاً ومقدّم هذه الأعمدة والحوانيت نقير[٤٨] نهر من نحاس أصفر شرقيّها إلى غربيّها ، يجري فيه لسان من البحر ، وتجري السفن فيه بحمولتها ، فتجيء السفينة بما فيها حتى تقف على حانوت المشتري ... وفي داخل المدينة كنيسة ، بنيت على اسم بطرس وبولس الحواريين ، وهما فيها في جرن[٤٩] ، وطول هذه الكنيسة ثلاثمئة ذراع ، وعرضها مئتا ذراع ، وسمكها ثمانون ذراعاً ، مبنيّة بقناطر نحاس أصفر ، وأركان نحاس أصفر مفرّغة ، وسقف هذه الكنيسة وحيطانها من نحاس أصفر رومي ، وبرومية ألف ومئتا كنيسة ، وأسواقها كلها مبلطة برخام أبيض ، وفيها أربعون ألف حمّام ، وفيها كنيسة شبّهت ببيت المقدس ، طولها ميل ، فيها مذبح يقرّب عليه القُربان ، من زمرد أخضر ، طوله عشرون ذراعاً ، وعرضه ستة أذرع ، يحمله اثنا

---

(٤٠) أي الخارجي .

(٤١) ربما جاءت هذه الكلمة من تحريف كلمة Fistulatus وأصلها اللاتيني Fistula أي قنال .

(٤٢) أي السوق الكبير

(٤٣) أي مؤلف من ثلاث .

(٤٤) أسطوانة وجمعها أساطين أي قوس أو قنطرة فوق عودين .

(٤٥) حُنيّة أي نهاية قنطرة .

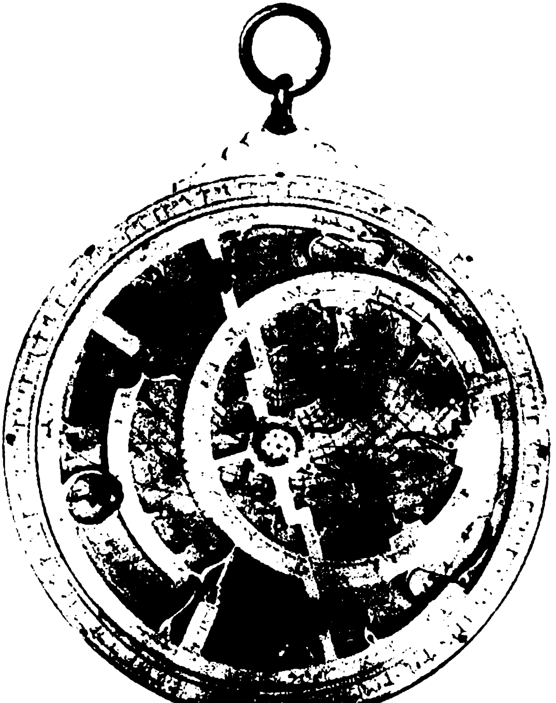
(٤٦) أي مفرغ من النحاس .

(٤٧) أي في السوق .

(٤٨) وفي ذلك السوق نقير ، ونقير نهر معناه قنال .

(٤٩) تابوت من حجر .

عشر تمثالاً[٥٠] من ذهب وإبريز ، طول كل تمثال منها ذراعان ونصف ، ولكن تمثال عينان من ياقوت أحمر ، تضيء منها الكنيسة ، ولهذه الكنيسة ثمانية وعشرون باباً من ذهب إبريز عظام ، وألف باب من نحاس أصفر مفرّغ ، سوى أبواب أبنوس وأبقسيون[٥١] ، وأصناف جيّد الخشب المنقوش الذي لا يدرى ما قيمته . وحول سور رومية ألف ومئتان وعشرون عموداً فيها رهبان .



---

(٥٠) تمثال : تمثال يحمل إفريزاً .

(٥١) أرز ؟ أو بقص .

ابنُ رُسْتَة

(توفي بعد عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م)

هو أبو علي أحمد بن عمر الشهير بابن رستة ، ولا نعرف الكثير عن سيرة حياته ، وكل ما نعرفه أنه فارسي الأصل قضى الشطر الأكبر من حياته في أصفهان ، وأنه قام بأداء فريضة الحج إلى مكة المكرمة في سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ، وكتب فيما بعد هذا التاريخ موسوعة عنوانها : (الأعلاق النفيسة) ، ونجهل تاريخ ولادته ووفاته على التحديد .

ويرى ماكفارث أن تاريخ تأليفه لكتابه يرجع إلى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م ذلك لأنه يعتبر كتاب الجيهاني[1] مؤلف كتاب « مسالك وممالك » المصدر الأساسي لابن رستة الذي كتب مصنفه بعد عشر سنوات من ابن الفقيه . ويقع كتابه في جملة مجلدات تبحث في تقويم البلدان ، لم يسلم منها إلا مجلد واحد ، هو السابع . ويبدو أن كتابه اتخذ اتجاهاً أكثر ميلاً للأدب من وجيز سلفه ابن خرداذبة . ويمكن اعتبار ابن رستة أستاذاً للكوزموغرافي القزويني . ويتوخى ابن رستة الحذر في كتابته ، وربما كان ذلك خشية أن يتهم بالزندقة ، إذ يعتمد على شواهد من القرآن الكريم لتبرير آرائه في التنجيم . وعرضه للجغرافيا الفلكية والرياضية موسع جداً ، ويعتمد على الفرغاني وأبي معشر ، وإن كان لا يخلو من تأثير ابن خرداذبة في بعض الأحيان .

وتبدأ الجغرافيا الطبيعية عنده بوصف مكة والمدينة والحرمين مع توخي تحديد الأبعاد بدقة متناهية ، ولكن وصفه يفتقر للحيوية ، ثم يقدم معلومات عامة عن البحار والأنهار والمناخات والمدن الكبرى في العالم وعن الأقوام البربرية . وفي وصفه للأقطار يمنح أهمية فريدة لبلاد فارس ولكنه لا يهمل التحدث عن بلاد العرب الجنوبية ومدينة صنعاء والعراق وبغداد ومصر . وفيما يتعلق بالقسطنطينية يصف لنا موكب الإمبراطور المهيب إلى كنيسة أياصوفيا ، ثم يصف الكنيسة نفسها والساعة الموجودة فيها ، والتي تنسب صناعتها إلى أبولون التياني . كما تناول عجائب السموات ، ومركز

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني (هو وزير صاحب خراسان ، كان له كتاب المسالك والممالك ضاع ، وقام مكانه كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني كما يقول ابن النديم سلخه من كتابه » عن ابن العديم في كتابه بغية الطلب . وتولى منصب الوزارة لنصر بن أحمد الساماني بين عام ٢٧٩ هـ - ٢٩٥ هـ .

الأرض منها ، وحجم الأرض ، ثم وصفها وفي كتابه فصل في الأوائل الذين أحدثوا الأشياء واقتدى بهم سواهم . وفصل آخر في المتشابهين في أحوال شتى ، والمشتركين في كنية واحدة ، والمشهورين من ذوي العاهات .

وتتباين قيمة كل قسم من كتابه عن الآخر ، ويظفر بأهمية خاصة كلامه عن صنعاء والإمبراطورية البيزنطية والهند الشرقية والصقالبة والشعوب الأورالية الآلتائية وضواحي مدينته المفضلة أصفهان ، مثلما لا يوجز عند الكلام عن نواحي طبرستان ومكة المكرمة والمدينة .

وعلى كل يقترب مصنف ابن رستة في كثير من النقاط من العرفية . ولكن علينا مع ذلك أن نعترف لهذا المؤلف ـ الذي تحول شدة دقته دون أن يكون كاتباً ممتازاً ـ بقدرته على استثارة اهتمام القارئ ، عندما يسرد الأقاصيص العجيبة ، والتي يثق بها شخصياً . وربما كان ذلك هو الذي أدى لتقديره بين معاصريه .

النص الأول

الكوزموغرافيا

تتماثل أفكار ابن رستة عن الطريقة التي تتماسك الأرض فيها ، ضمن الفضاء ، مع آراء ابن خرداذبة . غير أن ابن رستة يمنح الكوزموغرافيا في كتابه مكانة أرحب بكثير مما أعطاها سلفه ، ويجب علينا ، باديء ذي بدء ، كما يعتقد ، أن نتخلى عن كل المعلومات المغلوطة كما سنرى ذلك :

« وقد ذكرنا في أول الباب هيئة الأرض ونعتها على إيجاز واختصار ، ووجدنا أهل الملل قد اختلفوا في ذلك[٢] ، فأحببنا أن نذكر جملاً من اختلافاتهم ، نختمها بالتصحيح المأخوذ من الفلاسفة بالحجج الواضحة ، والبراهين النيرة الموجبة للقبول التي يصححها العيان[٣] ، ولا يخفى على ذوي الألباب .

قال بعض أهل الملل : إن الأرض مبسوطة التسطيح في أربع جهات شرق

---

(٢) أي في الكوزموغرافيا .

(٣) العيان : المعاينة : المشاهدة .

وغرب وجنوب وشمال ، وإن الخلق عليها من جهة واحدة وهو وجهها الأعلى ، وإن الوجه الآخر المقابل لهذا الوجه الأعلى أسفلها ، وإن السماء فوق الأرض مما يلي وجه الأرض الأعلى وحده دون سائر نواحيها ووجهها الأسفل ، وإن حول الأرض جبلاً محيطاً بالأرض ، وإن الشمس تطلع من حد ذلك الجبل في وقت واحد وساعة واحدة فتستتر وتستدير في مغيبها حول الجبل ، وإن الجبل هو الساتر لها عن أهل الأرض من حيث[٤] تغرب إلى أن تطلع من المشرق من حد الجبل ، وإن القمر وسائر النجوم في السماء في[٥] الطلوع والغروب والاستنارة والاستدارة بالجبل على مثال ما عليه الشمس من ذلك .

وقال صنف منهم : إن الأرض لا نهاية لها من جهتها السفلى ، وإن السماء لا نهاية لها من جهتها العليا ، وإن في ناحية الشمال جبلاً منيفاً محدقاً بمشارق الأرض ومغاربها .

وقال صنف منهم : إن الأرض مستطيلة كالعمود .

وقال صنف منهم : إن الأرض شبيهة بنصف كرة كهيئة القبة والسماء مركبة على أطراف الأرض .

وقال صنف : بل هي في جانب السماء من السماء إلا في الوسط .

وقال صنف منهم إن الذي يرى من الدوران للكواكب[٦] إنما هو دور الأرض لا الشمس[٧] والفلك .

وقال صنف منهم : إن الأرض تهوي[٨] إلى ما لا نهاية له ، والسماء ترتفع إلى

---

(٤) أي من حين .

(٥) أي فيما يتعلق .

(٦) أي دوران الكواكب .

(٧) أي لا دور (دوران) الشمس .

(٨) أي تتدد باتجاه الأسفل .

ما لا نهاية له ، وإن الكواكب تنشأ في المشرق ، وتبلى وتهلك في المغرب وكذلك الشمس والقمر .

وقال صنف منهم : إن الأرض وسط الفلك مصنوعة من الطبائع[٩] الثلاث التي هي الماء والنار والريح يغيرها الملائكة ، وإن ناحية الشمال منها[١٠] مشرفة مرتفعة ، وإنها في تركيبها مسطوحة طبق على طبق[١١] على قرار مكين ، وعلى وجهها الأعلى جبل شامخ يعلو دوين[١٢] الفلك ، أخذ[١٣] شرقاً وغرباً ، وُضِعَ مع غيره من الجبال لتمييز الليل والنهار وتفصيل العالم بأقسام أربعة من شرق وغرب وتيمن وجربي .

وقد أكثر القول والاختلاف في ذلك ، واحتج أصحاب المذاهب فيه بحجج ضعيفة لا تثبت ولا تصح ، وفي الإصغاء إليها تصدية[١٤] للعقل ، وفساد للفهم ، وضلال عن القصد ، والمعنى فيا[١٥] قالت الفلاسفة والحكماء في ذلك وأوردوا فيه ، مما يحققه العيان ولا يدفعه العقل » .

النص الثاني

ويرى ابن رستة وجوب الاستعاضة عن النظريات السالفة بهذه النظرية المقتبسة عن بطليموس[١٦] .

---

(٩) طبيعة : عنصر .

(١٠) أي من الأرض .

(١١) أي كل عنصر متنضد فوق الآخر .

(١٢) تصغير دون .

(١٣) أي في اتجاه ...

(١٤) صدى : سحر الآخرين بكلام أجوف .

(١٥) المعنى فيا : أي السبب فيا .

(١٦) انظر ابن خرداذبة في نصه الأول .

« إن الله جل وعز وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً ، والأرض[١٧] مستديرة أيضاً كالكرة ، مصمتة في جوف الفلك ، قائمة في الهواء ، يحيط بها الفلك من جميع نواحيها بمقدار واحد من أسفلها وأعلاها وجوانبها كلها ، فهي في وسطها كالمح في البيضة ، وهو يدور على قطبين : قطب في الشمال ، وقطب في الجنوب ، بين القطبين مئة وثمانون درجة ، لأن الفلك ثلاثمئة وستون درجة مستديرة ، تعود آخرها على أولها[١٨] ، وهو[١٩] يدور في كل يوم وليلة على القطبين دورة واحدة ، يبدأ أوله من المشرق ، فيعود إليه في أربع وعشرين ساعة ، يمر تحت الأرض ، ويسمى وسط السماء القبة[٢٠] وهو موضع الاستواء ، من بينه وبين الجهات الأربع المشرق والمغرب والشمال والجنوب إلى كل جهة تسعون درجة ، ويدور على كل قطب من قطبيه نصفه[٢١] . فمن كان تحت القطب دار عليه الفلك كحجر الرحى[٢٢] ومن كان تحت القبة جرى عليه كجناح الرحى .

---

(١٧) أي وجعل الأرض مستديرة .

(١٨) أي تؤلف دائرة .

(١٩) أي الفلك .

(٢٠) من أجل فهم المقطع التالي يجب أن نتذكر أن ابن رستة يعتقد ، كما اعتقد من قبله بطليوس ، أن الأرض مركز العالم وأن الكواكب تدور حولها . ولكي تتم القبة السماوية دورتها حول الأرض ، بناء على هذه النظرية ، تبدو وكأنها تمر تحت كوكبنا خلال فترة من الوقت الذي تغيب خلاله عن أبصارنا . وتطلق عبارة القبة أو قبة السماء ، أو وسط السماء ، على نقطة في القبة تقع في سمت نقطة أرضية تدعى قبة الأرض . تلك هي نقطة موضع الاستواء ، أو نقطة البعد المتساوي ، لأن بينها وبين أي نقطة من نقاط الجهات الأربع مقدار ٩٠ درجة .

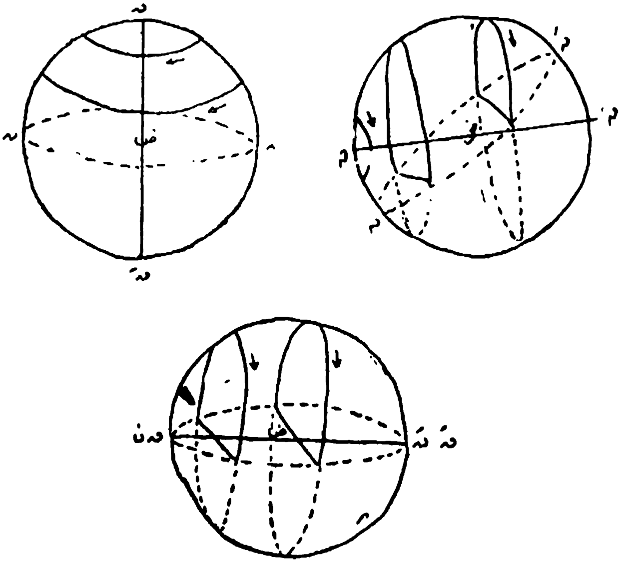
(٢١) نصفه : أي نصف الفلك .

(٢٢) أو طاحون اليد عند العرب . ويتألف من حجرتي طاحون كل منها على شكل نصف كرة وتكون واجهتاها الداخليتان مستويتين ، وتنطبق كل منها على الأخرى أفقياً . ويثبت فوق طرف الرحى العليا مقبض خشبي يستخدم لتدويرها لأن الرحى السفلى تظل ثابتة ويطلق على المقبض اسم جناح . ولفهم الموازنة التي يقصدها ابن رستة يجب الافتراض أن الشاهد يشكل على الأرض ، بالنسبة للفضاء ، نقطة مركزية مماثلة للنقطة التي تحتلها غلة في مركز الكرة المؤلفة من حجري الرحى .

وإليكم ما سيكون عليه السير الظاهري للنجوم خلال ٢٤ ساعة :

لتكن الأرض (ض) و (ق ق) القطبان السماويان ، و (هـ هـ) الأفق . ويشير السهم إلى مجرى النجم . =

والقبة وسط الأرض[٢٣] .



= ففي المنطقة المعتدلة ترسم النجوم دوائر مائلة بالنسبة للأفق . وفي المناطق الاستوائية يكون القطبان بالأفق ، وترسم النجوم دوائر متعامدة على الأفق . وفي القطبين ترسم النجوم دوائر موازية للأفق .

(٢٣) يجب أن نفهم من عبارة وسط الأرض المركز الجغرافي وليس المركز الهندسي على الأرض . وتطلق على هذا المركز أيضاً عبارة القبة أو قبة الأرض . وتسمى أيضاً قبة أرين . وهذا الاسم تحريف لكلمة أوجائين (التي أصبحت بالعربية أوزائين ثم أرين) التي تعني مدينة بالهند . وأصبحت كلمة أرين بعد ذاك تعني نقطة وهمية واقعة تماماً في المكان الذي يحتله خط طول مركزي عند الاستواء . ويستخدم خط أرين لتحديد درجة الطول ويلعب الدور نفسه خط طول غرينويتش حالياً .

وقد ثبتت لدى الجغرافيين العرب النظرية القائلة بأن حساب الأطوال وفقاً لمذهب الهند يبدأ من خط زوال الأرين . وقد جر هذا بدوره إلى خلط مفعم بالنتائج بين (قبة الأرض) والآرين ، بل أدى لظهور مصطلح (قبة الآرين) . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى اتخاذ لفظ آرين شيئاً فشيئاً لمعنى المركز على الإطلاق . وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) يعرف الجرجاني الآرين في معجم للمصطلحات =

ومن قـام فيـه[24] أبصر القطبين في الجـانبين ليس بعـدهمـا كـوكب يراه ولا فلك ، فإذا مال عن الوسط غاب عنه أحد القطبين ، وارتفع لـه الآخر بقـدر انحرافه حتى يرتفع القطب ، ويبدو الكوكب من أسفله[25] وحيث مـاوقف واقف فبينه وبين الفلك مقدار واحـد . وإن رأس الحمل والميزان موضع الاستواء مجراهمـا في قبة الفلك بينه[26] وبين رأس السرطان في الشمال أربع وعشن درجة وهو الـذي يسمى الميل[27] ، وبينـه وبين رأس الجـدي في الجنوب أربع وعشرون درجـة وهـو الـذي يسمى الميل ، ثم إلى مـدار بنـات نعش ثـلاثـون درجـة ثم إلى القطب ست وثلاثون درجة . وإن النـاس نزلوا في النصف الشمالي مـا بين القبـة وبنـات نعش من ناحية الشمال ، وذلـك مقسوم على سبعـة أقـاليم ، وبـاقي ذلـك غير مسكون ، وينزل النصف الجنوبي من شاء الله من الخلق . فمن نزل تحت القبة فالليل والنهار أبداً عليـه مستويـان ، الليل اثنتـا عشرة سـاعـة والنهـار اثنتـا عشرة سـاعـة . ثم ما تنحّى بدرجة طال عليه نهار الصيف وليل الشتاء ، فلا يزال في زيادة طول ، حتى إذا تنحّى عن القبة ستاً وستين درجة ينتهي النهار في طول مـا يكون أربعـاً وعشرين سـاعـة يـذهب الليـل في أول الصيف وفي أول الشتـاء الليـل إلى أربـع وعشرين سـاعـة ويـذهب النهـار ، ومـا زاد في النهـار نقص من سـاعـات الليـل وما زاد في الليل نقص من النهار ، حتى ينتهي إلى المكان الـذي ذكرنـا . ثم يتغير العمل والحساب ، وذلك الموضع لا يسكن ، ولا يـدخل في القسمـة ، وإن الرجل حيث ما وقف من الأرض أمـامـه تسعون درجـة ، وخلفـه تسعون درجـة ، وعن يمينه مثلها ، وعن يساره مثلها ، وهو مجال بصره وموضع نهاره وليله ، لأن نصف

= (التعريفات) كالآتي : « الآرين محل الاعتدال في الأشياء وهي نقطة في الأرض يستوي فيها ارتفاع القطبين فلا يأخذ هناك الليل من النهار ولا النهار من الليل . وقد نقل عرفاً إلى محل الاعتدال مطلقاً » .

(24) فيه : في وسط الأرض .

(25) أسفله : أسفل الأرض .

(26) بين مجراهما في قبة الفلك وبين رأس السرطان إلخ .

(27) ميل الدار السماوي .

الأرض أبداً نهارٌ مضيء ، ونصفها ليل مظلم يدوران عليها ، وكذلك كل مدورة يدور عليها ضوء مضيء ونور من منير .

النص الثالث

واستناداً إلى هذه المنظومة إليكم كيف يبرهن ابن رستة على كروية الآرض ويحدد وضعها في مركز الكون .

« وكذلك أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، والدليل على ذلك أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية من الأرض قبل طلوعها على المواضع المغربية ، وغيبوبتها عن المشرقية أيضاً قبل غيبوبتها عن المغربية ، ويتبين ذلك من الأحداث[٢٨] التي تعرض في العلو ، فإنه يرى وقت الحادث الواحد مختلفاً في نواحي الأرض ، مثل كسوف القمر ، فإنه إذا رُصد في بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب ، فوجدت وقت كسوفه في البلد الشرقي منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلاً أقول[٢٩] : وجد ذلك الوقت في البلد الغربي على أقل من ثلاث ساعات ، بقدر المسافة بين البلدين ، فتدل زيادة الساعات في البلد الشرقي على أن الشمس غابت عنه قبل غيبوبتها عن البلد الغربي ، وكذلك لو نظر في وقت انقضاض كوكب عظيم ، يعرف وقته في بلدين متباعدين على مثل ما وصفنا ، وجدت ساعات البلد الشرقي أكثر من ساعات البلد الغربي ، ويوجد هذا الاختلاف في الأوقات في جميع ما يسكن من الأرض فيما بين المشرق والمغرب

(٢٨) جمع حدث وهو الظاهرة .

(٢٩) هنا تبدأ جملة تقودها جملة فإنه إذا رصد ... والفاعل هو المؤلف نفسه .

يكون على حسب مسافة ما بين الموضع لا يغادر شيئاً ، وكذلك أيضاً يوجد فيما بين المواضع المتباعدة إلى الشمال والجنوب ، فإنه إن سار أحد في الأرض من ناحية الجنوب إلى الشمال رأى أنه يظهر له من ناحية الشمال بعض الكواكب التي كان لها غروب ، فيكون أبدي الظهور ، وبحسب ذلك يخفى عنه من ناحية الجنوب بعض الكواكب التي كان لها طلوع ، فيصير أبدي الخفاء على ترتيب واحد ، فيدل جميع ما وصفنا على أن بسيط الأرض مستدير وأن الأرض على مثال الكرة . وبعد فلو كانت مسطحة لم يعرض شيء مما وصفنا ، وكان طلوع الكواكب على جميع نواحي الأرض في وقت واحد ، ولم يكن من يسير في الأرض فيما بين الشمال والجنوب يخفى عنه شيء من الكواكب الأبدية الظهور ، ولا يظهر له شيء من الكواكب الأبدية الخفاء .

فصل في أن كرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء كالمركز وقدرها عند قدر السماء كقدر النقطة من الدائرة صغراً .

والدليل على أن الأرض في وسط السماء هو ما تقدم ذكره من أمر الكواكب ، وأن جِرْمَ كل واحد يرى في جميع نواحي السماء على قدر واحد ، فيدل على أن بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد ، فباضطرار أن[30] الأرض تكون في وسط السماء . وإن من أوضح ما استدل به على ذلك : أن الأرض لو لم تكن في وسط السماء ، وكانت إلى موضع من السماء أقرب منها إلى موضع آخر ، لوجب أن يكون من يسكن بحيال[31] ذلك الموضع القريب من السماء ، لا يرى من السماء إلا أقل من نصفها أبداً ، وكذلك من يسكن بحيال الموضع البعيد من السماء ، يظهر له من السماء أكثر من نصفها أبداً ، وهذا خلاف ما ترى فيها ، لأن جميع الناس في جميع نواحي الأرض يظهر لهم من السماء أبداً

---

(٣٠) فباضطرار أن أي لا بد أن .

(٣١) بحيال : بإزاء .

ستة بروج ، ويغيب عنهم ستة بروج ، وهذا هو الدليل على أن الأرض في صغرها عند السماء مثل النقطة .

النص الرابع

الكعبة المشرفة وبئر زمزم

يفتتح ابن رستة الفصول الوصفية من كتابه . وذلك على خلاف سابقيه . بوصف مفصل جداً لمكة الكرمة . ولكن دونما تزويق . كما سنرى ذلك في النبذتين التاليتين :

« يقال كان طولها في عهد إبراهيم ﷺ لما بناها تسع أذرع ، وطولها في الأرض ثلاثين ذراعاً ، وعرضها في الأرض اثنتين وعشرين ذراعاً . وكانت الكعبة بلا سقف في عهد إبراهيم ، ثم بنتها قريش في الجاهلية ، ونحن نذكر بناءهم لها في غير هذا الموضع إن شاء الله ، وكان النبي ﷺ يومئذ قد ناهز الحلم[٣٢] . فزادت قريش في طولها في السماء تسع أذرع أخرى ، فكانت في السماء ثمان عشرة ذراعاً ، وسقَفوها ونقصوا من طولها في الأرض ست أذرع وشبراً تركوها في الحِجْر[٣٣] ، واستقصروا عن قواعد إبراهيم وجعلوا الرُّبْضَ[٣٤] في بطن الكعبة ، وبنوا عليه ، وحجروا الحجر على بقية البيت لأن يطوف من طاف من ورائه[٣٥] ، فلم يزل على

(٣٢) الحلم : البلوغ .

(٣٣) الحجر : ويقع عند جدار الكعبة الشمالي الغربي وعلى مقدار مترين . ويتخذ شكل نصف دائرة محدودة بجدار يدعى الحطيم . وهذه المساحة هي الحجر . وهنا يقع ضريح إسماعيل وأمه هاجر . وقد تهدمت الكعبة عام ٦٥ هـ / ٦٨٤ م ، ولما أعاد عبد الله بن الزبير بنيانها ضم الحجر إلى الكعبة . وفي عام ٧٤ هـ / ٦٩٣ م أعيد فصل الحجر عن الكعبة وظلت مساحته على حالها الذي كانت عليه في عام ٦٥ هـ . وتركوها عن الحجر أي فصلوها .

(٣٤) الربض : المركز .

(٣٥) أي لأن يطوف من ورائه من طاف .

ذلك حتى كان زمن ابن الزبير[٣٦] فهدم الكعبة ، وردها إلى قواعد إبراهيم ، وزاد في طولها تسع أذرع في السماء على بناء قريش ، فصارت في السماء سبعاً وعشرين ذراعاً ، وأوطأ بابها في الأرض ، وفتح في ظهرها باباً آخر مقابل هذا الباب ، فكانت على ذلك حتى ظهر الحجاج على مكة ، فكتب إليه عبد الملك يأمره أن يهدم ما كان ابن الزبير زاد من الحجر في الكعبة ، ففعل وردها إلى قواعد قريش ، وكبسها بما فضل من حجارتها ، وسد بابها الذي في ظهرها . فالذي هي عليه اليوم من الذرع[٣٧] : طولها في السماء سبع وعشرين ذراعاً ، وذرع طولها من وجهها من الركن الأسود[٣٨] إلى الركن الشامي خمس وعشرون ذراعاً ، وذرع دُبرها من الركن اليماني إلى الركن الغربي خمس وعشرون ذراعاً ، وذرع شِقّها اليماني من الحجر الأسود إلى الركن اليماني عشرون ذراعاً ، وذرع شقّها الذي فيه الحجر من الركن الشامي إلى الركن الغربي واحدة وعشرون ذراعاً ، وذرع جميع الكعبة مكسّراً أربع مئة ذراع وثماني عشرة ذراعاً . وذرع نفذ جدار الكعبة ذراعان ، والذراع أربع وعشرون أصبعاً ، والكعبة لها سقفان أحدهما فوق الآخر . . .

وكان ذرع غور زمزم[٣٩] من أعلاها إلى أسفلها ستين ذراعاً ، وفي قعرها ثلاث عيون : عين حِذاء الركن الأسود ، وعين حذاء أبي قبيس[٤٠] والصفا[٤١] ، وعين حذاء المَرْوة . ثم قد كان قل ماؤها جداً حتى كانت تجمّ في الأيام ، وذلك في

(٣٦) لقد كان عبد الله بن الزبير خليفة أيام الخليفة عبد الملك في دمشق عام ٦٨٠ وجعل مكة عاصمة له . وأصبح عليه أن يدافع ضد الجيش القادم من الشام . وقد احترقت الكعبة خلال أول حصار عام ٦٨٣ م . بسبب إهمال من أحد جنود ابن الزبير . وعند إعادة بناء الكعبة أمر ابن الزبير بضم الحجر للكعبة لأن هناك رواية تقول إن إبراهيم الخليل جعله فيها .

(٣٧) الذرع : المقياس ، الامتداد .

(٣٨) زاوية الحجر الأسود .

(٣٩) عمق بئر زمزم .

(٤٠) اسم جبل مطل على مكة .

(٤١) من الأمكنة المقدسة في الإسلام قريب من الكعبة .

سنة ٢٢٣ و ٢٢٤ ، فضرب فيها محمد بن الضحاك ، خليفة عمر بن فرج الرَّخجي على بريد مكة وصوافيها[٤٢] ، تسع أذرع سحّاً في الأرض في تقوير جوانبها ، ثم جاء الله بالأمطار والسيول في سنة ٢٢٥ فكثر ماؤها جداً ، وقد كان سالم بن الجراح ـ فيما زعم المكيون ـ قد ضرب فيها في خلافة هارون الرشيد أذرعاً ، وكان قد ضرب فيها أيضاً في خلافة المهدي . وكان عمر بن ماهان ، وهو على البريد والصوافي في خلافة محمد بن الرشيد ، قد ضرب فيها وكان ماؤها قد قلّ ، حتى كان رجل يقال له محمد بن كثير من أهل الطائف ـ فيما زعموا ـ يعمل فيها فيقال عنه : أنه صلى في قعرها . فغورها من رأسها إلى الجبل[٤٣] أربعون ذراعاً كلها بنيان[٤٤] ، وما بقي فهو جبل منقور وهو تسع وعشرون ذراعاً . وذرع حنك[٤٥] زمزم في السماء ذراعان وشبر ، وذرع تدوير فم زمزم إحدى عشرة ذراعاً . وسعة فم زمزم ثلاث أذرع ونصف . وعلى البئر ملبن[٤٦] ساج مربّع فيه اثنتا عشرة بكرة يستقى عليها . فأول من عمل الرخام على زمزم والشباك وفرش أرضها بالرخام أبو جعفر المنصور[٤٧] في خلافته .

ثم عملها المهدي[٤٨] في خلافته ، ثم غيّره محمد بن فرج الرخّجي في خلافة أبي إسحاق المعتصم[٤٩] سنة ٢٢٠ . وكانت مكشوفة قبل ذلك إلا قبة صغيرة على موضع البئر ، وفي ركنها الذي يلي باب الصفا على يسار كنيسة[٥٠] على موضع مجلس ابن

(٤٢) جمع صاف . وهي حصة بين المال من المصادرة .
(٤٣) أي الصخر الحلي . ومنها أجبل أي أدرك الصخر عند الكلام عن حفاري الآبار .
(٤٤) أي أن كل هذا الجزء مبني ومدعوم بجدار .
(٤٥) حنك ما برز من البئر فوق مستوى الأرض .
(٤٦) إطار من خشب أو من حجر « خرزة الجب » .
(٤٧) خليفة عباسي حكم من عام ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م إلى ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م .
(٤٨) خليفة عباسي حكم من عام ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م إلى ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م .
(٤٩) خليفة عباسي حكم من عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م إلى ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م .
(٥٠) لا نعرف أي مصدر يشير إلى وجود كنيسة بجوار الكعبة إذ لم تدخل النصرانية إلى مكة مطلقاً . ولكن الأرجح هنا أنه يقصد بها مصطبة .

عباس ، ثم غيرها محمد بن فرج فسقّفَ زمزم كلها بالساج المذهّب من داخل . وجعل عليها من ظهرها الفسيفساء ، وأشرع[٥١] لها جناحاً[٥٢] صغيراً كما يدور[٥٣] بتربيعها ، وجعل في الجناح كما يدور سلاسل فيها قناديل يستصبح فيها في المواسم[٥٤] . وجعل على القبة التي بين زمزم وبيت الشراب الفسيفساء ، وكانت قبل ذلك تزوّق[٥٥] في كل موسم . عمل ذلك كله في سنة ٢٢٠ . فلم يزل الأمراء تستصبح في قناديل زمزم في المواسم حتى كان محمد بن سليمان ، فأصبح فيها من السنة إلى السنة بقناديل بيض كبار إلى يومنا هذا .

النص الخامس
ومن عجائب الأرض

لقد ترك ابن رستة في كتابه مكاناً فسيحاً للعرفية الجغرافية المستوحاة نصاً من المسالك والممالك لابن خرداذبة . ولكن يتميز ابن رستة عن سابقه في اهتمامه بالحكايات التي يسردها عليه السفار ، وإليكم بعض هذه الروايات :

« في بلاد الروم مدينة تدعى المستطيلة . المطر بها دائم الشتاء والصيف ، ولا يقدر أهلها على دياس زروعها وتذريتها ، وإنما يجمعونها في البيوت في السنبل ، فيخرجونها بقدر حاجتهم ، فيفرّكونها بالأيدي ، ثم يطحن ويخبز ، وفي بلادهم بزاة عجيبة في كثرة الغربان عندنا . يكون منها أقاطيع وليس يقدر أهلها

---

(٥١) رفع .

(٥٢) طاقة .

(٥٣) كما يدور : من حولها .

(٥٤) أي في مواسم الحج .

(٥٥) تستر بقماش .

على اتخاذ[٥٦] الدجاج مع كثرتها . ومن العجائب بيتان وجدا بالأندلس عند فتحها في مدينة الملوك ، ففتح أحد البيتين ، وهو بيت الملوك ، فوجد فيه أربعة وعشرون تاجاً عدّة[٥٧] ملوكهم ، لا يدري ما قيمة التاج منها ، وعلى كل تاج اسم صاحبه ومبلغ سنّه وكم ملك من السنين . ووجد في بيتٍ مائدة سليمان بن داود عليهما السلام . وعلى البيت الآخر أربعة وعشرون قفلاً كلما ملك منهم واحد زاد عليه قفلاً ولا يدرون ما في البيت . فلما ملك لذريق[٥٨] وهو آخر ملوكهم قال : لا بد أن أعرف ما في هذا البيت ، وتوهّم أن فيه مالاً فاجتمعت الشمامسة والأساقفة وعظّموا عليه فتح ذلك ، وسألوه أن يقتدي بما فعل الملوك قبله ، فأبي ، فقالوا : انظر ما خطر على بالك مما تجده فيه فنحن نجمعه لك وندفعه إليك ولا تفتحه ، فعصاهم وفتح الباب ، فإذا في البيت تصاوير العرب على خيولهم بعمائمهم وقسيّهم ونبالهم فدخلت العرب في السنة التي فتح فيها ذلك البيت . ووجد قتيبة بن مسلم بخراسان بمدينة تدعى بيكند بما وراء النهر من خراسان قدوراً عظاماً يصعد إليها بسلاليم .

ومن عجائب البلدان الهرمان بمصر ، سَمْكُ كل واحد منهما أربع مئة ذراع ، مكتوب عليهما بالمسند[٥٩] كل سحر وكل عجب من الطب ومكتوب عليهما : إني بنيتهما[٦٠] فمن ادعى قوة في ملكه فليهدمهما ، فإن الهدم أيسر من البناء . فقدروا ذلك فإذا خراج الدنيا لا يقوم بهدمهما . والإسكندرية[٦١] ، وروي أنها بنيت في ثلثمئة سنة وأن أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا بخرق سود مخافة

(٥٦) تربية .

(٥٧) على عدد .

(٥٨) روديرك : ملك الفيزيقوط ، القوط ، ولذريق عند المؤرخين العرب . قتل في رمضان ٩٢ هـ / تموز ٧١١ م في معركة شريش التي فتحت إسبانيا أمام العرب .

(٥٩) أي بالهيروغليفية .

(٦٠) الفاعل فرعون .

(٦١) أي ومن عجائب البلدان الاسكندرية .

على أبصارهم من شدة بياض حيطانها ومنارتها العجيبة على سرطـان[٦٢] من رخـام في البحر . وبعين شمس[٦٣] من أرض مصر أسطـوانتـان من بقـايـا أسـاطين كانت هناك . على رأس كل أسطوانة طوق من نحاس ، يقطر من إحداهما مـاء من تحت الطوق إلى نصف الإسطوانة لا يجاوزه ، ولا ينقطع قطره ليلاً ولا نهاراً ، فموضعه من الأسطوانة أخضر رطب لا يصل الماء إلى الأرض . وفي النيل سمكة يقـال لهـا الرّعادة ، مَنْ مسَّها وجد خدراً في كفه ويده وذراعه مـا دامت حيـة ، فـإن صبر ازداد ذاك حتى ترتعـد يـده وعضـده ، ويضطرب ويخفـق قلبـه ، ولا يقـدر أن يمسكها بتة ، وقد صح ذلك بخبر من شاهدهـا . ويقـال إنهـا إذا وقعت في شبكـة الصياد خدرت يده وهي في الشبكة ، وإن أخذ قضيبـه فوضع أحـد طرفيهـا على هذه الشبكة وأمسك الطرف الآخر بيـده خـدرت يـده . وفي النيل أيضـاً حيوان يقـال لـه التمسـاح وهـو الـوَرَل إلا أنـه يعظم في المـاء جـداً . قـال : وأخبرني من شاهدها أنه قد يكون منها ما طولـه ثلاث أذرع إلى ستين ذراعـاً ، وهي تختطف وتثقف[٦٤] وتفترس كل من دنا إلى الشط ، وتأكل الناس خـاصـة وسـائر الحيوان ، وهي كثيرة مفرطة الكثرة في بلد من بلـدان مصر يقـال لـه الأشمون ، ولا يقرب أحد من الشـط راكبـة ولا مـاشيـة ولا سبع ولا ذلـك إلا اختطفـه دائبـاً يرصـد ذلك . . .

(٦٢) قاعدة : ركيزة .

(٦٣) بلدة في مصر على النيل (هليوبوليس) قرب القاهرة ومن ضواحيها .

(٦٤) تطعن .

ابن الفقيه
(القرن الثالث هـ / العاشر م)

ولد أبو بكر أحمد بن محمد ، الشهير بابن الفقيه . على الأرجح في همذان . في فارس ، من أسرة اشتهر أفرادها بأنهم من أهل الحديث والأدب ، ولا نكاد نعرف شيئاً عن مجرى حياته أكثر من أنه توفي بعد عام ٢٩٠ هـ أي ٩٠٣ م وقد اشتهر هو أيضاً بعلم الحديث وبالأدب ، وله مصنفان ، الأول : يعتبر اليوم مفقوداً وكان عبارة عن مختارات من الشعراء المعاصرين له . والثاني : وهو الذي يَتَوّجُه عنوان « كتاب البلدان » وكان يتألف من خمسة مجلدات ، هو الذي يعالج المسائل الجغرافية . وهذا هو الكتاب الذي وصل إلينا من تأليفه . وذلك ضمن نبذة تعود غالباً للقرن الرابع الهجري أي الحادي عشر ميلادي .

وابن الفقيه أديب قبل كل شيء ، فكتابه أو الخلاصة التي وصلتنا منه ، ليس كتاباً جغرافياً بالمعنى الصحيح ، بل هو عبارة عن مقتطفات كدس فيها المؤلف . وذلك لفائدة محبي الاستطلاع وغير المختصين ، جمهرة من المعلومات من كل نوع يمت بصلة للجغرافية ، وعدداً كبيراً من الأحاديث ، والروايات ، والأساطير ، والحكايات إلخ مما لا يجوز « لرجل شريف » أن يسمح لنفسه بجهلها ، كما يقول .

وهكذا نجد أن هذا الصنف يختلف أساساً عن مؤلفات التبسيط العلمي التي سبق أن تعرضنا إليها ، إنه كتاب أدب يرمي إلى التثقيف ضمن إطار الفكاهة .

وأهم النواحي الجغرافية في كتابه هي وصفه للأرض والبحار والأنهار في الصين والهند وبلاد العرب ومصر وبلاد المغرب والبربر والشام وفلسطين وما بين النهرين وبلاد الروم . وأفاض في وصف البصرة والكوفة . وقد نقل جلة من موضوعات كتابه عن أسفار فارسية قديمة .

هذا وجدير بنا أن نقف من ابن الفقيه وأمثاله موقف اليقظ الحذر ، ذلك إذا كنا ننظر نظرة الإجلال لما قام به علماؤنا الأولون من جليل الدراسات والأبحاث ، فهذا إلى حد أن تكون هذه مقبولة ، لها إلى العقل طريق ودليل ، تنفع البشر والإنسانية وتدعو إلى الرشد والتقدم مع الناهضين ، لا تفت في عضد العاملين بخرافة يستنكرها العقل والعلم الحديث . لأن السلف ، طيب الله ثراهم ، كان

منهم العلماء الفضلاء ، كما كثر بينهم الأدعياء والمنافقون الذين لم يدعوا علماً إلا لوثوه بباطل أوهامهم وفاسد افترائهم ، شأنهم في كل الأزمان ، وهم الذين لم تسلم من أكاذيبهم حرمة الخلفاء ولا مقام كرام الملوك والأمراء . فكم سوّدوا من صحائف كانت أدعى إلى السخرية بعظماء الرجال وكبار الأبطال ، ولكل زمان علماء مجاهدون مجتهدون لا يغمط حقهم إلا مكابر ، وهؤلاء القوم هم كواكب الهدى ومنارات العرفان . وهم كعادتهم قليلو العدد ، والدهر ضنين بهم ، شحيح بأمثالهم ، يندر وجودهم في كل الأزمان .

وقد قال ابن خلدون في مقدمته قولاً عن الناقلين في علم التاريخ ، وحقاً على كل الرواة أن يتمعّنوا به قال :

« إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر منها بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل ، غثاً أو سميناً ، لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر البصير في الأخبار . فضّلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط » .

وعلى هذا الشكل من الخطل ، وصلت إلينا الخرافات الواهية ، والآراء الفاسدة ، فأخذناها لأنها عن السلف وصلت إلينا . وهذا من خطئنا ، لأن الواجب أن نطلب الحق أينما كان في تالد الأولين أو طارف المحدثين .

وها أنا أورد بعض الآراء المنقولة إلينا في علم الجغرافية والفلك ، وقد قامت الأدلة الدامغة على فسادها ، ولا ندري إن كانت حرفت إلى ذلك أو وضعت كذلك :

« ذهب وهب بن منبه إلى أن الشمس على عجلة لها ثلثمئة وستون عروة ، وقد تعلق بكل عروة فلك ، يجرونها في السماء ، ودونها البحر المسجور[1] في موج

(١) الملآن : الطافح .

مكفوف ، كأنه جبل ممدود في الهواء . ولو بدت الشمس من ذلك البحر ، لأحرقت ما على الأرض من شيء حتى الجبال والصخور » .

وروي عن كعب الأحبار أنه قال : « خلق الله القمر من نور والشمس من نار » .

« قال بعض الذين تكلموا عن الكواكب أنها معلقة في السماء بأيدي الملائكة » . « الرعد ملك موكل بالسحاب ، معه كر[٢] من حديد ، يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله ، فكلما خالفه سحاب صاح به فزجره ، فالذي يسمع هو صوت الملك » و « والأرض يقال إنها كانت على ماء ، والماء على صخرة ، والصخرة على سنام ثور ، والثور على كمكم[٣] ، والكمكم على ظهر حوت ، والحوت على ماء ، والماء على ريح ، والريح على حجاب ظلمة ، والظلمة على الثرى ، وإلى الثرى انقطع علم المخلوقين » . « منقولة من نهاية الأرب للنويري » .

ونجد مثل هذه الترهات في أساطير الشعوب الأخرى . وربما تأثر ابن الفقيه الفارسي الأصل بخرافات الهنود أو سواهم من الشعوب المجاورة . فقدماء الهنود كانوا مؤمنين بأن قوقعة الأرض محمولة على أربعة أفيال تقف على ظهر سلحافة عظيمة . وهو الحيوان ، الذي تجسد في الإله (وشنو) ، وتتحرك الفيلة فتحدث الزلازل . وقد استقرت فوق الثعبان المعروف بالكوبرا ، وهو عندهم رمز الماء[٤] . ولكن لم يخطر ببالهم أن يتساءلوا عن الشيء الذي تقف عليه السلحفاة (شكل ١١ ـ د) .

أما بابل فقد تصورت الأرض جبلا أو جوف ، حمله أو أحاط به البحر ، وفي داخل هذه الأرض استقر عالم الأموات ، في ظلامه ومع غباره . وفوق الأرض استدارت السماء متينة صلبة ، وفي الفضاء السماوي سارت الشمس والقمر والنجوم (شكل ١١ ـ ا) .

غير أن قدماء المصريين تصوروا الأرض إلها متكئا ، وهو الإله كب ، وقد غطته الخضرة ، وتصوروا السماء إلهة وقد انحنت بقوامها الرشيق فوق الأرض ، وقد ساعدها على البقاء في وضعها هذا

---

(٢) حبل .

(٣) لم نعثر على معنى هذه الكلمة .

(٤) عن الدكتور أحمد زكي في مجلة العربي الكويتية .

إلـه الجـو . أمـا إلـه الشمس . وهـو المصـور في القـاربين ، فهـو يعبر السماء كل يـوم إلى ليـل المـوت (شكل ١١ ـ ب) .

كما اعتقدت جماعات اللاماس في منغوليا بأن الله بعد أن خلق الأرض ثبتها فوق ظهر ضفـدعة عظيمة الحجم . وفي كل مرة ، عندما تحرك الضفدعة رأسها أو قـدميها تتعرض الأرض لحـدوث الهزات الزلزالية (شكل ١١ ـ ج) .



شكل ١١ ـ ا

بابل تصورت الأرض جبلا أجوف ، حمله وأحاط به البحر . وفي داخل هذه الأرض استقر عالم الأموات . في ظلامه ومع غباره . وفوق الأرض استدارت السماء متينة صلبة ، وعبْرَ السماء سـارت الشمس والقمر والنجوم .

د . أحمد زكي مجلة (العربي)



شكل ١١ ـ ب

قدماء المصريين تصوروا الأرض إلهاً متكئاً . وهو الإله كب . وقد غطته الخضرة . وتصوروا السماء ألهة وقد انحنت بقوامها الرشيق فوق الأرض . وقد ساعدها على البقاء في وضعها هذا إله الجو . أما إله الشمس . وهو المصور في القاربين . فهو يعبر السماء كل يوم إلى ليل الموت .

دكتور أحمد زكي (العربي)

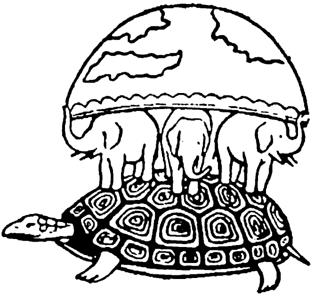


شكل (١١ ـ جـ) العالم فوق رأس الضفدعة الضخمة حسب اعتقاد جماعات اللاماس في منغوليا .

وكان الروس يعتقدون حتى عهد قريب أن الأرض تستند على حيتان ضخمة وعندما تتململ هذه الحيتان تحدث الزلازل (شكل ١٢) . وكان أحدادنا يقولون بأن الأرض محمولة على قرن ثور وتحدث الزلازل عندما يتعب الثور وينقلها من قرن لآخر . ويقول العوام عندنا إذا حفروا بئراً عميقاً جداً « كدنا نصل إلى قرن الثور » .



شكل (١١ - د)



شكل (١٢)

النص الأول
الكوزموغرافيا

يبدأ (كتاب البلدان) لابن فقيه ، مثلما يبدأ (كتاب الأعلاق النفيسة) لابن رستة ، بمدخل عن الكوزموغرافيا ، يدلنا تماماً على الطابع الذي رمى المؤلف أن يضفيه على كتابه كالاعتماد على الأحاديث الموضوعة ، وعلى الأقوال غير المسنودة ، والأساطير المتناقلة ، كي يثير فضول القارئ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

« القول في خلق الأرض ، قال الله عز وجل : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٠] .

وسئل النبي ﷺ عن الأرض سبع هي ؟ قال : نعم والسموات سبع وقرأ : ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ﴾ [الطلاق ٦٥ / ١٢] . فقال رجل : فنحن على وجه الأولى ، قال : نعم ، وفي الثانية خلق يطيعون ولا يعصون ، وفي الثالثة خلق ، وفي الرابعة صخرة ملساء ، والخامسة ضحضاح من الماء ، والسادسة سجيل وعليها عرش إبليس ، والسابعة ثور ، والأرض على قرن هذا ، والثور على سمكة ، والسمكة على الماء ، والماء على الثرى ، والثرى منقطع فيه علم العلماء[٥] ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي : صورة الدنيا على خمسة أجزاء كرأس الطير والجناحين والصدر والذنب . فرأس الطير الصين ، وخلف الصين خلق يقال لهم واق واق ، ووراء واق واق من الأمم ما لا يحصيه إلا الله . والجناح الأيمن الهند ، وخلف الهند البحر وليس خلفه خلق . والجناح الأيسر الخزر ، وخلف الخزر أمتان ، يقال لأحدهما منشك وماشك ، وخلفهما يأجوج ومأجوج ، ومن الأمم ما لا يعلمه إلا الله . وصدر الدنيا مكة والحجاز والشام والعراق ومصر . والذنب من ذات الحمام[٦] إلى المغرب ، وشر ما في الطير الذنب .

وقال ابن عباس[٧] الأرض كلها أربعة آلاف فرسخ في مثل ذلك . وقال أمير المؤمنين[٨] رضي الله عنه : الأرض طولها مسيرة خمس مئة سنة أربع مئة خراب ومئة عمران . قال : وفي يد المسلمين سنة ...

---

(٥) يغلب على الظن أن هذا الحديث موضوع ، وربما من الإسرائيليات لكعب الأحبار أو أمثاله . وقد سألت أحد الثقاة في علم الحديث فقال : « هذا الحديث بهذا السياق والتام لا أعرف له أصلاً في شيء من كتب السنة مطبوعها ومخطوطها ، وهو أشبه شيء بالإسرائيليات » .

(٦) بلدة قرب الحدود المصرية الليبية .

(٧) هو عبد الله بن عباس ، ابن عم رسول الله عليه الصلاة والسلام . توفي عام ٦٨ هـ . وهو من رواة الحديث .

(٨) الخليفة علي بن أبي طالب .

وذكر محمد بن موسى الخوارزمي[٩] أن دور الأرض على الفضاء[١٠] تسعمئة فرسخ . العمران من ذلك نصف سدسها ، والباقي ليس فيه حيوان ولا نبات ، والبحار هي محسوبة من العمران والمفاوز التي بين العمران .

وقالوا : إن الأقاليم سبعة .

فالإقليم الأول مبتدؤه من الأرض المحرقة ، ومنتهاه أرض سرنديب[١١] ، وسكانه سود قباح الوجوه ، عراة كالسباع ، وأعمارهم طويلة ، ودوابهم وطيورهم أعظم من عامة البهائم والطير ، وهناك رقي وعقاقير وأحجار فيها شفاء ومنافع طبيعية ، وفيها تنانين وهوام ذات سموم ، وطوله[١٢] خمسة آلاف وخمسمئة فرسخ ، وعرضه ثلاثمئة وثمان وخمسون فرسخاً .

والإقليم الثاني مبتدؤه من أرض سرنديب ، ومنتهاه أرض الحبشة ، وهناك معادن الزبرجد والببغاء ، ومنتهاه من قبل شرقية أرض السند[١٣] ، قريب من كابل ، وهناك سباع ضارية وحشرات وطير ممتنعة ، وأهلها في القبح دون الإقليم الأول ، وفيها رقي وعقاقير ، وأهلها أقصر أعماراً من الأول .

والإقليم الثالث مبتدؤه عرض أرض الصُغد[١٤] وجرجان حتى ينتهي إلى أرض الترك وحد الصين إلى أقصى المشرق ، ومن غربيه نحو مصر ، ومن شرقيه السند وعدن ، ومنتهاه أرض الشام وفارس وأصبهان ، وهناك أناس حكماء ، وطوله وعرضه مثل الأول .

---

(٩) فلكي ورياضي شهير توفي سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م .

(١٠) على خط مستقيم .

(١١) جزيرة سيلان أو سريلانكا حالياً .

(١٢) أي طول الإقليم الأول .

(١٣) وادي نهر الهندوس ، أي باكستان الغربية حالياً .

(١٤) بلاد ما بين نهري أموداريا وسيرداريا ومركزها سمرقند .

والإقليم الرابع بابل متوسط الأقاليم وأفضلها مزاجاً ، ومبتدؤه من إفريقية إلى بلخ إلى مشرق الأرض ، وعرضه وطوله كالأول .

والإقليم الخامس قسطنطينية والروم والخزر وعرضه وطوله كالأول .

والإقليم السادس فرنجة وأمم أخرى ، وعرضه كالأول .

والإقليم السابع الترك ، ورجالهم ونساؤهم مُترِكو الوجوه لغلبة البرد عليه ، وسباعهم صغيرة الأجساد ، ولا يوجد هناك حشرات ولا هوام ، ويسكنون الظلال ، يتخذونها من الألواح ، ينقلونها على عجل تجرها الثيران ، وأنعامهم في الفيافي وفي أولادهم قلة » .

وصف مكة

يعطي ابن الفقيه ، تحت هذا العنوان ، زمرة من الأقوال المأثورة ، التي تؤلف بالأحرى مقتطفات من كلمات شهيرة حول مكة ، أكثر منها وصفاً حقيقياً وصحيحاً لهذه المدينة المقدسة .

« القول في مكة ، قال عبد الله بن عمرو بن العاص : سميت بكة لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم أي تدق . وقال إبراهيم بن أبي المهاجر : بكة موضع البيت ، ومكة موضع القرية ، وسميت بذلك لاجتذابها الناس من الآفاق ، وقالوا : سميت بكة لأن الأقدام تبك بعضها أي تزدحم ، وسمي البيت العتيق لأنه أعتق من الجبابرة . وهي أم القرى وأم الرُّحْم لأن الرحمة تنزل بها ، ومن أسمائها صلاح وناسَّة لقلة الماء بها وبُنَيَّة الأمين .

قال النبي : ما من نبي هرب من قومه إلا هرب إلى الكعبة يعبد الله فيها حتى يموت .

وقال عليه السلام : إن قبر هود[١٥] وشعيب[١٦] وصالح[١٧] فيما بين زمزم والمقام[١٨] وإن في الكعبة ثلاثمئة نبي ، وما بين الركن اليماني[١٩] إلى الركن الأسود قبر سبعين نبياً .

وقال ﷺ من مات في حج أو عمرة[٢٠] لم يعرض ولم يحاسب ، وقيل له : ادخل الجنة بغير حساب .

وقال ﷺ من صلّى في الحرم صلوٰة واحدة كتب الله له ألف صلوٰة وخمسمئة صلوٰة .

وقال ﷺ المقام بمكة سعادة ، والخروج منها شقاوة .

وقال ﷺ الحاج والعُمّار[٢١] وفد الله ، إن سألوا أُعْطوا وإن دعوا أُجيبوا ، وإن أنفقوا أخلف عليهم لكل درهم ألف درهم .

وقال ﷺ من صبر على حر مكة تباعد عنه جهنم مسيرة مئة عام وتقربت منه الجنة مسيرة مئة عام .

وقال الكلبي[٢٢] لما قال إبراهيم : ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات ﴾ الآية [البقرة ٢ / ١٢٦] . استجاب الله له فأمن فيه الخائف ورزق أهله من الثمرات تجلب إليهم من الآفاق .

---

(١٥) نبي قوم عاد . القرآن الكريم الأعراف ٧ / ٦٥ .

(١٦) نبي أهل مدين . القرآن الكريم الأعراف ٧ / ٨٥ .

(١٧) نبي قوم ثمود . القرآن الكريم الأعراف ٧ / ٧٣ .

(١٨) الصخرة التي صعد عليها إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة . ويقع المقام على مسافة قريبة من الكعبة المشرفة .

(١٩) الزاوية الجنوبية الشرقية من الكعبة .

(٢٠) هي قصد الكعبة المشرفة وزيارتها للنسك المعروف : ومن أعمالها الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة . أما الحج فلا يكون إلا مع الوقوف بعرفة يوم عرفة . (تاج العروس) .

(٢١) الذين يؤدون العمرة .

(٢٢) هو أبو النضر محمد بن الصعيب . الشهير بالكلبي . من مفسري القرآن . توفي نحو عام ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م .

وقال مقاتل[٢٣] : من نزل مكة والمدينة من غير أهلها محتسباً حتى يموت دخل في شفاعة محمد .

وقال الله جل ذكره : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ [البقرة ٢ / ١٢٥] لم يقل للعرب دون العجم إذ كان اسم الناس شاملاً للفريقين فقد جعله الله مثابة للجميع والدليل على ذلك قوله عز وجل : ﴿ وطهر بيتي للطائفين والعاكفين ﴾ [الحج ٢٢ / ٢٧] .

فمن شرف بلد مكة أمنه ومقام إبراهيم فيه وحج الأنبياء إليه ، وإن أهله في الجاهلية كانوا لَقاحاً لم يؤدوا أتاة قط ، ولا ملكهم ملك ، وكانوا يتزوجون في أي قبائل شاؤوا ، ولا يشترط عليهم في ذلك ، ولا يزوجون أحداً إلا بعد أن يشترطوا عليهم : أن يكونوا حُمْساً على دينهم ، ويدان لهم ، وينتقل إليهم ، فحمَّسوا خزاعة ودانت لهم ، وحمسوا عامر بن صعصعة ودانت لهم ، وحمسوا ثقيفاً ودانت لهم سوى من حمسوا من عدد الرجال ، ثم[٢٤] فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم ، وأن يخلعوا ثياب الحل[٢٥] ويستبدلوا ثياب الحرم إما شرى أو عارية أو هبة ، فإن أتى بذلك وإلا طاف بالبيت عرياناً ، وفرضوا على النساء مثل ذلك . وكلفوا العرب أن يفيضوا من المزدلفة[٢٦] . وهم بعد أعز العرب يتأمرون على العرب قاطبة ، وهم أصحاب الهريس والحرير والثريد والضيافة والأندية والفالوذج ، وأول من ثرد الثريد منهم عمرو وهو هاشم بن عبد المناف وفيه يقول الشاعر (من الكامل) :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

لهذا سمي هاشماً .

---

(٢٣) صوفي خراساني شهير توفي عام ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م .

(٢٤) وأخيراً .

(٢٥) الثياب الاعتيادية .

(٢٦) مكان قريب من مكة .

النص الثاني

عجائب العالم

يجب أن نتوقع العثور ، في كتاب عادي دارج ، مثل كتاب ابن الفقيه ، على روايات هدفها استثارة انتباه القارئ . وبالفعل نجد أن **كتاب البلدان** يشتمل ، فيما عدا الاستطرادات البعيدة عن الجغرافيا كلية ، على زمرة من المقاطع والفقرات التي تصف عجائب العالم . ويلجأ المؤلف غالباً ، حسب عادته المألوفة ، إلى سرد روايات منقولة .

« وعن مكحول[٢٧] قال : باليمن سد أسعد الملك[٢٨] ، وهو سد بين جبلين بحجارة مربعة منقشة ، بين الحجرين عمود من الحديد من الأعلى إلى الأسفل . وقد رصص ما بين الجبلين مقدار ميلين وسمكه ثلاثمئة ذراع . تنصب إليه أودية وأنهار ، فيرتفع الماء حتى يسقوا مزارعهم وحدائقهم وهو أعجب سد في الأرض . مكتوب عليه بالمسند[٢٩] أشياء كثيرة ... وباليمن قرية وبار[٣٠] وهي مسكن الجن ، وهي أخصب بلاد الله وأنزهها ، لا يقدر أحد على الدنو منها من الإنس . وقال أبو المنذر[٣١] : وبار من نجران وحضرموت . وزعمت العرب أن الله حين أهلك عاداً وثموداً ، أن سكنت الجن في منازل وبار ، وحمتها من كل من أرادها . وإنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً ونخلاً وعنباً وموزاً ، فإن دنا من تلك البلاد إنسان متعمداً أو غالطاً حَثَوْا في وجهه التراب ، فإن أبى إلا الدخول خبلوه وربما قتلوه .

---

(٢٧) محدث من بلاد الشام توفي عام ١١٢ هـ / ٧٣٠ م .

(٢٨) اسم ملك أسطوري في اليمن . والسد المذكور هو سد مأرب في بلاد سبأ (شرق اليمن) والمعروف تحت اسم سد العرم .

(٢٩) خط يمني قديم هو الحميري .

(٣٠) اسم مكان .

(٣١) ابن الكلبي ، توفي عام ٨١٩ م .

وبمصر الهرمان اللذان يرى أصحابها كأنهم دفنوا حديثاً إلا أنهم في عمق من الأرض . وهي ثلاثة أهرام كل هرم أربع مئة ذراع عرضاً وارتفاعاً في الهواء . وهي مبنية بحجارة المرمر والرخام ، غلظ كل حجرة وطولها وعرضها عشرة أذرع ، مهندز مهندم لا يستبين هندامه إلا الحاد البصر ، منقور في كل حجرة بالكتاب المسند[٣٢] يقرؤه كل من يقرأ المسند كل سحر[٣٣] ، وكل عجب من الطب ، وكل طلسم ، وكل خلقة طير .. وبمصر الإسكندرية . قال النبي محمد ﷺ خير مسالحكم الإسكندرية . وهي من بناء الإسكندر ، وبه سميت .

وقد اختلفوا في الإسكندر ؛ فزعم بعضهم أنه ذو القرنين . وقال آخرون : ليس ذو القرنين ابن فيليفوس ، ولكنّه لكثرة جولانه في الأرض وطيه[٣٤] الأقاليم شَبَّهَهُ من لا علم له بذي القرنين ، وبينه وبين ذي القرنين صاحب سد يأجوج ومأجوج ، وباني مدينة مرو ومنارة الإسكندرية المركزة على سرطان من زجاج ، وباني مدينة البهت بالمغرب ، وهي مبنية من حجر يسمى حجر البهت ، من تطلع فيه تاه واستغرب ضحكاً حتى يتلف نفسه ، دهر طويل .

وذو القرنين هو الذي وقف على صاحب الصور حتى دخل الظلمات ، وبلغ مكاناً لم ينفذ وراءه ، فصوّر فرساً من نحاس ، عليه فارس من نحاس ممسك على عنان بيسرى يديه وماد يده اليمنى مكتوب فيها بالحميرية : ليس ورائي مسلك فهذا عمر عمراً طويلاً حتى عاش سبع مئة سنة وأوتي من كل شيء سبباً ورفع إلى السماء . وكان يسمى عياشاً .

والرومي[٣٥] عمر عمراً قليلاً وكانت سيرته أخبث سيرة . وقال بعضهم : كانت

---

(٣٢) الكتابة الهيروغليفية .

(٣٣) كل سحر وما يليها : أشياء من السحر وأشياء عجيبة من الطب إلخ ..

(٣٤) من طوى يطوي أي الإسكندر .

(٣٥) أي الإسكندر بن فيليب المكدوني أي اليوناني .

الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار ، فكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته ، ومن خرج اختطف ، وكان لهم راع يرعى الغنم على شاطئ البحر ، وكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه على شاطئ البحر ، فكمن له الراعي في بعض المواضع حتى خرج فتشبث بشعرها[٣٦] ومانعته ، فذهب بها إلى منزله ، فأنست بهم ، فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس ، فسألتهم عن ذلك : فأخبروها أن من خرج في ذلك الوقت اختطف ، فعملت لهم طِلْسَماتٍ ، وكانت أول من وضع الطلسمات بمصر .

ومن عجائب الأندلس البَهْتُ[٣٧] وهي المدينة التي في بعض مفاوزها ، ولما بلغ عبد الملك بن مروان خبر هذه المدينة وأن فيها كنوزاً كتب إلى موسى بن نصير[٣٨] ، وكان عامله على المغرب ، يأمره بالمسير إليها ، ودفع الكتاب إلى طالب بن مدرك فسار حتى انتهى إلى مدينة القيروان ، وموسى مقيم بها ، فأوصل كتاب عبد الملك إليه . فلما قرأه تجهز وسار في ألف فارس من أبطال قومه وأشرافه وحمل معه من الزاد لأربعة أشهر ، ومن الماء لنفسه وأصحابه ما يكفيهم ، وأخرج رجالاً أدلاء بذلك الطريق ، فسار ثلثة وأربعين يوماً حتى انتهى إليها ، فأقام ثلاثاً حتى علم كنه علمه ، ثم ارتحل إلى البحيرة ، وكانت على ميلين من المدينة ، وتفهم أمرها ، ثم انصرف إلى القيروان ، وكتب إلى عبد الملك مع طالب بن مدرك :

---

(٣٦) الضمير يعود إلى ذلك الكائن الخرافي المعتبر أنثى .

(٣٧) مدينة خرافية دعيت مدينة النحاس كما في ألف ليلة وليلة . والبهت أو الباهت يعني حجر مغناطيس الإنسان لأنه ـ كما تقول الخرافة ـ يجذب الناس الذين يلتصقون به فلا يستطيعون التخلص منه كما يجذب المغناطيس الحديد .

(٣٨) حكم عبد الملك بن مروان من ٦٨٥ م إلى ٧٠٥ م بينما لم يدخل موسى بن نصير إلى الأندلس إلا في سنة ٧١٢ م . ويضاف عدم التواقت هذا إلى عدم صحة الرواية . أضف إلى ذلك أنه يذكر قبل قليل أن مدينة البهت بالمغرب .

بسم الله الرحمن الرحيم .

أصلح الله أمير المؤمنين صلاحاً يبلغ فيه شرف الدنيا والآخرة . أخبرك يا أيها أمير المؤمنين ، أني تجهزت لأربعة أشهر ، وسرت في مفازة الأندلس في ألف رجل من أصحابي حتى وغلت في طرق قد انطمست فيها الآثار ، وانقطعت عنها الأخبار ، نحاول بلوغ مدينة لم يسمع السامعون بمثلها . فسرنا ثلاثة وأربعين يوماً ، فلاح لنا بريق شُرفَ تلك المدينة من مسيرة خمسة أيام . فهالنا منظرها وامتلأت قلوبنا منها رعباً . فلما قربنا منها إذا أمرها عجيب هائل ، ومنظرها مخيف موجل ، كأن المخلوقين لم يصنعوها . فنزلنا عند ركنها الشرقي ، فصلينا العشاء الآخرة ، ثم بتنا بأرعب ليلة بات بها أحد من المسلمين ، فلما أصبحنا كبَّرنا استئناساً بالصبح وسروراً ؛ ثم أرسلت رجلاً من أصحابي في مئة فارس ، وأمرته أن يدور مع سور المدينة ليعرفنا موضع بابها ، فغاب عنا يومين ثم أتانا صبيحة اليوم الثالث ، فأخبرنا أنها مدينة لا باب لها ، ولا مسلك إليها ، فجمعت أمتعة أصحابي إلى جانب سورها بعضها إلى بعض ، لينظر من يصعد إليها ، فلم تبلغ أمتعتنا ربع الحائط لارتفاعه في الهواء ، فأمرت فاتخذ سلاليم كثيرة وصلت بعضها إلى بعض ، وناديت في العسكر : من يتعرف لي خبر هذه المدينة ويصعد هذه السلاليم فله عشرة آلاف درهم . فانتدب رجل من أصحابي ، وتسنَّم السلم ، وهو يتعوذ ويقرأ ، فلما صار أعلاها وأشرف على المدينة قهقه ضاحكاً ، ثم هبط إليها فناديناه : أخبرنا بما رأيت فيها ، فلم يجبنا فجعلنا أيضاً لمن يصعد إليها ويأتينا بخبرها وخبر الرجل ألف دينار ، فانتدب رجل من حمير[٣٩] ، فأخذ الدنانير وجعلها في رحله ، ثم صعد فلما استوى على الحائط قهقه ضاحكاً ثم نزل إليها ، فناديناه : أخبرنا بما وراءك وما الذي ترى ، فلم يجبنا أحد حتى صعد ثلاثة رجال ، كلهم يقهقه ضاحكاً ، ويتطير إليها ، فلما يئست من أولئك الرجال

---

(٣٩) حمير . عرب اليمن أو عرب الجنوب أنفسهم .

ومن معرفة المدينة ، رحلت نحو البحيرة ، فسرت مع سور المدينة فانتهينا إلى مكان من السور فيه كتابة بالعربية فوقفت حتى أمرت بانتساخه وهي (من البسيط) :

ليعلم المرء ذو العز المنيع ومن ... يرجو الخلود ولا حي بمخلود
لو أن خلقاً ينال الخلد في مهل ... لنال ذاك سليمان بن داود
سالت له العين عين القطر فائضة[40] ... فيها عطاء جليل غير مصرود
وقال للجن : أبنوا منه[41] لي أثراً ... يبقى إلى الحشر لا يبلى ولا يودي
فصيروه صفاحاً ثم ميل به ... إلى السماء بإحكام وتجويد
وأفرغوا القطر فوق السور منحدراً ... فصار صلباً شديداً مثل صيخود
ورد فيها[42] كنوز الأرض قاطبة ... وسوف يظهر فيها يوماً غير محدود
لم يبق من بعدها في الملك شارفة[43] ... حتى يضمن رمساً بطن أخدود
وصار في قعر بطن الأرض مضطجعاً ... مضمناً بطوابيق الجلاميد
هذا لتعلم أن الملك منقطع ... إلا من الله ذي التقوى وذي الجود

ثم سرت حتى وافيت البحيرة عند مغيب الشمس فنظرنا فإذا شخص قائم فناديناه : من أنت ؟ قال : أنا رجل من الجن ، وكان سليمان بن داود حبس والدي في هذه البحيرة ، فأتيته لأنظر ما حاله . قلنا فما لك قائماً فوق الماء . قال : سمعت صوتاً فظننته صوت رجل ، يأتي هذه البحيرة فيصلي على شاطئ هذه البحيرة أياماً ، ويهلل الله ويمجده . قلنا : فمن تظنه . قال : أظنه الخضر[44] ، ثم غاب عنا ، فبتنا تلك الليلة على شاطئ البحيرة وقد كنت

---

(٤٠) القطر هو النحاس أو خلائطه .

(٤١) منه : أي من القطر .

(٤٢) أي في المدينة .

(٤٣) ناقة هرمة ، أو شيء لا قيمة له .

(٤٤) الخضر : ولي من أولياء الله . ورد ذكره بالقرآن الكريم سورة الكهف ١٨ / ٦٥ ـ ٨٢ وهو عند المسيحيين القديس جورج Saint- Georges أو مار جرجس .

أخرجت معي عدة من الغواصين ، فغاصوا في البحيرة ، فأخرجوا منها حباً من صفر مطبقاً رأسه بصفر مسموراً بمسامير من صفر ، فأمرت بقلع الصفر فخرج منه رجل من صفر ، بيده مطرد من صفر ، فطار في الهواء وهو يقول : يا نبي الله لا أعود . ثم غاصوا ثانية وثالثة فأخرجوا عدة من أولائك . ثم ضج أصحابي وخافوا أن ينقطع بهم الزاد . فأمرت بالرحيل ، وانصرفت بالطريق الذي سلكته ، فأقبلت حتى نزلت القيروان ، وكتابي منها ، والحمد لله الذي حفظ لأمير المؤمنين جنده والسلام .

فلما قرأ عبد الملك بن مروان كتاب موسى بن نصير وكان عنده الزهري(٤٥) قال : ما تظن بأولئك الذين صعدوا فوق السور كيف استطيروا ، قال : أظنهم خبلوا فاستطيروا من السور . قال : فمن أولئك ؟ مردة الجن الذين حبسهم سليمان بن داود عليه السلام في البحار » .



(٤٥) محدث أموي شهير توفي في عام ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م .

قُدَامَة

(ولد في القرن الثالث هـ / العاشر م ـ توفي في القرن الرابع هـ / العاشر م)

أبو الفرج قدامة بن جعفر ، آرامي ينتمي إلى أسرة مسيحية ، استوطنت البصرة ، وكانت مقربة إلى العباسيين . وقد عمل والده الذي كان موظفاً في الإدارة الحكومية على تهيئته للوظيفة نفسها . فتلقى في صغره تربية أدبية وعلمية ، بأن واحد ، جعلته يدخل وهو في سن مبكرة في مصلحة الجباية في بغداد . وقد اعتنق قدامة الإسلام بناء على طلب الخليفة المكتفي[1] ، وكان من جراء ذلك أن أصبح طريقه إلى المناصب العليا ميسوراً ، فشغل في عام ٢٩٧ هـ / ٩٠٨ م منصب صاحب البريد ، ذلك المنصب الذي احتفظ به حتى وفاته التي أدركته بين عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م وعام ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م .

ولم يكن هذا هو الشبه الوحيد الذي يشده إلى ابن خرداذبة ، بل إن جميع أشكال نشاطه وميوله الأدبية تذكرنا بذلك المؤلف . فهو قد جمع بين عمله الإداري واهتمامه بالمسائل الأدبية البحتة وترك لنا بضعة مصنفات .

ولن نكون منصفين إذا لم ننظر إلى قدامة إلا كجغرافي . ففيما عدا المؤلفات الفلسفية الأربعة المنسوبة إليه ، كتب قدامة مؤلفات في المنتخبات الأدبية الشعرية ، وكتاب تاريخ ، وبضعة مصنفات في فقه اللغة والنقد وصلنا واحد منها ، بالإضافة إلى مؤلف ضخم جداً عنوانه (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) الذي يشتمل على ثمانية أجزاء لم يصلنا منها سوى أربعة فقط تمثل القسم الثاني من الكتاب .

وما تبقى من هذا الكتاب يدل على أن المؤلف أراد أن يكون كتابه عبارة عن موسوعة معدّة لأن توفر لكتّاب الجهاز الإداري العباسي المعلومات التي لا غنى عنها في ممارسة مسؤولياتهم . فقد انصب اهتمامه الأساسي على وصف طرق البريد والولايات ، مع إيراد معلومات هامة عن تقسيم الأراضي وجباية الخراج ، ولكن قدامة الجغرافي لا نراه إلا عرضاً ولاسيا في الفصل الحادي عشر من الجزء الخامس المتعلق بوظيفة البريد ، وفي الفصل السابع من الجزء السادس ، حيث نجد فيهما بعض المعلومات

---

(١) حكم بين ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م حتى عام ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م .

الجغرافية العامة والمتعلقة بالجغرافية الرياضية وأوصاف الجبال والأنهار والأقاليم السبعة ، كما لم يهمل ذكر الدول المجاورة للعالم الإسلامي والتي منحها الكثير من الاهتمام .

وكما هو الحال في كتاب المسالك لابن خرداذبة ، فإن العرفية تحتل مكانة هامة في أبحاث قدامة الجغرافية . ولكن قدامة يتميز على سلفه بأنه يملك حس البديع والطريف العجيب ، كما أن أسلوبه يتصف ، في الفقرات الوصفية ، بسهولة وبوضوح أكبر مما هو الأمر لدى ابن خرداذبة أو ابن رستة .

النص الأول

كتاب قدامة ، أو كتاب الجيب بالنسبة لمدير البريد

يبين قدامة في البدء دور وأهمية صاحب البريد ، فهذا الموظف يحتاج لكتاب يشتمل على عرفية جغرافية عن الإمبراطورية . ويرمي المؤلف إلى تأمين ذلك . ويرى قدامة ، كما رأى ابن خرداذبة من قبله ، أن بغداد مركز العالم ومنها تنطلق الطرق ، أي تشغل هذه العاصمة مكان العنكبوت في قلب شبكة خيوطه الشعاعية .

« قال أبو الفرج : يُحتاج في البريد إلى ديوان[٢] يكون مفرَداً ، ويكون الكتبُ المُنْفَذَةَ من جميع النواحي مقصوداً بها صاحِبُهُ[٣] ليكون هو المُنْفِذُ لكل شيء منها إلى الموضع المرسوم بالنفوذ إليه ، ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار[٤] في جميع النواحي على الخليفة ، أو عَمَل جوامع[٥] لها ، ويكون إليه النظر في أمر الفروانقيين[٦] والموقّعين[٧] والمرتّبين[٨] في السكك[٩] وتُنَجِّزُ أرزاقهم

(٢) مكاتب الوزارة .

(٣) أي يكون صاحبه مقصوداً بالكتب المنفذة من جميع النواحي .

(٤) صاحب الأخبار ، أي مدير الإعلام . وكان ضابطاً مهمته إعلام الملوك بالأحداث التي تجري في كل مدينة .

(٥) تقارير .

(٦) الرئيس المشرف على تسيير الرسائل البريدية . مفردها فرانق وتجمع على فرانقية أحياناً .

(٧) أمناء السر ، وخاصة الموظفون الذين يعهد إليهم بختم أجوبة الخليفة .

(٨) موظفون . أصحاب مرتب .

(٩) محطات البريد أو مسافة أربعة فراسخ تفصل بين محطتين .

وتقليد أصحاب الخرائط[١٠] في سائر الأمصار ، والذي يُحْتاجُ إليه في صاحب هذا الديوان هو أن يكون ثِقَةً ؛ إما في نفسه ، أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته ، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج إلى الكافي المتصفّح[١١] ، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفّظ[١٢] ، والرسوم[١٣] التي يُحتاج إليها من أمر الديوان هو ما يقارب الرسوم التي بينّاها في غيره مما يضبط به أعماله وأحواله . فأما غير ذلك من أمر[١٤] الطرق ومواضع السكك والمسالك إلى جميع النواحي فإنّا لم نذكره ، ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه ما لا يحتاج في الرجوع فيه إلى غيره ، وما[١٥] إن سأله عنه الخليفة ، وقت الحاجة إلى شخوصه وإنقاذ جيش يهمّه أمره وغير ذلك ، مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه ، وجد[١٦] عتيداً عنده ، ومضبوطاً قِبَلَهُ ولم يحتج إلى تكلّف عمله والمسألة عنه . فينبغي أن نكون الآن نأخذ في ذكر ذلك وتعديده بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال والفراسخ وغيره من وصف حال المنزل في مائه وخشونته وسهولته أو عمارته أو ما سوى ذلك من حاله . ونبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السلام[١٧] إلى مكة وهو المَنْسَك[١٨] الأعظم وبيت الله الأقدم ، ونأخذ بعد البلوغ إليه بذكر ما بعده من الطرق إلى اليمن ، ثم سائر الجهات المقاربة له وتسميته[١٩] إن شاء الله » .

---

(١٠) أصحاب الخرائط : الذين يحملون أكياس الرسائل المستعجلة . ومفردها خريطة .

(١١) الرجل الماهر الفطن .

(١٢) الرجل الأمين اليقظ .

(١٣) الأنظمة ، التنظيم .

(١٤) معرفة .

(١٥) أي ما يحتاج أن ...

(١٦) أي : « ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه ما لا يحتاج في الرجوع إلى غيره ... عتيداً عنده » .

(١٧) بغداد .

(١٨) المكان المقدس الذي تتم فيه مناسك الحج .

(١٩) بذكر ما بعده ... وتسميته .

النص الثاني

تجفيف مستنقعات العراق الأدنى

لقد كان قدامة ، بصفته عاملاً بديوان الضريبة العقارية ، جيد الاطلاع على حصيلة الضرائب في الأقاليم ، وعلى كل ما يجري بغية زيادتها . ويسرد قدامة ، في النص التالي ، المشاريع التي تمت منذ الفتح الإسلامي لإعادة الخصب لمستنقعات العراق الأدنى أي الأهوار .

« وسببُ البطائح[٢٠] المُبَطَّحَةِ[٢١] في أرض السواد[٢٢] أنَّ ماء دجلة كان مُنْصَبّاً إلى دجلة المعروفة بالعوراء ، التي هي أسفل البصرة في مسافة مستقيمة المسالك محفوظة الجوانب .

فلما كان مُلْكُ قُباذَ فيروز[٢٣] انبثَقَ في أسفل كَسْكَرَ بَثْقٌ عظيم ، فَأغْفِلَ أمرُهُ حتى غلَب ماؤه وغرّق كثيراً من أرضين عامرة كانت تليه وتَقْرُبُ منه .

فلما وَلِيَ أنوشروان ابنه[٢٤] أمر بذلك الماء فَزُحِمَ بالمُسنيّاتِ حتى عاد بعض تلك الأرضين إلى عمارة . ثم لما كانت سنة ست من الهجرة ، وهي السنة التي بعث فيها النبي ﷺ عبد الله بن حذافة السهميّ إلى كسرى أبرويز[٢٥] ، زاد الفرات

---

(٢٠) جمع بطيحة أي المستنقع . وتعني الكلمة هنا البطائح العراقية أو الأهوار .

(٢١) المنخفضة والمعرضة للفيضانات .

(٢٢) أي البلاد القاتمة ، أي التي يتنافر نباتها بلونه مع لون رمال الصحراء الكالحة . وتعني هذه الكلمة العراق عموماً أو الأجزاء المزرعة في هذا الإقليم .

(٢٣) ملك الفرس ، حكم من عام ٤٥٧ إلى ٤٨٤ م .

(٢٤) اسم يعني عند المؤرخين العرب كيخسرو الكبير . ملك فارس الذي حكم من عام ٥٣١ إلى ٥٧٩ م وعندما يقول قدامة ابن قباذ فيروز فهو بذلك يخلط اسم الملك المذكور مع اسم أبيه كيخسرو الذي حكم بين سنة ٤٩١ م ٥٣١ م .

(٢٥) ملك فارسي آخر حكم من ٥٩٠ م إلى ٦٢٨ م وقد أرسل إليه الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه سفارة برئاسة عبد الله بن حذافة .

زيادة عظيمة ودجلة أيضاً لم ير مثلها ، وانبثقت بثوق كبار ، فَجَهَدَ أبرويز أن يَسْكُرَها حتى ضَرَب[٢٦] أربعين سِكْراً في يوم واحد وأمر بالأموال فألقيت على الأنطاع[٢٧] فلم يُقْدَرْ للماء على حيلة ، فورد المسلمون العراق ، وشُغلت الفرس بالحرب ، فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت إليها ، ويعجز الدهاقين عن سدّها ، فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت .

فلما ولي معاوية بن أبي سفيان[٢٨] ولّى عبد الله بن درّاج مولاه خراج العراق ، واستخرج[٢٩] له من أراضي البطائح ما[٣٠] بلغت غلّته خمسة آلاف ألف درهم . واستخرج حسّان النَبَطي مولى بني ضَبَّة ، وصاحب[٣١] حوض حسّان بالبصرة ، وقناة حسّان بالبطائح ، وقرية حسّان بواسط[٣٢] ، لما ولي ذلك للوليد[٣٣] ثم لهشام بن عبد الملك[٣٤] ، كثيراً[٣٥] من أرض البطائح .

والاستخراج فيها واقع إلى هذا الوقت وهي[٣٦] الأرضون المنسوبة إلى الجوامد[٣٧] ، وكان بكسكر[٣٨] نهر يقال له الجنب وكان طريق البريد إلى ميسان

---

(٢٦) بنى .

(٢٧) جمع نطع أي الأراضي الواطئة .

(٢٨) مؤسس الأسرة الأموية بدمشق واستمر حكمه من ٦٦٠ إلى ٦٨٠ م .

(٢٩) استصلح الأراضي للزراعة ، هنا جفف .

(٣٠) ما مساحته .

(٣١) الرجل الذي حفر القناة ، والذي أعطى اسمه للمشروع .

(٣٢) مدينة مندثرة تأسست في وسط المستنقعات العراقية على يد والي العراق الحجاج .

(٣٣) خليفة أموي حكم من ٧٠٥ م إلى ٧١٥ م .

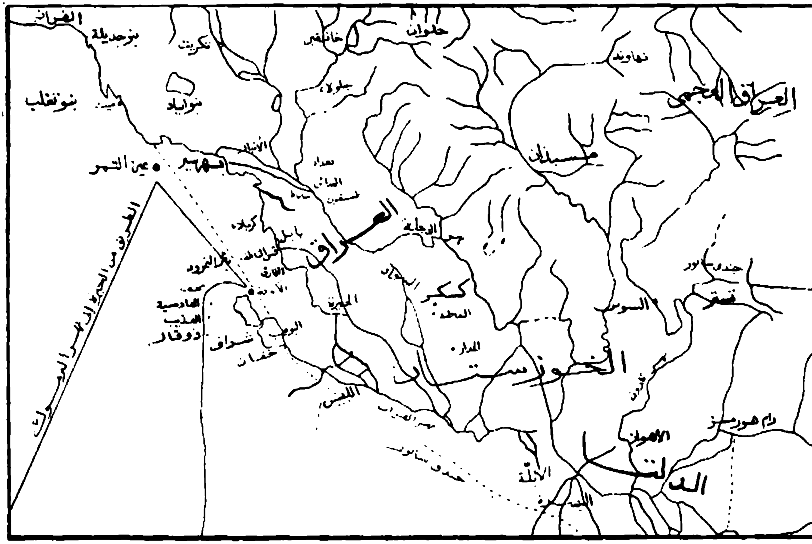
(٣٤) خليفة أموي حكم من ٧٢٤ م إلى ٧٤٣ م .

(٣٥) أي استخرج حسان كثيراً .

(٣٦) أي الأراضي المجففة المستصلحة .

(٣٧) أي المعروفة المشهورة بالجوامد .

(٣٨) مدينة كانت تقع أيضاً في وسط المستنقعات العراقية أي الأهوار .



شكل (١٣) خريطة العراق القديم .. وقد ظهر عليها موقع القادسية

ودستيسان والأهواز في شقّه[٣٩] القبلي . فلما تبطحت[٤٠] البطائح سمّي ما استأجم[٤١] من شق طريق البريد بالبريد ، وسمي الشق الآخر بالنبطيّة اغماربتي وتفسيره بالعربية الأجم الكبرى ، ويقال : ربما ظهرت آثار النهر فيما يستخرج من البطائح في هذا الوقت .

وسبب السيبين[٤٢] ولم يكن لهما ذكر في أيام الفرس ، ولا كانا مُحَرَّزَيْنِ على عهدهم ، لكن بثوقاً انبثقت أيام الحجاج[٤٣] ، وكبرت وعظمت ، وكتب الحجاج

---

(٣٩) حافته .

(٤٠) امتدت وتوسعت .

(٤١) تحولت إلى مستنقعات كثيرة القصب أي إلى أجمة أو غاب .

(٤٢) اسم القناتين كل منهما تدعى سيب .

(٤٣) الحجاج الثقفي . قائد أموي أصبح والياً على العراق عام ٦٩٣ م . واحتفظ بمنصبه حتى وفاته عام ٧١٤ م .

إلى الوليد بخبرها ، وأنه قُدّر للنفقة على سدها ثلاثة آلاف ألف درهم ، فاستكثرها الوليد ، فقال له مسلمة بن عبد الملك[٤٤] : أنا أنفق على سدها من مالي على أن تعطيني خراج الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق المال على أيدي ثقاتك . فأجابه إلى ذلك فحصلت له أرضون وطساسيج[٤٥] كثيرة . فحفر النهرين المسميين بالسيبين وتألّف[٤٦] الأكرة والمزارعين ، وعمّر تلك الأرضين ، وألجأ الناس أيضاً إليه كثيراً من أراضيهم المجاورة لها[٤٧] طلباً للتعزّز[٤٨] به .

فلما قامت الدولة العباسية وقبضت أموال بني أمية أقطع جميع السيبين داودَ بن علي بن عبد الله بن العباس وابتيع ذلك من ورثته فيما بعد فصار في عداد الضياع السلطانية[٤٩] » .

النص الثالث

الثغور في كيليكيا وسورية والفترات الملائمة للغزوات

« الأمم والأجيال المخالفة الإسلام مكتنفة له من جميع أطرافه ونهايات أعماله ، منهم المتقارب من دار مملكته ومنهم المتباعد عنها . وكانت ملوك

(٤٤) وهو أخو الوليد الخليفة الأموي .

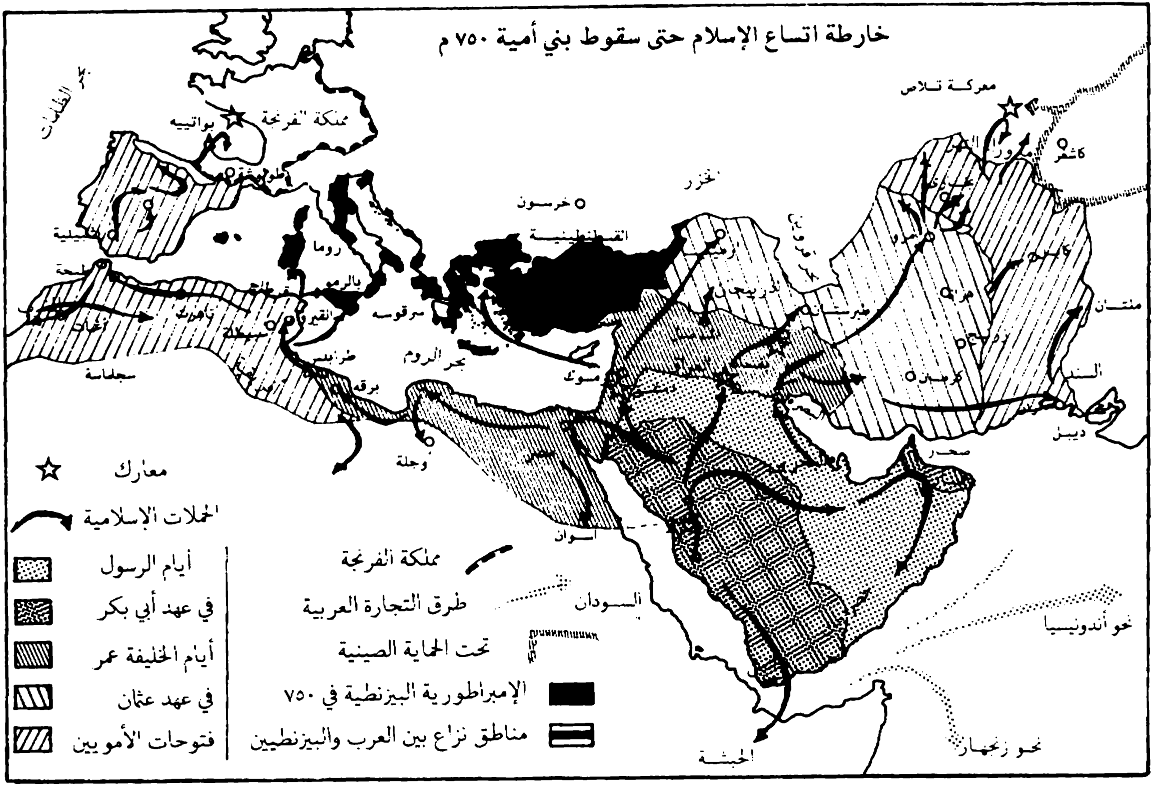
(٤٥) جمع طسوج . وهو تقسيم مساحي في العراق . فقد كان كل إقليم ينقسم ، تسهيلاً لتوزيع الضريبة ، إلى كور (جمع كورة) أي مقاطعة ، وكل مقاطعة تنقسم بدورها إلى طسوج ، أي منطقة .

(٤٦) اجتذب : أوجد الوفاق .

(٤٧) أي للأراضي التي استصلحها مسلمة بن عبد الملك .

(٤٨) أي للاعتزاز بـ ...

(٤٩) أي أملاك الخليفة ، أملاك السلطان .


خارطة اتساع الإسلام حتى سقوط بني أمية ٧٥٠ م
معركة تلاس
مملكة الفرنجة
بواتييه
خزر
خرسون
القسطنطينية
روما
سرقوسه
بحر الروم
برقة
وجلة
سجلماسة
أسوان
السودان
الحبشة
نحو أندونيسيا
نحو زنجبار
كاشغر
كرمان
هراة
منتان
السند
ديبل
صحر
معارك
الحملات الإسلامية
أيام الرسول
في عهد أبي بكر
أيام الخليفة عمر
في عهد عثمان
فتوحات الأمويين
مملكة الفرنجة
طرق التجارة العربية
تحت الحماية الصينية
الإمبراطورية البيزنطية في ٧٥٠
مناطق نزاع بين العرب والبيزنطيين

شكل (١٤)

الطوائف[٥٠] الذين مَلَّكَهُمْ ذو القرنين[٥١] يؤدون الأتاوة إلى ملك الروم خمس مئة وإحدى عشرة سنة إلى أن جمع أزدشير بن بابك[٥٢] المملكة بعد مشقة وطول مجاهدة ، فمنع حينئذ الأتاوة التي كانت الفرس تؤديها إلى الروم بعد مشقة . فينبغي أن لا يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أقل حذراً منهم[٥٣] للروم . وقد جاءت بذلك آيات يظهر بها حقيقة ما قلته ، والله الموفق للمصلحة بقدرته . فلما كانت الروم على ما وصفت وجب أن نقدم الكلام في الثغور[٥٤] المقابلة لبلدهم على الكلام في غيرها

فنقول : إن هذه الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر ، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه[٥٥] من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع فيه الأمرّان وتقع المغازي من أهله في البر والبحر . والثغور البحرية على الإطلاق سواحل الشام ومصر كلها . والمجتمع[٥٦] فيه الأمرّان غزو البر والبحر الثغور المعروفة بالشامية . فلنبدأ بذكرها وهي طرطوس وأذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس[٥٧] . وارتفاعها[٥٨] نحو المئة ألف دينار ينفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها[٥٩] وهي المراقب والحرس والفواثير[٦٠] والركّاضة[٦١] والموكلون بالدروب

---

(٥٠) وهم الملوك الذين اقتطعوا ممالك لهم من جسم الإمبراطورية المقدونية بعد وفاة الإسكندر الكبير كالسلوقيين والبطالمة إلخ ..

(٥١) لقب عرف به الإسكندر عند الأدباء العرب .

(٥٢) ملك الفرس ومؤسس الأسرة الساسانية وقد حكم بين ٢٢٦ م و ٢٤١ م .

(٥٣) منهم : من الفرس .

(٥٤) مفردها ثغر وهو إقليم أو مدينة على حدود بلاد الإسلام .

(٥٥) الفاعل بلاد العدو .

(٥٦) أي الثغور مجتمعة : قارية وبحرية .

(٥٧) أسماء مدن في كيليكية .

(٥٨) أي مجموع ضرائبها .

(٥٩) أي الحاجات الناجمة عن وضعها كمدن حدود .

(٦٠) الجواسيس .

(٦١) العداؤون من حملة البريد .

والمخايض[٦٢] والحصون وغير ذلك مما جانسه من الأمور والأحوال . ويحتاج إلى شحنتها من الجند والصعاليك[٦٣] ، ورواتب مغازيها الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على التقريب مئتا ألف دينار ، وعلى المبالغة[٦٤] ، وهي أن يتّسع[٦٥] ثلثمئة ألف دينار ، والذي يلقاها من بلاد العدو ويتصل بها إما من جهة البر فالقبادق[٦٦] ، ويقرب منها الناطليق[٦٧] ، ومن جهة البحر سلوقية . وعواصم هذه الثغور وما وراءها إلينا من بلدان الإسلام . وإنما سمي كل واحد منها عاصماً لأنه يعصم الثغر ويمده في أوقات النفير ثم ينفر إليه من أهل أنطاكية والجومة[٦٨] والقَرُوس ... ثم نتبع ذلك بوصف أحد أيام الغَزَواتِ ليكون عِلْمُ ذلك مُحَصّلاً[٦٩] محفوظاً فنقول :

إنَّ أجْهَدَها[٧٠] مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين ، أن تَقَعَ الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار ، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوماً وهي بقية أيار وعشرة من حزيران ، فإنهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكناً وكأن دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً . ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوماً ، وهي بقية حزيران وخمسة من تموز ، حتى يقوى ويسمن الظّهر[٧١] ، ويجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون

---

(٦٢) مجاري الأنهار الضحلة التي يمكن خوض مياهها مفردها مخاضة .

(٦٣) معناها أصلاً قطاع الطرق . ولكن تعني هنا الفرق العسكرية غير النظامية التي لا تتقاضى مرتباً بل تكتفي بما تحصل عليه من غنائم .

(٦٤) في أقصى حد . وعلى الأكثر .

(٦٥) يبلغ .

(٦٦) أي منطقة Cappadoce وتقع في آسيا الصغرى غربي أرمينيا وأهم مدنها قيصرية .

(٦٧) الأناضول .

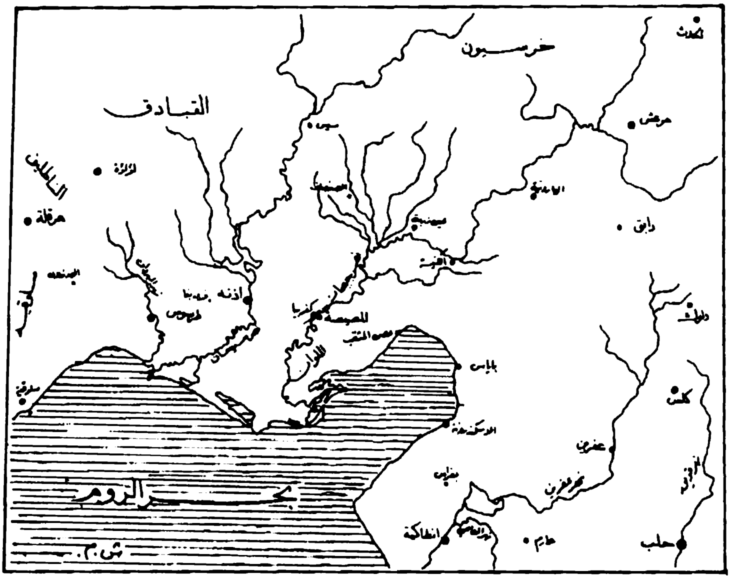
(٦٨) سهل نهر عفرين .

(٦٩) حصل : علم . عرف :

(٧٠) أي أكثرها فائدة بالنسبة للعمليات الحربية أثناء الجهاد .

(٧١) الحيوانات التي تحمل الأثقال .

لعشر تخلو من تموز ، فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يوماً ، فأما الشواتي فإني رأيتهم جميعاً يقولون : إن كان لا بد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل ، وليكن مسيرُه عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره ، وأن يكون ذلك في آخر شباط ، فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي من آذار فإنهم يجدون العدوّ في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودوابّ ، ويجدون مواشيهم كثيرة ، ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون » .



شكل (١٥) بعض الثغور الشمالية الغربية في عصر قدامة

البَتَّاني

(ولد قبل ٢٤٤ هـ / ٨٥٢ م ـ وتوفي عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م)

أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتّاني الحراني الصابئي . ويسمى الرقي نسبة إلى مدينة الرقة في سورية ، على ضفة نهر الفرات اليسرى ، حيث قضى معظم حياته والتي استقر بها الكثير من الأسر الحرانية . وربما ولد في حران . وأصل نسبته البتّاني غير واضحة . وكانت أسرته قديماً تدرّس الديانة الصابئية ومنها جاءت نسبة الصابئي مع أنه كان مسلماً . وقد أمضى البتّاني حياته بأسرها تقريباً يرصد الأجرام السماوية بمرصد الرقة من عام ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م حتى ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م . وقصد بغداد في إحدى مهماته العلمية ومات بالطريق أثناء عودته في قصر جيس إلى الغرب من الدجلة قليلاً ، قرب سامراء ، وذلك عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م . ولا ينتسب البتّاني إلى المدرسة البغدادية بقدر ما ينتسب إلى مدرسة صابئة حران التي أنجبت الكثير من العلماء أمثال ثابت بن قرة . ومن نافلة القول التحدث عن مكانته العلمية في العالم ، فقد ذاع صيته في أوروبا الوسطى وعرف تحت اسم Albategnius واهتم به كثيراً الرياضي ريجيومونتانوس (١٤٣٦ ـ ١٤٧٦) بصدد حساب المثلثات الكروي ، كما استفاد دنتورن Dentorn فائدة كبيرة من ملاحظاته عن الكسوف وذلك حتى عام ١٧٤٩ م . فقد استنبط حقائق جليلة القيمة . شهد بفضلها العلماء في زمانه ومن بعده وظل اسمه علماً في مضمار العلوم حتى أواخر القرن الماضي .

وقد أطلق عليه بعضهم اسم « بطليموس العرب » بعد أن أكب على دراسة مؤلفات بطليموس وتفهمها خير تفهم ، ثم ناقضها في كثير من المواضع وصحح أغلاطها بعد أن تمثلها .

ولكن لم يصلنا من سائر تآليف البتاني سوى الجداول الفلكية المعروفة باسم « الزيج الصابئي » ويشتمل على مقدمة وافية تعالج جميع مسائل الفلك . وقد ترجمها إلى اللاتينية عام ١١٤٠ م أفلاطون التيفولي . وما يهمنا الآن هو الناحية الجغرافية البحتة في زيجه .

وأهم فصل في المقدمة هو السادس الذي يعطي فيه وصفاً عاماً للأرض ويخص بالتفصيل البحار . وتدين أوروبا بتصوراتها المسبقة عن النحيط الهندي حتى عهد فاسكو دوغاما إلى البتاني .

وقد اجتذب هذا الفصل أنظار العلماء الأوروبيين منذ أن كان الكتاب معروفاً في مخطوطته

الوحيدة بمكتبة الأسكوريال في مدريد . وقد ترجمه رينو ومهرن قبل ظهور طبعة المستشرق نالينو . وعلى كل يقدم لنا هذا الفصل أحسن وصف للعالم عرفته العصور السابقة . وقد أفاد منه الجغرافيون العرب الذين أعقبوه فنجد شذرات لدى ابن رستة والمسعودي وقدامة والجيهاني مستمدة من مصادر أخرى كانت اعتمدت بدورها على مصنفات البتاني .

هذا وتعتبر اكتشافاته في الرياضيات أساساً لعلم المثلثات الحديثة من مسطحة وكروية . وقد استطاع البتاني أن يحدد ميل دائرة الكسوف بدقة كبيرة ، وطول السنة والفصول وقضى نهائياً على العقيدة البطليوسية في كثير من المفاهيم الفلكية .

النص الأول

لا حاجة للتنويه سلفاً بما سيقدمه لنا البتاني من علم غزير في نصه القادم . والذي يكاد يوحي لنا بأن كاتبه من أبناء عصرنا ، وليس من أبناء عصر يبتعد عنا أكثر من ألف عام من الزمن .

« وأما موضع الأرض المعلومة والبلدان المسكونة في الطول والعرض فقد أوضحنا بالقياس الذي ذكره بطليوس ، ووافقه عليه غيره من القدماء ، أن الأرض مستديرة ، وأن مركزها في وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات ، وأنها عند فلك البروج مثل منزلة النقطة قلّة . وأما عمرانها فإنهم أخذوا حدوده من الجزائر العامرَة التي تسمى الخالدات التي في بحر أوقيانس الغربي ، وهي ست جزائر عامرة إلى أقصى عمران الصين ، فوجدوا ذلك اثنتي عشرة ساعة ، فعلموا أن الشمس إذا غابت في أقصى عمران الصين ، كان أول طلوعها على أول الجزائر العامرة المذكورة أنها في بحر أوقيانس الغربي . وإذا غابت في هذه الجزائر صار أول طلوعها على أقصى عمران الصين ، وذلك نصف دائرة الأرض ، وهو طول العمران الذي وقف عليه ، ومقداره من الأميال ثلثة عشر ألفاً وخمسئة ميل من الأميال التي عملوا عليها مساحة الأرض .

ثم نظروا في العرض ، فوجدوا العمران من موضع خـط الاستواء إلى نـاحيـة الشمال ينتهي إلى جزيرة ثولي[1] في بَرْطـانيـة حيث يكون طـول النهـار الأطـول عشرين ساعة . وذكروا أن خط الاستواء من الأرض يقطع من المشرق إلى المغرب فيما بين الهنـد والحبش في جزيرة هنـاك من نـاحيـة الجنـوب من معـدل النهـار ، فتعترض هنالك وتحد ما بين الشمال والجنوب . والخط الذي يقطع هذا الخـط من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب في النصف مما بين هذه الجزائر المذكورة أنها في بحر أوقيانس وأقصى عمران الصين ، وهو قبة الأرض المعروفـة بمـا وصفنـا ، وموضعهـا موضع التقاطع .

والعرض من خـط الاستواء إلى جزيرة ثولي يكون قريبـاً من ستين جـزءاً ، وذلك سدس دائرة الأرض ، فإذا ضرب هـذا السـدس الـذي هو مقـدار العرض في النصف الـذي هـو مقـدار الطـول ، كان مـا يظن من العمران من نـاحيـة الشمال مقدار نصف سدس الأرض ، وهو جزء من اثني عشر جزءاً .

وقـدروا بحر الهنـد وقـالوا : إن طـولـه يعـد من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند ثمانية آلاف ميل ، وعرضه ألفـان وسبعمئـة ميل ، ويجـاوز من جزيرة استواء الليل والنهـار إلى نـاحيـة الجنوب ألفـاً وتسعمئـة ميـل ، ولـه خليج بأرض الحبش يمد إلى نـاحيـة البربر يسمى الخليج البربري (الصومـالي) ، وطولـه خمسمئـة ميل ، وعرض طريقـه مئـة ميل . وخليج آخر يخرج نحـو أرض أيلـة وهو بحر القلزم ، طولـه ألف وأربعمئـة ميل ، وعرض طريقـه الـذي يسمى البحر الأخضر مئتـا ميل ، وعرضـه في الأصل سبعمئـة ميل . وخليـج آخر يخرج نحو أرض فارس يسمى الخليج الفارسي ، وهو بحر البصرة ، طولـه ألف وأربعمئـة ميل وعرضه في الأصل خمسمئة ميل ، وعرض طريقه مئة وخمسون ميلاً . ويكون بين هـذين الخليجين ، أعني خليـج أيلـة وخليـج فـارس ، أرض الحجـاز واليمن ،

---

(١) أو جزيرة ثوليه Thule في شمالي الجزر البريطانية .

ويكون ما بين هذين الخليجين ألفاً وخمسمئة ميل . ويخرج منه أيضاً خليج آخر إلى أقصى أرض الهند عند تمامه يسمى الخليج الأخضر طوله ألف وخمسمئة ميل .

وفي هذا البحر كله ، أعني بحر الهند والصين ، من الجزائر العامرة وغيرها ألف وسبعون جزيرة ، منها جزيرة في أقصاه عند بلد الصين تسمى طبراني ، وهي سرنديب[٢] ، يحيط بها ثلثة آلاف ميل مقابل الهند من ناحية المشرق ، وفيها جبال عظام وأنهار كثيرة ، منها يخرج الياقوت الأحمر ولون السماء ، وحولها تسع وخمسون جزيرة عامرة ، فيها مدن وقرى كثيرة . فأما بحر أوقيانس الغربي الذي يدعى المحيط ، فإنه لا يعرف منه إلا ناحية المغرب والشمال من أقصى أرض الحبش إلى برطانية ، وهو بحر لا تجري فيه السفن ، والست الجزائر التي فيه مقابل أرض الحبش هي الجزائر العامرة ، وتسمى أيضاً جزائر السعداء . وجزيرة أخرى مقابل الأندلس تسمى غديرة عند الخليج ، وهذا الخليج يخرج منه ، وعرض موضعه الذي يخرج منه سبعة أميال ، هو بين الأندلس وطنجة يسمى سبطا (سبتة) ، يخرج إلى بحر الروم ، وفيه أيضاً من ناحية الشمال جزائر برطانية ، وهي اثنتا عشرة جزيرة ثم يبعد عن العمران ، فلا يعرف أحد كيف هو ولا ما فيه .

وأما بحر الروم ومصر فإنه يخرج من عند الخليج الذي يخرج من بحر أوقيانس الغربي عند الجزيرة التي تسمى غديرة مقابل الأندلس إلى صور وصيداء من ناحية المشرق ، وطوله خمسة آلاف ميل ، وعرضه في مكان ستمئة ميل ، وفي مكان سبعمئة ميل ، وفي مكان ثماني مئة ميل ، وفيه خليج واحد يخرج إلى ناحية الشمال قريباً من رومية ، طوله خمسمئة ميل ، يسمى بحر أذريس (الأدرياتيكي) ، وخليج آخر يخرج نحو أرض نربونة طوله مئة ميل .

وفي هذا البحر كله من الجزائر مئة واثنتان وستون جزيرة عامرة ، منها

---

(٢) أو سيلان ، سيرلانكا .

خمس عظام ، إحداها جزيرة قرنس (كورسيكا) ، يحيط بها مئة ميل ، وسردانية يحيط بها ثلاثمئة ميل ، وقبرس يحيط بها ثلاثمئة وخمسون ميلاً[٣] ، وصقلية يحيط بها خمسمئة ميل ، وإقريطش يحيط بها ثلاثمئة ميل .

وبحر بنطس (الأسود) يمتد من لاذقة (بلاد اللاز) إلى القسطنطينية العظمى ، طوله ألف وستون ميلاً ، وعرضه ثلاثمئة ميل ، يدخل فيه النهر الذي يسمى طنايس (الدون) ، ومجراه من ناحية الشمال من البحيرة التي تسمى مايطس (بحر آزوف) ، وهو بحر ضخم ، وإن كان يسمى بحيرة ، طوله من المشرق إلى المغرب ثلاثمئة ميل ، وعرضه مئة ميل ، وعند القسطنطينية ينفجر منه خليج يجري كأنه نهر ، ويصب في بحر مصر ، وعرضه عند القسطنطينية قدر ثلثة أميال ، والقسطنطينية عليه .

وبحر جرجان (بحر قزوين) وهو بحر الباب (ممر دربند) ، طوله من المغرب إلى المشرق ثماني مئة ميل ، وعرضه ستمئة ميل ، وفيه جزيرتان قبالة جرجان ، كانتا فيما مضى عامرتين .

وهذه المواضع العامرة من موضوع بحر الأرض المعروف والله بذلك أعلم .

وقد قسمت الأرض بثلاثة أقسام :

الأول منها من البحر الأخضر من ناحية الشمال والخليج الذي يخرج من بنطس إلى البحر الأكبر وما بين بحيرة ما يطس إلى بنطس ، فصارت حدود هذه الناحية من المغرب والشمال البحر الغربي وهو أوقيانس ، ومن ناحية الجنوب بحر مصر والروم ، ومن ناحية المشرق طنايس وبحيرة مايطس ، وصارت هذه الأرض شبه الجزيرة وسموها أوروفي .

والقسم الثاني من ناحية الجنوب من بحر مصر إلى بحر الحبش ، وحدود هذه

---

(٣) الميل العربي يساوي ٢ كيلو متر (١٨٧٨ م عن كراتشكوفسكي) والفرسخ ٣ أميال أو ٦ كم .

النـاحيــة من المغرب البحر الأخضر ، ومن الشمال بحر مصر والروم ، ومن المشرق العريش ، ومن الجنوب بحر الحبش ويسمى هذا القسم لوبيا[٤] .

والقسم الثالث جمع ما بقي من عمران الأرض إلى أقصى ذلك ، وحـدوده من المغرب طنايس والنهر والخليج والعريش وأيلة ، ومن الجنوب بحر اليمن والهنـد ، ومن أقصى عمران الصين من ناحية المشرق والصين نفسها ويسمى هـذا القسم أشيـا الكبرى .

فهذه الثلاثة الأقسام قد جمعت الأقاليم والكور وسائر البلدان العامرة .

وأما ما لا يعرف عمرانه ولا خرابه فهو أحد عشر جزءاً من اثني عشر جزءاً .

وأما الجزء الذي فيه العمران المعروف من موضع خـط الاستواء ففيـه البحور والمفاوز .

فإن قال قائل : هل في هذه الأحد عشر جزءاً نبـات وحيوان وعمران ؟ كان القول فيه من جهة القياس والرأي .

وأمـا مـا كان من عمران الأرض قبلنـا ، فـإنـه لا يجـوز الحـد والإفراق التي ذكرنا ، وأما الذي وراء ذلك فـإنـه لم يُجْرِه أحـد إلينـا ، ولكن الرأي والظن يقع على مـا لا ينكره أحـد من ذوي المعرفـة على جهــة القيــاس ، أن الشمس والقمر والكواكب تجري عنـدنـا فيكون بحركتهـا وقربهـا وبعـدهـا صيف وشتـاء ونبـات وحيوان وعمران ، وما يعرفه كل أحـد فـإن الشمس تطلع على كل مكان من دائرة الأرض الباقية والكواكب مثل ما عندنا ، فيمكن أن يكون هنالك نبات وحيوان وبحور وجبال مثل ما عندنا ، وينبغي أن يكون كذلك .

وتكون حصة الدرجة الواحدة من هذه الأميـال المـذكورة قريبـاً من خمسـة وستين ميلاً ، وهو مسيرة يومين بالتقريب والله أعلم

(٤) أي ليبيا وكانت تعني كل الصحراء الكبرى .

فأما طول المدن وعرضها وعلى ما رسم في كتاب صورة الأرض فإن مواضعها من الطول الذي هو مسافة ما بين المغرب والمشرق ، فإنهم ابتدؤوا به من الجزائر العامرة التي في بحر أوقيانس الغربي من ناحية المشرق على حسب ما وجدوا أوقات كسوفات القمر خاصة بتقدم بعضها بعضاً في البلدان ، فعلموا بذلك أن انتصاف النهار في كل بلد يتقدم انتصاف النهار في غيره من ناحية المغرب بأجزاء من أزمان معدل النهار ، يكون مقدارها أزمان ما بين الكسوف في البلدين ، ومن ذلك ما أخذوه من الأخبار ممن يسلك الطرق بالتقريب .

وأما عروض المدن فإنهم أخذوها من قبل الشمس في أوقات انتصاف النهار في البلدان ، فعرفوا بعدها وقربها من نقطة سمت الرؤوس على نحو ما بيننا فيما تقدم من هذا الكتاب ، فعلموا بعد كل بلد عن خط الاستواء ، وهو مسافة ما بين الجنوب والشمال ، ورسموا تحت كل مدينة بعدها عن الجزائر الخالدات في الطول ، وعن خط الاستواء في العرض بالتقريب . وقد أثبتنا ذلك على الرسم الذي وجدناه في كتاب صورة الأرض المعروف ، وذكر أوساط البلدان والكور المعلومة أيضاً ذكراً مفرداً كما فعل بطليموس وهي أربعة وتسعون بلداً . وقد يوجد في هذا الكتاب خلل في الأطوال والعروض ، وسنعيد ذكر ما يحتاج إليه من ذلك فيما يستأنف من كتابنا هذا » .

يحيى بن الحكم الغزال البكري الجيّاني

(١٥٦ هـ ـ ٢٥٠ هـ / ٧٧٠ ـ ٨٦٤ م)

يرتفع نسب يحيى الغزال إلى بني بكر بن وائل ، أي أنه كان ينحدر من إحدى البيوت العربية العريقة في شرفها وحسبها ، ولقد لقب بالغزال لوسامته ، إذ اتصف بجمال ظاهر مع بسطة في الجسم ، ووفرة في الصحة البادية والنشاط المتدفق .

وقد لعب دور الدبلوماسي مرتين . وكان شاعراً رقيقاً على معرفة بعدد من اللغات ، وعرف بالظرف وسرعة البديهة ، خفيف الروح ، جرت أشعاره على ألسنة معاصريه ، وبلغت مقدرته في الشعر أنه ألّف تاريخاً لأمراء الأندلس شعراً ، وبذلك كان الغزال يتمتع بالعلم الواسع ، والقدرة على قرض الشعر . وذلك فضلاً عن مواهبه الخلقية ، إذ عرف بالنزاهة في سائر المناصب التي أسندت إليه ، وغدا يحمل من الخلال ما يؤهله لأن يكون خير مرشح للسفارة لدي الملوك . وهكذا انتدب الأمير عبد الرحمن الأوسط ، أمير الأندلس ، لسفارته رجلاً ذكياً ، حاضر البديهة ، لطيف المدخل ، توافرت لديه الكثير من صفات السفراء التي حرصت عليها قواعد اللباقة الإسلامية ، ولا سيما أن هذا السفير اشتهر بأنه « حكيم الأندلس وشاعرها » .

ويقول ابن حيان في « المقتبس » : كان الغزال حكيم الأندلس وشاعرها وعرّافها ، عمّر أربعاً وتسعين سنة ، ولحق أعصاراً خمسة من الخلفاء المروانيين بالأندلس ، وأولهم عبد الرحمن بن معاوية ، وآخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، ولهذا يقول :

أدركت بالمصر ملوكاً أربعة   وخامساً هذا الذي نحن معه

وهكذا أوفده عبد الرحمن الثاني إلى ملك المجوس تورجايوس ، وهو الاسم الذي أطلقه عرب الأندلس على النورمان ، في سفارة بلغت عاصمة الملك المذكور في جوتلند ، أو الدانمارك الحالية ، لمفاوضة أجداد الفايكنغ الذين أغاروا قبل قليل ، في عام ٨٤٤ م ، على الأندلس ونهبوا إشبيلية ولكنهم فشلوا وقتل قائد أسطولهم .

وكانت الدول الإسلامية تهتم اهتماماً بالغاً في أن يكون سفراؤها من أصحاب الأصل العريق ، ليضفوا على سفاراتهم المهابة والجلال ، ولتعطي انطباعاً نفسياً قوياً على أقرانهم في الدول الأجنبية .

ويغلب على الظن أنه قد زار قبل هذا القسطنطينية ضمن سفارة أوفدت لعقد معاهدة صلح مع الإمبراطور تيوفيل . وقد حفظ لنا أخبار هذه السفارة الأولى ابن دحية ، مؤرخ الأندلس في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي .

ويروى أن الإمبراطورة زارته بصحبة ابنها في قصر الضيافة (أكاديمية المرمر) . ومع أن مرافقة السفراء أمر من صميم التقاليد الدبلوماسية البيزنطية ، إذ يكون هؤلاء مرافقين أدلآء ، يوجهون الزوار لرؤية كل شيء يخلق في ذهنهم انطباعاً بعظمة بيزنطة ، ورقباء في الوقت نفسه يمنعون ما عدا ذلك ، أما أن تكون الزائرة هي الإمبراطورة بالذات مع ابنها ، فهذا يتنافى مع الأعراف البيزنطية القائمة على إعلاء كل ما يتعلق بالإمبراطور . ويظهر ذلك واضحاً في معاملة أميرة كييف ، إذ أقيمت لها حفلة فخمة ، ولكن لم يسمح لها بالجلوس على مائدة الإمبراطور .

ولا يخلو من طرافة في هذا الصدد ، مخاطبته لسيدات البلاط البيزنطي في شعر عربي رصين ، نستشف من خلاله تلك العواطف الوجدانية الجياشة التي حفل بها شعر التروبادور . وقد نادى أحد العلماء الفرنسيين منذ أمد طويل برأي مفاده أن رحلة الغزال إلى بيزنطة هي الوحيدة التي حدثت فعلاً بينما تستند رحلته إلى النورمان على محض اختلاق . بيد أن من العسير الموافقة على هذا الرأي المتطرف ، لأن الرحلة في واقع الأمر تحفل بتفاصيل واقعية ، بل إن شخصية الملك المذكور في الرحلة ، والذي أجهد تحقيق اسمه العلماء وقتاً طويلاً قد أفلح العلامة النرويجي زاييل في إثبات شخصيته ، وهو الملك تورجايوس .

أما الرحلة الثانية فيرويها لنا في القرن السابع عشر علامة المغرب ، المقري ، في نفح الطيب . غير أنه أمكن في الآونة الأخيرة العثور على معلومات سابقة . وتبدو تفاصيل هذه الرحلة مقتضبة إلى جانب اضطرابها ، ولكنها تضم شعر الغزال نفسه المتعلق بتفاصيلها .

وسبب تلك السفارة هو أن (المجوس) وهي التسمية التي أطلقها المسلمون على كل من يعبد النار ، لأن النورمان كانوا إذ ذاك وثنيين لم يعتنقوا المسيحية بعد ، ويشعلون النار في كل مكان ينزلون به ، كانوا يغيرون على بعض مدن الأندلس ويعملون فيها سلباً ونهباً . وأصلهم من الشعوب الشمالية الجرمانية الذين كثرت غاراتهم على الجزر المبعثرة على امتداد ساحل أوروبا الغربي ، وامتدوا في غزواتهم حتى المدن الساحلية الخاوية ، حتى إنهم وصلوا إلى باريس وغيرها من مدن غرب أوروبا ، وساعد النورمان على الهجوم على بلاد الأندلس كثرة الأنهار فيا حملهم على التوغل في الداخل عن طريقها جرياً على عاداتهم في الإغارات . فكان في مدخل الوادي الكبير الذي تقع عليه قرطبة جزيرتان صغيرتان ، اتخذهما النورمان مقراً لهم في الهجوم على المدن الواقعة على ضفتي هذا النهر . وكان أول هجوم للنورمان على بلاد الأندلس سنة ٨٤٤ م أو ٢٣٠ هـ .

واستهل النورمان إغاراتهم على مدن نهر الوادي الكبير بعد استيلائهم على الجزيرتين الواقعتين عند المصب . ويبدو أن إشبيلية وقادس وقرطبة كانت من أهم أهداف النورمان بسبب ما اشتهرت به تلك المدن من غنى وثراء . واتجهت شعبة من جماعات النورمان إلى إشبيلية ، حيث اخترقت المدينة وانتشرت سفنهم بأشرعتها السوداء في مجرى النهر .

وحاول أهل إشبيلية تنظيم مقاومة ، فأرسلوا بضعة مراكب لتلقى سفن النورمان . فاستقبل النورمان سفن المسلمين بوابل من الأسهم النارية ، أشعلت النار في أشرعة سفن المسلمين وحملتهم على الهرب من المدينة ، وعلى إثر ذلك انتشر النورمان في ضواحي إشبيلية ونهبوها ، وحملوا معهم الكثير من الغنائم والأسرى ، ووضعوها في السفن في انتظار عودة باقي المغيرين .

وكانت فرقتان من جماعات النورمان قد تركتا إشبيلية لمهاجمة قادس وقرطبة . وبينما أخذت جماعات النورمان تخرب قادس على نحو ما فعلت بإشبيلية ، عجزت الفرقة الثالثة عن مهاجمة قرطبة وهي العاصمة بسبب شدة التيار في النهر . ويبدو أن هدف هذه الفرقة كان صرف أنظار المسلمين عن أعمال الجماعات النورماندية في إشبيلية وقادس ، وذلك بالتظاهر بمهاجمة قرطبة العاصمة ، وحمل المسلمين على تجميع قواتهم للدفاع عن العاصمة .

ولكن بينما كان النورمان يجمعون غنائمهم ، ويحملونها على ظهور سفنهم ، كانت الحكومة في قرطبة قد عبأت قواتها على عجل ، وبعثت بها لمهاجمة النورمان . ورأى قادة المسلمين أن خير وسيلة لمقاومة النورمان وإفساد غاراتهم السالفة الذكر هو وضع المجانيق على ضفتي النهر ، لترجم سفن النورمان بوابل من الحجارة وهي عائدة محملة بالغنائم .

أفلحت خطة القوات العربية التي نجحت في تحطيم ثلاثين مركباً من سفن النورمان أثناء عودتهم من إشبيليـــة ، على حين اضطر بعضهم إلى الهبوط من السفن والنزول إلى ضفتي النهر ، كي تصرعهم سيوف الجنود المسلمين . على إثر هذه الهزيمة شدد المسلمون هجومهم ، حتى طلب النورمان وقف القتال قائلين للمسلمين : « إن أحببتم الفداء فكفّوا عنا » وقبل المسلمون هذا النداء وجرى بين الفريقين تبادل الأسرى . ولما كان في يد النورمان كثير من أسرى المسلمين فقد أخذوا مقابل الفداء « الثياب والمأكول ولم يأخذوا في فدائهم ذهباً ولا فضة » .

وهكذا فشل النورمان حيث نجحوا سابقاً في هجومهم على بلاد الغال (فرنسا) والجزر البريطانية ، وأثبت عرب الأندلس أنهم يمثلون دولة قوية الأوتاد ، لما نظمها واستعدادها الحربي المتين . فلم يستطع النورمان تحقيق أي نصر منذ غاراتهم الأولى على بلاد الأندلس ، واضطروا إلى احترام قوة المسلمين في هذا الشطر الغربي من أرض أوروبا .

أدرك ملك النورمان بعد تلك الإغارة أنه قد اصطدم بقوة جديدة تختلف عن سائر قوى غرب أوروبا ، وأن المسلمين لابد أنهم سينتقمون لما أصابهم انتقاماً شديداً . ولذا أرسل تورجايوس سفارة إلى أمير الأندلس عقب إخفاق إغارة النورمان على إشبيلية يطلب الصلح والمهادنة .

ورحب الأمير عبد الرحمن برسل ملك النورمان ، لأن الأندلس عانى من غاراتهم البلاء الشديد ، ورأى في اتصالهم به سبيلاً لمعرفة أمورهم وفهماً لمدى قوتهم ، ثم أن الأمير عبد الرحمن رغب في مصادقة تلك القوة الجديدة ليستعين بها ضد دولة الإفرنجة ببلاد الغال ، وهي القوة التي اتصلت بها الخلافة العباسية المناهضة للإمارة الأموية بالأندلس .

وفي أواخر صيف ٨٤٥ م / أوائل سنة ٢٣١ هـ كان الأمير عبد الرحمن قد أعد مركباً حسن المنظر ، كامل العدة ، حمله بالهدايا الطيبة لملك النورمان . وقد غادرت السفارة أرض الأندلس على ظهر سفينة أقلعت بها من ميناء شلب في الجنوب الغربي ، وأخذ الغزال خطاباً من الأمير عبد الرحمن به تعريف بشخصيته ، وذكر لأغراض سفارته ، ثم اصطحب معه مساعداً له يسمى يحي بن حبيب ، وركب في سفينته التي أبحرت مع رسل النورمان في سفينتهم قاصدين مقر ملك النورمان في جوتلند .

وبعد أن غادر الغزال أرض إسبانيا ودخل بحر المانش هاج ذلك البحر وتلاطمت أمواجه . ذلك أن تلك الفترة في شهر أيلول ، وهو شهر تتعالى فيه أمواجه وتكثر أخطاره . وقاسى الغزال من دوار البحر ، واستولى الفزع على أعضاء بعثته بسبب اشتداد العواصف . وسجل الغزال عبور المانش بقوله :

قال لي يحي وصرنا ... بين موج كالجبال
وتولتنا رياح ... من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتـ ... ـتت عرى تلك الحبال
وتمطّى ملك المو ... ت إلينا عن حيال
فرأيت الموت رأي الـ ... ـعين حالاً بعد حال
لم يكن للقوم فينا ... يا رفيقي رأس مال

وبعد تلك الرحلة البحرية الشاقة وصلت سفينة الغزال وسفينة النورمان إلى إحدى الجزر الصغيرة القريبة من إيرلندا . فأقاموا فيها أياماً ، وأصلحوا مراكبهم وأجموا أنفسهم . ثم تقدمت سفينة النورمان إلى مقر الملك لتخبره بوصول سفارة المسلمين . وقد سر الملك سروراً عظيماً بمقدم تلك السفارة وأذن للسفينة التي تقل الغزال بأن تلقي مرساها في جزيرته .

ووصف الغزال تلك الجزيرة بأنها :

« عظيمة في البحر المحيط ، فيها مياه مطردة وجنات ، وبينها وبين البر ثلاثة مجار ، وهي ثلثمئة ميل ، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم ، وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار وأهلها مجوس ، وما يليهم من البر مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية ، وقد تركوا عبادة النار ودينهم الذي كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر متقطعة لهم في البحر ، هم على دينهم الأول من عبادة النار ، ونكاح الأخت والأم وغير ذلك من الشنار ، وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم » .

استقبلت السفارة لدى وصولها استقبالاً حافلاً ، وبعد يومين مثلت أمام الملك .

دبلوماسيته :

وتظهر لنا دبلوماسية الغزال وفطنته عندما استدعى ملك النورمان البعثة لمقابلته رسمياً . فاشترط الغزال أولاً ألا يطلب الملك منهم شيئاً يخرجهم عن تقاليدهم العربية أو يتنافر مع تعاليم دينهم ، كألا يسجد الغزال للملك . فأجاب ملك النورمان الغزال وصحبه إلى ما طلبوه وجلس في قاعة الاستقبال في أبهى زينة . غير أن ملك النورمان أراد أن يحتال على السفير الإسلامي ويحمله على السجود دون أن يشعر بالخديعة المبيَّتة . فأمر الملك « بالمدخل الذي يفضي إليه فضيق ، حتى لا يدخل عليه أحداً إلا راكعاً » .

غير أن الغزال أدرك في سرعة خاطفة وفي لباقة تلك الحيلة ، فلما وصل إلى باب قاعة الاستقبال جلس على الأرض ، وقدم رجله وزحف على إليته زحفاً ، فلما جاز الباب استوى قائماً ، والملك قد أعد له واحتفل في السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ذلك ولا ذعره ، بل قام ماثلاً بين يديه وقال :

« السلام عليك أيها الملك ، وعلى من ضمه مشهدك ، والتحية الكريمة لك ، ولا زلت تمتع بالعز والبقاء والكرامة ، المفضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم » .

مع الملكة :

ولما سمعت زوجة الملك بذكر الغزال ، وما اشتهر به من خصال بعثت تطلب حضوره إليها ، وبرهن الغزال في تلك المناسبة أنه يجيد أساليب الدبلوماسية التي لا تخفى على السفراء في الوقت

الحاضر . وهو ضرورة التقرب من الشخصيات الكبيرة في الدولة ، ولا سيا عظيمات السيدات لتسهيل مهامهم السياسية .

ولما دخل الغزال على مجلس الملكة سلم عليها ، ثم شخص فيها طويلاً ، ينظرها نظرة المتعجب ، مما أدى إلى ذلك الحوار بينهما :

قالت الملكة لترجمانها : سل السفير عن إدمان نظره ، لماذا هو : ألفرط استحسان أم لضد ذلك ؟ فقال الغزال : ما هو إلا أني لم أتوهم أن في العالم منظراً مثل هذا . وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم ، فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا .

فقالت الملكة لترجمانها : « سله ، أجدّ هو أم هازل ؟ فقال الغزال : لا ، بل مجدّ » فقالت الملكة : « فليس في بلدهم جمال ؟ » فقال الغزال : « فاعرضوا عليَّ من نسائكم حتى أقيسها بها » . فوجهت الملكة في طلب نساء معلومات بالجمال . فحضرن ، فنظر إليهن الغزال طويلاً ثم قال : « فيهن جمال ، وليس كجمال الملكة ، لأن الحسن الذي لها والصفات المناسبة ، ليس يميزها كل واحد ، وإنما يعني بها الشعراء . وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها في شعر يروى في جميع بلادنا فعلت » .

وقد سرت الملكة سروراً عظيماً بلباقة الغزال وحسن حديثه ؛ وأخذها الزهو بما سمعت منه ، ثم أمرت له بهدية فامتنع الغزال عن أخذها وقال : « لا أفعل » . فقالت الملكة للترجمان : « سله ، لم لا يقبل صلتي ؟ ألأنه حقرني ؟ » فقال الغزال : « إن صلة الملكة لجزيلة ، وإن الأخذ منها لتشرف ، لأنها ملكة بنت ملك ، ولكن كفاني من الصلة نظري إليها وإقبالها علي ، فحسبي بذلك صلة ، وأنا أريد أن تصلني بالوصول إليها أبداً .

وقد نجح الغزال في ذلك لأن الترجمان حين فسر للملكة قول الغزال سرت سروراً عظيماً وقالت : « تحمل صلته إليه ، ومتى أحب أن يأتيني زائراً فلا يحجب ، وله عندي من الكرامة والرحب والسعة » .

« وأولعت زوجة ملك المجوس بالغزال . فكانت لاتصبر عنه يوماً حتى توجه إليه فيه ، ويقيم عندها ويحدثها بسير الإسلام وأخبارهم وبلادهم ، وبمن يجاورهم من الأمم . فقلما انصرف يوماً قط من عندها إلا أتبعته هدية تلطفه بها ، من ثياب أو طعام أو طيب ، حتى شاع خبرها معه ، وأنكره أصحاب الغزال وحذروه من هذه المقابلات » .

واتعظ الغزال بقول أصحابه . وامتنع عن زيارة الملكة . فأرسلت تطلبه ، وسألته عن سبب غيابه . فقال لها ماحذر منه . فضحكت الملكة وقالت له :

« ليس في ديننا نحن هذا ، ولا عندنا غيرة ، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن ، تقيم المرأة معه ما أحبت ، وتفارقه إذا كرهت . وأما عادتنا قبل أن تصل إلينا المسيحية ، فهي ألا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال ، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع فتعير بذلك ، ويحجزه عليها أهلها » .

واستغرقت سفارة الغزال شهرين عاد بعدها إلى قرطبة ، حيث عرض على الأمير عبد الرحمن لما وصل إليه من نتائج . وتعتبر هذه السفارة ذات أهمية عظمى في ميدان الدبلوماسية الإسلامية . إذ استطاع الغزال أثناء إقامته في بلاد النورمان . واتصاله بأهلها نساءً ورجالاً أن يعرف طبيعة حياة أولئك الناس ، ولون معيشتهم ، وترتب على التقرير الذي قدمه الغزال نشأة البحرية الأندلسية في بحر الشمال ، وتوثقت العلاقات التجارية مع بلدان أوروبا الغربية . كما تدل على أن العرب أضحوا ذوي خبرة عظيمة في المجال الدبلوماسي تشبه خبرات الدبلوماسية الحاضرة من بعض النواحي ، كالتعرف على أوضاع الخصوم بالاختلاط الواسع مع فئات الناس المختلفة .



اليعقوبي

(توفي عام ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)

أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي اليعقوبي . وجده الأعلى واضح كان من موالي الخليفة المنصور وشغل في وقت ما منصب حاكم أرمينيا ومصر ، وقد كلفته ميوله الشيعية حياته ، وظل الاتجاه الشيعي في الأسرة إلى عهد مؤلفنا . وكان جده ووالده أيضاً من كبار عمال البريد ، ولا نعرف على وجه الصحة ما إذا كان أحمد اليعقوبي نفسه قد شغل بعض المناصب الحكومية ، ولكن أسفاره العديدة تدفعنا لأن نكون من أنصار هذا الافتراض . وعلى الرغم من أن بغداد كانت مسقط رأسه ، إلا أنه ارتحل عنها في سن مبكرة ، فعاش طويلاً بأرمينيا وخراسان حتى عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م وزار الهند وفلسطين ، وكان المعتصم يوجهه في أيام المأمون إلى سمرقند كل سنة في شراء الرقيق الأتراك ، وتمتع برعاية الطولونيين أثناء مقامه الطويل بمصر والمغرب . وقد انتهى من مصنفه (كتاب البلدان) الذي أنجزه في مصر إلى خلافة المعتمد العباسي المتوفى سنة ٢٧٧ هـ . ويعتبر كتابه أقدم كتاب عربي وصل إلينا في هذا الباب .

وقد بدأت ميول اليعقوبي تتكيف منذ عهد مبكر ، ولم تلبث أن اتخذت اتجاهاً واضحاً نحو الجغرافية بالذات وهو يبين هذا بوضوح في مفتتح كتابه كما سنرى ذلك بعد قليل .

وقد أثبت كل خبر وصل إليه من مصدر ثقة . حتى أنه سأل خلقاً كثيراً من أهل المشرق والمغرب . وكتب أخبارهم وروى أحاديثهم وذكر من فتح بلداً بلداً من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراج كل بلد وما يرتفع من أمواله ، وغير ذلك من الأمور المفيدة ، واستهل كتابه بالتحدث عن العراق وبغداد بوصفها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة وهواء . والحق أن اليعقوبي وصف بغداد أحسن وصف ، وذكر كل شيء فيها من البنايات والقصور والأسواق والشوارع والتجارات والصناعات والحرف والسفن وما يحمل إليها ، وجعلها مركز جغرافيته .

وما كتبه اليعقوبي بشأن بغداد يعد مرجعاً عظيماً لمن يرغب في الاطلاع على حالها في ذلك العصر ، ومثل هذا يقال عما كتبه عن مدينة سامراء . والواقع أن من يقرأ كتاب البلدان يشعر بأنه

كتاب مثالي ، لعمال الحكومة المعنيين في مختلف أنحاء هذه الإمبراطورية الواسعة الأرجاء ، ولسواهم من التجار والرحالة الذين يحرصون على أن يعرفوا شيئاً عن البلاد التي يزمعون الرحيل إليها ، كما يقف منه على أوصاف وأخبار تدل على أن اليعقوبي رأى بنفسه معظم ما عرض للكتابة فيه ، مع أنه تحاشى ذكر ما لقيه في أسفاره من المشاهدة والتجارب . ولا نعرف تاريخ وفاته على الضبط .

ويماثل كتابه ، إلى حد كبير ، كتاب ابن رستة من حيث النظر إلى الخطط وإلى المجال المخصص للطرق (المسالك) ولكنه يتميز عنه بالغزارة وبدقة التفاصيل التاريخية التي يقدمها المؤلف عن المقاطعات والمدن التي يصفها ، وكذلك باتساع بعض الفصول ، كتلك التي تعالج المغرب مثلاً ، حيث يقدم اليعقوبي معلومات ووثائق شخصية تماماً .

النص الأول

كيف صنف اليعقوبي كتابه

« قال أحمد بن أبي يعقوب : إني عنيت في عنفوان شبابي ، وعند احتيال سني ، وحدة ذهني بعلم أخبار المدن ، ومسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأني سافرت حديث السن ، واتصلت أسفاري ودام تَغَرُّبي ؛ فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ، فإذا ذكر لي محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك ، وزرعه ما هو ؟ وساكنيه من هم ؟ عرب أو عجم ؟ حتى أسأل عن لباسهم ودياناتهم ومقالتهم[1] والغالبين عليهم ... وما بالقرب منه من البلدان ، ثم أثبتّ كل ما يخبرني به من أثق بصدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً ، وعالماً[2] من الناس في الموسم[3] وغير الموسم ، من أهل المشرق والمغرب ، وكتبت أخبارهم ، ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلداً بلداً ،

---

(١) مقالة : معتقد ، عقيدة .

(٢) جمهوراً .

(٣) موسم الحج في مكة .

وجنَّد مِصْراً مصراً من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجه ، ومـا يُرْتَفعُ من أموالـه ، فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتـاب دهراً طويلاً ، وأضيف كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقـدمتْ عنـدي معرفتـه . فعلمت أنه لا يحيط المخلوق[٤] بـالغـايـة ولا يبلغ البشر النهـايـة ... فجعلنـا هـذا الكتاب مختصراً لأخبار البلدان ، فـإن وقف أحـد في أخبـار مما ذكرنـا على مـا لم نضمّنه كتابنا فليعلم أننا ما قصدنا أننا ما قصدنـا أن يحيـط بكل شيء ، وقـد قـال الحكيم : ليس طلبي للعلم طمعاً في بلوغ قـاصيتـه ، واستيلاءً على نهـايتـه ، ولكن معرفة مـا لا يَسَع جهلـه ولا يحسن بـالعقل خلافـه . وقـد ذكرت أسماء الأمصـار والأجناد والكُوَر ، وما في كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج ، ومن يسكنـه ويغلب عليه ، ويترأس فيه من قبائل العرب وأجنـاس العجم ، ومسـافـة مـا بين البلد والبلد والمصر والمصر ، ومن فتحه من قـادة جيوش الإسلام ، وتـأريخ ذلـك في سنته وأوقاته ، ومبلغ خراجه ، وسهله وجبله وبره وبحره وهواءه في شدة حره وبرده ومياهه وشربه .

النص الثاني

أهمية بغداد في القرن الثالث هجري / ٩ م

يستهل اليعقوبي كتابه بوصف دقيق وحي بآن واحد لعاصمة العالم الإسلامي الشرقي ، بغداد ، ويذكر لنا فيه أهمية بغداد في ذلك العصر .

« إنما ابتدأتُ بالعراق لأنها وسط الدنيـا وسرّة الأرض ، وذكرت بغـداد لأنهـا وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة

---

(٤) الإنسان .

وكبراً وكثرة مياه وصحة هواء ، لأنه سكنها من[٥] أصناف الناس وأهل الأمصار والكور ، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية ، وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم . فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة[٦] ومتجر ومتصرّف ، فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا . ثم[٧] يجري في حافتيها النهران الأعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات[٨] والمِيَر براً وبحراً بأيسر السعي[٩] حتى تكامل[١٠] بها كل متجر[١١] ، يُحْمَلُ من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام ، فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبّت[١٢] والترك[١٣] والديلم[١٤] والخزر[١٥] والحبشة وسائر البلدان التي خرجت التجارات منها ، ويكون مع ذلك أوجد وأمكن ، حتى كأنما سيقت إليها خيرات الأرض ، وجمعت فيها ذخائر الدنيا ، وتكاملت بها بركات العالم .

وهي مع هذا مدينة بني هاشم ، ودار ملكهم ، ومحل سلطانهم ، لم يبتد بها أحد قبلهم ، ولم يسكنها ملوك سواهم ، ولأن سلفي كانوا القائمين بها ، وأحدهم تولى أمرها ، ولها الاسم المشهور والذكر الذائع ، ثم هي وسط الدنيا لأنها على ما أجمع عليه قول الحسّاب وتضمنته كتب الأوائل من الحكماء في الإقليم الرابع ،

---

(٥) من ، عدد من ...

(٦) حي .

(٧) كا .

(٨) البضائع .

(٩) جهد ، عمل .

(١٠) توفر بكميات كبيرة جداً ، تدفق .

(١١) سوق ، وهنا بضائع .

(١٢) التيبت .

(١٣) تركستان ، وغالباً ما يدل اسم شعب على القطر الذي يسكنه .

(١٤) منطقة جنوب بحر الخزر .

(١٥) بلاد الخزر .

وهو الإقليم الأوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول ، فيكون الحر بها شديداً في أيام القيظ والبرد شديداً في أيام الشتاء » .

النص الثالث

تأسيس بغداد

يترك اليعقوبي ، استناداً إلى وعد قطعه على نفسه في مقدمة كتابه ، يترك مكاناً فسيحاً للتاريخ في مصنفه . وهاكم التفاصيل التي يقدمها عن تأسيس بغداد على يد الخليفة العباسي المنصور ، عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م .

« لما أفضت الخلافة إلى بني عم رسول الله ﷺ من ولد العباس بن عبد المطلب ، عرفوا بحسن تمييزهم ، وصحة عقولهم ، وكمال آرائهم ، فضلَ العراق وجلالتها وسعتها ووسطها للدنيا ، وأنها ليست كالشام الوبيئة الهواء ، الضيقة المنازل ، الحزنة الأرض ، المتصلة الطواعين ، الجافية الأهل ... فلما علموا أنها أفضل البلدان نزلوها مختارين لها ، فنزل أبو العباس السفاح[١٦] الكوفة[١٧] أول مرة ، ثم انتقل إلى الأنبار[١٨] ، فبنى مدينة على شاطئ الفرات وسماها الهاشمية ، وتوفي أبو العباس قبل أن يستتم تلك المدينة .

فلما ولي أبو جعفر المنصور[١٩] الخلافة بنى مدينة بين الكوفة والحيرة[٢٠]

---

(١٦) أول خليفة عباسي ومؤسس الأسرة العباسية . حكم من عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م حتى ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م . وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب .

(١٧) مدينة على الفرات . شبه مجهولة اليوم ، وظلت مدينة هامة جداً حتى القرن الحادي عشر الميلادي .

(١٨) مدينة على الفرات في شمال شرق الكوفة ، على عرض بغداد . وقد اختفت الآن .

(١٩) خليفة عباسي حكم من ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م إلى ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م .

(٢٠) مدينة قديمة لا تبعد كثيراً عن الكوفة التي حلت محلها . وكانت قبل الإسلام عاصمة المناذرة اللخميين التابعين للفرس .

وسماها أيضاً الهاشمية ، وأقام بها مدة إلى أن عزم على توجيه ابنه محمد المهدي[٢١] لغزو الصقالبة في سنة أربعين ومئة ، فصار[٢٢] إلى بغداد فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع . قيل له : بغداد : قال : هذه والله المدينة التي أعلمني أبي محمد بن علي أني أبنيها وأنزلها وينزلها ولدي من بعدي ... ثم وجه في إحضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين حتى اختط مدينته المعروفة بمدينة أبي جعفر . وأحضر البنائين والفَعَلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين ، فلما اجتمعوا وتكاملوا أجرى عليهم الأرزاق وأقام لهم الأجرة ... ثم اختطها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومئة ، وجعلها مدورة ، ولا تعرف في جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها . ووضع أساس المدينة في وقت اختاره نوبخت المنجم[٢٣] ... وحُفرت الآبار للماء ، وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا وهو النهر الآخذ من الفرات[٢٤] فأتقنت القناة[٢٥] ، وأجريت إلى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبلّ الطين . وجعل للمدينة أربعة أبواب ... وبين كل باب منها إلى الآخر خمسة آلاف ذراع من خارج الخندق ، وعلى كل باب منها بابا حديد عظيمان ولا يغلق الباب الواحد منها ، ولا يفتحه إلا جماعة رجال يدخل الفارس بالعَلَم ، والرامحُ بالرمح الطويل من غير أن يميّل العلم ولا يثني الرمح وجعل سورها باللبن العظام ـ التي لم ير مثلها قطّ على ما وصفنا من مقدارها ـ والطين ، وجعل عرض أساس السور تسعين ذراعاً بالسوداء ، ثم ينحط حتى يصير في أعلاه على خمس وعشرين ذراعاً ، وارتفاعه ستون ذراعاً مع الشُرّافات ، وحول السور فصيل جليل ، بين حائط السور وحائط الفصيل مئة

---

(٢١) خليفة عباسي حكم من عام ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م إلى ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م .

(٢٢) صار إلى : انتهى إلى . والفاعل هو المنصور .

(٢٣) منجم فارسي عاش في بلاط المنصور .

(٢٤) أو بالأحرى ، نهر كرخايا ، المشتق من نهر عيسى ، المشتق نفسه من الفرات والذي كان يربط هذا النهر بنهر الدجلة .

(٢٥) بنى بالحجارة .

ذراع ، وللفصيل أبرِجَة عظـام وعليـه الشرافـات المـدورة . وخـارج الفصيل ـ كما يدور[٢٦] ـ مُسنّاة بالآجور والصاروج متقنة محكمة عالية ، والخندق بعـد المسنّـاة ، قد أجري فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا ، وخلف الخنـدق الشوارع العظماء ، وجعل لأبواب المدينة أربعة دهاليز عظاماً آزاجاً كلها ...

فإذا دخل[٢٧] من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبـة مفروشـة بـالصخر ثم دهليزاً على السور الأعظم عليه بابا حديد ... فـإذا دخل من دهليز السور الأعظم سار في رحبة إلى طاقات معقودة بالآجر والجص ، فيها كواء رومية يـدخل منهـا الضوء والشمس ، ولا يدخل منها المطر وفيهـا منـازل الغلمـان ... وعلى كل بـاب من أبواب المدينـة التي على السُور الأعظم قبـة معقودة عظيـمة مـذهبـة ، وحولهـا مجالس ومرتفعات ، يجلس فيها فيشرف على كل ما يعمل به[٢٨] ، يُصْعَد إلى هـذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر ، وبعضها باللبن العظام ، قد عملت آزاجـاً بعضهـا أعلى من بعض ، فـداخل الآزاج للرابطـة[٢٩] والحرس ، وظهـورهـا عليها المصعـد إلى القبـاب التي على الأبواب على الـدواب[٣٠] ، وعلى المصعـد أبواب تغلق ... وفي وسط الرحبة العظمى[٣١] القصر الذي سمي بابه باب الـذهب ، وإلى جنب القصر المسجد الجامع ، وليس حول القصر بنـاء ولا دار ولا مسكن لأحـد ، إلا دار من ناحية باب الشـام للحرس ، وسقيفـة[٣٢] كبيرة ممتدة على عُمُدٍ مبنيـة بـالآجر والجص ، يجلس في إحـداهمـا صـاحب الشرطـة ، وفي الأخرى صـاحب

---

(٢٦) حوله .

(٢٧) دخل داخل .

(٢٨) بالباب .

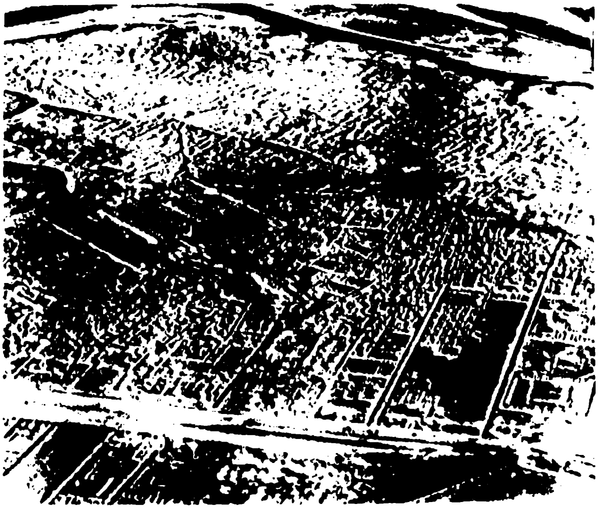
(٢٩) العسس الخيالة ، أو الحرس المشاة .

(٣٠) أي على ظهورها المصعد على الدواب ، وهذه العبارة تعني مستوى مـائلاً يسمح لحيوانـات النقل أن تصعـد حتى قمة البناء .

(٣١) أي الساحة الواقعة في داخل السور ذاته .

(٣٢) رواق ، بوابة .

الحرس ، وهي اليوم يصلّي فيها الناس ، وحول الرحبة ـ كما تدور ـ منـازل أولاد المنصور الأصاغر ، ومن يقرب من خـدمتـه من عبيـده ، وبيت المـال ، وخزانـة السلاح ، وديـوان الرسـائـل[٣٣] ، وديـوان الخراج ، وديـوان الخـاتم[٣٤] ، وديـوان الجنـد ، وديوان الحـوائـج[٣٥] ، وديـوان الأحشـام[٣٦] ومطبـخ العـامـة ، وديـوان النفقات[٣٧] . وبين الطاقـات إلى الطـاقـات[٣٨] السكـك والـدروب ، تعرف بقواد المنصور ومواليه وبسكان كل سكة .



شكل (١٦) صورة جوية لأطلال مدينة سامراء (سرّ من رأى) العاصمة العباسية المؤقتة ويظهر فيها المخطط الشطرنجي وفي وسطها المسجد الجامع الكبير

---

(٣٣) المكتب الخاص الذي تكتب فيه مراسيم (جمع مرسوم : ظهير) الخليفة .

(٣٤) مكتب الأختام المكلف بختم الرسائل الرسمية .

(٣٥) ديوان التموين المكلف بتقديم المواد الضرورية لبلاط الخليفة .

(٣٦) مكتب الأعطيات المسؤول عن تسجيل الإعانات الممنوحة للحاشية وأصحاب الرتب .

(٣٧) مكتب النفقات المسؤول عن توزيع النفقات على الجيش والإدارة .

(٣٨) قنطرة على كل باب أو الباب نفسه .

النص الرابع

وصف المغرب

يتميز (كتاب البلدان) باحتفاظه بطابعه الأدبي ، وذلك حتى في المناسبات التي يمكنه ألا يكون فيها أكثر من عرفية جافة . فاليعقوبي ، وذلك على خلاف ابن خرداذبة مثلاً ، لا يكتفي بإعطاء قائمة مراحل كل الطرق التي تخترق العالم . فهو يلحق بذكر كل مرحلة معلومات ، هامة أحياناً ، عن موقعها وعن ماضيها . وفضلاً عن ذلك يبدو المؤلف أكثر اطلاعاً من سابقيه على البلاد البعيدة عن العراق . ومثال ذلك ما نجده عندما يصف المغرب بالموازنة مع وصف ابن خرداذبة للمنطقة نفسها :

« فأما من أراد أن يسلك من مصر إلى برقة وأقاصي المغرب نفذ من الفسطاط[٣٩] في الجانب الغربي من النيل حتى يأتي ترنوط ، ثم يسير إلى منزل عرف بالمنى وقد أقفر أهله ، ثم إلى الدير الكبير المعروف ببومينا ، وفيه الكنيسة الموصوفة العجيبة البناء الكثيرة الرخام ، ثم إلى المنزل المعروف بذات الحَمام ، وفيه مسجد جامع وهو من عمل كورة الإسكندرية ، ثم يصير في منازل لبني مُدْلج في البرية ، بعضها على الساحل ، منها المنزل المعروف بالطاحونة ، والمنزل المعروف بالكنائس ، والمنزل المعروف بجُبّ العوسج ، ثم يصير في عمل لوبية وهي كورة تجري مجرى كور الإسكندرية ، منها منزل يعرف بمنزل معن ، ثم المنزل المعروف بقصر الشماس ، ثم يسير إلى خَرْبة القوم ، ثم الرمّادة ، وهي أول منازل البربر يسكنها قوم من مزاته وغيرهم من العجم القُدُم ، وبها قوم من العرب من بلّي وجهينة وبني مدلج وأخلاط ... ثم إلى جب الرمل وهذه ديار البربر من ماصلة بن لواتة وأخلاط الناس . ثم يصير إلى وادي مخيل[٤٠] ، وهو منزل

---

(٣٩) القاهرة القديمة ووريثة ممفيس الفرعونية .

(٤٠) ويدعى حالياً المخيلي ويقع في منتصف الطريق بين بنغازي وطبرق على خط مستقيم ، وهي بلدة صغيرة .

كالمدينة[٤١] ، به مسجد الجامع . وبرك الماء وأسواق قائمة وحصن حصين ، وفيه أخلاط من الناس وأكثرهم البربر من ماصلة وزنارة ومراوة[٤٢] وفطيطة . ومن وادي مخيل إلى مدينة برقة[٤٣] ثلاث مراحل في ديار البربر من مراوة ومفرطة ومصعوبة وزكودة وغيرهم من بطون لواتة .

ومدينة برقة في مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة وهي مدينة عليها سور وأبواب حديد وخندق . أمر ببناء السور المتوكل على الله[٤٤] ، وشرب أهلها ماء الأمطار يأتي من الجبل بأودية إلى برك عظام قد عملتها الخلفاء والأمراء لشرب أهل المدينة . وحوالي المدينة أرباض لها يسكنها الجند وغير الجند ... وخراج برقة قانون[٤٥] قائم . كان الرشيد[٤٦] وجّه مولى له يعرف ببشّار فوزع خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار ، على كل ضيعة شيء معلوم سوى الأعشار والصدقات والجوالي[٤٧] ، ومبلغ الأعشار والصدقات والجوالي خمسة عشر ألف دينار ، ربما زاد وربما نقص ، والأعشار للمواضع التي لا زيتون بها ولا شجر ولا قرى مقراة .

ولبرقة عمل يقال له أوجلة ، وهو في مفازة مغرّب لمن أراد الخروج إليها ينحرف إلى القبلة ، ثم يصير إلى مدينتين ، يقال لإحداهما جالو وللأخرى ودّان ، ولها النخل والتمر والقسب الذي لا شيء أجود منه وأرض ودّان لآنقها .. وتسمى برقة أنطابلس هذا اسمها القديم افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاث

---

(٤١) يماثل المدينة في سعته .

(٤٢) توجد قرية تدعى مراوة تبعد عن المرج شرقاً بمسافة ٥٥ كم .

(٤٣) اسمها الحالي المرج واسمها القديم Barce أي برقة وقد تهدمت جزئياً في زلزال عام ١٩٦٣ . بينما تطلق هذه التسمية حالياً على كل الإقليم الشرقي من الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية .

(٤٤) خليفة عباسي حكم من ٢٣٢ هـ / ٨٦١ م .

(٤٥) نظام متفق عليه بين طرفين .

(٤٦) خليفة عباسي مشهور حكم بين ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م إلى ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م .

(٤٧) الرسم المستوفى من غير المسلمين من أهل الكتاب .

وعشرين صلحاً . ومن آخر عمل برقة من الموضع الذي يقال له تَوَرْغة[٤٨] إلى أطرابلس ست مراحل ... وأطرابلس مدينة قديمة جليلة على ساحل البحر عامرة آهلة ، وأهلها أخلاط من الناس[٤٩] ، افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاث وعشرين في خلافة عمر بن الخطاب ، وكانت آخر ما افتتح من المغرب في خلافة عمر ..

ومن أطرابلس إلى أرض نفوسة ، وهم قوم عجم الألسن أباضية كلهم ، لهم رئيس يقال له إلياس لا يخرجون عن أمره . ومنازلهم في جبال أطرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة . لا يؤدّون خراجاً إلى سلطان ، ولا يُعطون طاعة إلا إلى رئيس لهم بتاهرت[٥٠] ، وهو رئيس الأباضية ، يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فارسي[٥١] . وديار نفوسة متصلة من حد أطرابلس مما يلي القبلة إلى قريب من القيروان ، ولهم قبائل كثيرة وبطون شتى . ومن أطرابلس على الجادة العظمى إلى مدينة يقال لها قابس عظيمة على البحر المالح ... ومن قابس إلى مدينة القيروان أربع مراحل ...

ومدينة القيروان العظمى التي اختطها عقبة بن نافع الفهري[٥٢] سنة ستين في خلافة معاوية ، وكان عقبة الذي افتتح أكثر المغرب . على أن أول من دخل أرض إفريقية وافتتحها عبد الله بن سعد بن أبي سرح[٥٣] في خلافة عثمان بن عفان سنة ست وثلاثين ... وشربهم من ماء المطر ، إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المؤاجل[٥٤] ، فمنها

---

(٤٨) بلدة صغيرة تدعى الآن تاورغاء وتقع إلى الجنوب من مصراته .

(٤٩) أي لا ينتمون إلى قبائل كبرى معينة وفيها من غير العرب .

(٥٠) مدينة في الجزائر تدعى حالياً تيارت .

(٥١) لقد ورد هذا تعريف هذا الاسم في نص لابن خرداذبة .

(٥٢) فاتح المغرب ووالي إفريقية من عام ٦٦٩ م إلى ٦٨٣ م .

(٥٣) والي إفريقية في عهد الخليفة عثمان بن عفان . وهو الذي كسر البطريق غريغوار في سبيطلة .

(٥٤) أو مآجن ، وهي الصهاريج .

شرب السقاة ، ولهم واد يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة ، يأتي فيه ماء مالح لأنه في سباخ الناس يستعملونه فيما يحتاجون إليه . ومنازل بني الأغلب(٥٥) على ميلين من مدينة القيروان ، في قصور قد بني عليها عدة حيطان ، لم تزل(٥٦) منازلهم حتى تحول عنها إبراهيم بن أحمد(٥٧) ، فنزل بموضع يقال له الرقّادة على ثمانية أميال من مدينة القيروان ، وبنى هناك قصراً .

وفي مدينة قيروان أخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان(٥٨) ، وبها أصناف من العجم من أهل خراسان ومن كان وردها(٥٩) مع عمال بني هاشم(٦٠) من الجند ، وبها عجم من عجم بلد البربر والروم وأشباه ذلك ... ومن القيروان إلى مدينة تونس وهي على ساحل البحر وبها دار صناعة ... وكان على تونس سور من لبن وطين وكان سورها يلي البحر بالحجارة ، فخالف أهلها على زيادة الله بن الأغلب(٦١) ... فحاربهم فلما ظهر عليهم هدم سور المدينة بعد أن قتل فيهم خلقاً عظيماً .

ومن ساحل تونس يعبر البحر إلى جزيرة الأندلس ... فمن أرادها نفذ من القيروان إلى تونس على ما ذكرنا وهي على ساحل البحر المالح ، فركب البحر المالح يسير فيه مسيرة عشرة أيام مُسَحِّلاً(٦٢) غير موغل حتى يحاذي جزيرة الأندلس من موضع يقال له تَنَس(٦٣) ، بينه وبين تاهرت مسيرة أربعة أيام ، أو

(٥٥) أسرة عربية حكمت إفريقية خلال القرن التاسع ميلادي .

(٥٦) أي القصور .

(٥٧) انظر نص ابن خرداذبة الثاني .

(٥٨) ربيعة ومضر من أجداد عرب الشمال ، وقحطان جد عرب الجنوب أو اليمنيين .

(٥٩) الضمير يعود إلى مدينة القيروان .

(٦٠) اسم يعني العباسيين أيضاً أحياناً لأنهم ينحدرون من هاشم جدهم . والعمال هنا الأغالبة .

(٦١) أمير أغلبي حكم من ٨١٢ م إلى ٨٣٨ م .

(٦٢) أي متابعاً الساحل ، وقد استعمل الجغرافيون العرب هذه الصيغة للدلالة على الطريق المسلوك ، فيقال غرّب ، شرّق ، وأنجد ، وأيمن .

(٦٣) مدينة تقع غرب العاصمة الجزائرية .

صار إلى تاهرت يوافي الجزيرة جزيرة الأندلس ، فيقطع اللج في يوم وليلة حتى يصير إلى بلد تُدْمير[٦٤] ، وهو بلد واسع عامر ، فيه مدينتان ، يقال لإحداهما العسكر ، والأخرى لورقة ، في كل واحدة منبر . ثم يخرج منها إلى المدينة التي يسكنها المتغلب من بني أمية ، وهي مدينة يقال لها قرطبة ، فيسير ستة أيام من هذا الموضع في قرى متصلة وعمارات ومروج وأودية وأنهار وعيون ومزارع . وقبل أن يصير إلى مدينة قرطبة من تدمير يصير إلى مدينة يقال لها البيرة ، نزلها من كان قدم البلد من جند دمشق من مضر وجلهم قيس وأفناء قبائل العرب ، بينها وبين قرطبة مسيرة يومين ... وغربي المدينة التي يقال لها الجزيرة مدينة اسمها إشبيلية على نهر عظيم وهو نهر قرطبة ، دخلها المجوس[٦٥] الذين يقال لهم الروس سنة تسع وعشرين ومئتين ، فسبوا ونهبوا وحرقوا وقتلوا . وغربي إشبيلية مدينة يقال لها لبلة ، نزلها العرب أول ما دُخل البلد مع طارق مولى موسى بن نصير اللخمي ... ومما يلي الشرق من هذه المدينة مدينة يقال لها ماردة على نهر عظيم ، وبينها وبين قرطبة أربعة أيام ، وهي غربي قرطبة ، وهي تحاذي أرض الشرك ، وجنس منهم يقال له الجلالقة[٦٦] ، وهي في الجزيرة ... ثم يخرج من قرطبة مشرّقاً إلى مدينة جَيّان ، وبها من كان من جند قنّسرين[٦٧] والعواصم[٦٨] ، وهم أخلاط من العرب من معدّ[٦٩] واليمن . ومن جيان ذات الشمال إلى مدينة طليطلة ، وهي مدينة منيعة جليلة ، ليس في الجزيرة أمنع منها ، وأهلها يخالفون على بني أمية ، وهم أخلاط من العرب والبربر والموالي ، ولها نهر عظيم

---

(٦٤) بلاد تدمير تنطبق على إقليم مرسية في جنوب شرق إسبانيا .

(٦٥) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب هذه التسمية على القراصنة النورمانديين الذين عاثوا فساداً في سواحل الأندلس في القرن الثالث هجري / التاسع ميلادي .

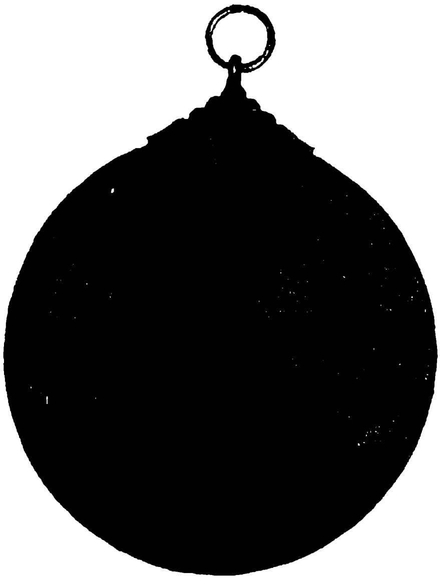
(٦٦) سكان إقليم غاليسيا في شمال غرب إسبانيا .

(٦٧) منطقة عسكرية عند الفتح في شمال سورية على مسافة ٨ كم جنوب حلب وتدعى الآن العيص ، وهي قرية .

(٦٨) اسم منطقة عسكرية في سورية عند الفتح .

(٦٩) جد العرب الشماليين ، وهو أبو نزار ومضر وربيعة وإياد التي تعني أسماؤها عرب الشمال .

يقال له دُوَيْر[٧٠] . ثم منها مشرقاً إلى مـدينـة سرقسطـة ، وهي من أعظم مـدائن ثغر الأنـدلس على نهر يقـال لـه إبرة[٧١] ... ومنهـا إلى القبلـة مـدينـة يقـال لهـا طرطوشة ، وهي آخر ثغر الأنـدلس في الشرق محـادّة للإفرنجيين ، وهي على هـذا النهر المنحـدر من سرقسطـة . ومن طرطوشـة لمن أخـذ مغرّبـاً إلى بلـد يقـال لـه بلنسية ، وهو بلد واسع جليل نزله قبائل البربر ، ولم يعطوا بني أميـة الطـاعـة ، ولهم نهر عظيم ببلد يقـال لـه الشّقر[٧٢] . ومنهـا إلى بلـد تـدمير البلـد الأول فهـذه جزيرة الأندلس ومدنها .



---

(٧٠) أي نهر الدورو ، واليعقوبي يخطئ هنا .

(٧١) أي نهر الإيبر .

(٧٢) أي نهر عوادا لافيار .

بزْرك بنُ شهرَيَار النَّاخُدَاه الرَّام هُرْمُزِيّ

(توفي بعد عام ٣٤٠ هـ / القرن العاشر م)

أصل بُزْرْج أو بُزُرْك Borzog من رام هرمز في خوزستان . وكان من ركاب البحر الذين امتازوا وأبدعوا ، وعمل ناخداه ، أي رئيس مركب . وبصفته بحاراً محترفاً فقد أتيح لـه ، بلا ريب ، أن يجوب عبـاب المحيـط الهنـدي وبحر الصين والحبشـة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، فـدون مـا رآه بعينيـه ، ومـا سمع بـأذنيـه من التجـار والبحريين الـذين يوثق بكـلامهم ، من الظـاهرات والكائنـات المستغربة ، في سِفْر لا ينطبق محتواه تمامـاً على عنوانـه ، دعـاه (عجـائب الهنـد بره وبحره وجزائره) اعتنى بطبعه وترجمته للفرنسية العلامة المستشرق فان درليث سنة ١٨٨٣ م .

ففي هذا الكتاب لا يكتفي بزرك ، فعلاً ، بنقل الروايـات التي جمعهـا ، بل كثيراً مـا يضيف مشاهداته الشخصية إلى ما يرويه كي يؤكد صحتها . وتبدو هذه الحكايات مفعمة بالغريب الذي يحتل مكانـة واسعـة فيهـا . غير أن ممـا لا شـك فيـه أن عـدداً كبيراً من هـذه الأقـاصيص مـا هو إلا نتيجـة ملاحظات لم يوسعها خيال الرواة كثيراً .

وعلى كل تمثـل هـذه الروايـات ، وبكل دقـة ، أدبـاً ازدهر ابتـداءً من القرن الثـالث الهجري / التاسع ميلادي ، وقد كان لنشوئه الأثر الحاسم في تقدم الجغرافية عند العرب .

ويذكر بُزُرك في كتابه الوقائع والعجائب التي شـاهـدهـا أو سمعهـا في البحـار والجزر وشواطئ البلاد وذكر أحياناً سني حدوثها ، ففيه من السنين المذكورة سنة ثلاث وثلاثمئـة إلى سنـة أربعين وثلاث مئة وذكر فيه أحوال شواطئ إفريقيـة الشرقيـة وسواحل بلاد العرب وجزر بحر الهنـد والصين وجزيرة جاوة ، وأحوال سفالة الزنج أي الزنجبار وجزاير واق واق التي يزعمون أنها جزر جابان (اليابان) .

ويتراءى من قراءة هذا الكتاب ما كان يتكبده البحريون المسلمون من عرب وفرس في أسفـارهم البحرية ، وترددهم على الجزر من سيراف إلى الهند وسرنديب وجـاوة (الزابج) وجنـدابور على سـواحل بحر الهند وسفالة الزنج واندمان وغيرهـا من جزر بحر الهنـد وبحر الصين إلى الصين ثم رجوعهم منهـا إلى سيراف .

النص الأول
الحيوانات العجيبة والظاهرات الغريبة

« حدثني أبو محمد الحسن بن عمرو بن حمويـة بن حرام بن حمويـة النجيرمي بالبصرة ، أنه سمع في حداثته أن مردويه بن زرابخت ، وكان أحـد رُبـانيـة الصين وبلاد الذهب ، ذكر أنه كان مجتازاً بناحية جزيرة الزابج[1] ، وأنه سلـك في بعض الأيام بين قرنين ظاهرين في البحر ، قدر أنهما جبلان في الماء ، وأنه لما جـاوزهمـا غاصا في البحر ، فقـدر أنهما ظفري سرطـان . فقلت لأبي محمـد : هل أحكي عنـك هذه الحكاية ، فقال لي :قد سمعت بها وهو شيء عظيم . ما أدري ما أقول فيـه إلا أن السرطان يعظم في البحر جداً ...

وحدثني بعض من دخل زيلع وبلاد الحبشة ، أن في بحر الحبشة سمكاً له وجه كوجه بني آدم ، وأجسامهم لها الأيدي والأرجل ، وأن الصيادين المتغربين الفقراء المتطرفين في أطراف السـواحـل المهجـورة والجـزائر والشعـاب والجبـال التي لا تسلك ، المعالجين فيها طول أعمارهم ، إذا وجدوا ذلك السمك المشـابـه لبني آدم اجتمعوا به فيتوالدوا بينهم نسلاً شبيهاً لبني آدم يعيش في المـاء والهواء ، وربمـا كان الأصل في هذا السمك من بني آدم ، اجتمعوا بجنس من أجنـاس السمـك ، ويتوالـد بينهم هذا السمك الشبيـه لبني آدم ثم كـذلـك على مر الـدهور والأزمنـة ، كما يجتمع الآدمي ببعض الوحش مثل الضَّبُع والنمرة وغيره من حيوان البري ، فيتوالـد بينهم القردة والنسانيس وغير ذلـك ممـا يشبـه ابن آدم ، وكما تجتمع الخنـازير والجواميس بينهما الفيلـة ، وكما يجتمـع الكـلاب والمعـز وكان بينهما الخنـازير ، وكما يجتمـع الحمير والخيل وكان بينهما البغال ، ولو ذهبنا نعدّ ما تنتج من الاجتماع للأجناس لعددنـا

(١) زابج : جاوة . وغالباً ما يـستعمل هذا الاسم للكناية عن كل جزر أندونيسيا التي تدعى جزر المهراج أيضاً .

من ذلك ما يُبهت القارئ ويخرج عما قصدنا إليه من عجائب الهند خاصة ، ويقال : إن سمكاً يقال له الظلوم على صورة الآدمي ، وله فرج كفرج الناس الذكر والأنثى ، يصاد وله جلد أثخن من جلد الفيل يدبغ ويستعمل للأخفاف .

ويقال : إن كل طائر في الهواء وعلى وجه الأرض ، في البحر من السمك مثله ، أو ما يشبهه . ولقد رأيت في جون أيلة[٢] من البلاد الشامية سمكاً صغيراً يشبه لون الشقراق[٣] لا يغادر يطير من الماء ويغوص فيه[٤] .

ومن عجيب أمر بحر فارس ما يراه الناس فيه بالليل ، فإن الأمواج إذا اضطربت وتكسرت بعضها على بعض انقدحت منه النار ، فيُخَيَّل إلى راكب البحر أنه يسير في بحر نار » .

النص الثاني
طرائف الشرق الأقصى

« وتذاكرنا أمر إسمعيلويه بن إبراهيم بن مرداس ، فقيل لي : إنه وصل في سنة ٣١٧ ، وكان وصوله منذ خطف من كله وإلى أن دخل بكلاء عمان ثمانية وأربعين يوماً ، وورد في تلك السنة كاوان[٥] من سرنديب ، وبلغ عشور مركبه ٦٠٠٠٠٠ دينار لا مركب إسمعيلويه . وحدثني عن كاوان هذا أنه قال : أدخلني

---

(٢) خليج العقبة في البحر الأحمر .

(٣) أو الشر قراق وهو نوع من الطير .

(٤) ونجد في كتاب سلسلة التواريخ ذكر الأسماك الطائرة . وذكروا أن في ناحية البحر سمكاً صغيراً يطير على وجه الماء يسمى جرادا الماء . وهو سمك معروف في سواحل البحر المتوسط .

(٥) اسم ملاّح .

بغبور ملك الصين إلى بستان بخانفور[٦] مقدار ٢٠ جريباً ، فيه نرجس ومنثور وشقائق وورد وسائر النوار . فعجبت من اجتماع نوار الصيف والشتاء في وقت واحد في بستان واحد فقال : كيف ترى ؟ فقلت : ما رأيت حسنة إلا وهذا أحسن ، ولا طرفة إلا وهذا أطرف منها . فقال لي : جميع ما ترى من الأشجار والنوار معمولة من الحرير ، فتفقدته بعد أن قال لي هذا ، فوجدت الأوراق والأنوار من الحرير الصيني قد عمل وضفر وحبك ونسج وسوي ، ومن رآه لم يشك في أنه شجر وَنَوَّارٌ لا يغادر شيئاً .

ومما يحكى لي عن بعض ملوك الصين ـ وهو من الحكايات ـ أن له بركة عظيمة يجيئها الماء من فرسخ ، ثم يفتح الماء عنها ، فينضب كله وهي فارغة . فإذا أحب أن تُمْلأ ماء أمر بفتح الماء عليها من الموضع الذي يجيء منه . ثم يطرح اللؤلؤ مع الماء فيجري الماء إلى البركة في نهاية الصفاء ، واللؤلؤ فيه إلى أن تمتلئ البركة من اللؤلؤ ، ويفيض الماء على جوانبها . ثم يقطع الماء عنها ويبقى اللؤلؤ مثل الحصى » .

النص الثالث
مغامرات خارقة

ويذكر بُزُرْك في كتابه ، طبعاً ، الكثير من المغامرات المتفاوتة في إثارتها للدهشة . وفي الرواية الآتية عن غزق سفينة لا يضيّف الراوي شيئاً إلى مأساة الحوادث .

« ومن مصائب البحر المشهورة التي أثرت إلى يومنا هذا ، ما حدثني به

---

(٦) خانفو . التي يدعوها ماركو بولو غانفون ، كانت عاصمة الصين الصغرى ، أي مناء هانغ تشيئوفو ، بينما يعتقد البعض أن خانفو تعني مدينة كانتون .

بعض التجار قال : خرجت في مركب من سيراف[٧] في سنة ست وثلاثمئة ، أريد صيمور[٨] ، وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد ، ومركب بسبأ ، وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر ، والمراكب الموصوفة في البحر ونواخذتها[٩] مشهورون ، لهم قدر ومنزلة في البحر . وكان في المراكب ألف ومئتان رجل من التجار والنواخذة والبانانية[١٠] وغيرهم من صنوف الناس . وفيها من الأموال والأمتعة ما لا يعرف قدره لكثرته . فلما سرنا أحد عشر يوماً رأينا آثار الجبال ، ولوائح[١١] أرض سندان ، وتانة ، وصيمور ، وما سار هذا السير السريع قبلهم أحد فيما سمعنا ، فاستبشرنا وسررنا وبشر بعضنا بعضاً بالسلامة ، وأخذنا في الاستعداد ، لأنّا قدرنا أنّا نصبح من غد الأرض . ثم جاءتنا الريح من الجبال ، فلم نضبط الشرع ، وأخذنا الخب والمطر والرعد والبرق ، فقال الربانية والبابانية : نطرح الأمتعة فمنعهم أحمد وقال لا أطرح إلا بعد أن يخرج الأمر عن يدي وأعلم أني هالك . ونزل الرجال ينزفون الجمة[١٢] من الجانبين ، والمركبان على مثل حالنا ، كل واحد منهما ينتظر صاحبه ما يفعل من طرح أو غيره فيفعل مثله . وضج التجار وقالوا له[١٣] : اطرح الأمتعة وأنت في الحل فإنا نهلك : فقال لا أطرح البتة ، ولم يزل الأمر يتزايد إلى أن مضت ستة أيام ، فلما كان في اليوم السادس وكاد المركب أن يغوص في البحر قال اطرحوا الحمولة فلم يمكن طرح شيء

---

(٧) سيراف : ميناء تجاري كان مزدهراً في القرن الرابع هـ / العاشر م ، على الساحل الشرقي من الخليج العربي . ومنه كانت تقلع السفن العربية المتجهة نحو الهند والصين . وقد تدهورت حالة هذا الميناء في القرن التالي عندما احتكر الأمراء العرب في جزيرة قيس بالخليج العربي الجنوبي التجارة لحسابهم .

(٨) مدينة هندية على ساحل مالابار قريبة من بومباي .

(٩) ناخذا أو ناخذاه كلمة فارسية تعني ريس السفينة أو القبطان .

(١٠) مفردها باناني أو بانيان ، كلمة هندستانية بانيان : تاجر . أما في كتاب بزرك فهذه العبارة تعني بحارة ، لأن هؤلاء كانوا يتعاطون التجارة أثناء توقف سفنهم في الموانئ .

(١١) مفردها لائحة أي الشيء الذي يلوح بالأفق من بعيد .

(١٢) الجمة ، الماء الذي نفذ إلى قاع المركب .

(١٣) أي قالوا لأحمد ريس المركب .

لأن الخوابي[14] والأعدال ثقلت بالمطر وكان ما فيه خمس مئة مَنّاً قد صار فيه ألف وخمسمئة منّاً بالمطر ، وعاجلهم الأمر وطرحوا القارب إلى الماء ونزل فيه ثلاثة وثلاثون رجلاً ، وقيل لأحمد : قم فانزل في القارب فقال لا أبرح من مركبي فإنه أرجا[15] في السلامة من القارب ، وإن تلف تلفت معه ، فلاحظ لي في الرجوع بعد تلف مالي .

قال لي هذا التاجر : فمكثنا في القارب خمسة أيام ليس معنا ما لا يؤكل وما لا يشرب إلى أن لم يبق فينا فضل أن نتكلم بكلمة من الجوع والعطش والشدة التي مضت علينا في البحر ، والقارب تقلبه الأمواج والرياح ، لا ندري هو في البحر أم لا ، ولشدة الجوع وما نحن فيه أوينا إلى بعضنا أن نأكل واحداً منا ، وكان معنا في القارب صبي سمين لا يبلغ ، وكان أبوه في جملة من تخلف في المركب ، فعزمنا على أكله ، فأحسّ الصبي بذلك ، فرأيته وهو ينظر إلى السماء ويحرك شفتيه وعينيه تحريكاً خفياً ، فما مضت ساعة حتى رأينا آثار الأرض ، ثم لاحت لنا الأرض ، ثم جنح القارب على البر ، وانقلب القارب ، ودخله الماء وليس لنا قوة للقيام ولا لحركة ، وإذا برجلين قد نزلا إلى القارب فقالا لنا : من أين أنتم ؟ فقلنا : نحن من مركب فلان ، فأخذوا بأيدينا وأخرجونا إلى الأرض ، فوقعنا على وجوهنا مثل الموتى ، ومضى واحد منهما يعدو على وجهه ، فقلت للآخر أين نحن ؟ فقال : هذا الدخان الذي نراه من التيز ، وقد راح صاحبي إلى القرية ، فعندنا الزاد والماء والثياب فحملونا إلى البلد ... وهلك جميع أهل المراكب الثلاثة ، فلم يسلم منهم أحد إلا نفر من الذين كانوا في القارب ، وكان في جملتهم ربان المركب أحمد . وكان اسمه بقي ، وكان قد زاد تلف هذه المراكب وما فيها من المعايش في اختلال سيراف وصيمور لعظيم ما كان فيها من الأموال ووجوه النواخذة والربان والتجار » .

---

(١٤) جمع خابية وهي الصرة المغلفة بقماش .

(١٥) أي أقرب وأكثر رجاء .

وأحياناً على العكس يستحيل تحديد مدى الدور الذي لعبه خيال الرواة . تلك هي حالة القصة التالية التي نجدها أيضاً في شكل أقرب للخرافة ، ضمن أسفار السندباد البحري المذكور في ألف ليلة وليلة (طبعة القاهرة ١٣٢٨ هـ . الجزء ٣ ، ص ١٢ ، الليلة ٥٤٤) .

« وحدثني أحمد بن علي بن منير الناخذا السيرافي ، وكان أيضاً من بقية النواخذة الذين سافروا البُحار ، ومضى لهم الاسم والصيت في البحر ، أن بعض شيوخ الهند حدثه بسر نديب أن مركباً كسر له ، فسلم نفر من أهله في القارب ، ووقعوا إلى جزيرة بقرب الهند ، فبقوا بها مدة إلى أن مات أكثرهم ، وبقي منهم سبعة ، وكانوا في مدة بقائهم قد رأوا طيراً عظيماً يقع في الجزيرة ويرعى ، فإذا كان وقت العصر طار فلا يدرون إلى أين يمضي . فأجمع رأيهم على أن يتعلق واحد منهم برجليه ليحمله ، لما ضاقت صدورهم وعلموا أنه لا بد من الموت ، وتعلقت نفوسهم بأمر الطائر . وإن كان يطرحهم بقرب بلد فهو الذي يتمنونه وإن قتلهم فهو الذي يتوقعونه . فطرح واحد منهم بنفسه بين الشجر وجاء الطائر على الرسم[١٦] فرعى ، فلما جاء وقت انصرافه تلطف الرجل في الدنو منه ، وتعلق آخذاً برجليه ، وشد نفسه مع ساقيه بقشور الشجر ، فطار به في الهواء وهو متعلق بفخذيه ، وقد جعل رجليه مشتبكة برجليه ، فعبر بحراً وطرحه وقت غروب الشمس على جبل ، فحلَّ نفسه وسقط كالميت مما تعب وكلّ ومر به وما عاين من الأهوال ، فمكث لا يتحرك إلى أن طلعت الشمس من غد ، فقام ينظر فإذا راعي غنم فسأله بالهندية عن الموضع فذكر قرية من قرى الهند وسقاه لبناً فتحامل حتى دخل القرية ولم يزل الطير ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم في تلك القرية ، وتسببوا إلى النفوذ إلى بعض بلاد الهند التي يوجد فيها المراكب ، وركبوا في مركب . وأنهم حدثوا بأمر كسر مركبهم والجزيرة التي وقعوا إليها ومقدار مسافة ما حملهم الطائر إلى تلك القرية فوجدوه زيادة على مئتي فرسخ » .

---

(١٦) على الرسم : على العادة .

البَلخي (المتوفى بعد ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م)

الإصطخري (المتوفى بعد ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م)

ابن حَوقَل (المتوفى بعد ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م)

بالنظر إلى الحالة التي وصلت فيها إلينا تصانيف البلخي ، والإصطخري ، وابن حوقل . يبدو من المستحيل علينا أن ندرس كلاً من هؤلاء الجغرافيين الثلاثة على حدة :

البَلْخِيّ

أبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، ولد حوالي عام ٢٣٥ هـ / ٨٥٠ م في إحدى قرى بلخ ، في خراسان ، ومات في هذه المنطقة عام ٣٢٢ هـ / ٩٣٥ م . بدأ نشاطه معلماً ثم دفعه اهتمامه بدراسة العلوم الشرعية إلى القيام برحلة إلى بغداد مركز الحضارة الإسلامية حينذاك ، فأقام بها ثماني سنوات أدى في إحداها فريضة الحج . ولكن يبدو أن ميوله أخذت اتجاهاً جديداً بالنسبة لما كان عليه الحال في شبابه بعد وقوعه تحت تأثير الفيلسوف المعروف الكندي (المتوفى بعد عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) فأصبح من ألزم تلامذته له . وعند عودته إلى بلخ التي لم يغادرها حتى وفاته انصرف لدراسة مسائل الفلك والفلسفة أسوة بأستاذه الكندي بعد أن ألف في التنجيم والأدب والفقه . وقد حدث أن قامت بينه وبين الجيهاني الجغرافي وزير السامانيين علاقة وطيدة حتى دعاه الجيهاني للقدوم إلى بخارى ليستعين به ولكنه امتنع . وعمل البلخي فترة من الزمن كاتباً لأمير بلخ أحمد بن سهل وذلك حوالي عام ٣٠٧ هـ / ٩٢٠ م ، وكان البلخي بوجه عام يعتبر نفسه عالماً وأديباً من المشتغلين بالتأليف ، وينسب إليه ما يقارب ستين مصنفاً ، لا نعرف منها أكثر من أسمائها .

وفي شيخوخته وذلك حوالي العام ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م وضع كتابه في الجغرافية الذي تختلف أسماؤه باختلاف المصادر فهو مرة : (صور الأقاليم) وحيناً : (أشكال البلاد) ، وتارة أخرى : (تقويم البلدان) . وربما كان أشبه بأطلس مصحوب ببعض التوضيحات . ونجد منه فقرات عند الإصطخري .

وكتابه يعتبر نتاج عالم مقيم استقى معلوماته من كتب سابقة أو من رواة . أي كان كتابه ، بالأحرى ، عبارة عن شرح كارتوغرافي أكثر منه وصفاً حقيقياً للعالم الإسلامي . وقال عنه جرجي زيدان صاحب الهلال (كتاب البلخي أول كتاب وضع في الجغرافية في الإسلام) .

ويقول عنه مظهر بن طاهر القدسي ما يلي : « وأما أبو زيد البلخي فإنه قصد بكتابه الأمثلة وصورة الأرض بعدما قسمها على عشرين جزءاً ، ثم شرح كل مثال واختصر ، ولم يذكر الأسباب المفيدة ، ولا أوضح الأمور النافعة في التفصيل والترتيب ، وترك كثيراً من أمهات المدن ، فلم يذكرها ، وما دوّخ البلدان ولا وطئ الأعمال ، ألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته ليستعين به ، فلما بلغ جيحون كتب إليه : « إن كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأيي فإن رأيي يمنعني من عبور هذا النهر ، فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلى بلخ » .

ويبين البلخي في مقدمة كتابه منهجه ومقصده من تأليفه فقال :

« أما بعد ، فإني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك ، وقصدت منها بلاد الإسلام ، بتفصيل مدنها وتقسيم ما يفرد بالأعمال المجموعة إليها . ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض ، بل جعلت كل قطعة أفردتها ، مفردة بصورة تحكي موضع ذلك الإقليم . ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن ، وما في أضعافه من المدن والبقاع المشهورة ، والبحار والأنهار ، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم ، من غير أن استقصيت ذلك ، كراهة الإطالة التي تؤدي إلى ملال من قراءة ، ولأن الغرض من كتابي هذا تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمته » .

نستشف من خلال النص التالي الذي نسبه المستشرق الفرنسي هوار إلى البلخي ملامح اتجاه البلخي نحو الدقة والتقصّي بالنسبة للمناطق المتاخمة للإمبراطورية العربية الإسلامية ، مما يعتبر بالنسبة لعصره فتحاً علمياً يشرف صاحبه ، رغم اعتماده على النقل والسماع أكثر من المشاهدة :

« وأما الهند فصرودٌ[1] وجرومٌ ، وأولها قشمير ، وهي خمسة وأربعون مِصْراً مُمَصَّرة ، كلّ مصر تشتمل على حدود ومدن ، وكل مدينة لها سواد[2] وقرى ،

---

(١) أراضي حارة .

(٢) ريف .

ومنهـا جبـال وشِعـاب ومفـاوز ، وكل ذلـك للملـك خـاصـة ، والنـــاس حَرّاثـوه واكُرَته ، قالوا : وفي الملك للخمّارين ستون ألف جارية حانيّـة وموظّف ، عليهم أن يكنسوا الميدان ويرشّوه إذا أراد الملك الضرب بـالصوالجـة . ودينهم البرهميّـة ، وزيّهم تطويـل الشعر ، الغـالبُ عليهم البيـاض لبرد هـوائهم ، وفيهم علم النجـوم والطب والشعبـذة والسِّحْر . قـالـوا وشرق قشمير خُتَن وتبت والصين ، وجنـوبها مملكـة كور ، وشمالها بلور لـوب ووَخـان ، وغربهـا كابـل وغـزنـة ، ولهم الأنهـار والعيـون والقِنيُّ والآبــار . وعنـــدهم من أصنـــاف الـــدوابّ والطير والألـوان من الأطعمة والثمار .

وأمـا جروم الهنـد فجزائر وسواحل حتى تتصـل بـأرض الصين . فمن مـدنهـا الكبـار قنوج وقنـدهـار ، وسرنـديب وسنـدان ، ألف وثلاثمئـة وسبعـون جـزيرة عامرة فيها المدن والقرى غير السواحل ، قالوا وأوّل شرقيّ بحر الهنـد مكران وآخره بلاد الصين ، وأول غربيّـه عـدن وآخره بلاد الزنج ، وهم قوم خلاف الزنج والهنـد يُمْطَرون في الصيف ولا يمطرون في الشتـاء ، وعـامـة طعــامهم الأرزّ والــذرة ، ومشاربهم من مستنقعات يجتمع فيهـا مـاء المطر يسمّونها تلاج . وليس عنـدهم من الفـواكـه مــا لأهـل قشمير ، والغــالب عليهم السمرة والصُّفرة ، ودينهم البرهميّــة والسمنيّة ، وملكهم الأعظم يقال لـه بلهرا ، تفسيره ملـك الملوك . وإن في الجزائر ملـوكاً لا يطيـع بعضهم بعضـاً ، ومشـارق الهنـد الصين وقشمير ، وشمالهم السنـد ، وجنوبهم بلاد مُحرِقة مجهولة وبحار ، ومغاربهم الزنج والرانج واليمن .

وأمـا تبت فهم صنف بين الترك والهنـد ، زيّهم زيّ أهـل الصين ، لهم فطس الترك وسمرة الهنـد ، وفيهم الكتـابـة والحسـاب والنجوم ، وأرضهم أرض بـاردة ، مشرقهــا الصين ، وشمالهــا الترك[٣] ، ومغربهــا وخــان وراشت ، وهي أعــالي

---

(٣) أي تركستان الصينية (سيكيانغ) .

خراسان ، وجنوبها قشمير ، وأعظم مدنها خُتَن ، فيها من ألوان الثمار والفواكه . وعامة لباسهم وفرشهم القزّ ، وهم عبدة الأصنام . وبختن جماعة من ولد الحسين بن علي عليهما السلام ، ولهم بها مساجد .

وفي كتاب البلدان والبنيان من دخل تُبت لم يزل مسروراً ضاحكاً حتى يخرج . وأما يأجوج ومأجوج[٤] فصنفٌ بين الصين والترك ، الغالبُ عليهم خَفَش العيون وفطس الأنوف وقصر القامة ، جنوبهم الصين ، وشمالهم الترك ، ومغاربهم مشارق قشمير وتبت ، فلا يُدرى ما في مشارقهم ، وهم أسوأ الناس عيشاً ، وأخبثهم طعماً ، وأخرقهم خُرقةً ، وأقلهم تمييزاً وفطنة كما يزعمون ... وأما الترك فهم عدد كثير ، وبلادهم واسعة ، وممالكهم متفرقة ، وقبائلهم لا تحصى ، منهم أهل وبَر وأهل مَدر[٥] ، جنوبهم تبت وبعض الصين ، ومشرقهم الصين ويأجوج ومأجوج ، ومغربهم ما وراء النهر من مُنبعث جيحون إلى مَغيضه[٦] ، وشمالهم التغزغز ، وهم صنف منهم ، وأصناف من الناس من أخلاق البهائم والسباع المتوحشة زَغِرة ، ثم يلي شمال هؤلاء فيافٍ ومجاهيل وأراضٍ باردة ، لا يعلم ما فيها إلا الله عز وجل .

وحدّ بلاد الترك ينتهي إلى أحد جوانب بحر الروم ، وينتهي إلى بحر جرجان . وسمعت أبا عبد الرحمن الأندلسي بمكة ، حرسها الله ، يحدّث أنها ركضت راكضة من الترك على بعض حدود الأندلس ، وسَبَوْا منه ، واستاقوا السوائم ، وأنه تبعهم الطلب ، فظفروا بواحد منهم ، فقالوا : فذاك أول ما رأينا من الترك ، وكنا نكلّمه ويكلّمنا ، فلا يفهم ولا نفهم ، والغالب على الترك البياض والفطس ، وفيهم الثنويّة والنصارى وعبدة الأوثان والشمس وأكثر بلادهم باردة .

---

(٤) ربما المقصود بهم المنغول .

(٥) أي بدو وحضر .

(٦) مصبّه .

قالوا : في التغزغز ملك له خيمة من ذهب مركبة كالوطيس ، يُرى تلك من فوق قصره على خمسة فراسخ ، يعبدها قوم منهم ، وبلادهم سهلية ، قلّ ما يقع الثلج ، ويشتد الحر في الصيف حتى يسكن أهلها في أسراب ، وربما جاءت الحية هاربة من الحر فتساكنهم ، ولهم أنواع الفواكه وألوان الثمار .

قالوا : وخيزخيز أيضاً لهم المزارع والأشجار ، وملك خيزخيز(٧) خاقان .

قالوا : ومن الطراز إلى التغزغز مسيرة شهر ، ومن التغزغز إلى خيزخيز مسيرة شهر ، وسائر الترك قبائل وأحياء كلهم يرون الطاعة لملك الصين بالاسم .

قالوا : ويجاور الترك الخزر روس وصقلاب وولج وآلان والروم وأصناف كثيرة من أشباههم ، والطريق إليهم في البر من خوارزم إلى بلغار ومن باب الأبواب ، وفي البحر من عَابسكين ...



(٧) ربما القيزغيز .

الإصْطَخْرِيّ

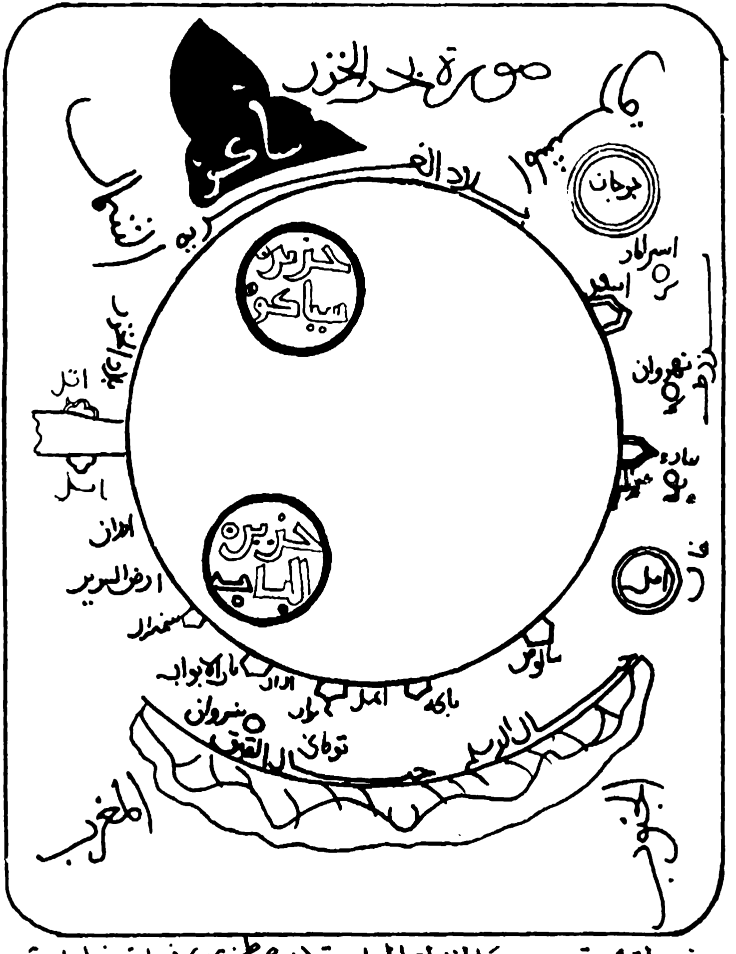
أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري . يعود أصله إلى إصطخر ، وهي مدينة برسيبوليس Persepolis القديمة في فارس . وقد اشتهر في أوروبا تحت هذا الاسم . وإذا كنا لا نعرف الكثير عن سيرة حياته فمن المؤكد أنه سلخ شطراً كبيراً منها في ارتياد العالم الإسلامي ، وأنه توفي بعد عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م . فقد زار أكثر أقطار آسيا حتى بلغ سواحل المحيط الهندي ، بعد أن دخل الهند عام ٣٤٠ هـ . واعتمد على تصنيف مؤلفيه (كتاب الأقاليم) و (المسالك والممالك) . وهو العنوان الذي استعمله قبله ابن خرداذبة ، على رحلاته لطلب العلم والمعرفة في الآفاق الإسلامية ، فوصفها بإطناب . كما اعتمد على كتاب البلخي كأساس ، فماثله في المخطط ولكن وسعه كثيراً وصحح الكثير مما جاء فيه كما زين كتابه الأول بالخُرُط .

وإذا كان قد اقتصر الإصطخري على وصف العالم الإسلامي فقد قسمه إلى عشرين إقليماً ، لا بالمعنى المعروف عن الأقاليم كنطاقات عريضة تضم عدداً من درجات العرض ، بل كمناطق جغرافية واسعة أو ولايات . وبعد أن يتكلم عن (الربع المعمور) وأبعاده وعن البحار ، يبدأ بوصف جزيرة العرب والخليج العربي (مع المحيط الهندي) والسند والهند وأنهار سجستان ، والمغرب مع الأندلس وصقلية ، ومصر وبلاد الشام وبحر الروم والجزيرة وإيران الجنوبية والوسطى والشمالية مع أرمينيا ، وأذربيجان وبحر الخزر ومدن برطس في تخوم البحر المذكور وأعمالها وكورها وجبالها وأنهارها وعمائرها ، ويختم بحثه بوصف بلاد ما وراء النهر أي التركستان .

ويورد الإصطخري عن كل قطر ، معلومات تتعلق بالحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ويذكر تفاصيل متفرقة عن المحاصيل والتجارة والصناعة وعن أجناس السكان ولكن معظم التفاصيل تتعلق بالأقطار التي زارها .

وقد أتيح للمقدسي أن يرى بعض كتبه ، وأكثر النقل عنه في أخبار السند ، وقال يثني عليه : « ورأيت ببخارى مترجماً لإبراهيم بن محمد الفارسي ، وهذا أصح لأني لقيت جماعة ممن لقيه وشاهد يصفه ، منهم الحاكم أبو حامد الهمذاني والحاكم أبو نصر الحربي ، وهو كتاب قد أجاد أشكاله ، إلا أنه قد خلط في مواضع كثيرة ولم يبالغ في الشرح ولا كور الأقاليم » .

وقد تم نشر كتاب (مسالك الممالك) بجهود المستشرق دي خويه في عام ١٩٢٧ م .



خريطة بحر قزوين والمناطق المجاورة (للاصطخري) في القرن العاشر

النص الأول

لايفتقر كتاب الإصطخري « مسالك الممالك » لدقة الوصف مع الوضوح ، كما سيحدثنا عن بحر الخزر والأقطار التي تطيف به دون أن يهمل الناحية الفلكلورية أو الاقتصادية أو الأثنوغرافية .

« وأما بحر الخزر فإن شرقيه بعض الديلم وطبرستان وجرجان وبعض المفازة التي بين جرجان وخوارزم ، وغربيه أرّان وحدود السرير وبلاد الخزر وبعض مفازة الغُزِّيّة ، وشماليه مفازة الغزّية بناحية سياكوه ، وجنوبيه الجيل والديلم .

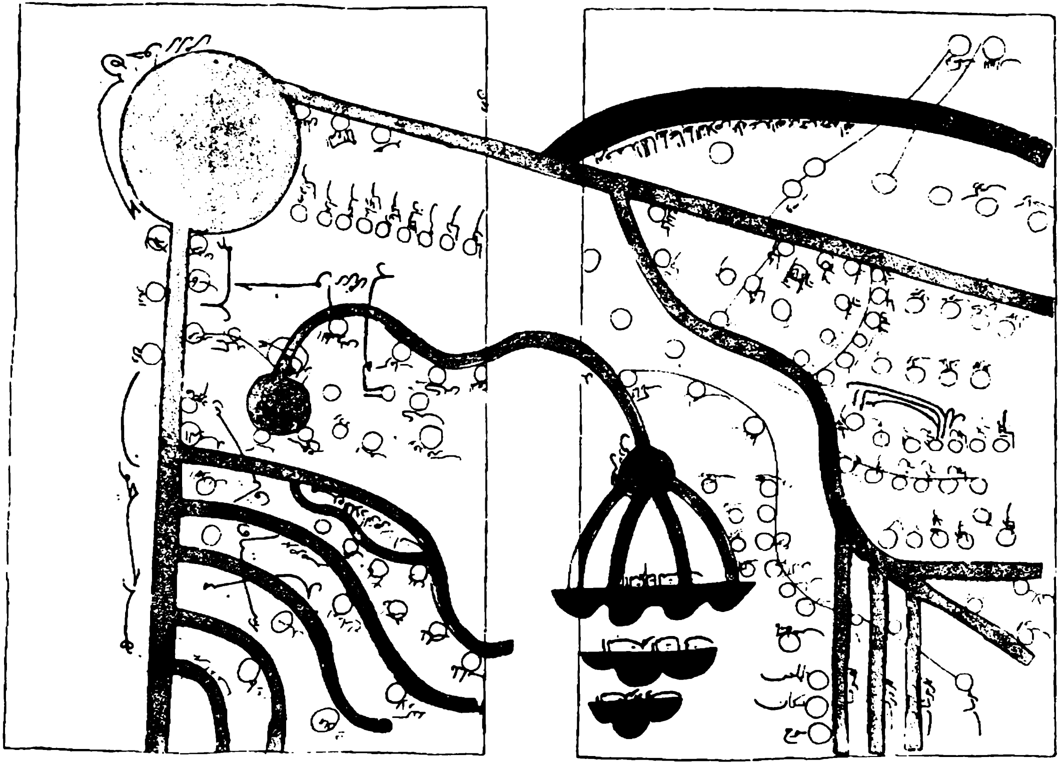
وهذا البحر ليس له اتصال بشيء من البحار على وجه الأرض ، فلو أن رجلاً طاف بهذا البحر لرجع إلى مكانه الذي ابتدأ منه لا يمنعه مانع إلا نهر عذب يقع فيه ، وهو بحر مالح ولا مدّ له ولا جزر وهو بحر مظلم ، قعره طين بخلاف بحر القلزم وسائر بحر فارس ، فإن في بعض المواضع من بحر فارس ربما يرى عمقه لصفاء ما تحته من الحجارة البيض ، ولا يرتفع من هذا البحر شيء من الجواهر من لؤلؤ أو مرجان أو غيره ، مما يرتفع من البحار ، ولا ينتفع بشيء مما يخرج منه سوى السموك ، .ويركب فيه التجار من أراضي المسلمين إلى أرض الخزر ، وما بين الران والجيل وطبرستان وجرجان ، وليس في هذا البحر جزيرة مسكونة فيها عمارة كما ذكرنا في بحري فارس والروم ، إلا أن فيها جزائر ، فيها غياض ومياه وأشجار ، وليس بها أنيس ، ومنها جزيرة سياكوه ، وهي جزيرة كبيرة ، بها عيون وأشجار وغياض وبها دوابّ وحش ، ومنها جزيرة بحذاء الكُرّ ، وهي كبيرة ، بها غياض وأشجار ومياه ويرتفع منها الفوّة ، ويُخْرَجُ إليها من نواحي بِرْذعة ، فيحملون منها الفوة ويحملون في السفن إليها دواب من نواحي برذعة وسائر المواضع فتسرح فيها حتى تسمن .

وليس من آبسْكُون إلى الخزر عن اليمين على شط البحر قرية ولا مدينة سوى

موضع من آبسكون على نحو خمسين فرسخاً يسمى دِهِسْتان ، وهي دخلة في البحر تستتر فيها السفن في هيجان البحر . ويقصد هذا الموضع خلق كثير من النواحي ويقيمون بها للصيد وبها مياه ، ولا أعلم غير هذا المكان مكاناً يقيم به أحد إلا أن يكون سياكوه فإنه تقيم به طائفة من الأتراك ، وهم قريبو العهد بالمقام به لاختلاف وقع بين الغزِّية وبينهم ، فانقطعوا عنهم واتخذوه مأوى ومرعى لهم ، ولهم عيون ومراع ، وهذا ما عن يمين هذا البحر من آبسكون ، ومن آبسكون عن يسارها إلى الخزر في عمارة متصلة إلا شيئاً بين باب الأبواب والخزر ، وذلك أنك إذا أخذت من آبسكون مضيت على حدود جرجان وطبرستان والديلم والجيل ، ثم تدخل في حدود الران ، وإذا جزت موقان إلى باب الأبواب على يومين فهو بلد شروان شاه ، ثم تتجاوز إلى سَمَنْدَرَ أربعة أيام ، ومن سمندر إلى أثل سبعة أيام مفاوز . ولهذا البحر بناحية سياكوه زنقة يخاف على السفن الداخلة بها الريح أن تنكسر ، وإذا انكسرت السفن هناك لم يتهيأ جمع شيء منها من الأتراك فإنهم يستولون على ذلك .

وأما الخزر فإنه اسم الإقليم وقصبته تسمى أثل ، وأثل اسم النهر الذي يجري إليه من الروس وبُلْغار ، وأثل قطعتان قطعة على غربي هذا النهر المسمى أثل ، وهي أكبرهما ، وقطعة على شرقيه ، والملك يسكن في الغربي منهما . ويسمى الملك بلسانهم بك ويسمى أيضاً باك . وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ ، ويحيط بها سور إلا أنه مفترش البناء ، وأبنيتهم خركاهات لبود إلا شيئاً يسيراً بني من طين . ولهم أسواق وحمّامات ، وفيها خلق من المسلمين يقال : إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم ، ولهم نحو ثلاثين مسجداً . وقصر الملك بعيد من شط النهر ، وقصره من آجرّ وليس لأحد بناء من آجر غيره ، ولا يسوغ الملك لأحد أن يبني بالآجر . ولهذا السور أبواب أربعة ؛ منها إلى ما يلي النهر ، ومنها إلى ما يلي الصحراء على ظهر المدينة . وملكهم يهودي يقال : إن له من الحاشية

شكل ١٨١ صورة ما وراء النهر التي توجد في نسخة كتاب الاصطخري المخطوطة في خزانة قابوس



نحو أربعة آلاف رجل ، والخزر مسلمون ونصارى ويهود ، وفيهم عبدة أوثان ، وأقل الفرق اليهود ، وأكثرهم المسلمون والنصارى . إلا أن الملك وخاصته يهود ، والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان ، يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم وأحكام خصّوا بها على رسوم قديمة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى . وللملك من الجيش اثنا عشر ألف رجل ، وإذا مات منهم رجل أقيم آخر مكانه . وليست لهم جراية دارّة إلى شيء نزر يسير يصل إليهم في المدة الطويلة إذا كان لهم حرب أو حَزَبهم أمر يجتمعون له ، وأبواب مال هذا الملك من الأرصاد وعشور التجارب على رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر ، ولهم وظائف على أهل المحالّ والنواحي من كل صنف مما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك . وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان إذا عرض للناس حكومة قضى منها هؤلاء ، ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه ، وإنما يصل إلى هؤلاء الحكام ، وبين هؤلاء الحكام يوم القضاء وبين الملك سفير يراسلونه فيما يجري من الأمر وينتهون إليه ، فيرد عليهم أمره ويمضونه ، وليس لهذه المدينة قرى إلا أن مزارعهم مفترشة ، يخرجون ، في الصيف ، في الزروع نحو عشرين فرسخاً ليزرعوا ويجمعوا بعضه على النهر ، وبعضه على الصحارى ، فينقلون غلاتهم بالعجل وفي النهر . والغالب على قوتهم الأرز والسمك وهذا الذي يحمل منهم من العسل والشمع إنما يحمل إليهم من ناحية الروس وبلغار ، وكذلك هذه الجلود الخزّ التي تحمل إلى الآفاق لا تكون إلا في تلك الأنهار التي بناحية بلغار والروس وكويابة ، ولا تكون في شيء من الأقاليم فيما علمته ، والنصف الشرقي من الخزر فيه معظم التجار والمسلمين والمتاجر ، والغربي خالصة للملك وجنده والخزر الخُلّص .

ولسان الخزر غير لسان الترك والفارسية ، ولا يشاركه لسان فريق من الأمم .

وإنما نهر أثل فإنه فيما بلغني يخرج من قرب خرخيز فيجري فيما بين الكَيْماكية والغِزِّية وهو الحد بين الكيماكية والغِزية ، ثم يذ مب غرباً على ظهر بلغار ويعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس ، ثم يمر على بلغار ثم على بُرْطاس حتى يقع في بحر الخزر ، ويقال : إنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً ، ويبقى عمود النهر يجري على الخزر حتى يقع في البحر . ويقال إن هذه المياه إذا كانت مجموعة في نهر واحد أعلاه يزيد على جيحون ، وبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنها تنتهي إلى البحر فتجري في البحر داخلاً مسيرة يومين ، وتغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء لعذوبته وحلاوته ، ويبين في البحر لونه من لون ماء البحر .

وللخزر مدينة تسمى سَمَنْدر فيما بينها وبين باب الأبواب لها بساتين كثيرة ، ويقال : إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف كرم إلى حد السرير ، والغالب على ثمارها الأعناب ، وفيها خلق من المسلمين ، ولهم بها مساجد ، وأبنيتهم من خشب قد نسجت ، وسطوحهم مسنّمة ، وملكهم من اليهود قرابة ملك الخزر ، وبينهم وبين حد السرير فرسخان ، وبينهم وبين صاحب السرير هدنة .

والسرير هم نصارى ، ويقال : إن هذا السرير هو لبعض ملوك الفرس من ذهب ، فلما زال ملكهم حمل إلى السرير وحمله بعض ملوك الفرس ، بلغني أنه من أولاد بَهْرام جُوبين . والملك إلى يومنا هذا فيهم ، ويقال : إن هذا السرير عُمِل لبعض الأكاسرة في سنين كثيرة ، وبين السرير وبين المسلمين هدنة . ولا أعلم في عمل الخزر مجمع ناس سوى سمندر .

وبرطاس هم أمة متاخمون للخزر ليس بينهم وبين الخزر أمة أخرى ، وهم قوم مفترشون على وادي أثل ، وبرطاس اسم الناحية ، وكذلك الروس والخزر ، والسرير اسم للملكة لا للمدينة ولا للناس .

والخزر لا يشبهون الأتراك وهم سود الشعر ، وهم صنفان صنف يسمون

قراخزر . وهم سمر يضربون لشدة السمرة إلى السواد ، كأنهم صنف من الهند ، وصنف بيض ظاهرو الحسن والجمال ، والذي يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم بعضاً . فأما اليهود منهم والنصارى فإنها تدين بتحريم استرقاق بعضهم بعضاً مثل المسلمين .

وبلد الخزر لا يرتفع شيء منه يحمل إلى الآفاق غير الغرى . وأما الزيبق والعسل والشمع والخزّ والأوبار فمجلوب إليها .

ولباس الخزر وما حواليها القراطف والأقبية وليس يكون عندهم شيء من الملبوس وإنما يحمل إليهم من نواحي جرجان وطبرستان وأرمينية وأذربيجان والروم .

وأما سياستهم وأمر المملكة بهم فإن عظيمهم يسمى خاقان خَزَر وهو أجلُّ من ملك الخزر إلا أن ملك الخزر هو الذي يقيمه ، وإذا أرادوا أن يقيموا هذا الخاقان جاؤوا به فيخنقونه بحريرة حتى إذا قارب أن ينقطع نَفَسه قالوا : كم تشتهي مدة الملك ؟ فيقول كذا وكذا سنة ، فإن مات دونها وإلا قُتِل إذا بلغ تلك السنة . ولا تصلح الخاقانية عندهم إلا في أهل بيت معروفين ، وليس له من الأمر والنهي شيء ، إلا أنه يعظَّم ويسجد له إذا دخل إليه ، ولا يصل إليه أحد إلا نفر يسير مثل الملك ومَنْ في طبقته ، ولا يدخل عليه الملك إلا لحادثة ، فإذا دخل عليه تمرّغ في التراب وسجد وقام من بُعْد حتى يأذن له بالتقرب ، وإذا حَزَبَهم حزب عظيم أخرج فيه خاقان ، فلا يراه أحد من الأتراك ومن يصاقبهم من أصناف الكفر إلا انصرف ولم يقاتله تعظيماً له ، وإذا مات ودفن لم يمر بقبره أحد إلا ترجّل وسجد ، ولا يركب ما لم يَغِبْ عن قبره ، ويبلغ من طاعتهم لملكهم أن أحدهم ربما يجب عليه القتل ، ويكون من كبرائهم ، فلا يحبّ الملك أن يقتله ظاهراً فيأمره أن يقتل نفسه ، فينصرف إلى منزله ويقتل نفسه ، والخاقانية في قوم معروفين ليس لهم مملكة ويسار ، فإذا انتهت الرياسة إلى أحدهم عقدوا له ،

ولم ينظروا إلى ما عليه من حال ، ولقد أخبرني من أثق به أنه رأى في بعض أسواقهم شاباً يبيع الخبز كانوا يقولون : إن خاقانهم إذا مات فليس أحد أحق منه بالخاقانية إلا أنه كان مسلماً ولا تعقد الخاقانية إلا لمن يدين باليهودية ، والسرير والقبة الذهب التي لهم لا تضرب إلا لخاقان ومضاربه إذا برزوا فوق مضارب الملك ومسكنه في البلد أرفع من منزل مسكن الملك .

وبُرْطاس اسم للناحية ، وهم أصحاب بيوت خشب وهم مفترشون ، وبَسْجِرْت هم صنفان : صنف من آخر الغُزِّية على ظهر بلغار ، ويقال : إن مبلغهم نحو ألفي رجل ، ممتنعون في مشاجر لا يقدر عليهم ، وهم في طاعة بلغار وبسجرت آخرهم متاخمون لبجناك ، وهم وبجناك أتراك وهم متاخمون للروم ، ولسان بلغار مثل لسان الخزر ، ولبرطاس لسان آخر ، وكذلك لسان الروس غير لسان الخزر وبرطاس .

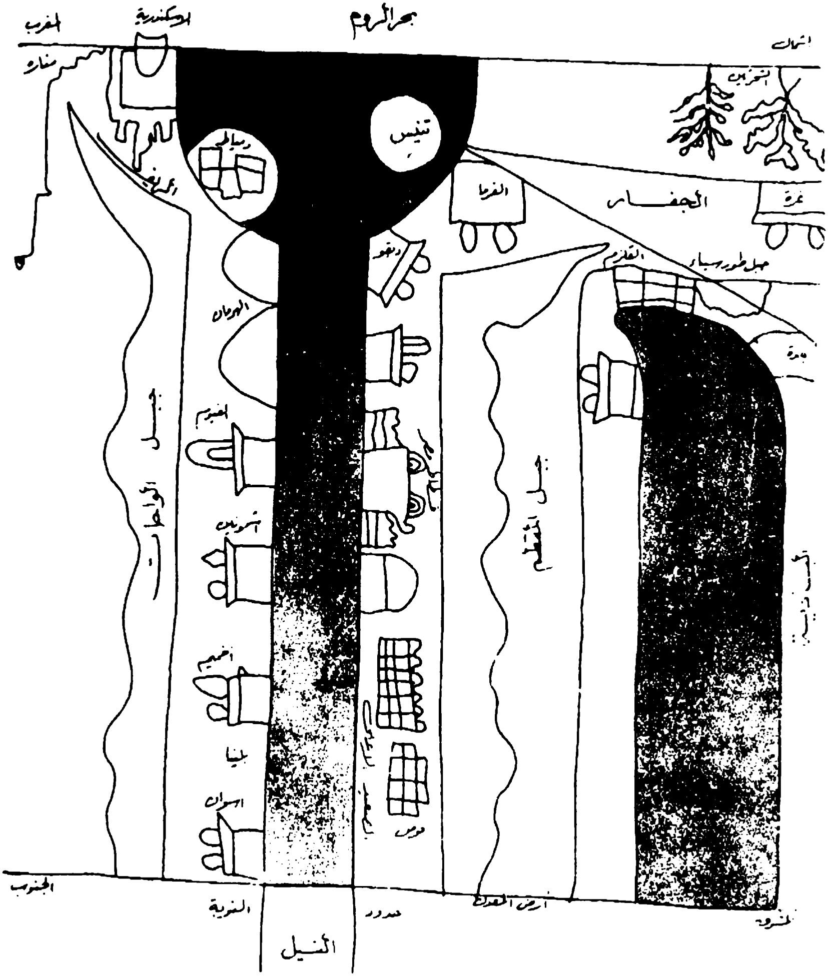
وبلغار اسم المدينة ، وهم مسلمون ، وفيها مسجد جامع ، وبقرب مدينة أخرى تسمى سُوار ، فيها أيضاً مسجد جامع ، وأخبرني من كان يخطب بها أن مقدار عدد الناس بهاتين المدينتين نحو عشرة آلاف رجل ، ولهم أبنية خشب يأوونها في الشتاء ، وفي الصيف يفترشون في الخركاهات ، وأخبرني الخاطب بها أن الليل عندهم لا يتهيأ أن يسير فيه الإنسان أكثر من فرسخ في الصيف ، وفي الشتاء يقصر النهار ويطول الليل حتى يكون نهار الشتاء مثل ليالي الصيف .

والروس هم ثلاثة أصناف : فصنف هم أقرب إلى بلغار ، وملكهم يقيم بمدينة تسمى كويابَة ، وهم أكبر من بلغار . وصنف أبعد منهم يسمونه الصلاويّة . وصنف يسمونه الأرثانية وملكهم مقيم بأرْثا . والناس يبلغون في التجارة إلى كويابة . فأما أرثا فإنه لا يذكر أن أحداً دخلها من الغرباء لأنهم يقتلون كل من وطئ أرضهم من الغرباء ، وإنما ينحدرون في الماء يتجرون فلا يخبرون بشيء من أمورهم ومتاجرهم ولا يتركون أحداً يصحبهم ولا يدخل بلادهم . ويحمل من أرثا

السمور الأسود والرصاص . والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ، وتحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبة من أنفسهن ، وبعضهم يحلق اللحى وبعضهم يفتله مثل الذوائب ، ولباسهم القراطف القصار ، ولباس الخزر وبلغار وبجناك القراطق التامة .

وهؤلاء الروس يتجرون إلى الخزر ويتجرون إلى الروم وبلغار الأعظم ، وهم متاخمون للروم في شماليها ، وهم عدد كثير يبلغ من قوتهم أنهم ضربوا خراجاً على ما يلي بلادهم من الروم ، وبلغار الداخل هم نصارى .

المسافات بين بلاد الخزر ونواحيها من آبسكون إلى بلاد الخزر عن اليمين نحو ثلاثمئة فرسخ ، ومن آبسكون عن يسار السائر إلى الخزر نحو ثلاثمئة فرسخ ، ومن آبسكون إلى دِهِستان مراحل ، ويقطع هذا البحر إذا طابت الريح عرضاً من طبرستان إلى باب الأبواب في أسبوع . وأما من آبسكون إلى بلاد الخزر فإنه زائد على العرض لأنه مزوًى ، ومن أثل إلى سمندر أيام ، ومن سمندر إلى باب الأبواب ستة أيام ، وبين مملكة السرير وباب الأبواب ثلاثة أيام ، ومن أثل إلى أول حد برطاس مسيرة عشرين يوماً ، ومن أول برطاس إلى آخره نحو خمسة عشر يوماً ، ومن برطاس إلى بجناك نحو عشر مراحل ، ومن أثل إلى بجناك مسيرة شهر ، ومن أثل إلى بلغار على طريق المفازة نحو شهر ، وفي الماء نحو شهرين في الصعود ، وفي الحدور نحو عشرين يوماً ، ومن بلغار إلى أول حد الروم نحو عشر مراحل ، ومن بلغار إلى كويابة نحو عشرين مرحلة ، ومن بجناك إلى بسجرت الداخل عشرة أيام ، ومن بسجرت الداخل إلى بلغار خمس وعشرون مرحلة .



صورة مصر عند الاصطخري

ابْنُ حَوْقَل

(القرن الرابع هـ / العاشر م)

أبو القاسم محمد بن علي الموصلي المشهور بابن حوقل . ولد ببغداد ونشأ بها على اتفاق المؤرخين ، وتعاطى التجارة في الموصل فترة من الزمن ، ويذكر كراتشكوفسكي أن أصله من نصيبين بالجزيرة . وكان مولعاً بقراءة كتب تقويم البلدان ، وكان كثيراً ما يطالع كتب الجيهاني وقدامه وابن خرداذبة ، فشوّقه ذلك إلى التغلغل في أقطار الأرض ، متخذاً التجارة مهنة له ، وراغباً في دراسة البلاد والشعوب ، أي إنه كان نموذجاً لكثير من أبناء عصره ، الذين كانوا تجاراً مغامرين وعلماء ، ممن كانوا يجوبون أنحاء العالم بحثاً عن الثراء ، في الوقت نفسه ، الذي يستجيبون فيه لميلهم في حب الاطلاع وتقصّي الحقائق .

فقد استهواه ، منذ حداثة سنه ، حب التعرف على المجهول مثلما فتن بأحاديث الرحالة والسُفّار . فقام من مدينة السلام بغداد يوم الخميس لسبع خلون من رمضان سنة ٣٣١ هـ / أيار ٩٤٣ م كي يمارس تجارته ويتحقق بنفسه من أقوال الجغرافيين الذين قرأ مصنفاتهم مراراً وتكراراً ، مما حفزه لمقابلة الإصطخري شخصياً عام ٣٤٠ هـ / ٩٥٢ م ، وقد أمضى في رحلاته الواسعة زهاء ثلاثين عاماً ساح خلالها في أرجاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً ، من نهر السند حتى ضفاف المحيط الأطلسي ، وتوغل في مناطق أخرى كثيرة ، عدا الصحراء الكبرى التي لم يشاهد منها إلا جزءاً يسيراً ، حتى أنه دخل بلاد البلغار ووصل إلى أواسط نهر الفولغا طلباً للارتزاق من التجارة ورغبة في دراسة البلاد وسكانها . فيذكر انتصار الروس على البلغار والخزر حوالي عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م حيث كان المؤلف نفسه آنذاك بإقليم جرجان .

غير أن اتصاله بالفاطميين دعا بعض المستشرقين ، مثل دوزي الهولندي ، إلى اتهامه بالتجسس لحسابهم في الأندلس ، لأن هؤلاء كانوا في البداية يتطلعون إلى الاستيلاء على تلك البلاد ، ولعلهم كانوا يمهدون لذلك بجمع المعلومات الضرورية عن تلك الأصقاع .

وقد انتظم تجواله أقطار المغرب العربي والأندلس وزار نابولي وبلرمو ، التي تجول فيها سنة ٣٦٣ هـ ، وعرف العراق عن كثب وإيران وشطراً من الهند ، ويعد ابن حوقل الخبير الأول من بين

جغرافيي عصره في شؤون المغرب ، ويرد عنده وصف مفصل لمنطقة البجة وتاريخهم ومنطقة أرتيريا ، ويصف الواحات التي يسمى كلاً منها (جزيرة) . وكثيراً ما نستشف عنده الحس التجاري ، فقد التقى مثلاً في سلجماسة بجنوب المغرب بتجار عراقيين من أهل البصرة والكوفة هناك ، مما يوحي لنا بوجود تلك (السوق المشتركة) بين كل أرجاء العالم العربي الإسلامي ، ومما يمكننا من الحكم على مدى اتساع معاملاتهم التجارية هو أنه شاهد صكاً بدين على أحد سكان واحة أودغشت قيمته اثنان وأربعون ألف دينار .

كما جاب ربوع مصر والشام والعراق وفارس ، وزار البحرين والأحساء ، ووصف النظام الاجتماعي للدولة القرمطية التي كانت قائمة هناك إذ ذاك ، وغمط الحكم فيها ، وكانت تلك الدولة تعتمد النظام الشيوعي إلى حد بعيد في الاقتصاد وفي الحكم أيضاً .

والدراسة المباشرة لكتابة الموسوم بـ (صورة الأرض) ، والذي ضمّنه طريفة عن ذكر المسافات وصفات البحار والأنهار ، وخواص البلاد ، وذكر جباياتها وخراجاتها ، ومستغلاتها وتجاراتها ، تؤكد صحة ما ذكره ابن حوقل في قصته عن مقابلته للإصطخري ، والذي طلب من مؤلفنا ، كما يظهر ، أن يعيد النظر في كتابه الذي ألفه وأن يتممه . وقد قبل ابن حوقل الاضطلاع بهذه المهمة ، ولكنه قرر بالنهاية أن يقوم بنفسه بعمل كتاب (مسالك وممالك) جديد يصهر فيه كتاب سلفه ، ويضيف إليه كل معلوماته الشخصية . ويعتقد أن هذا الكتاب قد أنجز في عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م .

ونستخلص من مقارنة كتاب ابن حوقل بكتاب الإصطخري أن الأول يدين للثاني بأكثر مما يعترف به ، فقد أخذ عنه مخططه فضلاً عن فصول برمتها كالتي تتعلق بجزيرة العرب ، والخليج العربي ، وخوزستان ، وفارس[1] وكرمان ، وحوض نهر السند ، والديلم ، وبحر الخزر ، وهي فصول اكتفى ابن حوقل بأن أضاف إليها زيادات هامة ولكنها مقتضبة جداً ، كما استعار منه معظم الأبحاث المتعلقة بمصر وبلاد الشام والعراق وبلاد ما بين النهرين .

ويظهر أن يد التغيير والتبديل قد مست بصورة كبيرة الأقسام المفردة لأقطار المغرب وإسبانيا وصقلية ، وبعبارة أخرى لا تظهر أصالة ابن حوقل إلا من خلال الفصول التي كتبها عن الجناح الغربي من العالم الإسلامي .

وقد ترجم كتاب (صورة الأرض) إلى الفرنسية المستشرقان كرامر وفييت ، وصدر في باريس عام ١٩٦٤ .

---

(١) فارس Fars أو فارسيستان ، منطقة من إيران ، تقع جنوب غرب البلاد مركزها شيراز .

النص الأول

يذكر ابن حوقل في هذا النص الدوافع التي حثت على تأليفه كتابه ، وطريقته في الحصول على المعلومات الجغرافية وتقصيها ، واعتماده على أمهات الكتب في ذلك ، ومقابلته للإصطخري .

« وكان مما حضَّني على تأليفه ، وحثني على تصنيفه ، وجذبني إلى رسمه أني لم أزل في حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك في السير والحقائق ، وتباينهم في المذاهب والطرائق ، وكمية وقوع ذلك ، في الهمم والرسوم والمعارف والعلوم ، والخصوص والعموم ، وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة ، والتواليف الشريفة الموصوفة ، فلم أقرأ في المسالك كتاباً مقنعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب ، واستنطاقي فيه وجوهاً من القول والخطاب ، وأعانني عليه تواصل السفر ، وإزعاجي عن وطني مع ما سبق به القدر ، لاستيفاء الرزق والشهوة لبلوغ الوطر ، بجور السلطان وكلب الزمان ، وتواصل الشدائد على أهل المشرق والعدوان ، واستئناس سلاطينه بالجور بعد العدل والطغيان ، وكثرة الحوائج والنوائب ، وتعاقب الكلف والمصائب ، واختلال النعم وقحط الديم » .

ثم يستأنف ابن حوقل كلامه فيقول :

« وكان أكثر ما حداني على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة ، أني كنت في حالة الحداثة شغفاً بأخبار البلدان ، والوقوف على حال الأمصار ، كثير الاستعلام لسافرة النواحي ووكلاء التجار ، وقَرَأة الكتب المؤلفة فيها ، وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقاً ، وإخاله بما أسأله عنه خبيراً ، فأجده عالماً عند إعادة الخبر الذي أعتقد فيه صدقه ، وقد حفظت نسقه ، وتأملت طرقه

ووصفه وأكثر ذلك باطلاً ، وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلاً ، ثم أعاوده الخبر الذي ألتمسه منه ، والذكر ليسمع الذي استوصفته ، وأطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد رؤية ، وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية ، فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات ، وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسه في نفسي بالقوة على الأسفار ، وركوب الأخطار ، ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار ، وتجاور الأقاليم والأصقاع . وكان لا يفارقني كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهاني وتذكرة ابن الفرج قدامة بن جعفر ، وإذا الكتابان الأولان قد لزمني أن أستغفر الله من حملهما ، واشتغالي بهما عن ما يلزمني من توخي العلوم النافعة والسنن الواجبة ، ولقيت أبا إسحاق الفارسي أي (الإصطخري) وقد صور هذه الصورة لأرض الهند ، فخلطها وصور فارس فجوّدها ، وكنت قد صورت أذربيجان التي في هذه الصفة فاستحسنها ، والجزيرة فاستجادها ، وأخرج التي لمصر فاسدة ، وللمغرب أكثرها خطأ . وقال : قد نظرت في مولدك وأثرك ، وأنا أسألك إصلاح كتابي هذا حيث ضللت ، فأصلحت منه غير شكل ، وعزوته إليه ، ثم رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره أجمعه وإيضاحه ، من غير أن ألمَّ بتذكرة أبي الفرج وإن كانت حقاً بأجمعها ، وصدقاً في أكثر جهاتها ، وقد كان يجب أن أذكر منها طرفاً في هذا الكتاب ، لكن استقبحت الاستكثار بما تعب فيه سواي ونصب فيه غيري » .

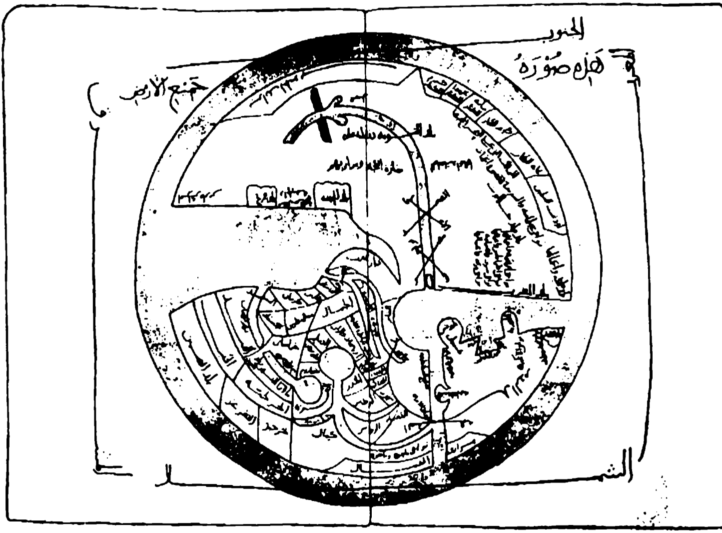
« وأعربت عن كل مكان كل إقليم مما ذكرته واتصال بعضه ببعض ومقدار كل ناحية في سعتها وصورتها من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة والعمل وموقع كل مدينة من مدينة تجاورها وموضعها من شمالها وجنوبها وكونها بالمرتبة من شرقها وغربها ليكتفي الناظر ببيان موقع كل إقليم وموضعه ومكانه ، وما توخيته من ترتيبه وأشكاله ، وقَصَصْتُهُ من أحواله وأخباره ، وقد يقع فيا كان يعتقده شك في طول الأرض

وكبرها وحالها في تقارب عرضها وطولها وصغرها ، ولا يقارب هذا التأليف عنده كتاب الجَيْهاني ، ولا يوافق رسم ابن خرداذبة ، وسبيل قارئه ـ أرشده الله ـ أن ينعم النظر فيا شك منه ، ويتأمله تأمل من حمل عنه بتحري الصدق ، فيه كثير من غثاثة الناقلين وكذب المسافرين الذين لا يعلمون ولا قصدهم الحق فيما يبغون ، وليعلم أن الأسباب المحرضة على تأليفه المقتضية لعمله اللذة بالإصابة في المقصد ، والمحبة للظفر بإبانة كل بلد ، والذكر الجميل من أهل التحصيل من كل مشهد » .

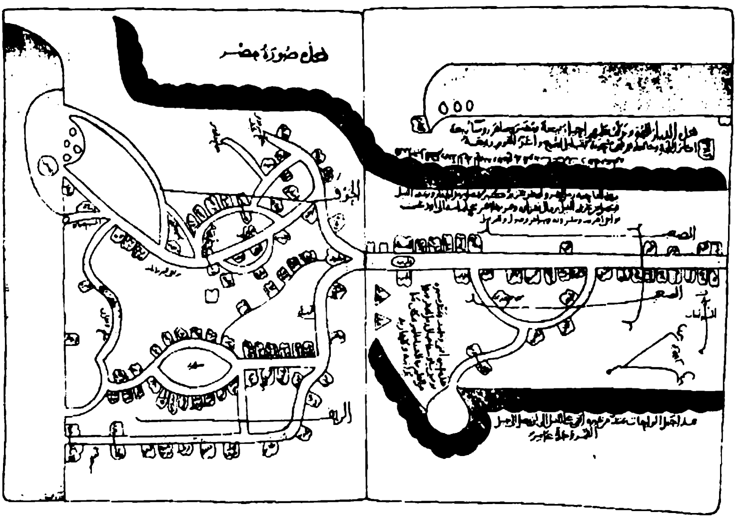
« وقد فصلت بلاد الإسلام إقليماً إقليماً وصقعاً صقعاً وكورة كورة لكل عمل ، وبدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليماً واحداً ، لأن الكعبة فيها ، ومكة أم القرى ، وهي واسطة هذه الأقاليم عندي ، واتبعت ديار العرب بعد أن رسمت فيها جمع ما تشتمل عليه من الجبال والرمال والطرق وما يجاورها من الأنهار المنصبة إلى بحر فارس بفارس ، لأنه يحتف بأكثر ديارها ، وشكلت عطفه عليها ، ولأن بحر فارس يعطف من جزيرة مسقط مُغَرِّباً إلى مكة وإلى القلزم عن خمسين فرسخاً من عمان ، ويدعى ذلك الموضع رأس الجمجمة .

ثم ذكرت المغرب ورسمته في وجهين وبدأت بشكل ما حاز منه أرض مصر إلى المهدية والقيروان ، وما في براريها من المدن وإن قلّت ، وأعقبتها بباقي صورته من القيروان والمهدية إلى أرض طنجة وأزيلي . ورسمت على بحره مدنه الساحلية ، وشكلت طرقه إلى جميع أنحائها وكيفيتها مغربه ومشرقه في سائر جهاتها .

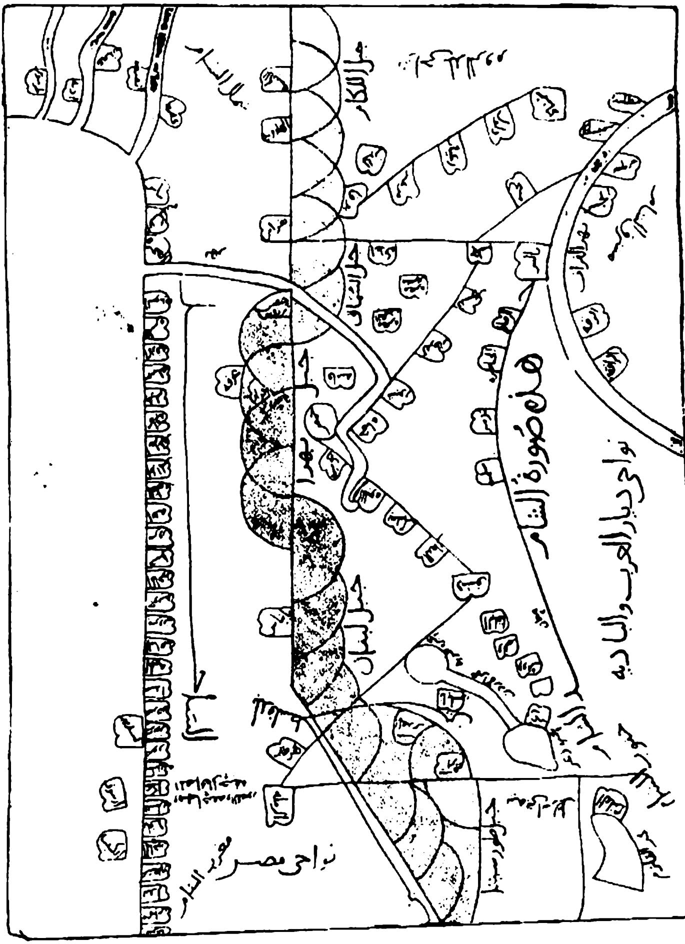
ثم ذكرت مصر في شكلين حسب ما جرى رسم المغرب به وبطول العمل المرتب فيهما عن حال مدنها ومواقعها على المياه الجارية في أرضها وما كان برسمها في البعد عن المياه ، وخططت جبالها ومياهها بخلجانها وشعبها ، واتصال بعضها ببعض وانفصالها إلى البحر على حيالها ، وما يصب من ماء الغيوم إلى بحيرة أقنى وتنهمت .



مصور الأرض لابن حوقل المتوفى عام ٣٨٠هـ/٩٩٠م



ثم صورت الشام وأجناده وجباله ومياهه من أنهاره وبحره وما على ساحله من المدن وبحيرة طبرية وبحيرة زغر وتيه بني إسرائيل وموقعه من ظاهر الشام ،



مصور الشام (سورية) لابن حوقل

ثم بحر الروم وكيفيته في ذاته وشكله في نفسه وما عليه من الجانب الشرقي للروم من المدن والأعمال المحاذية لبلد المغرب ، وذكرت ما بقلورية للروم من المدن ، والأنكبرده والزنقة . المعروفة ببليوتس ، والخليج الخارج من بحر الروم إلى المجاز المحيط على القسطنطينية ومياه بلد الروم وأكابر أنهاره ومدنه .

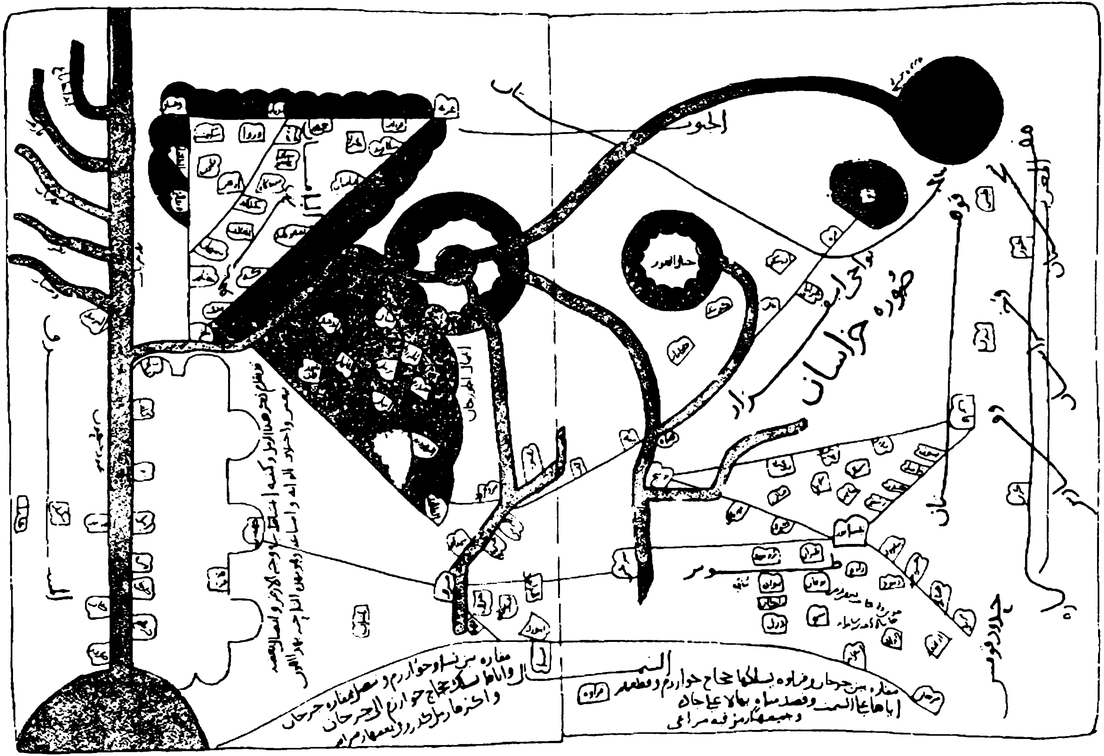
وكنت استوفيت صورة الأندلس في أشكال المغرب فلم أعده شيئاً منها ، وقد رسمت في هذا البحر الجزائر المسكونة وما دعت الحاجة إلى ذكره إذ كان مسكوناً مشهوراً .

ثم ذكرت الجزيرة المشهورة المعروفة بديار ربيعة ومضر وبكر وكيفية دجلة والفرات عليها ، واشتمالها على حدودها إلى ذكر جبالها وسائر طرقها وأحوالها ، وأعقبتها بصورة العراق ومياهها وبطائحها وانصباب مياهها إلى البحر ، وما يُفْرَغُ وَيَفْرَغُ إليها من أنهارها .

وذكرت خوزستان على حدودها وأنهارها وما اقتضته صورتها وحالها وقنيها بصورة فارس على تصور جميع أنهارها وبحيراتها ومواقع مدنها وصورة برها وبحرها وسهلها وجبلها وسائر طرقها وسبلها .

ثم صورت بلاد السند ومدنها وطرقها وسبلها وما يصاقبه من بلاد الهند والإسلام .

ثم تلوتها صورة آذربيجان ، وشكلت ما فيها من الجبال والطرق والأنهار العذبة كالرس والكر إلى أن رسمت بحيرة خلاط وبحيرة كبودان وكلتاهما متصلتان بشيء من البحار ، وأثبت فيها جبال القبق ، ثم صورة الجبال وأعمالها ومواقع بلدانها على ما هي عليه وما انحدق منه بدخول بعض مفازة خراسان وفارس على حدودها ، وذكرت إليها صورة الجيل والديلم وطبرستان وما يليها من بحر الخزر وبعض سبله إذ لم أحط علماً بكليته ، وأتبعتها بصورة بحيرة طبرستان وجزيرتها



صورة خراسان

المصدر : ابن حوقل : صورة الارض

ومصب ما إليها من المياه ، وما يصاقبها من الجبال ، وكمية ما للإسلام منها ، وحدودها ما لغيره من أقطارها .

وشكلت المفازة التي بين فارس وخراسان وجميع ما فيها من الطرق إلى النواحي المجاورة لها ، والمضافة إلى حدودها ، وما يليها من أعمال سجستان على ما يجاورها من بلاد الغور وجبالها ومصب مياهها إلى بحيرة زره .

وصوت خراسان وما في ضمنها من طخارستان وبلاد باميان وطوس وقوهستان بجميع مياهها الجارية وجبالها المشهورة ورمالها وطرقها المعروفة .

ثم صورت نهر جيحون وما وراءه من أعمال بخارى وسمرقند وأشروسنة واسبيجاب والشاش وخوارزم إلى جميع ما يشتمل عليه من المياه ويحيط به من الطرق والمسالك .

فهذه جميع الأرض عامرها وغامرها . وهي مقسومة على الممالك . وعماد ممالك الأرض أربع : فأعمرها وأكثرها خيراً وأحسنها استقامة في السياسة وتقويم العمارات ووفور الجبايات مملكة إيران شهر ، وقطبها إقليم بابل وهي مملكة فارس ، وكان حد هذه المملكة في أيام العجم معلوماً ، فلما جاء الإسلام أخذت من مملكة الروم الشام ومصر والمغرب والأندلس ، وأخذت من مملكة الصين ما وراء النهر وانضمت إليها هذه الممالك العظيمة .

ومملكة الروم يدخل فيها حدود الصقالبة ومن جاورهم من الروس والسرير واللان والأرمن ومن دان بالنصرانية .

ومملكة الهند يدخل فيها السند وقشمير وطرف من التبت ومن دان بدينهم .

ولم أذكر بلدان السودان في المغرب والبجة والزنج ومن أعراضهم من الأمم ؛ لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم ، وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة ، وهؤلاء مهملون في هذه الخصال ، ولا حظ لهم في شيء من ذلك

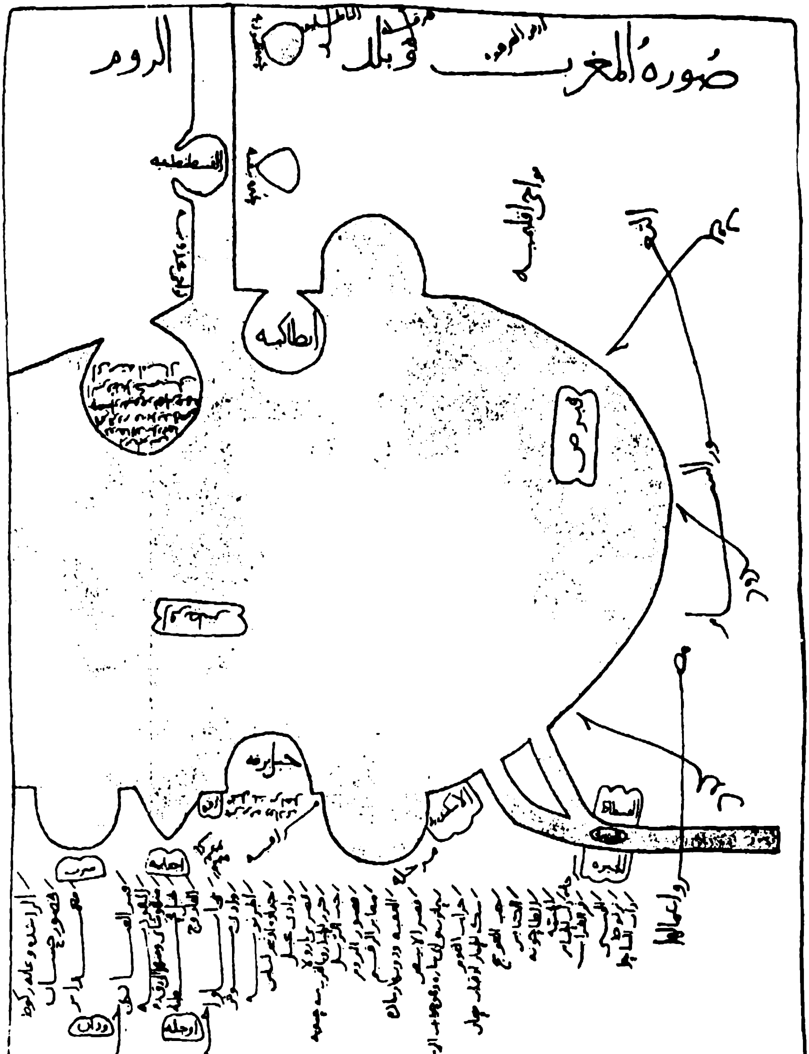
فيستحقون بـه إفراد ممـالكهم بمـا ذكرت بـه سـائر الممالـك ، غير أن بعض السودان المقاربين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانـة وريـاضحـة وحكم ، ويقـاربون أهل هذه الممالك كالنوبة والحبشة فـإنهم نصـارى ، يرتسمون مـذاهب الروم ، وقـد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة ، لأن أرض النوبة مصـاقبـة أرض مصر والحبشة على بحر القلزم ، وبينهما وبين أرض مصر مفاوز معمورة فيهـا معـادن الـذهب . ويتصلون بمصر والشـام من طريق بحر القلـزم . فهـذه الممالـك المعروفة ولما زادت مملكة الإسلام بما اجتمع إليها من طرائف هـذه الممالـك المشهورة شرفت وعظمت » .

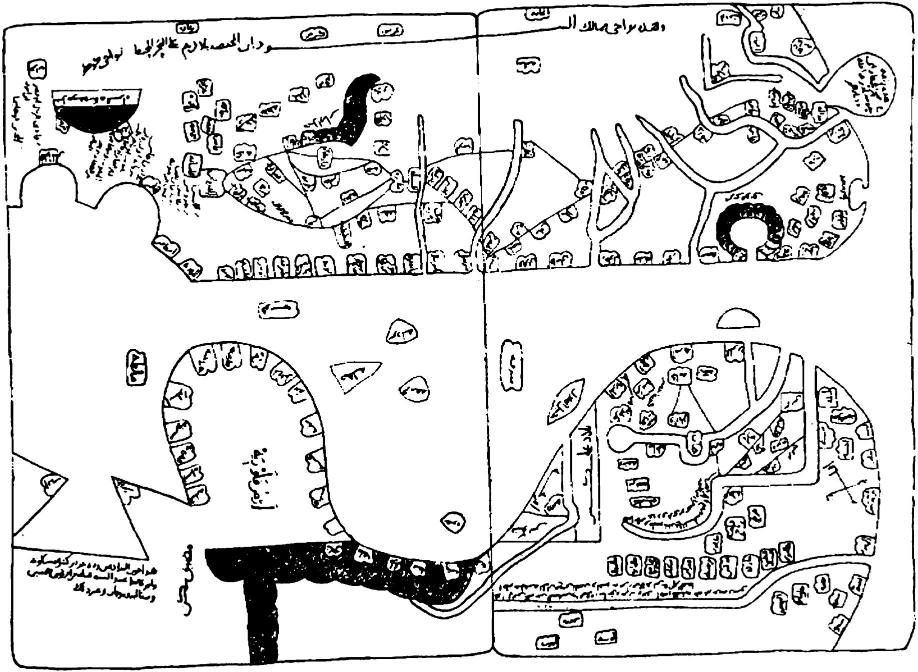
« ومملكة الإسلام في حيننا هذا ووقتنا ، فـإن طولهـا من حـد فرغـانـة حتى يقطع خراسـان والجبـال والعراق وديـار العرب إلى سواحل اليمن فهـو نحـو خمسـة أشهر ، وعرضهـا من بلـد الروم حتى يقطـع الشـام والجـزيرة والعراق وفـارس وكرمان إلى أرض المنصورة على شط بحر فارس نحو أربعـة أشهر . وإنمـا تركت في ذكر طول الإسلام حد المغرب إلى الأنـدلس لأنـه كالكم في الثوب ، وليس في شرقي المغرب ولا في غربيه إسلام ، لأنك إذا جـاوزت مصر في أرض المغرب كان جنوبي المغرب بلاد السودان ، وشمالـه بحر الروم ثم أرض الروم ، ولو صلح أن يجعل طول الإسلام من فرغانة إلى أرض المغرب والأندلس لكان مسيرة ثلاث مئة مرحلة » .

النص الثاني

يتكلم ابن حوقل عن ليبيا بتفصيل استناداً إلى ملاحظاته الشخصية ، الناتجة عن تجواله في هـذا القطر العربي ، وعن معرفته الجيدة بأحواله الاقتصادية والاجتماعية .

« فهـذه صـورة المغرب ومكان كل عمـل ومـدينـة منهـا ومـوقعهـا من شمالهـا


صورة المغرب
الروم
القسطنطينية
انطاكية
قبرص
جبل برقة
الاسكندرية
برقة
مصر



ابن حوقل : بلاد المغرب

وجنوبها وشرقها وغربها حسب ما أدت الاستطاعة إليه ، ووقفت بالمشاهدة والخبر الصحيح بالمفاوهة عليه .

فأما برقة[٢] فمدينة وسطة ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية ، ولها كور عامرة وغامرة ، وهي في بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوماً وكسراً في مثله ، يحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها ، وأرضها حمراء خلوقية التربة ، وثياب أهلها أبداً محمرة ، ويعرف أهلها بالفسطاط من بين أهل المغرب بحمرة ثيابهم وتغيرهم ، ويطوف بها من كل جانب منها بادية يسكنها الطوائف من البربر ، وهي برية بحرية جبلية ، ووجوه أموالها جمة ، وهي أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان ، وبها من التجارة وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلاباً لما فيها من التجارة ، وعابرين عليها مغربين ومشرقين ، وذلك أنها تتفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي كهو ، والجلود المجلوبة للدباغ بمصر ، والتمور الواصلة إليها من جزيرة أوجلة ، ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من الشرق والواردة من الغرب ، وشرب أهلها من ماء المطر بمواجن يدخر بها ، وأسعارها بأكثر الأوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية . وإليها مدينة أجدابية على صحصاح من حجر في مستواه ، بناؤها بالطين والآجر ، وبعضها بالحجارة ، ولها جامع نظيف ، ويطيف بها من أحياء البربر خلق كثير ، ولها زرع بالبخس ، وليس بها ولا ببرقة ماء جار ، وبها نخيل حسب كفايتهم وبمقدار حاجتهم ، وواليها القائم بما عليها من وجوه الأموال وصدقات بربرها وخراج زروعهم وتعشير خضرهم وبساتينهم هو أميرها وصاحب صلاتها وله من وراء ما يقبضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان ، وهي أيضاً قريبة من البحر المغربي فترد عليها المراكب بالمتاع والجهاز وتصدر عنها

---

(٢) برقة تقابل الآن بلدة المرج واسمها الأجنبي Barce .

بضروب من التجارة وأكثر ما يخرج منها الأكسية المقاربة وشقة الصوف القريبة الأمر وشرب أهلها من ماء السماء .

وجزيرة[٣] أوجلة منها على أيام بين غربها وجنوبها ، وهي ناحية ذات نخيل عظيمة ، وغلات من التمر جسيمة ، ويليها وقتنا هذا رجل من ناحية صاحب برقة ، ولم يكن ارتفاعها ومالها الداخل على خزانة السلطان في جملة مال برقة ، فلما ضمت إلى برقة غزر مالها وكثر وزادت الحال في ذلك ، ومنها إلى جزيرة ودّان طريق قصد في الرمال .

وودان ناحية ومدينة في جنوب مدينة سرت وكانت مضمومة إليها وهي جزيرة ، لا تقصر في رخص التمور وكثرتها وجودتها عن أوجلة وإن كانت أوجلة أوسع قسوباً وأفسح ناحية فتمور ودان الرطبة العذبة وأرطابهم أغزر وأكثر .

وسرت مدينة ذات سور صالح كالمنيع من طين وطابية ، وبها قبائل من البربر ، ولهم مزارع في نفس البر تقصد نواحيها إذا مطرت ، وتنتجع مراعيها ، ولها من وجوه الأموال والغلات والصدقات في سائمة الإبل والغنم ما يزيد على حال أجدابية ومالها في وقتنا هذا ، وبها نخيل تجتنى أرطابها ، وليس بها من القسب والتمر ما تذكر حاله ؛ لأن نخيلهم بقدر كفايتهم ، ولها أعناب وفواكه ، وأسعارهم صالحة على مر الأوقاف . والمُتَلّي صدقاتهم وجباياتهم وخراجاتهم وما يجب على القوافل المجتازة بهم صاحب صلاتهم ، وإليه جميع مجاري أمر البلد ، والنظر فيه وفيا ورد إليه وصدر ، في استيفاء ضرائبه ولوازمه واعتبار السجلات والمناشير ، بواجب ما على الأمتعة وتصفحها خوف الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بإفريقية ، ودخلها أوفر من دخل أجدابية لما ذكرت ، وهي عن غلوة سهم عن البحر في مستواه من رمل ، وترد المراكب أيضاً عليها بالمتاع ، وتصدر عنها بشيء

---

(٣) جزيرة : واحة .

منه كالشب السرتي ، فإنه بها غزير كثير وبالصوف أيضاً ، ولحوم المعز أغذى فيها من الضأن وأنفع ، وتقوم لحوم الضأن فيها مقام لحم المعز بغيرها ، لأنها غير ملائمة لأهلها وللسافرة المجتازين من أجل مراعيها ، وشرب أهلها من ماء المطر المختزن في المواجن ، وعدد البربر بها أوفر وأغزر ، وأكثر منه بما جاورها ، وللبربر حاضرة بنفس قصبة سرت ، وبينهم خلاف على مر الأوقات وحروب ، ربما قامت في بعض الأحايين قريبة ، ولا تدوم ، وعاملهم قائم بنفسه من تحت يد سلطانهم الأعظم .

فأما أطرابلس فكانت قديماً من عمل إفريقية ، وسمعت من يذكر أن عمل إفريقية لما كانت أطرابلس مضافة إليها معروف معلوم ، وكان من صبره[٤] ، وهي منزل من أطرابلس على يوم ، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا ، ولم أعرفها قديماً ولا سمعت بها على الخارج من أطرابلس إلى القيروان ، وعلى القادم من القَيروان إلى أطرابلس غير ما يقبضه المتولي عمل أطرابلس من كل جمل ومحمل وحمل ، وذلك كالذي بلبدة ، وهي أيضاً قرية بينها وبين أطرابلس إلى جهة المشرق مرحلتان من الضريبة على الجمال والأحمال والمحامل والبغال والرقيق والغنم والحمير إلى ما عدا ذلك من الأسباب الواردة ، وأخذ الصدقات والخراج واللوازم من ناحية قصري ابن كمو وابن مظكود والبربر المقيمين هناك من هوارة وغيرهم إليه ، وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر خصبة حصينة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق وكان لها في ربضها أسواق كبيرة فنقل السلطان بعضها إلى داخل السور ، وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية ، وارتفاعها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا ، وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره كالخوخ الفرسك والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان ، وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع ، وطيقان الأكسية الفاخرة الزرق

---

(٤) صبراته .

والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة إلى مراكب تحط ليلاً ونهاراً وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحاً ومساءً من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم ، وأهلها قوم مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ، متميزون بالتجمل في اللباس وحسن الصور ، والقصد في المعاش إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة إلى مراء لا يفتر ، وعقول مستوية وصحة نية ومعاملة محمودة ومذهب في طاعة السلطان سديد ، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب أثيرة ذائعة ، ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم أهل بلد ، إذا وردت المراكب ميناهم عرضت لهم دائماً الريح البحرية فيشتد الموج لانكشافه ويصعب الإرساء ، فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين ، فيقيد المركب ويرسى به في أسرع وقت بغير كلفة لا حد ولا غرامة حبة ولا جزاء بمثقال .

النص الثالث

وصف إقليم سجستان

من اليسير أن نرى في الفصل التالي مقدار ما يدين به ابن حوقل للإصطخري ، وما هي طريقة العرض التي تبناها . قارن ذلك مع النص الثاني لابن خرداذبة ، ومع النص المأخوذ عن اليعقوبي :

« وأما سجستان وما يتصل بها مما قد جمعت إليها في الصورة[٥] فالذي يحيط بها مما يلي المشرق مفازة[٦] بين كرمان وأرض السند ، (وبين سجستان) وشيء

---

(٥) لقد أضاف ابن حوقل خارطة لكل منطقة وصفها في المخطوط الأصلي ، والعبارة الموضوعة ضمن قوسين تشكل الإضافات التي زادها ابن حوقل على كتاب الإصطخري .

(٦) المفازة : صحراء .

من عمل ملتان[٧] ، ومما يلي المغرب خراسان وشيء من عمل الهند ، ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وكرمان . وفيما يلي خراسان والغور والهند تقويس .

وأما مدنها ومايقع في أضعافها مما يحتاج إلى معرفته فلها من المدن زرنج وَبُسْتُ وغزنة ... ومدينتها العظمى تسمى زرنج ، وهي مدينة عليها حصن (ولها ربض واسع الأبنية كثير المساكن ، وفيه دور الإمارة لآل الصفار[٨] إلى غير ذلك من المحال والفنادق . وعليه سور حصين دائر به) وخندق (حصين أيضاً) ، والماء الذي بالخندق ينبع من مكان ، ويقع فيه أيضاً فضل من المياه (الجارية إليها) ، ولها خمسة أبواب : أحدها : الباب الجديد ، والآخر : الباب العتيق ، وكلاهما يخرج منه إلى خراسان ، والرابع : باب نيشك يخرج منه إلى بست ، والخامس : يعرف بباب الطعام ، يخرج منه إلى الرساتيق . وأعمر هذه الأبواب باب الطعام وكلها حديد . وللربض ثلاثة عشر باباً[٩] ... وأبنيتها كلها طين آزاج معقودة لأن الخشب بها يسوّس ولا يلبث . ومسجدَ الجامع في المدينة منها دون الربض إذا دخلت باب فارس منها . ودار الإمارة[١٠] بين باب الطعام وباب فارس خارج المدينة . والحبس في المدينة عند الجامع ، وهناك أيضاً دار إمارة على ظهر الجامع عند الحبس قديمة ، ومنها نقلت إلى خارج الربض . وبين باب الطعام وباب فارس قصران ليعقوب بني الليث[١١] ولعمر بن الليث[١٢] ودار

---

(٧) مدينة على نهر المندوس .

(٨) آل الصفار أسرة تأسست في فارس بزعامة يعقوب الصفار حوالي عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م . وقد تمكنت في بعض الأوقات من حكم كل بلاد فارس ، ولكنها طردت نحو الشرق ، ولم تتكن من توطيد أركانها إلا في سجستان حيث ظلت في الحكم حتى عام ١١٦٣ م .

(٩) يتلو ذلك تعداد هذه الأبواب .

(١٠) دار الإمارة كانت عبارة عن بناء ضخم يضم الدوائر الحكومية الإقليمية والخزينة العامة وأركان الجيش .

(١١) من آل الصفار .

(١٢) شقيق وخلف يعقوب الصفار . وقد وقع بالأسر وأعدم بأمر الخليفة العباسي المعتضد في ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م .

الإمارة في دار يعقوب . وداخل المدينة بين باب كركوية وباب نيشك أبنية عظيمة كانت خزانة بناها عمرو بن الليث . وأسواق المدينة الداخلة حوالي المسجد الجامع ، وهي أسواق على غاية العمارة ، وأسواق الربض عامرة أيضاً ، منها سوق تسمى سوق عمرو بناها عمرو بن الليث ووقفها على المسجد الجامع والمارستان والمسجد الحرام ، وغلة هذه السوق في كل يوم نحو ألف درهم . وفي المدينة الداخلة أنهار ، منها نهر يدخل من الباب العتيق ، والثاني من الباب الجديد ، والثالث من باب الطعام ، ومقدار هذه الأنهار إذا جمعت ما يدير الرحى . وعند المسجد الجامع حوضان عظيمان يدخلها الماء الجاري ويخرج ويتفرق في بيوت الناس وسراديبهم ، ومعظم دور المدينة والربض فيها ماء جار وبساتين ، وفي بعضها أنهار تأخذ منها هذه الأنهار التي تدخل المدينة .

وأرض سجستان سبخة ورمال . وهي حارة بها نخيل . ولا يقع بها الثلوج . وهي أرض سهلة لا يرى بها جبل وأقرب جبالها بناحية فَرَهَ . وتشتد رياحهم وتدوم حتى إنهم قد نصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها ، وينتقل رمالهم من مكان إلى مكان ، فلولا أنهم يحتالون عليها لَطَمَّتْ القرى والمدن بها ، وذلك أن جميع الأرض رمل . وبلغني أنهم إذا أرادوا نقل الرمل من مكان إلى مكان ، من غير أن يقع على الأرض التي على جانب المكان الذي ضرّهم كون الرمل به ، وسقوطه فيه ، جعلوا مثل الحائط من خشب وشوك وغير ذلك بقدر ما يعلو على ذلك الرمل ، وفتحوا في أسفله[١٣] باباً فيدخل الريح ويطير الرمل إلى أعلاه مثل الزوبعة فيرتفع على حد البصر حيث لا يضرهم . (وأخبرني من صدر عنهم سنة ثلاثمئة وستين إلى المغرب ، وقد جمعنا الطريق فتذاكرنا حالهم فقال : لقد تواترت علينا الرياح في السنة الماضية بما لم يجر لنا بمثله رسم ولا عادة وأكبّت الرياح على الجامع فملأته بالرمال ، وتزايد الأمر بالبلاء على البلد ، فدعوا القوم

(١٣) أي في أسفل الحائط .

الموسومين بعلم هذه الصنعة ، والموسومين بدفعها ، فعجز أكثرهم واعترف بأنه لا يدري كيفية مدافعته ، لأنهم لايقفون على مادته من أين هي ، وابتدر حدث منهم فقال : علم ذلك عندي ، ون أعْطيتُ ما أؤمِّلُهُ وأرجوه لدفعه دفعته وهو ثلاثون ألف درهم فلم يلتفتوا لكثرة سومه . وزاد الأمر بلاء فأيقنوا بأنه إن أقام عليهم يومه[١٤] وليلته القابلة هلك البلد فصاروا إليه بما طلب منهم وقبله وقال : لقد زاد علي التعب ولكن أنتم في أمان منه[١٥] . وركض ومن رام معونته معه ثمانية عشر فرسخاً من البلد على غير قصد الريح ، وعارضها بحيل[١٦] أوقعها[١٧] فزالت الريح عن البلد ، فانتسفت بأجمعها منه ، وكفاهم الشغل بها ، ورأس الحدث القوم الذين كانوا يتقدمون في علم ذلك وفاز بربح كثير سني) .

ويقال إن المدينة القديمة في أيام العجم كانت فيما بين كرمان وسجستان بالقرب من دارَك بحذاء راسَك عن يسار الذاهب من بخارى إلى كرمان على ثلاث مراحل ، وأبنيتها وبعض بيوتها قائمة إلى هذه الغاية ، واسم هذه المدينة أبرشهريار ، يقال : إن نهر سجستان كان يجري عليها فانقطع ببثق كان يسكر من هيدمند ، وانخفض الماء عنه ومال ، وتعطلت وتحول الناس وبنوا زرنج .

وبست مدينة ليست من أعمال سجستان بعد زرنج أكبر منها . وهي وبيّة ، وزيهم زي أهل العراق ، ويرجعون إلى مروءة ويسار . وبها متاجر إلى بلاد الهند ، وبها نخيل وأعناب وهي خصبة جداً . وأما القرنين فهي مدينة لها قرى ورساتيق وهي على مرحلة من سجستان على يسار الذاهب إلى بست ، ومنها آل الصفار الذين عملوا على[١٨] فارس وخراسان وكرمان وسجستان وكانوا أربعة

---

(١٤) أي خلال ذلك اليوم .

(١٥) أي من الرمل .

(١٦) بوسائل ماهرة ومحكمة . وكان علم الميكانيك يدعى عند العرب (علم الحيل) .

(١٧)استخدمها وبدأ بتنفيذها .

(١٨) أي كانوا عمالها . والعامل هو الحاكم أو والي إقليم ، أو سيد فيه .

أخوة : يعقوب وعمرو وطـاهر وعلي بنو الليث ، وأمـا طـاهر فقتـل ببـاب بست ويعقوب مـات (حتف أنفـه) بجنـدي سـابور بعـد رجوعـه من بغـداد[١٩] وقبره هناك ، (وعليّ كان استـأمن إلى رافع بجرجـان ومـات بـدهستـان وقبره هنـاك ، ويعقـوب كان أكبرهم وكان غـلامـاً لبعض الصفـارين) ، وعمرو (كان مكاريـاً وبلغني أنه كان في بعض أيامه بنـاء) قتل ببغـداد وقبره هنـاك . وكان السبب في خروجهم وارتفاع أمرهم أن خالاً لهم ، كان يسمى كثير بن رقاق ، كان شاريـاً في بعض الحصون ، وكان تجمَّـع إليـه جمع فيـه وجـوه الخـوارج ، وحـوصر في قلعتـه وقتل ، فتخلص هؤلاء ووقعوا إلى أرض بست . وكان رجل بتلك النـاحيـة عنـده جمع كثير يظهرون الحسبـة[٢٠] في الغـزو وقتـال الخـوارج يعرف بـدرهم بن نصر ، فصار هؤلاء الأخوة في جملة أصحابه ، وقصدوا سجستـان ، والوالي بهـا إبراهيم بن الحسين من قبل الطاهرية[٢١] ، وكان في ضُعفٍ ، فنزلوا على باب المـدينـة ، وكان درهم بن نصر يظهر أنه من المطوعة وأنه قصد قتـال الشراة[٢٢] محتسبـاً ، فـاستمال العامة فأطاعوه ودخل المدينة ، وخرج منهـا وإليهـا إلى بعض النواحي ، ولم يزل درهم بن نصير حتى تمكن من البلد وقاتله الشراة ، وكان له رئيس يعرف بعمّـار ، وانتـدب درهم بن نصر يعقوب لقتـالـه فقـاتلـه وقُتل عمـار . وكان لا يحزبهم أمر شديد إلا انتدب له يعقوب ، وكان يرتفع ذلك الأمر له على ما يحبه ، فـاستحـال أصحاب درهم بن نصر حتى قلدوه الرئـاسـة ، وصـار الأمر لـه ، وصـار درهم بعـد ذلك في جملة أصحابه . ولم يزل يعقوب محسنـاً إليـه حتى استـأذنـه في الحج فـأذن له ، فحج وأقام في بغـداد ، وعـاد رسولاً من أمير المؤمنين إليـه ، فقتلـه يعقوب ،

---

(١٩) في عام ٢٦٥ هـ / ٨٧٩ م .

(٢٠) أي نذر النفس ابتغاء الثواب من الله .

(٢١) أسرة حاكمة قامت في خراسان والمناطق المجاورة من فارس على يد طـاهر بن الحسين في عام ١٩٤ هـ / ٨١٠ م وقد قضى عليهم ال الصفار سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م .

(٢٢) جمع شار ، وهو الثائر ، المارق .

واستفحل أمر يعقوب وإخوته بعد ذلك حتى استولوا على فارس وكرمان وخوزستان وبعض العراق وخراسان ...[٢٣] .

وأما أنهار سجستان فأعظمها نهر هيدمند[٢٤] ، ويخرج من ظهر الغور حتى يمر على بلد الدوار ، ويجري على بست حتى ينتهي إلى سجستان[٢٥] ، ثم يقع في بحيرة زره ، وهي بحيرة يتسع الماء فيها وينتقص بقدر زيادة مائه أو نقصانه ، وطولها نحو ثلاثين فرسخاً وعرضها مقدار مرحلة ، وهي عذبة الماء ، ويرتفع منها سمك كثير وقصب ، حواليها كلها قرى سوى الوجه الذي يلي المفازة ، ونهر هيدمند نهر واحد من بست إلى أن ينتهي إلى مرحلة من سجستان ويتشعب مقاسم الماء ، فأول نهر ينشق منه نهر باب الطعام[٢٦] ، فيأخذ على الرساتيق حتى ينتهي إلى خد نيشك ، ثم يأخذ منه نهر يُعرف بسناروذ فيجري على فرسخ من سجستان ، وهو النهر الذي تجري فيه السفن من بست إلى سجستان إذا امتد الماء ، ولا تجري إليهم السفن إلا في زيادة الماء[٢٧] ...

وأما المسافات فإن الطريق من سجستان إلى هراة ـ أول مرحلة تسمى كركوية إلى بشتر ـ أربعة فراسخ ، ويعبر على قنطرة تجري فيها فضل ماء نهر هيدمند ، ومن بشتر إلى جوين مرحلة ، ومن جوين إلى ... سركش ثلاث مراحل ، ومن سركش إلى ... الجبل الأسود سبع مراحل ، ومن الجبل الأسود إلى هراة مرحلتان[٢٨] ...

(وأما ارتفاع[٢٩] هذه النواحي التي جمعت صورتها وذكرتها من الأعمال

---

(٢٣) ويتلو ذلك وصف مختلف المدن الأخرى في سجستان .

(٢٤) تحريف قديم لنهر هيلمند .

(٢٥) لا تعني هذه الكلمة هنا كل البلاد بل المنطقة المحيطة بمدينة زارنج المندثرة حالياً .

(٢٦) اسم أحد أبواب زارنج الذي يدخل منه أيضاً نهر على المدينة .

(٢٧) ويتلو ذلك مباشرة تعداد بعض الأنهار الأخرى .

(٢٨) ويسرد ابن حوقل بعدئذ أسماء زمرة من الطرق لا نجد كبير فائدة من ذكرها .

(٢٩) ارتفاع : حصيلة الضرائب .

المجاورة ، ولم أجد بدأ من إلصاق بعضها إلى بعض بالمجاورة[٣٠] ، فإن تلك النواحي مختلفة الحال متباينة العمال . لكل ناحية منها قاضٍ وصاحب خبر[٣١] وصاحب بريد وصاحب معونة[٣٢] وبندار[٣٣] يطالب بالخراج ووجوه المال[٣٤] الواجبة للسلطان ، وأكثرها لصاحب خراسان[٣٥] ، وما غادره[٣٦] فلمن يَعْتَزي إليه[٣٧] ويقيم دعوته ، وينتمي إلى دولته قد جعلت طعمة[٣٨] وعليه فيها بعض لوازم[٣٩] يرفعها ، وهدايا يؤديها كصاحب بست ، لأنه يقيم[٤٠] برجال كثيرة ، وعساكر جمة من[٤١] رسومها المجباة بتلك الناحية لصاحب خراسان . ومنها[٤٢] ما هو كالمُتَغَلِّبِ عليه[٤٣] وعلى ماله وعليهم من المؤنات[٤٤] ، وهم يعتزون إلى صاحب خراسان كمحمد بن إلياس وبتكين الحاجب ، وقد استولى على غزنة وما جاورها . ومنها ما هو مجمول برمته ، ومجموع على جهته بالحسبانات القائمة والقوانين والارتفاعات المعروفة ، ومن ذلك هراة ، وهي من النواحي التي يُقْبَضُ

---

(٣٠) لأجل مجاورتها .

(٣١) انظر نص قدامة .

(٣٢) مدير الشرطة .

(٣٣) البندار : الجابي .

(٣٤) الرسوم المختلفة .

(٣٥) أمير من الأسرة السامانية التي كانت تحكم فارس وسجستان في أيام ابن حوقل .

(٣٦) أي النواحي التي لا تخضع مباشرة للسلطان الساماني .

(٣٧) الضمير يعود لصاحب خراسان .

(٣٨) إقطاع ينتقل بالإرث .

(٣٩) ضريبة : التزام .

(٤٠) يقوم بأود معيشة ...

(٤١) أي بالاستعانة بـ ...

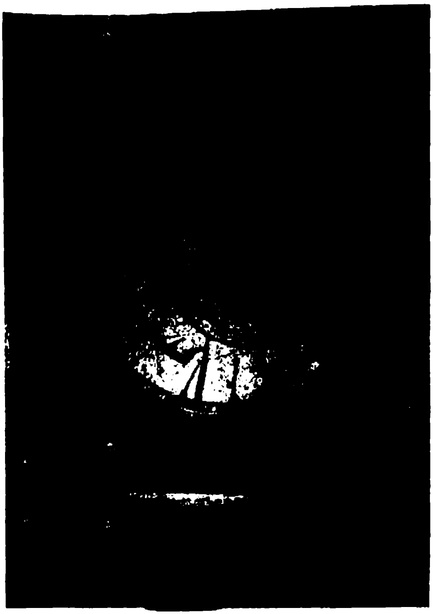
(٤٢) أي ومن نواحي سجستان .

(٤٣) الهاء تعود إلى ما .

(٤٤) أي على أمراء هذه المناطق أن يتحملوا شطراً من الميزانية أو من أعباء الدولة .

خراجها في كل عام دفعتين ، إذ في كثير من أعمال خراسان ما يجري هذا المجرى وقد رسم بهذا الرسم ، وفيها ما يقبض دفعة واحدة .

فأما عبرتها من[٤٥] وجوه أموالها وقوانين أدائها فمئة ألف دينار ، ومن الورق أربع مئة ألف درهم مع توابع قليلة ، وفي قديم أوقاتها على مر الدهور الخالية والسير[٤٦] العادلة الماضية ما كانت جباياتها عن هذا القدر أكثر ، وبركاتها أغزر وغلاتها أوفر . وهذا جملة ما علمته من صفة هذه الناحية وعرفته من أخبار هذا الصقع ، وما خلت أن في ذلك تقصيراً عما يحتاج إلى علمه والوقوف على رسمه .



(٤٥) أي المبلغ المتوسط للضرائب المتحصلة في سجستان والناتجة عن

(٤٦) جمع سيرة ومعناها ، هنا ، حكومة أو سلطة الأمراء العادلين

أَبُو دُلَف الخَزْرَجِيّ اليَنْبُوعِيّ

(ولادته ٣٠٠ هـ - ٩١٣ م . وفاته ٣٩٠ هـ - ١٠٠١ م)

هو مسعر بن المهلهل الينبوعي ، نسبة إلى ينبع النخل ، وهي ناحية واسعة فيها قرى وأودية وعيون ، وتقع غرب المدينة المنورة إلى الشمال .

وهو شاعر ورحالة ، يقع ميلاده في خلافة المقتدر بالله العباسي ، مجهول شأنه ، مغمور تاريخه . وقد عاش القرن الرابع الهجري كله أو جلّه يجوب البلاد ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء ، تراه مطوّفاً في كل مكان من بخارى إلى الصين والهند ، ومن فارس إلى أرمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل مشاهداته ، ويدون كل ما يلاحظه ، في دقة تامة وعناية بالتفاصيل مما أذهل المستشرقين ، فكتبوا عنه جغرافياً من الطراز الأول ، ومن أشهر الرحالة في القرن الرابع .

وأبو دلف من هذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين المسلمين الذين أتوا بعده ، من بينهم ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) ، والقزويني في مؤلفه (عجائب المخلوقات) و (آثار البلاد) .

والمصدر العربي القديم الذي ترجم لأبي دلف شاعراً ترجمة أدبية ليس فيها شيء من التفصيل عن حياته ، هو كتاب (يتيمة الدهر) لأبي منصور الثعالبي الذي ذكره في الباب السادس المخصص للشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عباد وقال عنه :

« أبو دلف الخزرجي الينبوعي ، مسعر بن مهلهل ، شاعر كثير الملح والظرف ، مشحوذ المدية في الجدية ، خنق التسعين في الإطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب في خدمة العلوم والآداب » .

وقد ترك رسالتين عني بتحقيق الأولى المستشرق الألماني رور زاوير عام ١٩٣٩ وهي التي يتحدث فيها عن رحلته إلى الصين ، ويعتقد أنها وضعت ، على ما يبدو من الذاكرة بعد انتهاء الرحلة

وتحوي بالإضافة إلى بعض المعلومات الأكيدة ، معلومات أخرى كثيرة غير دقيقة وتقريبية وغائمة وخيالية في بعض الأحيان .

أما الرسالة الثانية التي يصف بها آسيا الوسطى فقد عكف عليها المستشرقون الروس من أمثال مينورسكي وكراتشكوفسكي ، ثم نشرها في نصها العربي المدرسان في جامعة لينغراد وهما أنس خالدوف وبطرس بولغاكوف ، في موسكو سنة ١٩٦٠ .

وتشير هذه الرسالة إلى أنه بدأ رحلته من مدينة شيزه في جنوب أذربيجان ، وسار في بداية الأمر نحو الشمال حتى باكو ، ثم منها إلى تفليس ، ومنها عبر أردبيل إلى شهرزور ، وبعد ذلك باتجاه الشرق عبر كرميسين فهمذان فالري فطبرستان وقومس وطوس ونيسابور حتى قراطة ، وبعد وصف هذه المدن ينتقل أبو دلف إلى وصف أصفهان ومدن خوزستان التي ينهي بها رسالته .

ولقد تثقف أبو دلف ثقافة واسعة ، ونشأ عربياً كريماً عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، في وسامة ولطف . وصار أبو دلف شاعراً ، وعرف كذلك طبيباً ومنجماً ، وليست (ساسانيته) بمناقضة لعزة نفسه ، إذ كانت ساسانيته ظرفاً وفكاهة وأدباً وطوافاً بالآفاق .

وفجأة ينبو بأبي دلف وطنه ، وتسوقه الأقدار لتضعه في حاشية الأمير الساماني نصر بن أحمد في بخارى ، فيحتل عنده منزلة عالية في دولته ، وقد صار أبو دلف شاعر الأمير ، وصار كذلك سفيره في العديد من المهام الرسمية .

وكانت بخارى قد صارت عاصمة السامانيين ، وأصبحت تزخر بالأدباء والعلماء والشعراء والحكماء . وكان أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر الجيهاني وزيراً للسامانيين ، وكان يشجع الأدباء ويحتفي بالعلماء ، ولعله هو الذي احتضن أبا دلف ، أو اتخذه كاتباً له . وللجيهاني المذكور كتاب في صورة العالم هو (المسالك في معرفة الممالك) وهو مفقود .

وفي عهد الملك نصر بن أحمد وفد إلى بخارى وفد هندي برئاسة الأمير الهندي كلاتلي في سفارة إلى بلاط الملك الساماني وأنجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم إلى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقاً لهم . وزار أبو دلف في هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل ملبار ، ووصف ذلك كله في كتاب ألفه بعنوان (عجائب البلدان) والظاهر أنه مجموع رسالتيه في وصف رحلاته .

وفي أواخر عهد نصر بن أحمد الساماني قصد بخارى كذلك وفد صيني ، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد فيقول :

« إن رسل ملك الصين جاؤوا ليخطبوا ابنة الملك الساماني لملكهم ، فأبى نصر بن أحمد ذلك

واستنكره لحظر الشريعة له ، فلما أبى ذلك عرضوا عليه أن يزوّج ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب إلى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » . وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) . وقد عبر أبو دلف والوفد الصيني تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التيبت ، ودخل الصين من مدينة (مقام الباب) ، فوادي المقام ، فسندابل العاصمة ، وبعد إنجازه مهمته وتجهيز الفتاة غادر أبو دلف الصين إلى الهند حتى رجع إلى بلاده عن طريق سجستان . وزادت هذه الرحلة من مكانة أبي دلف في دولة السامانيين ، ومن منزلته في عصره ، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة .

ويروي الثعالبي في كتابه (لطائف المعارف) القصة التالية التي تصور لنا مكانة أبي دلف عند هذا الملك البويهي الكبير :

« جرت بين أبي علي الهائم وأبي دلف الخزرجي في مجلس أنس لعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة ومحاضرة ومذاكرة ، فقال أبو علي لأبي دلف :

صبّ الله عليك طواعين الشام ، وحمّى خيبر ، وطحال البحرين ، ودماميل الجزيرة ، وسناقِر دهستان[1] وضرّ بك بالعرق المدني[2] ، والنار الفارسية ، والقروح البلخية .

فقال له أبو دلف : « يا مسكين ، أتقرأ ﴿ تبّت ﴾ على أبي لهب ، وتنقل التمر إلى هجر ، بل صبّ الله عليك ثعابين مصر ، وأفاعي سجستان ، وعقارب شهرزور ، وجرّارات الأهواز[3] .

وصبّ عليّ برود اليمن ، وقصب مصر ، ودبابيج الروم ، وخزوز السوس ، وحرير الصين ، وأكسية فارس ، وحلل أصبهان ، وعمائم الأبلّة ، وسقلاطون[4] بغداد ، وسنجاب[5] خرخير[6] ، وسمّور بلغار[7] ، وثعالب الخزر ، وفنك[8] كاشغر ، وفاقم[9] التغزغز ، وحواصل هرارة[10] ، وتكك

---

(١) السنقر والسنقور : طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجمل منه . دهستان : بلد مشهور قرب خوارزم وجرجان .

(٢) مرض يصيب الإنسان وينسب إلى المدينة لانتشاره فيها .

(٣) نوع من الحشرات .

(٤) ثياب من الحرير موشاة بالذهب .

(٥) حيوان معروف تصنع الفراء من جلوده .

(٦) موضع ينسب إليه جنس الترك .

(٧) حيوان لاحم يصنع من جلده فراء ثمين .

(٨) ثعلب الصحراء ويعرف بكبر صيوان أذنيه .

(٩) حيوان فروه من أفخم أنواع الفراء .

(١٠) الجلود تلبس للتدفئة .

أرمينية[11] ، وجوارب قزوين .

وأفرشني : بسط أرمينية ، وزلالّي قاليقلا ، ومطارح[12] ميْسان ، وحصر بغداد ، وأخدمني : خصيان الروم ، وغلمان الترك ، وسراريّ بخارى ، ووصائف سمرقند .

وحملني على : عتاق البادية ، ونجائب الحجاز ، وبرازين طخارستان ، وحمير مصر ، وبغال برذعة .

ورزقني : تفاح الشام ، ورطب العراق ، وموز اليمن ، وجوز الهند ، وباقلاء الكوفة ، وسكر الأهواز ، وعسل أصبهان ، وتمر كرمان ، ودبس أرّجان ، وتين حلوان ، وعنب بغداد ، وعنّاب جرجان ، وأجّاص بست ، ورمان الري ، وكمثرى نهاوند ، وسفرجل نيسابور ، ومشمش طوس ، وملبن مرو[13] وبطيخ خوارزم .

وأشمّني : مسك تُبّت ، وعود الهند ، وعنبر الشحر ، وكافور قنصور[14] ، وأترج طبرستان ، ونارنج البصرة ، ونرجس جرجان ، ونيلوفر السيروان[15] ، وورد جور ، ومنشور بغداد ، وزعفران قم » .

فقال عضد الدولة في تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلف ينادم الملوك » وأمر له بخلعة وصلة حسنة .

وتدل هذه الرواية على كثرة طواف أبي دلف في العالم الإسلامي ووقوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلد من بلدانه ، وعلى حضور بديهته ، ووفرة أدبه ، وما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة ، ووفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم .

ويقول أبو دلف في مقدمة الرسالة الثانية التي يصف فيها مشاهداته في أرمينية وأزربيجان وإيران ، يقول على طريقته الخاصة : « جردت لكما ، يا من أنا عبدكما ، أدام الله لكما العز والتأييد ، والقدرة والتمكين ، جملة من سفري من بخارى إلى الصين ، ورجوعي منها على الهند ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الآن تجريد رسالة ثانية ، تجمع عامة

---

(١١) رباط السراويل ويدعى الواحد منها تكّة أو دكّة .

(١٢) بسط أو زرابي .

(١٣) الملبن هو عصير العنب المجفف المحشو باللوز أو الجوز أو الفستق .

(١٤) بلد على حدود الصين .

(١٥) بلد بإقليم الجبال .

ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته ، لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة ، ويتثقف به رأي من عجز عن سياحة الأرض » .

وعمل أبي دلف في ميدان الرحلة متعدد ، فهو يظهر لنا في صورة الرحالة الوصّاف القدير في ميدان الجغرافية الإقليمية ، كما يظهر في صورة الجغرافي المتمكن ، والأثري المنقّب ، والجيولوجي الدقيق العالم بطبقات الأرض وصخورها مما يرفع من منزلته بين العلماء .

ويظهر لنا كذلك في صورة الطبيب الذي يعلم أماكن المصحات الطبيعية التي توائم طبيعة المرض والتي تساعد على سرعة شفائهم .

من كتاب : الرسالة الثانية ، لأبي دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي ، دار النشر للآداب الشرقية ، موسكو ١٩٦٠ عني بنشرها وترجمتها وتعليقها : بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف . الرسالة الأخرى لأبي دلف .

« الرسالة الأخرى التي أنفذَها إلينا بعد التي كتبناها »

« أما بعد حمد الله والثناء على أولى مقاماته في أرضه وسمائه ومسألة العون على الخير كلّه ، فإنّي جرّدْتُ لكما ، يا من أنا عبدكما ، أدام الله لكما العز والتأييد والقدرة والتمكين ، جُمْلَةً من سفري كان من بخارى إلى الصين على خط الوتر ورجوعي منها على الهند ، وهو سَمْتُ قوسه ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها وسلكته من قبائلها ، ولم أستقص المقالة حذراً من الإطالة ، ورأيت الآن تجريد رسالة شافية تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته لينتفع به المعتبرون ، ويتدرّب به أولو العزّة والطمأنينة ، ويُثقف به رأيَ من عجز عن سياحة الأرض ، فأبدأ بذكر المعادن الطبيعية والعجائب المعدنيّة ، إذ هي أعم نفعاً فأتحرى في ذلك الإيجاز ، والله ولي التوفيق وهو حسبي ونعم المعين .

ولما شارفت الصنعة الشريفة والتجارة المربحة من التصعيدات والتقطيرات والحلول والتكليسات خامر قلبي شكٌ في الحجارة ، واشتبهت عليّ العقاقير ، فأوجب الرأي اتباع الركازات والمنابع ، فوصلت بالخبر والصفة إلى الشيز ، وهي

مدينة بين المراغة وزنجان وشهرزور والدينور بين جبال تجمع معادن الذهب ومعادن الزيبق ومعادن الإسرب ومعادن الفضة ومعدن الزرنيخ الأصفر ومعادن للحجارة المعروفة بالجمست .

فأما ذهبها فهو ثلاثة أنواع : نوع يعرف بالقومسيّ ، وهو تراب يُصَبّ عليه الماء فيسيل ويبقى تبر كالذرّ يجمع بالزيبق ، وهو أحمر خلوقيّ ثقيل نقيّ صبغ ممتنع على النار ليّن يمتد . ونوع آخر : يقال له الشهرنيّ ، يوجد قطعاً من حبّة إلى عشرة مثاقيل ، صبغ صلب رزين إلا أن فيه يبساً قليلاً . ونوع آخر : يقال له السجابذي ، أبيض رخو رزين أحمر المحكّ ، ينصبغ بالزاج وزرنيخها ، مصفح قليل الغبار ، يدخل في التزايين والتزاويق ، ومنه خاصة يعمل أهل أصفهان فصوصاً ، ولا أحمر فيها ، وزيبقها أجلّ من الخراسانيّ وأثقل وأنقى ، وقد اختبرناه فتقرر من الثلثين واحد في كيان الفضة المعدنية ، ولم نجد من ذلك في المشرق . وأما فضتها فإنها تعزّ لعزّ الفحم عندهم .

وهذه المدينة يحيط سورها ببحيرة في وسطها لا يدرك له قرار ، وإنّي أرسيت فيه أربعة عشر ألف ذراع وكسوراً من ألف ، فلم تستقر المثقلة ولا اطمأنت ، واستدارته نحو جريب بالهاشميّ ، ومتى بُلّ ماؤه بتراب صار لوقته حجراً صلداً ، وتخرج منه سبعة أنهار كل واحد منها ينزل على رحىً ثم يخرج تحت السور .

وبها بيت نار عظيم الشأن ، منه تزكي نيران المجوس إلى المشرق والمغرب ، وعلى رأس قبته هلال فضة ، وهو طلسمة ، قد حاول قَلْعَه خلق من الأمراء والمتغلّبين فلم يقدروا على ذلك .

ومن أعاجيب هذا البيت أيضاً أن كانونه يوقد منذ سبعمئة سنة فلا يوجد فيه رماد البتّة ، ولا ينقطع الوقود ساعة من الزمان ، وهذه المدينة بناها هرمز بن خسروشير بن بهرام بحجر وكلس ، وعند هذا البيت إيوانات شاهقة

وأبنية عظيمة هائلة ، ومتى قصد هذه المدينة عدوّ ونصب المنجنيق على سورها فإن حجره يقع في البحيرة التي ذكرناها ، فإن أخّرَ منجنيقه ولو ذراعاً بالمثل سقط الحجر خارج السور .

والخبر في بناء هذه المدينة : أن هرمز ملك الفرس بلغه أن مولوداً ولداً مباركاً يولد في بيت المقدّس في قرية يقال لها بيت لحم ، وأن قربانه يكون ذهباً وزيتاً ولباناً ، فأنفذ بعض ثقاته بمال عظيم وأمره أن يشتري من بيت المقدّس ألف قنطار زيتاً ، وحمل معه لباناً كثيراً وأمره أن يمضي إلى بيت المقدس ، ويسأل عن أمر هذا المولود ، فإذا وقف عليه دفع الهدية إلى أمه ، وبشّرها بما يكون لولدها من الشرف والذكر وفعل الخير ، ويسألها أن تدعو له ولأهل مملكته ، ففعل الرجل ما أمر وصار إلى مريم ، فدفع إليها ما وُجّه به معه ، وعرّفها بركة ولدها ، فلما أراد الانصراف عنها دفعت إليه جراب تراب وقالت له : عرّف صاحبك أن سيكون لهذا التراب بناء ، فأخذه وانصرف ، فلما صار إلى موضع الشيز وهو إذ ذاك صحراء مات ، وقد كان قبل موته حين أحسّ بذلك دفن الجراب هنالك ، واتصل الخبر بالملك ، فتزعم الفرس أنه وجّه رجلاً معه ، وقال له : امْضِ إلى المكان الذي مات فيه صاحبنا ، فابْنِ على الجراب بيت نار ، قال : ومن أين أعرف مكانه ؟ قال : امض فلن يخفى عليك ، فلما وصل إلى الموضع تحيّر وبقي لا يدري أيّ شيء يصنع ، فلما أمسى وأجنّه الليل نظر إلى نور عظيم يرتفع من مكان بالقرب منه ، فعلم أنه الموضع الذي يريده فصار إليه ، وخطّ حول النور خطاً وبات ، فلما أصبح أمر بالبناء على ذلك الخط فهو بيت النار الذي بالشيز .

وخرجت من هذه المدينة إلى مدينة أخرى على أربعة فراسخ تعرف بالران ، فيها معدن ذهب ثقيل أبيض فضّي أحمر المحكّ ، إذا حمل على عشرته واحد من الفضة احمرّ . ووجدت معدن الإسرب بها واستعملت منه مرداً سبخاً ، فخلص لي

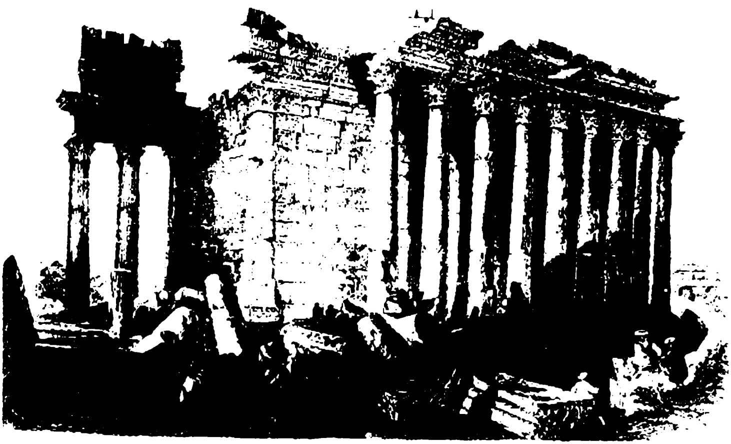
من كل منا دانق ونصف فضّة ، ولم أجد فيما سواه من معادن الرصاص ، ووجدت بها اليبروج كثيراً عظيم الخلقة ، يكون الواحد منه عشرة أذرع ، وأكثره من ذلك ، وفي هذه المدينة نهر من شرب منه أمن من الحصاة ، وبها حشيشة تضحك من تكون معه حتى يخرج به الضحك إلى الرعونة ، وإن سقطت منه أو شيء منها اعتراه حزن لذلك فبكى ، وبها حجارة بيض غير شفافة تقيم الرصاص ، ويقع بها من السحاب دويبة تنفع من داء الثعلب باللطوخ ، وثعالبها قرع الرؤوس بلا شعر البتة .

وسرت منها إلى وادي إسفندوية فوجدت عليه حمّات كثيرة بورقيّة تنفع من الرياح في العصب فقط وبه حمّة تصلح للحفاء .

ووصلت منها إلى معدن زاج أحمر سوري ينبت فيه الذهب الأبيض في الصيف فيحمرّ من داخل حفّه . وخرجت من هنالك إلى الطرم فوجدت بها وبزنجان معادن للزاج شريفة تفوق المصريّ والقبرسيّ والكرمانيّ ، ووجدت بها معادن بوارق وشبوب البياض والحمرة ، ووجدت بها حمّة تصلح للجراحة العتيقة ، فأما الطريّة فلا ، ووجدت بها عيناً تنبع ماء يستحجر إذا ضربه الهواء ، تنفع من ديم الأرحام سيالاً ، ومن دَبَر الحمير جامداً ، ووَجدت بها حجارة بيضاً تقوم مقام الباذزهر .

ووصلت إلى قلعة ملك الديلم المعروفة بسميران ، فرأيت في أبنيتها وأعمال فيها ما لم أشاهده في غيرها من مواطن الملوك ، وذلك أن فيها ألفين وثمانمئة ونيّفاً وخمسين داراً كباراً وصغاراً ، وكان محمد بن مسافر صاحبها إذا نظر إلى سلعة حسناء أو عمل محكم سأل عن صانعه ، فإذا أخبر بمكانه وموضعه أنفذ إليه من المال ما يرغب مثله فيه ، وضمن له أضعاف ذلك إذا صار إليه ، فإذا حصل عنده منع أن يخرج عن القلعة بقية عمره ، وكان يأخذ أولاد رعيته ويسلمهم في الصناعات ، وكان كثير الدخل ، قليل الخرج ، واسع المال ، ذا كنوز عظيمة ، فما زال على

ذلك إلى أن أضمر أولاده مخالفته رحمة منهم لمن عندهم من الناس الذين هم في زيّ الأسارى ، فخرج يوماً لبعض متصيّداته ، فلما عاد غلقوا باب القلعة دونه ، وامتنعوا عليه ، فاعتصم منهم بقلعة أخرى في بعض أعماله وأطلقوا من كان عنده من الصناع وكانوا خمسة آلاف إنسان فكثر الدعاء لهم بذلك ، وأدركت ابنه الأوسط الحميّة والأنفة أن ينسبه أبوه إلى العقوق ، وأنه إنما رغب في الأموال والذخائر والكنوز ، فجمع جمعاً عظيماً من الديلم وخرج إلى أذربيجان ، فكان من أمره ما لا يخفى على القاصي والداني » .



ابن فَضْلاَن

(مطلع القرن الرابع هـ / العاشر الميلادي)

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد ، كان مولى الخليفة العباسي المقتدر والقائد محمد بن سلمان ، الذي أفلح في هزم الدولة الطولونية ، وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م . ولسنا نعرف من سيرة ابن فضلان شيئاً كثيراً . ومن تحليل (رسالته) يظهر لنا أن الرجل كان على ثقافة دينية وأدب رفيع ، وأسلوب جميل ، وورع وخلق وحب لنشر الإسلام وصدق في الحديث ، وعفة في الحال ، ولكننا نرى عنده سذاجة لعلها راجعة إما إلى سنة المتقدمة ، أو إلى حالته الخاصة . أرفده الخليفة المقتدر بسفارة إلى ملك الخزر .

وقد تم إعداد هذه السفارة بناء على طلب بلغار الفولغا الذين أرسلوا وفداً إلى الخليفة المقتدر برأسه (عبد الله بن باشتو الخزري) ويذكر ابن فضلان أن مليكهم (المش بن يلطوار) طلب إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله ، أن يرسل له بعثة من قبله ، تفقهه في الدين وتعرفه شرائع الإسلام ، وتبني له مسجداً ، وتنصب له منبراً تقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته وسأله إلى ذلك أن يبني له حصناً يتحصن به من الملوك المخالفين له . وقد بسط ابن فضلان أمر هؤلاء المخالفين . فقال إنهم ملوك الخزر وهم من اليهود ، كانوا يعتدون على قومه ، ويفرضون عليهم الضرائب يؤدونها عن كل بيت في المملكة جلد سمور ، وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصباً ، والخزري يهودي ، وابنة الصقلبي مسلمة . وقد رأى ابن فضلان أن مملكة الصقالبة واسعة ، وأموالها جمة ، وخراجها كثير فسأل الملك عن سبب استنجاده بخليفة المسلمين فأجاب بأنه يتبرك بأموال المسلمين ويعتز بدولتهم[1] .

وهذا يدل على أن سمعة بغداد كانت في الخارج جيدة بل عظيمة ، يتهافت الملوك والأمراء عليها ليعقدوا معها أجمل الصلات وأوثق المحالفات حتى إن (الصقالبة) وهم من سكان الشمال في أوروبا ، على أطراف نهر الفولغا (نهر إتل عند العرب) ، وعاصمتهم على مقربة من قازان اليوم ، والتي لا يزال بعض أطلالها قائماً وعلى نحو ستة كيلومترات من شاطئ الفولغا الأيسر ، وحيث الدرجة خمس وخمسون

---

(١) رسالة ابن فضلان : تحقيق الدكتور سامي الدهان . مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٠ .

من العرض الشمالي وست وستون من الطول الشرقي خطبوا ودها وتقربوا إليها . ونحن وإن كنا لا نعرف على وجه الدقة متى اعتنق البلغار الإسلام ، فإن ابن رستة الذي ألف كتابه (الأعلاق النفيسة) حوالي عام ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م ذكر فيه أن (أكثرهم ينتحلون دين الإسلام ، وفي محالهم مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وأئمة ... وملابسهم شبيهة بملابس المسلمين ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين » .

وقد أرسلت لهم سفارة برئاسة سوسن الرسي ، وأصله رقيق من بلاد الروس وتعلم العربية وحسن إسلامه ، وكان مولى نذير الحرمي ، وتكين التركي الذي يجيد لغة الأتراك التي يمر ببلادها الوفد في طريقه إلى الفولغا ، وبارس الصقلابي الذي تدل كنيته على أصله ، وأحمد بن فضلان كفقيه ذي خبرة ، ومعهم دليل هو رسول الصقالبة (عبد الله باشتو الخزري) الذي مر ذكره .

وعلى الرغم من افتقارنا للمعلومات عن ابن فضلان إلا أنه يحاول دائماً في (الرسالة) أن ينسب إلى نفسه الدور الرئيسي .

وقد خرجت السفارة من بغداد يوم الخميس ١١ صفر ٣٠٩ هـ / ٢١ حزيران ٩٢١ م ووصلت إلى بلغار في ١٨ محرم عام ٣١٠ هـ / ١٢ أيار ٩٢٢ ، وظل الوفد يصعد شرقاً وشمالاً ماراً بإقليم الجبال ، فهمذان ، فالري ، قرب طهران اليوم ، ونيسابور ومرو ، وساروا مع نهر جيحون (آموداريا) فبلغوا بخارى حيث التقى ابن فضلان في أيلول من عام ٩٢١ بوزير السامانيين والعالم الجغرافي الشهير بالجيهاني . ثم تابعت البعثة طريقها إلى خوارزم عند بحر آرال وعبرت هضبة أوست أورت ثم نهر يايق (إيميا) فوصلت إلى حوض الفولغا . واستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً في الذهاب ، لاقى الوفد خلالها مصاعب جمة وأهوالاً مذهلة ، وصفها ابن فضلان وصفاً جميلاً بارعاً يضعه في الصف الأول من الرحالة الأدباء .

أما تاريخ وخط سير العودة فلا نكاد نعرف عنه شيئاً ، إذ إن (خاتمة) الرسالة قد امتدت إليها يد الضياع مثلما نجهل سيرة بقية حياة رحالتنا .

وتعتبر هذه الرسالة أثراً طريفاً بالنسبة لعصره ، إذ يقدم لنا صورة حية للظروف السياسية في العالم الإسلامي والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المجاورة لها في أواسط آسيا أو الأصقاع البعيدة التي كانت تمثل أطراف العالم المتمدن في ذلك العصر مثل حوض الفولغا . وتحفل الرسالة بمادة أثنوغرافية جزيلة الفائدة ومتنوعة بصورة فريدة ، إذ تهتم بعدد القبائل التركية البدوية الضاربة في فيافي آسيا الوسطى ، وعددٍ من الشعوب التي كانت تلعب آنذاك دوراً أساسياً في تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر ، كما لا يمكن إنكار قيمتها الأدبية وأسلوبها القصصي السلس ، ولغتها الحية المصورة ،

والمزوقة بين حين واخر بدعابات ، ربما كان المؤلف لا يتعمدها[٢] . وقد اكتشف أول نسخة خطية من رسالة ابن فضلان في مدينة مشهد عام ١٩٢٤ ، ولكن المستشرق الروسي فراهن سبق أن ترجم مقتطفاتها من ياقوت عام ١٨٢٣ . كما ترجمها العالم التركي زكي وليدي طوغان إلى الألمانية ونشرها في الأصل العربي ، وأرفقها بدراسات وتعليقات مهمة . وأفضل طبعة للرسالة تمت على يد أستاذنا المرحوم الدكتور سامي الدهان .

النص الأول

يحدثنا ابن فضلان في هذه النبذة من (رسالته) عن قساوة الطقس الذي لاقاه أثناء اجتيازه بلاد التركستان في فصل الشتاء ، ولا عجب فالمناخ الآرالي من أقسى المناخات القارية .

« فأقمنا (بالجُرْجانيّة) أياماً ، وجمد (نهر جيحون) من أوله إلى آخره وكان سمك الجمد سبعة عشر شبراً[٣] وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق . وهو ثابت لا يتخلخل . فأقام على ذلك ثلاثة أشهر .

فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن باباً من الزمهرير قد فُتح علينا منه ، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة[٤] . وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه ، وأراد بره قال له : « تعال إلي حتى نتحدث فإن عندي ناراً طيبة » هذا إذا بالغ في برّه وصلته . إلا أن الله تعالى قد لطف بهم في الحطب وأرخصه عليهم: حمل عجلة من حطب الطاغ[٥] بدرهمين من دراهمهم تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل .

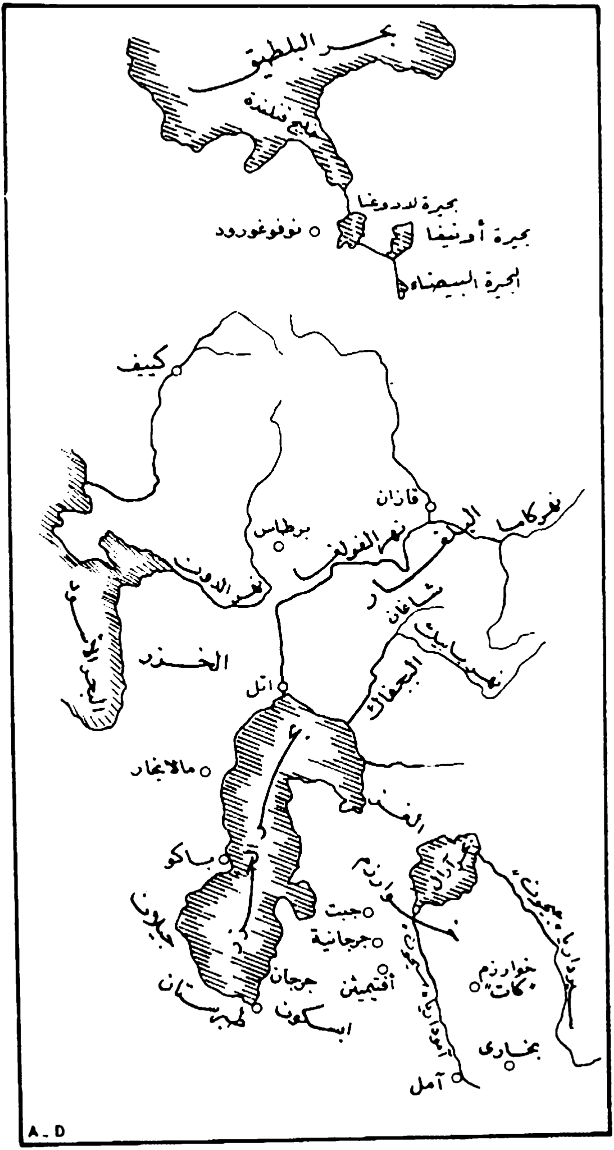
---

(٢) أغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم . لينينغراد ١٩٥٧ ، القاهرة ١٩٦١ .

(٣) وصف ياقوت نهر جيحون وذكر تجمده فقال : حتى يصير ثخنه نحو خمسة أشبار . » وهذا كذب منه فإن أكثر ما يجمد خمسة أشبار ، وهذا يكون نادراً ، فأما العادة فهو شبران أو ثلاثة . شاهدته وسألت عنه أهل تلك البلاد » . وهكذا يرمي ياقوت ابن فضلان بالكذب . وربما كان برد ذلك العام شديداً أكثر من المألوف .

(٤) ويعلق ياقوت على هذا الكلام كذلك فيقول : « وهذا كذب أيضاً ، فإنه لولا ركود الهواء في الشتاء في بلادهم لما عاش فيها أحد » .

(٥) الطاغ هو الغضا ، وهي تركية معرّبة .



مخطط المناطق التي ورد ذكرها في رحلة ابن فضلان كما رسمها ماريوس كانار في الترجمة « من بخاري الى بلغار » « عن الدكتور سامي الدهان »

ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب ، بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعة عند ناره يصطلي ، ثم يقول « بكند » يعني الخبز . فإن أعطوه شيئاً أخذ وإلا خرج .

وتطاول مقامنا (بالجرجانية) ، وذلك أنا أقمنا بها أياماً من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال ، وكان طول مقامنا من جهة[٦] البرد وشدته . ولقد بلغني أن رجلين ساقا اثني عشر جملاً ، ليحملا عليها حطباً من بعض الغياض ، فنسيا أن يأخذا معهما قدّاحة وحراقة[٧] وأنهما باتا بغير نار ، فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد .

ولقد رأيت ، لهواء بردها ، بأن السوق بها والشوارع ، لتخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق ، فلا يجد أحداً ولا يستقبله إنسان . ولقد كنت أخرج من الحمّام ، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار .

وقد كنت أنام في بيت جوف[٨] بيت ، وفيه قبة لبود[٩] تركية وأنا مدثر بالأكسية والفرى ، فربما التصق خدي على المخدة .

ولقد رأيت الجباب بها تكسى البوستينات[١٠] من جلود الغنم لئلا تتشقق وتنكسر فلا يغني ذلك شيئاً .

---

(٦) بسبب .

(٧) القداحة : حجر القدح والزناد من الحديد . الحراقة . خرقة أو نبج أو نحوهما ، والنبج أصول البردي إذا جف .

(٨) الجوف من البيت وغيره . داخله . جمعه أجواف .

(٩) اللبد : كل شعر أو صوف متلبد . جمعه ألباد ولبود .

(١٠) مفردها بوست أو بوستين ، وهي من الجلد الغليظ ، كالعباءة أو المعطف الكبير ولا تزال تسمى في منطقة حلب بوشت .

ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد ، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك .

فلما انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمئة ، أخذ الزمان في التغير ، وانحل نهر جيحون وأخذنا نحن فيما نحتاج إليه من آلة السفر واشترينا الجمال التركية ، واستعملنا السُفَرَ[١١] من جلود الجمال لعبور الأنهار التي نحتاج أن نعبرها في بلد الترك ، وتزودنا بالخبز والجاورس[١٢] والنمسكوذ[١٣] لثلاثة أشهر .

وأمرنا من كنا نأنس به من أهل البلد بالاستظهار[١٤] في الثياب والاستكثار منها . وهولوا علينا الأمر وعظموا القصة . فلما شاهدنا ذلك كان أضعاف ما وصف لنا . فكان كل رجل منا عليه قُرْطَق[١٥] وفوقه خِفْتَان[١٦] وفوقه بوستين ، وفوقه لبادة وبرنس ، لا تبدو منه إلا عيناه وسراويل طاق[١٧] ، وآخر مبطّن ، وران[١٨] وخف كيمخْت[١٩] وفوق الخف خف آخر . فكان الواحد منا ، إذا ركب الجمل لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب .

وتأخر عنا الفقيه والمعلم والغلمان[٢٠] الذين خرجوا معنا من مدينة السلام فزعاً من الدخول إلى ذلك البلد ، وسرت أنا والرسول وسلف له ، والغلامان تكين وبارس .

---

(١١) السفر : جمع سفرة ، وهي المراكب أو السفينة .

(١٢) الجاورس حب معروف يؤكل مثل الدخن ، معرب كاورس ، وهو ثلاثة أصناف أجودها الأصفر ، وهو يشبه الأرز .

(١٣) النمسكوذ : بفتح النون والميم وسكون الكاف : لحم مجفف من غير تقديد .

(١٤) استظهر الرجل : احتاط .

(١٥) قرطق : قميص أو معطف قصير يصل إلى منتصف الجسم .

(١٦) أو القفطان : أي المعطف الثقيل .

(١٧) الطاق : ضرب من الثياب بغير جيب ، يلبسه المولود غالباً .

(١٨) نوع من الأحذية جمعه رانات .

(١٩) نوع من الجلد ولعله جلد الخيل .

(٢٠) يظهر أن هؤلاء من أتباع البعثة .

النص الثاني

خصائص وعجائب بلاد البلغار

ستمكننا قراءة هذا النص من « رسالة » ابن فضلان من معرفة مدى اختلاط العجائب مع الحقائق فيها .

« فلما كنا من ملك الصقالبه ، وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة ، وجّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذي تحت يده وإخوته وأولاده فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجوارش[٢١] وساروا معنا .

فلما صرنا منه على فرسخين تلقّانا هو بنفسه ، فلما رآنا نزل فخر ساجداً لله ـ عزّ وجل ـ وكان في كمه دراهم فنثرها علينا ، ونصب لنا قباباً فنزلناها .

وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمئة . فكانت المسافة من الجرجانية[٢٢] إلى بلده سبعين يوماً . فأقمنا يوم الأحد والاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء في القباب التي ضربت لنا حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة الكتاب[٢٣] .

فلما كان يوم الخميس واجتمعوا نشرنا المِطْرَدَيْن[٢٤] اللذين كانا معنا ، وأسرجنا الدابة بالسرج الموجَّه إليه وألبسناه السواد[٢٥] وعممناه . وأخرجت كتاب الخليفة .

---

(٢١) الجوارش : الخضار .

(٢٢) مدينة في خوارزم .

(٢٣) أي كتاب اعتماد الخليفة المقتدر في إرسال الوفد .

(٢٤) المطرد : وهو الراية واللواء ويقول الجوهري « والألوية المطارد ، وهي دون الأعلام والبنود ، مثل الراية » .

(٢٥) من المعلوم أن السواد هو شعار العباسيين .

وقلت له : « لا يجوز أن نجلس والكتاب يُقرأ » فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته ، وهو رجل بدين بطين[٢٦] جداً .

وبدأت فقرأت صدر الكتاب . فلما بلغت منه : « سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو » . قلت : « رد على أمير المؤمنين السلام » فردَّ ، وردوا جميعاً بأسرهم ، ولم يزل الترجمان يترجم لنا حرفاً حرفاً . فلما استتممنا قراءته كبروا تكبيرة ارتجت لها الأرض ...

فلما كان بعد ساعة وجه إلينا ، فدخلنا إليه ، وهو في قبته ، والملوك عن يمينه . وأمرنا أن نجلس عن يساره ، وإذا أولاده جلوس بين يديه ، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي ، فدعا بالمائدة فقدمت ، وعليها اللحم المشوي وحده .

فابتدأ هو فأخذ سكيناً وقطع لقمة وأكلها ، وثانية ، وثالثة ، ثم احتز قطعة دفعها إلى (سوسن) الرسول ، فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه . وكذلك الرسم[٢٧] ، لا يمد أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة ، فساعة يتناولها قد جاءته مائدة . ثم ناولني فجاءتني مائدة ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة ، ثم ناول أولاده فجاءتهم الموائد .

وأكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها أحد ، ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً ، فإذا فرغ من الطعام ، حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله ...

ورأيت في بلده من العجائب ما لا يحصى كثرة ؛ منها : إن فيه رجلاً عظيم الخلقة جداً فسألت الملك عنه فقال : نعم . قد كان في بلادنا ومات . ولم يكن من

(٢٦) العظيم البطن .

(٢٧) العادة .

أهل البلاد ، ولا من الناس أيضاً ، وكان من خبره أن قوماً من التجار خرجوا إلى نهر إثل ، وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد ، كانوا يخرجون إليه وقد مد وطفى ماؤه . فلم أشعر إلا وقد وافاني جماعة فقالوا : أيها الملك قد طفا على الماء رجل إن كان من أمة تقرب منا فلا مقام لنا في هذه الديار وليس لنا إلا التحويل . فركبت معهم حتى سرت على النهر فوقفت عليه وإذا برجل طوله ثلاث عشرة ذراعاً بذراعي ، وإذا رأسه كأكبر ما يكون من القدور ، وأنفه أكبر من شبر ، وعيناه عظيمتان ، وأصابعه كل واحدة شبر ، فراعني أمره ، ودخلني ما دخل القوم من الفزع ، فأقبلنا نكلمه ، وهو لا يتكلم ولا يزيد على النظر إلينا . فحملته إلى مكاني وكتبت إلى إهل ويسو وهم منا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه فعرفوني أن هذا الرجل من يأجوج ومأجوج[٢٨] ، وهم منا[٢٩] على ثلاثة أشهر ، يحول بيننا وبينهم البحر ، وأنهم كالبهائم الهاملة ، عراة حفاة ، يُخْرِجُ الله تعالى لهم كل يوم سمكة من البحر ، فيجيء الواحد بمدية فيحتز منها بقدر كفايته وكفاية أهله ، فإن أخذ فوق ذلك اشتكى بطنه هو وعياله ، وربما مات وماتوا بأسرهم ، فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبت السمكة وعادت إلى البحر ، وقام الرجل عندي مدة ، ثم علقت به علة في نحره فمات بها .

ومن ذلك أن أول ليلة بتناها في بلده ، رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية[٣٠] أفق السماء ، وقد احمر احمراراً شديداً ، وسمعت في الجو أصواتاً شديدة وهمهمة عالية ، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني ، وإذا تلك الهمهمة والأصوات منه ، وإذا فيه أمثال الناس والدواب ، وإذا في أيدي الأشباح التي فيه ، تشبه الناس ، رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها ، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضاً رجالاً ودواب وسلاحاً ، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما

(٢٨) للاستزادة عن أقوام يأجوج ومأجوج ارجع إلى القرآن الكريم سورة الكهف ١٨ آية ٩٣ وما يليها .

(٢٩) أي قوم ويسو .

(٣٠) لعل الساعة القياسية هي الساعة تماماً .

تحمل الكتيبة على الكتيبة . ففزعنا من ذلك وأقبلنا على التضرع والدعاء وأهل البلد يضحكون منا ويتعجبون من فعلنا . وكنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعاً ساعة ثم تفترقان . فما زال الأمر كذلك ساعة من الليل ثم غابتا . فسألنا الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون : إن هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم ، وهم يقتتلون في كل عشية ، وإنهم ما عدموا هذا مذ كانوا في كل ليلة .

النص الثالث
الكلام عن عادات الخزر

« فأما ملك الخزر ، واسمه خاقان ، فإنه لا يظهر إلا في كل أربعة أشهر متنزهاً ، ويقال له خاقان الكبير ، ويقال لخليفته خاقان به ، وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها ويدبر أمر المملكة ويقوم بها ويظهر ويغزو . وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه[٣١] . ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكبر متواضعاً يظهر الإخبات والسكينة ولا يدخل عليه إلا حافياً وبيده حطب ، فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب ، فإذا فرغ من الوقود ، جلس مع الملك على سريره عن يمينه . ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان ، ويخلف هذا أيضاً رجل يقال له جاوشيغر .

ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ، ولا يكلمهم ، ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا . والولايات في الحل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به .

---

(٣١) صاقب : قارب ودنا .

ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتاً ، ويحفر له في كل بيت منها قبر ، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل ، وتفرش فيه ، وتطرح النورة[٣٢] فوق ذلك . وتحت الدار نهر ، والنهر الكبير يجري ، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر ، ويقولون : « حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام » .

وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدري أين قبره من تلك البيوت ، ويسمى قبره الجنة ويقولون : « قد دخل الجنة » وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب .

ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة ، كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه ، يأخذها طوعاً أو كرهاً ، وله من الجواري والسراري لفراشه ستون ، ما منهن إلا فائقة الجمال . وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد ، لها قبة مغشاة بالساج[٣٣] وحول كل قبة مضرب ، ولكل واحدة منهن خادم يحجبها . فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه . ويقف الخادم على باب قبة الملك ، فإذا وَطِئَها أخذ بيدها وانصرف ، ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة .

وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه ، ويكون بينه وبين المواكب ميل ، فلا يراه أحد من رعيته إلا خرَّ لوجهه ساجداً له لا يرفع رأسه حتى يجوزه .

---

(٣٢) النورة : حجر الكلس ، وقيل إنها عربية وقيل إنها معربة .

(٣٣) الساج : شجر يعظم جداً ، لا ينبت إلا ببلاد الهند ، وخشبه أسود رزين لا تكاد الأرض تبليه . جمعه سيجان ، الواحدة ساجة .

ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرعية وخاصته وقالوا : « هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه » .

وإذا بعث سرية لم تول الدبر[٣٤] بوجه ولا سبب . فإذا انهزمت قُتل كل من ينصرف إليه منها .

فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون . وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم ، وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم ، وربما علقهم بأعناقهم في الشجر ، وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة[٣٥] .

وللملك الخزر مدينة عظيمة على نهر إثل (الفولغا) ، وهي جانبان[٣٦] ، في أحد الجانبين المسلمون . وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه ، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خز ، وهو مسلم . وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره .

---

(٣٤) من القرآن الكريم : ﴿ .. ويولون الدبر .. ﴾ أي ينهزمون .

(٣٥) أي يقومون على خدمة الخيل .

(٣٦) ربما كانت مكان إستراخان الحالية .

المَقْدِسِيّ

(ولد عام ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م ـ ٣٩٠ هـ ؟ / ١٠٠٠ م ؟)

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، المعروف بالبنّاء ، وبالبشاري ، وبالشامي ، وبالمقدسي أو المقدّسي . ولد في عام ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ ـ ٩٤٧ م في بيت المقدس . وكان حفيداً لبنّاء اشتهر ببنائه لميناء عكا في عهد أحمد بن طولون . تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، وعرف شيئاً من النحو وعلوم اللغة . ولما صَلُبَ عوده ارتحل إلى العراق وهناك تفقه على مذهب أبي حنيفة وخالط الفقهاء والعلماء والمتكلمين ، ولزم دور الكتب وتصانيف العلماء . ونستشف من خلال مطالعة كتابه ميوله المعمارية التي ربما ورثها عن جده . أما أسرة أمه فتنتمي إلى قرية بير من أعمال قومس على مقربة من حدود خراسان ، وقد مهدت له وشائج النسب والقربى وحدها التعرف على نصف رقعة العالم الإسلامي . ومن المؤكد أن ولعه بالأسفار دفعه إلى التجوال في كل أنحاء الأقطار الإسلامية تقريباً ، متعرّفاً على الناس ، باحثاً عن عقائدهم ، دون أن يتردد في مقاسمتهم أنماط معيشتهم ، مستقصياً ما في المكتبات ، مثلما كان يستجوب ويستفسر من العلماء الذين كانت المصادفة تجمعه بهم . ويبدو أنه لم يبدأ في كتابة مؤلّفه الجغرافي الضخم والمعنون « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » إلا في عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، أي بعد أن بلغ الأربعين من عمره ، والذي أنجزه في بحر ثلاثة أعوام . وإذا كنا لا نعرف التاريخ الذي وافته المنية فيه فمن الراجح أنه لاقى وجه ربه في أواخر القرن الرابع هجري أي بحدود عام ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م .

ويبدو لنا أن رحلاته لم تصل إلى الأندلس وربما سجستان أيضاً ، وإن كان يعتقد الكثير من الباحثين أنه زار صقلية ، ويعترف هو نفسه ، بأن معلوماته التي أوردها عن الأندلس إنما استقاها من حاجين التقى بهما في مكة عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م . والمرجح أن المقدسي كان يعمد في رحلاته إلى التنكر ، وتغيير اسمه ، والدخول في الطوائف المختلفة كي تسنح له الفرصة دراسة بيئاتها والوقوف على عاداتها وأحوالها . وهو في رحلاته ومشاهداته دقيق الملاحظة ، باحث ، ناقد ، يتحرى ما ينقل ، ويعنى بالأخبار الطريفة والعادات الغريبة . ويعد كتابه أفضل ما خط في الجغرافية العامة ، لأنه عول في كثير مما كتبه على اختباراته الشخصية ومشاهداته العيانية ، مثل لزوم المكتبات لتحقيق ما سمع .

ويبدأ كتابه ، الذي لم يتعرض لبحث الأقطار غير الإسلامية ، بمدخل طويل نوعاً ما ،

ومكثّف عن الجغرافية الطبيعية عموماً ، وعن أبحاث الذين سبقوه ، والتقسيمات التي اعتمدوها . والاصطلاحات والتسميات الدارجة . ثم يعالج في القسم الأول من الأقاليم العربية مثل جزيرة العرب ، والعراق ، والجزيرة العليا ، وبلاد الشام ، ومصر والمغرب ، ويصف في القسم الثاني الأقاليم الفارسية والأقطار الإسلامية الشرقية مثل : بلاد ما وراء النهر ، خراسان ، الديلم ، القوقاز ، فارس الشمالية ، خوزستان ، فارستان ، كرمان والبنجاب .

وقد خصّ كل إقليم بفصل خاص وذلك ضمن إطار مخطط متماثل يبدأ بعموميات عن المنطقة ، ثم بوصف المدن والنواحي التي تتبعها ، ويقدم معلومات عن العقائد الدينية والأخلاق إلخ ..

ويعتبره إشبر نجر : « أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة » فيقول : « ولا أعني بذلك أن كتابه في الجغرافية يفوق المؤلفات الحديثة في هذا الفن ، إذ يعوزه من أجل ذلك تجربة الأجيال التالية . ولكن من المحتمل أنه لم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التي جمعها لصياغة منظمة » . ويرى فيه كرامرس : « أكثر الجغرافيين أصالة » .

ويرى بلاشير : « أن كتاب المقدسي أساسي لمعرفة العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . إذ لم يقتصر المؤلف فيه ، بالواقع ، على ذكر المعطيات الأساسية التي وصلته من سابقيه ، بل أضاف إليها نتائج ملاحظاته وتجاربه الشخصية . ونظراً لما كان يتمتع به المقدسي من حب استطلاع يقظ دوماً ، ومن روح تسامح فريدة تماماً ، وبقدرة على الفهم نادرة ، فقد نتج عن كل هذه المزايا المذكورة أن أصبح كتابه وصفاً بديعاً للعالم كما رآه في تعقيده الحي » .

هذا وقد فهم الجغرافية على الطريقة الحديثة واستخدمها كأداة للتثقيف العام فيقول : « وأرى أن هذا العالم من الأهمية بمكان للرحالة والتجار » .

ورسم المقدسي خرائط مستقلة لكل قسم من الأقسام الأربعة التي قسم إليها العالم الإسلامي ، واستخدم في تلك المصورات طرقاً لتمثيل الظاهرات الجغرافية المختلفة ، حتى يمكن للجميع أن يفهمها فهماً صحيحاً فرسم : « الطرق المعروفة بالحمرة ، والرمال الذهبية بالصفرة ، والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة » .

وقد نشر كتابه المستشرق دي خويه عام ١٩٠٦ وطبع في ليدن .

النص الأول

يحدثنا المقدسي في أحد فصول مقدمته عن منهجه في التأليف ، مما يدفعنا للاعتراف له بأنه قد أظهر في هذا الصدد الكثير من التمحيص والتدقيق في المنهج :

« اعلم أنني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة ، وأسندته بدعائم قوية ، وتحرّيت جهدي الصواب ، واستعنت بفهم أولي الألباب ، وسألت الله عز اسمه أن يجنبني الخطأ والزلل ، ويبلغني الرجاء والأمل فأعلي قواعده وأرصف بنيانه ، ما شاهدته وعقلته وعرفته وعلقته ، وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان ، ومن قواعده أيضاً وأركانه وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوي العقول من الناس . ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس ، عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدتُ عنها ولم يقتدر لي الوصول إليها فما وقع عليه اتفاقهم أثبتّه وما اختلفوا فيه نبذته ، وما لم يكن له بد من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته ، وما لم يقرَّ في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره أو قلت : « زعموا » ووشحته بفصول وجدتها في خزائن الملوك » .

ويكاد المقدسي يزعج القارئ بإسرافه في وصف مزايا كتابه على ما سواه ، وذكر ما عانى في سبيل تأليفه كما يذكر ذلك في الفصل النفرد للمغرب :

« فإن قال قائل : إنك تركت كثيراً من العجائب في هذا الإقليم لم تذكرها قيل له : إنما تركنا ما ذكره مَنْ قَبْلَنا في تصانيفهم ، ومن مفاخر كتابنا الإعراض عما ذكره غيرنا ، وأَوْحَشُ شيء في كتبهم ضد ما ذكرنا ، ألا ترى أنك إذا نظرت إلى كتاب الجيهاني وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبة وبناه عليه ؟ وإذا نظرت في كتاب ابن الفقيه فكأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ والزيج الأعظم ، وإذا نظرت في كتابنا وجدته نسيج وحده ، يتيماً في نظمه ، ولو

وجدنا رخصة في ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ، ولكن لما بلّغنا الله تعالى أقاصي الإسلام ، وأرانا أسبابه ، وألهمنا قسمته ، وجب أن ننهي ذلك إلى كافة المسلمين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ﴾[1] ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا ﴾[2] . وفي ذلك عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر » .

هذا وعلى الرغم من تملك المقدسي لناصية اللغة نجده يلجأ إلى الصنعة المرهقة ، فيفسح المجال للسجع ، لأنه كان يميل بعض الشيء إلى غريب اللغة . فيقول في خاتمة أحد الفصول :

« وسنتكلم في كل إقليم بلسانهم ، ونناظر على طريقتهم ، ونضرب من أمثالهم ، لتعرف لغتهم ورسوم فقهائهم ، فإن كنا في غير الأقاليم مثل هذه الأبواب تكلمنا بلغة الشام ، لأنها إقليمي الذي نشأت به . ألا ترى إلى بلاغنا في إقليم المشرق لأنهم أصح الناس عربية لأنهم تكلفوها تكلفاً وتعلموها تلقفاً ، ثم إلى ركاكة كلامنا في مصر والمغرب وقبحه في ناحية البطائح لأنه لسان القوم » .

النص الثاني
المقدسي وسابقيه

يبتدئ كتاب (أحسن التقاسيم) بمقدمة طويلة تشتمل على معلومات عامة تتعلق بالبحار . والأنهار الكبرى ، وعلم التسميات toponymie ، وخصائص مناطق الأرض المختلفة إلخ .. وإليكم رأيه الخاص ، في هذه المقدمة ، بمن سبقه من الجغرافيين :

« وكلٌ من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها ، ولا طلب

---

(١) الآية في مواضع عدة من القرآن الكريم فهي في : الأنعام ٦ / ١١ والنمل ٢٧ / ٦٩ والعنكبوت ٢٩ / ٢٠ والروم ٣٠ / ٤٢ .

(٢) الآية في مواضع عدة من القرآن الكريم فهي في : يوسف ١٢ / ١٠٩ والحج ٢٢ / ٤٦ والمؤمن ٤٠ / ٨٢ ومحمد ٤٧ / ١٠ .

الفوائد التي أردتُها ، أما عبد الله الجَيْهاني[٣] فإنه كان وزير أمير خراسان ، وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة ، فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودَخلَها ، وكيف المسالك إليها ، وارتفاع الخُنَّس منها ، وقيامُ الظلّ فيها ، ليتوصَّل بذلك إلى فُتوح البلدان ، ويعرف دَخلَها ، ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك . ألا ترى كيف جعل العالم سبعة أقاليم وجعل لكل إقليم كوكباً ، مرَّةً يذكر النجوم والهندسة ، وكرَّة يورد ما ليس للعوام فيه فائدة ، وتارة ينْعت أصنام الهند ، وطوراً يصف عجائب السند ، وحيناً يفصّل الخراجَ والرّدّ[٤] ، ورأيته ذكر منازل مجهولة ومراحل مهجورة ، ولم يُفصّل الكُوَرَ[٥] ، ولا رتَّب الأجناد[٦] ، ولا وصف المدن ، ولا استوعب ذكرها ، بل ذكر الطرق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مع شرح ما فيها من السهول والجبال والأودية والتلال والمشاجر والأنهار ، وبذلك طال كتابُه وغفل عن أكثر طرق الأجناد ووصف المدائن الجياد . وأما أبو زيد البلخي فإنه قصد بكتابه الأمثلة وصورة الأرض بعد ما قَسَمَها على عشرين جزءاً ، ثم شرح كل مثال واختصر ، ولم يذكر الأسباب المفيدة ، ولا أوضح الأمور النافعة في التفصيل والترتيب ، وترك كثيراً من أمهات المدن فلم يذكرها ، وما دوَّخ البلدان ولا وطئ الأعمال[٧] . ألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته ليستعين به فلما بلغ جيحون[٨] كتب إليه : إن كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأيي فإن رأيي يمنعني من عبور هذا النهر . فلما قرأ كتابه أمره بالخروج[٩] إلى بلخ ؟!

---

(٣) وزير الأسرة السامانية في خراسان ، ومؤلف كتاب جغرافي كتبه بين عام ٨٩٢ م و٩٠٧ م . ولا زال كتابه مفقوداً .

(٤) مجمل الضريبة ، مردودها .

(٥) كورة : ناحية ، وكانت هذه الكلمة تعني بالبدء تقسيماً إدارياً ثانوياً كان يستعمل لتوزيع الضريبة ويستعملها المقدسي كناية عن جزء إداري من إقليم .

(٦) الجند : منطقة عسكرية .

(٧) أي أنه لم يقم برحلات وجولات .

(٨) نهر آموداريا في التركستان .

(٩) بالرجوع .

أمّا ابن الفقيه الهمذاني فإنه سلك طريقة أخرى ، ولم يذكر إلا المدائن العظمى ، ولم يرتب الكور والأجناد ، وأدخل في كتابه ما يليق بـه من المعلوم . مرة يزهـد في الدنيـا ، وتـارة يرغب فيهـا ، ودفعـة يُبكي ، وحينـاً يُضحـك ويلهي . وأمـا الجـاحـظ[١٠] وابن خرداذبـة فـإن كتـابيهما مختصران جـداً ، لا يحصـل منهما كثير فائـدة ، فهـذا مـا وقع إلينـا من المصنفـات في هـدا البـاب بعـد البحث والطلب وتقليب الخزائن والكتب » .

النص الثالث

ويرى المقدسي أن اختلاف كتابه عن مؤلفات سابقيه إنما يعود لرحلاته التي قام بها[١١] .

ذكر ما عاينت من الأسباب

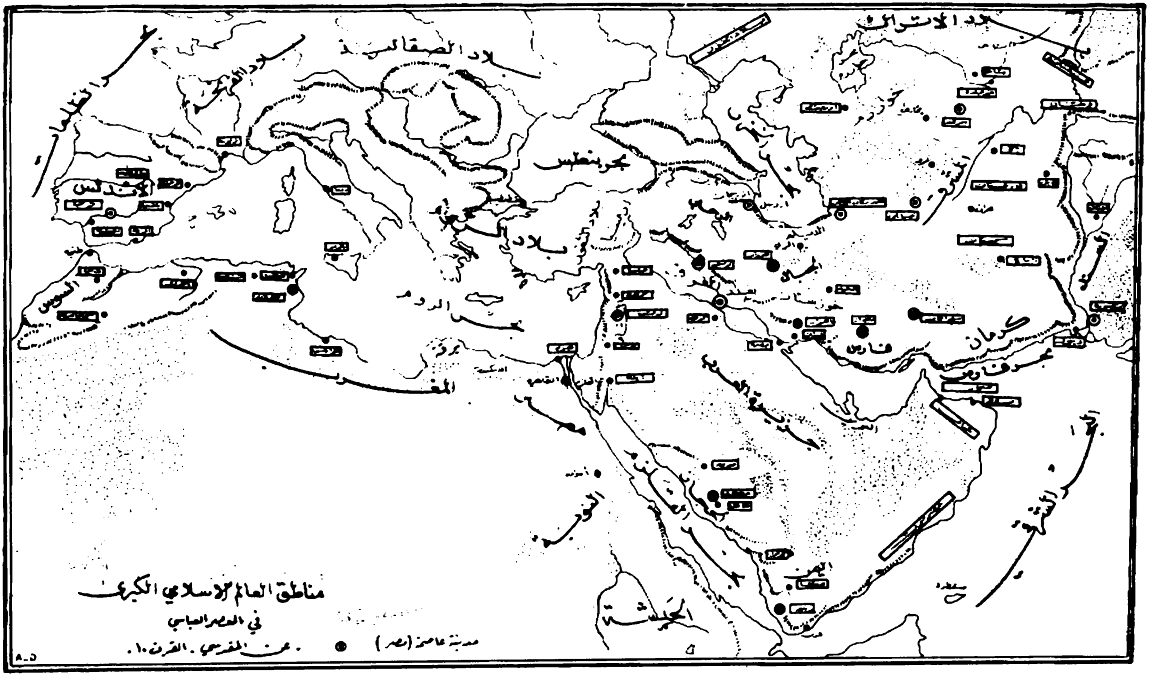
« اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قـد صنّفوا في هـذا البـاب ، وإن كانت مختلّـة ، غير أن أكثرهـا بـل كلُّهـا سماعٌ لهم ، ونحن فلم يبـق إقليم إلا وقـد دخلنـاه ، وأقل سبب إلا وقـد عرفنـاه ، ومـا تركنـا مع ذلـك البحث والنظر في الغيب ، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام : أحدها ما عاينّاه ، والثاني : ما سمعنـاه من الثّقاتِ ، والثالث : ما وجدناه في الكتب المصنّفـة في هـذا البـاب وفي غيره ، وما بقيت خزانةُ ملكٍ إلا وقد لزمتها ، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفّحتهـا ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا وقد خـالطتهم ، ولا مـذكّرو بلـدٍ إلا وقد شهدتهم[١٢] حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب .

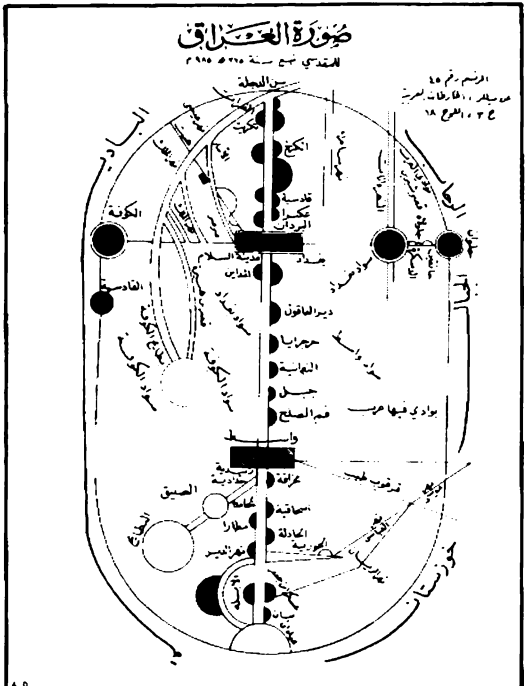
---

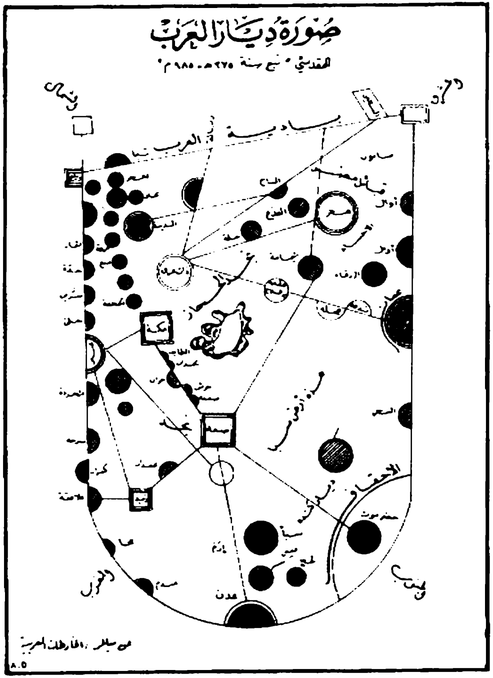
(١٠) أبو بحر الجاحظ عالم بصري شهير توفي عام ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م وله مؤلف يضم نبـذات جغرافيـة عنوانـه : كتـاب الأمصار .

(١١) هذا النص يشابه نوعاً ما نص اليعقوبي .

(١٢) شاهدتهم .


مناطق العالم الإسلامي الكبرى
في العصر العباسي
عن المقدسي . القرن ١٠ .
مدينة عاصمة (مصر)
بحر الظلمات
الأندلس
بلاد الصقالبة
بحر بنطس
بلاد الروم
بحر الروم
المغرب
برقة
مصر
النوبة
الحبشة
اليمن
فارس
كرمان
خوزستان
بحر فارس
بلاد الأتراك
سقطرة
٥ - ٨


صورة العراق
للمقدسي نحو سنة ٣٧٥هـ ٩٨٥م
الرسم رقم ٤٥
عن ميلر، الخارطات العربية
ج ٣، اللوح ١٨
البادية
خوزستان
الكوفة
القادسية
بغداد
مدينة السلام
ديرالعاقون
جرجرايا
النهاية
جبل
فم الصلح
بوادي فيها عرب
واسط
الصيق
الحادلة
نهر التير
قادسية
عكبرا
البردان
سواد الكوفة


صورة ديار العرب
المقدسي نحو سنة ٣٧٥هـ ٩٨٥م
بادية العرب
مكة
صنعاء
عدن
حضرموت
الأحقاف
عن ميلر، الخارطات العربية

ولقد سُمّيتُ بستة وثلاثين اسماً دعيتُ وخوطبت بها مثل : مقدّسي وفلسطيني ، ومصري ، ومغربي ، وخُراساني وسلمي ، ومقرئي ، وفقيه وصوفي وولِيّ وعابد وزاهد وسيّاح وورّاق ومجلّد وتاجر ومذكّر[١٣] وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقي وبغدادي وشامي وحنيفي ومتؤدب وكرّي ومتفقه ومتعلّم وفرائضي وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول وغير ذلك لاختلاف البلدان التي حَلَلْتُها ، وكثرة المواضع التي دخلتها . ثم إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكُدْية وركوب الكبيرة ، فقد تفقهت وتأدبت . وتزهدت وتعبدت ، وفقّهت وأدبت ، وخطبت على المنابر ، وأذنت على المنائر ، وأمَمْتُ في المساجد وذكّرت في الجوامع ، واختلفت إلى المدارس ، ودعوت في المحافل ، وتكلمتُ في المجالس ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين[١٤] الثرائد ، ومع النواتي[١٤] العصائد ، وطردت في الليالي من المساجد ، وسحت في البراري ، وتهت في الصحاري ، وصدقت في الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ، وصحبت عُبّاد جبل لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحملت على رأسي بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الغرق ، وقطع على قوافلنا الطرق ، وخدمت القضاة والكبراء ، وخاطبت السلاطين والوزراء . وصاحبت في الطرق الفسّاق ، وبعت البضائع في الأسواق ، وسُجنت في الحبوس ، وأخذْتُ على أني جاسوس ، وعاينت حرب الروم في الشواني[١٥] ، وضرب النواقيس في الليالي ، وجلّدتُ المصاحف بالكرى ، واشتريت الماء بالغلا ، وركبت الكنائس[١٦] والخيول ، ومشيت في السّمائم والثلوج ، ونزلت في عرصَةِ

(١٣) المذكّر : المرتل . أو عالم من علماء الدين .

(١٤) الخانقائيين : مذهب بعض نساك المسلمين الذين يعيشون في خانقاه وهو ما يشابه التكية .

والنواتي : البحارة ولعل كلمة nautique الفرنسية مأخوذة من النواتي لأنها تعني كل ما يتعلق بالبحرية . وكلمة naute تعني الملاح .

(١٥) جمع شيني أو شونة : سفينة حربية .

(١٦) جمع كنيسة . أي محمل أو تختروان أو هودج .

الملوك بين الأجلّة ، وسكنت بين الجهّال في محلة الحاكة ، وكم نلت العز والرفعة ، ودُبّر في قتلي غير مرة ، وحججت وجاورت ، وغزوت ورابطت[١٧] ، وشربت بمكة من السقاية السّويق[١٨] ، وأكلت الجلّبان والخبز بالسيق[١٩] ، ومن ضيافة إبراهيم الخليل[٢٠] ، وجُمَيْز عسقلان السبيل[٢١] ، وكُسيت خلع الملوك وأمروا لي بالصلات ، وعريت وافتقرت مرات ، وكاتبني السادات ، ووبخني الأشراف ، وعرضت عليّ الأوقاف ، وخضعت للأخلاف ، ورميت بالبدع ، واتهمت بالطمع ، وأقامني الأمراء والقضاة أميناً ، ودخلت في الوصايا وجعلت وكيلاً ، وامتحنت بالطّرارين ، ورأيت دول العيّارين[٢٢] ، واتبعني الأرذلون ، وعاندني الحاسدون ، وسُعي بي إلى السلاطين ، ودخلت حمّامات طبريّة ، والقلاع الفارسية ، ورأيت يوم الفوّارة[٢٣] وعين برْبارَة[٢٤] ، وبئر بُضاعة ، وقصر يعقوب وضياعه . ومثل هذا كثير . ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا ، أننا لم نصنفه جُزافاً ، ولارتبناه مجازاً ، ويميزه من غيره . فكم بين من قاسى هذه الأسباب[٢٥] ، وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع . ولقد ذهب

---

(١٧) أقام في رباط المجاهدين .

(١٨) نوع من حساء يصنع من دقيق الشعير . والسقاية تعني وظيفة مرتبطة بخدمة الكعبة وهدفها تأمين شرب الحجيج .

(١٩) ربما تعني هذه الكلمة دير للروم أو للسريان .

(٢٠) ويقول المقدسي في فقرة أخرى إن العادة كانت في مدينة الخليل ، حيث مقام إبراهيم ، أن توزع الأقوات كل يوم في نفس الحرم الإبراهيمي .

(٢١) أي بالقرب من شجرة جميز مقدسة في عسقلان في فلسطين ، كانت توزع الأقوات أيضاً بالمجان على الفقراء والسبيل أي في سبيل الله .

(٢٢) العيار : السارق ، الصعلوك وقاطع الطريق ، وأصبحت كلمة العيارين في القرن العاشر أثناء انحطاط الخلافة العباسية تعني الفرسان الخارجين على القانون والخاضعين لنظام دقيق جداً يحاول قمع الظلم وحماية الضعفاء من الأقوياء . وكان هؤلاء الفرسان يؤلفون دولاً حقيقية بحسب حسابها .

(٢٣) بلدة قرب سمرقند كان يحدث فيها عيد محلي كل عام .

(٢٤) عيد عند المسيحيين يقع عادة في الرابع من كانون الأول .

(٢٥) المغامرات والمخاطر .

لي في هـذه الأسفـار فوق عشرة آلاف درهم ، سـوى مـا دخـل عليَّ من التقصير في أمور الشريعة ، ولم يبق رخصة[٢٦] مـذهب إلا وقـد استعملتهـا : قـد مسحت على القدمين . وصليت بمدهامَّتان[٢٧] ، ونفرت قبل الزوال[٢٨] ، وصليت الفريضة على الدواب ، ومع نجاسة فاحشـة على الثيـاب ، وتركت التسبيح في الركوع والسجود وسجود السهو قبل التسليم ، وجمعت بين الصلوات ، وقصرت في سفر الطـاعـات ، غير أني لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة ، ولم أؤخر صلاة عن وقتها بتة ، ومـا سرت في جادة وبيني وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلا فـارقت القـافلـة ، وانفتلت إليهـا لأنظرهـا قـديمـاً ، وربمـا اكتريت رجـالاً يصحبـوني ، وجعلت مسيري في الليل ، لأرجع إلى رفقائي مع إضاعة المال والهم » .

النص الرابع

وصف بلاد الشام

لقـد كتب كل فصل من فصـول كتـاب (أحـسن التقـاسيم) حسب مخطـط متنـاسق . فيعطي المقدسي فيه أولاً لمحة إجمالية ، ثم وصفاً مفصلاً للمدن الرئيسية كي ينتهي بمعلومات جزيلـة الفـائـدة عن المناخ ، والديانة ، والغرائب ، والتجارة والمظاهر الجغرافية في المنطقة المذكورة :

« إقليم الشام جليل الشأن ديار النبيّين ، ومركز الصالحين ، ومعْدن البُدلا ، ومطلب الفضلا ، بـه القبلـةُ الأولى ، وموضع الحشْرِ والمسرى ، والأرض المقـدسـة

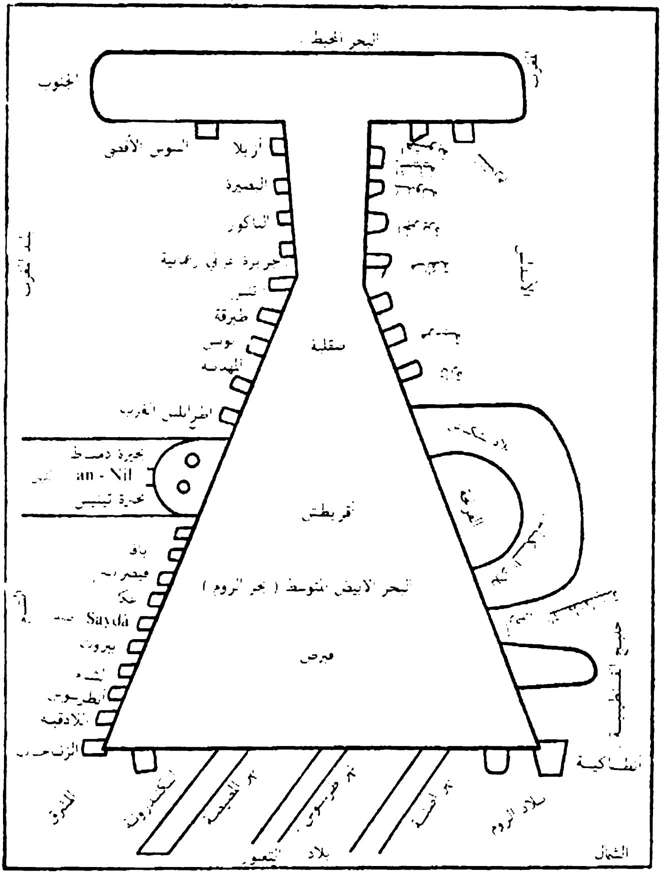
(٢٦) سماح ، أمر مسموح به .

(٢٧) أي قرأ قصار الآيات ، ومدهامتان ، آية رقم ٦٤ من سورة الرحمن ٥٥ .

(٢٨) الزوال : قبل دخول وقت الظهر بدقائق ، ونفرت قبل الزوال : أي قبـل الظهر عملاً بمذهب الحنـابلـة لأن وقت الوقوف عنـدهم من طلوع الفجر يوم عرفـة إلى طلوع الفجر من يوم النحر (المغني لابن قـدامة المقـدسي جـ ٣ / ٤١٥ طـ ٣)

والربـاطـات الفـاضلـة ، والثغور الجليلـة ، والجبـال الشريفـةُ ، ومهـاجرُ إبراهيم وقبره ، وديار أيوبَ وبئْره ، ومحرابُ داودَ وبـابـه ، وعجـائبُ سليمـان ومـدنُـه ، وتربـة إسحـاقَ وأمـه ، ومولـد المسيح ومهـده ، وقريـة طـالـوت ونهره ، ومقتـل

خارطة المقدسي مخطوط برلين ، عن أندريه ميكل



جالوت وحصنه[٢٩] ... ، ثم البحر يمدُّ على غربيّه ، فالحمولات فيه إليه أبداً ، وبحر الصين متصل بطرفه الأقصى ، له سهلٌ وجبل وأغوار وأشيا . والبادية على تخومه كالزقاق منه إلى تيما . وبه معادن الرخام وعقاقير كل دوا ، ويسار وتجار ولباقة وفقهاء ، وكتّاب وصناع وأطباء . إلا أنهم على خوف من الروم وفي جلا ، والأطراف قد خربت وأمر الثغور قد انقضى ... ، ويقال إنما سمّيت الشام لأنها شامةُ الكعبة ، وقيل بل من تشاؤم الناس إليها ، وقيل بل لشاماتٍ بها حمرٌ وبيض وسود . وأهل العراق يسمون كل ما وراء الفرات شاماً ...

وقد قسمنا هذا الإقليم ستُّ كُورٍ ، أولها من قبل أقور قنسرين ، ثم حمص ، ثم دمشق ، ثم الأردن ، ثم فلسطين ، ثم الشراة .

فأما قنسرين فقصبتها حلب ومن مدنها أنطاكية ، بالس ، السويدية ، سُمَيْساط ، منبج ، بيّاس ، التينات ، قنّسرين ، مرعش ، إسكندرونة ، لَجّون ، رفنيّة ، جوسيّة ، حماة ، شيزر ، وادي بطنان ، معرة النعمان ، معرة قنسرين .

وأما حمص فاسم القصبة أيضاً ومن مدنها سَلَميّة ، تدمر ، الخناصرة ، كفر طاب ، اللاذقية ، جبلة ، أنطرسوس ، بُلُنْياس ، حصن الخوابي .

وأما دمشق فاسم القصبة[٣٠] أيضاً ومدنها بانياس صيدا بيروت أطرابلس عرقة ، وناحية البقاع مدينتها بعلبك ولها كامد عرجموش . ولدمشق ستُ رساتيق[٣١] : الغوطة ، حوران ، البَثَنيّة ، الجَوْلان ، القاع ، والحولة ... ودمشق هي مصر الشام[٣٢] ودار الملك أيام بني أمية ، وثَمّ قصورهم وآثارهم ، بنيانهم خشب

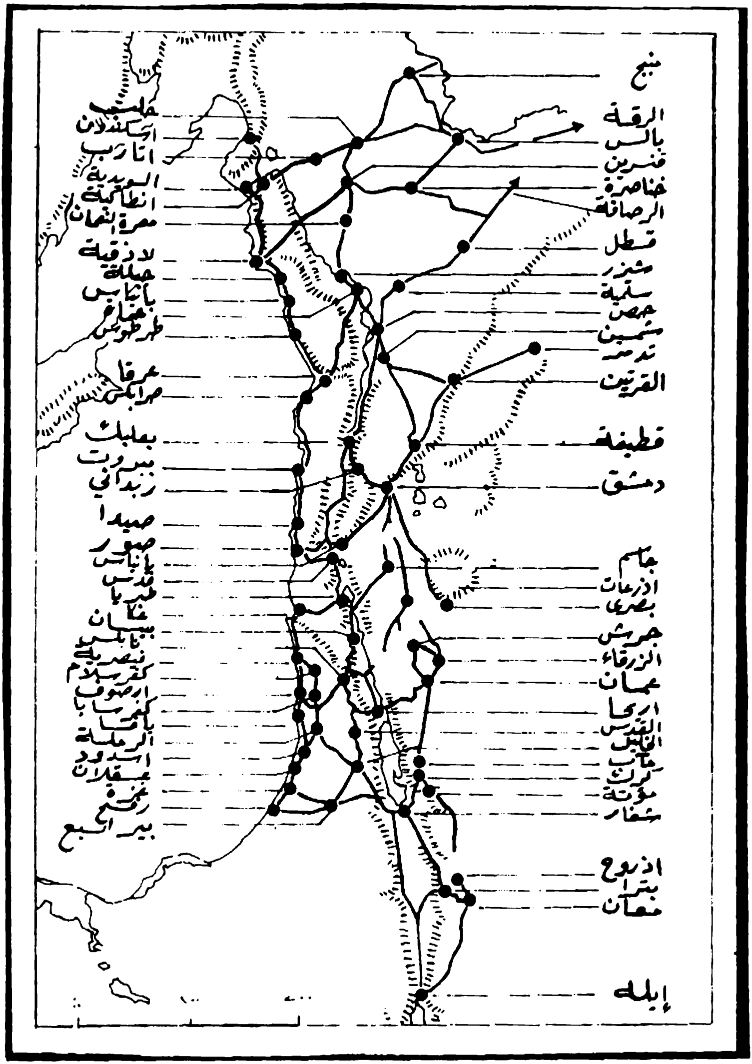
---

(٢٩) ويتلو ذلك تعداد لبقية عجائب بلاد الشام .

(٣٠) يعني المقدسي بذلك عاصمة المنطقة . وربما كان يقصد بها أيضاً عاصمة إقليم .

(٣١) جمع رستاق ، أي ناحية أو منطقة ، ولا تعني عند المقدسي كلمة كورة تماماً بل تعني حصراً منطقة ريفية محدودة .

(٣٢) أي عاصمة .



مدن ومسالك بلاد الشام كما رآها المقدسي / القرن العاشر /

وطين . وعليها حصن أُحْدِث ، وأنابه ، من طين . أكثر أسواقها مغطاة ، ولهم[٣٣] سوقٌ على طول البلد مكشوف حسن ، وهو بلد قد خرقته الأنهار وأحدقت به الأشجار ، وكثرت به الثمار ، مع رخص الأسعار ، وثلج وأضداد ، لا ترى أحسن من حمّاماتها ، ولا أعجب من فوّاراتها ولا أحْزَمَ من أهلها .

الذي عرفت من دروبها باب الجابية ، باب الصغير ، باب الكبير ، باب الشرقي ، باب توما ، باب النهر ، باب المحامليين .

وهي طيبة جداً غير أن في هوائها يبوسة . وأهلها غاغة ، وثمارها تفهة ، ولحومها عاسية ، ومنازلها ضيقة ، وأزقتها غامة ، وأخبازها ردية ، والمعايش بها ضيقة ، تكون نحو نصف فرسخ في مثله في مستوى .

والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه . وقد رفعت قواعده بالحجارة الموجهة كباراً مؤلفة وجعل عليها شُرَفٌ بهية . وجعلت أساطينها أعمدة سوداً ملساً على ثلاثة صفوف واسعة جداً . وفي الوسط إزاء المحراب قبةٌ كبيرة : وأدير على الصحن أروقة متعالية بفراخ[٣٤] فوقها . ثم بُلط جميعه بالرخام الأبيض وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزّع ثم إلى السقف بالفُسيفساء الملونة . وفي المذهّبة صور أشجار وأمصار وكتابات على غاية الحسن والدقّة ولطافة الصنعة وقلّ[٣٥] شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثّل على تلك الحيطان ، وطليت رؤوس الأعمدة بالذهب . وقناطر الأروقة كلها مرصّعة بالفسيفساء . وأعمدة الصحن كلها رخامٌ أبيض ، وحيطانه بما يدور والقناطر وفراخها بالفسيفساء نقوش وطروح[٣٦] . والسطوح كلها ملبسةٌ بشقاق الرصاص ،

---

(٣٣) لأهل دمشق .

(٣٤) جمع فرخ : أي قنطرة على شكل قذيفة .

(٣٥) قَلَّ : أي قلما يوجد .

(٣٦) نحت نافر .

والشرافيات من الوجهين بالفسيفساء ، وعلى الميمنة في الصحن بيتُ مال على ثمانية عُمدٍ ، مرصعة حيطانه بالفسيفساء ، وفي المحراب وحوله فصوص عقيقيّة وفيروزجية[٣٧] كأكبر ما يكون من الفصوص ، وعلى الميسرة محرابٌ آخر دون هذا للسلطان ، وقد كان تشعَّث وسطه فسمعت أنه أنفق عليه خمسمئة دينار حتى عاد إلى ما كان . وعلى رأس القبة تُرَنْجَة فوقها رمانة كلاهما ذهب . ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع ، كل شامة إلى أختها ، ولو أن رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صيغة وعقدة أخرى .

ويقال : إن الوليد[٣٨] جمع لبنائه حُذّاقَ فارسٍ والهند والمغرب والروم ، وأنفق عليه خراج الشام سبع سنين ، مع ثماني عشرة سفينة ذهبٍ وفضة أقلعت من قبرص ، سوى ما أهدى إليه ملك الروم من الآلات والفسيفساء .

ويدخل إليه العامة من أربعة أبواب :

باب البريد عن اليمين كبير له فرخان[٣٩] عن يمين وشمال ، وعلى كل واحد من الباب الأعظم وللفرخين مصراعان مصفحة بالصفر المذهَّب ، وعلى الباب والفرخين ثلاث أروقة ، كل باب منها يفتح إلى رواق طويل ، قد عقدت قناطره على أعمدة رخام ، ليست حيطانه على ما ذكرنا . وجميع السقوف مزوّقة أحسن تزويق . وفي هذه الأروقة موضعُ الورّاقين ومجلس خليفة القاضي .

وهذا الباب بين المغطّى والصحن يقابله عن اليسار باب جَيرونَ على ما ذكرنا ، غير أن الأروقة معقودة بالعرض يصعد إليه في درج ، يجلس إليه المنجمون وأضرابهم .

---

(٣٧) الفيروزج : حجر كريم يدعى بالفرنسية توركواز .

(٣٨) الوليد بن عبد الملك الذي حكم في دمشق من ٧٠٥ م إلى ٧١٥ م .

(٣٩) باب صغير مفتوح ضمن باب ضخم أو بوابة .

وباب الساعات في زاوية المغطّى الشرقية مصراعان سواذج عليه أروقةٌ يجلس فيه الشروطيّون[٤٠] وأشباههم .

والباب الرابع : باب الفراديس مصراعان ، قبال المحراب في أروقةٍ بين زيادتين عن يمين وشمالٍ ، عليه منارة محدثة مرصّعة على ما ذكرنا .

وعلى كل من هذه الأبواب ميضأة مرخّمة ببيوت ينبع فيها الماء وفوّارات خارجة في قصاعٍ عظيمة من رخام .

ومن الخضراء ، وهي دار السلطان ، أبوابٌ إلى المقصورة مصفحة مطلية . وقلت يوماً لعمّي : يا عمي لم يُحسن الوليدُ حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق ، ولو أصرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورَمِّ الحصون لكان أصوبَ وأفضل ، قال : يا بنيَّ لا تفعل ، إنَّ الوليدُ وفق وكُشف له عن أمر جليل ، وذلك أنه رأى الشام بلدَ النصارى ، ورأى لهم فيها بيعاً حسنة ، قد أفتن زخارفها ، وانتشر ذكرها كالقيامة[٤١] وبيعة لُدٍّ والرُّها . فاتخذ للمسلمين مسجداً أشغلهم به عنها وجعلها إحدى عجائب الدنيا . ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عِظَمَ قبة القيامة وهيئتها خشي أن تعظُم في قلوب المسلمين ، فنصب على الصخرة قبة على ما ترى ، ووجدت في كتاب بخزائن عضد الدولة عروسا الدنيا دمشق والريّ . وقال يحي بن أكثم ليس بالأرض أنزه من ثلاث بقاع سمرقند وغوطة دمشق ونهر الأبلّة . ودمشق بناها دمشقُ بن قاني بن مالك بن أرْفَخْشَذَ بن سامَ قبل مولد إبراهيم بخمس سنين .

وقال الأصمعي : لا بل اشتق اسمها من دمشقوها أي أسرعوها . و يقال أن عمر بن عبد العزيز أراد أن ينقص الجامع و يجعله في مصالح المسلمين حتى ناظروه في ذلك .

وقرأت في بعض الكتب : إنما أنفق عليه ثمانية عشر حَمْلَ بغل ذهباً .

---

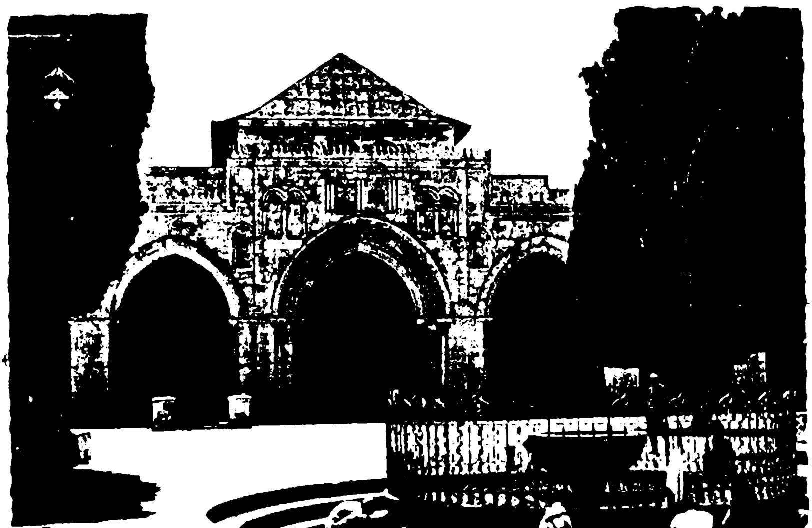
(٤٠) كتّاب العدل .

(٤١) كنيسة القيامة .

النص الخامس

بعد أن يفرغ المقدسي من وصف دمشق ينتقل لوصف بلاد الشام الأخرى وفلسطين ثم يأتي على وصف القدس ، مسقط رأسه .

« بيت المقدس ليس في مدائن الكُوَر أكبر منها ، وقصباتٌ كثيرة أصغر منها كإصطخر وقاين والفَرَما . لا شديدة البرد وليس بها حر وقلَّ ما يقع بها ثلج . وسألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت : سَجْسَجٌ لا حر ولا برد شديد . قال هذا صفة الجنة ، بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه ، ولا أتقن من بنائها ، ولا أعفَّ من أهلها ، ولا أطيب من العيش بها ، ولا أنظف من أسواقها ، ولا أكبر من مشاهدها . عنبها خطير وليس لمعتَّقها نظير ، وفيها كلُّ



حاذقٍ وطبيب ، وإليها قلب كل لبيب ، ولا تخلو كل يوم من غريب . وكنت يوماً بمجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام بالبصرة ، فجرى ذكر مصر وغيرها إلى أن سئلت أي بلد أجلّ . قلت : بلدنا . قيلَ : فأيها أطيب . قلتُ : بلدنا . قيل : فأيها أفضل . قلت بلدنا . قيل : فأيها أحسن . قلت بلدنا . قيل : فأيها أكثر خيرات ، قلت : بلدنا ، قيل : فأيها أكبر ، قلت : بلدنا . فتعجب أهل المجلس من ذلك وقيل أنت رجل محصّل[٤٢] ، وقد ادّعيت ما لا يقبل منك ، وما مثلك إلا كصاحب الناقة مع الحجّاج[٤٣] . قلت : أما قولي أجل فلأنها بلدةٌ جمعت الدنيا والآخرة ، فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها ، ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها . وأما طيب الهواء فإنه لا سمّ



جنود يهود فوق إحدى مآذن
مدينة نابلس في الضفة العربيه



أفراد الشرطة اليهود وهم يقتحمون
المسجد الأقصى بعد سقوط القدس في عام ١٩٦٧

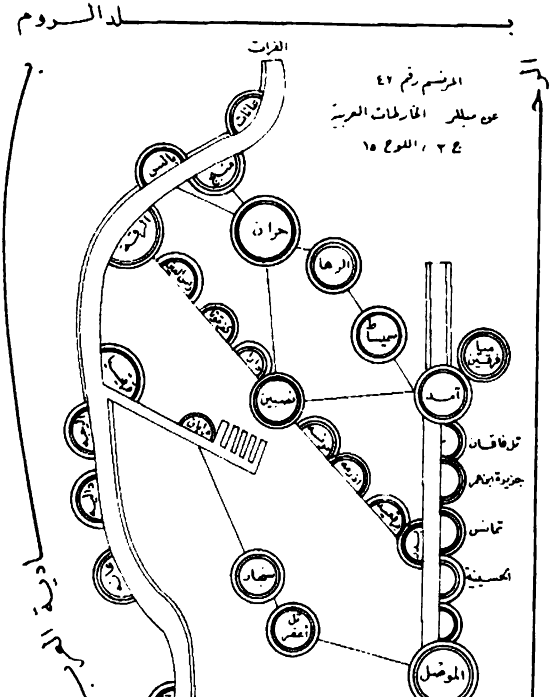
(٤٢) محصل العلم : طالب أو عالم .

(٤٣) يروى أن الحجاج الذي كان يحكم العراق نيابة عن الأمويين التقى يوماً بأعرابي فسأله . ما هو أكثر الحيوانات فائدة للإنسان وأكثرها صبراً وأكثرها سرعة إلخ .. فكان البدوي يجيب على كل سؤال : إنها الناقة . وهذا الجواب ذهب مثلاً مثل كلمة رنة عند موليير في روايته (المريض الخيالي) .

صُوَرةُ الجَزيرة

للمقدسي

نسخ سنة ٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م



A-D

لبردها ولا أذى لحرّها . وأما الحُسنُ فلا ترى أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها . وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز . وأما الفضل فلأنها عَرَصَةُ القيامة ، ومنها المَحْشر ، وإليها المَنْشر ، وإنما فُضّلت مكّة والمدينة بالكعبة والنبي ﷺ ، ويومَ القيامة تُزَفّان إليها فتحوي الفضل كله . وأما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها فأي أرض أوسع منها . فاستحسنوا ذلك وأقرّوا به .

إلا أن لها عيوباً عدة . يقال إنه في التوراة مكتوب : بيت المقدس طشتُ ذهبٍ مُلئ عقاربَ . ثم لا ترى أقذر من حمّاماتها ، ولا أثقل مؤنة ، قليلة العلماء كثيرة النصارى وفيهم جفاء ، على الرحبة والفنادق ضرايب ثقال على ما يباع . فيها رجّالة على الأبواب ، فلا يمكن أحداً أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس إلا بها مع قلة يسار ، وليس للمظلوم أنصار ، والمستور مهموم والغنيّ محسود[٤٤] ، والفقيه مهجور والأديب غير مشهود . لا مجلس نُظِرَ فيها ولا تدريس . قد غلب عليها النصارى واليهود ، وخلا المسجد من الجماعات .

---

(٤٤) كثيراً ما يتكلم الجغرافيون العرب عن ما يمكن أن سميه (بالجغرافية النفسية geographie psychologigac) فنجد في كتاب (نزهة المجالس) الجزء الثاني باب فضل العلم وأهله والشام . تأليف الشيخ عبد الرحمن الصفوري الشافعي قوله : قال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار : أخبرنا عن الأخلاق كيف خلقها الله سبحانه وتعالى . قال خلقها وقسمها ثم قال للشقاء أين تختار ؟ قال : البادية . فقال الصبر وأنا معك . ثم قال للفقر : أين تختار ؟ قال : الحجاز . قالت القناعة : وأنا معك . ثم قال للغنى : أين تختار ؟ قال : مصر . فقال الذل : وأنا معك . ثم قال للعلم : أين تختار ؟ قال : العراق . فقال العقل : وأنا معك . ثم قال للنحلي : أين تختار ؟ قال : المغرب . فقال سوء الخلق : وأنا معك . ثم قال للحسد : أين تختار ؟ قال : الشام فقال الشر : وأنا معك .

كما نجد في مخطوط يعود لعام ٤٧٧ هـ مؤلفه خليفة بن خياط قوله . عن عبد الله بن عمر أو عن عمرو بن العاص : أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم فيها . وأهل العراق أطلب الناس لعلم وأتركهم له . وأهل الشام أطوع خلق الله لمخلوق وأعصاهم لخالق . وأهل مصر لأكيس الناس صغاراً وأحمقهم كباراً

ولكن لا يجوز ، بحال من الأحوال ، اعتبار هذه الآراء على أنها حقائق . والأرجح النظر إليها كدعابات . =

والمجالس هي أصغر من مكة وأكبر من المدينة ، عليها حصن بعضه على جبل وعلى بقيته خندقٍ . ولها ثمانية أبواب حديد : باب صهيون ، باب التيه ، باب البلاط ، باب جب أرميا ، باب سلوان ، باب أريحا ، باب العمود ، باب محراب ، والماء بها واسعٌ ويقال ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والأذان . قلّ[٤٥] دار ليس بها صهريج وأكثر . وبها ثلاث برك عظيمة : بركة بني إسرائيل وبركة عياض عليها حمّاماتُهم . لها دواعٍ[٤٦] من الأزقة . وفي المسجد عشرون جباً متبحّرة وقلّ حارة إلا وفيها جبٌ مُسَبَّل . غير أن مياهها من الأزقّة ، وقد عمد إلى واد فجعل بركتان يجتمع إليها السيول في الشتاء ، وشُقّ منها قناةٌ إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملأ صهاريج الجامع وغيرها .

وأما المسجد الأقصى فهو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة ، أساسه من عمل داود طول الحجر عشرة أذرع وأقلُّ ، منقوشة موجّهة مؤلّفة صلبة ، وقد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان وشرّفوه . وكان أحسن من جامع دمشق ، ولكن جاءت زلزلة في دولة بني العباس فطرحت المغطّى إلا ما حول المحراب . فلما بلغ الخليفة خبره ، قيل له : لا يفي بردّه إلى ما كان بيت مال المسلمين . فكتب إلى أمراء الأطراف وسائر القواد أن يبني كل واحد منهم رواقاً ، فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان ، وبقيت تلك القطعة شامة فيه ، وهي إلى حد أعمدة الرخام ، وما كان من الأساطين المشيّدة فهو محدثٌ .

وللمغطّى ستة وعشرون باباً : باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس

= لأنها تخلو من أي تفسير علمي أو تعليل ، هذا فضلاً عن أن علم نفسيات الشعوب لا زال يخطو خطواته الأولى حتى في أيامنا هذه . وكذلك أبقينا لكل مؤلف ـ وخاصة أصحاب الرحلات ـ حق التعبير عن انطباعاتهم ، وإن جاءت في بعض الأحيان جائرة أو ناقصة أو مبنية على التحامل .

ويقول الجاحظ : إن الحكمة ظهرت في ثلاثة أمور : عقل الإفرنج وأيدي الصينيين ولسان العرب . ويقول دزموند ستوارت في كتابه العالم العربي : الحضارة الوحيدة التي أنتجها العرب قبل الإسلام كانت الشعر .

(٤٥) أي قلما توجد دار .

(٤٦) جمع داعية ومعناها الجدول . الساقية .

الأعظم مصفّح بالصُّفر المذهّب ، لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قوي الذراع . عن يمينه سبعة أبواب كبار ، في وسطها باب مصفح مذهّبٌ ، وعلى اليسار مثلهنّ ، ومن نحو الشرق إحدى عشر باباً سواذجُ ، وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام أحدثه عبد الله بن طاهر(٤٧) . وعلى الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام وأساطين ، وعلى المؤخَّرة أروقة آزاجٍ من الحجارة . وعلى وسط المغطّى جملٌ عظيم خلف حسنة . والسقوف كلها إلا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص ، والمؤخّر مرصوف بالفسيفساء الكبار .

والصحن كله مبلط وسطه دكّة مثل مسجد يثرب ، يصعد إليها من الأربع جوانب في مراق واسعة . وفي الدكة أربع قبابٍ : قبة السلسلة ، قبة المعراج ، قبة النبي ﷺ ، وهذه الثلاث لطاف مُلْبسَة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان . وفي الوسط قبة على بيت مثمن بأربعة أبواب ، كل باب يقابل مرقاة : باب القبلي ، باب إسرافيل ، باب الصور ، باب النساء يفتح إلى الغرب ، جميعها مذهَّبة ، في وجه كل واحد باب ظريف من خشب التنّوب ، مداخل حسن ، أمرت بهن أم المقتدر بالله(٤٨) ، وعلى كل باب صُفّة مرخَّمة بالتنويبة تطبّق على الصفرية من خارج . وعلى أبواب الصفاف أبواب أيضاً سواذجُ ، داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة أجلُّ من الرخام وأحسن لانظير لها ، قد عقدت عليها أروقة لاطية ، داخلها رواقٌ آخر مستدير على الصخرة لامثّن ، على أعمدة معجونة بقناطر مدوّرة ، فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقان كبار . والقبة فوق المنطقة ، طولها عن القاعدة الكبرى مع السَّفُّود في الهواء مئة ذراع ، ترى فوقها من البعد سفّود حسن طول قامة وبسطة . والقبة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب .

---

(٤٧) من كبار رجال الدولة العباسيين توفي عام ٢٣٨ هـ / ٨٤٤ م

(٤٨) خليفة عباسي حكم من ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م إلى ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م .

وأرض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا من جامع دمشق . والقبة ثلاث سافات : الأولى : من ألواح مزوّقة والثانية : من أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح ، ثم الثالثة : من خشب عليها الصفائح ، وفي وسطها طريق إلى عند السفود ، يصعدها الصنّاع لتفقدها ورمّها ، فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة ، وتلألأت المنطقة ، ورأيت شيئاً عجيباً .

وعلى الجملة لم أر في الإسلام(٤٩) ولا سمعت أن في الشرك مثل هذه القبة .

ويدخل إلى المسجد من ثلاثة عشرة موضعاً بعشرين باباً ... وفيه من المشاهد محراب مريم وزكريا ويعقوب والخضر ومقام النبي وجبرائيل وموضع النمل والنور والكعبة والصراط متفرّقةٌ فيه . وليس على الميسرة أروقة والمغطّى لا يتصل بالحائط الشرقي ومن أجل هذا يقال لا يتمّ فيه صف أبداً . وإنما ترك هذا البعض لسببين أحدهما قولُ عمرَ : اتخذوا في غربي هذا المسجد مصلى للمسلمين فتركت هذه القطعة لئلا يخالف ، والثاني أنهم لو مدوا المغطى إلى الزاوية لم تقع الصخرة حذاء المحراب فكرهوا ذلك والله أعلم ... وكانت وظيفته في كل شهر مئة قسط زيت ، وفي كل سنة ثمان مئة ألف ذراع حصراً . وخدامه مماليك له أقامهم عبد الملك من خمس الأسارى ، ولذلك يسمون الأخماس ، لا يخدمه غيرهم ولهم نُوَب يحفظونها .. » .

النص السادس

ويتبع وصف القدس هذا وصف مدن فلسطين الأخرى وينتهي الفصل عند المقدسي ، كما هي العادة ، بمعلومات عامة كما يلي :

---

(٤٩) أي في بلاد الإسلام .

جُمِلَ شؤون هـذا الإقليم : هو إقليم متوسـط الهواء إلا وسطـه من الشّراة إلى الحولة ، فإنه بلد الحر والنيل والموز والنخيل ، وقال لي يومـاً غسّـان الحكيم ونحن بأريحاء : ترى هذا الوادي . قلت : بلى . قال : هو يمدُّ إلى الحجـاز ، ثم يخرج إلى اليامـة ، ثم إلى عُمانَ وهجر ، ثم إلى البصرة ثم إلى بغـداد ، ثم يصعــد إلى ميسرة الموصل إلى الرقة ، وهو وادي الحر والنخيل .

وأشـد هـذا الإقليم برداً بعلبـكُّ ومـا حولهـا ومن أمثـالهم : قيـل للبرد : أين نطلبك ؟ قال : بالبلقاء . قال : فـإن لم نجـدك . قـال ببعلبـك بيتي . وهو إقليمٌ مبارك ، بلد الرخص والفواكه والصالحين . وكلّما علا منه نحو بلـد الروم كان أكثر أنهاراً وثماراً وأبرد هواءً ، وما سفل منه فإنه أفضل وأطيب وألذ ثماراً وأكثر نخيلاً . وليس فيهـا نهر يسـافر فيـه[٥٠] إنمـا يعبر قليل العلمـاء ، كثير الـذمّـة ، والمجـذّمين ولا خطر فيه للمذكّرين ، والسامرة فيـه من فلسطين إلى طبريـة ، ولا تجـد فيـه مجوسياً ولا صابئاً ، مذاهبهم مستقيمـة أهل جمـاعـة وسنـة . وأهل طبريـة ونصف نابلس وقدس وأكثر عمَّانَ شيعة . ولا ماء فيه لمعتزلي إنمـا هم[٥١] في خفيـة . وبيت المقـدس خَلْـق من الكراميّـة[٥٢] لهم خـوانـق ومجـالس ، ولا ترى بـه مـالكيـاً[٥٣] ولا داودياً[٥٤] ، وللأوزاعيّة[٥٥] مجلس بجامع دمشق . والعمل كان فيه على مـذهب أصحـاب الحـديث والفقهـاء الشـافعيــة ، وأقـل قصبــة[٥٦] أو بلــدٍ ، ليس فيــه حنفي[٥٧] ، وربما كان القضاة منهم .

---

(٥٠) أي صالح للملاحة .

(٥١) أي المعتزلة .

(٥٢) مذهب منشق عن الإسلام كان أتباعه يقرُّون بزعامة محمد بن الكرام المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م .

(٥٣) أي من أتباع مذهب الإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م .

(٥٤) الداودية أو الظاهرية مذهب اختفى الآن وقد ظهر على يد داود بن علي المتوفى سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م .

(٥٥) أتباع مذهب لا وجود له الآن أسـه عبد الرحمن الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧ هـ أو ٧٧٤ م وضريحه في بيروت .

(٥٦) مركز ، أو عاصمة .

(٥٧) من أتباع مذهب أبي حنيفة المتوفى ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م .

فإن قيل : لِمَ لَمْ يُقَلْ والعمل فيه[٥٨] على مذهب الشافعي[٥٩] والصـدور[٦٠] ثَمَّ شافعية قيل له : هذا كلام من لا تمييز له ، لأن مذهب الشافعي الجهر بـالبسملة والقنوت[٦١] في الفجرِ ، لا نقنت إلا في النصف الأخير من شهر رمضان في الوتر ، وغير ذلك مما لم يكن يستعمله أهل الشام وينكرونـه . ألا ترى أن ملكهم لمـا أمر بالجهر بـالبسملـة بطبريـة كيف تَظلَّموا منـه إلى كافور الإخشيـدي[٦٢] واستبشعوا ما فعله . واليوم أكثر العمل على مذهب الفـاطمي[٦٣] ونحن نـذكرهـا مع رسومهم في إقليم المغرب إن شـاء الله تعـالى . والغـالب فيـه من القراءات حروف أبي عمرو[٦٤] ، إلا بـدمشق فـإنـه لا يؤمّ في الجـامع إلا من يقرأ لابن عـامرٍ[٦٥] ، وهي شائعة فيهم مختارة عندهم ، وقد فشت قراءة الكسـائي[٦٦] في الإقليم ، ويستعملون السُّبعَ ويجتهدون في ضبطها .

والتجـارات بـه مفيـدة . يرتفـع من فلسطين الـزيت والقُطْين والـزبيب والخرنوب والملاحم والصـابون والفُوط ، ومن بيت المقـدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غاية والتفاح وقضم قريش[٦٧] الذي لا نظير له والمرايـا وقـدور القناديل والإبَرُ ، ومن أريحاء نيل غاية ، ومن صغر وبيسان النيل والتمور ، ومن عمّانَ الحبوب والخرفان والعسل ، ومن طبرية شقاق المطـارح[٦٨] والكاغـد والبز ،

---

(٥٨) في ذلك الإقليم .

(٥٩) مؤسس المذهب الشافعي ، توفي عام ٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م .

(٦٠) العلماء الكبار .

(٦١) الدعاء في الصلاة .

(٦٢) وصي على عرش مصر ، وهو مملوك زنجي . توفي سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م وقد هجاه المتنبي في قصيدة مشهورة .

(٦٣) أي على مذهب الخليفة الفاطمي . وكان الفاطميون شيعة .

(٦٤) قارئ توفي سنة ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م .

(٦٥) قارئ توفي عام ١١٨ هـ / ٧٣٦ م .

(٦٦) قارئ توفي نحو ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م .

(٦٧) الصنوبر .

(٦٨) شقق بيوت الشعر .

ومن قَدَس قياب المنيّرة والبلعيسية والجبال ، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات ، ومن مآب قلوب اللوز ، ومن بيسان الرز ، ومن دمشق المعصور[٦٩] والبلعيسي[٧٠] وديباجٌ ودهن بنفسج والصفريّات والكاغد والجوز والقَطّيْنُ والزبيب ، ومن حلب القطن والثياب والأشنان[٧١] والمغرة ...

ورسومهم أنهم يقدون القناديل في مساجدهم على الدوام ، يعلقونها بالسلاسل مثل مكّة ، وفي كل قصبة بيت مال بالجامع ، معلق على أعمدة ، وبين المغطى والصحن أبوابٌ إلا أريحاء . ولا ترى الحصى إلا في صحن جامع طبرية ، والمنائر مربعة ، وأوساط سقوف المغطى مجمّلة .

وعلى أبواب الجوامع وفي الأسواق مطاهر . ويجلسون بين كل سلامين من التراويح[٧٢] وبعضهم يوتّرون[٧٣] بواحدة ، وكان وترهم في القديم ثلاثاً ، وفي أيامي أمر أبو إسحاقَ المروزي حتى قطعوه بإيليا ، وإذا قام إلى كل ترويحةٍ نادى منادي الصلاة : رحمكم الله . ويصلون بإيليا ستّ ترويحات والمذكّرون به قصّاص[٧٤] .

ولأصحاب أبي حنيفة بالمسجد الأقصى مجلسُ ذِكرٍ يقرؤون في دفتر ، وكذلك الكراميّة في خوانقهم . وكان الحرّاس يهلّلون بعد صلاة الجمعة . ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين العشاءين . وللقراء مجالس في الجوامع .

ومن أعياد النصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدرون بها الفصول الفِصحُ

---

(٦٩) زيت الزيتون .

(٧٠) نوع من قماش رقيق .

(٧١) نبات يكثر في أطراف البادية يحرق ويعطي القلي الذي كان يستعمل في صناعة الصابون حتى الحرب العالمية الثانية حيث حلت محله الصودا الكاوية .

(٧٢) صلاة بعد العشاء في شهر رمضان .

(٧٣) يصلون ركعة واحدة أو ثلاث أي غير شفع (مزدوج) .

(٧٤) مفردها قاص وهو الذي يكلف بسرد القصص الحاوية على العبر والحكم بالجامع .

وقت النيروز ، والعنصرةُ وقت الحرّ ، والميلادِ وقت البرد ، وعيد بربارة وقت الأمطار ؛ ومن أمثال الناس : إذا جاء عيد بُربارة فليتخذ البنّاء زمّارة ، يعني فيجلس في البيت ، والقَلَنْدِس[٧٥] ومن أمثالهم : إذا جاء القلندِسُ فتدفّأْ واحتبس . وعيد الصليب وقت قطاف العنب وعيدُ لُدّ[٧٦] وقت الزرع .

وشهور رومية تشرين الأول والثاني ، كانون الأول والثاني ، شباط ، آذار ، نيسان ، أيار ، حزيران ، تموز ، آب ، أيلول .

وأقلّ ما ترى فيها فقيهاً له بدعة ، أو مسلماً له كتابة إلا بطبرية ، فإنها ما زالت تخرج الكتّاب ، وإنما الكتبةُ به[٧٧] وبمصر نصارى ، لأنهم اتكلوا على لسانهم ، فلم يتكلفوا الأدب كالأعاجم .

وكنت إذا حضرت مجلس قاضي القضاة ببغداد أخجل من كثرة ما يلحنُ ولا يرون ذلك عيباً . وأكثر الجهابذة والصبّاغين والصيارفة والدباغين بهذا الإقليم يهود ، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى ، وأعلم أن خمساً في خمسة مواضع من الإسلام حسن : رمضان بمكة ، وليلة الختمة بالمسجد الأقصى ، والعيدين بإصقيليّة ويوم عرفة بشيراز ، ويوم الجمعة ببغداد ، وأيضاً ليلة النصف من شعبان بإيلياء ، ويوم عاشوراء بمكة حسن .

ولهم تجمّلٌ يلبسون الأردية كل عالم وجاهل ، ولا يتخففون في الصيف ، إنما هي نعالُ الطّاقِ[٧٨] . وقبورهم مسنّمة ويمشون خلف الجنائز ويسلّون الميت ، ويخرجون إلى المقابر لختم القرآن ثلاثة أيام إذا مات ميتٌ ، ويكشفون المطر ، ولا يقوّرون الطيالسة .

---

(٧٥) عيد عند المسيحيين يقع في شهر كانون الثاني .

(٧٦) عيد الخضر (القديس جاور جيوس) الذي يحتفل به في مدينة اللد .

(٧٧) أي بإقليم الشام .

(٧٨) حذاء له سير واحد يمانٍ (الكلاش) .

ولأجلّة البزّازين بالرملة حمرٌ مصريةٌ بسروج ، ولا يركب بـه الخيل إلا أمير أو رئيس . ولا يتدرّع إلا أهل القرى والكتبة ولبـاس القريـاتيين برستـاق إيليـا ونابلس كسـاء واحـد حسب ، بلا سراويل ، ولهم أفرنـة ، وللقريـاتيين الطوابين تنّور في الأرض صغير ، قد فرش بالحصى ، فيوقد الزبل حوله وفوقـه ، فـإذا احمرَّ طرحت الأرغفـة على الحصى . وبـه طبـاخون للعـدس والبِيْسـار ، ويقلون الفول المنبوت ويصلقونـه ، ويبـاع مع الزيتـون ، ويملحـون الترمس ويكثرون أكلـه ، ويصنعون من الخرنوب ناطفاً يسمونه القبيّط ، ويسمون مـا يتخـذون من السكر نـاطفـاً ، ويصنعون زلابيـة في الشتـاء من العجين غير مشبكـة ، وعلى أكثر هـذه الرسوم أهل مصر ، وعلى أقلها أهل العراق وأقور .

وبه معادن حديد في جبال بيروت ، وبحلب مغرةٌ جيدة ، وبعمَّانَ دونهـا ، وبـه جبـال حمر يسمى ترابهـا السُمْقَـة[٧٩] ، وهو تراب رخو ، وجبـال بيض تسمى الحوّارة ، فيه أدنى صلابـة ، يبيّض بـه السقوف ويطيّن بـه السطوح . وبفلسطين مقاطع حجارة بيضٌ ، ومعدن الرخام ببيت جبريل ، وبـالأغوار معـادن كبريت وغيره ، ويرتفع من البحيرة المقلوبة[٨٠] ملح منثور[٨١] .

(وفي ذلـك الإقليم) عـدة من الأنهـار تقلب في بحر الروم إلا بردى ، فـإنــه يشق أسفل قصبة دمشق ، فيسقي الكورة ، وقـد شق منـه شعب يتـدور في أعلى القصبة ، ثم ينقسم قسمين ، بعض يتبحر نحو البـاديـة ، وبعض ينحـدر فيلقى نهر الأردن .

ونهر الأردن ينحدر من خلف بانياس ، فيتبحّر بإزاء قدس ، ثم ينحـدر إلى طبرية ويشق البحيرة ، ثم ينحدر في الأغوار إلى البحيرة المقلوبـة ، وهي مـالحـة

---

(٧٩) جمعها سماق . أي صخر خرساني gres أو Sandstone .

(٨٠) أحد أسماء البحر الميت أو بحيرة لوط .

(٨١) ملح ناعم .

جداً ، وحشة مقلوبة منتنـة ، فيهـا جبـال وليس فيهـا أمواج كثيرة . وبحر الروم يمـد على طرفـه الغربي[٨٢] وبحر الصين يمسّ طرفـه الجنوبي[٨٣] . وبـإزاء صور تقـع جزيرة قبرص ، ويقال إنها اثنا عشر يوماً ، كلهـا مـدن عـامرة ، وللمسلمين فيهـا رفق وسعة ، لكثرة ما يحمل منها من الخيرات والثيـاب والآلات وهي لمن غلب ، المسافة إليها في البحر إقلاع يوم وليلة ، ثم إلى بلد الروم مثل ذلك .

ومن العجائب بإيليـا مغـارة بظـاهر البلـد عظيمـة ، سمعت بعض العلمـاء ، وقرأت في بعض الكتب ، أنهـا تنفـذ إلى قوم موسى ، ومـا صـحَّ لي ذلـك ، وإنهـا مقاطع للحجارة ، وفيها طرق يدخل إليها بمشاعل .

وبين فلسطين والحجاز الحجـارة التي رمي بهـا قوم لوط على طريق الحجـاج مخططة صغار وكبار . وبطبرية عين تغلي تعم أكثر حمّامات البلـد ، وقـد شق إلى كل حمام منها نهر ، فبخاره يحمّي البيوت فلا يحتـاج إلى وقيـد . وفي البيت الأول ماء بارد يمزج مقدار ما يتطهرون به ومطاهرهم من ذلك الماء . وفي هـذه الكورة ماء مسخن يسمى الحَمّة حار ، من اغتسل فيـه ثلاثـة أيـام ثم اغتسل في مـاء آخر بـارد وبـه جَرَب أو قروح أو نـاسـور أو أي علـة تكـون برئ بـإذن الله . وسمعت الطبرانيين يذكرون أنه كان عليها بما يدور بيوت ، كل بيت لعلّـة ، فكل من بـه تلك العلة واغتسل به برأ إلى وقت أرسطـاطـاليسَ ، ثم سـأل ملـكَ ذلـك الزمـان هدم هذه البيوت لئلا يستغنوا عن الأطباء ، وصحت لي هذه الحكاية لأن كل من دخلـه من أصحـاب العلل ، وجب أن يخوض المـاء كلـه ليوافق موضـع شفـائـه . وبحيرة زَغُر أو صُغر[٨٤] أعجـوبـة . يقلب فيهـا نهر الأردن ونهر الشراة فـلا يحيـل

(٨٢) أي طرف الإقليم .

(٨٣) يعتبر بحر القلزم ، أو البحر الأحمر ، عند الجغرافيين العرب كذراع من المحيط الهندي الذي يعتبر بدوره قسماً من البحر الشرقي أو بحر الصين .

(٨٤) اسم آخر لبحر الميت .

فيها . ويقال : إنها لا تُغرق سريعاً ، وإن من احتقن بمائها أشفي من علل كثيرة ، ولها موسم في شهر آب ، يذهب إليها الأحداث وأصحاب العلل ... وفي الصيف إذا هبّت الجنوب ينزل على فلسطين في كل ليلة الندى ، حتى يجري منه مزاريب المسجد الأقصى .

ووضع هذا الإقليم ظريف ، وهو أربعة صفوف ؛ فالصف الأول : يلي بحر الروم . وهو السهل رمالٌ منعقدةٌ ممتزجة ، يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل .

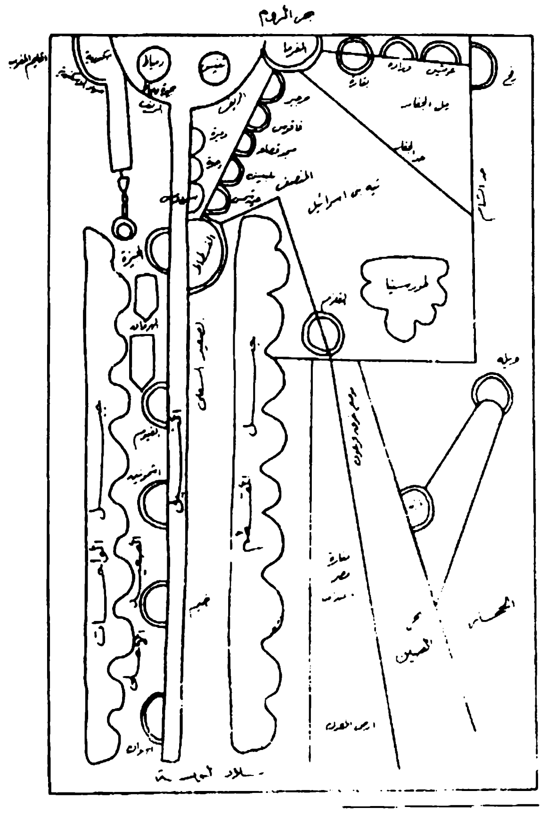
والصفّ الثاني : الجبل مشجّر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وإيليا ونابلس واللجون وكابل وقدس والبقاع وأنطاكية .

والصف الثالث : الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل يقع فيه من البلدان : ويلة وتبوك وأريحاء وبيسان وطبرية وبانياس .

والصف الرابع : سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ، ذات قرى وعيون وأشجار ، يقع فيه من البلدان : مآب وعمّان ودمشق وحمص وتدمر وحلب .

وتقع الجبال الفاضلة مثل جبل زيتا وصدّيقا في الصف الثاني .. وأما الجبال الشريفة فجبل زَيْتا يطلّ على بيت المقدس ، وجبل صدّيقا بين صور وقدَسُ وبانياس وصيدا ، ثم قبر صدّيقا عنده مسجد ، له موسم يوم النصف من شعبان ؛ يجتمع إليه خلق كثير من هذه المدن ويحضره خليفة السلطان ... وأما جبل لبنان فهو متصل بهذا الجبل ، كثير الأشجار والثمار المباحة ، وفيه عيون ضعيفة ، يتعبّد عندها أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القش ، يأكلون من تلك المباحات ، ويرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك وقد قلّوا به ، وجبل الجَوْلان يقابله من نحو دمشق ، وبه لقيت أبا إسحاق البلّوطي في

أربعين رجلاً ، لباسهم الصوف ، ولهم مسجد يجتمعون فيه ، ورأيته فقيهاً عالماً على مذهب سفيان الثوري[٨٥] ، ورأيت تقوّتهم بالبلّوط ثمرة على مقدار التمر مر ، يفلق ويُحلى ، ثم يطحن ، وثَمَّ شعير برّي يخلط به . وأما جبل لُكام فإنه أعمر جبال الشام وأكبرها وأكثرها ثماراً هو اليوم بيد الأرمن وطرطوس من ورائه وأنطاكية دونه[٨٦] ..



(٨٥) فقيه شهير وناسك عراقي توفي عام ١٦١ هـ / ٧٧٨ م .

(٨٦) وينتهي الفصل بقائمة الضرائب النافذة في بلاد الشام . وعرفية الطرق التي تخترق هذا الإقليم والفائدة هزيلة جداً من سردها .

الفِتْيَة المَغرُورُونَ

(القرن التاسع ميلادي)

من المعروف أن مكتشف أمريكا ، أو العالم الجديد ، هو الملاح الجنوي الأصل ، الإسباني الجنسية ، كريستوف كولومب . والواقع أن مكتشفين آخرين ، قد وصلوا إلى بعض أطراف أمريكا . قبل كريستوف كولومب بقرون ، أو بسنين ، مثل الفيكنغ .

وقد اتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا أمريكا قبل كولومب . وأشار أصحاب هذه النظرية إلى وجود كلمات عربية في لغة هنود أمريكا ، وإلى أن كولومب وجد في رحلته الثالثة زنوجاً وذهباً إفريقياً في جزر الهند الغربية . وأن مدنية بعض الجماعات الهندية في أمريكا تشبه المدنية الإسلامية إلى حد كبير[1] .

وليس يغمز من قدر البحار المغامر العظيم كولومب ، أن يقال اليوم : إن غيره من الملاحين قد سبقوه إلى اكتشاف العالم الجديد ، والذي يهمنا في هذا المجال هو ما قام به العرب ، إذ ثبت أنهم حاولوا التعرف على ما وراء (بحر الظلمات) رغماً من خوفهم منه . بعد أن اتخذوا الأساطيل فيه دفاعاً عن ملكهم في المغرب والأندلس .

وفي بعض المصادر التاريخية العربية ما يشهد بأنهم حاولوا النفوذ إليه والتوغل فيه .

ولكن نظراً لأنه لم يصلنا عن هذه الاستكشافات أخبار متواترة . فقد ظل أمرها مجهولاً إلى أن أماط الأوروبيون عن أسرارها اللثام . ويروي لنا المسعودي خبر تلك المغامرات في عبارات موجزة مع الإشارة إلى مصنف له لم يصل إلينا :

« ويذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا في أخبار الزمان وفي أخبار من غرَّر بهم ، وخاطر بنفسه ومن نجا منهم ، ومن تلف وما شاهدوا منه ، وما رأوا . وإذ منهم رجل

---

(١) الأب أنستاس الكرملي . المقتطف . فبراير ١٩٤٥ .

من أهل الأندلس يقال له خشخاش ، وكان من فتيان قرطبة وأحداثهم ، فجمع جماعة من أحداثها ، وركب بهم في مراكب استعدَّها في هذا البحر المحيط ، فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة وخبره مشهور عند أهل الأندلس » .

ويرجع كراتشكوفسكي هذه المغامرة إلى القرن التاسع . أما النقطة التي بلغوها فلا تزال مجالاً للافتراضات والتخمين ، وقد حفظت لنا بتفصيل أكثر أخبار رحلة من لشبونة ، قام بها ثمانية شبان ، أبناء عمومة ، لُقبوا بالمغرورين أي المخاطرين ، ويروي قصتهم كل من العمري وأبي حامد الغرناطي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . قال الإدريسي :

« ومن مدينة لشبونة كان خروج المغرورين في ركوب بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه ... ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب إليهم ، يعرف بدرب المغرورين إلى آخر الأبد . وذلك أنهم اجتمعوا ؛ ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشؤوا مركباً حمالاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية[٢] ، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً . فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش[٣] ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم في اليد الأخرى ، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر إليها . فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين بري ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها ، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فيها . فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك ، فأُخِذوا وحُملوا في مركبهم إلى مدينة على

---

(٢) أي هبوبها .

(٣) أي الصخور التي لا يكاد يسترها الماء ecucils .

ضفة البحر ، فأنزلوا بها في دار ، فرأوا بها رجالاً شقراً ، زعروا شعور رؤوسهم ، شعورهم سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام . ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي ، فسألهم عن حالهم ، وفيم جاؤوا ، وأين بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك : فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك . فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان خبّر القوم إن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا في عرضه شهراً ، إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدي . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل . ثم صُرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدا جريُ الريح الغربية فعمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجرى بهم في البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جيء بنا إلى البر ، فأخرجنا وكتفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ، ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة فحلُّوا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وأسفي . فسمي المكان إلى اليوم (آسفي) وهو المرسى الذي في أقصى المغرب » .

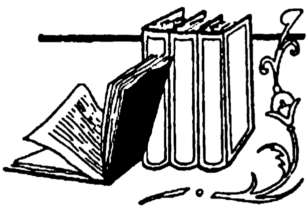
ويستنتج الدكتور زكي محمد حسن أن الفتية المغامرين وصلوا إلى جزر آسور التي يرجح أنها لم تكن مجهولة عند الفينيقيين والقرطاجنيين والنورماندين والعرب ، ومنها انتقلوا إلى جزر ماديرا وقبض عليهم في جزر كناري (الخالدات) .

كما لا يستبعد العلامة المرحوم الأمير مصطفى الشهابي أن يكون الشاطئ الذي رسوا فيه إحدى

جزر أمريكا الجنوبية في البحر الكاريبي أو الأنتيل ، لأن مثل هذه المدة التي قطعوها تحملهم إلى هذه المنطقة . ولا يستبعد بعد ذلك أن يكون هؤلاء العرب قد استوطنوا هذه الجزيرة واختلطوا بأهلها ثم توغلوا في القارة الجنوبية .

وفي عام ١٩٥٢ نشرت صحف البرازيل تصريحاً للدكتور (جفرز) أستاذ العلوم الأثرية الاجتماعية في جامعة (ويتواتر ستراند) في جمهورية إفريقية الجنوبية ، جاء فيه أن كتب التاريخ تخطئ عندما تنسب اكتشاف أمريكا إلى كريستوف كولومب ، ذلك لأن العرب في الواقع هم الذين اكتشفوها قبله بمئات السنين .

قام الأستاذ المذكور بدراسات دقيقة ، استغرقت ست سنوات انتهى بنتيجتها إلى الإدلاء بهذه النظرية قال : ترجح لدي أن العرب قد وصلوا إلى العالم الجديد قبل أن يصل إليه كولومب بمدة ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة . ويعتقد جفرز أنه أول من توصل إلى هذه النتيجة ، وأنها خطرت له منذ ثمانية عشر شهراً عندما كان يبحث عن تعليل معقول للهياكل البشرية التي عثر عليها في ولاية غراندة البرازيلية . فبدا له أنها هياكل أشخاص من الشعوب السوداء الحامية ، وخلص إلى نتيجة مفادها أن هؤلاء من سلالة عبيد هربوا من بيوت أسيادهم العرب .



الهَمَدَانِي

(ولادته ٢٨٠ هـ ـ وفاته ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م)

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني ، المعروف بابن الحائك ، وسمي ابن الحائك للتنقيص ، ويفسر القفطي هذا اللقب بأن جده سليمان بن عمرو المعروف بابن ذي الدمنة . كان شاعراً فسمي حائكاً لحوكه الشعر ، ويسميه ياقوت في معجم البلدان (ابن الدمينة) ، وسمي لسان اليمن .

ولم يصلنا سوى النزر اليسير عن سيرة حياته ، فقد ولد في صنعاء بتاريخ ١٩ صفر سنة ٢٨٠ هـ من أسرة يمنية تنتسب إلى قبيلة همدان الشهيرة في جنوب جزيرة العرب .

ويذكر الهمداني أن أباه كان يتاجر بالذهب ، وكان رحالة وصل الكوفة والبصرة وبغداد وعمان ومصر ، وخال أبيه الخالص بن معطي كان ممن ولي ديار صنعاء وعناية آله بالصناعات كالتعدين وغيره ، وصلة ذويه بالعراق قديمة ، فقد كان أبو جده محمد بن يعقوب يعرف بالبصري ، وهو عم الهمداني الذي تزوج ابنته ، كما ورد في (الإكليل) . ويظهر أنه شارك أهله في عملهم وهو الجمالة ـ أي حمل التجار والحجيج إلى مكة من صعدة ـ كما يذكر كثرة صلاته ببعض مشاهير زمنه مادحاً مما يدل على أنه كان يتعرض للعوز والحاجة كقصته مع ابن الروية التي أوردها القفطي .

ويظهر إنه في إحدى رحلاته طاب له المقام في مكة ، فجاور فيها وهو في أول عمره ، كما يدل على ذلك اجتماعه بالخضر بن داود أحد علماء مكة ، وكتب صدراً من الحديث والفقه ورواه . ثم عاد إلى اليمن ، فنزل صعدة التي كانت آنئذ قاعدة أئمة الزيدية الذي وفدوا على البلاد منذ ربع قرن ، ويؤازرهم بعض القبائل اليمنية ، وكانوا في نزاع مع الأبناء من الفرس الأمراء اليعفريين ، وقاعدتهم صنعاء ويشد أزرهم أمراء آخرون من رؤساء القبائل .

وفي سنة ٣١٦ هـ وخلال إقامته في صعدة ، وأثناء ما وقع بينه وبين شعرائها ألّف (شرح الدامغة) . ويظهر أن إقامته في صعدة عائداً من مكة سنة ٣٠٧ هـ لم تكن مريحة تماماً بالنسبة للهمداني ، إذ دخل في نزاع شديد مع الشعراء ، فدخل السجن بين ٣١٩ و ٣٢١ هـ ، وكذلك في سنة ٣٢٢ هـ لاقى بعض الشدة بسبب الحروب مع القبائل الثائرة على الإمام الناصر ، وتوفي عام ٣٣٤ هـ

(٩٤٥ م) في سجن صنعاء ضحية مكائد خصومه ودسائسهم ، ولكن الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي محقق (صفة جزيرة العرب) يرى أن الهمداني عاش لما بعد ٣٤٤ هـ ، أي أن صاحبنا عاش حوالي ٦٤ عاماً .

والهمداني كما يتراءى لنا من خلال مصنفاته عالم من نوعية فريدة ، يلتهب حماساً بحب بلاده وقبيلته ، ومتعدد المعارف استوعب شطراً كبيراً من علوم عصره ، بل تجاوزها في إلمامه بعلم الآثار القديمة ، وهو أمر نادر بين علماء ذلك العصر ، فالهمداني الجغرافي نجده واسع المعرفة في الجغرافية الفلكية ، كتضلعه في علم التاريخ ، وهو شاعر إلى جانب اهتمامه بعلم الأنساب ، والأدب الشعبي القديم في جنوب غرب الجزيرة العربية ، ومما يثير الإعجاب في شخصيته أنه تمكن من فك رموز الكتابة العربية القديمة في جنوبي الجزيرة .

ويشهد كتابه (الإكليل) الذي يقع في عشرة أجزاء على سعة اطلاعه ، إذ صب فيه كل معارفه بالأنساب والتاريخ والآثار ، ومن قلاع وأضرحة ، وغير ذلك مما يتعلق بالنواحي الأثرية في اليمن ، حتى إنه تعرض لأدب الحميريين من قدامى العرب ، وإذا كان قد ذكر الكثير مما وصله من أساطير تراكمت في ثنايا الأدب العربي بعد الرسالة المحمدية ، فقد وقف وقفة الناقد الفطن مستنداً على دراسة النقوش التاريخية ، إذ لم يكن الهمداني من الذين يعتمدون على النقل من الكتب فحسب ، بل كان يجوب آفاق الجزيرة ويدرس معالمها ويسجل ما رآه رأي العين واختبره بالمشاهدة .

أما كتابه (صفة جزيرة العرب) الذي نشره في القاهرة محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي ، وهو موضع اهتمامنا في هذا المجال ، فقد تناول المظاهر الطبيعية في شبه جزيرة العرب وأجناس سكانها ، وقبائلها ، وما ضمت من حيوان ومعادن وطرق وأماكن استقرار الناس فيها . ويغلب على الظن أن وصفه لبلاد اليمن إنما كان نتيجة الملاحظة الشخصية دون إهمال ما تركته له المصادر السابقة من مادة جديرة بالتدوين ، أما وصفه لبقية أرجاء الجزيرة فقد جاء في معظمه استناداً إلى روايات الحجاج والرحالة ، مثلما اعتمد إلى حد كبير على مادة الجغرافيين اللغويين ممن سبق لهم أن اهتموا بدراسة جزيرة العرب ، مثلما يورد نصوصاً من مؤلفات لم يتح لغيره من المؤلفين الاطلاع عليها .

ويبدأ كتابه بمقدمة رياضية جغرافية وافية متأثراً ببطليموس ، ويتعرض فيها لمختلف طرائق تحديد العروض والأطوال ، مثلما يقدم وصفاً عاماً لأقاليم الأرض السبعة . غير أن الجزء الجوهري من كتابه ، فقد خصصه لوصف جزيرة العرب ، وهذا منطقي لأن كتابه يحمل الاسم نفسه وينقسم كتابه إلى خمسة أبواب رئيسية في وصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن . وإذا كانت اليمن تحتل مكان الصدارة كما هو منتظر ، فإن حضرموت القريبة لا تحظى بأكثر من نبذة عابرة طفيفة . فهو يسهب في الكلام عن اليمن ، فيتوسع في حديثه عن قبيلة همدان ، ويغتنم كل مناسبة للكشف عن تبحره في الآثار

والنقوش العربية التي كثيراً ما أفلح في فك رموزها ، مثلما تتجلى معرفته بالرواية السماعية والأدبية ، وشدة تحريه دقة ما أودع كتابه من معلومات . وحين أراد أن ينقل أرجوزة الحج التي نظمها أحمد بن عيسى الرادعي ، لم يثبتها إلا بعد أن تلمس صحتها من أصدق المصادر ، ذلك أن أهل صنعاء ـ وخاصة الأبناء ـ تناولوها بالتحريف والتغيير غيرة منه وحسداً ، فلم يكن بصنعاء نسخة صحيحة عنها ، وما زال الهمداني يبحث ويستقصي إلى أن أتيح له سماعها من أحمد بن محمد بن عبيد ، دون أن يغمط أحداً حقه . وفيما ذكرنا أسلوبان من المناهج العلمية التي تبناها الهمداني في تأليف كتابه القيم الذي يعتبره أشبرنجر أفضل ما أنتجه العرب في الجغرافية إلى جانب كتاب المقدسي .

نعم لقد أمسك الهمداني بعنان المادة الأدبية دون أن يطغى ذلك على الملاحظة العيانية المباشرة . وأكبر دليل على ما للهمداني وكتابه الجليل من الفضل هو أن الكتاب لا زال محتفظاً حتى أيامنا هذه بأهميته العلمية ، فقد أشار الرحالة مالتزان Maletzan الذي تجول في كثير من مناطق الجزيرة ، إلى أن كتاب الهمداني يساعد كثيراً في دراسة جزيرة العرب في الوقت الحاضر . أما في مجال الجغرافية الإقليمية فيمتاز كتاب الهمداني على جميع المؤلفات الجغرافية في القرن التاسع ، ولا يضارعه في القرن العاشر سوى كتاب (ما للهند من مقولة) للبيروني . وأكبر دليل على ذلك أن (صفة جزيرة العرب) كانت منهلاً غزيراً استقى منه أبو عبيدة البكري معظم محتويات الجزء الأول ، فتارة ينسب إليه فيما نقل وأحياناً يهمل ذلك ، ونقل عنه ابن دحية محمد بن حسن الكلبي (٥٤٤ ـ ٦٣٣ هـ) في كتابه (المغرب في أشعار أهل المغرب) ، وكذلك صنع ياقوت الحموي الذي كان غالباً ما يشير إلى الهمداني في سياق كلامه . ويأخذ بن بليهد النجدي على الهمداني عدم ترتيبه موضوعات كتابه حسب طريقة المعاجم ، وشدة إيجازه في كلامه عن الساحل الجنوبي لجزيرة العرب .

ومؤلفات الهمداني عديدة نذكر منها : « الإبل » و « أخبار الأوفياء » و « الأيام » و « الأنساب » و « الحيوان » و « الدامغة » التي هي عبارة عن قصيدة تقع في ٦٠٠ بيت يقول في مطلعها :

ألا يا دار هلا تنطقينا نسائلون ومخبرونا

وفيها يرد على الكميت بن زيد الأسدي في تفضيله عدنان على قحطان ، ولا عجب فالهمداني شديد التعصب كما قال عنه محب الدين الخطيب : « يثبت الهمداني حقائق العلم ما استطاع في كل ما لا يمس همدانيته ويمنيته ، فإذا مسّ العلم هذا الجانب الحساس من المؤلف وجد فيه ضعفاً » .

هذا فضلاً عن « زيج الهمداني » و « شرح الدامغة » و « سرائر الحكمة » و « السير والأخبار » و « الطالع والمطارح » و « عجائب اليمن » و « القوي في الطب » و « المسالك والممالك » و « مفاخر اليمن » و « اليعسوب » .

صِفَةُ اليَمَنِ الخَضْراء

« سميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها ، والبحر مطيف بها من المشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى الغرب ، ويفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب خط واحد من حدود عُمان ويبرين إلى حد ما بين اليمن واليمامة ، فإلى حدود الهُجيْرة وتثليث وأنهار جرش وكُتْنَة ، منحدراً في السراة على شَعَف عنز إلى تهامة على أم جَحْدم إلى البحر حذاء جبل يقال له كُدُمُّل بالقرب من حَمِضَة ، وذلك حد ما بين بلد كنانة واليمن من بطن تهامة ، وأول إحاطة البحر باليمن من ناحية دَما فطنوس فالجُمْحَة فرأس الفَرْتَك فأطراف جبال اليحْمِدْ ، وما سقط وانقاد منها إلى ناحية الشِّحر ، فالشِّحر فغُبّ الخيس فغُبّ الغيث بطن من مَهْرَة ، فغُب القمر زنَة قمر السماء ، فغُب العُقار بطن من مهرة ، فالخَيْرَج والأسعاء .

وفي المنتصف من هذا الساحل شرقاً بين عُمان وعدن رَيْسُوت ، وهو موئل كالقلعة ، بل قلعة مبنية بنياناً على جبل ، والبحر محيط بها إلا من جانب واحد ، فالبر . فمن أراد عدن فطريقه عليها ، فإن أراد أن يدخل دخل ، وإن أراد جاز الطريق ولم يَلْو عليها وبين الطريق الذي يُفْرق إليها والطريق المسلوك إلى عُمان مقدار ميل ، وبها سَكَن من الأزْدِ من بني جديد ، وقد كان قوم من القَمَر في أول عصرنا بيَّتوا مَنْ بها ليلاً فقتلوا ، فمّن قتل بها رجل يقال له : عَمْرو بن يوسف الجُدَيْدي من رؤوس أهلها أزدي ، والذين أبلو ذاك من القمر بنو خَنْزريت ، وأخرجوا من بقي من أهلها منها ، فتفرقوا إلى بلاد الغيث من مَهْرَة ، فسكنوا موضعاً منها ، يقال له حاسك ومرباط مدة ، ثم أعانتهم الثّغرا من مَهْرَة حتى رجعوا إلى قلعتهم ، فلما دخلوا القلعة بعون الثغرا خافت بنو خنزريت ، فخرجوا إلى البلدان ، وخرج رئيسهم محمد بن خالد بجماعة من بني خنزريت حتى دخلوا

موضعاً ، يقال له رُضاع برفع الراء ، وساكنه بنو ريام بطن من القمر فجاوروهم .

ولبني ريام حصن بعُمان عظيم لا يرام ، ويقال : إن ساكن ريْسُوت القدماء البياسرُ ، ونزلت عليهم جُدَيْد من الأزد ، فتراسَّت فيهم ، ثم نهكتها من جَديْد ناس من أحياء العرب غير مَهْرة ، وقد يتزوجون إلى مَهْرة . ورأس من بها بعد ذلك موسى بن ربيع من العُدَس ، ثم ينعطف البحر على اليمن مغرباً وشمالاً من عدن ، فيمر بساحل لَحْج وأبْيَنَ وكثيب برامس وهو رباط ، وسواحل بني مجيد من المِنْدَب ، فساحل العُمَيْرَة والعارة فإلى غَلافِقة ساحل زبيد ، فكَمران فعُطَينة فالحِرَدة إلى منفهق جابر ، وهو رأس غرير كثير الرياح مديدها ، إلى الشَّرَجَة ساحل بلد حَكَم ، فباحة جازان إلى عَثَّر فرأس عَثَّر ، وهو كثير الموج ، إلى ساحل حمصة فهذا ما يحيط باليمن من البحر .

ذكر جزائر البحر

وأما ما يجاور سواحل اليمن من الجزائر التي في البحر المحيط بها فَدَهْلَك وكَمران ، وهي حصن لمن ملك يماني تهامة ، فجزائر فَرَسان ، فجزيرة زَيْلع ، وفيها سوق يجلب إليها المِعْزى من بلاد الحبش ، فتشترى أهُبها ، ويرمى بأكثر مساليخها في البحر ، وجزيرة بربرا وهي قاطعة من حد سواحل اليمن ، ملتحقة في البحر بعدن من نحو مطالع سهيل إلى ما شرق عنها وفيما صالى منها عدن وقابله جبل الدخان ، وجزيرة سُقُطرى وإليها ينسب الصبر السُقُطري ، وهي وجزيرة بَرْبَرا مما يقطع بين عدن وبلد الزنج ثابتاً على السمت ، فإذا خرج الخارج من عدن إلى بلد الزنج ، أخذ كأنه يريد عُمان ، وجزيرة سقطرى تماشيه عن يمينه حتى تنقطع ، ثم التوى بها من ناحية بحر الزنج ، وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخاً ، وفيها من جميع قبائل مَهْرة ، وبها نحو عشرة آلاف مقاتل وهم

نصارى ، ويذكرون أن قوماً من بلد الروم طرحهم كسرى بها ، ثم نزلت بهم قبائل من مهْرة فساكنوهم وتنصّر معهم بعضهم ، وبها نخل كثير ، ويسقط إليها العنبر ، وبها دم الأخوين وهو الأيْدع والصَّبر الكثير ، وأما أهل عدن فيقولون : إنه لم يدخلها من الروم أحد ولكن أهَّلَها الرهابنة ، ثم فنوا وسكنها مهرة وقوم من الشُّراة ، وظهرت فيهم دعوة الإسلام ، ثم كثر بها الشُّراة فَعَدوا على من بها من المسلمين فقتلوهم غير عشرة أناسية ، وبها مسجد بموضع يقال له السوق .

مدن اليمن التهامية

عدن جنوبية تهامية ، وهي أقدم أسواق العرب ، وهي ساحل يحيط به جبل ، لم يكن فيه طريق ، فقطع في الجبل باب بزُبر الحديد ، وصار لها طريقاً إلى البر ودرباً ، وموردها ماء يقال له الحَيْق ، أحْسَاءٌ في رمل ، في جانب فلاة إرَم ، وبها في ذاتها يؤود ملح وشروب ، وسكنها المَرْبُونَ يقولون : إنهم من ولد رون ، ومن أهل عدَن ابن مُناذِر الشاعر وابن أبي عَمْرو المحدث .

ولحج وبها الأصابح وهم ولد أصْبَح بن عمرو بن حارث ذي أصْبَح بن مالِك بن زيد بن الغوث بن سَعْد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سَدَد بن زُرْعة وهو حِمْير الأصغر .

وأبْيَن وبها مدينة خَنْفَر والرُّوانج ، وبها بنو عامر من كندة قبيلة عزيزة .

ومَوْزع ، والشقاق والمندب وهما لبني مجيد بن حَيْدان بن عمرو بن الحاف وفَرَسان قبيلة من تغلب ، وكانوا قديماً نصارى ، ولهم كنائس في جزائر الفرسان وقد خربت ، وفيهم بأس ، وقد يحاربهم بنو مجيد ، ويعملون التجارة إلى بلاد الحَبَش ، ولهم في السَّنة سَفَرَة ، فينضم إليهم كثير من الناس . ونُسَّاب حِمْير يقولونْ : إنهم حمير .



رسم قديم لميناء صحار في غرب الجزيرة العربية وأمامه السفن التي تخرج منه لتجوب أنحاء المحيط الهندي وتعود مثقلة ببضائع الهند والصين

والحُصَيب وهي قرية زبيد وهي للأشعرين ، وقد خالطهم بأخْرَة بنو واقد من ثقيف .

وقرى بواديها حَيْس وهي للرُّكب من الأشْعَر ، والقَمْحَة للأشاعرة وفيها من خَوْلان وهَمْدان ، وذُوال المعْقِر ، والكدْراء مدينة يسكنها خليط من عَكّ والأشعر ، وباديتها جميعاً من عك إلا النُّبذ من خولان ...

ثم المهجم وهي مدينة سُرْدُد وأكثر بواديها وأهل البأس منهم خوْلان ، من أعلاها وأسفلها وشماليها لعَكّ .

ومَوْرٌ وبه مدينة يسمى بَلْحَة لعكّ ، ومَوْر أحد مشارب اليمن الكبار ، ثم الساعد من أرض حكم ابن سعد قرية لحكم ، والسّقيتان قرية لحكم على وادي خُلَب ، ويكون بها وبالساعد أشراف حَكَم بنو عبد الجد .

ثم الهَجَر قرية ضَمَد وجازان ، وفي بلد حكم قرى كثيرة يقال لها المخاوف وصَبْيا . ثم بَيْش وبه موالي قريش ، وساحلة عَثر وهو سوق عظيم شأنها ، وقد تُثَقّلُهُ العرب فيقولون عثَّر ، وإلى حازة عَثَّر تنسب الأسود التي يقول لها أسود عثر ، وأسود عِتْود وهي قرية من بواديها ...

ثم مدينة صنعاء

وهي أم اليمن وقطبها لأنها في الوسط منها ، ما بينها وبين عدن كما بينها وبين حد اليمن من أرض نجد وحجاز . وكان اسمها في الجاهلية أزال ، ويسميها أهل الشام القَصَبَة ، وتقول العرب : لا بد من صنعاء ولو طال السفر .

وينسب إلى صنعاء صنعاني مثل بهر وبهراني لأنهم رأوا النون أخف من الواو . وخولان لا تنسب إليها إلا على بنيّة الأصل صنعاوي . وكلهم يقولون في ساكن الكدراء كدراوي ولا يقولون كدراني .

وصنعاء أقدم مدن الأرض لأن سام بن نوح الذي أسَّسها وقد جمعت أخبارها في القديم في كتاب الإكليل وأضربنا عن ذكر قديمها في هذا الموضع صفحاً ، ولم يزل بها عالم وفقيه وحكيم وزاهد . ومن يحب الله عز وجل المحبة المفرطة ، ويخشاه الخشية اليقظى على نحو ما ذكره بطليموس في طبائع أهل هذا الصُّقع ، وهم مع ذلك أهل تمييز لعارض الأمور ، وخدمة السلطان بأهبة ، وتملك وتنعّم في المنازل ، ولهم صنائع في الأطعمة التي لا يلحَقُ بها أطْعِمَة بلد ، ولهم خط المصاحف الصنعاني المكسر والتحسين الذي لا يلحق به ...

أودية السراة والقاطعة فيها حتى تنتهي في البحر أولها : أودية مَوْزَع وللشّقاف يهريق[1] فيها ذُبحان ، والمعافر فَفَجٌّ صُحَارَة وحرازة ووادي الملح من رَسبان ، وبلد الركب فيلتقي هو ونخلة بحيس ، وجانب وادي نخلة يهريق في القُرْتب من جنوبي زبيد .

ووادي زَبيد وهو بعيد المأتى وأول مسايله من ذي جُزْب وأشراف ... وشرعة الغربية ويَريم فسحمر والأحطوط والشملال حتى يلتقي سيل سيّة بالجُبْجبة فيمدها لحج ومُلح ، ويلتقي الجميع سيل حَمر ، وتجتمع كلها بحمْض ، وأهله من حمْير أهل حد ثم تمر بمعط الفيل ، ويضامها سيل نعمان ، ثم تنحدر كلها بلد الوحش ، فتلتقي سيل السحُول وبلد الكلاع وصدور بعدان وريمان ، ثم يلتقي بها أودية عنّة ، ويجمعها الفتح والجفنة وحجر قمران والملاحيط إلى زبيد ، فيسقي جميع ما حف به إلى البحر .

ثم يتلوه وادي رِمع ، وهو واد حار ضيق ، وأوله من أشراف جهْران وغربي ذي حشران إلى وادي الشجبة ، ويهريق فيه من يمينه جنوبي ألهان فانيس ، ومن شماله شمالي بلد جمع وَسُربة حتى يرد شجبان ، فسلك بين جبلان العركَبة وجبلان

---

(١) يهريق : يصب ، يرفد .

ريمة ، وظهر بذُؤال فسقى مزارعها إلى البحر ، وفي أسفل رمع موضع الماء الذي كان يسمى غسّان .

ثم يتلوه وادي سهام ، وأوله ورأسه نَقيل السُّوْد من صنعاء على بعض يوم إلى ما بين جنوبها ومغربها ، ويهريق في جانبه الأيمن جنوبي حَضور وجنوبي الأخْروج وجنوبي حَراز ، ويهريق في جانبه الأيسر شمالِيّ ألْهان وعشار وبُقلان وشمالي أنِسَ وصَيحان وشمالي جَبلان زيُمة والصُّلي وجبل بُرع ، ويظهر بالكَدْراء وواقر فيسقي ذلك الصُّقْع إلى البحر ، فيهريق وادي العرب فيما بين الكدراء وزبيد بناحية المعقر والأخوات التي بينه وبين الكدراء ومساقي وادي العرب مما بين بُرع ومساقط جبلان رَيْمة وقُعار .

ثم يتلوه وادي سُرْدد ، ورأسه أهْجُر شبام أقيان ، فمساقط حضور من شَمّ وماضِخْ وبلد القيْد ، ثم يهريق في أيمنه جبل تَيس ونُضار وبَكيل وَقَيْهَمَة وجنوبي حُفاش ومن أيسره جبال حراز والأخروج ، ويظهر بالمهجم فيسقيها وما يليها إلى البحر .

ثم يتلوه وادي مَوْر ، وهو ميزاب تهامة الأعظم ثم يتلوه في العِظَم وبعد المأتى زَبيد . ومساقي مَوْر تأخذ غربي همدان جميعاً وبعض غربي خَوْلان وبعض غربي حمير ، فأول شعابه ذُخار وشُريْب من جبل ذُخار ومَسْوَر فالشوارق وتُخلي وشمالي تَيس ونُضار والباقر وشاحذ وجَرابي وسُمْع وجوانب مِلْحان ، والمضْرِب جبل في أصل ملْحان ، فبلد صَحار ، فبلد بني حارثة وبني رفاعة وحماد ، ويَردُ ويمدّ حجُور فَعَيّان فأدران فحجة فَنَمل وشرس وقيلاب حتى يلتقي بمَوْر الآتي من بلد خوْلان وشمالي بلد همدان ، ويمد ذلك مساقط الشرف شرقاً وجنوباً ، فهذا أحد فرعيه . والفرع الثاني رأسه شعبه الهلّة وعدبوه ، فالموفر والدحض وغربي أبْذار وموطك ومحلا ، فبلد عذر وهِنْوم وبلد حجُور ومساقط بلد وادِعة ، وبلد الجُواشة وبلد بني عبد البقر وأخْرف ، ويلقي سيل الحَفْر وصرايم ، والكلابج ،

وشظب وذرمان ، وبلد المرانيين ، فبلد وثن شمالي موتك ، وحجّة وما أخذ أحد بلد قُدم بن قادم ، ومن أيمنه سدّ ساقين وتصراع فيه أراب وحيُدان وشرقي مطْرق ، وكريف خولان ، ويسمى ما يصل إليه من أمير فجنوب سحيب وبلد العَهْرا .



أَحْمَد الرَّازِي

(توفي سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م)

هو أحمد بن محمد بن موسى الرازي التاريخي الأندلسي . كل ما نعرفه أنه رحالة مشرقي المولد استقر بالأندلس وتوفي فيها عام ٩٧٣ م . ويذكر كراتشكوفسكي أن تاريخ وفاته يقع في عام ٩٥٥ / ٣٤٤ هـ ، بينما يرجح الدكتور زكي محمد حسن التاريخ الأول . ويعتبر أول من أدخل الجغرافية الإقليمية إلى الأندلس ، واشتهر في أوروبا تحت اسم Elmore Elrasis ، وقد ألف كتابه في وصف إفريقية والمغرب وكان من أهم مراجع البكري . ولم يصلنا شيء من تأليفه إنما حفظ لنا مصنفه التاريخي في ترجمة إسبانية ترجع إلى عهد متأخر ، نقلت بدورها عن ترجمة برتغالية مفقودة . وتشير جميع المصادر إلى أنه وضع كتاباً كبيراً في طرق الأندلس ومرافئها ومدنها الكبرى والأجناد العربية الستة التي نزلتها بعد الفتح . وعلى الرغم من أن استعمال مصنف مر بترجمتين أمر معقد ، فإن كتاب الرازي مصدر هام جداً لمعرفة الأحوال الجغرافية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الثالث أي في عهد ازدهار خلافة قرطبة . ويبدو أنه وضع مصنفاً خاصاً بقرطبة هو (كتاب في وصف قرطبة) على غرار كتاب ابن طيفور في وصف بغداد ، وترد فيه تفاصيل عن شوارعها وقصور الأعيان بها .

وقد ترجم كتابه للمرة الأولى بأمر من الملك البرتغالي دنيس Denis الذي عاش بين ١٢٧٩ - ١٣٢٥ م . وقام بالترجمة Gilperes ، وهو قسيس كان يجهل العربية فاستعان بالتراجمة المسلمين ، لا سيما بالمعلم الحرفي محمد ، وقد لخصت الترجمة باللغة الإسبانية ، ونقلت عدة مرات وتعود الترجمة الأولى ، أي البرتغالية ، لعام ١٣١٦ م .

ومما يلفت النظر في القسم الذي يمكن جمعه عن « وصف إفريقية والمغرب » كما هو الحال في أقواله الواردة والمنقولة كثيراً . وبصورة كثيفة ، في مختلف مجلدات كتاب « المقتبس » لابن حيَّان ، هو أن هذا الرجل المشرقي الذي استقر بالأندلس ظل مشرقياً في أسلوبه وفي لغته لدرجة أنه يبدو من العبث البحث عن أي طابع أندلسي مميز في كتابته ، في حين تكثر العبارات المستمدة من العربية الأندلسية لدى ابن حيان ولدى البكري . وهكذا ظل الرازي وفياً للطريقة التقليدية ، ولم يقم بأي تنازل تجاه بلده الجديد بالتبني .

وهكذا ظل في زمرة معاصريه المشارقة مثل ابن حوقل والمقدسي .

وعن هذا الرازي المشرقي قام جيل بيريز Gil Peres ، واستعان بالتراجمة في نقل كتابه إلى البرتغالية . لذا ليس من المستغرب أن يعجزوا أحياناً عن فهم بعض تباينات الأسلوب ، وأن يقعوا أحياناً في المعنى المغلوط أو حتى في المعنى المعاكس . وقد حيَّر أحمد الرازي المترجمين بإيجازه المتناهي . ومع أنهم كانوا يفهمون المعنى العام لجملة ما بصورة مكثفة إلى حد ما ، فقد اضطروا للتعبير عنها بلغة تنتسب لأرومة أخرى ، وإلى اللجوء إلى التفسير أو إلى اللف حول المعنى . بيد أن جيل بيريز ومعاونوه والذين اقتبسوا عنه فيما بعد كانوا يسقطون بالخطأ عندما كانوا يقفون أمام أسماء أعلام جغرافية أو تاريخية تقع في بلادهم ذاتها . وهكذا تشوهت أسماء الأمكنة واختلطت بعضها ببعض كما شوهت أسماء الأشخاص ، وهكذا خلطوا في المقاطع المتعلقة بفتح إسبانيا بين طارق بن زياد وموسى بن نصير كي يتوصلوا إلى اسم فريد هو (طارق بن نصير) . كما أن شخصية شهيرة مثل حبيب بن عمر الذي ثار في قرمونة على نهر الوادي الكبير في مطلع عهد عبد الرحمن الثالث أصبح اسمه في النسخة البرتغالية عباد جوهام ومعناها (الشماس حنا) . كما خلطوا بين أسماء المدن الثلاث وهي سرقوسة وطرّكونة وطرزونة . وقد أمكن التعرف على هذه الأخطاء بعد كشف بعض آثار أحمد الرازي في كتاب (الروض المعطار) .

النص الأول

هذه نبذات من كتاب أحمد الرازي ، مقتبسة من كتب عربية أخرى ، أي من خارج الترجمة البرتغالية الإسبانية .

« طرسونة : كانت مستقر العمال والقواد في الثغور ، وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان المعروف بصاحب الأرض اختارها محلاً ، وآثرها على مدن الثغور منزلاً ، وكانت ترد عليه عشر مدينة أربونة وبرشلونة ، ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة وإيثارهم لها لفضل بقعتها واتساع خطّتها .

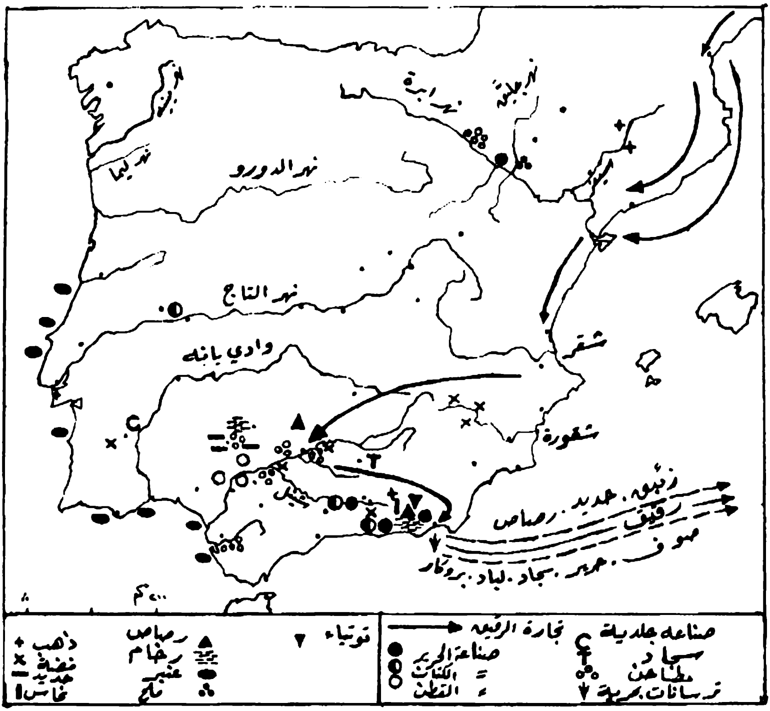
مدينة باجة : من أقدم مدائن الأندلس . ابتنيت أيام جاسر[1] أول القياصرة ، وهو الذي ابتدأ بتوزيع الدنيا وتكسيرها[2] ، وأرضها أرض زرع

(١) يوليوس قيصر .

(٢) أي قام بأعمال المساحة والكادسترو .

وضرع ، ونوارها يحسن للنحل ، ويكثر عنه العسل ، ولمائها خاصيّة في دباغ الأدَم لا يبلغه دباغ .

ناحية لشبونة : تلازم ناحية شنتارم[٢] ناحية لشبونة . وتقع لشبونة في غرب باجة وغرب قرطبة ، وتتمتع أرضها بكل أنواع المزايا ، ولها أثرة فاضلة في



صورة أسبانيا في القرن العاشر ميلادي . استناداً إلى كتابي الرازي وابن حوقل

(٢) أي Santarem في البرتغال .

طيب الثمرات ، وتمكن في ضروب الصيد براً وبحراً . وبزاتها الجبلية أطيَرُ البزاة وأعتقها . وفي جبالها شورة النحل ومن العسل الخالص البياض كالسكر ، ويوضع في خرقة فلا يكون له رطوبة .

لَبْلَة : جامعة لكل قضّةٍ من الفوائد محبوّة بصنوف الخيرات ، لم يبعد عنها شيء من المرافق ، جمعت البر والبحر والزرع والضرع والخيل والنتاج وأجناس الثمر وكثرة الزيتون والأعناب وأرضها يجود فيها العصفر » .

النص الثاني

أنهار الأندلس

هذا النص منقول إلى العربية من الترجمة الإسبانية وقد قام بتعريبه المستشرق الفرنسي ل . بروفنسال ، وحاول أن يسبكه في قالب عربي يتلاءم مع أسلوب أحمد الرازي وقد نشره في مجلة (الأندلس) الإسبانية . (شكل ١٨) .

« من الأنهار المشهورة ببلاد الأندلس :

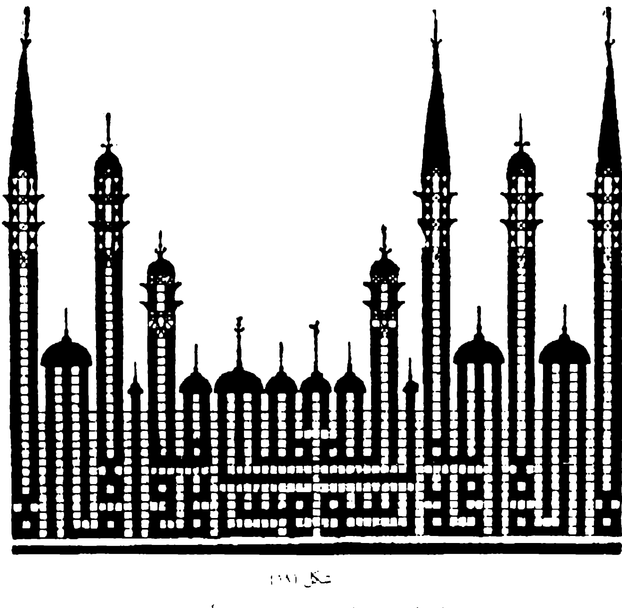
نهر قرطبة أي Guadalquivir ويعرف بنهر بيطي Baetis مخرجه من ناحية رِيْمَيّة ، وبين منبعثه إلى موقعه في البحر بعد إشبيلية ثلاثمئة ميل وعشرة أميال . ويقع فيه سنجيل Genil ، وهو ينبعث من الثلج من جبال البيرة Elvira ، وعليه مدينة إستجة Ecija .

ونهر بُلَيّلشُ Bellilos يقع فيه مجتمع النهرين في فحص[٤] البيرة ، ويقع فيه عيون لَوْشه Loja ويقع فيه وادي شوس Guadajoz ومخرجه من جبال باغُه

(٤) سهل .

Priego . ويقع فيه الوادي الأحمر ومخرجه من جبال النشكة بأقل جدول من سنجيل وتعلوه حمرة وكدر وينصب فيه بُلُّون Guadalbullon وأنهار كثيرة .

نهر ترميد Roi Segura ومخرجه بقرب من مخرج نهر قرطبة من ناحية النّشكة ، وجرْيه إلى الشرق ، وانصبابه في البحر الشامي وهو نهر أضْغَطَهُ الجبال encaisse[٥] بموضع يعرف برقوط Ricote على ثمانية عشر ميلاً من مرسية ، ولولا هذا الجبل يغرق السيل مرسية .



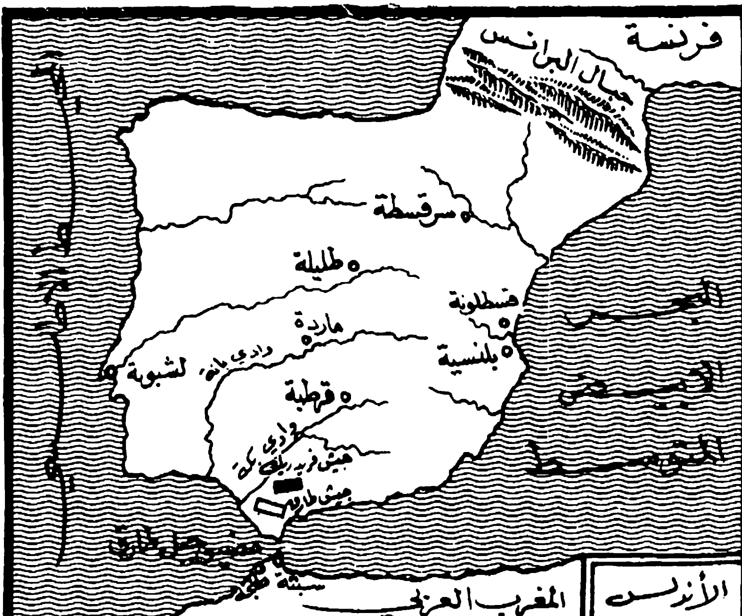
شكل (٩١)

شعار غلاف مجلة الاستشراق الإسبانية (الأندلس)

---

(٥) أي متعمق .

نهر آنـه Guadiana[٦] ومنبعثـه بين شمال الأنـدلس وشرقيهـا فيما بين الجبـل المسمى البويرة ومدينـة رقوبل Racuple وهي فوق مـدينـة ريمية ، ومنصبُّـه في البحر المحيط بأكشوبنه Ocsonoba ومسافة طوله ثلاثمئـة وعشرون ميلاً . ونهر آنـه هـذا يغيض بين مـاردة Merida وبطليـوس Badajoz ، فيجري متـواريـاً[٧] حتى



أنهار شبه جزيرة إيبريا وأهم المدن الواقعة عليها

---

(٦) وهو الذي تقول فيه الشاعرة الأندلسية :

وقـانـا لفحـة الرمضـاء وادٍ   سقـاه مضـاعف الغيث العميم

وأرشفنـا على ظمأ زلالاً   ألـذ من المـدامـة للنـديم

نـزلنـا دوحـة فحنـا علينـا   حنـو المرضعـات على الفطيم

(٧) يجري هذا النهر في منطقة كلسية متأثرة بالكارست فيجري في باطن الأرض في كهوف وأنفاق مسافة ما .

يبدو بموضع يعرف بفج العروس من فحص الفج ، ثم يغيض ، فيخرج بقرية من قرى قلعة رباح Calatrava يقال لها آر Aro .

نهر تاجه Tage : منبعثه من جبال بناحية طليطلة ، من عين في موضع يعرف بالبيضة لكثرة صنوبره ، ومصبه في البحر المحيط بالأشبونة ، ومسافة جريه خمسمئة ميل وثمانون ميلاً .

نهر دويرة Duero منبعثه من جبال ... ومصبه في البحر المحيط بين مدينة قُلُمْرية Coimbre ومدينة برتقال Porto ، مسافة جريه سبعمئة ميل وثمانون ميلاً ويقع فيه[٨] نحو عشرة أنهار .

ونهر أبرة Ebre يخرج من عين يقال لها فونت إيبر Fontibre وهي فوق أرض القلاع Castille ومجراه من الجنوب إلى القبلة[٩] ، ومصبه في البحر الشامي بناحية طرطوشة Tartosa ، ومسافة جريه مئتا ميل وأربعة أميال ، وهو مخصوص بالحوت المعروف بالطُرُخْتَه[١٠] ، وهو حوت عظيم[١١] ، وليس له إلا شوكة واحدة ، وتقع فيه عدة أنهار : نهر جِلّق Riogallego ومخرجه من جبال السيرطانيين Cerdagne .

ومن أنهار بلاد إفرنجة وجليّقية المشهورة :

نهر مينية Minyo مخرجه من جبال آلبة Alva ، ويشق بلد جليّقية Galice من شرق إلى غرب ، ويقع في البحر المحيط بناحية حائط[١٢] جليّقية Chaine-Cantabrique وعدد أمياله ثلاثمئة ميل وثلاثة أميال » .

---

(٨) يصب فيه .

(٩) أي الشرق باتجاه مكة .

(١٠) الطرخة هو سمك Truite .

(١١) يطلق المغاربة على السمك كلمة حوت .

(١٢) سلسلة جبال .

المَسْعُودِيّ

(توفي في ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)

ينحدر أبو الحسن علي بن الحسين ، الشهير بالمسعودي ، من أسرة عربية عريقة جدها الصحابي الجليل ابن مسعود . وقد رأى النور لأول مرة في بغداد بتاريخ لا نعرفه على وجه الدقة ، وإن كان لا يتعدّى أواخر القرن التاسع ميلادي / الرابع هجري .

ونشأ فيها في عصر كانت دار السلام مركزاً من مراكز العلم الكبرى في العالم ، وبذلك أتيح له أن يحيط إحاطة تامة بكل التراث الأدبي لعصره وبمختلف نواحي العلوم . بيد أن ميله اتجه فيما بعد اتجاهاً صريحاً نحو السياحة والرحلات بغية طلب العلم وجمع الحقائق الجغرافية والتاريخية والاتصال مباشرة بممثلي مختلف الطبقات الاجتماعية ، ويبدو أنه قام ، وهو في ريعان الشباب ، في حدود العشرين ، برحلات طويلة واسعة .

وهكذا نجده في عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م في فارس ، وفي الهند في السنة التالية ، حيث زار ملتان والمنصورة ، وسيْمور ، وسرنديب ، ثم رافق جماعة من التجار في رحلة إلى بحار الصين ، وتجول بعد ذلك في المحيط الهندي ، وزار زنجبار ومعظم سواحل إفريقية الشرقية وقصد السودان والمغرب عن طريق مدغسكر .

وقد ظهر في عام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م في فلسطين ، وأقام برهة من الزمن في أنطاكية أي في عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م ، وتعرف على جزيرة العرب وأرمينية والطالقان وممالك الروم ، كي نجده بعد أربعة أعوام في مصر ، حيث استقر المقام به أخيراً ، ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥ هـ كي توافيه المنية في وادي الكنانة في العام التالي أي في ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م . وهكذا ظل يحمل عصا الترحال نحو خمس وعشرين سنة وقال عن نفسه :

تيمم أقطار البلاد فتارة	لدى شرقها الأقصى وطوراً إلى الغرب
سرى الشمس لا ينفك تقذفه النوى	إلى أفق ناء يقصر بالركب

وغالباً ما يثبت المسعودي في مؤلفاته تاريخ زيارته لمواضع معينة ، وهو أمر وإن لم يمكنّا من اقتفاء أثره بدقة ، إلا أنه على كل حال يعطينا فكرة عن مدى تجواله الواسع .

ولم يكن المسعودي رحالة يحب الاستطلاع فحسب ، كالمقدسي ، بل كان أيضاً عالماً يتمتع بروحة ثقافية لا يقل تنوعها عن اتساعها . فقد درس الفلسفة والفقه والتشريع والأدب والتاريخ والجغرافية والأثنوغرافية . ولم يدرس كل هذه العلوم كلهاو ، بل بتفانٍ يتميز به كل عالم يحب التعمق والتدقيق . لذا كان من الخطأ أن نظر إليه البعض مؤرخ حوليات أو جغرافياً ، لأن المسعودي كان تركيبياً من الطراز الأول ، تعكس مصنفاته المظاهر المتنوعة لتلك الروح الواسعة الآفاق . ولم يؤلف المسعودي أقل من خمسة عشرة كتاباً تضم ما اكتسبه من الخبرات والمشاهدات خلال رحلاته ولكن أكثرها ضاع ، مثل كتاب « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة » وكان يضم ثلاثين مجلداً ، لم يبق منها سوى الجزء الأول المحفوظ في مكتبة فيينا ، ثم أتبعه بكتاب « الأوسط » الذي توجد نسخة فريدة منه في أكسفورد .

ولم يصلنا من هذه المؤلفات الضخمة سوى قسم بسيط منها « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الذي فرغ من تأليفه سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م . ويقول في مقدمته إنه أراد به إجمال ما بسطه في كتاب « أخبار الزمان » وإيجاز ما شرحه في كتاب « الأوسط » وفيه تعرض لعدة معلومات جغرافية كاستدارة الأرض وإحاطتها بغلاف جوي ، وبحث طبيعة العواصف في الخليج العربي والمناطق المجاورة ، وعلّل حركات المد والجزر ، وقد خصّ القسم الأول من (المروج) بوصف الخليقة وقصص الأنبياء باختصار ، ثم انتقل لوصف الأرض والبحار والعجائب والغرائب ، وتاريخ الأمم الغابرة وأديانها وعاداتها ومذاهبها ، بينما تناول في القسم الثاني تاريخ الإسلام من أواخر عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل خلافة المطيع لله العباسي .

أما كتابه الثاني فهو « التنبيه والإشراف » الذي ألفه في عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م والذي يعتبر كوجيز وتهذيب لكل عمله العلمي ، وتناول فيه الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها ، والعناصر وتراكيبها ، وفصول السنة ، والرياح ومهابها وأفعالها ، والأرض وما قيل في مدار مساحتها وعامرها وغامرها إلخ ...

ويتميز المسعودي بتواضع العلماء ، فنراه يرجو القارئ في « مروج الذهب » أن يعذره مما يجده من تقصير وإغفال « لما قد شاب خواطرنا ، وغمر قلوبنا ، من تقاذف الأسفار وقطع القفار ، تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر » .

وقد أنحى بعض الباحثين على هذا العالم ، المتعدد الاختصاص ، باللائمة لسرعة تصديقه لما يسمع حتى اتهموه بالسذاجة أحياناً ، والواقع لم يكن هذا أكثر من عرض ظاهري . والأرجح أن هذا كان نوعاً من طريقة علمية ، لأن المسعودي لم يكن يريد مطلقاً أن يسمح بضياع أي معلومات استطاع أن يحصل عليها . صحيح أنه كان يقدمها كيفما اتفق ، دونما اصطفاء ، وأحياناً دون أن يستخلص منها

النتائج التي يمكن أن تنتظر منها ، ولكن هذه الطريقة الغريبة علينا ، نحن أبناء القرن العشرين ، سمحت لنا بالحصول على مجموعة ضخمة من المعلومات التي كنا سنخسرها إطلاقاً لو لم يتبع المسعودي هذه الطريقة .

إن كتاباً مثل « التنبيه والإشراف » يؤلف مرآة حقيقية لعصر بكامله ، بمعتقداته ، وبمفاهيمه السابقة ، وباتجاهاته الأخلاقية ، وبنظرياته العلمية . إنه نوع من عمل جماعي ، فوضوي ، صحيح تارة ، مستغرب تارة أخرى ، جمعها قصّاص ظريف ، قرأ كثيراً ، وسمع أكثر من ذلك .

وقد قال ابن خلدون عن المسعودي : إنه « صار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلاً يعوّلون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه » كما قدر علماء الإفرنج جهوده فلقبوه بـ «بلين المشرق Pline »[1]

ويعتبر المسعودي « أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة في القرن العاشر » على حد قول واحد من أكبر المتخصصين في هذا الفرع من الأدب في عصرنا . ولكن خبيراً آخر بالجغرافية العربية يرى في أسلوبه « صلة قرابة مع أسلوب الصحافة الحديثة » وفي شخصه « أنموذجاً للمراسلين الصحفيين المعاصرين الذين يذرعون الأرض » .

النص الأول

المسعودي يلقي نظرة إجمالية على إنتاجه نفسه

تكفي قراءة النبذة التالية من كتاب « التنبيه والإشراف » كي يظهر لنا انعدام التجانس في إنتاجه العلمي ، واستحالة تصنيف أي من المؤلفات التي يتشكل منها في فئة أدبية معينة .

« قال أبو الحسن عليٌّ بن الحسين بن علي المسعودي : أمّا بعد ، فإنّا لما صنفنا كتابنا الأكبر « في أخبار الزمان ومن أباده الحِدْثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة » ثم شفعناه بالكتاب الأوسط في معناه ، ثم قَفَوْناه بكتاب

---

(١) بلين القديم : هو كايوس بلينوس سكندوس ، عالم طبيعة روماني . ولد في عام ٢٣ م . له كتاب « تاريخ طبيعي » يضم ٣٧ مجلداً ، يؤلف نوعاً من موسوعة قيمة في التاريخ وعلوم العصور القديمة . وبعد أن برز في الجيش الروماني تميز أيضاً رجل قضاء . وقد هلك أثناء هيجان بركان فيزوف عام ٧٩ م . فقد كان قائداً لأسطول ميسين ، وحاول إنقاذ سكان مدينة سابيس المهددين بقذوفات فيزوف التي دفنت مدينتي بومبي وهركولانوم ، وكي يشهد المنظر عن كثب ، ولكنه اختنق بغازات البركان نفسها .

مروج الذهب ومعادن الجوهر فتُحفَ الأشراف من الملوك وأهل الدرايات ، ثم أتْلَينا ذلك بكتاب فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف ، وأتبعناه بكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور ، وأردفْناه بكتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار ، ذكرنا في الأخبار عن بدء العالم والخلْق وتفرقّهم على الأرض والممالك[٢] والبر والبحر والقُرون البائدة والأمم الخالية الداثرة الأكابر كالهند والصين والكلْدانيين (وهم السريانيون) والعرب والفرس واليونانيين والروم وغيرهم وتاريخ الأزمان الماضية والأجيال الخالية والأنبياء ، وذكر[٣] قصصهم وسِير الملوك وسياساتهم ، ومساكن الأمم وتباينها في عباداتها ، واختلافها في آرائها ، وصفة بحار العالم وابتدائها وانتهائها واتصال بعضها ببعض وما لا يتصل منها وما يظهر فيه المد والجزر وما لا يظهر ، ومقاديرها في الطول والعرض ، وما يتشعَّب من كل بحر من الخلجان ، ويصب إليه من كبار الأنهار ، وما فيها من الجزائر العظام ، وما كان من الأرض براً فصار بحراً ، وبحراً فصار براً على مرور الأزمان ، وكرور الدهور ، وما قاله حكماء العالم في كيفية شبابها وهرمها وعِلَلِ جميع ذلك ، والأنهار الكبار ومبادئها ومصابها ومقادير مسافاتها على وجه الأرض من ابتدائها إلى انتهائها ، والأخبار على شكل الأرض وهيئتها ، وما قالته حكماء الأمم من الفلاسفة وغيرهم في قسْمتها ، والربع المسكون منها ، وجدْبها وأنجادها وأغوارها ، وتنازع الناس في كيفية ثباتها وتأثيرات الكواكب في سكانها ، واختلاف صورهم وألوانهم وأخلاقهم ، ووصف الأقاليم السبعة وأطوالها وعُروضها وعامرها وغامرها ، ومقادير ذلك ومجاري الأفلاك وهيئتها واختلاف حركتها ، وأبعاد الكواكب وأجرامها واتصالها وانفصالها وكيفية مسيرها وتنقلها في أفلاكها ومضاداتها إياها في حركاتها ، ووجوه تأثيراتها في عالم الكون والفساد[٤]

---

(٢) أي الأخبار عن الممالك .

(٣) ذكرنا في هذه الكتب الأخبار عن ...

(٤) تعبير مأخوذ من أرسطو : عالم الولادة وعالم الموت وعالم ما تحت القمر .

التي بها قوام الأكوان ، وهل أفعالُها على المُماسَّة أم على المُباينة ، وعن إرادةٍ وقصد أم غير ذلك ، وكيف ذلك وما سببه .

وهل حركات الأفلاك والنجوم جميعاً طِباع أم اختيار ، وهل للفلك علّة طباعيَّة فاعلة في الأشياء المعلولة التي هو مشْتمل عليها ومحيطٌ بها ، والنواحي[٥] والآفاق من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وما على ظهر الأرض من عجيب البنيان ، وما قاله الناس في مقدار عمر العالم ومبْتدئه وغايته ومنتهاه ، وعلّة طول الأعمار وقصرها ، وآداب الرئاسة ، وضُروب أقسام السياسة المدنية الملوكيّة منها والعاميَّة ، مما يلْزم المَلِكَ في سياسة نفسه ورعيته ، ووجوه أقسام السياسة الديانيّة ، وعدد أجزائها ، ولأية علّةٍ .

لا بد للمَلِكِ من دين ، كما لا بد من مَلكٍ ، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه ، ولِمَ وجب ذلك وما سببُه ، وكيف تدخلُ الآفات على المُلْكِ وتزول الدول وتبيد الشرائع والمللُ ؟

والآفات[٦] التي تحدثُ في نفس المُلْكِ والدّين ، والآفات الخارجة المعترضة لذلك ، وتحْصين الدين والمُلْكِ ، وكيف يعالجُ كل واحد منهما بصاحبه إذا اعتلَّ من نفسه أو من عارضٍ له ؟ وماهيَّة ذلك العلاج وكيفيته ، وأمارات إقبال الدول ، وسياسةُ البلدان والأديان والجيوش على طبقاتهم ، ووجوه الحِيَل والمكايد في الحروب ظاهراً وباطناً ، وغير ذلك من أخبار العالم وعجائبه ، وأخبار نبينا ﷺ ومولده ، وما ظهر في العالم من الآيات والكوائن ، والأحداث المُنْذرات بظهوره قبل مولده من أخبار الكهَّان وغيرهم ، وما أظهر الله سبحانه على يديه من الدلائل والعلامات والجرائح المعجزات ، ومنشئه ومبعثه وهجْرته

---

(٥) وما قالته حكماء الأمم في النواحي .

(٦) وما قاله الناس ... في الآفات .

ومغازيه وسراياهُ وسوارِيه[٧] ومناسره[٨] إلى وفاته ، والخلفاء بعدَه والملوك ، والغُرَر من أخبارهم ، وما كان من الكوائن الأحداث ، والفتُوح في أيامهم وأخبار وزرائهم وكتَّابهم إلى خلافة المطيع[٩] .

وذكرنا من كان في كل عصر ، من حَمَلة الأخبار ونقَلةَ السِير والآثار وطبقاتهم ، من عصر الصحابة والتابعين ومن بَعْدَهم ، من فقهاء الأمصار وغيرهم ، من ذوي الآراء والنِّحَلْ والمذاهب والجَدل بين فِرَقِ أهل الصلاة ومن مات منهم سنَةً إلى هذا الوقت المؤرَّخ .

وذكرنا في كتاب نظم الأعلام في أصول الأحكام ، وفي كتاب نظم الأدلة في أصول المِلَّة ، وفي المسائل والعلَلْ في المذاهب والمِلَل[١٠] ، تنازع المتفقّهين في مقدمات أصول الدين ، والحوادث التي اختلف فيها آراؤهم ، وما يذهب إليه من القول بالظَّاهر[١١] ، وإبْطال القياس والرأي والاستحسان في الأحكام ، إذ كان الله

---

(٧) جمع سارية : الحملة العسكرية الليلية .

(٨) مفردها منسر : فرقة الخيالة قوامها ٣٠ إلى ٤٠ أو من ٤٠٠ إلى ٨٠٠ رجل . وهنا حملة قوامها ٣٠ أو ٤٠ رجلاً .

(٩) خليفة عباسي حكم من ٩٤٦ م إلى ٩٧٤ م والواقع لا يتكلم المسعودي إلا عن بداية حكم هذا الخليفة .

(١٠) كتب لا تزال مفقودة حتى الآن .

(١١) الظاهر : أي المعنى الظاهر للقران على خلاف الباطن . فالظاهريون هم الفقهاء المسلمون الذين يفسرون القران كما هو ، وهم المسلمون المعتدلون من أهل السنة والجماعة الذين يأخذون بمفهومات اللغة العربية وأسباب النزول وما ورد بالأحاديث الصحيحة ولا ظاهرية بالقرآن بل بالفقه .

أما الباطنيون فهم الذين يكتشفون معنى ثانياً تحت المعنى الظاهر . يعتبرونه هو الصحيح ، والذي لا يتكشف إلا لأتباعهم . ويهملون اللغة العربية في مفهومات الشريعة ويشدون الآيات بتأويلات فاسدة إلى معان مسبقة يريدونها ، وهم غلاة الشيعة . ويقول عمر بن الخطاب : « عليكم بديوانكم لا تضلوا » ويقصد الشعر والقياس هو المحاكة بالمثل . فمن قرار تشريعي مقبول يستخلص قرار لحالة مماثلة للتي أدت للقرار الأول . وهو إثبات حكم الأصل للفرع بسبب اتحاد العلّة بينهما . كأن يكون أمر لا نص عليه في الشرع ولكن له نظير يشبهه في علة حكمه فيعطي هذا الأمر الحادث حكم ذلك الأصل المنصوص عليه .

والرأي هو ما يراه القلب بعد تحر دقيق لمعرفة الحكم الشرعي فيما لا نص فيه ولا يخالف النصوص .

وفي علم الفقه يعني السبب الذي يستوحي منه الحاكم عندما يقف أمام حالة جيدة كلياً ، وليس لديه أية حالة سابقة ترشده ، فيجد نفسه مضطراً إلى اللجوء لتجربته وحدها . والاستحسان قياس خفي دقيق بمعنى ترك القياس المعقول لدليل أقوى منه . والتقليد هو قبول عقيدة معلم بلا مناقشة وكلياً .

عز وجل قد أكمل الدين وأوضح السبيل وبيَّن للمكلّفين ما ينفون في آياته المنزَّلة ، وسُنن رسوله المفضَّلة ، التي زجرهم بها عن التقليد ، ونهاهم عن تجاوز ما فيها من التحديد ، وما اتصل بذلك من الكلام في أصول الفتوى والأحكام ، العقلية منها والسَّمعياتِ ، وغير ذلك من فنون العلوم وضروب الأخبار ، مما لم تأت الترجمة على وصفه ، ولا انتظمتْ ذكرهُ .

رأينا[١٢] أن نتبع ذلك بكتاب سابع مختصر نترجمه بكتاب التنبيه والإشراف ، وهو التالي لكتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار ، نودعه لُمَعاً من ذكر الأفلاك وهيئتها ، والنجوم وتأثيراتها ، والعناصر وتركيبها . وكيفية أفعالها ، والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة وما لكل فصل من المنازل[١٣] ، والتنازع[١٤] في المبتدأ به منها والإسْتقصَّاتِ[١٥] وغير ذلك ، والرياح ومهابّها وأفعالها وتأثيراتها وشكلها ، وما قيل في مقدار مساحتها وعامرها وغامرها والنواحي والآفاق ...

ثم نُتْبِعُ ذلك بتسمية ملوك الفرس الأولى ، والطوائف والسَّاسانية على طبقاتهم وأعدادهم ، ومقدار ما ملكوا من السنين ، وملوك اليونانيين وأعدادهم ومقدار مُلْكهم ، وملوك الروم على طبقاتهم ، من الحُنفاء ...[١٦] وهم الصَّابئون والمُتَنصِّرة[١٧] ، وعدتهم وجملة ما ملكوا من السنين ، وما كان من الكوائن والأحداث العظام والديانية والملوكية في أيامهم ، وصفة بنودهم[١٨] وحدودها ،

---

(١٢) هنا تبدأ الجملة الرئيسية التالية لعبارة : فإنا لما صنفنا ... في بدء النص .

(١٣) منازل القمر .

(١٤) أي نودعه لمعا من ... التنازع .

(١٥) الإستقصات : عناصر . وهي كلمة يونانية مفردها إسطقس وتجمع على إسطقسات أحياناً .

(١٦) وهنا يستأنف المؤلف الشرح المسهب لما سبق تقريباً . وكلمة حنيف تعني أحد أتباع ملة إبراهيم .

(١٧) الأباطرة الرومان ابتداء من قسطنطين الذي اعتنق المسيحية .

(١٨) بند : ثغر .

وما يتصل منها بالخليج وبحري الروم[١٩] والخزر ، وما اتصل بذلك من اللُّمَع المنبِّهة على ما تقدم من تأليفنا ، فيما سلف من كُتُبنا ، وتواريخ الأمم ، وجامع تأريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم إلى نبينا ﷺ ، وحصْر ذلك وما اتصل بذلك ، ومعرفة سني الأمم الشمسية والقمرية وشهورها وكبْسها ونسيّها ، وغير ذلك من أحوالها ، وما اتصل بذلك من التنبيهات جمعه وتأليفَهُ . وذكر مولد النبي ﷺ ومبعثه وهجرته وعدد غزواته وسراياه وسواريه وكتّابه ووفاته ، والخلفاء بعده والملوك ، وأخلاقهم وكتابهم ووزرائهم وقضاتهم وحجابهم ونقوش خواتيمهم ، وما كان من الحوادث العظيمة الديانية والملوكية في أيامهم وحصر تواريخهم إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٣٤٥ للهجرة في خلافة المطيع ، منبهين بذلك على ما قدَّمنا ذكره من كتبنا .

وإنما اقتصرنا في كتابنا هذا على ذكر هذه الممالك لعظم ملك ملوك الفرس ، وتقادم أمرهم ، واتصال ملكهم ، وما كانوا عليه من حسن السياسة وانتظام التدبير ، وعمارة البلاد والرأفة بالعباد ، وانقياد كثير من ملوك العالم إلى طاعتهم ، وحملهم إياهم الأتاوة والخراج . وأنهم ملكوا الإقليم الرابع ، وهو إقليم بابل أوسط الأرض وأشرف الأقاليم . وإن مملكتي اليونانيين والروم تتلوان مملكة الفرس في العظم والعز ، ولما خُصُّوا به من أنواع الحكم والفلسفة والمهن العجيبة والصنائع البديعة ، ولأن مملكة الروم إلى وقتنا هذا ثابتة الرسوم منسقة التدبير ، وإن كان اليونانيون قد دخلوا في جملة الروم منذ احتووا على ملكهم ، كدخول الكلدانيين ، وهم السريانيون سكان العراق ، في جملة الفرس الأولى لغلبتهم عليهم . فأحببنا أن لا نخلي كتابنا هذا من ذكرهم ، وإن كنا قد ذكرنا سائر الممالك التي على وجه الأرض وما أزيل منها ودثر ، وما هو باق إلى يومنا هذا الوقت ، وأخبار ملوكهم وسياساتهم وسائر أحوالهم فيما سميناه من كتبنا .

---

(١٩) بحر الروم : البحر الأبيض المتوسط .

على أنّا نعتذر من سهو إن عرض في تصنيفنا مما لا يسلم منه من لحقته غفلة الإنسانية وسهوة البشرية ، ثم ما دُفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الأسفار طوراً مشرقين وطوراً مغربين كما قال أبو تمام :

خليفـــةُ الخضر مَنْ يَربـعْ على وطن في بلـــدة فظهـور العيس أوطـــاني
بـالشـام قـومي وبغـداد الهوى وأنـا بـالرَّقتين وبـالفسطـاط إخـواني

وكقوله أيضاً :

فغربت حتى لم أجـــد ذكر مشرق وشرقت حتى قـد نسيت المغـاربـا
خطـــوب إذا لاقيتهن رددني جريحـاً كأني قـد لقيت الكتـائبـا

ونحن آخذون فيما به ، وله قصدنا ، وبالله نستعين ، وإياه نسأل التوفيق والتسديد » .

النص الثاني

الكوزموغرافيا

يبدأ كتاب التنبيه ، كما يشير المؤلف نفسه في النص السابق ، بعرض كوزموغرافي حسْب نمط مماثل لنمط ابن رستة ، وتظهر منظومة المسعودي ، كنظومة بطليوس وبقية الجغرافيين العرب ، على شكل منظومة أرضية مركزية تكون الأرض مركز العالم فيه .

« قد تنازع الناس في الفلَك ممَّن سلف وخلَف . فقال أفلاطون[٢٠] وثامسْطيوس[٢١] والرواقيون وعِدّة ممن تقدم عصر أفلاطون وتأخر عنه من

(٢٠) افلاطون Platon : فيلسوف يوناني شهير ولد في أثينا سنة ٤٢٩ ق . م . وتوفي في أثينا في ٣٢٧ ق.م .
(٢١) Themistios فيلسوف يوناني عاش بين ٣١٠ و ٣٩٥ م مات في القسطنطينية .

الفلاسفة : إنه[٢٢] من الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، إلا أن الغالب عليه النّاريّة وليس ناريته مُحْرِقةً . إنما هي مثلَ النار الغريزية في الأبدان .

وقال آخرون : إنه من النار والهواء والماء دون الأرض . وذهب أرسْطاطاليس،[٢٣] وأكثر الفلاسفة ممّن تقدم عصره وتأخر عنه وغيرهم من حكماء الهند والفُرس والكلدانيينَ إلى أنه طبيعةٌ خامسة خارجة عن الطبائع الأربع ، ليست فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة وأنه جسْم مدوَّر كُريٌّ أجوف على محورين وهما القُطبان ، أحدهما رأس السرطان ومنتهى بنات نعْشٍ من تلقاء نقطة الجنوب ، والآخر رأس الجدي وفيه كواكبُ مثلْ بنات نعْشٍ من تلقاء نقطة الشمال . وخط الاستواء في وسط الفلك وهو خطٌ ما بين الشمال والجنوب ، وأوْسع موضع فيه من نقطة المشرق إلى نقطة المغرب . وهو منقسم بأربعة أرباع كل ربع منها تسعون درجة ، على خطين يتقاطعان على مركزه ، وهو موضعُ الأرض منه أحدُ الرُّبعين ، وهو أحد القطبين نقطة الشمال وبإزائه نقطة الجنوب ، والربع الثالث نقطة المشرق وبإزائه نقطة المغرب .

وهو[٢٤] يدور دوراناً طبيعياً دائماً ، وبدورانه ودوران الكواكب التي فيه تنفعل الكيفيات،[٢٥] وانبسطت الأركان[٢٦] الأربعة وهي الماء والهواء والنار والأرض . فيتصل ركنان منها وهما النار والهواء بالعلو وركنان منها وهما الأرض والماء بالسُّفْل ، ثم تتحرك هذه الكيفيات بتحرك الجواهر العلوية[٢٧] والأجسام

---

(٢٢) الضمير يعود إلى فلك .

(٢٣) أو Aristote فيلسوف يوناني ٣٨٤ - ٣٢٢ق . م .

(٢٤) أي الفلك .

(٢٥) طرائق العيش . الحياة . الوجود .

(٢٦) العناصر .

(٢٧) المواد . الجواهر السماوية .

السمائية حسبَ مداراتها ومسيرها وحركاتها وتأثيراتها ، فيتحرك الركنان الأعليان بتحرك الكيفيات ، والركنان الأسفلان بتحرك الركنين الأعْلَيَيْن ، وتهب بذلك الرياح الاثنتا عشرَة فتنشأ السحائب ، وينزل القطر فيتصلُ بذلك الآثار العَلَوية[٢٨] ، ويتصل بالآثار العلوية الآثار السفلية الموجودة في الحيوان والنبات البري والبحري وفي الجواهر والمعادن ، حتى يكون التدبير في جميع هذه العوالم متَّسقاً مطّرداً متصلاً بعضه ببعض ، الفعل كامناً بعضُه في بعض بالقوة ، حتى تظهر آثارُ الصنعة[٢٩] وأمارات الحكمة ودلائل الربوبية ، وترتبط المعلولات بعللها وتشهد للصانع بصنعته وبدائع حكمته . وجعلَ عز وجل الفلكَ الأعلى وهو فلك الاستواء وما يشتمل عليه من طبائع التدوير ، فأولها كُرةُ الأرض يحيط بها فلك القمر ، ويحيط بفلك القمر فلكُ عُطاردَ ، وبفلك عطارد فلك الزُّهرة ، وبفلك الزهرة فلك الشمس ، وبفلك الشمس فلك المرِّيخ ، وبفلك المريخ فلك المشتري ، وبفلك المشتري فلك زحل ، وبفلك زُحَل فلك الكواكب الثابتة ، وبفلك الكواكب الثابتة فلك البروج ، وبفلك البروج فلك الاستواء ، وهو المحيط بها والمحرك لها .

ومن ذوي المعرفة بعلم الأفلاك والنجوم مَنْ يَعُدُّ فلك الاستواء وفلك البروج فلكاً واحداً لما يُرى من تجاذُبِها واتفاق أقطارهما ومراكزهما .

والأرض في وسط الجميع مركزٌ له كنقطة في وسط الدائرة ، والفلك متجافٍ عنها من حيث ما أحاط بها ، وهو يدور عليها من المشرق إلى المغرب على أوْسع موضع فيه ، على نقطتين وهميتين متقابلتين في جنبي كرته ، إحداهما القطب الشمالي وهو على شمال مستقبل المشرق ، والثانية القطب الجنوبي وهو على يمين مستدير المغرب ، وتسميان المحورين تشبيهاً بقطب الرَّحى » .

---

(٢٨) أي المؤثرات السماوية التي تنتج عن النجوم وعن كل ظواهر السماء .

(٢٩) أي الصنعة والحكمة الإلهيتين .

النص الثالث

تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم

يتكلم معظم الذين سبقوا المسعودي من الجغرافيين عن تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم . وميزة كتاب التنبيه هي أنه يتعرض لهذه المسألة من وجهة نظر أكثر شمولاً ، ويعطي لمحة عن مختلف النظريات التي ظهرت والتي تتعلق بالتقسيمات النظرية لكرتنا الأرضية :

« قال المسعودي : قد ذكرنا في كتاب فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف ما ذهبت إليه الفُرس والنَّبَطُ في قسمة المعمور من الأرض ... وما ذهبت إليه اليونانيون والروم في قسمته على ثلاثة أجزاء وهي أورفا[٣٠] ولوبية[٣١] وآسية وغير ذلك من سائر الأمم في هذه المعاني ، فَلْنقُل الآن في الأقاليم وصفتها ، وما قيل في قسمتها وغير ذلك . كل ما كان من الأرض معموراً فهو مقسوم بسبعة أقسام : يسمى كل قسم منها إقليماً . وقد تنازع من عُنِيَ من حُكماء الأمم وفلاسفتهم بعلم الهندسة ومساحة الأرض في الأقاليم السبعة أفي الشمال والجنوب[٣٢] أم في الشمال دون الجنوب . فذهب الأكثرون إلى أن ذلك في الشمال دون الجنوب لكثرة العمارة في الشمال وقلتها في الجنوب . ورأى قوم أن القدماء إنَّما قصدوا لقِسْمة الأقاليم السبعة في الجانب الشمالي من خط مُعدَّل النهار ، ولم يقسموا في الجنوبي شيئاً لقلة قدْر العمارة في الجنوب عن الخط . وذهب هِرَمِسُ[٣٣] في متَّبعيه من المصريين وغيرهم ، إلى أن في الجنوب سبعة أقاليم كما هي في الشمال ، وكان يجعل

---

(٣٠) أوروبا .

(٣١) ليبيا .

(٣٢) أي نصف الكرة الشمالي والنصف الجنوبي .

(٣٣) هرمس : يعني عند الجغرافيين العرب شخصية أسطورية في مصر أو في بابل . ويقال : إنه هو الذي علم الناس الهندسة والفلك والفنون ، وفي ذلك امتداد لمعتقدات مصرية قديمة وأفلاطونية حديثة .

قسمة أقاليم العمران من الشمال مدوّرة فيجعل الإقليم الرابع وهو إقليم بابلَ واسطاً لها ، وستةٌ دائرة حوله ، وإن كان كل إقليم سبع مئة فرسخ في مثله ... وفي كتاب مارينوس[٣٤] :

إن مساحة الأقاليم في الطول ثمانية وثلاثون ألفاً وخمسمئة فرسخ ، في عرض ألف فرسخ وسبع مئة وخمسة وسبعين فرسخاً . وقد أنكر ذلك على مارينوسَ جماعةٌ ممن تقدم وتأخر . فالإقليم الأول ، الهندُ ، والثاني : الحجازُ والحبشةُ ، والثالث : مصر وإفريقية ، والرابع : بابلُ والعراق ، والخامس : الروم ، والسادس يأجوجُ ومأجوج ، والسابع الصينُ . ويبتدئ جميعها من الشرق مما يمر ببلاد الصين وغيرها ...

قال المسعودي : بين الأسلاف والأخلاف من حكماء الأمم في مقادير هذه الأقاليم السبعة وأطوالها وعروضها وعدد ساعاتها[٣٥] وابتدائها وغاياتها وما فيها من مساكن الأمم في البر والبحر تنازعٌ كثير قد أتينا على شرح كثير من ذلك فيما تقدم من كُتُبنا . ورأيت هذه الأقاليم مصورة في غير كتاب بأنواع الأصباغ . وأحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافية لمارينوس وفي تفسير جغرافية قطع الأرض الصُّورة المأمونيةُ التي عُملتْ للمأمون[٣٦] ، اجتمع على صنعتها عدَّةٌ من حكماء أهل عصره صوَّر فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية أبطُلميوس[٣٧] وجغرافية مارينوس وغيرهما » .

---

(٣٤) مارينوس الصوري . جغرافي معاصر لبطليوس (القرن الثاني الميلادي) . وقد ترجم كتابه « الجغرافية » إلى العربية في القرن الثالث الهجري .

(٣٥) أطول ساعات النهار أو الطول الأقصى للنهار . الذي يختلف باختلاف الأقاليم .

(٣٦) ويقصد بها نسخة من كتاب جغرافي ألفه الخوارزمي الشهير على نمط جغرافية بطليوس ، للخليفة المأمون .

(٣٧) الفلكي بطليوس .

النص الرابع
تقسيمات العالم المأهول الطبيعية وتأثير البيئة على الكائنات الحية

إن تقسيم العالم المأهول إلى أقاليم هو تقسيم اتفاقي . ونجاه ذلك يقبل المسعودي في كتابه « التنبيه والإشراف » بتقسيم آخر يبدو لنا بدوره وهمياً أيضاً ، ولكنه يستدل على كيانات حقيقية حسب رأيه . وهكذا ينقسم العالم المعمور إلى نطاقين : أحدهما شرقي جنوبي ، والثاني غربي شمالي . وفي كل منهما بيئة فريدة تؤثر على الكائنات التي فيها .

« قسم الله تبارك وتعالى الأرضَ قسمين شرقاً وغرباً ، فصار المشرق والتيَّمَنَ وهو الجنوب جوهراً واحداً لغلبة الحرارة عليها ، وصار المغرب والجَرْبيُّ جوهراً واحداً لغلبة البرودة عليهما وشدتها فيهما ، وذلك ببعد الشمس من ناحية الجربي ، لأن المحور على تلك الناحية ، وهي أشدُّهما ارتفاعاً ، فمن أجل ذلك صار الجربيُّ بارداً رطباً ، وصار المغربُ أقلَّ برداً من الجربي ، وأكثر يبساً لانحطاط الفلك هناك ، وهاتان الجهتان المشرق والتيُّمن بخلاف ذلك لدنو الشمس منهما .

والعالم[٣٨] أربعة أربعٍ ، الشرقي وهو ما تسافلَ عن[٣٩] خط الجنوب والشمال إلى المشرق فهو رُبعٌ مذكرٌ[٤٠] يدل على طول الأعمار ومُدَدِ المُلْكِ والتَّذكير وعزّة الأنفس ، وقلة كتمان السر وإظهار الأمور والمباهاةِ بها ، وما لحق بذلك وذلك لطباع الشمس ، وعلْمهمُ الأخبار والتواريخ والسِّيَر والسياسات والعلوم . وأما أهل الرُبْع الغربي فإن الغالب عليه التأنيث ، إلاَّ ما استولت عليه الكواكب المذكرةُ كما يغلب التذكير على المشرق إلاَّ ما غلبت عليه الكواكب المؤنثة وأهله

(٣٨) أي المعمور من الأرض .

(٣٩) أي ما يقع تحت .

(٤٠) أي يخضع للتأثير التنجيمي للكواكب التي تمنح الكائنات صفات قوية فيها رجولة . وعكسها مؤنث .

أهل كتمانِ السرّ وتدينٍ وكثرة انقيادٍ إلى الآراء والنحل ، وما لحق بهذه المعاني إذ كان قسم القمر .

وأما أهل الربع الشمالي وهم الذين بعُدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والأفرنجة وما جاورهم من الأمم ، فإن سلطان الشمس ضعُفَ عندهم لبعدهم عنها ، فغلب على نواحيها البرد والرطوبة ، وتواترت الثلوج عندهم والجليد ، فقلَّ مزاجُ الحرارة[٤١] فيهم ، فعظُمت أجسامهم ، وجفتْ طبائعهم ، وتوعّرت أخلاقهم ، وتبلّدت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم ، وابيضّت ألوانهم ، حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزُرقة ، ورقّت جلودهم ، وغَلُظت لحومهم ، وازرقّت أعيُنهمْ أيضاً ، فلم تخرج من طبع ألوانهم وسَبطَتْ شعورهم ، وصارت صُهْباً ، لغلبة البخار الرطب ، ولم تكن في مذاهبهم متانةٌ ، وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة . ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال . وكذلك من كان من الترك واغلاً في الشمال فلبعدهم عن مدار الشمس في حال طلوعها وغروبها كثرت الثلوج فيهم ، وغلبت البرودة والرطوبة على مساكنهم ، فاسترخت أجسامهم ، وغلُظت ولانت فقاراتْ ظهورهم وخرزات أعناقهم ، حتى تأتّى لهم[٤٢] الرميُ بالنشاب في كرّهم وفرهم ، وغارت مفاصلهم لكثرت لحومهم فاستدارت وجوههم وصغرت أعينهم لاجتماع الحرارة[٤٣] في الوجه حين تمكنت البرودة من أجسامهم ، إذ كان المزاج الباردُ يولّد دماً كثيراً ، واحمرّت ألوانهم إذ كان من شأن البرودة جمع الحرارة وإظهارها .

---

(٤١) أو المزاج الحار على خلاف المزاج البارد أو (الدم البارد) .

(٤٢) أي أمكنهم .

(٤٣) أي تمركز السخونة على نقطة من الجسم .

وأما من كان خارجاً عن هذا العرض إلى نيف وستين ميلاً يأجوجُ ومأجوجُ وهم في الإقليم السادس فإنهم في عداد البهائم .

وأما أهل الربع الجنوبي كالزَّنْج[٤٤] ، وسائر الأحابش[٤٥] ، والذين كانوا تحت خط الاستواء ، وتحت مُسامَته الشمس ، فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة ، فاسودت ألوانهم واحمرت أعينهم وتوحَّشت أنفسهم ، وذلك لالتهاب هوائهم وإفراط الحر في نُضْجهم حتى تحرقت ألوانهم وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار إلى اليابس ، وكذلك الشعور السَّبطةُ إذا قَربتْ من حرارة النار دخلها الانقباض ثم الانضمام ثم الانعقاد على قدر قربها من الحرارة وبعدها عنها .

والأرض قسمان على ما قدمنا أحدهما مسكون والآخر غير مسكون . والعامر المسكون منها على أقسام أحدهما مفرط الحر وهو ما كان من جهة الجنوب ، لأن الشمس تقرب منه فيلتهب هواؤه ، والآخر الشمال وهو مفرط البرد لبعد الشمس عنه .

وأما المشرق والمغرب فمعتدلان وإن كان فضل المشرق أظهر واعتداله أشهر .

وأما الذي ليس بمسكون فعلى قسمين أيضاً : إما أن يفْرط فيه البرد ببعد الشمس عنه ، أو يفرطَ فيه الحر لقربها منه ، فلا يتركبُ هناك حيوان ولا ينبت نبات ، فالموضع الذي بعده في الشمال عن خط معدل النهار ستاً وستين درجة ، لا يمكن أن يكون فيه نشوءً ، لإفراط البرد عليه لبعد الشمس عنه ، وأن ما كان عرضه ستَّة وستين جزءً وتسع دقائق تكون السنة فيه يوماً وليلة ستة أشهر ليلٍ لا نهار فيه ، يبطل نهاره في الشتاء وليله في الصيف . والموضع الذي بعده في

---

(٤٤) أي سكان زنجبار وساحل إفريقية الشرقية .

(٤٥) أي سكان الحبشة أو أثيوبية .

الجنوب عن خط معدل النهار تسع عشرة درجة لا يمكن أيضاً أن يكون فيه نشوءٌ لإفراط الحر عليه لقرب الشمس منه .

قال المسعودي : وقد تختلف قوى الأرضينَ وفعلها في الأبدان لثلاثة أسباب : كمية المياه التي فيه وكمية الأشجار ومقدار ارتفاعها وانخفاضها . فالأرض التي فيها مياه كثيرة ترطب الأبدان . والأرض العادمة للمياه تجفّفها .

وأما اختلاف قوتها من قبل الأشجار فإن الأرض الكثيرة الأشجار التي فيها تقوم لها مقام السترة فهذا السبب تسخن . والأرض المكشوفة من الأشجار العادية لها حالها عكس حال الأرض الكثيرة الأشجار .

وأما اختلاف قواها من قبل علوها وانخفاضها فلأن الأرض العالية المشرفة فسيحةٌ باردة والأرض المنخفضة حارة ومِدَةً .

ومنهم من رأى أن أصناف اختلاف البلدان أربعةٌ : أوّلها النواحي ، والثاني الارتفاع والانخفاض ، والثالث مجاوَرةُ الجبال والبحار ، والرابع طبيعة تربة الأرض ، وذلك أن ارتفاعها يجعلها أبردَ ، وانخفاضها يجعلُها أسْخَنَ على ما قدمنا . وأما اختلافها من جهة مجاورة الجبال لها ، فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعلهُ أبرد ، لأنه يكون سبب امتناع الرياح الجنوبية ، وإنما تهب فيه الشمالية فقط . ومتى كان الجبل من البلد من ناحية الشمال ، جعله أسْخَنَ لامتناع هبوب الرياح الشمالية فيه .

وأما اختلافها لمجاورة البحار لها ؛ فمتى كان البحر من البلد في ناحية الجنوب كان ذلك البلد أسخَنَ وأرطب ، وإن كان من البلد في الشمال كان ذلك البلد أبردَ وأيْبَسَ .

وأما اختلافها بحسب طبيعة تربتها ؛ فمتى كانت تربة الأرض صخرية جعلتْ ذلك البلدَ أبردَ وأجفَّ ، وإن كانت تربة البلد جصّيّةً جعلته أسْخَنَ وأجفَّ ، وإن كانت طينيةً جعلته أبرد وأرطبَ .

وبقاع الأرض مختلفة بحسب اختلاف الطبائع وما تؤثر فيها الأجسام السمائية من النيِّريْنِ وغيرهما . فغلب طبعُ كل أرض على ساكِنِها كما نشاهد : الحرارُ[٤٦] السود والأغوار وحُشُها إلى[٤٧] السَّواد ، ووحشُ الرمال البيض على ذلك اللون ، فإن كانت الرمال حمراءَ فوحشها عُفْرٌ وهو لون التراب ، وكذلك وحش الجبال من الأراوي[٤٨] وغيرها يكون من ألوان تلك الجبال إنْ حُمْراً وإنْ بيضاً وإنْ سوداً ، وعلى هذا السبيل تكون القمْلةُ في الشعر الأسود سوداء وفي الشعر الأبيض بيضاءَ وفي الشُّهبِ شهباءَ وفي الأحمر حمراء .

النص الخامس

البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي

لا نفتقد العجيب أبداً من كتاب المسعودي . غير أن هذا لا يحتل فيه مكاناً مفرطاً في اتساعه ، والأوصاف التي يقدمها هذا العالم تكون عموماً من قبيل الطرائف الطبيعية ، وليس لها صفة السذاجة التي كثيراً ما نشاهدها عند سابقيه . ويتميز المسعودي فعلاً ، ودائماً تقريباً ، بالحذر عند سرد مصادره أو عند ما يشير إلى أنه لا يتكلم باسمه الشخصي .

« البحر الثاني[٤٩] وهو الرومي ، وهو بحر الشام والروم ومصرَ والمغرب والأندلس والأفرنجةِ والصقالبة وروميةَ[٥٠] وغيرهم من الأمم . طولُه خمسةُ آلافِ

---

(٤٦) جمع حرة وهي اللابة البركانية .

(٤٧) أي يضرب لونها إلى السواد .

(٤٨) جمع أروية وهي أنثى الوعل الجبل (شاموا) .

(٤٩) يأتي هذا النص بعد أن تكلم المسعودي عن البحر الأول وهو بحر الحبشة أي المحيط الهندي .

(٥٠) أي البحر الذي يلامس سورية وإمبراطورية الروم (بيزنطة) إلخ . وتأخذ أجزاء البحر الأبيض المتوسط عند الجغرافيين العرب أسماء البلاد التي تلامسها .

ميلٍ وعرضهُ مختلف فمنه ثماني مئة ميل ومنـه سبع مئـة ميل ومنـه ستُّ مئـة ميل وأقـل من ذلـك أو أكثر على حسب مضـايقـة البر للبحر والبحر للبر على مرور الأزمان ... ومبدؤه خليجٌ آخذ من بحر أقيانُس[٥١] المحيطِ يعرف بالزقـاق معترض بين طنجة وسبْتة من سواحل إفريقية وبين جزيرة الأندلس ، عرضه هنالـك نحوٌ من عشرة أميال وجريتُه[٥٢] بينـةٌ . يكون من مبتـدئـه إلى أن يتسع ويعظم نحواً من ثلاثة أيام .

ومما يصب إلى هذا البحر من الأنهار العظام الشهيرة النيلُ ، ومبدؤه من عين تخرج من جبل القمر وراء خط الاستواء بسبع درج ونصف وذلـك مئـة وإحـدى وأربعون فرسخـاً ، يكون أميـالاً أربع مئـة وخمسـة وثلاثين ميلاً . ثم يتشعَّب من هذه العين عشرة أنهار تصب كل خمسـةٍ منهـا في بطيحـةٍ من بطحتينِ في النـاحيـة الجنوبية وراء خـط الاستواء ، ثم يتشعب من كل بطيحـة منهـا ثلاثـة أنهـار تجتمع جميعاً إلى بطيحة في الإقليم الأول ، فيخرج من هـذه البَطيحـة نيلُ مصر ، فيقطع بلاد السودان ويمر بمدينـة عَلْوَةَ دارِ مملكـة النوبـة ، ثم بمـدينـة دنْقُلَـةَ لهم أيضـاً ، ويخرج عن الإقليم الأول حتى ينتهي إلى الإقليم الثاني ، ويصير إلى مـدينـة أسوانَ من صعيـد مصرَ ، وهي أول مُدنِ الإسلام ممـا يلي النوبـة ، ثم يقطعُ صعيـد مصر ويمر بفُسْطـاطهـا[٥٣] إلى أن يصبُّ في البحر الرومي من مصابٍّ كثيرة وذلـك في الإقليم الثالث .

ومن خط الاستواء إلى مدينة الإسكندريـة التي ينتهي إليهـا أحـد مصبَّـاتِ النيل على شـاطئ البحر ثلاثون درجـاً تكون من الأميـال ألف ميـلٍ وثمـان مئـة

---

(٥١) كلمة مأخوذة من اليونانيـة وتعني دومـاً المحيـط الأطلسي المدعو البحر المحيط . وعلى كل تعني التسميـة الأخيرة أيضاً المحيط الذي يطيف بكل الأرض اليابسة حسب مفهوم بعض الجغرافيين العرب .

(٥٢) تياره .

(٥٣) الفسطاط : القاهرة القديمة .

وثلاثين ميلاً ... ويقرب من جبل القمر هذا كثير من أحْوَاز[٥٤] الزَّنج ... وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا العلّة في نسبة هذا الجبل إلى القمر ، وما يظهر فيه من التأثيرات البيّنة العجيبة عند زيادة القمر ونقْصانه ، وما قالته الفلاسفةُ في ذلك وأصحاب الاثنين من المانَويّة وغيرهم ...

فأما البحر المحيط الذي هو عند أكثر الناس معظم البحار وعنْصرها ، وأنها[٥٥] منه تتشعب ويسميه كثير منهم الأخضر ، ويسمى باليونانية أوقيانوسَ . وأكثر نهاياته مجهولةٌ عند أبطُلميوسَ وغيره ؛ فإنه يبتدئ من نهاية العمارة[٥٦] في الشمال إلى أن يصير[٥٧] إلى المغرب ، وينتهي إلى نهاية العمارة في الجنوب ، وليس له في غربيِّه ولا شماليِّه نهاية محدودة ويتصل ببحر الصين مما يلي الزَّابجَ جزائرُ المهراج[٥٨] .

وفي هذا البحر مما يلي مغْربه الجزائر المسماةُ الخالدات ، ومما يلي شماله الجزائر المسماة بَرْطانيَّةَ وهي ثلاثُ عشرة جزيرة ، وعليه من بعض جهاته كثير من مدن الأندلُس والإفرنجة ، ومن جهة أخرى مدنٌ من مدن المغرب مما يلي بلادُ بَصْرَةَ المغرب[٥٩] ، ثم مساكن البربر الذي يدعون أصحابَ الأخْصاصِ ، وكثير من مساكن السودان .

ويصب إليه أنهار عظيمةٌ من بلاد الأندلس والإفرنجة وغيرهم من الأمم ، منها قرطبة قصبةُ الأندلس في هذا الوقت ودار مملكة بني أمية . مبْدأ هذا النهر من جبل على نحو من ستة أيام من قرطبة ويجري في هذا النهر مراكبُ كثيرةٌ إلى

(٥٤) جمع حوز أو حوزة : منطقة أو إقليم .

(٥٥) أي ويزعمون أنها منه تتشعب .

(٥٦) أي المعمور من الأرض .

(٥٧) أي يمتد .

(٥٨) انظر نص بزرك بن شهريار .

(٥٩) أو بصرى وهي مدينة لا وجود لها الآن بالمغرب

قرطبة ، فإذا فصل عنها صار إلى مدينة إشبيلية ، وهي على يومين من قرطبة ، ومن إشبيليّةَ إلى مصبه في هذا البحر يومان .

وعلى هذا البحر المحيط مما يلي الأندلس جزيرة تعرف بقادِسَ مقابلة لمدينة شَذُونَةَ[٦٠] من مدن الأندلس ، بينها وبين شذونة نحو من ثلاثة عشرة ميلاً . في هذه الجزيرة منارة عظيمة عجيبة البنيان على أعاليها عمود ، عليه تمثال من نحاسٍ يرى من شذونة وورائها بعظَمِهِ وارتفاعه ، ووراءه في هذا البحر على مسافات معلومة تماثيل أخر في جزائر يُرى بعضها من بعضٍ ، وهي التماثيل التي تدعى الهرقليَّة . بناها في سالف الأزمان هرقْلُ[٦١] الملكُ الجبَّار ، تنذرُ من يراها أن لا طريق وراءها ولا مذهبَ بخطوطٍ[٦٢] على صدورها بينةٍ ظاهرة ببعض الأقلام القديمة ، وضروبٍ من الإشارات بأيدي هذه التماثيل تنوب عن تلك الخطوط لمن لا يحسن قراءتها ، صلاحاً للعباد ومنعاً لهم في ذلك البحر من التغرير بأنفسهم .

وأمْرُ هذه الأصنام مشهور من قديم الزمان إلى هذا الوقت ، قد ذكرتها الفلاسفة القدماء وغيرهم ممّن عُني بهيئة الأرض وأخبار العالم منهم صاحب المنطق[٦٣] في كتابه في الآثار العلويّة[٦٤] ، وهو أربع مقالاتٍ[٦٥] ، فقال في المقالة الأولى منه عند ذكره النهر المعروف بطرْسيوسَ : ويسيل إلى أن يبلغ خارجاً من الأصنام التي أقامها هرقْلُ . وذكر أيضاً في أخر المقالة الثانية من كتاب السماء

---

(٦٠) اسمها الآن Medina-Sidona .

(٦١) أشهر أبطال عالم الأديان الوثنية (الميثولوجيا) عند اليونان أو هركول Hercules . ومنها أعمدة هرقل على طرفي مضيق جبل طارق أو بحر الزقاق .

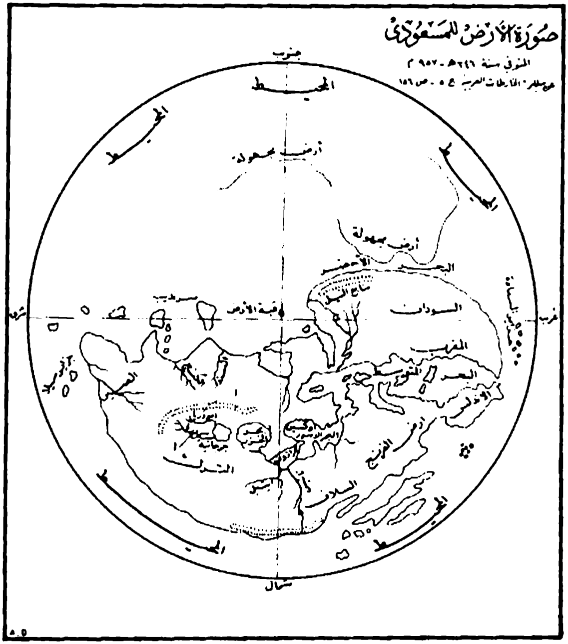
(٦٢) كتابات .

(٦٣) أي أرسطو .

(٦٤) أي علم الأرصاد الجوية (الميتيورولوجيا) وهو كتاب أرسطو الذي نقل إلى العربية على يد أبي بشر متى ويحيى بن عدي في القرن الثالث هـ / التاسع م .

(٦٥) مقالة : كتاب .

والعالم[٦٦] . وهو أربع مقالات أيضاً ، حين ذكر صغَر الأرض فقال : ما يزعمون أن الموضع الذي يدعى أصنام هرقل يختلط بأول حدٍّ من حدود الهند ، فلذلك قالوا : إن البحر واحد . وذكر أيضاً وبيَّنهُ الإسكندر الإفروديسي[٦٧] في شرحه لكتاب أرسطوطاليس في الآثار العلوية .



---

(٦٦) السماء والعالم أو السماء والأرض اسم كتاب شهير لأرسطو ترجم إلى العربية في القرن الثالث هـ / التاسع م على يد ابن البطريق وحنين بن إسحاق .

(٦٧) شارح أرسطو (مطلع القرن الثالث الميلادي) وقد ترجمت اثاره إلى العربية أيضاً .

نَاصِر خسرُو

(٣٩٤ هـ /١٠٠٣ م ـ ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م)

أبو معين الدين ناصر خسرو القُباذياني المروزي ، فارسي الأصل والنشأة والثقافة . ولد في بلدة قباديان[1] من أعمال مرو سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م ، وتأدب أحسن تأدب ، وشارك في علوم عصره ، ونال حظاً وافراً من معارفه . وقد عاش نيفاً وأربعين عاماً من حياته عاملاً حكومياً متوسط الحال بمدينة مرو في ديوان السلاجقة الذين بدأ نجمهم يعلو آنذاك ، ثم اعتراه تحول نفساني عميق دفعه إلى التجوال سبع سنوات ، بعد أن ظل يعيش عيشة ترف وبطالة حتى سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . فضحى بمنصبه وبدأ حياة جد وسفر وعلم وتقوى .

وقد كتب جعفر (أو جفري بك) ، وهو أخ طغرل بك ، أنه كان منغمساً في الملاهي والملذات حتى تراءى له ليلة رجل في الحلم نهاه عن المعاصي ، وأسرَّ إليه أن زيارة البيت الحرام هي سبيل التوبة النصوح . فكان لهذا الحلم أثر بالغ في نفسه ، أدّى إلى تغيير مجرى حياته ، فأقلع عن شرب الخمر وعن حياة اللهو والمجون . وسار للحج في العام التالي في شهر آذار ١٠٤٦ م فمر بنيسابور في طريقه إلى الري وتبريز ، وفي أثناء مسيره يشير إلى أن الكثير من النشادر كان يستخرج إذ ذاك من جبل دنباوند Demavend ، وفي طريقه مر على قزوين وتفليس وميافارقين وآمد (ديار بكر) وحران ودخل سورية بطريق منبج ثم قصد حلب ، وفي معرة النعمان زار الشاعر الكفيف أبا العلاء المعري . ثم سلك طريق الساحل فزار طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا ، ومنها عرج على طبريا ومنها اتجه إلى الرملة بطريق قيسارية وكفر سابا ، ومن الرملة قام بعدة زيارات للأماكن المقدسة العديدة فوصل القدس سنة ٤٣٨ هـ وقضى فيها أربعة أشهر ، تخللها رحلات صغيرة إلى المدن القريبة مثل الخليل . ويمثل وصفه لبيت المقدس قسماً من أهم أقسام كتابه (سفر نامه) ، ومن القدس أدى ناصر خسرو أول حجة إلى مكة المكرمة في ربيع عام ١٠٤٧ م ، ومنها عاد إلى القدس بطريق دمشق وسافر منها إلى مصر ماراً بحيفا والرملة ووصل عسقلان في ٧ صفر ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، ثم أخذ السفينة من مرفأ طينة الصغير إلى جزيرة تينس بمصر عند بحيرة المنزلة .

---

(١) مدينة وولاية على جيحون قرب ترمذ ، وهي مجاورة للصغانيان .

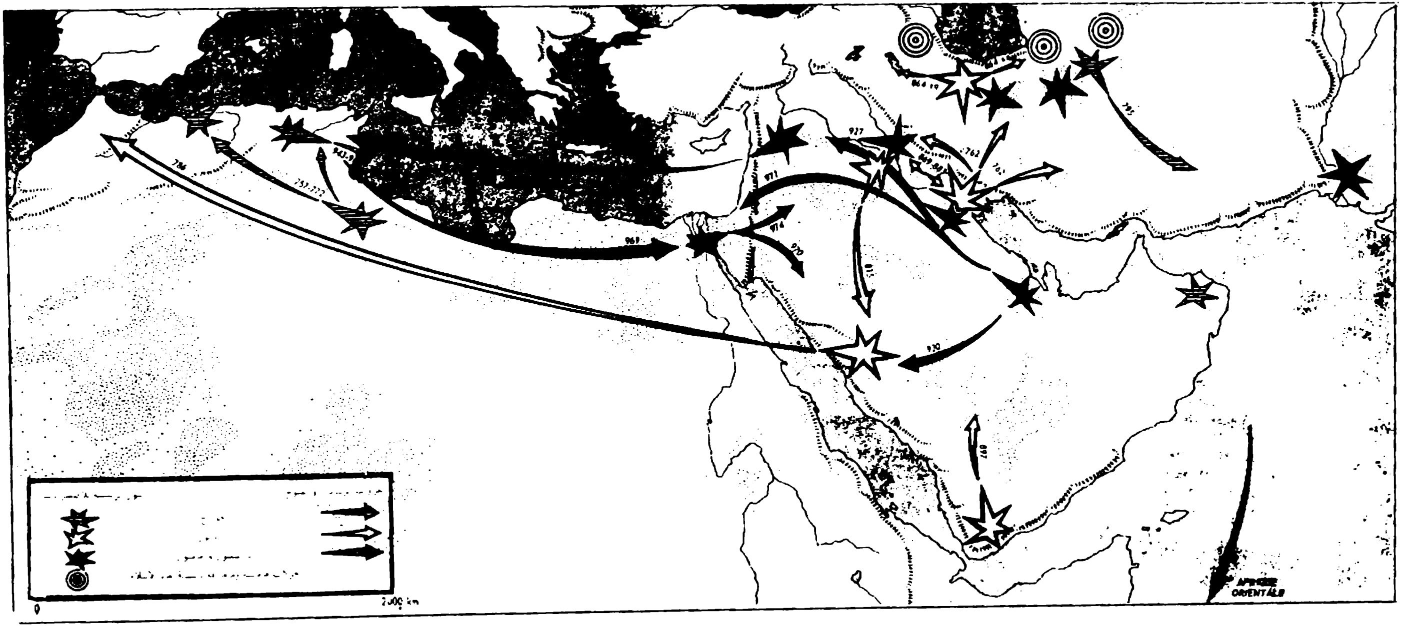
وفي جزيرة تينس ، وبها مدينة مزدحمة السكان ، كان يقيم آنذاك أهل الحرف من النساجين الذين اشتهرت صناعتهم في الشرق أجمعه ، ولكنها كانت في الغالب تحتكرها الحكومة ، وهي النسيج المعروف بالطراز ، كذلك اشتهرت بصناعة الحديد والعطر .

وقد امتدت إقامة ناصر خسرو الأولى في مصر ثمانية أشهر ، ثم حج ثانية عن طريق البحر من القلزم إلى مرفأ الجار ، ومنها إلى المدينة ثم مكة ، وعاد وظل يتنقل في بلاط الخليفة المستنصر سنتين إلى أن غادر عاصمة الفاطميين نهائياً في ١٤ ذي الحجة سنة ٤٤١ هـ / نيسان ١٠٥٠ بطريق عيذاب ، هذه المرة ، إلى جدة ، بعد سفر شاق في النيل إلى أسوان ، وبعد سفر مرهق لمدة ١٥ يوماً من شهر تموز من عام ١٠٥٠ م في الصحراء المصرية الشرقية . ويغلب على الظن أن يكون اعتناقه نهائياً للمذهب الإسماعيلي قد تم بالقاهرة ، فأصبح بالتالي داعية متحمساً لمذهبهم في وطنه . والظاهر أن الخليفة المستنصر بالله أحسن استقباله في مصر وكلفه بأن يدعو لمذهب الإسماعيلية في خراسان .

ثم اجتاز جزيرة العرب ماراً بالطائف حيث سمع في ضواحيها قصة ليلى والمجنون ، ثم سار في محاذاة جبل طويق ، فمر بواحة فلج إلى اليمامة (الأحساء) فالبحرين . وقد قسرته الظروف للبقاء مدة أربعة أشهر بواحة فلج في أسوأ حال ، لم يكن يمتلك أثناءها من متاع الدنيا سوى سلّتين مليئتين بالكتب ، لم تجدياه فتيلاً مع سكان جهلاء ، كانوا يعيشون من السلب والنهب . وقد بلغ البصرة وهو لا يملك شيئاً ولكنه يقدم لنا في مقابل ذلك وصفاً مفصلاً وهاماً للنظام الاجتماعي والسياسي في البحرين التي كانت لا تزال تحت سلطان القرامطة . وفي البصرة تمكن من أخذ طريق العودة إلى وطنه بفضل معونة وزير ثري من أهل الأهواز ، فمر بطريقه بمهرُبان وأرّجان وأصفهان . ووصل إلى بلخ في أيلول من عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م بعد مصاعب جمة تعرض لها في الطريق . ولما عاد إلى بلاده كان في مقدمة الدعاة لمذهبه الجديد . ولكن السلاجقة لاحظوا خطر هذه الدعوة فاضطهدوا ناصر خسرو ويقال : إنه قضى عشرين عاماً متخفياً في جبال خراسان لما اشتد السلاجقة في مطاردته ، واضطروه للفرار إلى بلاد ما وراء النهر حيث بقي في منفاه إلى أن توفي سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م . ويذهب كراتشكوفسكي إلى أن وفاته كانت في عام ٤٨١ هـ أو ١٠٨٨ م .

وخلّف هذا الرحالة وصفاً دقيقاً يدفع للظن بأنه كان يسجل مشاهداته أولاً فأولاً ، وكان دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصّي الأخبار مثلما يعنى بالاتصال بالشعوب التي يمر بها .

ويتفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها فجاءت رحلته (سفرنامة) غنية بالصور ، خاصة بالمعلومات عن البلاد التي زارها ، وتلقي نوراً على الكثير من شؤونها الاجتماعية والاقتصادية قبيل الغزو الصليبي . ومما يدل على دقة خسرو ذكره المد والجزر في الخليج العربي وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب .


786
969
974
970
971
927
815
930
762
AFRIQUE ORIENTALE
0
2000 km

وقد ترجمت رحلة ناصر خسرو إلى الفرنسية وأصبحت مصدراً أساسياً في دراسة الحضارة الإسلامية في الشرق خلال القرن الخامس الهجري .

النص الأول
مصر كما رآها ناصر خسرو

« القاهرة مدينة كبيرة ... وأقدّر أن بها ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها ملك للخليفة ومنها عدد كبير يؤجر واحدها بمقدار عشرة دنانير مغربية بالشهر وليس فيها ما يؤجر بأقل من دينارين .

وفنادقها وحماماتها وسائر أبنيتها العامة كثيرة بحيث لا يمكن تعدادها وكلها ملك للسلطان ...

وقد روي لي أن بالقاهرة ومصر ، أي الفسطاط ، عشرين ألف منزل يملكها الخليفة ويؤجرها مشاهرة ... وقصره يتوسط القاهرة ... وقد قدر المهندسون سعته بقدر مدينة ميافارقين كلها ... وفيه من الحراس ألف رجل ... ومن الخدم اثنا عشر ألفاً ... ويؤكد البعض أن سكانه يبلغون ثلاثين ألف نسمة .

وماء الشرب يؤخذ من النيل ويحمله السقّاؤون على جمال يبلغ عددها اثنين وخمسين ألفاً ... ويحمل الرجال القرب حيث يتعذر على الجمال الدخول ... وتفصل المنازل بعضها عن بعض داخل المدينة بساتين وحدائق غناء .

وكان أيام إقامتي بالقاهرة أن أجر المنزل العادي ذي الأربع طبقات بأحد عشر ديناراً بالشهر ، والمنزل الذي أقمت فيه كانت ثلاث طبقات منه مأهولة ، فطلب مني صاحبه خمسة دنانير مغربية في الشهر أجرة الطابق الرابع . وتبعد

مصر أقل من ميل عن القاهرة في اتجاه الجنوب ، والأرض بينهما مغطاة بـالحـدائق التي يغمرها ماء النيل في الصيف ، عـدا حـديقـة الخليفـة ، فـإنهـا تقع على مكان مرتفع ...

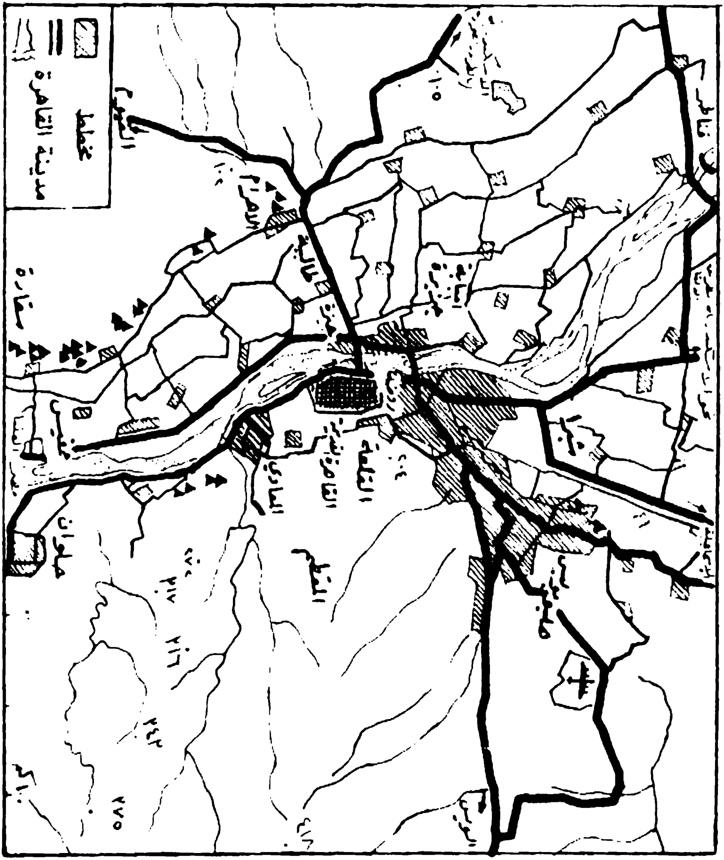
الفسطاط : في مصر (الفسطـاط) بيوت من أربعـة عشر دوراً وبعضهـا من سبع طبقات . وقد سمعت ممن يوثق بـه ، أن ثمـة رجلاً أنشـأ حـديقـة على سطح بيت ذي سبعة أدوار ... وغرس فيها البرتقـال الحلو والموز وغيرهمـا من الأشجـار المثمرة والريـاحين والزهور ... وفي مصر دور كبير للتـأجير تتسـع الـواحـدة منهـا لثلثمئـة وخمسين شخصـاً ... وبعض أسواق مصر وشوارعهـا تضـاء فيهـا المصـابيـح باستمرار وذلك لأنها مسقوفة فلا يصل إليها نور الشمس ...

ينتقـل التجـار والسماسرة في مصر بين البيت والسـوق على حُمُرٍ ذات سروج جميلة ، يرى المرء عدداً كبيراً منها عند مـداخل الشوارع والأسواق . وأجرة الحمـار قليلة . وفي مصر نحو من خمسين ألف حمـار للتـأجير . وركوب الخيل مقصور على الجند والأشخاص المنتمين إلى الجيش ...

ثروة مصر : وتصنع في مصر كل أنواع القيشاني فتصنع المزهريـات والكؤوس والصحون وغيرها من الأوعية وتزخرف هذه بألوان تشبه تلك التي تلوِّن بها أقمشـة الأبوقلمون ، بحيث تتغير انعكاساتها بتغير المكان الموضوعـة فيـه المزهريـة . وتصنع فيها كؤوس شفافة صافية كأنهـا الزمرد وتبـاع بـالـدرهم (وزنـاً) بحيث يبلغ ثمن الدرهم الواحد منها ، على ما روى لي الثقة ، ثلاثة دنانير مغربية .

والبيع في مصر بالسعر المحدَّد ، فإذا غشَّ بائع شُهِّرَ به على جمل .

والبـائع ، سواء في ذلـك البقـال أو العطـار أو بـائع الخردوات ، يعنى بوضع ما يبيعه في الوعاء المناسب له سواء أكان ذلك كأساً أو آنيـة أو ورقـة ، فلا يضطر المشتري إلى تحضير الوعاء .


مخطط مدينة القاهرة

ويستخرج من بذر الفجل واللفت زيت ، يسمى الزيت الحار . والسمسم ليس كثيراً في مصر ، وزيته غالٍ ، والتجارة بزيت الزيتون مرابحها كبيرة ...

رأيت في مصر خاناً اسمه دار الوزير تقوم فيه تجارة القصب . ففي الطبقة السفلى منه الخياطون وفي الطبقة العليا العمال ، فسألت الأمين عليه عن أجرته فقال : إنها كانت عشرين ألف دينار في السنة ، لكنها الآن اثنا عشر ألفاً لأن جزءاً منه متهدم ، وقد أكد لي العارفون أن بمصر عشرة خانات بعضها مثل هذا وبعضها أكبر منه ...

كان ابن سعيد وابنه وأخوه من كبار الأغنياء ، بحيث أن ثروتهم لا يعلمها إلا الله .

وقد روي أن ابن سعيد عمل على سطح داره حديقة فيها ثلثمئة أصيص من الفضة ، غرس في كل منها شجرة مثمرة ...

لست أعرف بلداً آخر يستمتع بالطمأنينة على نحو ما تستمتع بها بلاد مصر . رأيت نصرانياً من كبار المثرين في مصر ، لا يعرف أحد ماله من السفن ولا يحصي أرزاقه وأملاكه . دعاه الوزير مرة إليه وسأله عن كمية القمح التي يمكنه بيعها أو هبتها للسكان ، لأن المحصول كان رديئاً ، وقد أهم الخليفة ما يعانيه شعبه من الفاقة . فأجاب الرجل بأنه عنده من القمح ما يكفي مدينة مصر ست سنوات (وعدد سكان مصر كان عندها خمسة أضعاف سكان نيسابور) ، ومع ذلك فلم يخش الرجل على ثروته ولم يخف مصادرتها لأنه مطمئن إلى عدل الخليفة ووزيره .

الجوامع : تقام صلاة الجمعة في القاهرة في أربعة جوامع ، الأول : الجامع الأزهر ، والثاني : جامع النور ، والثالث : جامع الحاكم ، والرابع : جامع المعز ...

وتتفتح أبواب الجـامع (جـامع عمرو) على الأسواق ... وفي سـاحـة الجـامع يجلس الأساتذة والمقرئون باستمرار . هنـا مجتمع أهل المـدينـة الكبيرة ، وقلمـا يرى فيها أقل من خمسة آلاف رجل بين طـالب علم وغريب وكاتب عـام يقوم بكتـابـة رسائل الصرافين والعقود وغيرها .

ويعقد قاضي القضاة مجلس القضاء في هذا الجـامع ... وإلى جهـة الشمال من المسجد يوجد سوق القناديل التي ليس لها مثيل معروف في قطر آخر ، فيهـا يجـد المرء التحف النادرة والثمينة التي تحمل إليهـا من أصقـاع العـالم كلـه . رأيت فيهـا صناديق وأمشاطاً وأيدي للسكاكين مصنوعة من الصدف ، ولاحظت أشياء فنيـة مصنوعـة من الصخر البلوري ، ويؤتى بـمادتـه الآن من بحر القلزم وكانت قبل من واردات المغرب . وما يأتي منه القلزم أنقى وأصفى . وثمة العـاج الآتي من زنجبـار ويبلغ وزن الناب الواحد ما يزيد عن مئتي مَنّ ، ويحمل من الحبشة جلد حيوان يشبه جلد الفهد تصنع منه زخارف للأردية ، كما تحمل الطيور الأليفة الجميلـة التي يتزين بريشها .

موكب جبر الخليج

وفي هـذا اليـوم (يـوم جبر الخليـج) تسير كل أجنـاد الخليفـة كل فرقـة على حـدة . فـأولهـا كتـامـة التي جـاءت من القيروان مع المعـز لـدين الله ، وعـددهـا عشرون ألفاً من الفرسان . والثانية باتلة وهم مغربيون استقروا في مصر قبل أيـام المعز لدين الله ، ويبلغ عددهم خمسة عشر ألف فارس .

ويأتي بعد ذلك المصامدة وهم سود وعددهم ، على ما أكد لي الثقـة ، عشرون ألفاً ، والمشارقة من الترك أو الفرس ... عـددهم عشرة آلاف ولهم هيئـة فخمـة ... ثم يأتي عبيد الشراء ، وهم الرقيق المشري في السوق ويقدّر عددهم بثلاثين ألفـاً ...

وثمة فرقة أخرى من بدو الحجاز مؤلفة من خمسين ألفاً من حملة الرماح ، وجماعة الأستاذين يؤلفون فرقة عددها ثلاثون ألف رجل وهم من الرقيق الأسود والأبيض ، ويقومون بخدمات منوعة .

وهناك عشرة آلاف هم خدمة القصر وثلاثون ألفاً من الزنج .

ناصر خسرو في جزيرة العرب

الحياة في فلج : تقع فلج في وسط الصحراء ... ثمرها لذيذ وكثير ... يتعامل أهلها بالدينار النيسابوري الذهب ... أقمنا بها أربعة شهور ... أهلها جياع ... عراة تغمرهم جهالة فاضحة ، يذهبون إلى الجامع للصلاة مسلحين بالسيف والترس . لا يبتاعون كتباً البتة ، نزلنا بالجامع ... وقد زينت لهم المحراب لقاء مئة منّ من التمر .

الحسا : لأمير الحسا ثلاثون ألف عبد حبشي يعملون في الزراعة والبستنة . والسكان لا يدفعون ضريبة ولا عُشراً . وإذا أعسر أحدهم أقرض ما يحتاجه ليتمكن من تدبير شأنه . ويعيد المدين المبلغ الأصلي ، أي رأس المال فقط .. والغريب عند وصوله يعطى مبلغاً من المال يستعين به على قضاء حاجته ، ومتى ابتاع مواده وعدة صناعته ، يعيد المبلغ الأصلي فقط على الطريقة التي يرغب فيها ... وإذا تهدمت دار أو مطحنة ولم يكن لدى صاحبها ما يصلحها به ، خصص الحكام بعض عبيدهم لإصلاح ذلك ، دون تكليف المالك لدفع شيء أبداً .

والمطاحن الخاصة بالحكومة في الحسا يطحن الناس فيها قمحهم مجاناً .. وتصنع في الحسا الفوط الجميلة الجيدة وتحمل إلى البصرة وغيرها ، ولا يشرب أهلها الخمر أبداً » .

البَيْرُونِي

(٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ـ ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م)

ولد محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني في الثاني من ذي الحجة عام ٣٦٢ هـ / ٤ أيلول عام ٩٧٣ م في بلدة بيرون ، وهي ناحية من نواحي خوارزم ، أي خيوه الحالية ، ومنها جاءت نسبته البيروني التي اشتهر بها ، والتي أعطته بعد تحريفها اسم آليبورون Aliboron وهو الاسم الذي اشتهر به في أوروبا خلال العصر الوسيط .

وقد أتيح للبيروني أن يتلقى تعليماً جيداً ، دعمته أسفاره العديدة وتجواله وتعطشه الشديد إلى المعرفة الذي ألهب مشاعره منذ حداثة سنه . وفي سن مبكرة أيضاً انصرف اهتمامه إلى جوانب من العلم ، لم تكن معهودة لدى الدارسين في العصور الوسطى الإسلامية . ويروى أنه عاش بخوارزم إذ ذاك عالم يوناني كان يتردد إليه البيروني حاملاً أنواع النباتات والبذور والثمار مستفسراً منه عن أسمائها اليونانية ويدون ذلك . ونظراً لشهرته في معرفة اللغة اليونانية ، والعربية ، والفارسية ، وكذلك لتضلُّعه في علم الرياضيات والفلك ، فقد حظي بمكانة لدى أمير خوارزم ، المأمون الذي توفي عام ٩٩٧ م ، ولكنه لم يلبث أن اضطر عقب إحدى الانقلابات إلى مغادرة وطنه ، وهو في سن العشرين ، فرحل إلى سواحل بحر قزوين ، وفي جرجان التقى بأكبر أساتذته وهو الطبيب والفلكي المسيحي أبو سهل عيسى ، وتعرف على ابن مسكويه ، وأبي نصر العراقي ، وأبي الخير ابن الخمار . وهناك أيضاً تمتع بعطف أمير جرجان وطبرستان شمس المعالي قابوس بن وشمكير الزياري الذي حكم بين ٩٧٦ و ١٠١٢ م ، فنال عنده منزلة سامية ومحلاً رفيعاً حتى أراد قابوس ، وكان أميراً أديباً ، اكتسب بدوره بعض الشهرة كناثر وآخذ في العلم بطرف ، وضم مجلسه الكثير من الحكماء العظام ما لم يجتمع عند غيره ، أن يستوزره فاعتذر . ولم يلبث البيروني أن أهداه حوالي عام ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م كتاباً في التاريخ وفي علم الأقوام (اثنوغرافيا) عنوانه (الآثار الباقية عن العصور الخالية) ، عرض ودرس وقارن فيه التقاويم المعروفة لدى مختلف الشعوب ، كما نجد فيه العديد من التفاصيل عن معتقدات وعادات وأعياد النصارى والفرس ، واليونان والعرب .

ويبدو أن ميل هذا الحاكم إلى الاستبداد جعل الحياة شاقة في بلاطه ، الأمر الذي تردد صداه في أشعار متأخرة للبيروني . وإلى هذا الوقت المبكر من حياته العلمية الحافلة ترجع أيضاً الرسائل التي

تبادلها مع معاصره الأصغر منه سناً ابن سينا الذي طبقت شهرته الآفاق فيما بعد ، والتي تعطي الدليل على عمق معرفته بالفلسفة وعلى حدة مزاجه . ولدى عودته إلى خوارزم في عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م استردّ مكانته في بلاط ابن المنعم عليه سابقاً ، أي المأمون ، وبعد قليل شهد البيروني سقوط ابن المأمون هذا سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ومقتله . ومن ثم أخذت تتقاذفه الدسائس والمؤامرات السياسية ، فقد حمل أسيراً مع غيره من زملائه إلى غزنه عندما احتل محمود الغزنوي خوارزم باعتباره عنصراً لا يُطمأن إليه ضمناً ، وظاهراً كي يشمله السلطان الفاتح برعايته لأنه كان نصيراً للعلوم . وعندما فكر محمود في فتح الهند اصطحب معه جمهرة من العلماء كان من بينهم البيروني ذاته . وهكذا اجتاز البيروني نهر الهندوس في أعقاب الجيوش الغزنوية وأقام بضعة أعوام في بلاد البراهمة حيث تعلم اللغة السنسكريتية . وقد استفاد من هذه الإقامة الطويلة فألف كتابه الطائر الصيت المعروف بكتاب الهند والمرسوم بـ (كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) أودع فيه نتيجة دراساته من تاريخ وأخلاق وعادات وعقائد وآداب وعلوم الهند ، ومن جملتها ما كان عندهم من المعرفة بصورة الأرض . ويعتبر هذا الكتاب بحق إحدى الدعامات التي تشرف الأدب العربي ، سواء بسبب كثرة المعلومات المتوفرة فيه أم لقيمة بعض الصفحات على الصعيد الأدبي ، وهكذا أصبح البيروني واسطة العقد بين الإسلام والهند بعد أن نقل إليهم ما كان عند المسلمين من علوم .

ويصف المستشرق روزن منذ أكثر من سبعين عاماً هذا الكتاب بأنه (أثر فريد في بابه لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط سواء في الغرب أم في الشرق » .

وغادر البيروني الهند عائداً إلى غزنة في أفغانستان ، حيث أقام فيها حتى قبيل عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م ، لأنه كان في هذا التاريخ المذكور في بلاط الأمير الغزنوي الثاني مسعود ، الذي حكم من عام ١٠٣٠ إلى ١٠٤٠ م ، والذي شجعه على تأليف كتاب في علم الفلك دعاه (القانون المسعودي) ، وهو عبارة عن وجيز في الرياضيات توجد نسخة منه في مكتبة الجامعة الإسلامية في عليكرة بالهند ، فضلاً عن عدة مؤلفات علمية أقل منه أهمية . وبعد ذلك ، أي في عهد ابن الأمير مسعود . وهو مودود الذي حكم بين ١٠٤١ و ١٠٤٨ م ، ألّف كتاباً عن الأحجار الكريمة .

وتوفي البيروني في ٣ رجب الفرد سنة ٤٤٠ هـ الموافق ١٢ كانون الأول ١٠٤٨ م في غزنة على الأرجح ، وكانت وفاته ختام حياة حافلة لرجل حكيم وعظيم .

ويعتبر البيروني ، بكل تأكيد ، أحد ألمع الوجوه التي يمكن أن تعتزّ بها الثقافة العربية من خلال تاريخ الفكر الإسلامي وأكثرها جاذبية ، فعلى الرغم من أن اسم البيروني يحتل مكانته من الأدب العربي ، في ميدان الجغرافية والرحلات ، إلاّ أنه يتبيّن لنا من خلال المصنفات ، التي ذكرنا بعضاً منها ، أنه لم يكن جغرافياً فحسب ، بل كان رياضياً وفلكياً ، وفيلسوفاً ، وشاعراً ، وأديباً ، وعالم

اجتماع ، ومؤرخاً . نعم كان كل أولئك وبرز في كل فروع المعرفة الإنسانية هذه ، وبعبارة أخرى كان مؤلفاً انتظم نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له والتي تحتل بينها العلوم الرياضية والفيزيائية مكانة الصدارة عنده .

وفضلاً عن ذلك فقد كان أنموذجاً لأولئك الباحثين الذي يستمرون حتى نهاية حياتهم في إغناء معارفهم ، لأن البيروني ظل مدة نصف قرن يعمل بلا توقف على تزويد المكتبة العربية بمؤلفاته العديدة بعد صدور كتابه الأول ، وأحد أولئك الأذكياء اللامعين القادرين على إدراك أكثر المفاهيم تبايناً ، وأكثرها صعوبة لتعدد مذاهبها ، وبعبارة أخرى كان أحد الرجال العالميين من أضراب ليونارد دوفنشي وغوته وسواهما من النابغين الذين قلَّ أن يجود الزمان بأمثالهم .

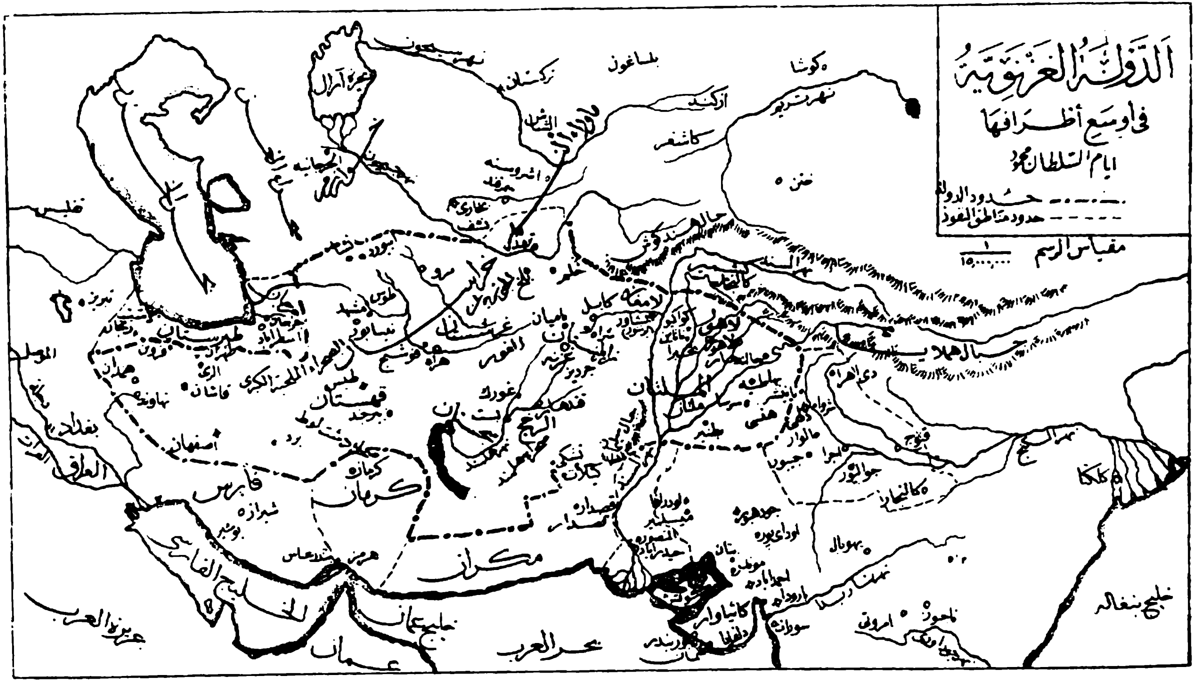
ولكن نظراته الثاقبة في الجغرافية تجعله ، مع ذلك ، في عداد الرواد الذين سبقوا عصرهم . فقد جمع معلومات قيمة عن جنوب إفريقية وعن موزمبيق وسُفالة الزنج ، كما يسميها ، عن طريق التجار العرب ، وعلى أساسها استطاع أن يقول : إن أثناء صيفنا يكون شتاء عندهم ، وأن يذهب إلى أن البحر الجنوبي (المحيط الهندي) يتصل بالمحيط الكبير (المحيط الأطلسي) عن طريق فتحة في الجبال على طول الساحل الجنوبي لإفريقية ، ثم يضيف : « لا شك في وجود هذا الاتصال بالرغم من أن أحداً لم يستطع إثباته بشهادة العيان » وبذلك سبق البرتغالي بارتلمي دياز مكتشف رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٦ ، بحوالي أربعة قرون من الزمن .

النص الأول

من الممكن إعطاء فكرة جيدة عن مدى اتساع أفق المعلومات الجغرافية في عصره مما دونه البيروني بصدد توزع البحار على سطح الأرض ، وذلك في كتاب لم يقصد به في الواقع علم الفلك بقدر ما قصد به التنجيم ، واسمه : (التفهيم في صناعة التنجيم) صنفه لريحانة بنت الحسن الخوارزمية .

« أما البحر الذي في مغرب المعمورة وعلى ساحل طنجة والأندلس فإنه سُمّيَ البحر المحيط ، وسماه اليونانيون أوقيانوس ولا يُلَجَّجُ فيه ، إنما يُسلك بالقرب من ساحله[١] ، وهو يمتد من عند هذه البلاد نحو الشمال على محاذاة أرض الصقالبة ،

(١) وهو ما يسمى حالياً الملاحة الساحلية Cabotage أو Coasting .



خارطة الدولة الغزنوية في أوسع أطرافها أيام السلطان محمود . عن «الشيخ عبد الحميد بخيت»

ويخرج منه خليج عظيم في شمال الصقالبة ، ويمتد إلى قرب أرض بلغار بلاد المسلمين ، ويعرفونه ببحر وَرَنْك[٢] ، وهم أمة على ساحله ، ثم ينحرف وراءهم نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أقصى الترك أرضون وجبال مجهولة خربة غير مسلوكة ... وأما امتداد البحر المحيط الغربي من أرض طنجة نحو الجنوب ، فإنه ينحرف عن جنوب أرض سودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القمر التي تنتج منها عيون نيل مصر . وفي سلوكه غَرَر لا تنجو منه سفينة ..

وأما البحر المحيط من جهة الشرق وراء أقاصي أراضي الصين فإنه أيضاً غير مسلوك ، ويتشعب منه خليج ، يكون منه البحر الذي يسمى في كل موضع من الأرض التي تحاذيه ، فيكون ذلك أول بحر الصين ثم الهند ، وخرج منه خلجان عظام يسمى كل واحد منها بحراً على حدة : كبحر فارس والبصرة الذي على شرقيه تيز ومُكران ، وعلى غربيه في حياله فرضة عمان ، فإذا ما جاوزها بلغ بلاد الشجر التي منها الكُندر ، ومرَّ إلى عدن ، وانشعب من هناك خليجان عظيمان أحدهما المعروف بالقُلْزُم ، وهو ينعطف فيحيط بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة ، ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فإنه يسمى بها ، فيقال لجنوبيه بحر الحبشة ، وللشمالي بحر اليمن ، ولمجموعهما بحر القلزم ، وإنما اشتهر بالقلزم ، لأن القلزم مدينة على منقطعه في أرض الشام ، حيث يستدق ويستدير عليه السائر على الساحل نحو أرض البجة ..

والخليج الآخر المقدم ذكره وهو المعروف ببحر البربر يمتد من عدن إلى سفالة الزنج ، ولا يتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيه ، ويتصل بعدها ببحر أوقيانوس الغربي ، وفي هذا البحر من نواحي المشرق جزائر الزابج ثم جزائر الديبجات[٣] وقمير ثم جزائر الزنج . ومن أعظم هذه الجزائر الجزيرة المعروفة

---

(٢) وهو بحر البلطيك .

(٣) جزر لكديف ومنديف .

بسرنـديب ، ويقـال لهـا بـالهنـديـة سيلانـديب[٤] ، ومنهـا تجلب أنواع اليواقيت جميعها ، ومنها يجلب الرصاص القلعي وشُربزه ، ومنها يجلب الكافور ...

ثم في وسـط المعمـورة في أرض الصقـالبـة والروس بحر يعرف ببنطُس عنـد اليونانيين ، وعندنا يعرف بحر طرابزندة لأنها فرضة عليه ، ويخرج منـه خليج يمر على سور القسطنطينيـة ، ولا يزال يتضـايـق حتى يقـع في بحر الشام الـذي على جنوبيه بلاد المغرب إلى الإسكندرية ومصر ، وبحـذائهـا في الشمال أرض الأنـدلس والروم ، وينصب إلى البحر المحيط عند الأندلس في مضيق يذكر في الكتب بمعبرة هيرقلس . ويعرف الآن بالزقـاق ، يجري فيـه مـاؤه إلى البحر المحيط . وفيـه من الجزائر المعروفة قُبرس وسامس ورودس وصقلية وأمثالها .

وبالقرب من طبرستـان بحر فرضـة جرجـان عليـه مـدينـة آبـسكون ، وبها يعرف ، ثم يمتد إلى طبرستان وأرض الديلم وشروان وباب الأبواب ونـاحيـة اللان ثم الخـزر ثم نهر أتـل الآتي إليـه ثم ديـار الغـزيـة ثم يعـود إلى أبسكـون (لعلهـا آبشرون) ، وقد سمي باسم كل بقعـة حـاذاهـا ، ولكن اشتهـاره عنـدنـا بـالخزر ، وعند الأوائل بجرجان . وسماه بطليوس بحر أرقانيا ، وليس يتصل ببحر آخر ..

فأما سائر المياه المتجمعـة في مواضع من الأرض فهي مستنقعـات وبطـائح ، وربمـا سميت بحيرات كبحيرة أفـاميـة وطبريـة وزُغر بـأرض الشـام ، وكبحيرة خوارزم وآبسكون بالقرب من برسخان » .

---

(٤) ومنها سيلان التي تحول اسمها إلى سيريلانكا منذ عهد قريب .

النص الثاني

البيروني الكوزموغرافي

معلومات عن خط الاستواء

يبدو البيروني في كتابه (قانون المسعودي) كوزموغرافياً صرفاً ، وتمكنه العلمي أي (تقنيته) العظمية ، كما سنرى ذلك في النص القادم ، يميزه بكل وضوح عن مبسّط ابن رستة مثلاً :

« قال البيروني في القانون : خط الاستواء الذي لا عرض له ، فالعرض منه ومنسوب إليه . ولمّا[5] اجتازت أفقهُ على قطبيْ الكّل[6] قسَمَتِ المداراتُ المخطوطة على[7] الأفق الموازية لمعدَّل النهار كلَّها بنصفين ، فلم يدم فيه ظهورُ مدارٍ أو خفاؤهُ أصلاً ، ولم يختلف فيه ليلٌ مع نهاره ، بل استويا لكلٍّ طالعٍ وغاربٍ . وقطبا فلك البروج من جُمْلَتِها[8] ، فمرت منطقة البروج على سمت الرأس في كل دورة مرتين عند طلوعها وغروبها ، وانْتَصبتِ[9] المدارات على الأفق فاستقامت الحركة[10] لمبْصرها ، وساوَتِ المشارقُ والمغاربُ[11] الميولَ[12] لكون الأفق إحدى

---

(٥) لما : بمعنى وبما ، وبما أن ....

(٦) أي قطبا العالم . ولفهم ما سيأتي يجدر بنا العودة إلى نص ابن رستة الثاني ، والأشكال المرافقة له بالهامش . وكلمة مدار تعني هنا دوماً خط عرض سماوي .

(٧) خطُّ على : قطع .

(٨) من جملتها أي في الحالة نفسها ، وعبارة فلك البروج تعني مستوى الكسوف السماوي .

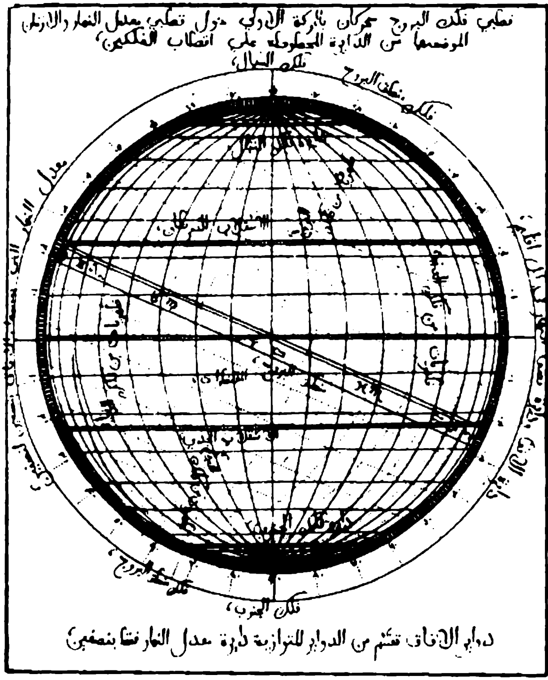
(٩) انتصب على : عمودي على .

(١٠) أي حركة النجوم .

(١١) المشارق : أو السعة الشرقية ، قوس الأفق المحصور بين الشرق الحقيقي وبين مركز النجم عند بزوغه . المغارب : أو السعة المغربية قوس الأفق المحصور بين النقطة التي يغيب عندها النجم وبين الغرب الحقيقي .

(١٢) الميل على خط الاستواء أو declinaison .

دوائرها ، واستوى بُعْدُ المنقلبين[١٣] عن سَمْتِ الرأس فتساوى ارتفاعُهما في نصف النهار عن جنوب وشمال . وكذلك ظلالها فيهما . وتوسُّطُهما[١٤] أعظمُ الارتفاع العديم الظلّ . وفيه[١٥] لم يختلف جهتا سمت المشرق وارتفاعُ نصفِ النهار[١٦] في



«اللوحات الاعتدالية» المنشورة في أوغسبورغ عام ١٦٧٦ م

(١٣) المنقلب : المدار . استوى على المنقلبين أي أصبح على مسافة واحدة من المدارين .

(١٤) المسافة القطبية الوسيطة Intermediaire .

(١٥) الضمير يعود لخط الاستواء .

(١٦) أي الارتفاع على خط الطول .

مدار واحد . وسامتَتْهُ[17] الشمسُ على نقطتين مُتَقاطرتيْنِ همـا أول الحملِ والميزان ، وكانت المدة بينهما نصفَ سنةٍ بالتقريب » .

النص الثالث

العالم المعمور . عن البحار والمناخات

يطيب للبيروني أن يكمل في الكتاب نفسه ، المعطيات التي يقول بها الهنود مستعيناً بالمعلومات التي أخذها عن الإغريق ، وإليكم مثالاً عن ذلك :

« قال البيروني : الرومُ والهند أصدَقُ سائر الأمم عناية بصناعـة (النجوم) ، ولكن الهندَ لا يبلغون غاية اليونانيينَ فيعترفونَ لهم بالتقدم ولمثلـه نميلُ إلى آرائهم ونؤثرها ، فأما الهندُ ففي كتبهم أنَّ نصف كرة الأرض ماءٌ ونصفهـا طينٌ (يَعْنون البر والبحر) ، وأن على ترابيـع[18] خـط الاستـواء أربعـة مـواضـعَ هي جَمَكـوتُ الشرقي[19] والروم الغربي ولَنْـكُ الـذي هـو القبـةُ[20] والمقــاطر لهــا[21] . فلـزمَ من كلامهم أنَّ العمارة في النصف الشمالي بأسره .

وأما اليونانيون فقد انقطعَ العمرانُ في جانبهم ببحر أوقيانوسَ ، فلما لم يـأتهم خبرٌ إلاَّ من جزائر فيه ، غير بعيدة عن السـاحل ، ولم يتجاوز المخبرونَ عن الشرق ما يقـارب نصف الـدور[21] جعلوا العمارة في أحـد الرُّبْعين الشماليين . لا أنَّ ذلـك

---

(١٧) جمع تربيع أي ربع الدائرة ، أو ربع خط الطول الأرضي .

(١٨) جمكوت أو Yamacota وربما اليابان .

(١٩) لنك أي لانكا : جزيرة سيلان . وبالنسبة لقبة الأرض انظر نص ابن رستـة وهوامشـه . أي وبـدلاً من أن يمر خط الطول المبدئي من أرين فقد جعله الهنود يمر من لانكا .

(٢٠) أي المقابل إلى لانكا أي antipodes .

(٢١) أي محيط الأرض .

موجبُ أمرٍ طبيعي ، فمزاجُ الهواء واحدٌ لا يتباينُ . ولكنه أمثالٌ ذلك من المتعارَفِ موكول إلى الخبرِ من جانب الثِّقة . فكان الربع دون النصف هو ظاهرُ الأمر ، والأَوْلى بأن يؤخذَ به إلى أن يَرِدَ لغير خبر طارئ .

وطول العمارة على ذلك أوفرُ من عرضها ، لتَعطُّلِ العمارة في الشمال عند ثلثي ربع الدور بالتقريب . والهند سموا برَّ الأرض بلغتهم سلحفاةً من أجل إحاطة الماء بحواشيه وبروزه مُقبَّباً منه ، وخاصة إذا اعتقدوا أنَّ هذا البارز نصفُ كُرَة . وإنما سُمِّيَ بحر أوقيانوسَ الغربي محيطاً ، لأن ساحله يأخذ من أقصى المنتهى في الجنوب ، محاذياً لأرض السودان ماراً على حدود أوْدَغشْتَ والسُّوس الأقصى وطنجة ثم الأندلسَ وجَلِّيْقيَّةَ والصقالبة ، وينعطف إلى العمران من ناحية الشمال ، ويمتد من هناك أيضاً وراء الجبال غير المسْلوكةِ والأراضي غير المسكونة من شدَّة البرد ، ويمر نحو المشرق غيرَ مُشاهَدٍ .



خريطة البحار للبيروني

والبحر الشرقي الذي عنده منتهى العمارة في تلك الناحية غيرُ محصَّلٍ[٢٢] كتحصيل أوقيانوسَ من أجل بَعد المشقّة وعدم الفوز بمن يتحقق الأمرَ منه ، ولكنَّه بالجملة يمتد من الجنوب على مثل أوقيانوسَ نحو الشمال فيقال : إنَّه يحدُّ بالممتدّ وراء ما ذكرنا من الجبال الصَّردة .

ثم البحر الأعظم[٢٣] في جنوب الربع المسكون متَّصل بالبحر المحيط الشرقي ، مسمًّى بما يوازيه في الساحل منَ الممالك أو حصلَ فيه من الجزائر . فيأخذ من بحر الصين إلى الهند إلى الزَّنْج[٢٤] ، ساحله من جانب الشمال ليس بمعمور ، من الجنوب غيرُ معلوم ، لم يقف عليه أحدٌ من ركابه ، ولم يُخْبرْ بشيء منه سكان الجزائر ، ويدخل في هذا البحر في الحد الشرقي أغْبابٌ[٢٥] وألسنة وخلجان معروفة ، وأعظمها خليج فارسَ[٢٦] الذي على شرقيّ مبْدئه أرض مكران ، وعلى غربيه أرض عُمان . ثم خليج القُلْزُمِ[٢٧] الذي على شرقيّ أوله أرض اليمن وعدن ، وعلى غربيّه أرض الحبشة ورأس بربرة ، وكالخليج البربري ، وكل واحد من هذه يسمى بحراً على حدة لعظمه . وأكثر ما يبلغ سالكو البحر الأعظم من جانب المغرب سُفَالَةَ الزِّنج ولا يتجاوزونها ، وسببه أن هذا البحر طاعن في البر الشمالي في ناحية المشرق ، ودخله في مواضع كثيرة ، وكثرت الجزائر في تلك المواضع . وعلى مثله بالتكافي طعن البرُّ في البحر الجنوبي في ناحية المغرب ، وسكنه سودان المغرب ، وتجاوزوا فيه خط الاستواء إلى جبال القمر التي منها منابع النيل ، فحصل البحر هناك فيما بين جبال وشعابٍ ذواتِ مهابطَ ومصاعد ، يتردَّدُ فيها

---

(٢٢) أي غير معروف . ويقصد البيروني بالبحر الشرقي بحر منشوريا وبهرنغ .

(٢٣) يعني بذلك بحار الصين ، وبحر جاوة ، وكل المحيط الهندي .

(٢٤) أي زنجبار على ساحل إفريقية الشرقية .

(٢٥) جمع غب أي خليج .

(٢٦) أي الخليج العربي حالياً .

(٢٧) البحر الأحمر .

الماء بالمد والجزر الدائمين ، ويتلاطم فيحطم السفنَ ويمنع السُلاّكَ ، ومع هذا فليس يمنعه عن الاتصال ببحر أوقيانوس من تلك المضايق ومن جهة الجنوب وراء تلك الجبال ، فقد وجدت علامات اتصالها وإن لم يشاهد ، وبذلك صار برّ المعمورة وسط ما قد أحاط به باتصال(٢٨) ، وفي خلال هذا البر مستنقعات مياه كثيرة مختلفة المقادير ، فمنها ما استحق بعظمته اسم بحر كبحر نيطش الأرمني(٢٩) وبحر الروم وبحر الخزر .

وإذا تقرر جملة المعمورة قلنا : إن الأرض قُسِمت إلى أقسامٍ ، تقومُ مقام الأجناس ، وهي مختلفة عند الأمم وأولاها التسبيعُ بالأقاليم الممتدة من مشرق الأرض إلى مغربها بالتلاصُق في العرض . والإقليم هو الناحية والرستاق . والأصل فيها أنَّ الاختلافات المحسوسة إنما تكون بالمسير في العروض ، وأظهرها لعامّة الناس اختلاف النهار والليل ، فجعلوا ما يوجبُ تفاوت نصف ساعة إقليماً » .

النص الرابع

البيروني الاثنوغرافي

ليس البيروني كوزموغرافياً يعشق الدقة فحسب ، فعندما يمكن إطلاق عبارة أثنوغرافي ، عالم بشؤون الأقوام ، على أحد علماء العصر الوسيط ، نجد البيروني أثنوغرافياً متشوقاً لمعرفة أخلاق أمثاله ، متفتحاً لإدراك أكثر العادات اختلافاً . ففي كتابه (كتاب الآثار الباقية) بشكل خاص ، نجد ، فيما عدا عرض ومقارنة الأزمنة والتقاويم لدى مختلف الشعوب ، جمهرة من التفاصيل ، المتناهية الدقّة والتعمق ، عن أعياد النصارى واليهود والمسلمين إلخ ... وإليكم ما يكتبه عن عيد النيروز لدى الفرس :

---

(٢٨) هنا تقع إشارة البيروني لوجود اتصال بين المحيط الهندي والأطلسي من جنوب القارة الإفريقية وهذا قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح .

(٢٩) نيطش هو تحريف لكلمة بنطش أي Pont-Euxin أي البحر الأسود .

« القول على ما في شهور الفرس من الأعياد (وقسم الجام بين أصحابه وقال ليت لنا كل يوم نوروز) وقال بعض الحَشْوِيَّة[٣٠] : إن سليمان بن داود عليهما السلام لما افتقد خاتَمَهُ ، وذهب عنه مُلْكُه ، ثم رُدَّ إليه بعد أربعين يوماً[٣١] عاد إليه بهاؤه ، وأتته الملوك وعكفت عليه الطيور[٣٢] ، وقالت الفرسُ : نَوْروز آمَدْ ، أيْ : جاء اليوم الجديد فسُمّيَ النوروز ... وقد قال بعض علماء الفرس : إن السبب في تسمية هذا اليوم بالنوروز أن الصَّابئة[٣٣] ظهرت أيام طهموْرث[٣٤] فلما ملك جمٌّ شيْذُ جدّد الدين ، فسمّي ذلك الصنيعُ ، وكان النوروز يوماً جديداً وصُيِّر عيداً ، وإن كان قبله معظَّماً . وقد قيل في تعييده أيضاً : إن جمَّ شيذَ لما اتخذ العجلةَ ركبها في هذا اليوم . وحملته الجنُّ والشياطين في الهواء من دبَاوَنْد إلى بابل في يوم واحد ، فاتخذه الناس عيداً لما رأوا فيه من الأعجوبة ، وترجّحوا بالأرجوحات تشبُّهاً بها ... وكان النوروز فيه جرى الرسم[٣٥] بتهادي الناس فيما بينهم السكّر ، والسببُ فيه كما حكى آذرْباذ مُوبَد بغداد أن قصب السكر إنما ظهر في مملكة جم يوم النوروز ، ولم يعرف قبل ذلك الوقت ، وهو أنه رأى قصبة كثيرة الماء قد مجَّتْ شيئاً من عصارتها ، فذاقها فوجد فيها حلاوة لذيذة ، فأمر باستخراج مائها وعمل منها السكَّر ، فارتفع في اليوم الخامس وتهادوْهُ تبرُّكاً به ، وكذلك استعمل في المهرجان . وإنما خصّوا وقت الانقلاب الصيفي بالابتداء في السنة لأن الانقلابين أوْلى أن يوقف عليها بالآلات والعَيان من الاعتدالين ، وذلك أن الانقلابين هما أوائل إقبال الشمس إلى أحد قطبي الكل وإدبارها عنه

---

(٣٠) تعني هذه الكلمة الذين يفسرون القرآن بشكل يحوي بعض التخبط الذي يبتعد عن العقل .

(٣١) هناك رواية تقول : إن الشياطين سلبت سليمان خاتمه السحري فخسر مملكته .

(٣٢) كان سليمان يعرف لغة الطير والحيوانات

(٣٣) أتباع ديانة خاصة لا يزال يعيش عدد منهم بالعراق .

(٣٤) أو طهماز : ملك أسطوري لدى الفرس

(٣٥) العادة .

بعينه ، وإذا رُصِد الظل المنتصب[٣٦] في الانقلاب الصيفي والظل البسيط في الانقلاب الشتوي في أي موضع اتفق من الأرض ، لم يخْفَ على الراصد يومَ الانقلاب ، ولو كان من علم الهندسة بأبعد البعد ، لأنه تفاضل الظل البسيط مع قلة اختلاف الميل إذا كان الارتفاع كثيراً ... وأيضاً فلأنه[٣٧] وقت إدراك الغلاّت فهو أصْوَبُ لافتتاح الخراج فيه من غيره ... وقد زال هذا اليوم أعني النوروز عن وقته حتى صار في زماننا يوافق دخول الشمس برج الحَمَلِ وهو أول الربيع . وقلت يوماً لأبي الفَرَج الزَّنجاني : أن النوروز زائلٌ عن مكانه لإهمال الفرس كبيستهم[٣٨] فلِمْ لَمْ يتأخر عنه هذا الأمر ، وإن لم يَجِبْ تأخرٌ فهل كان يتقدم وقت استعمال الكبيسة . فلم يكن عنده جواب مقنع .

واليوم السادس منه : وهو روز خرداذ النوروزُ الكبير وعند الفرس عيد عظيم الشأن ، قيل : إن فيه فرغَ الله من خلق الخلائق لأنه آخر الأيام الستة المذكورة وفيه خلقَ المُشْتَري . وأسعدُ ساعاته ساعات المشتري ، فالوا : وفيه وصل سهم زرادشت[٣٩] إلى مناجاة الله ، وعرج كيخُسْرُو إلى الهواء ، وفيه تقسم السعادات لأهل الأرض ، ولذلك يسميه العجم : يوم الرجاء . وقال أصحاب النيرنجات : من ذاقَ صبيحةَ هذا اليوم قبل الكلام السكَّرَ وتدهَّن بالزيت دفع عنه في عامة سنته أنواع البلايا ، وقالوا إنه يُرى في صبيحته على جبل بوشَنْج[٤٠] شخصٌ صامت بيده طاقة مَرْوٍ فيظهر ساعة ثم يغيب لا يُرى إلى مثله من الحول ... وزعم بعض الناس أن جمَّ كان أمر بحفر أنهار : وأن الماء أجري فيها في

---

(٣٦) المنتصب : العمودي وعكسها بسيط .

(٣٧) وأيضاً ... حصوا الانقلاب الصيفي بالابتداء ... لأنه إدراك إلخ .

(٣٨) أي استعمال يوم إضافي .

(٣٩) زرادشت . مصلح الديانة الفارسية القديمة ، ولد في ميديا عام ٦٦٠ ق . م ومات عام ٥٨٣ ق . م .

(٤٠) ملك أسطوري عند الفرس .

هـذا اليوم ، فـاستبشر النـاس بـالخصب ، واغتسلوا بـذلـك المـاء المرسـل ، فتبرك الخلف بمحاكاة السلف ...

وقيلَ : بل السبب في الاغتسـال هو أن هـذا اليوم لِهَروذا وهو ملَـكُ المـاء ، والمـاء ينـاسبـه ، فلـذلـك صـار النـاس يقومون في ذلـك اليوم عنـد طلوع الفجر فَيَعْمَدون إلى ماء القني والحيـاض ، وربمـا استقبلوا الميـاه الجـاريـة فيفيضون على أنفسهم منها تبرُّكاً ودفعـاً للآفـات . وفي ذلـك اليوم ترشُّ النـاسُ المـاء بعضُهم على بعض[41] وسببـه هـو سبب الاغتسـال ، وقيـل : بـل هـو احتبـاس المطر عن إيرانْشَهْر[42] زماناً طويلاً ، وأن جم شيذ لمـا جلس مبشّراً بمـا ذكرنـا مُطروا مطراً غزيراً فتبرّكوا بـه ، وصبّـهُ بعضُهم على بعض فبقيت سنّـة لهم ، وقيل أيضـاً : إن رشَّ الماء إنما هو بمنزلة التطهُّر مما اكتسبته الأبـدان من دخـان النـار ، والتَزَق بهـا من أدناس الإيقادِ ولأنـه يـدفع عن الهواء فسـادهُ المولـد للأوبئـة والأمراض . وفي هذا اليوم أخرج جمُّ شيذ مقادير الأشياء فتيمَّنت الملوك بعده ، وكانوا يُعـدّون مـا يحتاجون إليه من الكاغد والجلود التي يكتب الرسائل إلى الآفـاق . ومـا وجبَ أن يخْتم على آخره ختمَ عليه ...

وقد قيل إن الواصل بين النوروزين هو هرمز بن شـابور[43] البطل ، وعيَّـد مـا بينهما من الأيـام ورفع النيران على المواضع العـاليـة تيمنـاً بهـا ، وتصفيـةً للجو بإحراقها ما فيه من غلظ الأشياء وترقيقها العفونات المولّدة للفساد وتبـديـدهـا . وكان من أئين الأكاسرة[44] في هذه الأيام الخمسة ، أن يبدأ الملـك يوم النيروز فيُعلم الناس بالجلوس لهم والإحسـان إليهم . وفي اليوم الثـاني يجلس لمن هو أرفعُ مرتبـةً

---

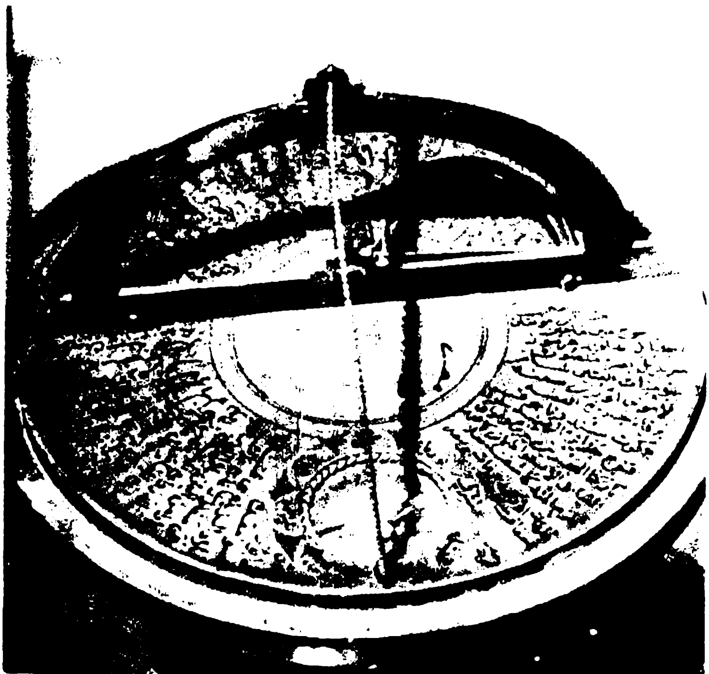
(41) لا تزال هذه العادة موجودة عند الأرمن حتى أيامنا هذه .

(42) أي إيران . وتعني هذه الكلمة عند البيروني بلاد إيران الحالية والعراق .

(43) ملك فارس حكم من ٢٧١ أو ٢٧٣ م .

(44) أسرة كسرى الذي ملك من ٥٣١ م الى ٥٧٩ م وحارب البيزنطيين وانتصر واسمه عندهم Chosroes .

وهم الدهاقين وأهل البيوتات . وفي اليوم الثالث يجلس لمأسورته وعظماء موابذته[٤٥] . وفي اليوم الرابع لأهله وقرابته وخاصته . وفي اليوم الخامس لوُلْده وصنائعه . فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقّه من الرتبة والإكرام ، ويستوفي ما استوجبه من المبرّة والإنعام . فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم فنوْرَز لنفسه ، ولم يصلْ إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته ، وأمر بإخضار ما حصَل من الهدايا على مراتب المهدين . فيتأملها ويفرق منها ما شاء ، ويودعُ الخزائن ماشاء » .



(٤٥) مفردها موبذ أو موبد : كلمة فارسية تعني كاهن معبد النار

البَكْرِي

(٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م)

كنيته أبو عبيد الله ، هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري الأندلسي ، ولد سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م بمدينة شالطيش Saltes في بيت شرف وإمارة بإحدى إمارات الأندلس الغربية ، وقد تمكنت أسرته بعد سقوط أمويي الأندلس ، أن تؤسس إمارة صغيرة في شالطيش وفي حلوة في جنوب غرب شبه الجزيرة إلى الغرب من إشبيلية حيث كان جده وأبوه يوماً ما أميرين عليها ، ويرتفع نسبه إلى بكر بن وائل ، ولكن هذه الإمارة لم تصمد أمام إمارة معادية هي إمارة بني عباد في إشبيلية ، فاضطر أبوه أن يتخلى عن أملاكه ورحل مع ابنه إلى قرطبة التي احتفظت بعد سقوط الأمويين بأهميتها حيناً من الدهر كمركز ثقافي وكلاذ لأمراء الأقاليم الذين فقدوا سلطانهم . وفي قرطبة تابع البكري تحصيله . بل وانتسب إلى هذه المدينة فعرف أيضاً باسم القرطبي ، وعلى أثر وفاة والده في عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ذهب إلى المرية حيث حظي بسرعة كبيرة بمكانة مرموقة لدى الأمير محمد بن معن ، حاكم هذه المدينة ، وأصبح وزيراً له .

وكان تلميذاً للعذري وابن عبد البر ومنه تسلم إجازته في التدريس . غير أن البكري ينتمي إلى وسط آخر سواء من ناحية أصله أو من ناحية شخصه ، فهو لم يكن متفرغاً للحديث أو متفقهاً فيه ، بل كان أديباً ذا ميل واضح المعالم نحو الموضوعات الأدبية ، لا يرفض حياة الخمر والمتعة بل يقال : إنه كان مدمناً يكاد لا يصحو . وبما أنه كان موظفاً كبيراً ودبلوماسياً ، إذ قام بمهمة دبلوماسية لدى بلاط الأمير الشاعر المعتمد بن عباد بإشبيلية ، فقد كان وثيق الصلة بمعاصريه من الأدباء كابن حيان وابن خاقان اللذين عرفها عن كثب . وهكذا يبدو لنا أن حياة البكري كانت حياة رجل الحاشية ، رجل هاوٍ ، حياة عالم ، يوزع وقته بين ضرورات حياة عصرية شديدة الاضطراب وبين الدراسة ، ويظهر أن البكري عاد إلى قرطبة مرة ثانية ، على إثر هزيمة ابن عباد على أيدي المرابطين عام ١٠٨٥ ، وظل يمارس نشاطه الأدبي فيها إلى وفاته في عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م بعد أن عُمّر ما ينوف على الثمانين عاماً .

وعلى كل استطاع البكري أن يؤلف في هذه الفترة بالذات عدداً من المؤلفات في فقه اللغة ، على أنه عالم بحاثة ومجدٌّ أكثر منه عالماً ذكياً ولامعاً .

وهو يعتبر (أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة) كما قال عنه دوزي ، وعلى الرغم من أنه لم يبرح الأندلس فقد ألّف عدة كتب أكبرها وأهمها هو المسمى (المسالك والممالك) ولم يبق منه في الوقت الحاضر سوى نبذات عن العراق وسكان نواحي بحر قزوين ، والأندلس ، والقسم الخاص بمصر ، والقسم المتعلق بإفريقية الشمالية والسودان ، وهو أكثرها تفصيلاً وقيمة .

وبما أنه جغرافي مقيم فقد كتب ، مثل ابن خرداذبة وقدامة ، بالاستعانة بوثائق جمعها بنفسه ، أو اقتبسها من مؤلفين آخرين نقل عنهم أو أكمل أبحاثهم مثل (مسالك إفريقية وممالكها) للجغرافي الأندلسي محمد بن يوسف الوراق المشهور باسم محمد التاريخي ، وعلى ما كتبه إبراهيم بن يعقوب التاجر اليهودي النخّاس .

وقد قصد به مؤلفه في المكانة الأولى إرضاء مطالب الإدارة الحكومية ، ولكنه لا يخلو من استطرادات ممتعة كما يشتمل أحياناً على وثائق هامة ، وقد فرغ من تأليفه عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م .

ويتصف كتابه عامة بجفاف الأسلوب ودقة التفاصيل ، وبالأهمية التي يضفيها على المسالك ، وعلى كل فإن الاستطرادات العديدة ، والجزيلة الفائدة عن الحالة السياسية لدى سكان المناطق المدروسة تجعله كتاباً ينتسب بكل تأكيد إلى نمط كتاب اليعقوبي .

وله كتاب آخر هو (معجم ما استعجم) من أسماء البلاد والمواضع ، وقد وضعه غير مهتم بالناحية الجغرافية الخالصة ، ولا مفكر بما تحتاج إليه النصوص القديمة من ضبط وتفسير . فما أكثر أسماء الأماكن والبلاد العربية التي ترد في الشعر والسير والحديث والتاريخ ، وما أشد ما يقع فيها من التحريف والتصحيف والاختلاط والالتباس . وكم تستدعي هذه الألفاظ الضبط والتحقيق ، ولهذا ألف البكري كتابه المذكور والذي يصفه بقوله : « هذا كتاب معجم ما استعجم ، ذكرت فيه إن شاء الله ، جملة ما ورد في الحديث والأخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والأمصار ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيّدة) . ويقع هذا المصنف في أربعة أجزاء . وله (أعلام النبوة) و (شرح أمالي القالي) و (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لابن سلام) و (الإحصاء لطبقات الشعراء) .

وقال الصفدي : كان ملوك الأندلس يتهادون مصنفاته .

النص الأول

وصف سلجماسة

سنتعرف من خلال قراءة هذه النبذة القصيرة على طريقة البكري ، والمكان الذي تحتله المسالك منها ، والاستطرادات التاريخية من كتابه :

« الطريق من مدينة فاس إلى سِلْجماسَة من مدينة فـاس إلى صَفرويَ ، وهي مدينة مسوَّرة ذات أنهار وأشجار ، ومنها إلى الأصنـام ومنهـا إلى موضع يقـال لـه أمْغاي ، مرحلة كبيرة نحو الستين ميلاً ، ومنها تدخل في عمل سلجماسـة بين أنهـار وأثمار ثلاث مراحل إلى سلجماسة .

بنيت تلك المدينة سنة مئة وأربعين ، وبعمارتها خلت مدينة تُدغـة ، وبينهما يومان . هي مدينـة سهليـة أرضهـا سبخـة ، حولهـا أربـاض كثيرة ، وفيهـا دور رفيعة ومبان سريّة ، ولها بساتين كثيرة ، وسورها أسفله مبنيٌّ بالحجـارة ، وأعلاه بالطوب ، بناه اليَسَعُ[1] أبو منصور بن أبي القاسم من ماله ، ولم يشْركهُ في الإنفاق عليه أحد ، أنفق فيه ألفَ مُدي ِطعام . ولذلك السور اثنا عشر باباً الثمانيـة منهـا حـديـد . وكان بنـاء اليَسَع ِلـه سنـة مئـة وتسع وتسعون وارتحل إليهـا فيما بعـد . وقسمهـا على القبـائل على مـا هي عليـه اليوم ، وهم يلتزمـون النقـاب فـإذا حَسَر أحـدهم عن وجهـه لم يميزه أحـد من أهلـه . وهي على نهرين عنصرهمـا من موضـع يقال له : أڤلفُ ، تمدُّه أعينٌ كثيرة ، فإذا قربَ من سجلْماسةَ تشعب نهرين يسلـك أحدهما شرقيها وغربيها . وجامعها متقن البناء ، بناهُ اليَسعُ فأجـاد . وحمّـامـاتهـا

---

(١) أمير من أسرة أسستها قبيلة مكناسة البربرية المعروفة باسم بني مدرار وقد اضمحلت هذه الإمارة على أثر استيلاء العبيديين على القيروان في ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م .

رديةُ البنـاء غير محكمـة العمـل ، ومـاؤهـا زعـاقٌ ، وكـذلـك جميـع مـا ينبـط[٢] بسلجماسة ، وشرب زروعهم من النهر في حياضٍ كحيـاض البسـاتين . وهي كثيرة النخـل والأعنـاب وجميـع الفـواكـه . وزبيبهـا المعرشُ الـذي لا تنـالـه الشمس ، لا يُـزَبَّبُ إلا في الظـل ويعرفـونـه بـالظلي ، ومـا أصـابتـه الشمس منـه زبَّبَ في الشمس . ومـدينـة سجلمـاسـة في أول الصحراء ، لا يعرف في غربيهـا ولا قبليهـا عمرانٌ . وليس بها ذبابٌ ولا يتجـذَّم من أهلهـا أحـد ، وإذا دخلهـا مجـذَّم توقفت عنه علّته . وأهل سجلمـاسـة يسمنون الكلاب ويـأكلونهـا ، كما يصنع أهل قفصـة ، ويأكلون الزرْع إذا أخرج شطـأهُ وهو عنـدهم مستظرف . والكنـافون والبنـاؤون عندهم يهود ، لا يتجاوزُهم هذه الصناعة[٣] ومن سجلمـاسـة تـدخل إلى بلاد سودان إلى غـانـة[٤] ، وبينهـا وبين تلـك المـدينـة شهران في صحراء غير عـامرة إلا بقـوم ظاعنين ، ولا يطمئنُّ بهم منزل ، وهم بنو مسوغة من صنهاجة ، ليس لهم مـدينـة يأوون إليها إلا وادي درْعة ، وبين وادي درعة وسجلماسة مسيرة خمسة أيام .

وملك بنو مدرارٍ سجلماسة مئة وستين سنة ، وكان فيهم أبو القـاسم سمجو بن واسول المكناسي ، وجدهم مدرارٌ كان لقيَ بإفريقية عكرمة مولى ابن عبـاسٍ وسمع منه ، وكان صاحب ماشية ، وكثيراً ما ينتجعُ موضع سجلماسة ، فاجتمع إليـه قوم من الصفريـة[٥] ، وذكر آخرون أن مـدراراً كان حـداداً من رَبضيـة الأنـدلس ، فخرج عند وقعة الربض[٦] ، فنزل منزلاً بقرب سلجماسة ، وموضع المـدينـة إذ ذاك براحٌ يجتمع فيه البربرُ وقتاً ما من السنـة يتسوقون ، فكان مـدرار يحضر سوقهم بما

---

(٢) ينبت .

(٣) أي إن هذه المهنة لا يمارسها أحد سواهم .

(٤) مدينة بالسودان لا وجود لها اليوم .

(٥) مذهب خارجي ظهر بالمشرق حوالي عام ٧٦ هـ / ٦٩٥ م وفي المغرب عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ م .

(٦) حدث عام ١٩٨ هـ / ٨١٤ م أن ثارت ضاحية (ربض) قرطبة على الخليفة الأموي الأول ، فقام هذا بهدم هذه الضاحية وأجبر سكانها على الهجرة وعددهم ٦٠٠٠٠ نسمة . وأطلق على الثوار اسم « الربضية » وهذا التمرد والقمع الذي تلاه يعرفان باسم وقعة الربض .

يعدُّه من آلات الحديد ، ثم ابتنى بها خيمةً ، وسكنها وسكن البربر حوله ، فكان ذلك أصل عمارتها ثم تمدنت .

وأما مدرارٌ فلا شك فيه أنه كان حداداً لأن ولدَه القائمين بأمر سجلماسة قد هجُوا بذلك . فأول من وليها عيسى بن مزيدٍ ...[٧] ويزرع بأرض سجلماسة عاماً ، ويحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام ، لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ ، فإذا يبسَ زرْعهم تناثر عند الحصاد ، وأرضهم متشقّقة فيرتفع ما تناثر منه في تلك الشقوق ، فإذا كان في العام الثاني حرث بلا بذر وكذلك في العام الثالث ، وقمحهم رقيق صيني يسعُ مُدّ النبيّ[٨] ﷺ خمسة وسبعين ألف حبّة ، ومدْيهم ثلاثة عشرة قُنقلاً ، والقَنقل ثمان زلافاتٍ ، والزلأفة ثمانية أمدادٍ بمدّ النبي ﷺ ، ومن الغريب عندهم أن الذهب جزافٌ عددٍ بلا وزن والكُرّاث يتبايعونه وزناً لا عدداً » .

النص الثاني

القصد من معجم ما استعجم

يعرّف البكري بنفسه في مقدمة معجمه الهدف المحدد جداً الذي رمى إليه .

« هذا كتابُ معجم ما استعجم ، ذكرت فيه جملةَ ما ورد في الحديث والأخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والأمْصارْ ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات[٩] والحرار ، منسوبةً محددة ، ومبوبة على حروف المعجم

---

(٧) ويتلو ذلك تاريخ المدراسيين المطول جداً ولا مكان له في هذه النبذة .

(٨) مد النبي قياس حجم يعادل رطل ، والرطل : ١٠٠ أوقية ، والأوقية : ١٠ دراهم ، والدرهم : ٥٠ حبة شعير أو ثلاثة غرامات .

(٩) جمع دارة : أي سهل رملي محاط بجبال . وتستعمل هذه الكلمة أحياناً في تسميات جزيرة العرب . وكذلك حرار جمع حرة أي السهل الحجري البازلتي .

مقيدة . فإني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس أردت أن أفصح عنه ، بأن أذكر كل موضع مبين البناء معجم الحروف ، حتى لا يُترك فيه لبس ولا تحريفٌ .

وقال أبو مالك الحضرمي : ربَّ عَلمٍ لم تعْجم فصوله فاستعجم محصوله . فإن صحة هذا لا تدرك بالفطنة والذكاء ، كما يلحقُ المشتق من سائر الأسماء . وما أكثر المؤتلف والمختلف في أسماء المواضع مثل ناعِجَةَ وباعجة وتبتَل وتيْتَل ... والنَقرة والنُقرة وجُنْدٍ وجنَد ... وكذلك ما أشبهَ أكثر حروفه نحو سُمْنَ بالنون وسُمي بالياء ، وشُمام بالميم وسقام بالقاف ... وقديماً صحّف الناسُ في مثل هذا .

قال ابنُ قتيبة[١٠] : قرئ يوماً على الأصمعي[١١] في شعر أبي ذؤَيْبٍ[١٢] : (من الطويل)

بأسفلِ ذاتِ الدير أفردَ جحشُها   فقدْ ولهت[١٣] يومين فهي خلوجُ

فقال أعرابيّ حضر المجلس للقارئ : ضلّ ضلالك ، إنما هي ذات الدبْرِ بالباء المعجمة بواحدةٍ وهي ثنيّةٌ عندنا . فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد .

وقال أبو حاتمٍ[١٤] : قرأت على الأصمعي في شعر الراعي[١٥] : (من الطويل) .

وأفرغْنَ[١٦] في وادي الأميِّرِ بعْدما   كسا البيدَ ساقي القَيْظةِ المتناصرُ

---

(١٠) عالم متنوع المعارف توفي سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م .

(١١) عالم لغوي كبير من البصرة توفي سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م .

(١٢) شاعر شهير في مطلع الإسلام من قبيلة هذيل .

(١٣) الفاعل أتان وحشي .

(١٤) لغوي ونحوي كبير ، تلميذ الأصمعي توفي حوالي عام ٢٥٢ هـ / ٨٥٦ م .

(١٥) عبيد الراعي ، شاعر أموي من الطبقة الثانية .

(١٦) الفاعل : تلك النساء .

فقال أعرابيٌّ : لا أعرف وادي الأميِّر . قال : فقلتُ : إنَّها في كتاب أبي عبيدة[١٧] في وادي لاميدَ . فقال الأعرابي : لا أعرف هذا ولعلها جلاميد ، ففصلت الجيم من اللام . فهؤلاء عدةٌ من علماءَ قد اختلفوا في اسم موضع ولم يدروا وجه الصواب .

النص الثالث

نبذات من المعجم

نستطيع أن نتبيَّن ، استناداً إلى الموضوعات التالية المقتبسة من معجم البكري ، الطريقة التي يتبعها هذا الجغرافي ، كما سنرى قلة اهتمامه بالأماكن التي تقع خارج حدود جزيرة العرب ، وقلَّة الاطمئنان التي يمكننا أن نمنحها لأخباره .

« الأنبارُ[١٨] مدينة معروفة وهي حدُّ فارس ، وإنما سميت بهذا الاسم تشبيهاً لها ببيت التاجر الذي ينضِّد فيه متاعه وهي الأنبار . وقيل : الأنَّبابير بالفارسية الأهراءُ سمِّيت بذلك لأن إهراءَ الملكِ كانت فيها ، ومنها كان يُرزقُ رجاله . وقال ابن الكلبي[١٩] في تحديد العراق : هو ما بين الحيرة والأنبار وهيتَ عين التمر وأطرافِ البرِّ إلى الغميِّرِ وخفية . وقال غيره : حدُّ السواد الذي وقعت عليه المساحة من لدن تخوم الموصل ماراً مع الماء إلى ساحل البحر من شرق دجلةِ هذا طولُه . وعرْضهُ فحدُّه من أرض حُلْوان[٢٠] إلى منتهى طرف القادسيَّة[٢١] .

---

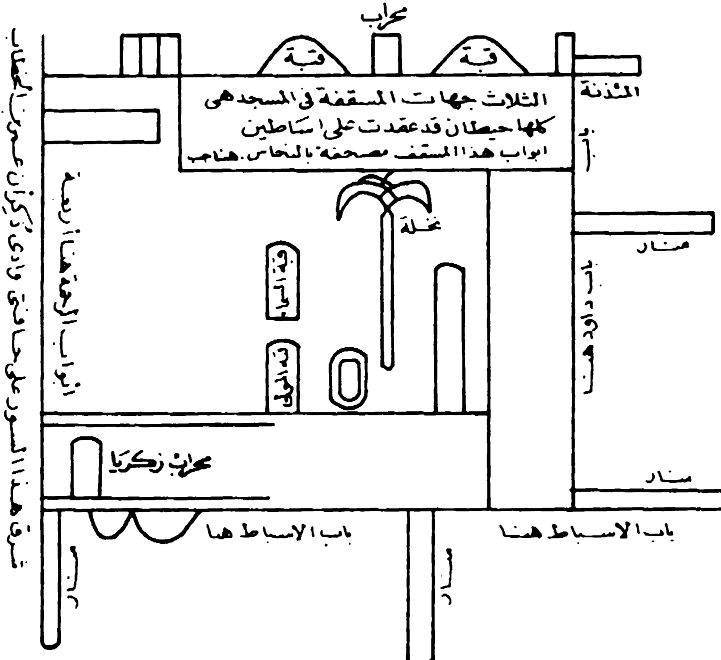
(١٧) لغوي بصري شهير عاصر الأصمعي وتوفي بحدود عام ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م .

(١٨) مدينة مندثرة اليوم على ضفة الفرات اليسرى .

(١٩) ارجع إلى النص الثاني عند ابن الفقيه .

(٢٠) مدينة مندثرة تقع في مدخل ممرات جبال زاغروس .

(٢١) محطة على طريق المدينة إلى بغداد . واشتهر هذا الموقع بالمعركة التي ربحها العرب على الفرس سنة ٦٥٣ م والتي فتحت لهم الطريق إلى بلاد ما بين النهرين .



المسجد الأقصى كما رسمه البكري

المصدر: مخطوط مكتبة القرويين بفاس - ق ١١٦
نقلا من: عبدالله يوسف الغنيم
مصادر البكري، ومنهجه الجغرافي. الطبعة الناشر - الكويت ١٩٧٩

الأَنْبَطُ : على وزن أفعَل وهو نقاً صغير من رمل ، فردٌ من الرملة التي يقاتل لها جرادٌ . قاله أبو حاتم عن الأصمعي وأنشد الراعي : (من البسيط) .

لا نعمَ أعيُن أقـــوامٍ أقـــول لهم ... بـــالأنْبَـط الفرد لمـــا بـــدُّهُم بصري

هـل تـؤنسـون بـأعلى عـاسمٍ ظُعُنـاً ... وركنَ فحْلين واستقبلنَ ذا بقرِ

فحلان جبلان صغيران هناك ، وذو بقر قاع هناك يقرى فيه الماء . وقال طرفة[٢٢] : (من السريع) .

كأنهـــا من وحْشِ أنبطَـــــةٍ خنســـاءُ يحنـو خلفهـــا جُـؤذَرُ

أراد أنْبَطَ .

الأندرين : على لفظ الجمع . قرية بالشام وقال الطّوسي : هي قرية من قرى الجزيرة . قال عمرو بن كلثوم[٢٣] : (من الوافر) .

ألا هُبّي بصحْنِـــك فـــاصبَحينـــا ولا تُبْقي خمـــورَ الأنـــدرينـــا

وقال النابغة يصف عيراً : (من الطويل) .

أقبُّ كعقْـــد الأنـــدريِّ معقربٍ حـزابيـةٍ قـد كـدّمتْـهُ المسـاحِـل[٢٤]

أراد طاقاً عقْدُهُ الأنْدريّ .

وقال خليل[٢٥] وقد أنشد بيت عمرو بنِ كلثوم : الأنـدرونَ جمع أنـدريٍّ وهم الفتيان يجتمعون من مواضع شتى .

أنْطـاكِيَـةُ : بتخفيف الياء مدينة من الثغور الشامية معروفة . قـال اللغويون : كل شيء عند العرب من قِبَـلِ الشام أنْطـاكي . قـال زهير[٢٦] : (من الطويل) .

وعـالَيْن أنطـاكِيَـةَ فـوقَ عِقْمـةٍ وراد الحـواشي لـونهـا لـونُ عنـدم[٢٧]

---

(٢٢) شاعر جاهلي شهير من أصحاب المعلقات .

(٢٣) شاعر جاهلي شهير من أصحاب المعلقات ، والصحيح هي قرية تقع جنوب شرق حلب وشمال شرق حماة .

(٢٤) أقب : ضامر الخصر . عقد : حمالة السيف ، جناد . معقرب : أي قوي . حزابية : قليلة اللحم . كدْم : ترك عليه علامة .

(٢٥) خليل بن أحمد : لغوي شهير ومن علماء العروض مات في عام ١٧٥ هـ / ٧٩١ م .

(٢٦) شاعر جاهلي هو زهير بن أبي سلمى ، وله ديوان مشهور .

(٢٧) وإن أولئك النساء ركبن على أرحل أنطاكية جعلت على عقمة إلخ ...

عكاظ : صحراء مستوية لا علم فيها ولا جبل إلاّ ما من الأنصاب[٢٨] التي كانت بها في الجاهلية ، وبها من دماء البدن[٢٩] كالأرحاء العظام . وكان عكاظُ ومجنّةَ وذو المجازِ أسواقاً لمكّة في الجاهليّة .

وعكاظُ على دعوةٍ من ماءة يقال لها نقعاء بئر لا تنكفُ . قال محمد بن حبيب[٣٠] : عكاظ بأعلى نجد قريبٌ من عَرَفات (عرفَةَ) قال غيره عُكاظ وراء قرن المنازل بمرحلةٍ من طريق صنعاء ، وهي من عَمَلِ الطائف وعلى بريدٍ منها ، وأرضها لبني نصر ؛ واتُّخذت سوقاً بعد الفيل[٣١] بخمسَ عشرة سنةً ، وتُرِكَت عام خرجت الحرورية[٣٢] بمكة مع المختار بن عوفٍ[٣٣] سنة مئة وتسع وعشرون إلى هلُمّ جراً .

قال أبو عبيدةَ : عكاظ فيما بين نخلةَ والطائف إلى موضعٍ يقال له العتْقُ ، وبه أموالٌ ونخل لثقيف[٣٤] ، بينه وبين الطائف عشرة أميال . وكان سوق عكاظ يقومُ صبح هلالِ ذي القعْدة عشرين يوماً ، وسوق مجنَّةَ يقوم عشرة أيام ، وسوق ذي المجاز يقومُ هلالَ ذي الحجَّة .

وروى يزيدُ بنُ هَرون ... بن عَبسةَ قال : أتيت رسول الله ﷺ بعكاظ

---

(٢٨) جمع نصب . وهي صخرة منصوبة بقصد عبادتها .

(٢٩) جمع بدين ، وهي ضحية تقدم كقربان .

(٣٠) لغوي مات عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م .

(٣١) تاريخ الفيل أو عام الفيل ويعود لما قبل عام ٥٧٠ م . وذلك أن أبرهة الحبشي ونائب النجاشي باليمن حاول دونما نجاح أن يستولي على مكة وكان يمتطي فيلاً أثار دهشة العرب كثيراً . وأصبح تاريخ هذه الحملة مبدأ تاريخ جديد في الحجاز .

(٣٢) حروراء اسم مكان قرب الكوفة . ومن هنا اندلعت ثورة الخوارج على الخليفة علي بن أبي طالب . وأصبح اسم الحرورية يعني فيما بعد أحياناً هؤلاء المنشقين .

(٣٣) أبو حمزة المختار بن عوض الأزدي . زعيم خارجي كبير احتل مكة سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م ولكن الأمويين أسروه وأعدموه .

(٣٤) قبيلة حجازية شهيرة ينتسب إليها الحجاج ، ومن مراكزها الطائف .

فقلت من تبعك على هذا الأمر ؟ قال : حرٌّ وعبدٌ ، وروى أبو الزبير عن جابر : إن النبي ﷺ مكث سبعَ سنين يتبع الحاجَّ في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة يعرضُ عليهم الإسلامَ . وروى البخاري[٣٥] عن أبي جريْجَ وأبي عُيَيْنَةَ قالا : كانت هذه الأسواق متجراً للناس في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كرهوها وتأثموا أن يتجروا في المواسم فأُنْزلتْ : ﴿ ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٨] (في مواسم الحج) ﴿ ورضواناً ﴾ ، هكذا قرأها ابنُ العباس[٣٦] .

ويتَّصل بعكاظ بلدٌ يسمى ركبة ، بها عين تسمَّى عيْن خُلَيْصَ للعمريين[٣٧] ، وخُليصُ رجل نسبت إليه .

وكان قدامة بن عمَّار الكلابي الذي يروي عن رسول الله ﷺ يسْكنَ ركبةَ وهو الذي قال : رأيت رسول الله ﷺ على ناقته يرمي الجمرةَ[٣٨] لا ضربَ ولا طرد ولا قال : إليكَ إليك ... وعكاظ مشتق من قولهم عكظتُ الرجلَ عكظاً إذا قهرته بحجَّتِك لأنهم كانوا يتعاكظون هناك بالفخر . وكان بعكاظ وقائع[٣٩] مرة بعد مرة ، وفي ذلك يقول دريْدُ بن الصمَّة[٤٠] : (من الطويل) :

تغيبتُ عن يوميْ عكاظَ كليهما   وإن يكُ يوم ثالث أتغيَّب

وذكر أبو عبيدةَ أنه كان بعكاظ أربعة أيام يومُ شمظَةَ ويوم العبلاء ويوم ثَرَبٍ ويوم الحريرة وهي كلها من عكاظ ...

---

(٣٥) محدث شهير له كتاب السنة الشهير بصحيح البخاري .

(٣٦) انظر نص ابن الفقيه .

(٣٧) أي أحفاد الخليفة عمر بن الخطاب .

(٣٨) تعني هذه الكلمة ، التي أصبحت اسم علم ، كلاً من أكوام الحجارة الثلاثة الواقعة في منى والتي على الحجاج أن يرجموها يوم العاشر من ذي الحجة وأيام التشريق بعده .

(٣٩) مفردها : وقعة أي معركة .

(٤٠) شاعر جاهلي وزعيم شهير جداً . قتل في حنين وكان ضد الرسول عليه الصلاة والسلام في العام الثامن للهجرة أو ٦٣٠ م .

من جغرافية أوروبا

مجدونية[٤١]

فأما مجدونيـة فهي قـاعـدة الروم الإغريقيين ، ومنهـا أرسطـاطـاليس[٤٢] ، فيلسوف الروم وعالمها . وهو معلم الإسكندر ، وله رسائل عجيبة ، وقـد حـددهـا الكندي[٤٣] عند ذكر ممـالـك صـاحب القسطنطينيـة . وكانت مجدونيـة تسمى في القديم مارية ، مشتق من اسم ملكها ماريش .

قوصرة[٤٤] : وتلي مدينة مازر ، من جزيرة صقلية ، جزيرة قوصرة ، بينهـا مجرى واحد . والجزائر بتلك الناحية كثيرة .



---

(٤١) مكدونيا .

(٤٢) هو أرسطو الفيلسوف اليوناني المشهور (٣٨٢ ـ ٣٢٢ ق . م) .

(٤٣) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف ، ولد في الكوفة وتعلم في البصرة وبغداد توفي سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م .

(٤٤) قوصرة : جزيرة صغيرة تقع شمال شرقي مدينة تونس باتجاه صقلية ، وهي تسمى الآن بنطلارية وتخص إيطاليا . وقد افتتحها المسلمون وحكموها مدة من الزمن .

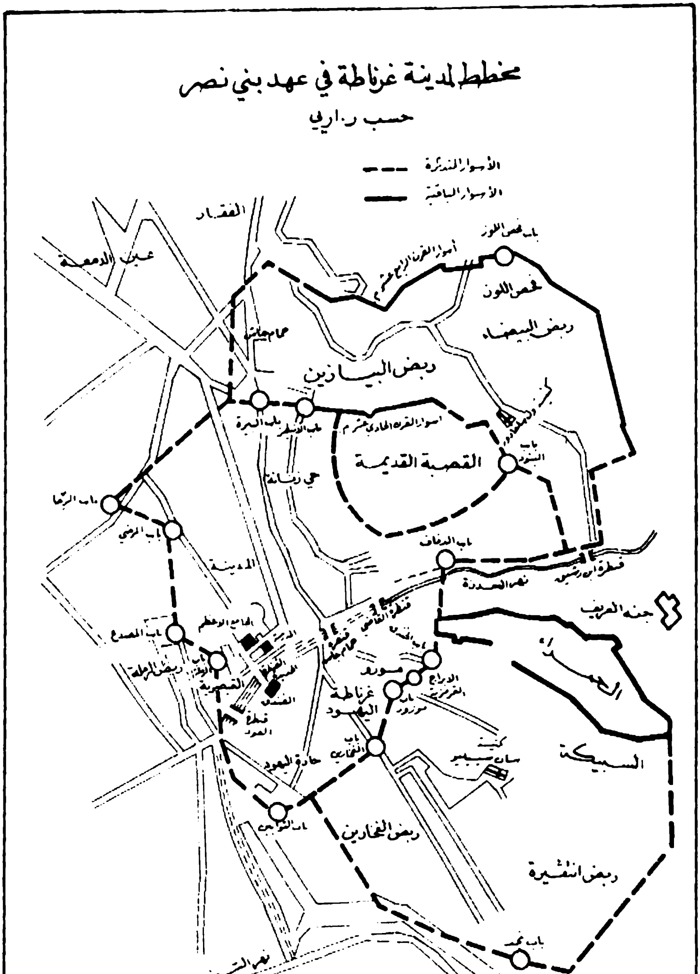
أبُو حَامِد الغرنَاطِي

(ولادته ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ـ وفاته ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م)

هو أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي الأندلسي الإقليشي القيرواني . ولد بغرناطة عام ٤٧٣ هجرية ، وعاش في مدينة إقليش ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم رحل إلى المشرق ، على عادة العلماء الأندلسيين ، وذلك في عام ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م ، فوصل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة ، حيث استمع إلى بعض علمائها ، ثم عاد إلى وطنه ، فجمع بعض المال ليقوم برحلة ثانية سنة ٥١١ هـ أو ١١١٧ م ، وربما كان ينوي مغادرته نهائياً فيما يبدو . وفي رحلته الثانية هذه مر على جزيرة سردينيا وصقلية ومضى إلى الإسكندرية ثم القاهرة ، ولا نعرف فيما إذا كان عاد إلى وطنه أم استأنف رحلته شرقاً ، على أننا نجده في بغداد سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م حيث استقر بها أربع سنوات . ونراه يحضر دروس المحدث الكبير أبي العز أحمد بن عبيد الله بن كادش ، ويحدث عن أبي صادق مرشد بن يحي المديني ، وأبي عبد الله محمد بن أحمد الرازي .

وكان الغرناطي متمتعاً في بغداد برعاية وعناية الوزير الأديب الفقيه يحي بن هبيرة ، الذي أكرمه وأمدّه بالمال ، فألّف لمكتبته كتاب (المغرب عن بعض عجائب المغرب) . ثم أخذ يتنقّل في البلاد المشرقية ، أي التي في شرقي بغداد ، فزار أبهر في إيران سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م ، ثم نراه يتنقل فيعبر بحر قزوين ، شمال إيران ، ويصل إلى سخسين ، على نهر الفولغا الأوسط سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م ، وفي عام ٥٣٠ هـ يهبط إلى بلاد الفولغا الأدنى . وبعد خمسة عشر عاماً يذهب إلى باشغرد في بلاد المجر أي في سنة ٥٤٥ / ١١٥٠ م ثم تركها سنة ٥٥٣ عائداً إلى سخسين ، ومضى عنها سنة ٥٥٤ إلى خوارزم . وخرج منها قاصداً أداء فريضة الحج سنة ٥٥٥ ، وعاد إلى بغداد لائذاً بابن هبيرة . ويبدو أن أبا حامد كان يود العودة إلى باشغرد . فأحضر ابن هبيرة له كتاباً من حضرة الخليفة . وكتب إلى صاحب قونية ليكون طريقه عليه إلى باشغرد ، لكن يظهر أن عودته إلى باشغرد لم تحقق ، لأننا نجده في عام ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م في الموصل ، ومنها توجه إلى حلب ، فدمشق حيث كانت خاتمة المطاف إذ توفي فيها سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م وقد تجاوز السبعين من عمره .

ورغم أن أبا حامد الغرناطي كان محدثاً وفقيهاً ، فهو لم يترك لنا مؤلفات في هذين الموضوعين ، بل خلّف لنا آثاراً تدور حول العجائب والغرائب (الكوزموغرافيا) التي رآها أو سمع عنها في الأقطار


مخطط لمدينة غرناطة في عهد بني نصر
حسب ر. اريي
الأسوار المندثرة
الأسوار الباقية
العقار
باب فحص اللوز
فحص اللوز
ربض البيضاء
ربض البيازين
القصبة القديمة
حي رمانة
باب البيرة
باب الرملة
المدينة
الجامع الأعظم
باب المصدع
الفندق
غرناطة اليهود
حارة اليهود
ربض الفخارين
ربض انتشيرة
السبيكة
الحمراء
جنة العريف
باب الدفاف
باب نجد
نجد
نهر حدرة
نهر الشنيل
الشمال
قصر الشنيل
٥ - ٨

التي تجول بها أثناء رحلاته . فقد كان مولعاً بهذا النوع من التصنيف ، بل نستطيع أن نقول : إنه كان لبنة جديدة في الأدب الجغرافي العربي .

ومن مؤلفاته (المغرب عن بعض عجائب المغرب) و (نخبة الألباب ونخبة الإعجاب) و (نخبة الأذهان في عجائب البلدان) و (عجائب المخلوقات) و (تحفة الكبار في أسفار البحار) .

ولم يصل إلينا الكتاب الأول ، أما الثاني فقد وصلت إلينا مخطوطات كثيرة منه ، ذكرها بروكلمن . ويضاف إليها مخطوطة في جامعة برنستون في مجموعة يهودا . وقد نشره المستشرق الفرنسي غابريال فرّان عام ١٩٢٥ في المجلة الآسيوية ، ثم أعاد نشر قسم منه المستشرق السويسري الأصل قيصر دوبلر في مدريد عام ١٩٥٣ . وذكر بروكلمن أن هناك مخطوطة في المتحف البريطاني من الكتاب الرابع (عجائب المخلوقات) . ومن الكتاب الخامس مخطوطة في المجمع العلمي للتاريخ في مدريد .

والذي يهمنا من هذه المؤلفات ، ويتعلق بموضوعنا هو كتاب تحفة الألباب ، الذي وصف فيه بعض ما شاهده في بلاد البلغار ، وقد ألفه وهو في الموصل سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ، وذلك بناء على توصية من عالم متصوف فيها هو أبو حفص عمر بن محمد الأردبيلي الموصلي ، الذي سكن بدمشق أيام نور الدين ، وكان نور الدين يقربه ، وقد توفي الأردبيلي بدمشق سنة ٥٧٠ هـ .

وينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب :

- الأول منها يعطي فكرة عن (صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها) .
- الثاني ويشمل (صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان) .
- ويتناول الثالث (صفة البحار وعجائب حيواناتها ، وما يخرج منها من العنبر والقار ، وما في جزائرها من أنواع النفط والقار) .
- أما الرابع فيحوي : (صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم النشور) .

ويذكر كراتشكوفسكي أن العلماء الروس اهتموا منذ عهد طويل برحلة أبي حامد هذه ، وأن ما ذكره عن حو الفولغا الأوسط والأدنى ، وعن شعوب القوقاز له أهمية كبرى . وأنه أحد المؤلفين الذين تظفر روايتهم بأهمية خاصة بالنسبة لتاريخ شعوب الاتحاد السوفييتي .

ويشوب رأي المستشرق رينو عن (تحفة الألباب) الكثير من التحفظ فيقول : (كان بوسعه تقديم خدمات كبرى في محيط الجغرافية والتاريخ الطبيعي لو أنه جمع إلى طبيعته المتشوفة إلى المعرفة نصيباً أوفر من الاطلاع وروح النقد » .

ولكن أبا حامد كان يبذل دائماً قصارى جهده لتوسيع نطاق معلوماته . ففي القاهرة مثلاً يتجاذب أطراف الحديث مع أحد أهل الهند والصين حيث أمضى ذلك الرجل هناك أربعين عاماً ، وفي

بغداد يستفهم من أحد مسلمي صقلية عن ثوران بركان أتنا . ويجمع في هنغاريا أخباراً مفصلة من أهل البلاد عن القسطنطينية والمشاكل السياسية فيها .

وتناول روايته أهمية خاصة لما رآه بعيني رأسه ، وهو يمثل ثلث الكتاب تقريباً . وقد خلف اهتمامه بالأبنية والمعالم المختلفة مقداراً ملحوظاً من المعطيات الطريفة ، فهو قد رأى أعمدة هرقل عند مضيق جبل طارق ، وذلك قبل فترة قصيرة من انهيارها عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م . وكان أحد أواخر الذين رأوا فنار الإسكندرية في صورته التامة ، وآخر من ذكره كان الإدريسي ، ورأى بعين شمس قرب القاهرة المسلة المعروفة التي سقطت عام ١١٦٠ ، كما نفذ إلى داخل هرم خوفو .

وقد حفظ لنا شذرات كبيرة من كتابه كوزموغرافيّ القرن الثالث عشر القزويني ، كما استعمله الوردي في القرن الرابع عشر ، والمقريزي في القرن الخامس عشر ، وابن إياس في بداية القرن السادس عشر ، ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم ، بل تعداه إلى غيرهم : فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الأميري في القرن الرابع عشر ، وصاحب المجموعة الأدبية الذائعة الصيت الأبشيهي في القرن الخامس عشر .

يصف أبو حامد بلاد البلغار وصف العارف الذي عايش أجواءها وكل مظاهر طبيعتها ، وما رأى فيها من عادات لم يألفها أهل المناطق الدافئة من شعوب البحر الأبيض المتوسط ؛ وتظهر عنده سرعة التصديق لما يسمع ويشابه في هذا المجال ابن فضلان الذي سبقه لهذه المناطق :

« ويوجد في أرض البلغار من عظام قوم عاد ... وتوجد تحت الأرض أنياب الفيلة و (الناب) أبيض كالثلج[1] ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مئتا منّ[2] وأكثر وأقل ، لا يدْري من أي حيوان هو ، يُقطع ويُحمل إلى خوارزم وخراسان وتتخذ منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك كما يتخذ من العاج ، وهو أقوى من العاج لا ينكسر .

وفوق هذه الولاية أمم لا عدد لهم يعطون الجزية لملك بلغار ... ولهم ولاية تؤدي الخراج بينهم وبينها مسيرة شهر ، يقال لها ويسوا ، وولاية أخرى يقال لها يورا ، فيها يصطاد القندز والقاقم والسنجاب الجيد . والنهار يكون هناك في

---

(١) الفيلة المقصودة هي من نوع الماموت المنقرض والذي يعثر عليه حتى الآن كاملاً تحت الجليد في سيبريا .

(٢) المنّ كيل يزن ٢٨٠ مثقالاً .

الصيف اثنتين وعشرين ساعة . ومنهم تجيء جلود القندز الجيد الفائق . والقندز : حيوان عجيب يكون في الأنهار العظام ويتخذ بيوتاً في البر إلى جانب النهر .

وسمعت ببلغار وهي مدينة في آخر بلاد الإسلام في الشتاء ، يكون النهار في الصيف عشرين ساعة ، والليل أربع ساعات ، ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة والنهار أربع ساعات . ويشتد البرد فيها ، حتى إذا مات لأحد ميتاً لا يقدر أن يدفنه ستة شهور ، لأن الأرض تصير كالحديد ، ولا يمكن أن يحفر بها قبر ، ولقد مات لي بها ولد ، وكان في آخر الشتاء ، فلم أقدر على دفنه . فبقي في البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه . ويبقى الميت كالحجر . وأهل البلغار أصبر الناس على البرد وسببه أن أكثر طعامهم العسل ولحم القندز والسنجاب .

ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات ، يكون النهار عندهم في الصيف طويلاً جداً ، حتى أن التجار يقولون : إن الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً ، وفي الشتاء أيضاً يكون الليل طويلاً مثل ذلك . والناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفاً تتخذ في زنجان وأبهر وتبريز وأصفهان ، ولا يتخذون لها آلة ولا حلية إلا حديداً كما يخرج من النار ... وذلك السيف هو الذي يصلح أن يحمل إلى يورا .

وأهل يورا ليس عندهم دواب ولا مواشٍ إلا أشجاراً عظيمة وغياضاً يكثر فيها العسل ، ويكثر عندهم السمّور جداً ، ويأكلون لحمه . والتجار يحملون إليهم هذه السيوف وعظام البقر وعظام الغنم ، ويأخذون أثمانها جلوه السمّور ، ولهم في ذلك ربح كثير . والطريق إليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً . ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها ، طول كل لوح باع ، وعرضه شبر ، مقدّم ذلك اللّوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض[٣] ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله ،

---

(٣) وصف دقيق للأداة التي يضعها المتزلجون على الثلج في أرجلهم لدى ممارستهم رياضة (السكي) .

وفيه ثقب قد شدّوا فيه سيوراً من جلود قوية يشدّونها على أرجلهم . ويقرن الرجل بين اللوحين اللذين يكونان في رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس . يمسكه في يده الشمال ، وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل . وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة . ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة . فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً أن يمشي هناك البتة ، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد . وأي حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب فإنها تمشي عليه بخفة وبسرعة . والثعالب والأرانب في تلك البلاد تبيض جلودها ، حتى تكون مثل القطن ، وكذلك الذئاب أيضاً تكون في ناحية بلغار تبيضّ جلودها في زمن الشتاء .

وتلك السيوف تحمل من بلاد الإسلام إلى بلغار ، وفيها ربح كثير ، ثم يحملها البلغاريون إلى ويسوا موضع القندز ، ثم أهل ويسوا يحملونها إلى « يورا » يشترونها بجلود السمّور وبالجواري وبالغلمان . ثم كل آدمي يكون هناك يحتاج كل سنة إلى سيف يلقيه في بحر الظلمات . فإذا ألقوا السيوف أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجبل العظيم تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافاً مضاعفة ، تريد أكلها ، فتفرّ الصغرى من الكبرى ، فتقرب من البر وتصير في موضع لا يمكنها الرجوع منه إلى البحر ، فتبقى هناك ، وترجع الكبرى إلى البحر ، ويدخل أهل يورا إلى البحر في السفن ويقطعون من جوانبها ، وليس عند السمكة من ذلك حسّ ولا تتحرك فيملؤون بيوتهم من لحمها ويصعدون على ظهرها وهي كالجبل العظيم .

أبو حامد في بلاد الصقالبة

لقد كان مجيء أبي حامد إلى بلاد البلغار سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م ، ولا ندري كم بقي فيها ولكنه تركها إلى بلاد الصقالبة ، ويقول :

« ولما دخلت بلاد الصقالبة خرجت من بلغار ، وركبت سفينة في نهر الصقالبة ، وماؤه أسود مثل بحر الظلمات ، كأنه الحبر ، وهو مع ذلك حلو طيب صاف ، ليس فيه سمك ، وفيه الحيات السود الكبار ، بعضها على بعض ، أكثر من السمك ، لا تؤذي أحداً ، وفيه حيوان مثل السنّور الصغير ، له جلد أسود[٤] يسمّى سمور الماء تحمل جلوده إلى بلغار ... ولما وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة ، كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير ... ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذي لا شعر عليه ... وللصقالبة سياسات عظيمة ، إذا تعرض أحد لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدّ ، بأي شيء من التعدّي كان ، أخِذَ من المتعدّي جملة من المال ، فإن لم يكن له مال بيعَ أولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية ، فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو ، فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت ... وبلادهم آمنة ، وإذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبيّ بيع هو وأولاده وداره ، ويُعطى لذلك التاجر دينه ، والصقالبة شجعان ، وهم على مذهب الروم في النصرانية ، نسطورية[٥] ... وحُدّثت عنهم أنهم كل عشر سنين يكثر السحر عندهم ، وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحرة ، فيأخذون كل عجوز في ولايتهم ، فيشدّون أيديهنّ فأرجلهنّ ويلقينهن في النهر ، فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها ، وعلموا أنها ليست ساحرة ، والتي تطفو على الماء يحرقونها بالنار » .

---

(٤) ربما يقصد بالحيات سمك الحنكليس النهري وبالحيوان المماثل للسنور ثعلب الماء ، وبالفرنسية Loutre ونهر الصقالبة على الغالب هو نهر الدانوب ، والغالب أنه كان يصف منطقة دلتا الدانوب على السواحل الرومانية .

(٥) الصقالبة عند الجغرافيين العرب تعني السلاف ويشمل ذلك سكان روسيا ويوغسلافيا وبولندا والمذهب هو المذهب الأرثوذكسي ، والروم هم البيزنطيون .

وترك أبو حامد بلاد الصقالبة وذهب إلى باشغرد ، ولعله كان هناك سنة ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م ، وهي بلاد هنغاريا ، وهناك كان يمتلك منزلاً ، بل أن ابنه الأكبر حامد تزوج بسيدتين مسلمتين من أهل تلك البلاد وأقام بها نهائياً ويقول :

« هي فوق بلاد الصقالبة بأربعين يوماً ، وبلادهم تعرف بأنقورية هي ثمانية وسبعون مدينة ، كل مدينة لها حصون ورساتيق وقرى وجبال وغياض وبساتين ، وفيها من أولاد المغاربة آلاف لا عدد لهم ، وفيها من أولاد الخوارزميين آلاف لا عدد لهم أيضاً . وأولاد الخوارزميين يخدمون الملوك ويتظاهرون بالنصرانية يكتمون الإسلام ، وأولاد المغاربة لا يخدمون النصارى إلا في الحرب ، وهم يعلنون الإسلام[٦] ...

ولما دخلت بين أولاد المغاربة أكرموني ، وعلمتهم شيئاً من العلم ، وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية ، وكنت أجتهد معهم في الإعادة والتكرير في فرائض الصلاة وسائر العبادات ... وكانوا لا يعرفون الجمعة ، فعلّموا صلاة الجمعة والخطبة .. وعندهم اليوم أكثر من عشرة آلاف مكان يخطب فيه يوم الجمعة ظاهراً وباطناً ، لأن ولايتهم عظيمة .

أقمت بينهم ثلاث سنين ... واشتريت جارية مولّدة من سيدها بعشرة دنانير ، بنت خمس عشرة سنة ، أحسن من القمر ، سوداء الشعر ، والعين بيضاء كالكافور ، تعرف الطبخ والخياطة والرقم ... وجاء منها ولد ومات ، فأعتقتها وسميتها مريم .

.... وكان ملك باشغرد[٧] يخرب بلاد الروم ، فقلت لأولئك المسلمين[٨] ،

---

(٦) كان بيع الأسرى وأولاد المسلمين أمراً مألوفاً في ذلك العصر والعكس صحيح أيضاً .

(٧) الباشغرد : أصولهم من البلغار الذين كان موطنهم الأول حوض نهر الفولغا ، ومن بقي منهم هناك يعرف اليوم باسم (الباشكير) .

(٨) أي من الرقيق والأسرى المسلمين المغاربة والخوارزميين .

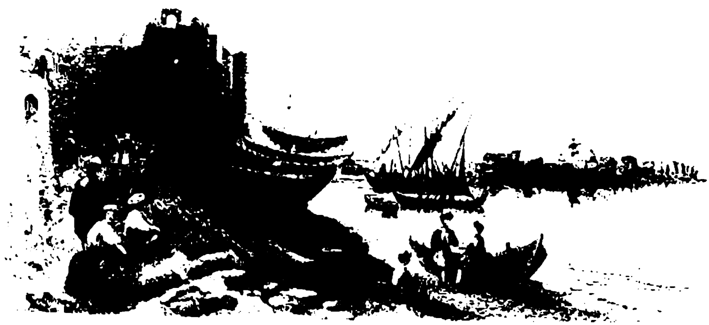
اجتهدوا في الجهاد مع هذا الملك ، فإنه يكتب لكم فيه ثواب الجهاد ، فخرجوا معه إلى بلاد قسطنطينية ، وهزموا لملك الروم اثني عشر عسكراً ، فجاء صاحب القسطنطينية طلباً للصلح ، وبذل أموالاً كثيرة ... وحدثني بعض الأسارى من المسلمين ممن كان في الروم أن ملك الروم سأل : ما السبب في خروج ملك باشغرد إلى بلادي وتخريبها ؟ وما كان له بهذا عادة . فقيل له : ملك باشغرد عنده عسكر من المسلمين . فقد تركهم يظهرون دينهم ، فهم الذين أخرجوه إلى ولايتك ، وخربوا بلادك . فقال لهم : وعندي مسلمون لا يقاتلون معي . فقيل له : أنت تقهرهم على النصرانية . فقال : لن أقهر مسلماً على ديني أبداً ، وأبني لهم المساجد حتى يقاتلوا معي » .

« وملك باشغرد يسمّى كزالي ، وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافاً مضاعفة ، لا تحصى جنده ، وولايته أكثر من ولاية الروم عشرين يوماً وأكثر ، وهو على مذهب الإفرنج ، لأنه تزوج منهم ، ويغزو بلاد الإفرنج ويسبيهم ، وجميع الأمم يخافون من شره لكثرة جنده وشدة بأسه ...

ولما سمع أنني منعت المسلمين من شرب الخمر ، وأبحت الجواري وأربعة من الحرائر قال : « ليس هذا من العقل ، لأن الخمر يقوّي الجسد ، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر ، ودين الإسلام لا يكون على وفق العقل » . قال : فقلت للترجمان : « قل للملك : شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى ، النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر ، والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر ، فيذهب عقله ، ويصير كالمجنون : يزني ، ويقتل ، ويكفر ، ولا خير عنده . وقد يعطي سلاحه وفرسه ، ويضيّع ماله في سبيل لذته . والمسلمون ها هنا جندك ، وإذا أمرت الواحد بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال ، لأنه أهلكه في الشراب . وأما الجواري والنساء فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم ، وأيضاً فهم جندك ، فإذا كثر أولادهم كثر

جندك . فقال : اسمعوا من هذا الشيخ ، فإنه عاقل ، وقال : تزوجوا ما شئتم ، ولا تخالفوه ... وتزوج (حامد) بامرأتين من بنات المسلمين المحتشين ، ورزق أولاداً ، وهو شجاع فاضل ، كنت أعطيه على كل مسألة يحفظها في حال صغره نصف دانق ...

وفي باشغرد بقر وحشية كبار أمثال الفيلة[٩] ، جلد الواحد منها حمل بغلين قويين ورأسه حمل عجلة ، يصطادونه ويسمى التَّيْتل وهو من أعجب الحيوان ، طيب اللحم ، سمين ، وقرونه كبار طوال مثل أنياب الفيلة » .



(٩) وهو البقر الوحشي المنقرض والذي يدعى أوروك والذي يماثل البقر الوحشي المسمى بيزون في أمريكا الشمالية

أُسامَةُ بْنُ مُنْقِذ

(٤٨٢ هـ / ١٠٩٥ م - ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م)

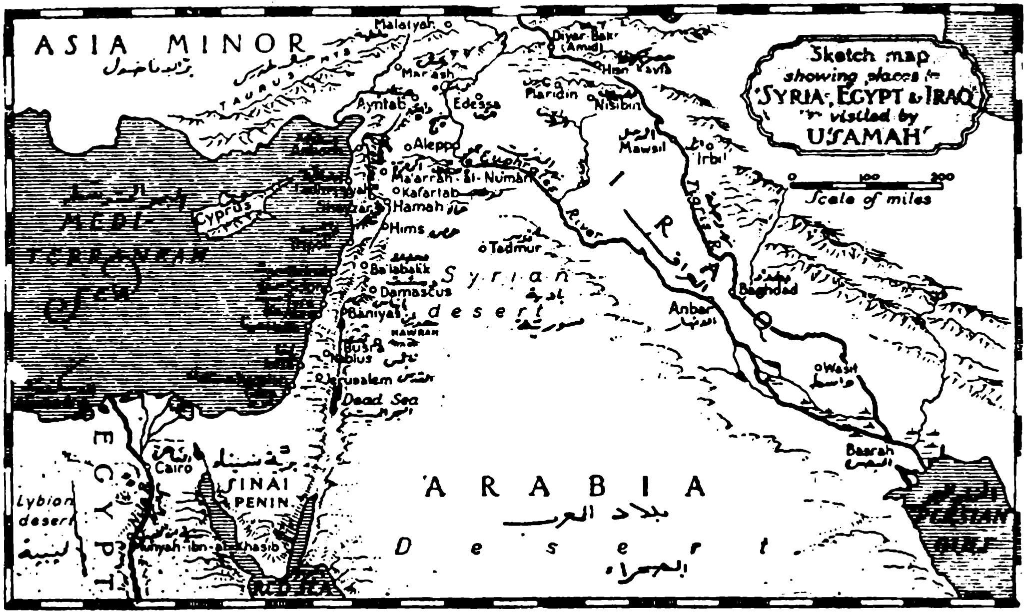
هو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري ، ولد لبني منقذ الأمراء أصحاب قلعة شيزر على العاصي بقرب حماة ، ومن أكابرهم ، بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى ٤٨٣ هـ المصادف ٤ تموز ١٠٩٥ م .

عاش أسامة شهماً فارساً ، وزها مجاهداً مقاتلاً شجاعاً . ولمع أديباً وشاعراً وتلهّى صياداً ، وقضى الكثير من سني حياته جوّاباً . نشأ على ضفاف العاصي ، وصرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق ، وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة ، وغالب سني كهولته في الديار الأتابكية بالموصل وفي حصن كيفى على نهر دجلة (شكل ١٩) .

زار بيت المقدس في فلسطين ، وحج إلى الحرمين الشريفين ، وتنقّل بين معظم العواصم الإسلامية من سياسية ودينية . عاشر نور الدين ، وتصيّد مع زنكي ، وصاحب الخليفة الحافظ وخلفه الظاهر ، تعرف شخصياً بيوهمند وتنكرد وفلك من الأمراء الإفرنج الصليبيين ، وخصّه قبل وفاته بدمشق عن ٩٦ عاماً صديقه صلاح الدين الأيوبي بعطفه بعد أن دعاه إليه وقد تجاوز الثانين فأجابه ، وكان في مصر سنة ٥٤٠ هـ .

أخى الإفرنج ولا سيا الفرسان منهم في حين السلم ، وقاد عدة حملات على الصليبيين في فلسطين في حال الحرب ، كا قاتل غيرهم من الإسماعيلية وسائر القبائل المعادية ، فضلاً عن الأسد والوحش .

وأخيراً في أواخر أيام حياته دوّن لنا عدة تصانيف في الأدب والتاريخ منها (المنازل والديار) و (أخبار النساء) و (القلاع والحصون) و (البديع) وأهمها (كتاب الاعتبار) الذي كتب فيه سيرته ، وفيها دوّن ما خبره بالذات . وعرفه من مصادره الأصلية في مذكرات شائقة رائعة قلّ نظيرها في مجمل اداب اللغة العربية من حيث الأمانة في النقل ، والصدق في الرواية ، والدقة في الملاحظة ، والنكهة في التعبير . وإذا كان أسلوبه يتصف أحياناً بقصر النَفَس على الرغم من سلاسته وعذوبته فهذا راجع بلا ريب إلى تأثير عصره ، وهو عصر الانحطاط . بعد أن أصبحت الفصحى متكلّفة لتفشي



شكل (١٩) سورية ومصر والعراق والأماكن التي زارها أسامة ووردت في كتاب الاعتبار، عن فيليب حتي

اللهجات العامية المحلية . وهو فضلاً عن ذلك شاعر له ديوان . وقد ترجم كتابه الاعتبار إلى الفرنسية والألمانية ، كا نشره وحققه الدكتور فيليب حتي ، وطبع في برنستون بالولايات المتحدة عام ١٩٣٠ .

فحياة أسامة تمثل لنا الفروسية العربية الإسلامية ، على ما ازدهرت في ربوع الشام في قلب العصور الوسطى ، والتي بلغت ذروتها وأجمل مظاهرها في عهد صلاح الدين . وسيرته تتضمن موجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر الميلادي ، قرن الحملات الصليبية الثلاث الأولى ، ومذكراته الموسومة (كتاب الاعتبار) مرآة تتجلى فيها الحضارة العربية في سورية في أكثر مظاهرها روعة ، وليس ذلك بحد ذاتها فقط بل بالموازنة مع مستوى المدنيّة الإفرنجية التي نشأت بجوارها .

وفي عهد الأمير سلطان ، عمّ أسامة ، كانت شيزر هدفاً لغزوات متتابعة من بني كلاب في حلب ، ومن الإسماعيلية ومن الروم البيزنطيين ، ومن الفرنجة الصليبيين ، وقد ظل الإمبراطور جان كومنينوس عام ١١٣٨ يرشقها بالمنجنيق عشرة أيام متوالية . وحاول الإفرنج تكراراً الهيمنة عليها ولكن على غير جدوى . فمناعتها الطبيعية وحصونها المتينة وزعامتها المنقذية أنقذتها من السقوط في كل هذه المحاولات .

توفي سلطان حوالي عام ١١٥٤ فخلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد ، وهو آخر الأمراء المنقذيين . وفي أيامه تمثلت على مسرح شيزر مأساة مفجعة قضت على آل منقذ بأسرهم . فبمناسبة ختان ولد لتاج الدولة أولم الوالد ولية حضرها جميع آله ، وفي أثنائها حدث الزلزال الشهير عام ٥٢٢ هـ / ١١٥٧ م الذي « هلك فيه ما لا يحصى » والذي خرب « بالمرة حماة وشيزر وكفر طاب والمعرة وحصن الأكراد[1] » .

« ولم ينج من بني منقذ أحد » سوى زوجة تاج الدولة التي انتشلت من تحت الأنقاض . إلا أن نور الدين صاحب دمشق أعاد بناء شيزر من جديد .

النص الأول

زيارة أسامة الثانية لدمشق (١١٥٤ - ١١٦٤ م)

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، وكاتبت الملك الصالح في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلّفوا بمصر ، وكان محسناً إليهم . فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج .

---

(١) حصن الأكراد : يعرف اليوم قلعة الحصن .

وكتب إليَّ يقول : « ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر ، فتصل إلى مكة ؛ وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدُّك بما تتقوى به على محاربة الحبشة (فأسوان ثغر من ثغور المسلمين) وأسيِّر إليك أهلك وأولادك » .

ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقال : يا فلان ، ما صدقتَ متى تخلص من مصر وفتنتها ، تعود إليها ! العمر أقصر من ذلك . أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج ، وأسيِّر من يحْضرهم ، فأنفذ ، رحمه الله ، أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر .

أسرة أسامة بيد الإفرنج :

وسيرت الأمان مع غلام لي وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح . فسيَّرهم في عُشاريٍّ من الخاصِّ إلى دمياط . وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ، ووصَّى بهم . وأقلعوا من دمياط في بُطسة[٢] من بطس الإفرنج . فلما دنوا من عكَّا والملك ، لا رحمه الله ، فيها نفَّذَ قوماً في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس ، وأصحابي يرونهم . وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه .

فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه وقال له : « يا مولاي الملك ، ما هذا أمانك ؟ » قال : بلى ولكن هذا رسم المسلمين ، إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد » قال : « فتسبينا ، قال : لا » . وأنزلهم ، لعنه الله ، في دار وفتَّش النساء حتى أخذ كل ما معهم . وقد كان في المركب حلي أودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار . فأخذ الجميع ونفذ لهم خمس مئة دينار وقال : « توصلوا بهذه إلى بلادكم » . وكانوا رجالاً ونساءً في خمسين نسمة .

---

(٢) بطسة : المركب .

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود[٣] رغبان وكيسون . فهوّن عليَّ سلامة أولادي وأولاد أخي ، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فإنها كانت أربعة آلاف مجلّد والكتب الفاخرة . فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت .

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتُفني الأموال . والله يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته . وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نُكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال . وأجحفت بهلاك المال .

النص الثاني

شيزرية تأسر ثلاثة إفرنج

ومن إقدام النساء أن جماعة من الإفرنج الحجّاج حجّوا وعادوا رفنيّة ، وكانت ذلك الوقت لهم ، وخرجوا منها يريدون أفامية . فتاهوا في الليل وجاؤوا إلى شيزر وهي إذ ذاك بغير سور . ودخلوا المدينة وهم في نحو من سبع مئة ثمان مئة رجال ونساء وصبيان . وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمّي عز الدين أبي العساكر سلطان وفخر الدين أبي كامل شافع ، رحمهما الله ، ليلقيا عروسين قد تزوّجاهما من بني الصوفي الحلبيين أختين . ووالدي رحمه الله في الحصن . فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى إفرنجياً . فعاد أخذ سيفه وخرج قتله . ووقع الصياح في البلد . وخرج الناس فقتلوهم وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضّة والبهائم .

وفي شيزر امرأة من نساء أصحابنا ، يقال لها : نضرة بنت بوزرماط خرجت

---

(٣) سلطان قونية الواقعة وسط تركيا ومركز ما يعرف بسلاجقة الروم .

مع الناس أخذت إفرنجياً أدخلته بيتها ، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها ، وعادت خرجت أخذت آخر . فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج . فأخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت ودعت قوماً من جيرانها قتلوهم .

ووصل عمّاي والعسكر في الليل ، وقد كان انهزم من الإفرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهم في ظاهر البلد . فصارت الخيل تعثر في الليل في القتلى ، ولا يدرون بماذا تعثر . حتى ترجّل أحدهم ، وأبصر القتلى في الظلام فهالهم ذلك ، واعتقدوا أن البلد قد كُبس .

إفرنجية تؤثر أن تكون زوجة إسكاف :

وكانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس . فصار إلى دار والدي ، رحمه الله ، عدة من الجواري من سبيهم ، وهم ـ لعنهم الله ـ جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم . فرأى منهم جارية مليحة شابة فقال لقهرمانة داره : « أدخلي هذه الحمام . وأصلحي كسوتها ، واعملي شغلها للسفر » ففعلت . وسلّمها إلى بعض خدامه وسيَّرها إلى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر وكان صديقه ، وكتب إليه يقول : « غنمنا من الإفرنج غنيمة قد نفَّذت لك سهماً منها » . فوافقته وأعجبته واتخذها لنفسه فولدت له ولداً أسماه بدران . فجعله أبوه وليَّ عهده . وكبر ومات والده . وتولّى بدران البلد والرعيَّة وأمه الآمرة الناهية ، فواعدت قوماً وتدلَّت من القلعة بحبل ، ومضى بها أولئك إلى سروج ، وهي إذ ذاك للإفرنج ، فتزوجت بإفرنجي إسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر .

النص الثالث

ليس للإفرنج غيرة جنسية :

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر ، يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج

واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معزّ ، داره عمارة المسلمين ، لها طاقات تفتح إلى الطريق . ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار ، يأخذ في قنّينة من النبيذ ، وينادي عليه ويقول : « فلان التاجر قد فتح بتيّة من هذا الخمر . من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا » . وأجرته على ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة . فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له : أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي ؟ قال : كنت تعبان دخلت أستريح . قال : فكيف دخلت إلى فراشي ؟ قال : وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه » قال : والمرأة نائمة معك ؟ قال : الفراش لها ، كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ وحق ديني إن عدتُ فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته .

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم : ما فيهم غيرة ولا نخوة وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة ...

عجائب طبهم أيضاً :

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور Guillaume de Bures صاحب طبرية ، وكان مقدماً فيهم . واتفق أنه رافق الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من عكّا إلى طبرية وأنا معه . فحدثنا في الطريق قال : « كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت ، فجئنا إلى قسٍّ كبير من قسوسنا قلنا : « تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلان ؟ قال : نعم . ومشى معنا ونحن نتحقّق أنه إذا حطّ يده عليه عوفي . فلمّا رآه قال : أعطوني شمعاً . فأحضرنا له قليل شمع ، فليّنه وعمل مثل عقد الإصبع . وعمل كل واحدة في جانب أنفه . فمات الفارس

فقلنـا لـه : قـد مـات . قـال : نعم ، كان يتعـذب سـددت أنفـه حتى يموت ويستريح .

النص الرابع

تتجلى في هذا النص آيات النبل والشجاعة والتربيـة البيتيـة الساميـة في بيت كريم ، وفي عصر لا زالت فيه خُلق العربي مشتملة على كل ملامح شهامة العروبة ونخوة الإسلام ، وهما سليتان نقيتان .

تربية أسامة البيتية

وما رأيت الوالـد ـ رحمـه الله ـ نهـاني عن قتـال ولا ركب خطر مع مـا كان يرى فيَّ ، وأرى من إشفاقه وإيثـاره لي . ولقـد رأيتـه يومـاً وكان عنـدنـا بشيزر رهائن عن بغدوين[٤] ملك الإفرنج على قطيعة قطعهـا لحسـام الـدين تمرتـاش بن إيلغازي ، رحمه الله ، فرسـان إفرنج وأرمن ، فلمـا وفوا مـا عليهم وأرادوا الرجوع إلى بلادهم نفذ خيرخان صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم في ظاهر شيزر . فلمـا توجـه الرهـائن خرجـوا عليهم أخـذوهم ، ووقـع الصـائـح فركب عمي وأبي رحمهما الله ، ووقفـا ، وكل من يصـل إليهما قـد سيّراه من خلفهم . وجئت أنـا فقـال لي أبي : « اتبعهم بمن معـك ، وارمـوا نفـوسكم عليهم ، واستخلصـوا رهـائنكم » . فتبعتهم وأدركتهم بعـد ركض أكثر النهـار واستخلصت من كان معهم وأخـذت بعض خيل حمص . وعجبت من قوله « ارموا نفوسكم عليهم » .

ومرة كنت معه ، رحمه الله ، وهو واقف في قاعة داره وإذا حيـة عظيمـة قـد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار . فوقف يبصرهـا ، فحملت سلمـاً كان في جـانب الـدار أسنـدتـه تحت الحيـة وصعـدت إليهـا ، وهو يراني فلا

(٤) بلدوين .

ينهاني ، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي ، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة بين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحُزُّ رأسها ـ وخرجت التفَّتْ على يدي ـ إلى أن قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار ، وهي ميتة .

بل رأيته ، رحمه الله ، وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر ، فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها ، فحمل على الخيل ، ثم وقف ، وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ ، رحمه الله ، بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي ، رحمهما الله ، ومعهما جماعة الجند والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدره على الأرض ويهدر ، فحملت عليه ، فصاح عليَّ أبي ، رحمه الله : « لا تستقبله يا مجنون فيأخذك » فطعنته ، فلا والله ما تحرك من مكانه ، ومات موضعه ، فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم .

والدة أسامة في القتال

وفي ذلك اليوم(٥) فرَّقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي وكزاً غندتي ، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن وقالت : « البسي خفك وإزارك » ، فلبست وأخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق ، أجلستها وجلست على باب الروشن ، ونصرنا الله سبحانه عليهم . وجئت من داري أطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلاّ جهازات السيوف وعيب الكزاغندات . قلت : يا أمي أين سلاحي ؟ قالت : يا بنيَّ أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا . وما ظننتك سالماً . قلت : فأختي أي شيء تعمل ها هنا ، قالت : يا بني أجلستها على الروشن وجلست براً منها ، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفَعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » فشكرتها على ذلك وشكرتِ الأخت وجزتها خيراً . فهذه النخوة من نخوات الرجال .

---

(٥) الأول من نيسان ١١٠٩ م .

شرف الفارس جمعة : فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار ، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين بن محمود قراجا ، صاحب حماة ذلك الوقت ، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغبُّ ، والمراكب واقفة والطراد بين التسرعة . فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير ، وهو يبكي ، فقلت له : « ما لك يا أبا محمود ؟ هذا وقت بكاء ! » قال : « طعنني سرهنك ابن أبي منصور » قلت : « وإذا طعنك سرنك أي شيء يكون ؟ » قال : « ما يكون شيء إلاّ يطعنني مثل سرهنك ، والله إن الموت أسهل عليَّ من أن يطعنني لكنه استغفلني واغتالني » فجعلت أسكّنه وأهوّن الأمر عليه . فردَّ رأس فرسه راجعاً فقلت : « إلى أين يا أبا محمود » قال : « إلى سرهنك ، والله لأطعننه أو لأموتنَّ دونه . فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي . ثم عاد وهو يضحك فقلت : « ما عملت ؟ » فقال : « طعنته والله ولو لم أطعنه لفاضت روحي » ؛ فحمل عليه في جمع أصحابه وطعنه وعاد .



قلعة شيزر

الإدْرِيسِيّ

(ولد ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م - ٥٦٠ هـ / ١١٦٦ م)

ولد أبو عبد الله محمد بن محمد الحمُّودي بن عبد الله ، الشهير بالإدريسي ، في مدينة سبتة ، ميناء المغرب الأقصى على البحر الأبيض المتوسط ، في عام ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م . وتنتسب أسرته إلى الشرفاء الأدارسة العلويين ، الذين طالبوا بأحقيتهم بالخلافة في مطلع القرن الهجري الثاني . ولهذا السبب فقد اشتهر مؤلفنا باسم الشريف الإدريسي لأنه يمت بصلة النسب إلى آل البيت . ويعود أصل عائلته إلى إدريس الأول ، مؤسس الأسرة ، والذي هرب من المشرق وأسس إمارة مستقلة في منطقة الريف عام ١٧٢ هـ / ٧٨٩ م ، واستمرت من أواخر القرن الثامن حتى القرن العاشر الميلادي ، وتوسعت خلال هذه الفترة حتى كادت تشمل المغرب كله . وقد اشتهر إدريس الأول بصفته ولياً من الأولياء الصالحين لا سيما بعد وفاته عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م . ولا يزال ضريحه المشهور بـ (مولاي إدريس) يتمتع بصيت كبير لدى أبناء المغرب ، ويقع بجوار فاس التي أسسها ابنه إدريس الثاني والذي حكم من عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م إلى ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م . وقد تلاشت دولتهم عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م . أما أجداد إدريس المباشرون فقد كانوا أمراء ثانويين في مالقة ، وهناك أيضاً عجزوا عن الإحتفاظ طويلاً بسلطانهم فاضطروا للعودة إلى سبتة في القرن الحادي عشر .

ولكن صلة عائلته لم تنقطع بالأندلس فانتقل ، وهو ما يزال صغير السن ، إلى قرطبة التي ظلت مركزاً ثقافياً كبيراً ، وفيها نشأ وتلقى العلم في جامعتها ، ودرس هناك العلوم والرياضيات واهتم بدراسة التاريخ والجغرافيا . وقد عرف الإدريسي قرطبة معرفة جيدة لأن الوصف الشامل الذي أفرده لها في كتابه يضم كل انطباعات المعرفة المباشرة بهذه المدينة .

وقد بدأ الإدريسي أسفاره في سن مبكرة ، فاستطاع أن يزور مناطق قلَّ من عرفها في ذلك العصر ، وإذا كانت معرفته الواسعة بإسبانيا والمغرب ليست بالأمر المستغرب ، فإننا نستشف من خلال مطالعة كتابه أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا وبعض مدنها الهامة ، بل وأوغل حتى الجزر البريطانية بعد أن سبق له زيارة آسيا الصغرى ، وهو لمّا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وذلك في عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م .

وفي عام ١١٣٨ عبر البحر بناء على دعوة من الملك النورماندي روجر الثاني ، قاصداً بالرمو ، عاصمة صقلية التي جعل هذا العاهل منها مركز دراسات لامعاً جداً ، حيث كلّفه بتصنيف كتاب شامل في وصف مملكته وسائر الأصقاع المعروفة في ذلك العهد ، وبوضع خريطة لما عرف من الأقطار في القارات المعروفة . وقد ظل الإدريسي وثيق الصلة بروجر إلى وفاة الأخير في شباط من عام ١١٥٤ بعد أن أنجز له كتابه الشهير (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) في سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٣ م . وظل الكتاب ينسب إلى أمير البلاد فيقال « كتاب رجار » أو « الكتاب الرجاري » . ولكن الإدريسي استمر يعمل في بلاط النورمانديين فألّف كتاب (روض الأنس ونزهة النفس) الذي اشتهر فيما بعد تحت اسم (كتاب المسالك والممالك) بناء على تكليف من غليوم الأول الذي خلف روجر ، وقد عثر على خلاصات من هذا الكتاب في مكتبة بإستنبول .

ويبدو أن الحنين قد استبدّ بالإدريسي ، فغادر صقلية في أيام شيخوخته ، وقفل عائداً إلى مسقط رأسه سبته كي يتوفى بها عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٦ م .

ويرى بعض الباحثين أن أرجحية الإدريسي على سائر الجغرافيين العرب بما كتبه عن أوروبا ، لا تعود لرحلاته وأسفاره في تلك الأصقاع بقدر ما تعود لما حصل عليه من الرواد الذين بعث بهم روجر إلى أقاصي أطراف أوروبا ، مثل اسكندينافيا لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها ، ولما قيده الإدريسي من أحاديث الرحّالة والتجار والحجاج في السفن التي كانت ترسو بموانئ صقلية ، إلى جانب ما استطاع الحصول عليه من بيانات عن البلاد النصرانية بفضل رعاية الملك رجار المسيحي ، وما جمعه من خلاصة معلومات من سبقه كبطليموس والمسعودي . ولهذا نجد من جاء من بعده من الجغرافيين المسلمين ينقل عنه ما كتبه في هذا الموضوع .

وقد قسم الإدريسي العالم المعروف من جهة الطول ، فجعل كل إقليم مقسماً عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق ، كما هي الحال في درجات الطول المعروفة في أيامنا هذه . ثم إنه جعل لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة ، عدا الخريطة العالمية الجامعة ، وهذه الخرائط السبعون محفوظة في نسخ كتاب الإدريسي ، ومنها استخرج (ميلر) خريطته الشهيرة عام ١٩٣١ والتي اعتمد عليها المجمع العلمي العراقي ، وأخرج منها خريطة جديدة بطول مترين وعرض متر واحد في سنة ١٩٥١ .

هذا كما صنع للملك النورماندي كرة جوية وخريطة كروية للأرض من الفضة (شكل ١٩) وقد طبع كتابه مع خرائطه السبعين في روما سنة ١٥٩٢ ، وترجم إلى اللاتينية في ١٦١٩ من قبل عالمين من الموارنة في الغرب ، وهما جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني وطبع النص أيضاً في ليدن ومدريد وبون .

ويعتبر كتابه أحسن مؤلفٍ تلتقي فيه الجغرافية القديمة بالجغرافية الحديثة ، ومعلومات الإدريسي عن نهر النيجر فوق تومبوكو ، وعن السودان ومنابع النيل دقيقة لدرجة تدعو إلى الإعجاب . لذلك لم يكن غريباً أن يطلق على الإدريسي اسم (استرابون العرب)[1] ، وأن يقول عنه



خريطة الإدريسي العربية (١١٦٠) . والإدريسي هو أشهر جغرافيّي العرب ، ومن كتبه ، التي تُرجمت إلى اللاتينية ، تعلّمت أوربا علم الجغرافية في القرون الوسطى .

---

(١) استرابون : جغرافي يوناني ولد في اماسيا في آسيا الصغرى ، حوالي عام ٥٨ ق. م وتوفي عام ٢١ أو ٢٥ ميلادية . وهو مؤلف كتاب ثمين اسمه « جغرافيا » ويتخذ كتابه طابعاً تاريخياً واضحاً ويهتم بإظهار العلاقات بين الإنسان والشعوب والإمبراطوريات وبين البيئة الطبيعية .

البارون دوسلان في المجلة الآسيوية الفرنسية في عدد نيسان من عام ١٨٤١ : « إن كتاب الإدريسي لا يمكن أن يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له ، وأن ثمة بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافي في الأمور المتصلة بها » .

ولكي يقوم الإدريسي بعمله الضخم الرائع هذا خير قيام كان عليه أن يستفيد من ملاحظاته الشخصية ومن ملاحظات معاصريه ومن أبحاث سابقيه أيضاً ، كمؤلفات اليعقوبي ، وابن حوقل ، والمقدسي ، ومن غير المشكوك فيه ، على كل حال ، هو أن أوصاف المناطق الغربية من العالم المعروف في عصره تبدو أحسن من كل ما عداها ومن أحسنها دراسة ، فهي المناطق التي يعطينا الإدريسي عنها معلومات وثائقية من الطراز الأول نجد من العبث البحث عنها في كتب الجغرافيين الآخرين ، باستثناء البكري .

أما من وجهة النظر الأدبية فإن الإدريسي ينتسب مباشرة إلى نمط ابن حوقل .

النص الأول

يعترف الإدريسي نفسه ، في مقدمة كتابه ، بدور الملك النورماندي في إخراج مصنفه لحيز الوجود فيقول بعد خاتمة يمجد فيها راعيه وولي نعمته :

« فمن بعض معارفه السنيّة ونزعاته الشريفة العلوية ، أنه لما اتسعت أعمال مملكته ، وتزايدت همم أهل دولته ، وأطاعته البلاد الرومية ، ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه ، أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقيناً وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً . وفي أي إقليم هي ، وما يخصها من البحار والخلجان الكاينة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون ، وأثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوي عليه ويرجع إليه ويعد منه ، بطلب ما في الكتب المؤلفة في هذا الفن من علم ذلك كله ، مثل كتاب العجائب للمسعودي ، وكتاب أبي نصر سعيد الجهاني ، وكتاب أبي القاسم عبيد الله بن خرداذبة ،

وكتاب أحمد بن عمر العذري ، وكتاب أبي القاسم محمد الحوقلي البغدادي ، وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكي ، وكتاب موسى بن قاسم القردي ، وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي ، وكتاب إسحاق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصري ، وكتاب بطليوس الأقلوذي ، وكتاب أرسيوس الأنطاكي ، فلم يجد ذلك مشروحاً مفصلاً ، بل وجده فيها مغفلاً ، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه ، وأخذ معهم فيه . فلم يجد عندهم علماً أكثر مما في الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال ، بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة جمعاً وأفراداً ، فما اتفق فيه قولهم وصح في جمعه نقلهم أثبته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه ، وأقام في ذلك نحواً من خمس عشرة سنة لا يخلي نفسه في كل وقت من النظر في هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته إلى أن تمّ له فيه ما يريده ، ثم أراد أن يستعلم يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم في ذكر أطوال مسافات البلاد وعرضها ، فأحضر إليه لوح الترسيم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئاً فشيئاً ، مع نظره في الكتب المقدم ذكرها ، وترجيحه بين أقوال مؤلفيها ، وأمعن النظر في جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها ، فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعمئة رطل بالرومي ، في كل رطل منها مئة درهم واثنا عشر درهماً . فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسي المعروفة على نص ما يخرج إليهم ممثلاً في لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئاً ، ويأتوا به على هيئته وشكله ، كما يرسم لهم فيه . وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما في أشكالها ، غير أنه يزيد عليها بوصف أطوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها ومواتاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس بنائها وخواصها

والاستعمالات التي تستعمل بها ، والصناعات التي تنفق بها ، والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها ، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها ، وحيث هي من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينهم وملابسهم ولغاتهم ، وأن يسمّى هذا الكتاب « بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وكان ذلك في العشر الأول من (كانون الثاني) أو ينـاير ١١٥٤ م الموافق لشهر شوال الكائن في سنة ثمان وأربعين وخمسئة فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم » .

ثم يأخذ بتعريف طريقته التي اتبعها :

« سنتعرض لكل بلد على حدة ، مع اهتمامنا بتعريف وضعه الحالي ، ووارداته ، وصادراته ، والبحار والأنهار والمستنقعات والبحيرات التي تقع فيه ، والجبال التي تشاهد فيه مع إشارة إلى امتدادها . وسنتكلم كذلك عن النباتات ، والأشجار ، والحيوان ، ومواضع المعادن . وسنشير إلى منابع أنهارها ، ومجاريها ومصباتها وذلك استناداً إلى المعلومات والروايات المتوفرة » .

النص الثاني

نظرة عامة على إسبانيا ، ووصف مدينة المرية

ترجمة عن دوزي ص ٦٠ .

يذكرنا الإدريسي ، من حيث النظر إلى مختلف نقاط تفصيل عرْضه ، بالإصطخري وبابن حوقل والبكري . فكما هو الحال لدى هؤلاء المؤلفين نجد أن كل فصل يبدأ بنظرة إجمالية على القطر الموصوف ، ثم ينتقل إلى الطرق التي تؤدي من أية مدينة رئيسية إلى أخرى . ويسجل الإدريسي كلاً من محطات هذه المسالك مع تخصصها بالإسهاب عند الكلام عن المدن الكبرى التي يصفها . ويقود هذا الأسلوب طبعاً إلى طراز راتب بشكل ملحوظ ، لا سيا وأن أسلوب هذا الجغرافي لا يحتوي على التنوع الذي نجده في أسلوب المقدسي :

الجزء الأول من الإقليم الرابع

مبـدؤه من المغرب الأقصى حتى البحر المظلم[٢] ، ومنـه يخرج خليـج البحر الشامي[٣] ماراً إلى المشرق . وفي هذا البحر المرسوم بلاد الأندلس المسماة باليونانية إشبانيا . وسميت جزيرة الأنـدلس بجزيرة لأنها شكلٌ مثلث وتضيق من ناحية المشرق حتى تكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بجزيرة الأنـدلس خمسة أيـام ، ورأسهـا العريض نحـو من سبعـة عشر يـومـاً ، وهـذا الرأس هـو في أقصى المغرب في نهايته انتهـاء المعمور من الأرض محصورٌ في البحر المظلم ، لا يعلَمُ أحـد ما خلف هذا البحر ، ولا وقف بشرٌ منه على خبر صحيح لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره ، وتعاظم أمواجه ، وكثرة أهواله ، وتسلُّط دوابِّه وهيجـان ريـاحـه ، وبـه جزائر كثيرة ، ومنها معمورة ومغمورة . وليس أحد من الربّـانيين يركبـهُ عرضـاً ولا ملججاً وإنما يمر منه بطول الساحل لا يفـارقـه[٤] . وأمواج هـذا البحر تنـدفع منغلقـة[٥] كالجبـال لا ينكسر مـاؤهـا ، وإلاَّ فلو تكسَّر موجـه لما قـدر أحـد على سلوكه .

(الزقاق)[٦] . والبحر الشامي فيما يحكى كان بركةً منحازةً مثل مـا هو عليـه الآن بحر طبرستـان[٧] ، لا يتصـل بشيء من البحر (المظلم) . وكان أهـل المغرب من الأمم السـالفـة يغيرون على أهل الأنـدلس ، فيضرُّون بهم كل الإضرار ، وأهل الأندلس أيضاً يكابدونهم ويحاربونهم جهد الطـاقـة ، إلى أن كان زمـان الإسكنـدر

---

(٢) المحيط الأطلسي .

(٣) البحر الأبيض المتوسط ويسميه العرب أيضاً بحر الروم .

(٤) هذه الملاحة هي التي يسميها الأوروبيون Cabotage .

(٥) أي أن أغلب أمواجه من نوع الهول الذي لا يتهدر .

(٦) بحر الزقاق : مضيق جبل طارق .

(٧) بحر الخزر .

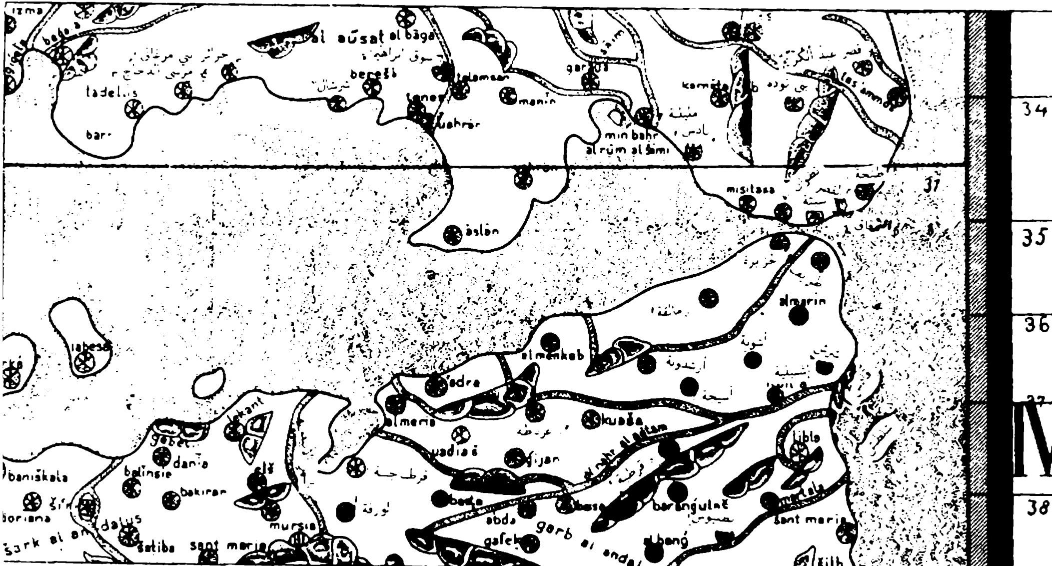
ووصل إلى الأندلس ، وأعلموه بما هم عليه من التناكر مع أهل المغرب ، فأحضر الفَعَلَة والمهندسين وقصد أرض الزقاق ، وكان أرضاً جافة ، فأمر المهندسين بوزن الأرض ووزن سطوح ماء البحرين ، ففعلوا ذلك فوجدوا البحر الكبير يشفُّ علوُّه على البحر الشامي بشيء يسير ، فرفعوا البلاد التي على الساحل من بحر الشام ، ونقلها من أخفض إلى أرفع ، ثم أمر أن تُحفر الأرض التي بين طنجة وبلاد الأندلس ، فحفرتْ حتى وصل الحفر إلى الجبال التي في أسفل الأرض وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجير إفراغاً . وكان طول البناء ثلاثة عشرة ميلاً وهو الذي كان بين البحرين من المسافة والبُعد . وبنى رصيفاً آخر يقابله مما يلي أرض طنجة وكان بين الرصيفين سعة ستة أميال فقط . فلما أكمل الرصيفان حفر الماء من جهة البحر الأعظم فمرَّ ماؤه بسيْله وقوته بين الرصيفين ودخل البحر الشامي ففاض ماؤه وهلكت مدن كثيرة كانت على الشطَّين معاً وغرق أهلها وطغا الماء على الرصيفين نحو أحد عشرة قامة .

وطول هذا المجاز المسمَّى بالزقاق ثلاثة عشرة ميلاً وعلى طرفه مما يلي المشرق المدينة المسماة بالجزيرة الخضراء ، وعلى طرفه من ناحية المغرب المدينة المسماة بجزيرة طريف . ويقابل جزيرة طريف في الضفة الثانية من البحر مرْسى القصر المنسوب لمصمودة ، ويقابل الجزيرة الخضراء في تلك العُدوَة مدينةُ سبتةَ . وهذا البحر في كل يوم وليلة يجزرُ مرتين ويمتلئ مرتين فعْلاً دائماً ذلك تقدير العزيز الحكيم . وأما ما على ضفة البحر الكبير من المدن الواقعة في هذا البحر المرسوم فهي طنجة وسبتة ونكورُ وبادسُ والمزمَّة ومليلةُ ووهران ومستغانمُ[٨] .

(وصف الأندلس) فلنرجع الآن إلى ذكر الأندلس ووصف بلادها ، وذكر طرقاتها وموضوع جهاتها ، ومقْتضى حالاتها ومَبادي أوديتها ، ومواقعها من البحر والمشهور من جبالها وعجائب بقعها ، ونأتي من ذلك بما يجب بعون الله فنقول :

---

(٨) ويتلو ذلك وصف المدن الواقعة على الساحل الجزائري حتى وهران .



جزء من خريطة الإدريسي المستطيلة للعالم المعروف في عهده (١١٥٤ م) ويظهر هنا الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط وجبل طارق. المصوّر موجه نحو الجنوب وقريب من حجم الأصل

أمـا الأنـدلس فجنوبهـا يحيـط بـه البحر الشـامي ، وغربهـا يحيـط بـه البحر المظلم ، وشمالها يحيط به بحر الأنقلشين[٩] من الروم .

والأنــدلس طـولهــا من كنيســة الغراب[١٠] التي على البحر المظلم إلى الجبـل المسمى بهيكل الزُهرة[١١] ألف ومئة ميل ، وعرضُها من كنيسة شنْتَ ياقوبَ[١٢] التي على أنف بحر الأنقلشين إلى مدينة المريَّة على بحر الشام ست مئة ميل .

وجـزيرة الأنـدلسِ مقسـومـة من وسطهـا في الطـول بجبـل طـويـل يسمْى الشارات[١٣] ، وفي جنوب هذا الجبل مدينة طُليطلـةَ ... ومـا خلفَ الجبل المسمَّى بالشارات من جهة الجنوب يسمى إشبانيا ، وما خلف الجبل في جهة الشمال يقـال قشتالةُ . والأندلس المسمى إشبانيا أقاليمُ[١٤] عدة ورساتيق جملةٌ ، وفي كل إقليم منها عدة مدن ، نُريد أن نأتي على ذكرها مدينةً مدينةً بحول الله تعالى[١٥] .

(وصف المريَّـة) ومن أراد من مرسيـة إلى المريَّـة ســار من مُرسيــةَ إلى ... مـدينـة لورقـة وهي مـدينـة غرَّاء حصينـة على ظهر جبل ولهـا أسواق ورَبضٌ في أسفل المدينة وعلى الربض سور ، وفيه السوق والزَّهـادِرة[١٦] وسوق العطر ، وبهـا معـادن تربـة صفراء ومعـادنُ مُغرةٍ تحمل إلى كثير من الأقطـار . ومن لُورْقَـة إلى

---

(٩) أي الإنكليز .

(١٠) يدعى مكانها اليوم رأس سان فانسان . وعندما استشهد القديس سان فانسان في بلنسية عمد الحاكم داسيان إلى طرح جثه في حقل ، ولكن الأسطورة تقول : إن غراباً حط بجوار الجثة ومنع عنها الطيور الجارحة . وفي القرن الثامن ميلادي أقيت كنيسة باسمه فوق رأس الغراب الذي تبدل اسمه في القرن الثاني عشر الميلادي فأصبح رأس سان فانسان .

(١١) أو هيكل فينوس . وهي أسماء ميناء Port-Vendres في البيرينه الشرقية قرب الحدود الإسبانية .

(١٢) القديس جاك دو كومبو ستيلا أو مدينة سنتياغو الحالية في إسبانيا .

(١٣) سلسلة سييرا Sierra .

(١٤) أي مناطق .

(١٥) ويتلو ذلك قائمة هذه المناطق وتلك المدن مع وصف طويل نوعاً ما حسب أهميتها .

(١٦) الجمرك ؟

مرسيةَ أربعون ميلاً . ثم من لورقة إلى آبار الرتَبَةَ إلى حصن بيرة[١٧] مرحلةً ، وهو حصن منيع على حافة مطلَّة على البحر ، ومن هذا الحصن إلى عَقبة شقرَ[١٨] ، وهي عقبة صعبة المرْقى لا يقدرُ أحدٌ على جوازها راكباً وإنما يأخذها الرُّكبان رجَّالة ، ومن العقبة إلى الرابطة مرحلةٌ وليس هناك حصن ولا قرية ، وإنما قصر فيه قوم حرّاس للطريق ، ومن هذه الرابطة إلى المرية مرحلة خفيفة .

ومدينةُ المرية كانت في أيام الملثَّم[١٩] مدينة الإسلام ، وكان بها من كل الصناعات كلُّ غريبةٍ . وذلك أنه كان بها من طرُز الحرير ثمانمئة طرازٍ يُعْمل بها الحلَل[٢٠] والديباج والسُّقْلاطون والأصبهانيّ والجُرجانيّ والستور المكلَّلة والثياب المعينة والخَمَرُ والعتابي والمعاجرُ وصنوف أنواع الحرير .

وكانت المريةُ قبل الآن يُصنعُ بها من صنوف آلات النحاس والحديد إلى سائر الصناعات ما لا يُحدُّ ولا يكيَّف . وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير الرخيص .

(وهذا الوادي المنسوبُ إلى بجانة[٢١] بينه وبين المرية أربعة أميال ، وحوله جنّات وبساتينُ وأرجاء ، وجميع نعمها وفواكهها تجلبُ إلى المرية) . وكانت المرية إليها تقصد مراكب البحر من الإسكندرية والشام كلها ، ولم يكن بالأندلس كلها أيْسرُ من أهلها مالاً ، ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً

---

(١٧) اسمها اليوم Vera قريبة من المرية .

(١٨) اسمها اليوم Mujacar .

(١٩) الملثم أي البربري الملثم ، أي أمير المرابطين ، الذي كان يستر وجهه بلثام وهو يوسف بن تاشفين .

(٢٠) حلل : قماش من حرير عموماً . سقلاطون : قماش موشّى بالذهب . الأصبهاني والجرجاني : قماش حريري مشغول في أصفهان وفي جرجان الواقعة جنوب بحر الخزر . مكلل : قماش مزين بأزهار ، معين : مزدان بأشكال هندسية كالمعين . العتابي : سجاد وقماش من حرير وقطن مشغول في ضاحية العتابي في بغداد . معجر : سجاد من حرير .

(٢١) وتدعى اليوم Pechina .

وادخاراً . والمرية في ذاتها جبلان ، وبينهما خندق معمور . وعلى الجبل الواحد[٢٢] قصبتها المشهورة بالحصانة ، والجبلُ الثاني منهما فيـه ربضهـا ، ويسمى جبلَ لاهَمَ والسور يحيط بالمدينة وبالرَّبضِ ولها أبواب عدة . ولهـا من الجـانب الغربي ربضٌ كبير عامر يسمّى ربضَ الحوضِ ، ولـه سور عـامر بـالأسواق والـديـار والفنـادق والحماماتِ . والمدينة في ذاتها كبيرة كثيرة التجـارات والمسـافرون إليهـا كثيرون . وكان أهلهـا ميـاسيرَ ، ولم يكن في بلاد الأنـدلس أحضرُ من أهلهـا نقـداً ولا أوسع منهم أحوالاً ، وعددُ فنادقها التي أخذها عدُّ الديوان في التعنيب[٢٣] ألف فنـدق إلا ثلاثين فندقاً . وكان بها من الطِّرْزِ أعداد كثيرة قدمنا ذكرها . وموضعُ المريـة من كل جهة استدارت به صخور مكدسةٌ وأحجارٌ صلبة مضرسـة لا تراب بهـا ، كأنهـا غُربلتْ أرضها من التراب ، وقصدَ موضعُها بالحجر .

والمرية في هذا الوقت الذي ألفنا كتابنا هذا صارت ملكاً بأيدي الروم[٢٤] قد غيَّروا محاسنها ، وسبَوْا أهلها ، وخربوا ديارها ، وهدموا مُشيَّد بنيانهـا ، ولم يبْقوا على شيء منها . ومن المرية لمن أراد مـالقـةَ طريقـانِ طريقٌ في البر وهو تحليقٌ ، وهو سبعة أيام ، والطريق الآخر في البحر وهو مئة وثمانون ميلاً[٢٥] .

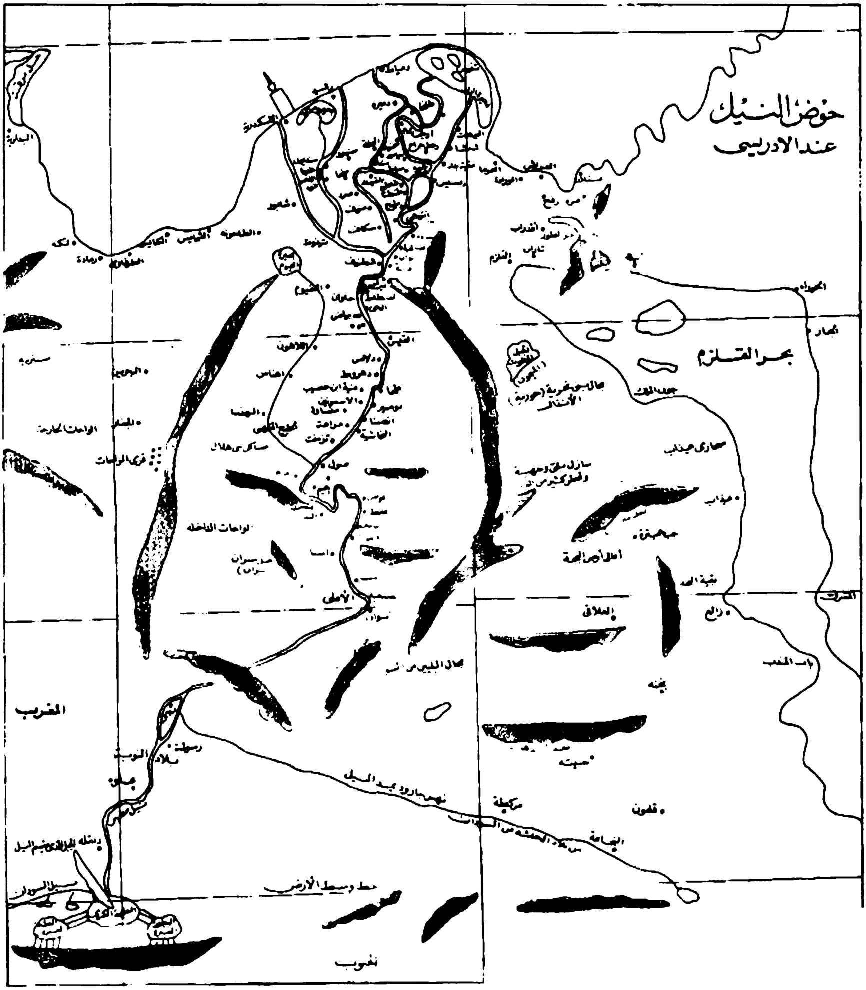
---

(٢٢) أي الأول .

(٢٣) أي التي أحصتها مصلحة الجباية لفرض ضريبة الخمر عليها . وعنّب : فعل يعني شرب الخمر .

(٢٤) لقد سقطت المرية فعلاً بيد الفونس القشتالي عام ١١٤٧ م .

(٢٥) ويستمر بالكلام عن طريق جديدة ويعطي المؤلف وصفاً لمدينة مالقة . وهكذا دواليك .



ملحوظة : هناك عدد من المدن والقرى التي صورت على الجانب الشرقي لوادي النيل الأدنى في مصر (الصعيد) وهي في الحقيقة على الجانب الغربي مثل : القيس ـ طحا ـ بوصير ـ قمولة ـ أرمنت .

عَبْد اللطِيف البَغدادي

(٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م - ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م)

ولد موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف (أبو يونس) في بغداد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ، وترعرع بها ودرس بها علم الحديث ، وحفظ القرآن وإجادة الخط ، وحفظ الشعر والمقامات ، والكيمياء التي كانت تشمل آنذاك الكيمياء والطب ، وأخذ لنفسه إجازات من شيوخ بغداد ثم من شيوخ خراسان ، فلما اطمأن إلى أنه أخذ عن شيوخه كل ما عندهم تحول إلى الموصل موطن آبائه سنة ٥٨٥ هـ ، وحدّث في مدرسة ابن مهاجر ودار الحديث ، واستمع هناك إلى الرياضي الفقيه ، الذي ذاع صيته في ذلك الوقت ، الكمال بن يونس . وفي الموصل سمع بما يلقاه العلماء من رعاية في كنف صلاح الدين الأيوبي ، فقصد دمشق يطلب علمهم فوقعت بينه وبينهم مناظرات انتصر فيها عليهم ، ثم توجه إلى القدس وجاء معسكر صلاح الدين بظاهر عكاء حيث لقي بهاء الدين شدّاد قاضي العسكر ، وعماد الدين الكاتب والقاضي الفاضل الذي زوده بكتاب توصية إلى وكيله في مصر وهو ابن سناء الملك . فانتقل عبد اللطيف إلى مصر وتمتع فيها برعاية الأيوبيين ، واتصل فيها بياسين السيميائي وموسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي وظل مدة يدرس الفقه ، وتابع أبحاثه في الطب وعلم النبات . بيد أن إقامته في مصر لم تطل ، إذ رحل إلى القدس للقاء صلاح الدين بعد الهدنة التي عقدها مع الصليبيين . ورتب صلاح الدين وأولاده لعبد اللطيف مئة دينار في الشهر ، فدخل دمشق وأكبّ على الاشتغال بالعلم وإقراء الناس بالجامع .

لكن عبد اللطيف كان يسأم الاستقرار في مكان واحد مدة طويلة ، فرحل إلى مصر ثانية بعد وفاة صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م في ركاب سلطانها العزيز لما جاء لحصار الأفضل أخيه في دمشق في حملة فاشلة . وعاد إلى مصاحبة الشارعيّ . وكان يقرئ الناس بالأزهر صباحاً ومساءً ، ويقرئ الطب للكثيرين في وسط النهار . وبمصر شهد المجاعة الهائلة والطاعون الفتاك الذي حدث عام ٥٩٧ هـ و ٥٩٨ هـ / ١٢٠٠ م . ثم دعاه حب السفر ثانية فانتقل إلى القدس ودرّس في الجامع الأقصى ، ونزل دمشق حيث اشتهر بصناعة الطب ودرّس في المدرسة العزيزية سنة ٦٠٤ هـ ، وفي السنة نفسها قصد حلب ، ومنها ذهب في رحلة إلى آسيا الصغرى استمرت عدة أعوام ، زار خلالها أرزنجان وأمضى

بعض الوقت في بلاط أميرها . ومن المحتمل أنه في أثناء رحلته تعرف عن كثب على أخبار المغول . ورجع عبد اللطيف إلى بغداد في شيخوخته وتوفي بها عام ٦٢٩ هـ أو ١٢٣١ م .

وعبد اللطيف رحالة عالم جمُّ المعرفة ضرب في جميع فروع العلم بسهم ، فقد شملت معرفته الطب بالإضافة إلى النحو واللغة والفلسفة ، واشتهر في صناعة الطب في كل مكان أقام فيه ولاسيا في دمشق ، كما كان عالماً دقيق الملاحظة ، ومما يدل على نزعته إلى التحقيق أنه سمع قوماً اعتادوا ارتقاء الهرم دون عناء ، فاستدعى أحدهم وطلب إليه أن يصعد إلى قمته وأن يقيس أبعاده عندها ، فلما أبلغه إياها شك في صحتها واعتزم القيام بذلك بنفسه ، فهو بهذا يمثل طراز العالم المحقق الذي يتوق إلى المعرفة الإيجابية مع ميل بارز إلى التجربة العملية . وإذا روي له أمر وشكَّ فيه أظهر ذلك في كتابته . ولم تقتصر معرفة البغدادي على مصنفات العرب وحدهم ، بل عرف مصنفات اليونان وخاصة أرسطو وديوسقوريدس وجالينوس .

وأهم ما وصل إلينا من مؤلفات عبد اللطيف البغدادي كتاب (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر) وقد ذاعت شهرة الرحلة وترجمت إلى بضع لغات أوروبية .

وقد تكلم فيه عن مختلف الشؤون العمرانية والاجتماعية ، وعلى ما تختص به من النبات والحيوان ، وعلى ما فيها من الآثار القديمة كالأهرام وأبي الهول والمسلات ومعابد مصر العليا ومنارة الإسكندرية وعمود السواري .

هذا هو عبد اللطيف الذي درس علوم عصره العقلية والنقلية وحدَّث وعلَّم الطب وألَّف كتباً كثيرة فيه وانتفع الناس بعلمه في كل من دمشق والقاهرة والقدس وحلب وبغداد .

النص الأول

البلسان

شغل زيت البلسان ونباته جميع الكتاب والرحالين في العصور الوسطى ، فذكره ولبولد الإنكليزي الذي زار بلاد الشام بين ٧٢١ و ٧٢٧ م وحمل بعضه من فلسطين ، ويقال : إن المصريين سرقوه من فلسطين ، ويقال : إنه كان يزرع حول عين جدي على شاطئ البحر الميت ، لكن كليوباترة نقلته من هناك إلى مصر . ونجد في هذا النص دقة البغدادي شأن أي عالم من علماء النبات .

« ومن ذلك البلسان فإنه لا يوجد اليوم إلاّ بمصر بعين شمس في موضع محاط عليه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة ، وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك ، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين ، وإذا مُضغ ظهر في الفم منه دهنيته ورائحة عطره ، وورقه شبيه بورق السنداب ، ويجتبى دهنه عند طلوع الشعرى بأن تشدخ السوق بعدما يحث عنها جميع ورقها ، وشدخها يكون بحجر يتخذ محدداً ويفتقر شدخها إلى صناعة بحيث يقطع القشر الأعلى ، ويشق الأسفل شقاً لا ينفد إلى الخشب ، فإن نفد إلى الخشب لم يخرج منه شيء . فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود فيجمعه بأصبعه مسحاً إلى قرن . فإذا امتلأ صبه في قناني زجاج ، ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه[1] ، وكلما كثر الندى في الجو كان لثاه أكثر وأغزر ، وفي الجدب وقلة الندى يكون اللثا أنزر ، ومقدار ما أخرج منه في سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وهي عام جدب ، نيف وعشرون رطلاً . ثم تؤخذ القناني فتدفن إلى القيظ وحمّاره الحرّ وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس ثم تُتفقّد كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوقه رطوبة مائية وأثقال أرضية . فيقطف الدهن ثم يعاد إلى الشمس ، ولا يزال كذلك يُشَمّسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن ، فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيّمه في الخفية لا يطلع على طبخه أحداً ، ثم يرفعه إلى خزانة الملك ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة ، وقال لي بعض أرباب الخبرة أن الذي يحصل من دهنه نحو من عشرين رطلاً ، ورأيت جالينوس[2] يقول إن أجود دهن البلسان ما كان بأرض فلسطين ، وأضعفه ما كان بمصر ، ونحن فلا نجد اليوم منه بفلسطين شيئاً البتة ...

ومما تختص به مصر الأفيون . وهو يجتنى من الخشخاش الأسود بالصعيد ،

---

(١) نسعه .

(٢) أي في كتاب جالينوس .

وكثيراً ما يغشُّه جُناته ، وربما غشوه بالعذرة . وعلامة الخالص منه أن يذوب في الشمس ويقد في السراج بلا ظلمة ، وإذا طفي تكون رائحته قوية ، والمغشوش يسوّس سريعاً .

النص الثاني

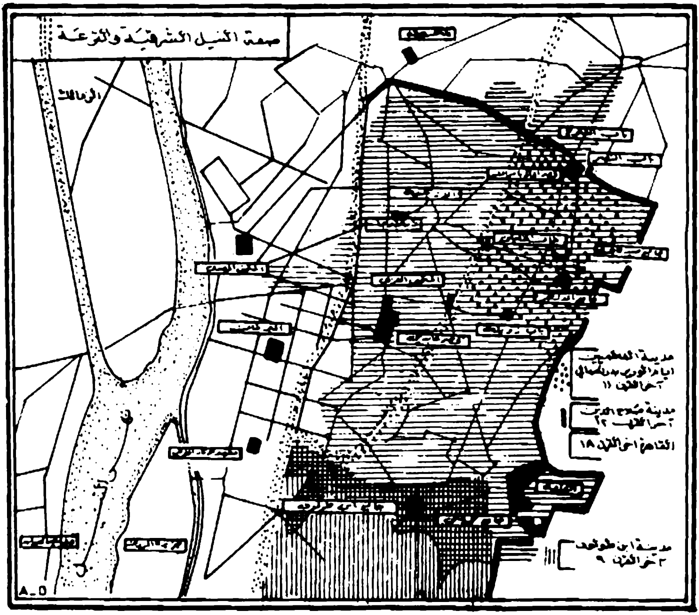
القحط والمجاعة في مصر عام ٥٩٧ هـ / ١١٩٨ م

إن وصفه للقحط وصف تقشعر منه الأبدان ، إذ بلغ الأمر بالفقراء إلى أكل الميتة والكلاب ، ثم انتهوا إلى أكل من يتخطفونه من الآدميين وبالأخص البدينين والصغار .

ويروى أيضاً أن الناس راحوا يتفننون في اصطياد بعضهم بعضاً ، وخاصة المشتغلين بالطب إذ كانوا يستدعونهم بزعم علاج مرضي ثم يفتكون بهم .

« وأول من هَلَكَ في هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا إلى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس . ولم تزل تتواصل هلكاهم إلى الآن . وانتهى انتجاعهم إلى الموصل وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزّقوا كل ممزّق ...

وأما خراب البلاد والقرى وخلوّ المساكن والدكاكين ، فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصصناها . وناهيك أن القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة ، وربما وجد فيها أحد وربما لم يوجد . وأما مصر فخلا معظمها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة والمقس وما تاخم ذلك فلك يبق فيها بيت مسكون أصلاً ، بعدما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس ، حتى إن الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرَّة القاهرة وخيارها أكثرها خال خراب . وإن ربعاً في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتاً كلها خالية سوى أربعة أبيت أسكنت من يحرس الموضع .



مخطط القاهرة القديمة

وبما يقضي منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين سعدوا في دنياهم هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث ، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف . فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط ...

وحكي لي أنه كان بمصر تسع مئة منسج للحصر ، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجاً . وقسْ على هذا لسائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف ، فإنه لم يبق من كل صنف من هؤلاء إلا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك ...

حوادث الجوع

ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق ، وقد ظهر معها صغير مشوي تـأكل منـه ، وأهل السوق ذاهلون عنهـا ، ومقبلون على شؤونهم ، وليس فيهم من يعجب لـذلـك أو ينكره . فعـاد تعجبي أشـدّ ، ومـا ذلــك إلاّ لكثرة تكرُّره على إحساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه .

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد النـاس بـأصنـاف الحبـائل ويجتلبونهم إلى مكانهم بأنواع المخاتل ، وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء مِّمنْ ينتابني . أما أحـدهم فإن أباه خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فـإن امرأة أعطتـه درهمين على أن يصحبهـا إلى مريضهـا ، فلمـا توغلت بـه في مضـايق الطرق استراب ، وامتنع عنهـا وشنّـع عليها فتركت درهميها ، وأما الثالث فإن رجلاً استصحبـه إلى مريضـه في الشـارع بزعمـه وجعل في أثنـاء الطريق يصـدف بـالكسر ، ويقول اليوم : يغتنم الصـواب ويتضـاعف الأجر ، ولمثـل هـذا فليعمـل العـاملـون ، ثم كثُر حتى ارتـاب منـه الطبيب . ومع ذلـك فحسن الظن يغلبـه وقوة الطمع تجـذبـه ، حتى أدخلـه داراً خربـة فزاد استشعـاره ، وتوقف في الـدرج وسبـق الرجـل فـاستفتـح فخرج إليـه رفيقُـه يقول لـه : هل مع إبطـائـك حصل صيـد ينفع ، فخرج الطبيب لمـا سمـع ذلك ، وألقى نفسه إلى اصطبل من طاقة صادفها . فقام إليـه صـاحب الإصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفاً منه أيضاً ، فقال قد علمت حالـك فـإن أهل المنزل يذبحون الناس بالحيل ...

وهذه البليّة التي شرحناها ، وجدت في جميع بلاد مصر ، ليست فيها بلـد إلاّ وقد أكل فيه الناس أكلاً ذريعاً ، من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والإسكنـدريـة ودمياط وسائر النواحي .

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاشٍ في كل فجّ ولا سيا طريق الفيوم والإسكندرية . وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الأجرة على الركاب ، فإذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم . وظفر الوالي منهم بجماعة فمثَّل بهم ، وأقرَّ بعضهم عندما أوجع ضرباً أن الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار . وأما موت الفقراء هزالاً وجوعاً فأمر لا يطيق علمه إلا الله سبحانه وتعالى ، وإنما نذكر منه كالأنموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر .

فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك ؛ أن الماشي أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ، ومن هو في السياق أو على جمع كثير بهذه الحال . يرفع عن القاهرة خاصة إلى الميضأة كل يوم ما بين مئة إلى خمسمئة ، وأما مصر فليس لموتاها عدد ، ويرمون ولا يوارون ، ثم بآخره عُجِز عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين . وفيها الميت منهم قد تقطع وإلى جانبه الشوّاء والخباز ونحوه .

وأما طريق الشام فقد تواردت الأخبار ، أنها صارت مزرعة لبني آدم ، بل محصرة ، وأنه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع ، وأن كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم .

وأما الدجاج فعدم رأساً لولا أنه جُلب منه شيء من الشام . وحكي لي أن رجلاً مصرياً شارف الفقر ، فألهم أن اشترى من الشام دجاجاً بستين ديناراً ، وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثماني مئة دينار . ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثاً ثم أربعاً واستمر على ذلك . وأما الفراريج فتبيع الفروج بمئة درهم ، ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعداً .

وأما الأملاك ذات الأجر المعتبرة فإن معظمها خلا ، أو لم يبق دأب أهلها إلا حراستها بسدّ أبوابها وتحصين مسالكها أو إسكانها من يحرسها بأجرة الله ، إلا

ما كان من الملك في قصبة المـدينـة ، فـإن بعضـه مسكون بـأخف أجرة ، وأعرف ربعاً في أعْمر موضع بالمدينة كانت أجرته في الشهر مئة وخمسين دينـاراً ، فعـادت في هـذه السنـة إلى نحو عشرين دينـاراً ، وآخر في مثـل مـوضعـه كانت أجرتـه في الشهر ستة عشر ديناراً فعادت إلى فويق الدينـار ، وجميع مـا لم نـذكره على هـذا القياس ، افهمه .



اِبْنُ جُبَيْر

(ولد في ١٠ / ٣ / ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م . توفي عام ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م)

ولد أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني ، الشاطبي ، البلنسي ، في العاشر من شهر ربيع الأول ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م في بلنسية . وينحدر من أسرة عربية عريقة ، سكنت الأندلس في عام ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م قادمة من المشرق مع القائد المشهور بَلْج بن بشر بن عياض القشيري . وكان اسم جبير من الأسماء المحببة إلى أسرته فقد حمله الكثيرون من قبله . وقد أتمّ ابن جبير دراسته في شاطبة حيث كان يعمل والده موظفاً فيها ، وقد شغف أول ما شغف بعلوم الدين فسمعها من أبيه ، وأخذ القرآن عن أبي الحسن بن أبي العيش . ولكن ميوله برزت في العلوم الدنيوية أيضاً ، إذ يسّرت له مواهبه الشعرية ، من ناحية أخرى ، نجاحاً في الأوساط الرسمية مما جعله يحتل منصب كاتب لدى حاكم غرناطة أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، من الموحدين ، ولم يلبث أن كسب الشهرة كاتباً وشاعراً تروى له عدة قصائد متفرقة ، فضلاً عن ديوان شعر ، كما ترك رسائل نثرية لها شهرتها في الأدب .

ويذكر المقرّي في كتابه (نفح الطيب) أن أمير غرناطة استدعاه يوماً ليؤلف فيه كتاباً وهو في مجلس شرابه ، وحدث أن دفع إليه كأساً فأظهر ابن جبير الانقباض وقال : « يا سيدي ما شربتها قط » غير أن الأمير غضب وقال : « والله لتشربنّ منها سبعاً » فلما رأى ابن جبير منه الإصرار لم يستطع إلاّ الإذعان وشرب ، وأحسّ الأمير بشيء من الندم ، أو لعلّه أراد أن يكافئ ضيفه على مجاملته له ، فقدم له سبعة أقداح مملوءة بالدنانير الذهبية وصبها في حجره ، فحملها ابن جبير واعتزم أن يكفّر عن شربه الخمر بأداء فريضة الحج فباع بعض عقاراته وأضاف ثمنه إلى عطية الأمير وما هي إلاّ أيام حتى استأذن من الأمير في الحج ، ولكيلا يحول دون سفره ، أبلغه أنه أقسم قسماً لا رجعة فيه أن يحج في تلك السنة فأذن له .

بدأ ابن جبير رحلته إلى الأراضي الحجازية في شوال من سنة ٥٨٠ هـ / شباط ١١٨٦ م ، برفقته صديقه أحمد بن حسان ، وكان من رجال الطب والعلم والأدب . ونعرف خط رحلته الأولى بشكل جيد بفضل الإشارات الدقيقة والتواريخ المحددة ، لأنه بدأ تقييد يومياته منذ اليوم التالي لركوبه متن البحر من سبته حيث وجد سفينة من سفن الجنوبيين ، تريد الإقلاع قاصدة الإسكندرية ، أي ابتداءً

من يوم الخميس ٢٩ شوال أو ٢٤ شباط . فذهب من سبته إلى سردينيا حيث علم بوجود عدد من أسرى العرب المسلمين من رجال ونساء يباعون في سوق النخاسة فأحسَّ بالألم الشديد ، وأدرك أن ما أصاب هؤلاء البؤساء إنما هو نتيجة منتظرة لتفكك العالم العربي يومئذ ، وحاذى سواحل صقلية حتى دخل ميناء الإسكندرية التي لفتت انتباهه منارتها الشاهقة الارتفاع بعد أن أقام في البحر ثلاثين يوماً . وبعد ثمانية أيام ركب النيل إلى القاهرة التي غادرها إلى صعيد مصر فوصل بلدة قوص التي قطع منها الصحراء الشرقية إلى البحر الأحمر ليستقل من ميناء عيذاب . وهو المرفأ المعهود للحجاج على البحر الأحمر ، سفينة تحمله إلى جدة . وأخذ قافلة إلى مكة حيث أقام هناك حوالي نصف عام ، ثم زار المدينة في طريقه إلى الكوفة ، وتوقف في بغداد وسامراء ، فالموصل فحلب ومنها انحدر إلى دمشق التي أمضى بها بضعة أشهر قبل أن يغادر الأراضي الإسلامية ، لأن سواحل الشام كانت آنذاك في قبضة الصليبيين ، وكان من حسن طالعه أن تعرَّف على المشرق وهو لا يزال ينعم بالازدهار والأمن في ظل صلاح الدين فدوَّن مشاهداته فيه بأسلوب بارع ، ولكنه خال على كل حال من تصنُّع المحترفين ، دون أن يتنكر يوماً لثقافته الفقهية . ومن ميناء عكا ركب ابن جبير سفينة تخص الأوروبيين فنزل بصقلية ، وذلك بعد رحلة طويلة حافلة بالمشاقّ لم تخل من كوارث هددت السفينة أكثر من مرة بالغرق . وفي هذه المرة استطاع أن يتعرف على الجزيرة عن كثب ، فصوَّر الحضارة الزاهرة التي وجدها في صقلية في عهد غليوم الصالح النورماندي ، مؤكداً مرة بعد مرة ، في ابتهاج ظاهر ، أنها لا تزال إسلامية في المحل الأول . وفي ٢٥ نيسان من عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م وصل غرناطة بطريق قرطاجنة بعد غياب دام أكثر من عامين .

ثم قام برحلة ثانية في سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م عندما بلغه نبأ فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، الذي تعلقت به آنذاك أنظار المسلمين بطلاً يعرف كيف يحقق الانتصارات . واستمرت هذه الرحلة سنتين ولكننا لا نملك تفاصيل عنها .

أما رحلته الثالثة والأخيرة فقد بدأها من سبته سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ وكان قد بلغ الثالثة والسبعين من عمره ، وقد أحزنته وفاة زوجته التي نظم فيها ديوانه « نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح » .

ويبدو أن ابن جبير لم يرجع إلى مسقط رأسه مرة أخرى بعد هذه الرحلة الثالثة ، بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متنقلاً بين مكة وبيت المقدس والقاهرة والإسكندرية مشتغلاً بالتدريس والأدب ، إلى أن لقي وجه ربه عام٦١٤ هـ / ١٢١٧ م في هذه المدينة الأخيرة .

وقد قامت شهرته على كتابه الذي دون فيه أخبار الرحلة الأولى في شبه مذكرات يومية تعرف باسم (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) والمرجَّح أنه كتبها حوالي سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م .

ولكن كتابه اشتهر فيما بعد تحت اسم (الرحلة)، التي يروي فيها حجته الأولى إلى مكة ، والذي لا يعتبر أول كتاب من هذا النمط فحسب ، بل أيضاً كنموذج ـ حذى بالنسبة للآخرين أو المنتحلين . ويسرد لنا فيه المؤلف ، يوماً فيوماً ، مختلف طوارئ جولته ، والمصاعب التي عاناها ، والمخاطر التي تعرّض لها ، وقد وصف بإسهاب المدن والأقطار التي مرّ بها ، ووادي النيل ، ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبغداد والموصل وحلب ودمشق وصقلية . كما يقدم عن السكان الذين عاش بين ظهرانيهم معلومات عديدة حافلة بالحياة ، تليق بأكثر اللاحظين حباً بالاستطلاع وبأكثرهم فطنة . ولا مثيل لأسلوب ابن جبير ، فهو يوجز عند وصف المدن والأوابد ويجيد في اللمحات العامة عن الأقاليم ، ولكنه على العكس ، يكثر من الألوان عندما يصف الجماهير المتحركة حيث يظهر رحالتنا بارعاً في تقديم التفاصيل المميزة والرائعة . وابن جبير أدق من ابن بطوطة في الملاحظات وأكمل في بعض الأوصاف ، وأصدق في بعض الروايات . وإنشاء ابن جبير أرفع وأكثر تأنقاً ، غير أن أكثره مسجّع يظهر فيه التكلف أغلب الأحيان .

وقد استرعى كتابه اهتمام المستشرقين لما له من قيمة نفيسة ، فترجموا أول شيء القسم المختص منه بصقلية إلى الفرنسية وطبع في عام ١٨٤٦ م . ثم طبع كله لأول مرة عام ١٨٥٢ بإضافة مقدمة إليه وضعها المستشرق رايت ، الأستاذ في جامعة كبردج . ثم ظهرت منه طبعة جديدة سنة ١٩٠٧ في ليدن راجعها المستشرق دي خويه De Goegc وترجمها إلى الإنكليزية Broadhurst تحت عنوان The travels of ibn Jubayr. London. 1952 .

النص الأول

اجتياز البحر الأبيض المتوسط في القرن الثاني عشر

بعد أن غادر ابن جبير غرناطة في شهر شوال ٥٧٨ هـ / الموافق شهر شباط ١١٨٣ م بصحبة صديقه أحمد بن حسّان ، اجتاز مضيق جبل طارق كي يبحر من سبتة متجهاً إلى الإسكندرية .

« تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار »

ابتدي بتقييدها يوم الجمعة الموفي ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمس مئة على متن البحر بمقابلة جبل شُلير عرّفنا الله بمنّه .

وكان انفصال أحمد بن حسَّان ومحمد بن جبير من غرناطة ، حرسها الله للنيّة الحجازية المباركة ، قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل ، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي . وكان الاجتياز على جيَّان لقضاء بعض الأسباب ، ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور وبموافقة اليوم الرابع عشر لشهر فبراير المذكور أيضاً .

وكانت مرحلتنا الأولى منها إلى حصن القبْذاق ، ثم منه إلى حصن قبْرة ثم منه إلى مدينة أستَجة ثم منها إلى حصن أشونة ، ثم منه إلى شلبر ثم منه إلى حصن أركش ثم منه إلى قرية تعرف بقرية القشمة من قرى مدينة ابن السليم ، ثم منها إلى جزيرة طريف ، وذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من الشهر المؤرخ .

فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثاني ، يسَّر الله علينا في عبور البحر إلى قصر مصمودة[1] تيسيراً عجيباً ، والحمد لله . ونهضنا منه إلى سبتة غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه ، وألفينا بسبتة مركباً للروم الجنويين مُقْلعاً إلى الإسكندرية فسهل الله علينا الركوب فيه ، وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير بحول الله تعالى وعونه لا ربَّ غيره .

وكان طريقنا في البحر محاذياً لبر الأندلس ، وفارقناه يوم الخميس السادس لذي القعْدَة بعدهُ عندما حاذينا دانيةَ ، وفي صبيحة يوم الجمعة قابلنا برَّ جزيرة يابسة ، ثم يوم السبت بعده قابلنا برَّ جزيرة ميورْقَةَ ، ثم يوم الأحد بعده جزيرة منوْرقَة ، ومن سبتة إليها نحو ثمانية مجارٍ والمجرى مئة ميل . وفارقنا برَّ هذه الجزيرة المذكورة .

---

(١) وهو رأس شمال إفريقية المواجه للأندلس .

وقـام معنـا برٌّ جـزيرة سَرْدَانَيـةَ أول ليلـة الثـلاثـاء الحـادي عشر من الشهر المذكور دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل فكان قطعاً مستغرباً في السرعـة . وطرأ علينا من مُقَابلَةَ البرِّ في الليل هوْلٌ عظيم عَصَمَ الله منـه بريح أرسلهـا في الحين من تلقاء البر ، فأُخْرِجنا عنه والحمد لله على ذلك . وأقـام علينـا نَوْءٌ[٢] هـال لـه البحر صبيحـةَ يوم الثلاثـاء المـذكور فبقينـا مُتردّدين بسببـه حول برّ سردانيـّةَ إلى يـوم الأربعاء بعدَه ، فأطْلعَ الله في حال الوحْشةِ وانغلاقِ الجهات بالنوْء ، فلا نميز شرقاً من غرب ، مركباً للروم قصدنا حتى حاذانا فسُئِلَ عن مقصدِه فأخبرنا أنـه يريـد جزيرة صقليّةَ ، وأنه من قرطاجةَ عَمَلِ مرسيّة . وقد كنـا استقبلنـا طريقـه التي جاء منها من غير علم ، فأخذنا عند ذلك في اتباع أثره والله الميسر لا ربٌّ سواه .

فخرج علينا طرَفٌ من بر سردانية ، فأخذنا في الرجوع عوداً على بـدء إلى أن وصلنا طرفاً من البر المذكور ، ويُعْرف بقوسْمرْكَـةَ ، وهو مرسىً معروف عنـدهم ، فأرسينا به ظهر يوم الأربعاء المذكور والمركب المـذكور معنـا . وبهـذا الموضع أثرٌ لبنيـانٍ قـديم ذكر لنـا أنّـه كان منزلاً لليهود فيما سلف . ثم أقلعنـا منـه ظهر يـوم الأحد السادس عشر من الشهر المذكور . وفي مدة مقامنا بذلك المرسى جدّدنا فيـه الماءَ والحطبَ والزَّادَ . وهبط واحدٌ من المسلمين ممّن يحفظ اللسان الرومي مع جملة من الروم إلى أقرب المـواضـع المعمـورة منـا . فـأَعْلَمَنـا أنـه رأى جُملـةً من أسرى المسلمين نحو الثمانين بين رجـال ونسـاء يبـاعون في السوق وكان ذلـك عنـد وصول العدوّ بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين والله يتداركهم برحمته .

ووصل إلى المرسى المذكور يوم الجمعـة الثـالث من يوم أرسيْنـا فيـه سلطـانُ الجزيرة مع جملـةٍ من الخيل ، فنزل إليـه أشيـاخُ المركب من الروم ، واجتمعـوا بـه وطـال مُقـامُهم عنـده ، ثم انصرفوا وانصرف إلى موضـع سُكْنـاهُ . وتركنـا المركب

---

(٢) نوء : عاصفة .

المذكور في موضع إرسائه بسبب مَغيب بعض أصحابه في البلد عند هبوب الريح الموافقة لنا .

وفي ليلة الثلاثاء الثامن عشر لذي القَعدة والخامس عشر من شهر مارس المذكور أيضاً وفي الربع الباقي منها فارقنا برَّ سردانيةَ . وهو برّ طويل جرينا بحذائه نحو المئتي ميل . ومنتهى دور الجزيرة على ما ذُكِرَ لنا إلى أزيَدَ من خمس مئة ميل . ويسَّرَ الله علينا في التخلص من بحرها لأنه أصعبُ ما في الطريق ، والخروج منه يتعذَّر في أكثر الأحيان .

وفي ليلة الأربعاء بعْدها من أوَّلها عصفت علينا ريحٌ هالَ لها البحر ، وجاء معها مطرٌ تُرسلُهُ الرياح بقوة ، كأنه شآبيبُ سهامٍ ، فعَظُمَ الخطْبُ واشتدَّ الكرب وجاءنا الموجُ من كل مكان أمثالَ الجبال السايرة فبقينا على تلك الحالة الليل كلَّه واليأسُ قد بلغ منا مبْلَغَهُ . وارتجيْنا مع الصباح فرْجَةً تُخففُ عنا بعض ما نزل بنا ، فجاء النهار بما هو أشد هوْلاً وأعظمُ كرباً ، وزادَ البحر اهتياجاً ، وأزيدتِ الآفاق سواداً ، واستشْرتِ الريحُ عُصوفاً حتى لم يثْبتْ معها شِراعٌ ، فَلُجئَ إلى استعمال الشروع الصِّغار . فأخذت الريحُ أحدها ومزَّقته وكسَّرتِ الخشبة التي ترتبطُ الشُّرعُ فيها ، وهي المعروفة عندهم بالقريَّةِ . فحينئذٍ تمكَّنَ اليأسُ من النفوس ، وارتفعت أيدي المسلمين بالدُّعاء إلى الله عزَّ وجلَّ . وأقمنا على تلك الحالةِ النهارَ كلَّهُ . فلما جَنَّ الليلُ فترت الحال بعض فتورٍ وسرنا في هذه الحالة كلِّها بريحِ السواري[٣] سيراً سريعاً . وفي ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقليَّةَ ، وبتنا تلك الليلةَ التي هي ليلة الخميس متردِّدين بين الرجاء واليأس . فلما أسفر الصبح نشرَ الله رحمته ، وأقشَعَتِ السَّحابُ وطاب الهواءُ وأضاءتِ الشمس ، وأخذ في السكون البحرُ ، فاستبشر الناس وعادَ الأنسُ وذهبَ اليأس ، والحمد لله الذي أرانا عظيم قدرته ، وتلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته ، حمداً يكون كفاءً لمنَّته

(٣) بريح السواري أي بعد لف كل الشُّرع لعدم جدواها بسبب جنون البحر وهياجه .

ونعمته . وفي هذا الصباح المذكور ظهر لنـا برٌّ صقليـةَ وقـد اجتزنـا أكثره ولم يبق منه إلاّ الأقلُّ ، وأجمع من حضر من رؤساء البحر من الروم ، وممّن شاهد الأسفـار والأهوال في البحر من المسلمين ، أنهم لم يعاينوا قـطُّ مثل هـذا الهول فيا سلف من أعمارهم والخبرَ عن هذه الحالة يصغُر في خبرها .

وبين البرَّين المـذكـورين بر سردانيْـةَ وبر صقليَّـةَ نحـو الأربـع مئـة ميـل ، واستصحبنا من بر صقلية أزيَـدَ من مئتي ميل . ثم تردَّدنـا بحـذائـه بسبب سكون الريح ، فلما كان عصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من الشهر المذكور أقْلعنـا من الموضع الذي كنا أرسيْنا فيه . وفارقنـا البر المـذكور أوّلَ تلـك الليلـة ، وأصبحنـا يوم السبتِ وبيننا وبينه مسافةٌ بعيدةٌ ، وظهر لنا إذ ذاك الجبلُ الذي فيه البركان وهو جبل عظيم مُصعّدٌ(٤) في جو السماء قد كساه الثلج . وأعلمنا أنه يظهر في البحر مع الصحو على أزيَدَ من مسيرة مئة ميل ، فأخذنا مُلَجّحين وأقرب مـا نؤمّلـهُ من البر إلينـا جـزيرةُ أقْريطُش ، وهي من جـزائر الروم ، ونظرهـا إلى صـاحب القسطنطينيَّـة ، وبينهـا وبين جزيرة صقليَّـةَ مسيرةُ سبع مئـة ميل ، والله كفيل بالتيسير والتسهيل بمنّهِ .

وفي ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من الشهر المذكور حـاذينـا برَّ أقريطُشَ تقديراً لا عياناً . وفي صبيحة اليوم المذكور فارقناه متوجهين لقصدنا . وبين هـذه الجزيرة المذكورة وبين الإسكندرية ست مئة ميل أو نحوها .

وفي صبيحة يوم الأربعاء السادس والعشرين منه ظهر لنـا البرُّ الكبير المتصل بالإسكندرية المعروف ببر الغرب ، وحاذينا منه موضعاً يعرف بجزائر الحمّام(٥) على مـا ذُكر لنـا ، وبينـه وبين الإسكنـدريـة نحو الأربع مئـة ميل على مـا ذكرنـا ، فأخذنا في السير والبر المذكور منا يميناً .

---

(٤) مصعد : مرتفع .

(٥) جزائر الحمام : تقع بين السلوم وطبرق أي تجاه الحدود المصرية الليبية .

وفي صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلاً ، والحمد لله على ذلك حمداً يقتضي المزيد من فضله وكريم صُنعِه . وفي آخر الساعة الخامسة منه كان إرساؤنا بمرسى البلد ، ونزولنا أثر ذلك ، والله المستعان فيما بقي بمنّه . فكانت إقامتنا على متن البحر ثلاثين يوماً ...

وكان نزولنا بها بفندق يعرف الصفّار بمقربةٍ من الصبّانة .

النص الثاني

الجمرك المصري في آخر القرن الثاني عشر

لا تستطيع طبيعة مذكرات ابن جبير اليومية نفسها أن تهمل ذكر كل المنغّصات ، الصغيرة منها والكبيرة ، التي عاناها رحالتنا في ذلك العصر ، سواءً من ناحية الطبيعة أم من ناحية بني الإنسان . وإليكم ذكر المزعجات التي احتملها ابن جبير في الإسكندرية على أيدي موظفي المكوس قبل ثمانية قرون من الزمن :

« من أوّل ما شاهدناه في الإسكندرية يومَ نُزولنا أنْ طلعَ أمناءُ إلى المركبِ من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جُلِبَ فيه ، واستحضِرَ جميع من كان به من المسلمين واحداً واحداً ، وكُتبَتْ أسماؤهم وصفاتُهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلعٍ وناضٍ ليؤدي زكاةَ ذلك كلّه دون أن يبحثَ عمّا حال عليه الحوْلُ من ذلك[٦] ، أو لم يَحُلْ ، وكان أكثرهم مُتشخّصين لأداء الفريضة ، لم يستصحبوا سوى زادٍ لطريقهم فلُزِّموا أداء زكاة ذلك . واستنزل أحمدُ بنُ حَسّان[٧]

(٦) كي تتوجب الزكاة على الأموال المنقولة يجب أن يكون قد مضى عليها في حوزة أصحابها مدة سنة كاملة بعد استيفاء الزكاة الأولى السابقة ، والناض : الدراهم والدنانير .

(٧) طبيب غرناطي ، صديق ابن جبير ورفيقه في رحلته .

منّا ليسألَ عن أنباء المغرب ، وسلع المركب وطيفَ به مُرقَّباً على السلطان ، ثم على القاضي ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفي كلٌ يُستفهم ، ثم يقيِّد قولُه فخلِّيَ سبيلُه . وأمِرَ المسلمونَ بتنزيل أسبابهم . وما فَضَلَ من أزْوِدتهم ، وعلى ساحل البحر أعوانٌ يتوكّلونَ بهم ، وبحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان ، فاستدعوا واحداً واحداً ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوانُ قد غَصَّ بالزِّحام ، فوقع التفتيشُ لجميع الأسباب ، ما دقَّ منها وما جَلَّ ، واختَلطَ بعضُها ببعض ، وأدْخِلتِ الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها . ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غيرُ ما وجد لهم أم لا ، وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثُر الزِّحام ، ثم أطلقوا بعد موقفٍ من الذل والخِزْيِ عظيم نسأل الله أن يعظِّم الأجر بذلك . وهذه لا محالةَ من الأمور الملبَّسِ فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين[٨] ، ولو علم بذلك على ما يؤثَرُ عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك ، وكفا الله المسلمين تلك الخطّة الشاقّة ، واستُؤدوا[٩] الزكاةَ على أجمل الوجوه[١٠] ، وما لقينا ببلاد هذا الرجل ما يُلِمُّ به قبيحٌ لبعض الذكر ، سوى الأحدوثة التي هي من نتائج عمّالِ الدواوين …

ذكر ما استدرك خبره

وذلك أنّا لما حَلَلْنا الإسكندرية في الشهر المؤرّخ أولاً ، عاينّا مجتمعاً من الناس عظيماً ، بروزاً لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق . فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا

(٨) سلطان مصر وسورية ومؤسس الأسرة الأيوبية وقد حكم من عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م إلى ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م . وقد برز خلال الحروب الصليبية وضريحه مشهور بدمشق .

(٩) صيغة المجهول لفعل استأدى أي طولب بدفع رسم ، أو أداء ضريبة .

(١٠) مفردها وجه أي أسلوب ، طريقة .

بأمر تتفطَّر له الأكباد إشفاقاً وجزعاً . وذلك أن جملة من نصارى الشام[11] اجتمعوا وأنشؤوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر القلزُم ، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب[12] المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر سمَّروا مراكبهم وأكملوا إنشاءها وتأليفها ودفعوها في البحر وركبوها قاطعين بالحجاج ، وانتهوا إلى بحر النِّعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركباً . وانتهوا إلى عيذاب فأخذوا فيها مركباً كان يأتي بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضاً في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يُحْيوا أحداً . وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدَّة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله . وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام ، ولا انتهى رومي إلى ذلك الموضع قط .

ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ﷺ ، وإخراجه من الضريح المقدس . أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم فأخذهم الله باجترائهم عليه وتعاطيهم ما تحول عناية القدر بينهم وبينه . ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم . فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد المغاربة البحريين . فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم . وكانت آية من آيات العنايات الجبارية ، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان نيف على شهر ونصف أو حوله . وقتلوا وأسروا ، وفُرِّق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ، ووجه منهم إلى مكة والمدينة . وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً ، والحمد لله رب العالمين ...

---

(١١) أي الصليبيين .

(١٢) أي البدو .

مواقف خزي ومهانة

وببلاد الصعيد المتعرِّضة في الطريق للحُجَّاج والمسافرين ، كإخميم وقوص ومنية بن الخصيب من التعرُّض لمراكب المسافرين وتكشُّفها ، والبحث عنها ، وإدخال الأيدي إلى أوساط التجار فحصاً عما تأبَّطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير ما يقبُحُ سماعُه وتُستَبشَعُ الأحدوثةُ عنه ، كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاةِ لمحلِّها ، أو ما يُدْرِكُ النِّصابَ منها . وربما ألزموهم الأيْمانَ على ما بأيديهم وهل عندهم غير ذلك ويُحضِرون كتاب الله العزيز يقعُ اليمين عليه ، فيقف الحجَّاجُ بين أيدي هؤلاء المتناولين لها مواقفَ خزي ومهانة تذكرهم أيام المكوسِ .

وهذا أمرٌ يقع القطْعُ على أن صلاح الدين لا يعرفه ، ولو عرَفه لأمر بقطْعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ، ولجاهدَ المتناولين له فإن جهادَهم من الواجبات لما يصدُرُ منهم من التعسُّف وعسير الإزهاق وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا إلى الله عز وجل ، وخرجوا مهاجرين إلى حرمه الأمين .

ولو شاء الله لكانت هذه الخُطَّة مندوحةً[١٣] في اقتضاء الزكاة على أجمل الوجوه ، من ذوي البضائع في التجارات مع مراعاة رأس كل حولٍ الذي هو محلُّ الزكاة ، وبتجنُّبِ اعتراضِ الغرباء المنقطعين ممَّن تجب الزكاة له لا عليه ، وكان يُحافظ على جانب هذا السلطانِ العادل الذي قد شمل البلاد عدْلُه ، وسار في الآفاق ذكره ، ولا يسعى فيما يُسيءُ الذِّكر ممن قد حسَّن الله ذكره ، ويُقبح المقالة في جانب من أجملَ الله المقالة عنه . ومن أشنعَ ما شاهدناه في ذلك خروج شِرْذمَةَ من مرَدَةِ أعوان الزكاة ، في أيديهم المسالُّ الطوالُ ذوات الأنصبةِ ، فيصعدون إلى المراكب استكشافاً عمّا فيها ، فلا يتركون عكْماً ولا غرارةً إلاّ ويتخللونها بتلك المسالِّ الملعونةِ ، مخافة أن يكون في تلك الغرارة أو العكم اللذين لا يحتويان سوى

---

(١٣) مندوحة في : سبباً في .

على الزاد شيءٌ غيبَ عليه من بضاعةٍ أو مالٍ ، وهـذا أقبح مـا يؤثر في الأحـاديث الملعَّنـةِ . وقـد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن كشف لمـا يُرجى بستْر العـونِ دونه من حالٍ ، لا يريد صاحبها أن يُطَّلَعَ عليه ، إمـا استحقـاراً أو استنفـاسـاً ، دون بخلٍ بواجبٍ يُلْزِمُهُ الله الآخذُ على أيـدي هؤلاء الظَّلَمـةِ بيـد هـذا السلطـان العادل وتوفيقه إن شاء الله .

النص الثالث

اجتياز صحراء القصير والبحر الأحمر

لقد صعد ابن جبير في وادي النيل ابتداء من الإسكندرية حتى قوص ، القريبة من قنا ، ثم قطع الصحراء العربية حتى مرسى عيذاب ، على البحر الأحمر ، كي يقطع البحر المذكور متجهاً إلى جدة . وسنرى من خلال النبذة التالية مقدار خطر مثل هذه الرحلة .

كان وصولنـا إلى قوصٍ يومَ الخميس الرابع والعشرين لمحرَّمٍ المؤرخ وهو التـاسع عشر من مايه ، فكان مقامنا في النيل ثمانية عشر يوماً ، ودخلنا قوصَ في التـاسع عشر ، وهذه المدينةُ حفيلةُ الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلْق لكثرة الصـادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنـديين وتجـار أرض الحبشـة ، لأنهـا محـطٌّ للجميع ومحـط للرحـال ومجتمع الرفـاق وملتقى الحجـاج المغـاربـة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوِّزون بصحراء عيذاب ، وإليها انقلابهم في صدَرهم من الحج ، وكان نزولنا فيها بفندُقٍ ينسب لابن العجمي بـالمنيَـةِ وهي ربض كبير خارج المدينة على باب الفندق الكبير .

شهر صفر

استهـلَّ هـلال شهر صفرٍ ليلـة الأربعـاء ونحن بقـوص ، نرومُ السفر إلى

عيذابَ ، يسَّر الله مرامنا بمَنّه وكرمه . وفي يوم الاثنين الثالث عشر منـه أخرجنـا جميع رحالنا من زادٍ وسواهُ إلى المبرَزِ ، وهو موضعٌ بقبليِّ المدينة وبالمقربـة منهـا ، فسيحُ الساحةِ محدقٌ بالنخيل ، يجتمع فيه رجالُ الحجّـاج والتجـار ، وتُشـدُّ فيـه ، ومنه يستقلونَ ويرحلون ، وفيه يوزَنُ ما يحتاجُ وزنه على الجمَّالين ، فلمـا كان أثرَ صلاة العشاء الآخرة رفعنا منه إلى ماءٍ يعرف بالحاجِرِ ، فبتنـا فيـه وأصبحنـا يوم الثلاثاء بعدهُ مقيمين به بسبب تفقد بعض الجمَّـالين من العرب لبيوتهم ، وكانت على مقربة منهم .

وفي ليلـة الخـامس عشر منـه ونحن بـالحـاجر خسف القمر خسوفـاً كليـاً أوَّلَ الليل وتمادى إلى هدءٍ منـه . ثم أصبحنـا يوم الأربعـاء المـذكور ظـاعنين ، وقِلنـا بموضع يعرف بقلاعِ الضِّيـاع ، ثم كان المبيتُ بموضع يعرف بمحطَّـةِ اللُّقيطـةِ ، كل ذلك في صحراءَ لا عمارةَ فيها .

ثم غدوْنا يوم الخميس فنزلنا على ماءٍ للعبدين ويُذكر أنهما ماتا عطشـاً قبل أن يَرداهُ فسمي ذلك الموضع بهما وقبرهمـا بـه رحمهما الله ، ثم تزودنـا منـه المـاء لثلاثـة أيام ، وفوَّزنا سحرَ يوم الجمعة السـابع عشر منـه ، وسرنـا في الصحراء نبيتُ منهـا حيثُ جنَّ علينـا الليل والقـوافـل العيـذابيَّـة والقـوصيَّـةُ صـادرة وواردةٌ والمفـازةُ معمورةٌ أمناً .

فلما كان يوم الاثنين الموفي عشرين منه نزلنا على ماء بموضع يعرف بـدَنْقـاشَ وهي بئر معينةٌ يردُ فيها من الأنعامِ والأنامِ مـا لا يُحصيهم إلاّ الله عز وجل . ولا يسافَرُ في هذه الصحراء إلاّ على الإبل لصبرهـا على الظمأ . وأحسنُ مـا يستعين بـه ذوو الترفيـه الشقـاذيفُ ، وهي أشبـاهُ المحـامـل ، وأحسـنُ أنـواعهـا اليمانيَّـة لأنهـا كالأشاكين[١٤] السَّفريـة مجلـدةٌ متسعـة ، يوصلُ منـه الاثنـان بـالحبـال الوثيقـة ،

(١٤) مفردها أشكان . وربما يعود أصلها للكلمة الإسبانية أسكانو escano ومعناها المقعد المجهز بسنادة للظهر ، أو تختروان .

ويوضـع على البعير ، ولها أذرع[١٥] قـد حفّت بـأركانها ، يكـونُ عليها مظلّـةٌ ، فيكون الراكبُ فيها مع عـديلـه في ركنٍ من لفح الهـاجرة ، ويقعـدُ مستريحاً في وطائه ومتّكئاً ، ويتناول مع عديله ما يحتاج إليـه من زادٍ وسواه ، ويطـالع متى شاء المطالعة في مصحفٍ أو كتـاب ، ومن شـاء ممن يستجيز اللّعبَ بـالشطرنج أن يُلاعب عديله متفكّهاً وإجماماً للنفس لاعبَهُ[١٦] ، وبـالجملـة هي مُريحـةٌ من نَصبِ السفر وأكثر المسافرين يركبون الإبلَ على أحمالهـا فيكابـدون من مشقـة سمومِ الحرِّ عنتاً ومشقةً .

وفي هذا الماء وقعت بين بعض جمّالي العرب اليمانين أصحـاب طريق عيـذاب وضُمّانها وهم من بَلَيّ[١٧] من أفخـاذ قضـاعـة وبين بعض الأغزازِ[١٨] بسبب التزاحم على الماء مهاوشةٌ كادت تقضي إلى الفتنةِ ثم عصم الله منها . والقصد إلى عيذاب من قـوصٍ على طريقين إحـداهمـا أقصر مسـافـةً من الأخرى ، وهي التي سلكنـاهـا ، ومجتمعُ هاتين الطريقين على مقربة من ماء دنقـاش المـذكور[١٩] .. ورُمنـا في هـذه الطرق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكّن لنـا ، ولاسيا القوافل العيـذابيـة لسلَعِ الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذابَ .

وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمالَ الفُلْفلِ ، فلقد خيلَ إلينا لكثرته أنـهُ يوازي التُرابَ قيمةً . ومن عجيب ما شاهدناهُ بهذه الصحراء أنك تلتقي بقـارعـة الطريق أحمـال الفلفلَ والقرفـةِ وغيرهمـا من السلع مطروحـةً لا حـارسَ لهـا ، تُتْرك بهـذا السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعـذار ، وتبقى بموضعهـا إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المارّة عليها من أطوار الناس ...

---

(١٥) عوارض ، قطع من خشب .

(١٦) ومن شاء أن يلاعب عديله .. لاعبه .

(١٧) فخذ من قبائل قضاعة .

(١٨) جمع غزوهم أتراك كانوا يكلفون بحراسة قوافل الحجاج .

(١٩) ويتلو ذلك ذكر عدد من الابار التي تقع في نهاية المرحلة .

أحفل مراسي الدنيا

فلمّا كان عشيٌّ يوم السبت[٢٠] دخلنا عيذاب ، وهي مدينة على ساحل بحر جُدَّةَ غير مسورة ، أكثر بيوتها الأخصاصُ ، وفيها الآن بناءٌ مستحدثٌ بالجصِّ . وهي من أحفل مدن الدنيا بسبب أنَّ مراكب الهند واليمن تحطُّ فيها وتقلع منها زائداً على مراكب الحجَّاج الصادرة والواردة . وهي في صحراءَ لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شيءٌ إلاّ مجلوب . ولكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرْفقٍ كثيرٍ ، ولاسيا مع الحاجِّ[٢١] ، لأنَّ لهم على كل حَمْلِ طعامٍ يجلبونه ضريبةً معلومةً حفيفة المؤونةِ ، بالإضافة إلى الوظائف المكوسيَّة التي كانت قبل اليوم التي ذكرنا رفعَ صلاح الدين لها . ولهم أيضاً من المرافق من الحاجِّ إكراءُ الجلاب منهم ، وهي المراكبُ ، فيجتمعُ لهم من ذلك مالٌ كثير في حملهم إلى جدةَ ، وردِّهم وقتَ انفضاضهم من أداء الفريضة . وما من أهلها ذوي اليسار إلاّ من له الجَلْبةُ والجلبتانِ ، وهي تعود عليهم برزقٍ واسع سبحانَ قاسمِ الأرزاقِ على اختلاف أسبابها لا إلهَ سواه . وكان نزولنا بها في دارٍ تُنْسبُ لمولح أحد قوادها الحبشيِّين الذين تأثَّلوا بها الديارَ والرباعَ والحِلابَ ، وفي بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها ، وأوان الغوص عليه في هذا التاريخ المقيدة فيه هذه الأحرف ، وهو شهر يونيه العجمي والشهر الذي يتلوه ، ويستخرج منه جوهر نفيس ، له قيمة سنيَّة ، يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في الزوارق ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسمَ الله لكل واحد منهم بحسب حظِّه من الرزق .

والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد . ويستخرجونه في أصدافٍ لها أزواج

---

(٢٠) المصادف الثاني من ربيع الأول الخامس والعشرين من حزيران (يونيه) .

(٢١) قوافل الحجاج .

كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة . فإذا شقت ظهرت الشقتان من داخلها كأنها محارتان فضة ، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطّى عليها لحم كأنها محارتا فضة ، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطّى عليها لحم الصدف . فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق . فسبحانَ مقدّرها لا إله سواه . لكنهم ببلدة لا رطب فيها ولا يابس قد ألفوا بها عيش البهائم ، فسبحان محبّب الأوطان إلى أهلها ، على أنهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس .

آفة الحجاج

والركوبُ من جدَّةَ إلى عيذاب آفةٌ للحجَّاج عظيمةٌ ، وذلك أن الرياحُ تُلقيهم على الأكثر في مراسٍ بصحارى تبعُدُ منها مما يلي الجنوبَ فينزلُ إليهم البجاةُ . وهم نوعٌ من السودان ساكنونَ بالجبال فيكرون منهم الجمال ، ويسلكون بهم غير طريق الماء ، فربَّما ذهب أكثرهم عطشاً ، وحُصِلَ على ما يتخلَّفه من نفقةٍ أو سواها ، وربما كان من الحجاج من يتعسَّفُ تلك المجهلةَ على قدميه ، فيضلُّ ويهلكُ عطشاً ، والذي يسلمُ منهم يصل إلى عيذاب كأنه منشرٌ من كفنٍ ، شاهدنا منهم مدَّةَ مُقامنا أقواماً قد وصلوا على هذه الصفةِ في مناظرهم المستحيلةِ وهيئاتهمُ المتغيِّرَة آيةً للمتوسِّمين . وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسي ، ومنهم من تساعده الريح إلى أن يحُطَّ بمرسى عيذابَ وهو الأقلُّ .

والجلابُ التي يصرِّفونها في هذا البحر الفرعوني ملفَّقةُ الإنشاء لا يستعملُ فيها مسمارٌ البتَّةَ ، إنما هي مخيَّطةٌ بأمراسٍ من القنبار[٢٢] ، وهو قشرُ جوزِ النَّارجيل يدْرسونهُ إلى أن يَتخيَّطَ ، ويفتلونَ منه أمراساً يخيِّطونَ بها المراكبَ ،

---

(٢٢) ألياف جوز الهند .

ويخلِّلونها بدُسُرٍ من عيدانِ النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجُلْبَةِ على هذه الصفة سقوها بالسَّمن أو بدُهنِ الخِرْوع أو بدهن القِرْشِ ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوتٌ عظيم في البحر يبتلع الغَرْقى فيه ، ومقصدُهُمْ بدهان الجلبةِ ليلين عودها ويرطبَ لكثرةِ الشِّعاب[٢٣] المعترضةِ في هذا البحر ولذلك لا يصرفونَ فيه المركب المسماريَّ . وعود هذه الجلاب يُجلبُ من الهند واليمن ، وكذلك القنبار المذكورُ . وأعجبُ أمر هذه الجلابِ أن شُرعَها منسوجةٌ من خوصِ شجَر المُقْلِ . فمجموعها متناسبٌ في اختلال البنية وَوَهنها ، فسبحان مسخِّرها على تلك الحال والمسلِّم فيها لا إله سواه .

ولأهل عيذابَ في الحجَّاج أحكامُ الطواغِيت[٢٤] ، وذلك أنهم يشحنونَ بهم الجلابَ حتى يجلس بعضهم على بعضٍ ، وتعودَ بهم كأنها أقفاصُ الدَّجاج المملوءةُ ، يحمل أهلها على ذلك الحِرْص والرغبةُ في الكراء حتى يستوفي صاحبُ الجلبةِ منهم ثمنها في طريقٍ واحدةٍ ، ولا يبالي بما يصنع بها البحر بعد ذلك ، ويقولون : علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح . هذا مثلٌ متعارفٌ عندهم . فأحقُّ بلاد الله بحسبَةٍ[٢٥] يكونُ السيفُ درَّتها هذه البلدةُ ، والأولى بمن يمكنه ذلك أن لا يراها ، وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق ، ويصل مع أمير الحاج البغدادي ، وإن لم يمكنه ذلك أولاً فيمكنه آخراً عند انفضاض الحاج ، يتوجه مع أمير الحاج المذكور إلى بغداد ومنها إلى مكة ، فإن شاء دخل منها إلى الإسكندرية ، وإن شاء إلى صقليَّة أو سواهما . ويمكن أن يجد مركباً من الروم يقلع إلى سبتة أو سواها من بلاد المسلمين . وإن طال طريقه بهذا التحليق فيهون لما يلقى بعيذابَ ونحوها .

---

(٢٣) جمع شعب : وهو الرصيف المرجاني .

(٢٤) جمع لكلمة طاغوت : معتد ، مستبد .

(٢٥) بتصحيح ، أو بإعادة النظام إلى نصابه . ومنها كلمة محتسب وهو الحاكم المسؤول عن الشرطة الأخلاقية بالأصل .

أهل عيذاب

وأهلها الساكنون من قبيل السودان يُعْرفونَ بالبجاةِ ، وهذه الفرقةُ من السودان أضَلُّ من الأنعام سبيلاً ، وأقلُّ عقولاً ، لا دِينَ لهم سوى حكمةِ التوحيد التي ينطقونَ بها إظهاراً للإسلام ، ووراءَ ذلك من مذاهِبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يُرضي ، ولا يَحِلُّ ، ورجالهم ونساؤهم يتصرَّفونَ عراةً إلاّ خِرَقاً يستُرونَ بها عوراتهم وأكثرهم لا يستتِرون . وبالجملَة فهم أمَّةٌ لا أخلاق لهم ولا جُناحَ على لاعِنِهِمْ .

أهوال بحر فرعون

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول ، وهو الثامن عشر من يوليه .. ركبنا الجلبة للعبور إلى جدَّة ، فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود الريح ومغيب النُّواتِيَّة ، فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء أقلعنا على بركةِ الله ، عز وجلَّ ، وحسن عونه المأمول . فكانت مدة المقام بعيذابَ ، حاشا يوم الاثنين المذكور ، ثلاثة وعشرين يوماً ، محتسبةً عند الله . عز وجل ، لشظف العيش وسوء الحال واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة ، وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى إلى النفس منه . فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام ، وماء يُشغِلُ المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله :

ماءٌ زُعاقٌ وجوٌّ كُلُّهُ لَهَبُ ...

فتمادى سيرنا في البحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الأول المذكور ويوم الأربعاء بعدهُ بريحٍ فاترةِ المهبِّ . فلما كان العِشاءُ الآخرةُ من ليلة الخميس ونحنُ قد استبشرنا برؤيةِ الطير المحلِّقَةِ من برّ الحجاز لمعَ برْقٌ من جهة البرّ المذكور ، ثم نشأ نوءٌ أظْلَمَ له الأفقُ إلى أن كسا الآفاق كلَّها ، وهبَّتْ ريحٌ شديدةٌ

صرّفتْ المركبَ عن طريقهِ راجعاً وراءَهُ وتمادى عطوفُ الرياح ، واشتدَّتْ حلكة الظلمة ، وعمّتِ الآفاق فلم ندرِ الجهةُ المقصودةَ منها إلى أن ظهر بعض النجوم فاستُدلَّ بها بعضَ الاستدلالِ وحُطَّ القلع إلى أسفل الدَّقَل ، وهو الصَّاري .

وأقمنا ليلتنا تلك على هولٍ يؤذنُ باليأسِ ، وأرانا بحر فرعون بعضَ أهوالِه الموصوفة إلى أن أتى الله بالفرجِ مقترناً مع الصباح . فسكنَ الريحُ وأقشعَ الغيمُ ، وأصحت السماءُ ، ولاحَ لنا برُّ الحجاز على بُعدٍ لا نُبْصِرُ منه إلاَّ بعض جباله ، وهي شرقاً من جدّةَ ، زعم ربّان المركب وهو الرائس ، أن بين تلك الجبال التي لاحت لنا وبرّ جدّة يومين ، والله يسهّل لنا كل صعب وييسر لنا كل عسير بعزّته وكرمه .

النص الرابع

ابن جبير : ملاحظ ممتاز وناقد عند اللزوم

بعد أن نزل ابن جبير في ميناء جدة بتاريخ ٤ ربيع الآخر عام ٥٧٨ هـ ، الموافق ٢٦ تموز (يوليه) ١١٨٣ م قصد مكة ، التي أقام فيها مدة تسعة أشهر . وكتب وصفاً عنها يشابه كثيراً وصف ابن رستة . ثم استأنف سفره إلى المدينة ، ثم اخترق صحراء النفوذ ووصل إلى العراق ، فزار بغداد ، فالموصل . ووصل دمشق عن طريق سورية الشمالية كي يستقر فيها مدة شهرين . وفي العاشر من رجب ٥٨٠ هـ / ١٨ تشرين الأول ١١٨٤ م ركب متن البحر من جديد قاصداً الأندلس ، فوصل إلى قرطاجنة ، بعد رحلة بحرية مليئة بالمخاطر والمغامرات ، بتاريخ ١٥ ذي الحجة ٥٨٠ هـ الموافق ١٥ آذار (مارس) ١١٨٥ م .

وكان ابن جبير يسجل في مذكراته اليومية ، خلال الرحلة الطويلة ، كل ما يلفت انتباهه ، ولكن بينا كانت الأوصاف التي يضفيها على الأشياء الجامدة تظل باهتة دوماً وفاقدة الحياة لشدة إيجازها ، كان ، على العكس ، يعرف كيف يطرح الأساليب التقليدية جانباً في كل مرة يحاول وصف مشاهد الجمهور المتحرك أو المجموعة الحية ، فكان يصف أو يعبر بصورة شخصية جداً ، وناجحة جداً ، عما تراه عيناه ، عينا رجل فطن ، وسنرى ذلك فيا يلي :

شهر رجب الفرد

استهل هلال الخميس الموفي عشرين لشهر أكتوبر بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين والأشراف أهل مكة ، ذكروا أنهم رأوه بطريق العمرة ومن جبل قعيقعان وجبل أبي قبيس ، فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير والقاضي ، وأما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد .

وهذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسمٌ من المواسم المعظَّمةِ ، وهو أكبر أعيادهم ولم يزالوا على ذلك قديماً وحديثاً يتوارثونه ، خَلَفٌ عن سلف ، مُتَّصلاً ميراثَ ذلك إلى الجاهلية ، لأنهم كانوا يسمونه مُنْصِل الأسنَّةِ ، وهو أحد الأشهر الحُرُم ، وكانوا يحرّمون القتال فيها ، وهو شهر الله الأَصَمُّ كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ .

العمرة الرجبية

والعمرة[٢٦] الرجبيَّة عندهم أختُ الوقفةِ العَرَفيَّةِ ، لأنهم يحتفلون فيها الاحتفال الذي لم يُسمع بمثله . ويبادرُ إليها أهل الجهاتِ المتصلة بها ، فيجتمعُ لها خلقٌ عظيم لا يُحصيهم إلاَّ الله . فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهدْ مرأى يستهدي ذكرَهُ غرابةً وعجباً . شاهدنا من ذلك أمراً يعجزُ الوصف عنه ، والمقصود منه الليلة التي يستهلُّ فيها الهلال مع صبيحتها . ويقع الاستعداد لها من قبيل ذلك بأيام ، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضَهُ على جهة الاختصار . وذلك أننا عاينًا شوارعَ مكةَ وأزقتها من عصر يوم الأربعاء ، وهي العشيَّةُ التي ارتُقِبَ فيها الهلال ، قد امتلأت هوادج مشدودةً على الإبل ، مكسوَّةً بأنواع كساء الحرير

(٢٦) العمرة ، أو الحج الأصغر ، تختلف عن الحج الأكبر إذ يمكن أن تتم في شهر ذي الحجة وغيره ولا تشتمل على كل مناسك الحج .

وغيرها من ثياب الكتّان الرفيعة ، بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم ، كلٌّ يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته ، فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات[٢٧] المتعمِّرينَ ، فسالت تلك الهوادج في أباطِح مكّة وشعابها ، والإبلُ قد زيِّنتْ تحتها بأنواع التزيين ، وأشعرت بغير هدىً بقلائدَ رائقةِ المنظر من الحرير وغيره ، وربما فاضت الأستار التي على الهوادج حتى تسحبَ أذيالها على الأرض .

ومن أغرب ما شاهدناه من ذلك هوْدج الشريفةِ جُمانةَ بنت فُلَيْتَةَ عمّةِ الأمير مُكْثِرٍ[٢٨] ، فإن أذيال ستره كانت تسحبُ على الأرض انسحاباً ، وغيره من هوادج حُرَمِ الأمير وحُرَم قواده إلى غير ذلك من هوادجَ لم نستطع تقييد عدَّتها عجزاً عن الإحصاء . فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة فيُخيَّلُ للناظر إليها أنها مَحَلَّةٌ قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق . ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلاَّ من خرج للعمرة من أهلها ومن المجاورين ، وكنا في جملة من خرج ابتغاءَ بَركةِ الليلةِ العظيمة . فكدنا لا نتخلَّصُ إلى مسجد عائشة من الزحام ، وانسداد ثنياتِ الطريق بالهوادج ، والنيرانُ قد اشتعلت بحافتي الطريق كلِّه ، والشمعُ يتقدُ بين أيدي الإبلِ التي عليها هوادجُ مَنْ يُشار إليه من عقائل نساء مكةَ .

فلما قضينا العُمْرةَ وطفنا وجئنا للسّعي بين الصفا والمروة[٢٩] ، وقد مضى هُدءٌ من الليل ، أبصرناه[٣٠] كلُّه سُرجاً ونيراناً ، وقد غصَّ بالساعين والساعياتِ على هوادجهنَّ ، فكُنا لا نتخلَّصُ إلا بين هوادجهن وبين قوائم الإبلِ لِكُثرةِ الزحام واصطكاك الهوادجِ بعضها على بعضٍ . فعاينَّا ليلةً هي أغربُ ليالي الدنيا فمن لم يعاين ذلك لم يُعاينْ عجباً يحدِّثُ به ، ولا عجباً يذكِّرُهُ مرأى الحشر يوم القيامة

---

(٢٧) ميقات : من وقت ، وتعني زمان ومكان الالتقاء . أما المواقيت فتعني الأمكنة التي يجب على الحجاج أن يحرموا فيها .

(٢٨) أمير مكة في زمن حج ابن جبير .

(٢٩) موقعان قريبان من مكة يتوجب على الحاج أن يسعى بينهما سبع مرات مع توقف بعد كل مرة .

(٣٠) الضمير يعود لكلمة مسعى أي الفاصلة بين الصفا والمروة .

لكُثْرةِ الخلائق فيـه ، مُحرمين[٣١] مُلبّين[٣٢] ، داعين إلى الله عـز وجـل ضـارعين ، والجبالُ المكرمةُ التي بحافَّتي الطريق تجيبُهُم بصداها حتى سُكِّتِ المسامع ، وسُكِبَتْ من هوْل تلك المعاينة المدامعُ ، وذابت القلوبُ الخواشعْ .

وفي تلك الليلة مُلِئَ المسجدُ الحرام كلُّه سُرجاً فتلألأ نوراً . وعند ثبوت رؤية الهلال عنـد الأمير أمَرَ بضرب الطبول والـدَّبـادبِ والبـوقـاتِ إشعـاراً بـأنها ليلـة الموسم .

فلما كانت صبيحـة ليلـةُ الخميس خرج إلى العُمْرة في احتفـالٍ لم يُسمعْ بمثلـه ، انْحشد لـه أهلُ مكـة عن بُكرة أبيهم ، فخرجوا على مراتبهم قبيلـةً قبيلـةً وحـارةً حارةً شاكِّين في الأسلحة فرْسـانـاً ورجَّـالـةً ، فـاجتمع منهم عـدد لا يحصى كثرةً ، يتعجَّبُ المعـاين لهم لوفورهم . فكانـوا يخرجـون على ترتيبٍ عجيبٍ ، فـالفرسـانُ منهم يخرجون بخيلهم ، ويلعبون بالأسلحةِ في أيديهم حِراباً وسيوفاً وجحفـاً ، وهم يُظهرون التطاعُنَ بعضهم لبعض ، والتضاربَ بـالسيوف والمـدافعـةَ بـالجَحِفِ التي يُسْتَجَنُّ بها . وأظهروا من الحِـذْقِ بـالثقـافِ كلُّ أمر مستغرب . وكانـوا يرمـون بالحراب إلى الهواء ويُبادرونَ إليها لقفاً بـأيـديهم ، وهي قـد تصوبتْ أسنَّتهـا على رؤوسهم ، هم في زحامٍ لا يمكن فيه المجالُ . وربمـا رمى بعضهم بـالسيوف في الهواء فيتلقَّفونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم ، إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده ، وأبناؤه أمامَه ، وقد قاربوا سنَّ الشباب ، والراياتُ تخفق أمامـهُ والطبول والـدبـادبُ بين يـديـه ، والسكينـة تفيض عليـه وقـد امتـلأت الجبـالُ والطرق والثنيَّاتُ بالنظَّارة من جميع المجاورين .

فلما انتهى إلى الميقاتِ وقضى غرضهُ أخذ في الرجوع ، وقـد ترتَّبَ العسكرانِ بين يديه على لعبهم ومرحهم ، والرجَّالةُ على الصِّفة المذكورة من التجـاولِ . وقـد

---

(٣١) أي تطهر وليس الإحرام وهو قماش أبيض غير مخيط .

(٣٢) منْ لبّى أي قال : « لبَّيك اللهم لبَّيك » .

ركبَ جملةً من أعراب البوادي نُجباً صهباً لم يُرَ أجملُ منها منظراً ، وركابها يسابقونَ الخيل بها بين يدي الأمير رافعين أصواتهم بالدُّعاء له والثناء عليه ، إلى أن وصلَ إلى المسجد الحرام ، فطافَ بالكعبة والقُرَّاءُ أمامهُ ، والمؤذِّن الزَّمزميُّ يغرِّدُ في سطح قُبَّة زمزمَ رافعاً عقيرتهُ بتهنئته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة . فلما فرغ من الطواف صلَّى عند الملتزم[٣٣] ، ثم جاء إلى المقام[٣٤] وصلَّى خلفه ، وقد أخرجَ له من الكعبة ، ووضعَ في قبَّتِه الخشبيَّةِ التي يصلَّى خلفها ، فلما فرغ من صلاته رُفعت له القُبة عن المقام ، فاستلمهُ وتمسَّحَ به ، ثم أعيدت القبَّةُ عليه ، وأخذ في الخروج على باب الصَّفا إلى المسعى . وانجُفل بين يديه فسعى راكباً والقوادُ مطيفونَ به ، والرَّجَّالةُ الحرَّابةُ أمامه . فلما فرغ من السَّعي استلَّت السيوفُ أمامهُ ، وأحدقتِ الأشياعُ به ، وتوجَّه إلى منزله على هذه الحالة الهائلة مُزحِفاً به ، وبقيَ المسعى يومه ذلك يموج بالساعين والساعيات .

بعض عوائد أهل دمشق

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبةٌ عجيبةٌ ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة بقرَّاء ، يقرؤون القرآن بأصوات شجيةٍ ، تكادُ تتخلَّعُ لها النفوس شجْواً وحناناً ، يرفعون أصواتهم بها ، فتتلقَّاها الآذانُ بأدمُعِ الأجفانِ . وجنائزهم يُصلَّى عليها في الجامع قبالةَ المقصورة ، فلا بدَّ لكل جنازة من الجامع فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها ، إلاَّ أن يكون الميِّتُ من أئمَّةِ الجامع أو من سدنته ، فإن الحالة المميِّزة له في ذلك أن يُدخِلوهُ في القراءة إلى موضع الصلاة عليه . وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بإزاء باب البريد ، فيصلُّون أفراداً أفراداً . ويجلسون وأمامهم رَبْعاتٌ من القرآن

---

(٣٣) الملتزم : جزء من جدار الكعبة بين بابها وبين الحجر الأسود .

(٣٤) أي مقام إبراهيم عليه السلام .

يقرؤونها ، ونقباءُ الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء ، لكل واصلٍ للعَزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم ، ويُحلُّونَهم[٣٥] بخططِهم[٣٦] الهائلة ، التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين ، فتسمعُ ما شئت من صدر الدين أو شمسه ، أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو مجيبه أو زَكيِّه أو نجيبه ، إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة ، وتتبُّعها[٣٧] ولا سيما في الفقهاء ، بما شئت أيضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة ، وحُجَّة الإسلام وفخر الشريعة وشرف المِلَّةِ ومُفْتي الفريقين إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحاليَّةِ . فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة ساحباً أذياله من الكبر ، ثانياً عطفه وقذاله ، فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة ، وانتهى المجلسُ بهم منتهاهُ ، قام وعاظُهم واحداً واحداً بحسب رُتبهم في المعرفة ، فوَعظَ وذكَّر ونبَّه على خُدعِ الدنيا . وحذَّر وأنشدَ في المعنى ما حضرَ من الأشعار . ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدُّعاء له وللمتوفَّى ثم قعد ، وتلاهُ آخرُ على مثل طريقته إلى أن يفرغوا ويتفرقوا . فربما كان مجلساً نافعاً لمن يحضُره من الذكرى .

ومخاطبةُ أهلَ هذه الجهات قاطبةً بعضهم لبعضٍ بالتمويل والتَّسويد وبامتثال الخدمةِ وتعظيم الحضرَةِ[٣٨] . وإذا لَقِي أحدٌ منهم آخرَ مُسلِّماً يقول : جاء المملوكُ أو الخادمُ[٣٩] برسمِ الخدمةِ كنايةِ السلام . فيتعاطونَ المحالَ تعاطياً ، والجِدُّ عنهم عنقاءُ مُغْربٌ ، وصفةُ سلامهم إيماءٌ للركوع أو للسجود ، فترى الأعناقَ تتلاعبُ بين رفعٍ وخفضٍ وبسطٍ وقبضٍ ، وربما طالت بهم الحالةُ في ذلك ، فواحد ينحطُّ

---

(٣٥) من فعل حلّى أي زيّن وعظّم .

(٣٦) خطة معناها هنا اللقب التبجيلي .

(٣٧) أي ... بالإضافة إلى الدين وبتتبعها بما شئت من ...

(٣٨) أي يا مولاي ، ويا سيدي ، وخادمكم ، وحضرتكم .

(٣٩) لا زال بعض الناس يجيبون على من يناديهم باسمهم بكلمة : خدّامك ومحسوبك ، وهذا ما يتنافى مع عزّة المؤمن ونخوة المسلم ، وشهامة العربي .

والآخر يقومُ ، وعمائمهم تهوي بينهم هَوِيّاً . وهـذه الحـالـة من الانعكاف الرّكوعيّ في السلام ، كنا عهدناهُ لقينات النساء وعنـد استعراضِ رقيقِ الإمـاء ، فيـا عجبـاً لهؤلاء الرجـال كيف تحلّوْا بسمات ربّـاتِ الحجـالِ[٤٠] ، وابتـذلوا أنفسهم فيما تـأنف النفوسُ الأبيّةُ ... لهم في الشأن طرائق عجيبة في الباطل . فيا للعجب منهم ، إذا تعاملوا بهذه المعاملـة وانتهوا إلى هـذه الغـايـة في الألفـاظ بينهم ، فبماذا يخـاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟ لقـد تسـاوت الأذنـابُ عنـدهم والرؤوس ، ولم يميز لـديهم الرئيس والمرؤوس ! فسبحان الله خالق الخلْق أطواراً ، لا شريك له ، ولا معبود سواه .

النص الخامس

في هـذا النص يصف لنـا ابن جبير حـالـة العرب المسلمين تحت حكم الصليبيين في فلسطين والساحل الشامي والظلم الذي كانوا يعانونه ، وها هو التاريخ يعيد نفسـه ولكن تحت حكم اليهود هـذه المرة ، بعد ثمانية قرون من الزمن .

مسلمو عكة :

ثم عـدنـا إلى عكـة (من صور) في البحر ، وحللنـاهـا صبيحـة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمـادى الآخرة ، وأول يوم من شهر أكتوبر ، واكترينـا في مركب كبير نروم الإقلاع إلى مسينة من بلاد جزيرة صقليـة ، والله تعـالى كفيل بالتيسير والتسهيل بعزته وقدرته . وكانت راحتنا مدة مقامنـا بصور بمسجـد بقي بأيدي المسلمين . ولهم فيها مسـاجد أخر . فأعلمنا به أحد أشيـاخ صور من المسلمين أنها أخذت منهم سنة ثماني عشرة وخمس مئة ، وأخـذت عكـة قبلهـا بـاثنتي عشرة سنة بعد محاصرة طويلـة وبعـد استيلاء المسغبـة عليهم ، ذكر لنـا أنهم انتهوا منهـا

---

(٤٠) السيدات النبيلات .

لحال نعوذ بـالله منهـا ، وأنهم حملتهم الأنفـة على أن همُّوا بركوب خطـة عصمهم الله منها ، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجـامع ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى[٤١] لهم ، ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمـة نـافـذة ويصدموهم صدمة صـادقـة حتى يموتوا على دم واحـد ويقضي الله قضـاءه . فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، وأجمعوا على دفع البلد والخروج منـه بسلام . فكان ذلـك ، وتفرقوا في بلاد المسلمين . ومنهم من استهواه حب الوطن ، فـدعـاه إلى الرجوع والسكن بينهم بعد أمان كتب لهم في ذلـك بشروط اشترطوهـا ، والله غالب على أمره ، سبحانه جلت قدرته ، ونفذت في البريـة مشيئتـه ، وليست لـه عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتـازاً ، وهو يجـد منـدوحـة في بلاد المسلمين ، لمشقّات وأهوال يعانيها في بلادهم : منها الذلّة والمسكنة والـذميـة ، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قـدس الله ذكره . وأعلى خطره ، لاسيما من أراذلهم وأسـافلهم ، ومنهـا عـدم الطهـارة ، والتصرف بين الخنـازير ، وجميـع المحرمات ، إلى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده ، فالحذر الحذر من دخول بلادهم ، والله تعالى المسؤول حسن الإقالة والمغفرة من هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم ، ولم تتـداركهـا إلا بعـد موافقـة النـدم ، فهو سبحـانـه وليُّ ذلـك ، لا رب غيره .

أسرى المسلمين : ومن الفجـائع التي يعـانيهـا من حلَّ بلادهم أسرى المسلمين يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخـدمـة الشـاقـة تصريف العبيـد ، والأسيرات المسلمين كـذلـك ، في أسواقهم خـلاخيـل الحـديـد فتنفطر لهم الأفئـدة ، ولا يغني الإشفاق عليهم شيئاً .

ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشاميـة الإفرنجيـة ، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشـاميـة وسواهـا ، إنما

---

(٤١) أي الصليبيين .

يعيُنها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل . فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم . فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل . وقد كان نو الدين[٤٢] ، رحمه الله ، نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة ، فلما استبلَّ من مرضه أرسل في فدائهم ، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة ، وكانوا من حماة من جملة عمالته ، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة ، وقال : هؤلاء يفتكُهم أهلوهم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لا أهل لهم . فانظر إلى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي .

وقيّض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء : أحدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي ، وتجارتها كلها بهذا الساحل الإفرنجي ، ولا ذكر فيه لسواهما ، ولهما أمناء من المقارضين ، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما ، وشأنهما في الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير ، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا ، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذه السبيل ، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما ، فهما طول الدهر بهذه السبيل ، ينفقان أموالهما ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين ، والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين .

---

(٤٢) ملك مجاهد وعظيم حكم بلاد الشام في أيام الحروب الصليبية ، عاش بين ٥١١ ـ ٥٦٩ هـ أو ١١١٨ ـ ١١٧٤ م .

ابْنُ المُجَاوِر

(٦٠١ هـ - ٦٩٠ ؟ أو ١٢١٢ م - ١٢٩١ ؟)

هو المحدث المؤرخ الشيخ نجم الدين ، أو جمال الدين ، أبو الفتح يوسف بن الصاحب يعقوب بن محمد بن علي الشيباني الدمشقي الكاتب . ولد بدمشق سنة ٦٠١ هـ ، ولكنه نشأ وترعرع في بغداد وسمع الكندي وعبد الجليل بن مندويه وجماعة . وكانت له صلات بالهند ، فقد أقام بعض الوقت في مدينة ملتان ، وفي عام ٦١٠ هـ عبر البحر من الديبل إلى عدن ، وكان في الجزيرة العربية على كل حال في عام ٦٢٧ هـ ، وهو التاريخ الذي يورده في مصنفه (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز) المسمى أيضاً (تاريخ المستبصر) الذي أنجزه كما يعتقد أكثر المؤلفين قبل عام ٦٣٠ هـ . بقليل ، وقد تفرد برواية (تاريخ بغداد) عن الكندي .

وكان ورعاً مصلياً إلا أنه كان يخدم في المكس كما ورد في صفحة ٣٧٠ من كتاب العبر في خبر من عبر . وكانت وفاته بتاريخ الثامن والعشرين من ذي القعدة ، ويفترض بعض المؤرخين والمؤلفين أن ذلك كان عام ٦٩٠ هـ ، ولكن الغالب على الظن أنه لقي وجه ربه قبل هذا التاريخ المذكور .

ويقدم لنا ابن المجاور معلومات قيمة عن سكان جنوب الجزيرة العربية حوالي العام ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) ، وكان على معرفة جيدة بالجغرافية الملاحية ، حتى أنه يورد شذرة نقلها عن مؤلف (كتاب الرهمانج) يدور فيها الكلام عن بعض أنواع طيور البحر التي تشير إلى الاقتراب من الساحل .

ويعتبر من أهم الذين كتبوا في الخفرافية الإقليمية في عصره ، مع أنه لم يكن من أبناء المناطق التي وصفها ، حتى إنه كان خبيراً ممتازاً في شؤون شبه جزيرة العرب وعلى الأخص الحجاز الأوسط .

وإجمالاً كان ابن المجاور كاتباً أصيلاً له طابعه الخاص به ، وربما يحتل المكانة الأولى فيما يتعلق بالملاحظات الأثنوغرافية . وقد طبع كتابه في ليدن سنة ١٩٥١ م .

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي رفع السماء عبرة للناظرين ، وبسط الأرض وجعل فيها آيات للموقنين ، وأودع في اختلاف الألسن والألوان باختلاف الأقاليم والبلدان بصائر المستبصرين ، وشواهد عموم رحمته وسبوغ نعمته للعالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى من خلقه في السموات والأرضين ، وعلى آله الطيبين وأصحابه أجمعين .

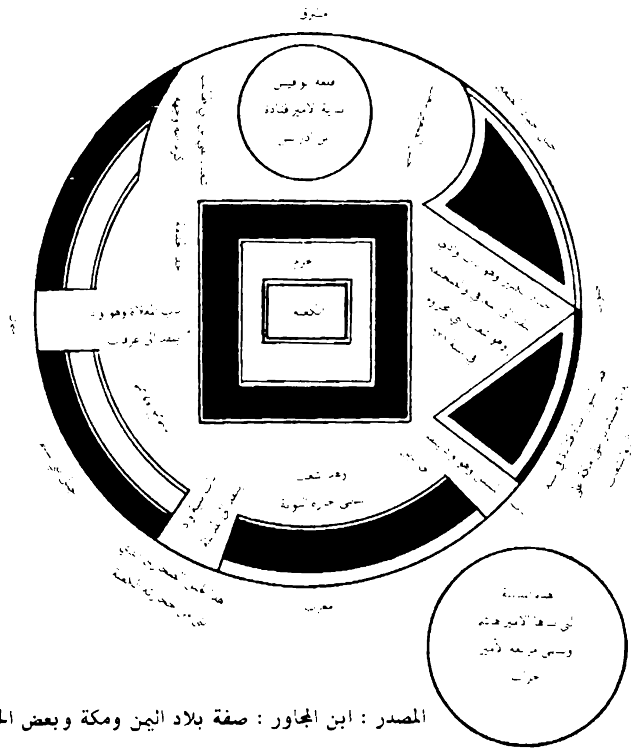
وبعد فإن فن التاريخ ولاسيا ما يتعلق بمعمورة الأرض ، وعروض بلادها ، وأطوالها ، وأوضاع مبانيها ، ومسافات مغانيها ، وتصوير أقطارها ، وتبيين أطوال أمصارها من أبدع الفنون وأغربها وأبعدها غوراً وأعجبها ، يجدّد لك أوراقه البالية المدائن الدارسة ، برصاصها وقصورها ، ويُجبي مواتَ فصولها وأبوابها القرون الطامسة ، في طيّ حروفها وسطورها .

هذا ولا مرية لذوي العقول والأديان في أن مكة زادها الله شرفاً أم القرى وسُرَّة الأرض المعمورة ، وأحب بلاد الله إلى الله ورسوله في السنن المشهورة . ثم أن أيمن ما حولها من البلدان وأبركها ، مملكة اليمن المخصوص بالبركات الثلاث النبوية ، في جواهر السنن منبع الحكمة ومعدن الفقه والإيمان في سالف الزمن . فخصصنا هذين القطرين في هذا الكتاب بذكر ما يتعلق بها في هذا الفن من بيان البقاع والبلاد والمدن والجبال والبحار وشرح المنازل والمغاني ومقادير المسافات في المفاوز والمقارّ ، ثم تصوير كل بقعة منه كأنك تراها رأي العين ، وتُوقَف بها على أرجائها فَيُغنيك ذلك عن الأيْن في البين . ولا يَعدم كل بقعة من نادرة جرت فيها من الأخبار ، وشعرٍ نُظم في سلكها قديماً من الأشعار . وهذا أوان الشروع في مقصود الكتاب ، وتسهيل الحجاب ، وفتح الباب ، والله ميسر الأسباب ، إنه كريم وهاب .

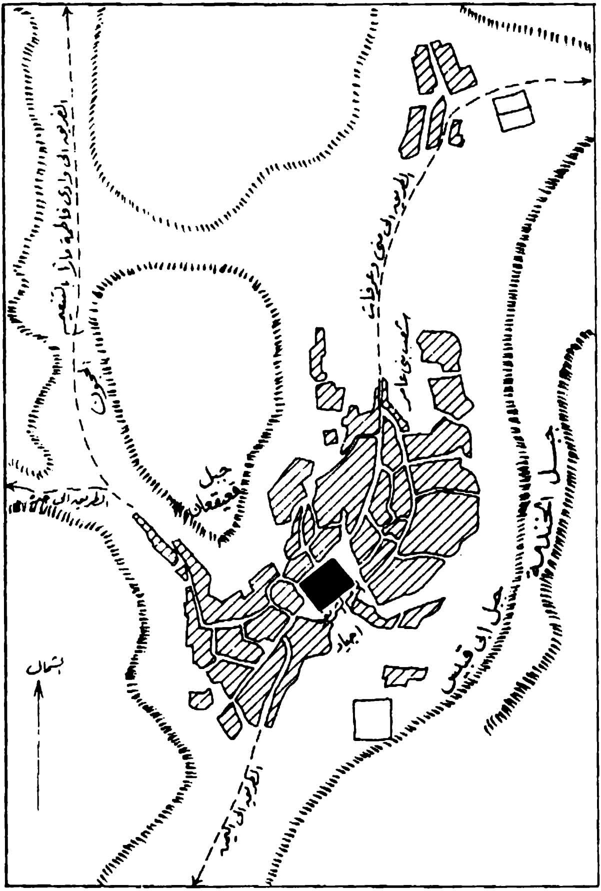
ذكر مكة وصفاتها

قال ابن المجاور : ومما قرأتُ في كتاب الفاكهي قال : قال لي رجل من أهل مكة ، قال : أعطاه كتاباً بعض أشياخه فإذا فيه أسماء مكة فإذا فيه مكتوب : بكة ومكة وبرّة وبسّاسة وأم القرى والحرم والمسجد الحرام والبلد الأمين . وقالوا ومن أسمائها صلاح ... وقال كانت تسمى في الجاهلية النشاشة ، لأنها تنشّ من

صورة مكّة شرّفها الله تعالى (على هذا الوضع والترتيب)



المصدر : ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز



الخريطة الطُبوغرافيّة لمكّة المكرمّة

المصدر : محمد هيكل - في منزل الوحي - ص ٢٠٨ - القاهرة ١٣٥٦ هـ

فيها ، أي تخرجه منها . قال ابن المجاور : وحدثني هندي بالهند أنها تسمى عند الهنود مكي مسير ...

ويسمونها التجار عروق الذهب ، ويسمونها البغاددة مربية الأيتام . وقد ذكر المسعودي في كتاب مروج الذهب أن مكة من الإقليم الثاني تنسب إلى المريخ ، وبناها إبراهيم الخليل عليه السلام . وهواها صحيح وجوها طيب وليلها أطيب من نهارها ، لأنها تنزل في لياليها الرحمة على من بها ، وماؤها من الآبار ، وأطيبها ماء الشبيكة والوردية والواسعة ، وهي بئر وراء جبل قبيس ، فيها يربح الفقير . وجميع ذلك بنته أم العزيز زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور .

وأهلها عرب وأشراف من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب ، وما بقي من أهلها قرشيين على مذهب الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وهم رجال سمر لأن جلّة مناكحهم الجوار السود من الحبشة والنوبة ، طوال الجثث صحيحين اللغة قليلين المال كثيرين العشائر والقبائل ذوو قناعة . وقد قال النبي ﷺ القناعة غنى . وقال عليه السلام : القناعة كنز لا ينفد ، وكان أحدهم يبقى على قرص وقليل سمن ثلاثة أيام بلياليها .

وملبسهم النصافي النيسابوري الرفيع ، ويتحزّم بنصفه الثاني ، ويُرمى بما فضل منها ، ولبس نسائهم القنوع والبراقع ، ومأكولهم اللحم والسمن والخبز . وأساميهم سالم ومسلم وغانم وغنام وفراح وفارح وقاسم وهياب ونهّاب ووثاب ومُطاع ومُطاعن وفرّج وخارج وقائم وضاحك وضحكان وسلاّل وفلاّل وسيّار وهبّار وراشد ورشّاد ورشد وشاكر ومشكر وفاضل وفضائل وطالب وظالب وواصل وحاصل وراجي ومرتجي وأرجح وناجح وفاتك ومالك ومهيوب وهيّاب ووهّاس ورعّاش وحوّاس وكنّاس وقادم ومقدم ومشمّر وهاني ومُهَنا وزاكي وطائب وظافر وناجي ومنجّي وجابر ولاحق وسيّار وصابر وجابر وعارس .

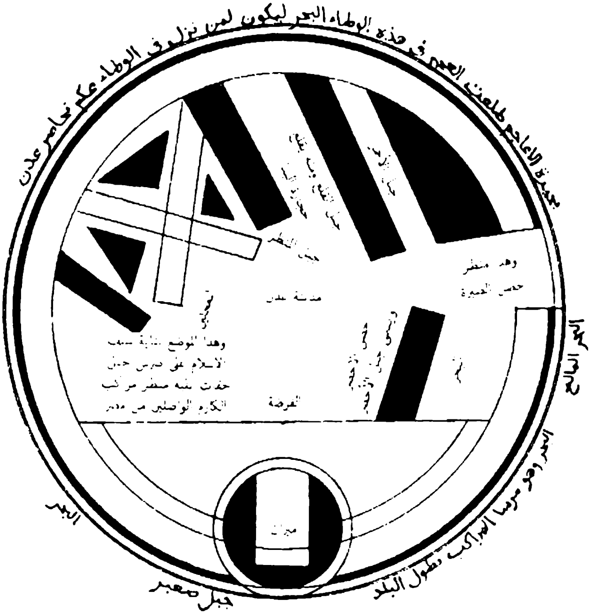
صفة باب المندب

لم يكن هذا البحر بحراً في قديم العهد أعني بحر القُلْزُم ، وإنما هو بحر مستجَدّ فتحه ذو القرنين ويقال بعض التبابعة . وكان الموجبُ على ما ذكره جماعة من أهل البلاد منهم الأمير أبو الطامي.جيّاش بن نجاح في كتاب « المفيد في أخبار زبيد » قال : لما وصل ذو القرنين إلى هذا الوادي نظر فوجد به شدة الحر ففتحه أي نقر صدر الوادي ، فخرج البحر وخرج عِرْق منه إلى القلزم ووقف عنده . ويقال : إن أرض الحبشة كانت متصلة ببلاد العرب فقال ذو القرنين : أردنا أن نفرق ما بين الإقليمين ليعرف كلّ صاحبه ويحوز كل أرضه وبلاده ، وينقطع ما بين القوم من التغلب والتعدّي . فلما فُتح البحر افترق الإقليمان ، كل إقليم بذاته ، فصارت الحبشة تخوض البحر بالخيل والرجل تغزو أرض العرب . وبنى بعض العرب على جبل المندب حصناً بعدَ ومدّ بسلسلة من بر العرب إلى بر الحبشة معارض يصل يمرّ تحت السلسلة حتى كان يخرج منه ويسافر إلى أي جهة شاء وأراد . وبقي الحصن على حاله إلى أن هدمه التبابعة ملوك الجبل ، ويقال : بنو زُريع ملوك عدن ، والأصح الحبشة ملوك زبيد ورُفعت السلسلة ، وبقي أثرها إلى الآن . ويقال : إن في ذلك الزمان ما كان لسفّارة البحر جواز إلاّ على باب المندب ، لأنه كان أغزر موضع في البحر . وكان ما بقي منه أفشات ووضح وبطون والأولاد يلعب الماء بها ، والآن صارت المراكب تسافر من وراء ظهره . وهو بحر عميق طويل عريض لكثرة المياه ، ونذكر ما بقي إذا وصلنا عدن . ويوجد في سواحله العنبر وغالب ما يجده الصيادون .

بناء عدن

لما انقطعت دولة الفراعنة خرب المكان بزوال دولتهم ، وسكن الجزيرة قوم صيادون ، يصيدون في المكان ، فكانوا على ما هم عليه زماناً طويلاً يترزقون الله

صورة عدن (على هذا الوضع والترتيب)



المصدر : ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز

في القوت والمعاش ، إلى أن قدم أهل القُمْر بمراكب وخلق وجمع وملكوا الجزيرة بعد أن أخرجوا الصيادين بالقهر ، وسكنوا على ذروة الجبل الأحمر وحُقّات وجبل المنظر وهو جبل يشرف على الصناعة . وآثارهم إلى الآن وبناؤهم باق بالحجر والجص ملء تلك الأودية والجبال ...

وكانوا يطلعون من القُمر يأخذون عدن رأساً واحداً في موسم واحد . قال

ابن المجاور : وماتت تلك الأمم مع تلك الرئاسة ، وانقطعت تلك الطريق ، ولم يبق أحد في زماننا يعلم مجرى القوم ولا كم كيف كانت أحوالهم وأمورهم .

قال ابن المجاور : ومن عدن إلى مقدشوه موسم ، ومن مقدشوه إلى كِلْوة موسم ثاني ، ومن كلوة إلى القُمر موسم ثالث ، فكان القوم يجمعون الثلاثة مواسم في واحد . وقد جرى مركب من القمر إلى عدن بهذا المجرى سنة ست وعشرين وستمئة ، أقلع من القمر وكان طالباً كلوة فأرسى بعدن . ولمراكبهم أجنحة[1] لضيق بحارهم ووعرها وقلة الماء بها . فلما ضعف القوم واستقرت عليهم البربر أخرجوهم منها وملكوا البلد وسكنوا الوادي ، موضع هو الآن عامر بصرائف وهم أول من بنى الصرائف بعدن[2] . وبعدهم خرب المكان وبقي على حاله إلى أن انتقلوا أهل سيراف من سيراف وقد تقدم ذكرهم . ووقع سلطان شاه بن جمشيد بن أسعد بن قيصر في عدن فنزل وتوطّن بها فانعمر الموضع بمُقامه ، وكان يجلب إليهم مياه الشرب من زيلع . فلما كثر الخلق بعدن بنوا بها الحمامات ، وبُني الحمام عند حبس الدم ، فسيل فغسل الأرض سنة اثنين وعشرين وستماية . وبنوا الجامع وذلك عند حمام المعتمد رضي الدين علي بن محمد التكريتي ، ووضع مربط الفيلة في سنة خمسة وعشرين وستماية . فملأ لحف الجبل الأخضر بالطول والعرض . فلما رأى ذلك تولى السلطنة .

صفة عدن وذكرها : بناء البلد في وادي البحر مستدير حوله[3] ، هواؤه كَرِبٌ ، ولكنه يقطع خلّ الخمر في مدة عشرة أيام ، وماؤها من الآبار وشيء يجلب من مسيرة فرسخين . والله أعلم .

---

(١) تدعى في المحيط الهادي المراكب ذات الميزان Abalancier .

(٢) جمع صريفة أي مسكن من الحصير والقش .

(٣) تقوم عدن في فوهة بركان اجتاحها البحر ولهذا دعي الحي القديم فيها حي الكراتر Crater أيام الاحتلال البريطاني .

ذكر وصول المراكب إلى عدن :

إذا وصل مركب إلى عدن وأبصره الناظرون والناطور على جبل نادى بأعلى صوته : هيريا ، وهو آخر جبل الأخضر الذي بني عليه الحصن الأخضر ويسمى في الأصل سيرسيه ، وما يقدر الناطور ينظر إلاّ عند طلوع الشمس وغروبها لأن في ذلك الوقت يقع شعاع الشمس على وجه البحر يَبانُ عن بُعد مسافةٍ ما كان ، ويكون الناطور قد عرض عوداً قدامه فإذا تخايل له شيء في البحر قاس ذلك الشيء على العود فإن كان طيراً أو غيره زال يميناً أو شمالاً أو يرتفع أو يهبط فيعلم أنه لا شيء ، وإن كان الخيال مستقيماً على فيء العود ثبت عنده أنه مركب أشار إلى صاحبه وهو ينادي : يا هيريا وأشار صاحبه إلى رفيقه وأشار الرفيق إلى جراب بإعلام المركب ، فحينئذ يوصل الجراب خبر المراكب إلى والي البلد . فإذا خرج من عند الوالي أعلم المشايخ بالفرضة ، وبعدهم ينادي بأعلى صوته من على ذروة الجبل : هيريا هيريا هيريا ! فإذا سمع عوام الخلق الصوت ركب كلّ جبل ، وصعد سطحاً يُشرف يميناً وشمالاً ، فإن كان ما ذكره صحيحاً يُعطى له من كل مركب دينار ملكي وذلك من الفرضة ، وإن كان كاذباً يضرب عشرة عصيّ . فإذا قرب المركب ركب المبشرون الصنابيق للقاء المركب فإذا قربوا من المراكب صعدوا وسلّموا إلى الناخوذة ، ويسألونه من أين وصل ؟ ويسألهم الناخوذة عن البلد وعن الوالي وسعر البضائع . وكلٌّ من يكون له في البلد أهل أو معاريف من أهل المركب إما أن يُهنؤونه أو يعزّونه له وعليه ... ويكتب اسم الناخوذة وأسماء التجار ، ويكون الكرّاني قد كتب جميع ما في بطن المركب من متاع وقماش فيسلم إليهم الرقعة . وينزل المبشرون في النصابيق راجعين إلى البلد كلهم رأساً واحداً إلى الوالي ، ويعطونه رقعة الكرّاني مع ما كتبوه من أسماء التجار ، ويحدثونه بحديث المركب ومن أين وصل ، وما فيه من البضائع ، ويخرجوا من عنده يدورون في البلد يبشرون أهل من وصل بجمع الشمل ويأخذ

كلٌ بشارته . فإذا وصل المركب المرسَى وأرسى تقدم إليهم نائب السلطان ، ويصعد المفتش يفتش رجلاً بعد رجل ، ويصل التفتيش إلى العمامة والشعر والكّن وحُزّة السراويل وتحت الآباط ويضرب بيده على حجرة الإنسان ويُدخل يده بين إليتيه ويشتمه على قدر المجهود . وكذلك عجوز تفتش النساء تقرب بيدها في أعجازهن وفروجهن . فإذا نزلت التجار إلى البلد نزلوا بِدَبَشهم من الغد ، وبعد ثلاثة أيام تنزل الأقمشة والبضائع إلى الفرضة تُحَلُّ شدةً شدة وتعدّ ثوباً ثوباً . وإن كان من البهار يوزن بالقبّان ويُضرب في جميع ما أشكل عليهم ... لئلا يبقى شيء وقد عاهدوا الله عز وجل أن يبذلوا المجهود قدّام المشائخ . قال ابن المجاور : وحينئذ يظهر على التاجر الحرف ، ويقتله الحزن ، ويبقى في وادي الدبور بما يعملون معه من الفعل الذي يُطير منه البركة والسعادة .

عجائب ذمار : لم يوجد فيها حيّة ولا عقرب ، وإذا دخل إنسان بحية إلى ذمار ، فعند دخوله الباب تموت الحية . ويقال : إذا أخذ من تراب ذمار ، وشُذّر في سلة الحواء تموت جميع حياته ، وهذا أعجب شيء يكون . ويقال : إن أرضها كبريتية لا يقيم فيها من المؤذيات شيء إلاّ هلك ، ومنها يجلب الكبريت إلى سائر أعمال اليمن ، ويكون طول آبارهم ثلاثة أذرع .

صفة البحرين

هي جزيرة في صدر بحر فارس ، كما أن القلزم في صدر بحر الحبشة . ويقال : إنها جزيرة في بحر مالح فوق بحر عذب فلأجل ذلك سُمّيَ البحرين . حدثني جماعة من أهل البلاد قالوا : إذا غاص إنسان بين الماءين وشرب فشرب ماءً عذباً فراتاً وأعلاه ماء مالح ملحاً أجاجاً . وقال : ما سُمّيَ البحرين بحرين إلاّ لأجل البحر وأهلها العرب شبه البحر في كرمهم ، وأي بلاد تسمى البحرين بحر ماء وبحر خلق . وتسمى الجزيرة جزيرة أوال وبها ثلاث مئة وستين قرية إمامية

المذهب ما خلا قرية واحدة . ومأكولهم التمر والسمك من ماذيّ رائحة وطعم رفن . وقال آخرون : إن جزيرة أوال هي أوسط مغاص البحرين ولا أصفى ولا أكثر ماويّة من لؤلؤة . وهي جزيرة في صدر الغُبّة وبر العرب وفارس مستدار حولها .

ذكر بلاد ينزل الغيث بها كثيراً : ينزل الغيث في أعمال ماردان دائم . وفي أعمال كلاب مدة عشرة شهور . وفي أرض بني سيف مدة أربعين يوماً من إقليم اليمن ويوبس شهرين فلذلك سُمّيَ البَوّالة ، وإقليم المنيا مدة أربعة أشهر . وإقليم الجاوة ينزل الغيث من الغيم شبه أفواه القرب ولا يستدل سفّارة البحر على إقليم الجاوة إلا بكثرة لمع البرق . وفي إقليم خور فوفل أربعة شهور ، وفي العينين ينزل دبس رفيع شبه الصماق دائم . وينزل في جزيرة الخضراء وجزيرة منفية دائم . وفي بلاد السند مدة أربعين يوماً . ويكون في جميع الهند تارة صحو وتارة غيث في نهار واحد مقدار عشر مرات ، وتمطر على دار ولا تمطر على أخرى ، ويقال إنها تمطر على أحد قرني الثور ولم تمطر على الآخر . وينزل الغيث في جبال اليمن ستة شهور ما بين الظهر والعصر .

خاتمة : تم كتاب تأريخ المستبصر بعون الله وحسن توفيقه . ووافق الفراغ من زبره نهار السبت الثامن والعشرين من شهر القعدة الحرام سنة ١٠٠٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

ياقُوت

(٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م - ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م)

هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، وقد ولد من مملوك رومي ، ويشير اسمه إلى أنه كان في الأصل رقيقاً ، ذلك لأن العادة جرت باقتباس أسماء الأرقاء من أسماء الأحجار الكريمة والطيب مثل زمرد وياقوت وعنبر وكافور إلخ .... ويقال : إنه ولد في بلاد الروم (آسيا الصغرى) وربما كان إغريقي الأصل ، ومن هنا جاءت تسميته أحياناً بالرومي ، وقد أسر وهو غلام ، وبيع لتاجر حموي المولد ، استوطن بغداد فنسب ياقوت إليه ، وغلب عليه فيما بعد لقب الحموي ، وعاش كرقيق حتى سن العشرين ، ونشأ مسلماً ، ورأى سيده التاجر الذي لم ينل حظاً وافراً من التعليم ، أن يفيد من هذا الحدث النابه بأن يوفر له ذلك ، كي يستعين به في حسابه ومعاملاته . فأدخله مدرسة يتعلم فيها الكتابة ، وبذلك أصبحت اللغة العربية لغته القومية ، ونال تعليماً إسلامياً جيداً ، وتوسع في دراسته فاهتم بالنحو والأدب . وهكذا حصل على ثقافة واسعة متينة ، جعلت منه كاتباً ماهراً يساعد سيده رجل الأعمال ، الذي كان على سعة من العيش دفعته مصالحه إلى الإقامة ببغداد ، يساعده في تصريف أعماله وصفقاته التجارية . ولعل أمانته واستقامته كانتا من العوامل الرئيسية التي دفعت بسيده أن يشركه في تجارته ذاتها ، وكثيراً ما اصطحبه في أسفاره التجارية ، وقد بعثه أحياناً لمفرده . وعن طريق معاناة التجارة استطاع ياقوت أن يزور أطراف الخليج العربي وعمان والشام والقسطنطينية ، فأغرم بالترحال ، وقد أعتقه سيّده سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م وبذلك أصبح حراً طليقاً ، ولم يلبث أن دب بينهما خلاف ، فاحترف ياقوت مهنة استنساخ الكتب وبيعها ببغداد ، وقد أفاد من ذلك الكثير ، إذ أتيحت له فرصة الاتصال بعدد من مشاهير الأدباء والرواة . ثم عاد الوئام بينه وبين سيده القديم إلى عهده السابق ، فاستأنف ياقوت أسفاره التجارية ، وعند عودته من إحدى الرحلات وجد سيّده قد مات بعد أن أوصى له ببعض ثروته ، فعاد لتجارة الكتب فترة من الزمن ، ولكنه لم يلبث أن بدأ تجواله في سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م ذلك التجوال الذي استمر ستة عشر عاماً حتى أدركته الوفاة ، باستثناء فترات استقرار قصيرة الأمد جداً . فاستأنف التجارة لحسابه ، هذه المرة ، وتوسع في رحلاته حتى آسيا الصغرى وخراسان ، منطلقاً من تبريز والموصل ، قاصداً بلاد الشام ومصر أولاً ، وبعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ ، أي في سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م نجده مرة أخرى بدمشق التي

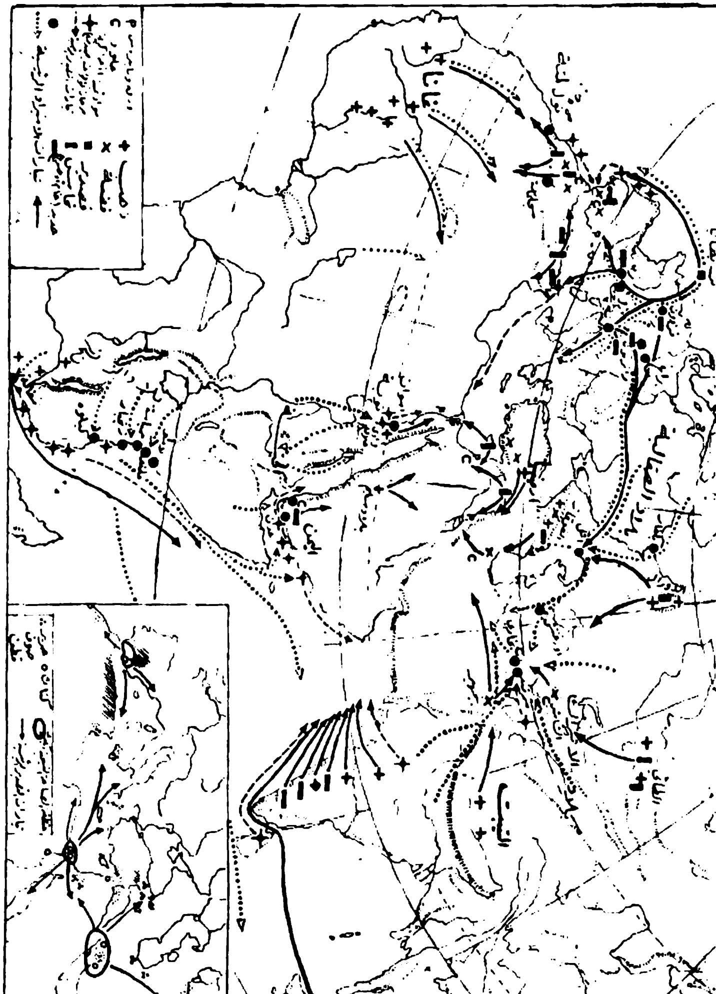
غادرها إلى حلب فأربيل فأورمية فتبريز . وعندما كان هناك خطرت لـه فكرة كتـابـة معجم جغرافي موسَّع ، ومن ثم قصد إيران الشرقيـة . وأمضى في نيسـابور حوالي العـامين حيث تعلق فؤاده بحب فتـاة من أهلها ، ثم غادرها إلى هرات وسرخس إلى أن بلغ مرو التي أمضى فيها ثلاثـة أعوام سلخهـا منقبـاً في مكتباتها الشهيرة التي أطنب الكثيرون في وصفهـا ، وقـد راودتـه فكرة الإقـامـة بهـا دائمـاً ، ولا سيما أن مشروع وضع معجمـه قـد خطر لـه في هـذه الأنحـاء ، ونظراً لأن العمل في مرو واستعـارة الكتب من مكتباتها كان أمراً ميسوراً حتى إن عدد ما كان عند يـاقوت من هـذه الكتب في الوقت الواحـد ينـاهز المئتين . والظاهر أنه كان يدفع رهناً للنادر منها ، ولكن أكثرها كان يحصل عليه بغير رهن . وقـد ختم ياقوت حديثه عن خزائن الكتب هذه بقوله : « فكنت أرتع فيهـا ، واقتبست من فوائـدهـا ، وأنسـاني حبها كل بلـد ، وألهـاني عن الأهل والولـد ، وأكثر فوائـد هـذا الكتـاب (أي معجم البلـدان) وغيره مما جمعته ، فهو من تلك الخزائن » .

وكان يتهيأ لزيارة خوارزم وبلخ عندما ترامت إلى مسامعه أخبار خروج المغول عـام ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م ثم اجتياحهم بخارى وسمرقند ، فهرب من وجه جحافل جنكيز خان إلى خراسان ، تـاركاً وراءه بعض مادته العلمية ، وفي طريقه مرَّ بـالرَّي وقزوين وتبريز إلى أن بلغ الموصل فـدخلهـا فقيراً معـدمـاً خالي الوفاض ، ومنها كتب إلى الوزير ابن القفطي في حلب ، يرجوه العون ، فأمدَّه بما قوَّم به أوده ، واستدعاه إلى حلب .

وفي سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م توجه مرة أخرى إلى فلسطين ومصر ، ثم قصد حلب ، وانصرف فيها ابتداء من مطلع كانون الثاني من عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م إلى تهذيب معجمـه الـذي وضعـه بعـد وصولـه للموصل ولكن الوفاة عاجلته ، إذ انتقل إلى جوار ربه بعد عـام واحـد فقـط ، وذلـك في شهر رمضـان سنة ٦٢٧ هـ / ٢٠ آب ١٢٢٩ م ، في خان عند أبواب حلب ولمـا يتجـاوز الخمسين من عمره ، وقـد أوصى بوقف كتبه على مسجد ببغداد ، وكلف صديقه المؤرخ المعروف ابن الأثير بتنفيذ وصيتـه هـذه فحملهـا إلى هناك .

هذا وكان إنتاج ياقوت عظيماً . فهو يشتمل على معجم لمشاهير الرجال عنوانه (إرشاد اللبيب إلى معرفة الأديب) المشهور تحت اسم معجم الأدبـاء (نشره المستشرق مـارغليوث) ، وعلى كتـاب لم ينشر بعد عن أنساب العرب ، وعلى مطوَّل عن الأسماء المتمـاثلـة للأمكنـة والتي تعني أمكنـة مختلفـة عنوانـه : المشترك وضعاً والمختلف وقعـاً (نشره وستنفيلـد في غوتنجن عـام ١٨٤٨) ، وأخيراً على معجمـه الجغرافي الكبير (معجم البلدان) الذي أنجزه عام ١٢٢٤ م .

وأصبح معجم ياقوت ، المرتب على حروف الهجـاء ، موسوعـة جغرافيـة لا غنى عنهـا ، ومـا إن فرغ من تصنيفه حتى شعر بالجهد المضني الذي بذله في سبيل تحقيقه ، فيقول : « وعلى ذلك فـإنني أقول



ولا أحتشم . وأدعو إلى النزال كل عالم في العالم ولا أنهزم : إن كتابي هذا أوحد في بابه ، مؤمّر على أضرابه ، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أيّد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائده كل طريق ، ففار تارة وأنجد ، وطوّح بنفسه فأبعد ، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه أمارات الحرص وحركته » .

هذا وقد وصلنا وجيز عنه عنوانه (مراصد الاطّلاع في أسماء الأمكنة والبقاع) اختصره صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ونشره جوينبول Juynboll في ليدن من سنة ١٨٥٠ إلى ١٨٦٤) .

وسنقتصر هنا على دراسة معجم البلدان ، فيبدأ هذا الكتاب بعرض عن الكوزموغرافية والجغرافية العامة يمكن اعتباره ممتازاً ، ومما لا ريب فيه أن المؤلف لا يأتينا بجديد ، لاسيما من أخبار رحلاته ، ولكن فضله على الأقل ، يظهر في تقديم نظريات العلماء ، الذين يذكرهم ، بصورة واضحة منهاجية مهما كانت النظريات مختلفة ومتناقضة . ثم ينتقل ياقوت إلى ما يؤلف هدف بحثه . ففي كل فقرة مخصّصة لاسم مكان ، يقوم ياقوت أولاً بتثبيت شكل كتابته ولفظه ، واشتقاق الكلمة ، وأشكال النسبة التي قد تشتق منها (فقه اللغة) ، وبعدئذ ينتقل إلى تفاصيل موضع المكان : كدرجة عرضه ، وطوله ، والمؤثرات التنجيمية التي تهيمن على مقادير الناس فيه ، ويذكر عند الكلام عن منطقة واسعة ، خصائص طبيعتها ، ومواردها الطبيعية ، وعمرانها بالناس ، وموجزاً لأهم الأحداث التي شهدها هذا المكان (الناحية الجغرافية التاريخية) .

ويؤلف هذا المخطط الشكل المثالي لكل باب من أبواب المعجم ، ولكن ياقوت يضطر ، إذا أعوزته المعلومات ، إلى إغفال ذكر عدد من هذه التفاصيل ، غير أن هذا المعجم يظل رغم كل ما يقال عنه من أفضل مصادر المعلومات التي نملكها . وإذا علمنا أن معجم البلدان لا يقتصر مطلقاً على وصف الأمكنة الواقعة في جزيرة العرب ، بل يشتمل على وصف كل العالم الذي عرفه المسلمون ، أدركنا مدى ظهور أرجحية هذا المعجم بوجه عام على معجم البكري الأندلسي الذي لا يقدم لنا نفس الوثائق ولا نفس الإيضاحات الدقيقة .

ويتميز ياقوت عن كثير من المؤلفين من أبناء عصره بملكة النقد التي تتجلّى عندما يروي بعض الأساطير الذائعة في عصره ، وفي حكمه على تلك الأساطير والتعليل لها . فقد كتب ياقوت في معجمه عن مادة (جاسَك) ما يلي :

« جاسَك بفتح السين المهملة وآخره كاف ، جزيرة كبيرة بين جزيرة قيس ، هي المعروفة بكيش ـ وعمان قبالة مدينة هرمز ـ بينها وبين قيس ثلاثة أيام ، وفيها مساكن وعمارات ، يسكنها جند ملك جزيرة قيس . وهم رجال أجلاد

أكفاء ، لهم صبر وخبرة بالحرب في البحر ، وعلاجٌ للسفن والمراكب ليس لغيرهم ، وسمعت غير واحد من جزيرة قيس يقول : أهدي إلى بعض الملوك جوارٍ من الهند في مراكب ، فرفأت تلك المراكب إلى هذه الجزيرة فخرجت الجواري يتفسّحن فاختطفهن الجنُّ وافترشهن ، فولدن هؤلاء الذين بها ... ويقولون هذا لما يرون فيهم من الجَلَد الذي يعجز عنه غيرهم ، ولقد حدثت أن الرجل منهم يسبح في البحر أياماً وأنه يجالد بالسيف وهو يسبح مجالدة من هو على الأرض » .

ويقول المستشرق الروسي سنكوفسكي عن ياقوت : « كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة في تاريخ وجغرافية العصور الوسطى . وقد أبدى الكثير من الغيرة والحماس في دراسة الأوضاع الجغرافية والأثنوغرافية والسياسية لعصره » .

ويقول المستشرق كراتشكوفسكي بمعرض حديثه عن معجم ياقوت : « أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى ، ولتكوين فكرة عن معجمه يكفي أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ثلاثة آلاف وثمانمئة وأربعاً وتسعين صفحة ، وهو جامع للجغرافية في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضاً ، كما تنعكس في الجغرافية التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والأثنولوجيا » علم الأجناس والفضائل البشرية والأدب الشعبي والأدب الفني في القرون الستة الأولى للهجرة » .

النص الأول

مقتطفات من معجم البلدان

إِرْمِينِيَةُ . بكسر أوله ويُفْتحُ ، وسكون ثانيه وكسر الميم ، وياءٍ ساكنة ، وكسر النون ، وياءٍ خفيفة مفتوحة . اسمٌ لصقع عظيم واسع في جهة الشمال ، والنسبة إليها أرمني على غير قياس بفتح الهمزة وكسر الميمِ وينشد بعضهم : (من الطويل) :

ولـو شهـدَتْ أمّ القُـدَيْـدِ طِعـانَنـا　　بَمَرْعَشَ خيـــــلَ الأَرْمَنِيّ أَرَنْتِ[1]

وحكى إسماعيلَ بن حماد[2] فَتْحَها معاً . قال أبو علي[3] : إذا أجريْنا عليها حكمَ العربيّ كان القياسَ في همزتها أن تكون زائدةً ، وحكمها أن تُكْسرَ لتكون مثلَ إجْفِيل وإخْرِيط وإطْرِيح ونحو ذلك ؛ ثم ألْحِقَتْ ياءُ النسبة ثم ألحقَ بعدها تاء التأنيث ، وكان القياسُ في النسبة إليها أرْمينيٌّ إلا أنها لَمّا وافق ما بعد الراء[4] منها ما بعدَ الحاء في [كلمةِ] « حنيفة » حذفت الياءُ كما حُذفت من « حنيفة[5] » في النسب .

قال أهل السِّيَرِ : سُميت أرْمينيةَ بأرْمينا بنِ لنْطا بنِ أوْمَرَ بن يافثَ بن نوحٍ عليه السلام وكان أول من نزلها وسكنها .

وقيل : هما أرمينيتانِ : الكبرى والصغرى . وحدُّهما من برْذعَة[6] إلى باب الأبواب ، ومن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القَبْقِ وصاحب السرير . وقيل : إرمينية الكبرى خِلاطُ ونواحيها ، وإرمينية الصغرى تفْليسُ ونواحيها وقيل : هي ثلاثة أرْمينياتٍ وقيل : أربعُ ، فالأولى بَيْلقانُ وقَبَلَة وشرْوانَ وما انضمَّ إليها عُدَّ منها ؛ والثانية جُرزانَ وصُغْدَبيل وبابُ فيروز قُباذَ واللُّكْز ؛ والثالثة البُسْفُرْجان ودَبيل وسراجُ طيْرٍ وبَغْرَوَند والنَّشْوى ، والرابعة وبها قبر صفوانَ بنِ المعطّل صاحب رسول الله ﷺ ، وهو قرب حصن زياد عليه شجرة

---

(١) أم القديد : اسم امرأة .

(٢) إسماعيل بن حماد الجوهري ، وهو لغوي شهير وله معجم الصحاح توفي نحو ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م .

(٣) أبو علي الحسن الفارسي ، لغوي نحوي توفي سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م .

(٤) أي حروف العلة التي تتبع الراء .

(٥) المنسوب إلى حنيفة : حنفي .

(٦) برذعة : مدينة مندثرة بالقفقاس . باب الأبواب : أي دربند وهي مدينة داغستانية على بحر الخزر ، جبل القبق : جبل القفقاس . السرير : قوم من نصارى القوقاز بين شعب خزر الفولغا وأرمينية .

نابتة لا يعرف أحدٌ من الناس ما هي ولها حملٌ يشْبهُ اللوزَ يؤكل بقشره وهو طيِّب جداً فمنها شِمْشاط وقاليقَلا ....

ووجدت في كتاب الملحمة(٧) المنسوب إلى بطليوسَ : طول أرْمينيةَ العظمى سبعون درجةً ، وعرضها ثمان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة ، هي داخلةٌ في الإقليم الخامس (شكل ٢٠) وطالِعُها(٨) تسع عشرة درجةً من السرطان يقابله خمس عشرة درجة من الجدي ، ووسَطُ سمائها خمس عشرة درجة من الحمل ، وبيتُ حياتها خمس عشرة درجة من الميزان . قال : ومدينةُ أرمينية الصغرى طولها خمس وسبعون درجة وخمسون دقيقة وعرضها خمس وأربعون درجة وطالعها عشرون درجة من السرطان يقابلها مثلها من الجدي ، وبيتُ ملكها مثل من الحَمَل وبيت عاقبتها مثلها من الميزان ، ولها شِرْكة في العَوّاء وفي الدبِّ الأكبر ، ولها شركة في كوكب هوزٍ وهو كوكب الحكماء ، وما يولد مولودٌ قطُّ ، وكان طالِعُهُ كوكبُ هوزٍ إلاَّ وكان حكيماً ، وبه وُلِدَ بطليوسُ وبُقْراطُ وأوقليدسُ(٩) . وهذه المدينة مقابلةٌ لمدينة الحكماء يدور عليها من كل بنات نعْشٍ أربعة أجزاء ، وهي صحيحة الهواء ، وكل من سكنها طال عُمْرهُ بإذن الله تعالى .

وفي كتب الفُرْس أنَّ أرّانَ(١٠) كانت في أيدي الخزرِ وسائرُ أرْمينيةَ في أيدي الروم يتولاَّها صاحبها أرْميناقُسُ وسمَّتْهُ العربُ أرْميناقَ . فكانت الخزرُ تخرج وتغيرُ ، فربما بلغتِ الديْنَورَ ، فوجَّه قباذ بنُ فيروزُ الملك قائداً من عظماء قواده في اثني عشر ألفاً فوطئَ بلادَ أرّانْ ففتحَ ما بين النهر الذي يعرفُ بالرسِّ إلى

---

(٧) كتاب الملحمة أو كتاب الملاحم ، أشعار تنبئ عن المستقبل منسوبة لبعض الشخصيات أو العلماء المعروفين مثل ابن سينا ، وبطليوس إلخ ...

(٨) الطالع : في علم التنجيم يعني الكوكب الذي يطلع وقت تحديد الحادث كالولادة وسواها ويتخذ كأساس للتنبؤ عن مستقبله .

(٩) بقراط : أشهر طبيب يوناني قديم (٤٦٠ ق . م ـ ٣٧٧ ق . م) . إقليدس : مهندس يوناني درّس في الإسكندرية أيام بطليوس الأول (٣٣٠ ـ ٢٧٠ ق . م) وتعتبر مبادئه أساس الهندسة الحديثة .

(١٠) أحد أقاليم القوقاز .

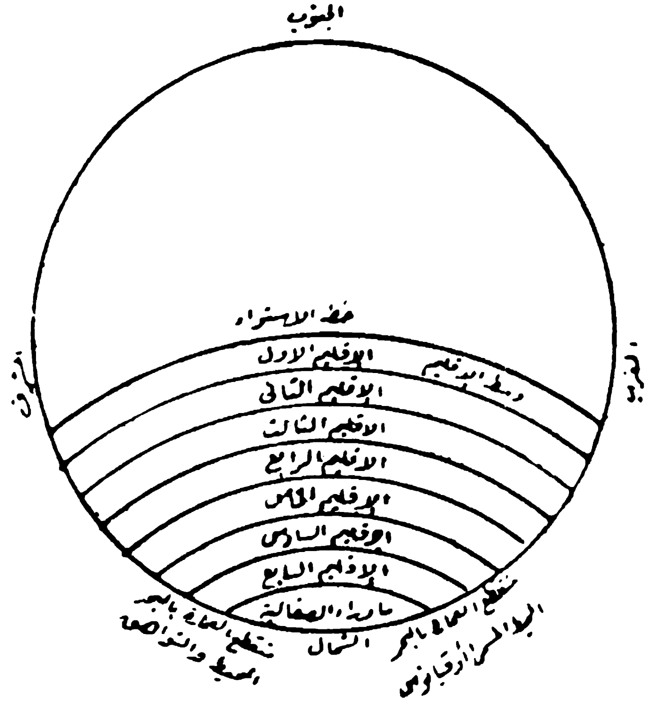
شَرْوان . ثم إن قباذَ لحِقَ به فبنى بأرّان مدينةَ البيلقـان ، ومـدينـة برْذعَـة ، وهي مـدينـة الثغر كلّـه ومـدينـةَ قبلَـةَ ، ونفى الخـزر ثم بنى سَـدَّ اللبنِ فيا بين شروان واللاّنِ[١١] وبنى على سَـدِّ اللبنِ ثلاثـة مئـة وستين مـدينـةً خربَتْ بعـد بنـاء بـاب الأبوابِ . ثم ملكَ بعد قُباذَ ابنهُ أنو شروانَ فبنى مدينة الشابرانِ ومدينة مَسْقـط ثم بنى باب الأبواب وإنّما سمّيت أبواباً لأنها بنيتْ على طرقٍ في الجبال وأسْكَنَ مـا بنى من هذه المواضِع قوماً سمّاهم السيّاسِجينَ . وبنى بأرضِ أرّانَ أبواب شكّى والقميران وأبواب الـدُّودانيّـة وهم أمـةٌ يزعمـون أنهم من بني دُودانَ بنِ أسـدِ بنِ ... مُضَرَ بن معَدِّ بن عدنانَ . وبني الدُّرْزُقيّةَ وهي اثنا عشر بـابـاً على كل بـاب منهـا قصرٌ من حجارة ... وفتَحَ جميع ما كان بأيدي الروم من أرْمينيـةَ ... وقـد ذكر ابنَ واضحِ الأصفهاني[١٢] أنهُ كتبَ[١٣] لعدَّةٍ من ملوكها وأطالَ المقامَ بأرمينية ولم يرَ بلداً أوسع منها ، ولا أكثرَ عمـارةً وذكر أنَّ عـدةَ ممـالكهـا مئـة وثمـاني عشرة مملكـةً ، منهـا : صـاحب السرير ومملكتـه من اللاّنِ ، وبـاب الأبـواب وليس إليهـا إلاّ مسلكانِ ، مسلكٌ إلى بلاد الخزر ومسلك إلى أرمينية ؛ وهي ثمـانيـة عشر ألفِ قريـةٍ ، وأرّانُ أوّلُ مملكتِه بأرْمينية ، فيها أربعـةَ آلاف قريـة وأكثرهـا لصـاحب السرير ..... ، ومنهـا : شَرْوان وملكهـا يقـال لـه شروانُ شـاهْ . وسُئِـلَ بعضُ علمـاء الفرس عن الأحرار الذين بأرمينيـةَ لِمَ سُمُّوا بـذلـك ؟ فقـال : هم الـذين كانوا نبلاءَ بـأرضهـا قبل أن تملّكها الفرسُ ، ثم إنَّ الفُرْسَ أعتقوهم لمّا ملكوا وأقرّوهم على ولايتهم ، وهم بخلاف الأحرار من الفرس الذين كانوا باليمنِ وبفارسَ ، فـإنهم لم يُمْلَكوا قـطُّ قبلَ الإسلام فسمُّوا أحراراً لشرفهم ؛ وقد نُسِبَ بهـذه النِّسْبـةِ قومٌ من أهل العلم منهم أبو عبد الله عيسى بنُ مالكِ بن شِمْرِ الأرمني سافرَ إلى مصرَ والمغربِ .

---

(١١) برابرة أصلهم بين بحر آزوف والقوقاز وقد تسلّلوا إلى الإمبراطورية الرومـانيـة ودخلوا غـاليـا ثم إسبـانيـا حيث أبيدوا فيها عام ٤١٨ م على يد الفيزيقوط .

(١٢) أي اليعقوبي الجغرافي .

(١٣) أي عمل كاتباً ، أو جابياً .



شكل يمثّل الأقاليم السبعة لياقوت الحموي

(شكل ٢٠)

عن الدكتور شاكر خصباك

أَرْوَنْدُ : بالفتح ثم السكونِ وفتح الواوِ وسكون النونِ ودالٍ مهملةٍ . اسمُ جبلٍ نَزِهٍ خَضِرٍ نَضِرٍ مُطِلٍّ على مدينة همذانَ ، وأهل همذانَ كثيراً ما يذكرونه في أحاديثهم وأسْجاعهم وأشعارهم ويعدُّونه من مفاخر بلدهم ، وكثيراً ما يتشوَّقونه

في الغربة وعلى سائر البلاد يفضّلونهُ ، وفيـه يقولُ عيْنُ القُضـاةِ عبـد الله بنُ محمـد الميانِجِيّ[١٤] في رسالةٍ كتبها إلى أهل همذان وهو محبوسٌ (من الطويل) :

ألا ليتَ شِعْري ! هــل ترى العينُ ، مرّةً ذُرى قُلّتيْ أرْوَنْــدَ مِنْ هَمَــذانِ ؟
بــلادٌ بِهـــا نيطَتْ عليّ تمـــائمي وأُرْضِعْتُ منْ عِفّـــانِهـــا بِلِبـــانِ

العِفّانُ : بقية اللبن في الضرع ... قال بعضُ شعرائهم يفضّلهُ على بغدادَ (من الطويل) :

وقــالت نســاءُ الحيِّ : أينَ ابنُ أُخْتِنــا ألا خبّرونـــا عنـــه ، حُيِيْتُمُ وَفْـــدا
رعـــاهُ ضمانُ الله : هــل في بــلادكمْ أخو كَرَمٍ يرعى ، لـذي حسبٍ ، عهْدا
فــإنَّ الــذي خَلّفْتُمــوهُ بــأرضِكُمْ فتىً ، مــلأَ الأحشــاءَ هجرانُــهُ وَجْـدا
أبُغْــدادُكُم تُنْسيـــهِ أرْوَنــدَ مَرْبَعــاً ألا خــابَ من يشري ببغــداد أرْوَنْــدا

وحـدّثَ بعضُ أهلِ هَمَـذانَ قـالَ : قـدِمتُ على أبي عبـد الله جَعْفَرَ بنِ محمدٌ الصـادق[١٥] ؛ فقـالَ لي : من أين أنتَ ؟ فقلت : من الجبـال[١٦] ، قـال : من أيِّ مدينة ؟ قلت : من همذانَ ، قال : أتعرفُ جبلها الذي يقال له راوَنْـدُ ؟ فقلت : جعلني الله فداءكَ ، إنّما يقالُ له أرْوَنْدُ ، فقالَ : نعمْ ؛ أمّا إنَّ فيـه عينـاً من عيون الجنة . قال : فأهل البلد يروْنَ أنها الحمّةَ التي على قُلّةِ الجبل وذلك أن ماءَها يخرج في وقت من أوقـات السنـة معلوم ، ومنبعـه من شقٍّ في صخرة ، وهو مـاء عـذب شديد البرودة ، ولو شرب الشارب منه في اليوم والليلة مئة رطلٍ وأكثرَ مـا وجـدَ لـهُ ثقلاً بل ينتفعَ بـه . (وفي روايـةٍ : لو شرِبَ منـه مئـة رطلٍ مـا رَوِيَ) فـإذا تجاوزتْ أيامه المعدودةَ التي يخرجُ فيهـا ذهب إلى وقتـه من العـام المقبل لا يزيـد

---

(١٤) صوفي فارسي شهير أعدم في بغداد بسبب آرائه الدينية المتطرفة عام ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م .

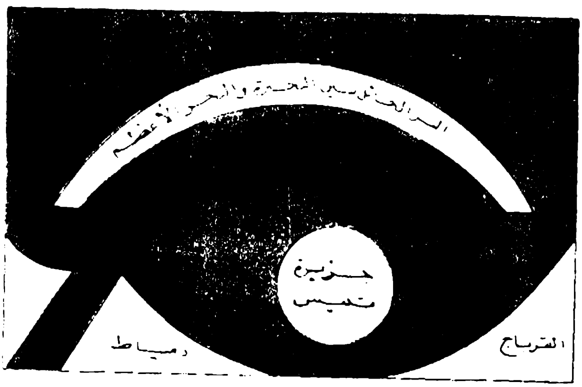
(١٥) الإمام العلوي السادس توفي عام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م بالمدينة المنورة .

(١٦) أسلم إقليم من إيران ينطبق على ميديا القديمة أو آذربيجان وكردستان .

يوماً ولا ينقصُ يوماً في خروجه وانقطاعه وهو شفاءٌ للمرضى يأتونه من كل وجه ، ويقال : إنّهُ يكثر إذا كَثُر الناس عيبه ، ويقلُّ إذا قلُّوا عنه . وقال محمدُ بن بشّارٍ الهمذاني يصف أروند (من البسيط) :

سَقْياً لِظلّك يا أرْوَنْدُ من جبلٍ … وإن رمينَاكَ بالهجرانِ والمَلَلِ
هل يعلم الناسُ ما كلَّفتني ، حِجَجاً[١٧] … من حُبِّ مائِك ، إذْ يَشْفي منَ العِلَلِ
لا زِلْتَ تُكْسى من الأنواء أرديَةً … من ناضِرٍ أنِقٍ ، أو ناعمٍ خَضِلِ[١٨]
حتى تزورَ العذارى كلُّ شارِقَةٍ … أفياء سفْحِكَ يَسْتَصبينَ ذا الغَزَلِ
وأنتَ في حُلَلٍ والجوُّ في حُلَلٍ … والبيضُ في حُلَلٍ والروضُ في حُلَلِ

وأشعار أهلِ هَمَذانَ في أروندَ ووصفهم متنزهاتها كثير ، وفيما ذكرناه كفاية .



صورة بحيرة تنيس في معجم البلدان لياقوت الحموي

(١٧) مفردها حجة : عام .

(١٨) تعني كلمة نوء النجم الذي يتلاشى عند ظهور نجم آخر . كما تعني هذه الكلمة التحولات الجوية التي تحدث في الوقت نفسه مع هذه الدورات الفلكية ، أي تعني عاصفة ، مطر . من الأنواء = بعض الأنواء . كل شارقة : كل صباح . استصبى : ظهرت عليه سذاجة الأطفال .

التَميميُّ المرَّاكِشِيّ

ولد ٥٨١ هـ / ١١٨٤ م ـ توفي بعد ٦٥٦ هـ

هو محيي الدين بن محمد بن عبد الواحد المراكشي ، ولد في ٧ ربيع الثاني ٥٨١ هـ في أول أيـام أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبـد المؤمن بن علي من ملـوك المـوحـدين ، في مراكش من أسرة عربيـة يباهي بالانتساب إليها ، تعود في أصولها إلى بني تميم ، معروفة بـالمـال والجـاه . ثم انتقل إلى فـاس سنـة ٥٩٠ هـ حيث درس القرآن والنحـو ثم عـاد إلى مراكش ، ولم يـزل متردداً بين هـاتين المـدينتين ، ثم عبر البحر إلى جزيرة الأندلس في أول سنة ٦٠٣ هـ طلباً للاستزادة من العلم فيقول : « فأدركت بها جمـاعـة من الفضلاء من أهل كل شأن ، فلم أحصل بحمد الله من ذلك كله إلا معرفـة أسمائهم ومواليدهم ووفيـاتهم وعلومهم ، انفردوا دوني بكل فضيلـة ، ولا مـانع لـما أعطى الله ولا معطي لـما منع » . وارتحل إلى مصر سنة ٦١٣ ، ويبدو أنه قضى في أقطار المشرق العربي قرابة ثمانيـة أعوام متجولاً في أنحـائهـا وحج في عـام ٦٢٠ هـ كي يعود بعدئذ إلى موطنه .

ويعتقد أن خروجه من بلاده لم يكن مما اختاره لنفسـه ، وقد يكون أكره عليه لـسبب سيـاسي . وقد أملى كتابه (المعجب في تلخيص المغرب) بناء على طلب أمير الموحدين أبي محمد عبد العزيز ، وهو كتـاب تـاريخي قيم يتكلم فيـه على أخبـار المغرب وهيئتـه وحـدود أقطـاره وشيء من سير ملـوكـه ، وخصوصاً ملوك المصامدة بني عبـد المؤمن من لـدن ابتـداء دولتهم إلى سنـة ٦٢١ هـ . كما يكتب مصنفاً ثانياً هو : (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) من نمط المسالك والممالك الـذي (وضع الناس فيه كتباً كثيرة ككتاب أبي عبد الله البكري الأندلسي ، وكتاب أبي فيـاض الأنـدلسي ، وكتـاب ابن خرداذبة الفارسي ، وكتاب الفرغاني) كما يقول .

النص الأول

نجد لدى التيمي بعض الإشارات إلى أثر درجات العرض والبيئة على جسم الإنسـان ولون بشرتـه وحدة ذهنه ، وهذا ما نجده لدى ابن خلدون بصورة أكثر تفصيلاً وأقوى تعليلاً :

« أما حدود جزيرة الأنـدلس ؛ فـإن حـدهـا الجنوبي منتهى الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس ، وهو البحر الرومي ، مما يقـابل طنجـة في موضع يعرف بالزقاق ، سعة البحر هنالك اثنـا عشر ميلاً ، وهـذا الخليج هو ملتقى البحرين ، أعني بحر مانطس وبحر أقنابس ، وحدّاهـا الشمالي والمغربي البحر الأعظم وهو بحر أقنابس المعروف عندنا ببحر الظلمة ، وحدهـا المشرقي الجبل الـذي هو فيـه هيكل الـزهرة الـواصـل مـا بين البحرين ، بحر الروم وهـو مـانطس والبحر الأعظم ، ومسـافـة مـا بين البحرين في هـذا الجبل قريبـة من ثلاث مراحـل ، وهـو الحـد الأصغر من حدود الأندلس ، وحداها الأكبران الجنوبي والشمالي مسافـة كل واحـد منها نحواً من ثلاثين مرحلة ، وهذا الجبل الذي ذكرنا فيه هيكل الزهرة الذي هو الحد الشرقي من الأندلس هو الحـاجز مـا بين بلاد الأنـدلس وبين بلاد إفرنسـة من الأرض الكبيرة أرض الروم التي هي بلاد إفرنجة العظمى ، والأندلس آخر المعمور في المغرب لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر أقنابس الذي لا عمارة وراءه .

ومسافة ما بين طليطلة التي هي قريبة من وسط الأندلس ومـدينـة روميـة قـاعـدة الأرض الكبيرة قريبـة من أربعين مرحلـة . ووسـط الأنـدلس كما ذكرنـا مدينـة طليطلـة العتيقـة التي كانت قـاعـدة القوطـا من قبـائل الإفرنج ثم ملكهـا المسلمون زمان الفتح على ما سيأتي بيانه ، وعرضهـا تسع وثلاثون درجـة وخمسون دقيقة وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب ، فصارت بـذلـك قريبـة من وسـط الإقليم الخامس .

وأقل بلاد الأندلس عرضاً المدينة المعروفة بـالجزيرة الخضراء ، البحر الجنوبي منها ، وعرضهـا ست وثلاثون درجـة ، وأكثر منهـا عرضـاً بعض المـداين التي على ساحلها الشمالي ، وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة .

فتبين بمـا ذكرنـا أن معظم الأنـدلس في الإقليم الخـامس أميـل إلى الشمال ، فلذلك اشتد بردها ، وطالت مدة الشتاء فيها ، وعظمت جسوم أهل ذلك الميل ،

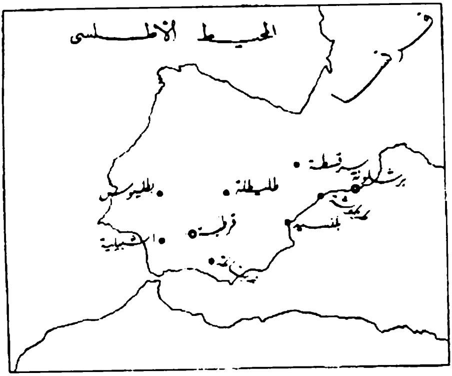
وابيضت ألوانهم وكانت أذهانهم إلى الغليظ ما هي ، فنبت عن كثير من الحكمة .

وطائفة من الأندلس في الإقليم الرابع كإشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية ، فهذه البلاد التي ذكرنا في الإقليم الرابع ، أعدل هواء وأطيب أرضاً وأعذب مياهاً من البلاد التي هي في الإقليم الخامس ، وأهلها أحسن ألواناً وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك ، إذ كان للميول والسموت في اللغات تأثير بيّن لمن استقرى ذلك وفهم علته .

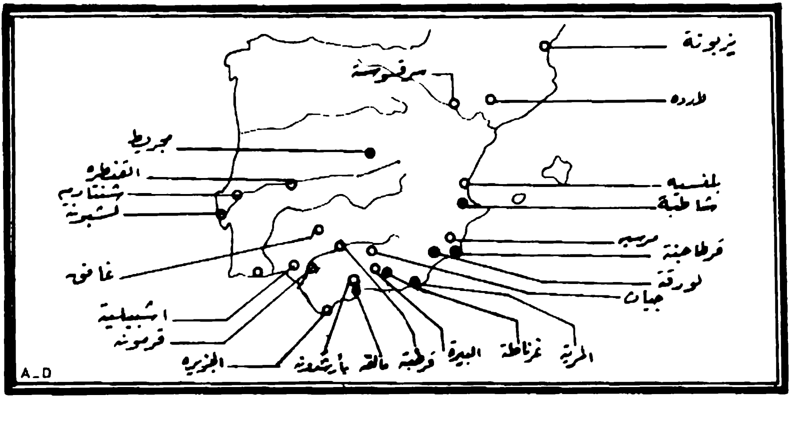
وجملة مدن الأندلس التي هي أمهات قرى ومراكز أعمالها ومواضع مخاطبات أولي الأمر منها أو لها في الحد الشمالي مدينة شلب ثم مدينة إشبيلية ثم قرطبة ثم جيان ثم غرناطة ثم المرية ثم مرسية ثم بلنسية ثم مالقة وهي على البحر الرومي ، فالذي على البحر الأعظم من هذه المدائن شلب وإشبيلية ، وبينهما قريب من خمس مراحل ، والذي على البحر الرومي المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي من أعمال إشبيلية ثم مالقة وهي مستقلة ، ثم المرية ثم دانية هذه كلها على البحر الرومي ، ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل .

ولما استقر أمر المسلمين بالأندلس في غرة المائة الثانية تخيروا مدينة قرطبة فجعلوها كرسي المملكة ومقر الإمارة ، فلم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولة بني أمية بالأندلس ، فتغلب على كل جهة من الجزيرة متغلب على ما سيأتي بيانه ، وهذه المدن التي ذكرتها هي التي يملكها المسلمون اليوم ، وقد كانوا يملكون قبلها مدناً كثيرة لم أذكرها في هذا الوضع ، إلا أن ذكرها سيرد فيما يأتي من تفصيل أخبار الأندلس ، تعرف ذلك بقولي : أعادها الله للمسلمين .

فهذه جملة من أخبار الأندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدي المسلمين .



خريطة الأندلس في عصر ملوك الطوائف



ذكر جزيرة الأندلس وأسماء مدنها وأنهارها

فأما جزيرة الأندلس فهي المعروفة في قديم الزمان عند الروم بجزيرة إشبانية ، وقد تقدم ذكر حدودها في صدر هذا الكتاب ، فأغنى ذلك عن إعادته ههنا ، وكان دين أهلها في الدهر القديم دين الصابية من عبادة الكواكب واستنزال قواها والتقرب إليها بأنواع القرابين ، شهدت بذلك طلسمات وجدت بها وضعتها القدماء من أهلها ، ثم انتقل أهلها إلى دين النصرانية حين ظهر على أيدي أصحاب المسيح عليه السلام ، وكانت هذه الجزيرة أعني الأندلس منتظمة في مملكة صاحب رومية ، يستعمل عليها من شاء من أصحابه ، فلم تزل كذلك والروم يملكونها وقاعدة ملكهم منها مدينة تسمى طالقة على فرسخين من إشبيلية ، وهي مدينة عظيمة باق أثرها إلى هذا اليوم ، إلى أن غلبهم عليها القوطا ، وهي قبيلة من قبائل الإفرنج ، فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم العظمى ، وانفرد القوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة فملكوها أضخم ملك قريباً من ثلاثمئة سنة ، وكانت دار ملك القوطا مدينة طليطلة ، وهي قريب من وسط الجزيرة ، فلم يزالوا بها وطليطلة دار ملكهم كما ذكرنا ، إلى أن افتتحها المسلمون في شهر رمضان من سنة ٩٦ من الهجرة على ما تقدم في صدر الكتاب .

فلما افتتحها المسلمون تخيروا قرطبة دار ملكهم ومقر تدبيرهم وموضع حلهم وعقدهم ، فلم تزل قرطبة على ذلك إلى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بني أمية بالأندلس بموت الحكم المستنصر وتغلب أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه على هشام المؤيد بن الحكم المستنصر حسبما تقدم في صدر هذا الكتاب .

فهذا تلخيص أخبار جزيرة الأندلس وأنا ذاكر إن شاء الله أول ما يلقاه من يعبر إليها من حدودها ومدنها ، فأول ذلك أني أقول قد تقدم أن البحرين بحر

الروم وبحر أقيانس ، [بالنص (أقنابش)] يلتقيان بساحل سبتة ، ثم يضيق الخليج ، ويتقارب العدوتان حتى ينتهي ذلك إلى قصر مصمودة من العدوة وجزيرة طريف من الأندلس ، ثم يأخذ في السعة ، وأول هذا الخليج مما يلي طنجة الجبل الخارج في ابحر الأعظم المعروف بطرف أشبرتال[1] ، وآخره الجبل الذي شرقي سبتة ، فإذا عبرت إلى جزيرة الأندلس من سبتة كان الذي تنزل به المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وإذا عبرت من قصر مصمودة وقعت إلى جزيرة طريف .

فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هي في التحقيق على ساحل البحر الرومي ، وجزيرة طريف على ساحل البحر الأعظم ، وبين الموضعين أعني الخضراء وطريف ثمانية عشر ميلاً . وفي شرقي الجزيرة الخضراء الجبل المعروف بجبل الفتح ، ويسمى أيضاً جبل طارق ، وله طرف خارج في البحر يسمى طرف الفخ ، وعنده يلتقي البحران بجزيرة الأندلس .

فهذا تلخيص التعريف بخبر مجاز الأندلس .

فأما ذكر مدنها فقد كانت فيها مدن كثيرة ، تغلب النصارى على أكثرها ، فأنا ذاكر أسماء المدن التي بأيدي النصارى في وقتنا هذا ، ومواضعها من الجزيرة من مشرق ومغرب ، من غير تعرض إلى ما بينها من المسافات ، إذ كان كون النصارى بها مانعاً من معرفة ذلك .

فأول المدن في الحد الجنوبي المشرقي على ساحل البحر الرومي مدينة برشنونه ثم مدينة طوكونه ثم مدينة طرطوشة هذه البلاد التي على ساحل البحر الرومي المذكور أعادها الله للمسلمين .

والمدن التي على غير الساحل في هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة

---

(١) رأس Spartel .

وأفراغة وقلعة أيوب ، هذه كلها وملكها صاحب برشنونه لعنه الله وهذه الجهة التي تسمى أرغن .

وفي الحد المتوسط ما بين الجنوب والمغرب من المدن مدينة طليطلة وكونكة وإقليج وطليبرة ومكادة ومشريط ووبذ وشقوبية هذه كلها يملكها الأدفنش[٢] ... وتسمى هذه الجهة قتشال .

وتجاور هذه المملكة فيا يميل إلى الشمال قليلاً مدن كثيرة أيضاً وهي سموره وشلمنكة والسبطاط وقلمرية ، هذه كلها وملكها رجل يعرف بالببوج لعنه الله ويسمى هذه الجهة ليون .

وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الأعظم أقنابس مدن أيضاً منها الإشبونة وشنترين وباجه وسنتره وشنتياقو ومدينة يابرة ومدن كثيرة ذهبت عني أسماؤها يملكها رجل يعرف بابن الريق ...

فهذا ما بأيدي النصارى من مدن جزيرة الأندلس مما يلي بلاد المسلمين ، ووراء هذه المدن مما يلي بلاد الروم مدن كثيرة ، لم تشتهر عندنا لبعدها عنا وتوغلها في بلاد الروم ، لم يملكها المسلمون قط لأنهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها ، وإنما ملكوا معظمها واستولوا على أكثرها .

وأنا ذاكر بعد هذا ما بقي بأيدي المسلمين من البلاد ، وعن المراحل التي بينها وقربها من البحر وبعدها حتى يبين ذلك إن شاء الله تعالى :

فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة الأندلس اليوم حصن صغير على شاطئ البحر الرومي يسمى بنشكلة ، بينه وبين مدينة بلنسية ثلاث مراحل ، وهذا الحصن مما يلي بلاد الروم بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلاً ، ثم مدينة بلنسية وهي مدينة في غاية الخصب واعتدال الهواء ، كان أهل الأندلس يدعونها

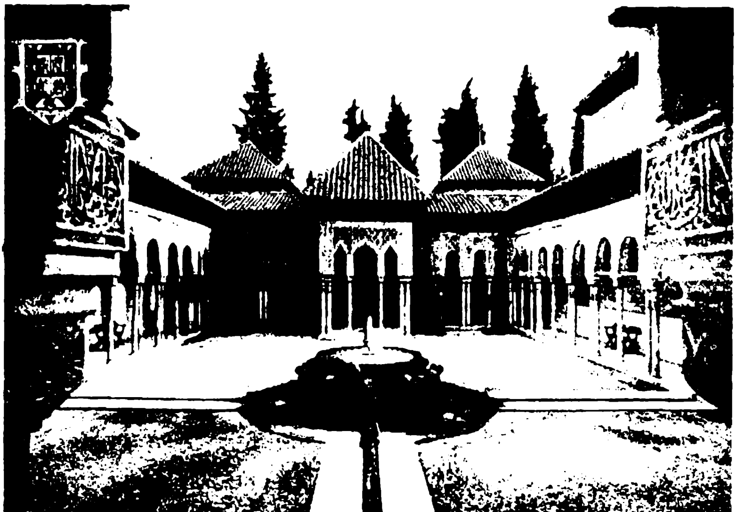
---

(٢) ألفونس Alfonse .

في ما سلف من الزمـان مطيب الأنـدلس ، والمطيب عنـدهم حزمـة يعملونها من أنواع الرياحين ، ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات ، سموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها .

وبين بلنسية هذه والبحر الرومي قريب من أربعة أميال ، ثم بعدها مـدينـة تدعى شـاطبـة بينهـا وبينهـا مرحلتـان ، وبينهـا مـدينـة صغيرة تـدعى جزيرة الشقر ، وسميت جزيرة لأنها في وسط نهر عظيم ، قد حف بها من جميع جهـاتها ، فلا طريق إليها إلا على القنطرة .

ومن شاطبة هذه إلى مدينة دانيـة التي على سـاحل البحر الرومي يوم تـام ، ومن شاطبة إلى مدينة مرسية ثلاثـة أيـام ، ومن مرسيـة إلى البحر الرومي عشرة



باحة الأسود في قصر الحمراء في غرناطة

فراسخ ، ومن مدينة مرسية إلى مدينة غرناطة سبع مراحل ، وبين ذلك وبلاط صفار أولها مما يلي مرسية حصن لرقة ، ثم حصن آخر يدعى بلس ، ثم حصن آخر يدعى قيلة ، ثم بليدة تسمى بسطة ، ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من غرناطة تسمى وادي آش ، ويقال لها أيضاً وادي الأشي ، وهكذا سمعت الشعراء ينطقون بها أشعارهم . فهذه البليدات التي بين غرناطة ومرسية .

وفي مقابلة وادي آش على ساحل البحر الرومي مدينة المرية مخففة الراء وهي مدينة مشهورة تضرب أمواج البحر في سورها . بينها وبين وادي آش هذه مرحلتان للمجدّ ، وبعد المدينة المعروفة بألمرية على ساحل البحر الرومي حصن منكب ، وهي بليدة صغيرة يضرب البحر أيضاً في سورها ، بينها وبين ألمرية أربع مراحل ، وبين حصن منكب هذا وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل ، وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمجد ، وبالجزيرة الخضراء أو بجبل الفتح يلتقي البحران كما ذكرنا ، فالذي على ساحل البحر الرومي من بلاد المسلمين بالأندلس الجزيرة الخضراء ومالقة ومنكب .

وبين المرية ودانية نحو من ثمان مراحل ، ووراء دانية الحصن الذي يسمى بنشكلة ، وقد تقدم ذكره ، فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالأندلس أعني ما يضرب الموج في سوره .

فأما مدينة بلنسية فبينها وبين البحر كما ذكرنا قريب من أربعة أميال .

ثم نعود إلى ذكر البلاد التي ليست على الساحل فنقول : من مدينة غرناطة إلى البحر قريب من أربعين ميلاً ، وذلك مسيرة يوم تام ، أو يومين على الرفق ، ومن مدينة غرناطة إلى مدينة جيان مرحلتان ، فبين جيان وبين البحر الرومي ثلاث مراحل ، ومن مدينة جيان إلى مدينة قرطبة مرحلتان ، وقد تقدم ذكر قرطبة هذه ، وأنها كانت دار ملك المسلمين ومقر تدبيرهم ، إلى أن نشأت الفتنة ، واختلّ أمر بني أمية بالأندلس .

وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة .

حكي عن ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال : كان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي ، هذا ما في ناحية من نواحيها ، فكيف بجميع جهاتها .

وقيل : إنه كان فيها ثلاثة آلاف مقلس وكان لا يتقلس عندهم في ذلك الزمان إلا من صلح للفتيا .

وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها أن الماشي كان يستضيء بسرج قرطبة ثلاث فراسخ لا ينقطع عنه الضوء ، وبها الجامع الأعظم الذي بناه أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد المتقلب بالناصر لدين الله ، وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله ، فزيادة الحكم معروفة إلى اليوم .

وحكى أبو مروان بن حيان رحمه الله في أخبار قرطبة : أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة في الجامع اجتنب الناس الصلاة فيها أياماً ، فبلغ ذلك الحكم ، فسأل عن علته ، فقيل له : إنهم يقولون : ما ندري هذه الدراهم التي أنفقها في هذا البنيان من أين اكتسبها ؟ فاستحضر الشهود والقاضي أبا الحكم المنذر بن سعيد البلوطي المتقدم الذكر في قضاته ، واستقبل القبلة ، وحلف باليمين الشرعية التي جرت العادة بها : إنه ما أنفق فيه درهماً إلا من خمس المغنم ، وحينئذ صلى الناس فيه لما علموا بيمينه . ومن الخمس أيضاً كان أبوه بناه ، وزاد فيه أبو عامر محمد بن أبي عامر زيادة أخرى من هذه النسبة ، فهو مسجد لم ينفق فيه درهم إلا من خمس المغنم ، وهو معظم القدر عند أهل الأندلس ، مبارك لا يصلي فيه أحد ويدعو بشيء من أمر الدنيا والآخرة إلا استجيب له ، فقد عرف ذلك من أمره واشتهر .

وحكى غير واحد أن الأدفنش لعنه الله لما دخلها في شهور سنة ٥٠٣ هـ دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين ، لم تبل دوابهم ، ولم تروث حتى خرجوا منه .

وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة ، وقد جمع أهل الأندلس كتباً في فضائل قرطبة وأخبارها ، ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء ومن مدينة قرطبة إلى مدينة إشبيلية ثلاث مراحل .

وإشبيلية هذه هي حاضرة الأندلس في وقتنا هذا ، وهي التي تسمى عندهم في قديم الزمان حمص ، سميت بذلك لنزول أجناد حمص إياها حين افتتح المسلمون الأندلس ، وقد زاد أمر هذه المدينة على صفة كل واصف ، وأتى فوق نعت كل ناعت ، وهي على شاطئ نهر عظيم ينصب من جبل شقورة ، وتنصب فيه أنهار كثيرة ، فلا يصل إلى إشبيلية إلا وهو بحر خضم ، تصعد فيه السفن الكبار من البحر الأعظم ترسي على باب المدينة ، بينها وبين البحر الأعظم سبعون ميلاً وذلك مرحلتان . وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بني عباد حسب ما تقدم ثم صيرها المصامدة (الموحدون) منزلاً لهم أيام كونهم بالأندلس ، منها ينفذ أمرهم ، وفيها يستقر ملكهم ، وبنوا بها قصوراً عظيمة ، وأجروا فيها المياه وغرسوا البساتين ، فزاد ذلك في حسن هذه المدينة أعني إشبيلية .

ومن إشبيلية إلى مدينة شلب التي على ساحل البحر الأعظم خمس مراحل . وبين ذلك بليدات صغار كمدينة لبلة وحصن مرتلة ومدينة طبيرة ومدينة العليا والمدينة المعروفة بشنترية . هذه البلاد كلها فيما بعد شلب وإشبيلية من مغرب الأندلس .

وبين قرطبة وبين البحر الرومي خمس مراحل ، وقرطبة أيضاً على ساحل هذا النهر الذي ينصب إلى إشبيلية . إلا أنه عند إشبيلية يعظم جداً حتى تصعد

فيه السفن كما تقدم ، وينحدر من أراد في القوارب من قرطبة إلى إشبيلية ، ويصعد من إشبيلية إلى قرطبة كهيئة النيل .

وبين مدينة إشبيلية ومدينة شريش مرحلتان ، وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل ، فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ، ومسافات الأبعاد التي بين كل بلد وبلد على التقريب ، منها : ما سافرت فيه بنفسي ، ومنها : ما نقلته مستفيضاً عن السفار المترددين .

(**فصل**) وقد رأيت أن أذكر ههنا جملة أنهار الأندلس الكبار المشهورة بها :

فأول ذلك مما يلي المشرق نهر طرطوشة ، وهو نهر عظيم ينصب من جبال هناك إلى مدينة طرطوشة ، ثم يصب في البحر الرومي . وبين طرطوشة وبين البحر الرومي اثنا عشر ميلاً .

ثم مرسية وهو يصب أيضاً في البحر الرومي ، منبعه من جبل شقورة ، وهو قسيم نهر إشبيلية ، منبعهما واحد ، ثم يفترقان فينصب هذا إلى إشبيلية وهذا إلى مرسية .

ثم نهر إشبيلية الأعظم وقد تقدم ذكر منبعه ، ثم تنصب فيه قبل وصوله إلى إشبيلية أنهار كثيرة ، فيعظم حتى يصير بحراً ، كما ذكرنا ، ثم يصب في البحر الأعظم المسمى أقنابس .

ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمى تاجو ، وهو الذي عليه مدينة طليطلة وشنترين ، وبين هاتين المدينتين قريب من عشر مراحل .

وعلى هذا النهر أيضاً مدينة الإشبونة وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ، ثم ينصب هذا النهر إلى البحر الأعظم فهذه جملة أنهار الأندلس المشهورة بها .

وقد نجز بحمد الله جميع هذا الإملاء حسب ما رسمه مولانا ، وجريت في ذلك كله على عادتي في التلخيص ، وتركت أسماء القرى والضياع والأنهار الصغار وغير ذلك ، مما لا تدعو إليه الحاجة ، ولا يُخِلُّ بالتصنيف تركه ، فإن وافق غرض مولانا ولاق بنفسه ، وأتى وفق مراده ، فهي البغية والأُمنية العظمى التي لم أزل أكدح لها ، وأسعى فيها وأسابق إليها ، وإن يك غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فحرم الإصابة ، ولم يقع على المراد ولا في المقصود ، وبالله أعتصم وإياه أسترشد وعليه أعتمد ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

النص الثاني

نستدل من هذا النص على عراقة العرب في علم التعدين والمعادن والكشف عن فلزاتها وتحديد مواقعها واستغلالها ، مما يشهد لهم بطول الباع في هذا المضمار ، لأن معظم المواقع التي يذكرها التيمي تنطبق تماماً على المناجم الحالية في المغرب الأقصى وإسبانيا والسودان .

ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد والكبريت والرصاص والزيبق وغير ذلك وأسماء مواضعها

قد تقدم ذكر معدن الكبريت الذي بين برقة وطرابلس ، وأنه بالقرب من حصن يدعى طلميثة . وفيما بين سبته ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى تمسامان ، فيه معدن حديد . وفيما بين سلا ومراكش قريباً من ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلاً بموضع يدعى إيسنتار فيه معدن حديد أيضاً ، وليس هذا الموضع على طريق السفار ، إنما يقصده من أراد حمل الحديد منه . وبالقرب من مكناسة الزيتون ، على ثلاث مراحل منها ، حصن يدعى وركناس ، فيه معدن فضة .

وقد ذكرنا معدن زجندر وبسوس أيضاً معدنان للنحاس ومعدن توتيا ،

وهي التوتيا التي يصبغ بها النحاس الأحمر ، فيصير أصفر ، فهذا جملة ما بالعدوة من المعادن .

وبجزيرة الأندلس معادن أيضاً ؛ فمنها معدن فضة ببلاد الروم في الجهة المغربية بموضع يدعى شنترة ، وعلى أربع مراحل من مدينة قرطبة موضع يسمى شلون فيه معدن زيبق ، منه يفترق الزيبق على جميع المغرب . وفي أعمال المرية ، وعلى يوم ونصف منها ، بموضع يعرف بلولاية ، فيه معدن رصاص . وفي أعمال المرية أيضاً ، على يوم ونصف منها ، موضع يسمى بكارش ، فيه معدن حديد أيضاً . وما بين دانية وشاطبة موضع يسمى أوروبة ، على نصف يوم من دانية ، فيه معدن حديد . فهذا أيضاً جملة ما بالأندلس من المعادن .

فأما الذهب فسوق إليها من بلاد السودان .

ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد إفريقية على نصف مرحلة من مدينة تونس ، يسمى مجردة ، ينصب من جبل هنالك ، ينتهي إلى البحر الرومي .

ونهر بجاية الذي يسمى الوادي الكبير ، وهو منتزهها ، وعليه بساتينها وقصورها .

ونهر آخر فيما بين تلمسان ورباط تازا يدعى وادي ملوية ، يصب في البحر الرومي أيضاً . ونهر يدعى سبو هو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها .

ويجاور نهر سبو هذا نهر آخر يدعى ورغة . وهذان النهران ينصبان إلى البحر الأعظم بحر أقنابس ، بعد أن يلتقيا بموضع يدعى المعمورة .

وفيما بين مكناسة وسلا نهر يدعى بهتاً ينصب إلى البحر الأعظم أيضاً ونهر سلا المتقدم الذكر .

وفيما بين سلا ومراكش وعلى ثلاث مراحل من مراكش ، نهر عظيم يـدعى أم ربيع ، ينصب من جبال صنهـاجـة من موضع يـدعى وانسيفن ، يصب في البحر الأعظم أيضاً .

ونهر على أربعة أميال من مراكش عليه قنطرة عظيمة يسمى تانسيفت .

ونهر سوس الأقصى ونهر ببـلاد حـاحـه يسمى شفشـاوة . هـذه الأنهـار كلهـا تصب إلى البحر الأعظم .

فهذه جملة الأنهار الكبار التي بالمغرب التي لا يقل ماؤها ، ولا ينقطع شتـاء ولا صيفاً ، ولم نتعرض لذكر الأودية الصغار والأنهار التي تيبس في الصيف .

مُحمَّد الزّهريّ

توفي بعد سنة ٥٤١ هـ / ١١٥٤ م وقبل ٥٥٦ / ١١٦١ م

هو أبو عبد الله بن أبي بكر الزهري ، ويعود نسبه إلى قبيلة بني زُهرة بن كلاب التي كانت تخيم حوالي مكة المكرمة والتي أنجبت أعلاماً من الصحابة والتابعين والمحدّثين والفقهاء والقضاة في مشارق دار الإسلام ومغاربها . والغالب أن الزهري المذكور من فرعها الأندلسي . وهو من دون شك قد تجول كثيراً في ربوع الأندلس ونشأ بها ، وتوفي فيها ، ويرجّح أنه من حاضرة المرية ، أما الزمان فيمكن تحديده بإمعان النظر في التواريخ العديدة المذكورة في نصّه :

فهناك اثنان يمكن اتخاذهما بمثابة وثيقتين تدلاّن على مدة نشاطه :

فهو يقول في كتاب (الجغرافية) بأنه في سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م زار أصحاب الكهف بقرب لوشه من عمل غرناطة ، وبأنه في سنة ٥٤١ هـ / ١١٥٤ م اجتمع في شقورة بمواطن عائد من القدس . فهو يظهر في التاريخ الأول كهلاً ، يعتني بمفهوم أعجوبة أهل الكهف ، وبما فيها من الاعتبار الروحي ، بينما هو يشهد في التاريخ الثاني على أنه لم ينته بعد من كتابة نصّه وأنه ما زال بصدد جمع مواده . وهناك تاريخ ثالث ذو بال . فهو يحدثنا عن مُعاصرٍ له اشتهر بالمغامرة في أيام الفتنة التي كانت إذ ذاك تسود الأندلس هو إبراهيم بن هُمُشْكُ ، غي أنه لا يذكر له حادثاً هاماً قام به في سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م هو استيلاؤه على حاضرة غرناطة .

فإذا قارنا هذه التواريخ الثلاثة اتضح لنا أن الزهري توفي بعد سنة ٥٤١ هـ / ١١٥١ م وقبل سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م وأنه معاصر للإدريسي وأبي حامد الغرناطي .

ومعنى كلمة (جَغْرافيّة) وهو عنوان كتابه : « كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ » في الأصل خريطة ، والخريطية المثالية هي خريطة الخليفة المأمون الشهيرة التي نُسختْ عنها غيرها . ومرادفها بهذا المعنى الخاص كلمة (سُفرة) وكلمة (مُفْرَدة) وهما كلمتان واردتان في نصّ الكتاب غير مرة ، ويؤكد هذا المعنى قول الكاتب مراراً : « صورنا ... رسمنا ... » .

وقد اعتمد الزهري في كتابه على أعلام مشاهير ذكر من بينهم أرسطو والفزاري والمسعودي وأبا

بكر الرازي وابن الجزار وابن حيان والعذري وغيرهم . فينقل من تآليفهم مبيّناً عناوينها ، غير أنه في الاقتباس يكتفي بالمعنى دون المبنى كأنه يروي ما علق بحافظته لا ما هو مكتوب أمام عينيه ويديه[1] .

النص الأول
مقدمة المؤلف

خير ما أستفتح به الكلام ، حمداً لله الواحد العلاّم ، ثم الصلاة على خير الأنام ، محمد عليه السلام ، وعلى آله وأصحابه الطاهرين الكرام ، وسلّم كثيراً . قال المؤلف لهذه السُّفْرة العجيبة والحكاية الغريبة : أما بعد حمد الله تعالى ، فإني نسخت هذه الجغرافية من نسخة نسخت من جغرافية الفَزاريّ التي نسخت من جغرافية أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، التي اجتمع عليها وعلى عملها سبعون رجلاً من فلاسفة العراق ، فوضعوها على صفة الأرض ، وإن كانت على غير الحقيقة من ذلك . لأن الأرض كرويّة ، والجغرافية بسيطة لكنهم بسطوها كما بسطوا الأسْطُرْلاب ، وكما بسطوا هيئات الكُسوف في دواوينهم ، ليعلم الناظر فيها جميع أجزائها وأصقاعها وحدودها وأقاليمها وبحارها وأنهارها وجبالها ومعمورها وقفرها ، وحيث تقع كل مدينة من مدائنها في شرقها وغربها ، وينظر الناظر مكان أعاجيبها ، وما في كل جزء من الأعاجيب المشهورة والمباني الموصوفة بالقدم في أقطارها .

وقد اشتملت هذه الجغرافية على جميع أقطار الأرض ، وما فيها من الخلائق على صفاتهم وصورهم وألوانهم وأخلاقهم ، وما يأكلون وما يشربون من الفواكه والحبوب ، وما في كل صقع مما ليس في غيره ، واختلاف أرزاقهم وما يُجلب لكل

---

(1) اعتمدنا في هذه الترجمة على مقدمة محقق كتاب الجغرافية للزهري الأستاذ محمد حاج صادق .

صقـع من التُحف والطُرف والطيب والعطر والمتـــاع والسلـع والمتجر في البر والبحر ، ومـا في أقطـار الأرض من الحيوان المـذكورة المشهورة بـالخواص والسموم القـاتلات والمنـافع لـذلـك . ومـا في جميع برهـا وبحرهـا على مـا وصفـه الحكمـاء المتقدمون والفلاسفة الماضون في هذه الجغرافية من الأرض طولهـا وعرضهـا ، ومـا قالت الفلاسفة في تكسيرها[٢] وعدد فراسخها وأميالها ، وما في كل جزء من ذلك . والله أعلم بحقيقـة ذلـك كلـه . لا رب غيره ولا معبـود سـواه ، هـو المعين المـوفـق للصواب بمنّه وكرمه .

النص الثاني

مناقشة كروية الأرض

الأرض كرويَّـة أم سطـح ؟ اختلف النـــاس ممّن سلفَ وخلفَ أن الأرض كرويَّة . ومنهم من قال : إنهـا سطح ، فـأمـا من قـال : إنهـا سَطْح فلا يقوم لـه برهان ، غير أنه تعلق بقوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ وتأويل هـذه الآية لا يفقهـه إلا أهل العلم[٣] . ولو أن الله تعـالى دحى الأرض لمـا استقر عليهـا أحد . وهو قوله عز وجل : ﴿ لتسكنوا منها سُبُلاً فِجاجاً ﴾ [نوح ٧١ / ٢٠] .

وأما من قال أنهـا كرويـة فلـه في ذلـك البراهين الواضحـة والـدلائل البيّنـة منها :

---

(٢) أي قياس مسافاتها ومساحاتها أو الكادسترو .

(٣) سورة النـازعـات ٧٩ / ٣١ وفي تفسير الجلالين : « دحـاهـا : بسطهـا وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو » ولكن البسط هنا جزئي ومعنـاه على الأرجح تشـذيب سطحهـا من الجبـال السـامقة والأغوار السحيقـة . وفي ليبيا تطلق على البيضة كلمة دحية أي مستـديرة وجمعها دحي . وعنـدهم دحـا الشيء : كوّره ويطلق النـاس عندنا على الكريات الزجاجية التي يلعب بها الأطفال دحل . ويقال رجل دَحِل أي مندلق البطن . والأدحية مبيض النعام في الرمل .

جَرْي الماء على الأرض .

واختلاف النظر في الفلك .

وقِصَر الظل .

وقصر الليل وطول النهار وإيلاج بعضهما في بعض .

واختلاف دَرْج المطالع .

ولو كانت الأرض سطحية لم يكن في الفَلَك من هذا كله شيء ، ولكان الليل والنهار على حد واحد طول الدهر . واختصرنا الكلام في هذا إذ ليس هذا موضعه .

النص الثالث

بُصْرى وطرطوس وحمص

تظل المعلومات التي يقدمها الزهري عن أقطار المشرق غير متينة ، لأنه يسرد ما علق بذهنه من قراءة العديد من المؤلفات الجغرافية ، إذا لم يتح له كما يبدو الخروج من الأندلس .

وبمقربة من هذا الجبل[٤] أرض **بُصْرى** ، وهي أرض خصبة ، وفيها مدينة تسمى **بُصرى** . وقيل : إنها نسبت الأرض إليها . وأحسن الروايات أنها إنما نسبت المدينة إليها ، لأن الأرض فيها جبال تعرف بجبال بُصرى . وفيها من الهياكل والكنائس للروم ما لا يوصف . وفيها الموضع المعروف برأس الكنائس وهو أول ثغور الشام .

وبمقربة من هذا الجبل مدينة **طرطوس**[٥] ، وهي مدينة كثيرة الخصب

---

(٤) أي جبل الشيخ وكان يدعى بلُدان .

(٥) وترد في بعض النسخ طلسوسة ، طلسوس ، أو بطليوس .

والثمار والجنّات وغير ذلك . وفي جنوب هذه المدينة مدينة **حمص** ، وهي على ضفة نهر الأردن[٦] ، وفيها بساتين وجنات وزروع وكروم على شاطئ هذا النهر . وأهل هذه المدينة أكثر الناس ظَرفاً ومجوناً ورَقاعة . ولهم على هذا النهر منازل كثيرة أنيقة .

دمشق : ومما يلي هذه المدينة في الجنوب مدينة دمشق وهي حاضرة الشام وقاعدته ودار مُلك بني أمية . ومنها استفتحوا بلاد الأندلس وبلاد المغرب وكثيراً من أرض فلسطين في مدة الوليد بن عبد الملك . ويقال : إنها من بنيان اليونانيين . ومنها خرج الإسكندر فيلبُوس ملك اليونان . وفيها كان أرسْطاطاليس الحكيم . وإنما قيل ذلك ، لأن في وسطها باباً عظيماً يعرف بباب جَيْرُون . وهذا الاسم إنما هو يوناني تفسيره بالعربية باب القصور .

ومن عجائب هذه المدينة قال رسول الله ﷺ : « لا يدخُلُها الدجّال المسيح ، لعنه الله . وفيها ينزل عيسى بن مريمَ عليه السلام » وهذه المدينة كثيرة الخصب والأرزاق من القمح والشعير القطاني والفول والفواكه حتى تبلغ النخلة الواحدة عندهم عشرة أصواع ، والعنقود الواحد يبلغ رُبُعاً وأقل من ذلك . وهي كثيرة الألبان والمواشي وهي كثيرة الفرصاد وهو قوت العرب . وشهرتها تغني عن وصفها ، فلذلك اختصرنا ذكرها والله أعلم .

النص الرابع

جزر حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي

يسهب الزهري عندما يتكلم عن الأقطار القريبة من وطنه ، وتصبح معلوماته أكثر دقة وتكثّف نظراً لعلاقتها بالأندلس ، وسهولة الاتصال بها . أو التقاط أخبارها من الرحالة والتجار الذين يترددون عليها ، وتوفر المعلومات عنها في مؤلفات الجغرافيين الأندلسيين والمغاربة .

---

(٦) ولعله يقصد الأرنْد أي العاصي Oronte .

« والجراهي جزيرة يابسة ، وطول هذه الجزيرة عشرة فراسخ وعرضها ثمانية . ومنها يُجْلب الملح والخشب إلى بلاد إفريقية . وهي جزيرة كثيرة الثمار والزرع غي أنها لا تُنْجَب فيها الغنم ، وتمكث فيها أقل من خمسة أيام وتموت ، وإنما تنجب فيها المَعَز . وهي أكثر كسبهم ، ومنها يُجلب الزبيب واللوز والتين ، إلى مَيُورقة . ولا يوجد فيها الزيتون ولا يعرفونه إلاّ ما جُلب إليهم من بلاد الأندلس .

ومما يلي شرقي هذه الجزيرة (يابسة) جزيرة **مَيُورقة** ، وهي جزيرة طولها سبعة وعشرون فرسخاً وعرضها خمسة وعشرون فرسخاً . وفي وسطها جبل يهبط منه نهر يشق هذه الجزيرة ويسقي جميع أرضها . ويشقُّ فضْلُه على مدينة مَيورقة . وفي هذه المدينة أعاجيب البناء ، وفيها برج عظيم على حافة البحر يُكشَف على مسافة يومين في البحر .

وفيها المعقل العظيم المشيَّد الذي ليس في معمور الأرض مثله . وهو الحصن الشهير المعروف بحصن الأرون . ذكر أهل مَيورقة أنه لما افتتحت هذه الجزيرة في مدة محمد بن الأمير الخامس من بني أمية في الأندلس ، أن الروم بقوا في هذا الحصن بعد أخذها ثمانية أعوام وخمسة أشهر لا يقدر عليهم أحد حتى نفذ ما كان عندهم من الطعام . فعند ذلك هبطوا . وهذا الحصن قد ارتفع في الهواء من حجر صلد في رأسه عين سائلة كبيرة .

وهذه الجزيرة كثيرة الزرع والفاكهة . ولكن أهلها لا يعرفون ثمار الزيتون إلا ما يجلب إليهم ، والتين قليل عندهم وقد يزرعون القطن والكتّان ولا يعرفون الحرير ولا ثمرته إلاّ ما يجلب إليهم من بلاد الأندلس ومن بلاد الشام . وأكثر كسبهم الغنم وقليل من المعز . وعندهم كثير من البقر والخيل والبغال ، ولم يوجد قط في هذه الجزيرة ذئب ، والغنم تسرح عندهم دون حارس يحرُسها ، وقد يوجد فيها الثعلب والأرنب والقُنَلْيات ولا يوجد فيها أيِّل .

وهي مرتفعة على البحر من كل ناحية ، ولا يقدر أحد أن يطلع إليها ولا يهبط منها ، وإنما تدخل المراكب والزوارق على أبواب لها . وهي خمسة أبواب لها ، قد خلقها الله تعالى في انخفاض من الأرض صُنِعت فيها الأبواب ، ولولا ذلك لم يستطع أحد على الطلوع فيها ولا الهبوط منها . وهي جزيرة طيبة الهواء والماء ، ولأهلها ظرف وذمّة ، وفيهم حلاوة ورقاعة وهم من أهل الحسْن والجمال .

ومما يلي هذه الجزيرة في الشرق جزيرة **مِنورقة** ، وهي صغيرة على قدر جزيرة يابسة ، كثيرة الزرع والكرم وليس في معمور الأرض أطيب من لحم بقرها . وقد يطبخ فيذوب كما يذوب الشحم ويصير زيتاً ، والغنم فيها قليلة ، ومنها يُجلب النبات المعروف بعشبة هلّلت ، يعمل منه نوع من السّحْر مثل الأحجار التي تقدم ذكرها في الصحراء .

وهذه الجزائر الثلاثة تُضاف إلى بلاد الأندلس ، لأن أخلاق أهلها وطبائعهم كطبائع أهل الأندلس ، وأمزجتهم واحدة ، ويوجد عندهم هذا الحيوان المعروف بالقَنَلْيَة ولا يوجد في معمور الأرض إلا عند أهل الأندلس .

وعرض هذا البحر من بلاد الإفرنج إلى بلاد إفريقية خمسئة فرسخ .

سَرْدانية ـ بُرْغمانة ـ مَشيلة ـ صقِلّيّة

وفي هذا البحر جزيرة **سَرْدانية** . وفيها معدن الفضّة وهو قويٌّ يكون الخالص منه الثُّلُث ، وهي جزيرة خصيبة كثيرة الفواكه والتُّحف . وفي هذا البحر جزيرة **برغمانة** ، وهي جزيرة خصيبة كثيرة الفواكه والتحف ، وبإزائها لناحية المشرق جزيرة **مشيلة**(٧) وهي جزيرة في طولها أربعة أيام وفي عرضها ثلاثة أيام . وهي كثيرة الزرع قليلة الفواكه والعود(٨) كثيرة اللحم والبقر ، كثيرة المياه .

---

(٧) وفي بعض النسخ مسيلة أو مرشيلية وربما يقصد بها دلتا نهر الرون المتاخم لمدينة مرسيليا .

(٨) أي الشجر ، ويقال عندنا أهل عود أي أهل شجر .

وفي هذا الجزء الجزيرة العظيمة المعروفة بجزيرة **صقليَّة** ، وهي جزيرة تقطع عرض البحر من الجنوب إلى الشمال . طولها سبعة أيام وعرضها مثل ذلك . أقرب السواحل إليها رأس الجبل الذي على مدينة تونُس . وبينها وبين تونُس أربعون ميلاً ، وبينها وبين برّ الإفرنج خليج من عشرة أميال ، وعليه جبل .

وفي صقلية البلد العظيم المسمَّى **بَمسَّين** . ومما يليه في المشرق **سَرَقُسْط** ومدينة **مرسى علي** . وهذا الموضع يعرف بالجناح الأخضر .

ومما يلي هذا الموضع في المغرب **جبل البُركان** ، وفيه النار العظيمة ، وهي نار تتأجَّج وتتأكَّل من قديم الزمان . لها في رأس الجبل منها منَافيس كمضاوي الحَمَّام ، تزفر عليها النار . فإذا كان الليل ظهرت تلك النيران ، ويخرج منها دخان يغطي الجو . وقد تزفر هذه النار ثلاث مرات في السنة يدوم زفرها في كل مرة سبعة أيام . فترمي بشرَر عظيم يعمُّ الأفق ويصعد في الهواء أزْيد من مئة ذراع ، ثم يقع في البحر فيصير حجارة سوداء على وجه الماء .

وزعم المسعودي في النسخة الكبرى من مروج الذهب ، أن هذا الشرر يكون على صور بني آدم ، منها صورة الشيخ والعجوز والشاب والشابة ، وتعود هذه الحجارة سوداء إذا جُعلت في الماء . وقد رأيت من رأى ذلك وباشَره وعاينَه ، وعايَن خروج الشرر من منافس الجبل ، ثم يقع في البحر ، ثم يتفتت ويعوم على وجه الماء(٩) حتى يغطِّي البحر ، فأخبر من رأى أن هذا الشرر يطير في الهواء على صُور بني آدم فإذا وقع البحر تفتَّت . قال صاحب التاريخ : « وقد رأيت من رأى هذه الأحجار كثيراً ، فأوَّل ما تكون صفراء ، وقد تكون مورَّدة ، فإذا جعلت في الماء الجاري اسودَّت ، وإذا مكثت اسودَّت من غير ماء » .

وهذه الجزيرة كثيرة المياه والعيون غزيرة الأنهار . كثيرة الفواكه أيضاً

---

(٩) وهو حجر الخفَّان .

والأرزاق والزرع والضَّرْع . منها يُجْلب الجوز واللوز والقسْطل والفستق والبندق إلى بلاد إفريقية وغيرها ، ويجلب منها كثير من القطن والمَيْعة الطيبة السائلة ، وهي من أعظم الأدوية وأكثرها فائدة ومنفعة ، لا توجد هذه الميعة السائلة في الهند . وإنما توجد في جزائر هذا البحر . وإن كان بحر الهند معروفاً بالدُّر والجوهر فقد يوجد في غيره من البحار . وأما المرجان فلا يكون إلا في هذا البحر وحده . وهذه الجزيرة تُضاف إلى بلاد الإفرنج . فالإفرنج قد ملكوا إفريقية فيما مضى من الدهر ، ولذلك يتكلم اليوم أهل تونُس وذواتها باللغة الإفرنجية ورثوها من الإفرنج .

وأما عرض هذا البحر من ساحل رومة والقسطنطينية إلى ساحل الإسكندرية وتينيس فسبعمئة وثمانون فرسخاً .

الهَرَويّ

توفي عام ٦١١ هـ / ١٢١٥ م بحلب

هو أبو الحسن علي بن أبي بكر ، وقيل أبي طالب ، ابن علي الهروي الموصلي . وإذا كانت نسبته تدل على أن أصل أسرته من هرات فقد ولد بالموصل ، وارتبطت حياته بالشطر الغربي من العالم الإسلامي ، وقد قضى معظم حياته في التجوال حتى لقب (بالسائح) ويذكر ابن خلكان عنه :

« لم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه » .

وقد أشار إلى ذلك جعفر بن شمس الخلافة في بيتين قالهما في شخص يستجدي من الناس بأوراقه :

أوراق كديته في بيت كل فتى ... على اتفاق معانٍ واختلاف روي
قد طبق الأرض من سهل ومن جبل ... كأنه خطّ ذاك السائح الهروي

ولكن رحلاته لم تكن في طلب العلم ، كما لاحظنا ذلك لدى العديد من الجغرافيين المعروفين لنا ، بل في زيارة أضرحة الأولياء، والمقامات الكثيرة التي سمع بها .

وقد استهل الهروي أسفاره من حلب ، فكانت بلاد الشام أولى الأقطار التي زارها ووصفها ، وقد حدث هذا بعد أعوام قليلة من زيارة ابن جبير . وأقام بعضاً من عامي ١١٧٣ ـ ١١٧٤ م بمدينة القدس التي كانت بأيدي الصليبيين ، وهنا تظهر لنا فائدة اهتمامه بالنقوش فقد دوّن نقوشاً ذات قيمة تاريخية كانت بمسجد عمر واختفت بعد ذلك .

وزار فيما بعد أضرحة الأولياء وأشهر أماكن العبادة المعروفة في العراق واليمن والحجاز ومصر وسورية وإيران والهند ، فكان في دمشق سنة ٥٦٨ هـ وفي الإسكندرية سنة ٥٧٠ هـ . ووصل إلى إفريقية ، فحمّله القائد أبو القاسم بن حمود رسائل إلى صلاح الدين الأيوبي يطلب منه تجهيز حملة ضد صقلية التي سقطت بيد النورمان .

وزار أرجاء الدولة البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية في زمن الإمبراطور عمانوئيل الأول من آل

كومينين (١١٤٣ ـ ١١٨٠ م) ويروي أنه تحادث مع الإمبراطور المذكور . وسنحت له الفرصة في صقلية أن يرى ثوران بركان أتنا عام ١١٧٥ .

وهو وإن لم يزر الحبشة إلا أنه وصف الأماكن المشهورة فيها نقلاً عن من زاروا تلك البلاد . والجانب الفريد في مؤلف الهروي (كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات) وهو أشبه بمرشد للحجاج[1] هو اعتماده على ذاكرته اعتماداً تاماً أثناء تدوينه له ، ذلك أن الجانب الأكبر من أوراق الهروي ومدوناته فقد في أعقاب كارثة حلب بسفينته قرب عكا في عام ١١٩٢ ، كما كان الهروي في القافلة التي نهبها ريشار قلب الأسد في جنوب فلسطين في السنة نفسها ، فضاعت بقية وثائقه . وطلب ريشار الذي سمع بفضل الهروي ليقابله ، فرفض لحنقه على ما انتابه على يد الصليبيين . ثم قصد دمشق فحلب حيث تمتع بنفوذ كبير لدى واليها الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي الذي شمله برعايته وشيد له الأمير مدرسة بظاهر حلب توفي بها ، وقد رأى قبره ابن خلكان .

وتبدو أسفار الهروي أنموذجاً حياً لتلك الرياضة الروحية التي سيطرت مع مرور الزمن على أعداد ومجتمعات كثيرة . ونظراً لأنه اتخذ في تجواله سمة صوفي متسول فقد استطاع أن يحصل على ما يقيم أوده في الطريق ، ويقال : إنه كان يستغل أحياناً معرفته بالسحر (السيما) وجميع ضروب الخوارق .

ويعتبر عبد الكريم السمعاني (ولد عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م وتوفي ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م » والهروي كأستاذين لياقوت الحموي الذي نقل عنهما كثيراً .

ويشير الهروي إلى كتب أخرى من تأليفه مثل كتاب (منازل الأرض ذات الطول والعرض) و (كتاب الآثار والعجائب والأصنام) وله كتاب في السياسة اسمه (التذكرة الهروية في الحيل الحربية) ضمّنه ما يحتاج إليه الملوك في سياسة الرعية ، وما يعتمدون عليه في الحروب ، وما يدخرونه لدفع المشكلات واجبات السلطان والوزراء والحجاب والولاة والقضاة وأرباب الديوان والجلساء والرسل ، والحيلة في إرسالهم ، والجواسيس وأصحاب الأخبار وجمع المال والذخائر وآلة الحرب والحصون . ولهذا الكتاب نسخة خطية في المكتبة الخديوية بالقاهرة .

---

(١) نشرته وحققته السيدة جانين سورديل ـ طومين . الفرنسية الجنسية عام ١٩٥٣ وطبع بإشراف المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق .

النص الأول

يذكر الهروي في مقدمة كتابه دواعي تأليفه (كتاب الزيارات) وكيف ابتدأها من حلب وضياع معظم وثائقه ومذكراته غرقاً ونهباً على أيدي الصليبيين .

« الحمد لله حقَّ حمده ، وصلاته على خير خلقه ، محمد الأمي وآله وصحبه ، وشرَّف وكرَّم :

أما بعد ، فإنه سألني بعض الإخوان الصالحين والخلان الناصحين ، أن أذكر له ما زرته من الزيارات ، وما شاهدته من العجائب والأبنية والعمارات ، وما رأيته من الأصنام والآثار والطلسمات في الربع المسكون والقطر المعمور ، ووقع الامتناع ، إلى أن حصل لي الاجتماع ، برسول وفد الديوان العزيز(٢) ـ شرَّفه الله وعظَّمه ـ وتبركنا بزيارته ، واستسعدنا برؤيته ، إذ كان قدومه من دار السلام ، وقبَّة الإسلام ، ومقر الإمام عليه السلام ، وذكر الشيخ الرسول زيارات زارها بالشام وأرض بعلبك ، وذكر بعض الحاضرين قبور بعض الأنبياء عليهم السلام ، وقد اختُلف في صحة ذلك .

فوقع ابتداء ذكر الزيارات ابتداء من مدينة حلب ، وكان الواجب أن نبتدئ بذكر مدينة السلام ـ حرسها الله تعالى ـ إذ بها إمام المسلمين ، وخليفة الموَّحدين ، وأمير المؤمنين ، وابن عم سيد المرسلين ، الإمام أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين ابن الإمام المستضيء بأمر الله ... الذي رفع المظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأقام حدود الله ، وأحيا سنَّة رسول الله ... إلا أننا أخرنا ذكر زيارات مدينة السلام ، لنجعلها مفتاحاً إلى ذكر زيارات الحرمين الشريفين المعظَّمين مكة والمدينة حرسها الله تعالى .

---

(٢) من ديوان الخلافة العباسية ببغداد .

وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الإيجاز ... وإن جرى فيا أذكره شيء بطريق السهو والغلط ولا بطريق القصد ، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق ، فإن كتبي أخذها الأنكتار[٣] ملك الفرنج ، ورغب في وصولي إليه ، فلم يمكن ذلك ، ومنها ما غرق في البحر . وقد زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة ، وقد نسيت أكثر ما رأيته ، وشذّ عني أكثر ما عاينته ، وهذا مقام لا يدركه أحد من الزهاد والسائحين ، ولا يصل إليه أكثر المسافرين والعبّاد إلاّ رجل جال الأرض بقدمه وأثبت ما ذكرتُه بقلبه وبقلمه .

وها أنا أبتدئ بذكر الزيارات من مدينة حلب وأعمالها ، والبلاد التي تليها ، ثم أذكر الشام بأسرها ، والساحل بأسره ، وبلاد الفرنج ، وفلسطين والأرض المقدسة ، وجميع زيارات البيت المقدّس ، ومدينة الخليل عليه السلام ، وديار مصر بأسرها ، والصعيدين والبلاد البحرية ، والمغرب ، وجزائر البحر ، وبلاد الروم ، وجزيرة ابن عمر ، وديار بكر ، والعراق بأسرها ، وأطراف الهند ، والحرمين الشريفين مكة والمدينة ـ حرسها الله تعالى ـ واليمن ، وبلاد العجم ، مع أنه لم يدخل بلاد العجم والمغرب نبيٌّ ، بل بها من الصالحين والأبدال والأولياء والعلماء ، ما لو جُمِعَ لكان كثيراً .

وهذا الكتاب مقتصر على ذكر الزيارات ، وأما ذكر الأبنية والآثار والعجائب والأصنام ، فلها كتاب مفرد غير هذا ، ولا بد أن نذكر ههنا طرفاً مما يليق بهذا الكتاب إن شاء الله تعالى » .

---

(٣) هو ريشار قلب الأسد .

النص الثاني

الطريق من الجيزة إلى مصر القديمة

« الأهرام من عجائب الدنيا ، وليس على وجه الأرض شرقيِّها وغربيِّها عمارة أعجب منها ، ولا أعظم ولا أرفع ، ورأيت بديار مصر أهراماً كثيرة ، منها خمسة كبار ، والباقي صغار .

فأما الكبار فاثنان عند الجيزة . واثنان عند قرية يقال لها دهْشور وهرم عند قرية يقال لها مَيْدوم . وقد اختلفت أقاويل الناس فيها ، وفي من بناها ، وما أريد بها ، فمنهم من قال : « إنها قبور الملوك » . ومنهم من قال : « إنما عملوها خوفاً من الطوفان » . وهي مربعة على هذا المثال ، كل وجه من الهرم على هذه الهيئة ، مساحة كل وجه منها على وجه الأرض تزيد على أربعمئة ذراع ، وارتفاعها في الجو يقارب أربعمئة بذراع العظم وينتهي رأس الهرم إلى مقدار ثمانية أذرع .

وقيل : إن المأمون فتح هرماً منها ، وهو أحد الهرمين اللذين عند الجيزة ، فوجدوا داخله بئراً مربعة ، في تربيعها أبواب ، يفضي كل باب منها إلى بيت فيه موتى بأكفانهم . وقيل : إنهم دخلوا في رأس هذا الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر على مثال القبر ، وفيه كالآدميِّ من الدهنج ، وفي وسطه إنسان عليه درع من ذهب مرصَّع بالجوهر ، وعلى صدره سيف لا قيمة له ، وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ضوءه كالنار .

يقول مؤلف هذا الكتاب : دخلت إلى هذا الهرم وصعدت إليه ، ورأيت هذا الحوض وأصحُّ ما قيل : إنما عملوها خوفاً من الطوفان ، وكنزوا فيها أموالهم ، ورقموا عليها علومهم ، فلم ينفعهم من ذلك شيء ، واندرست آثارهم

وذهبت أموالهم وبقيت أخبارهم ، والكتابة التي عليها بقلم الطير لا يعلمه أحد في الدنيا ، وكذلك البرابي ببلاد الصعيد لا يحل قلمها أحد ، ولا بد أن نذكر في كتاب العجائب والآثار والأصنام والطلسمات جميع ما سمعناه من أخبار الأهرام والصنم أبي الهول ، وجميع البرابي ببلاد الصعيد ، وحديث الصنم الذي يقال له السيدة بدرب السيدة بمصر ومسالٌ فرعون إن شاء الله تعالى .

النص الثالث

بلد الخابور

يتكلم الهروي عن بعض قرى ومدن نهر الخابور[١] ويبين حب الجهاد السائد بين الناس وتفضيلهم إياه على العبادة والورع .

« مدينة **عَرَبان** بها قبر هانئ من الصحابة (رضي الله عنهم) .

مدينة **قَرْقِيسيا** بها مشهد فيه كفُّ عليٍّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، وبها قبر جرير بن عبد الله البَجَلي واختُلف فيه .

القَعْف قرية من بلد الخابور ، قبليّها جبل مرد ، به مشهد الرامس ، يقال عمّره أحد العمرَين ، والله أعلم بالصحيح وفضيلته ظاهرة .

مدينة **الرَحْبَة** بها قبر عبد الله بن المبارك ، وقيل : إنه مات بهيت ، وهو الذي كتب له الفُضَيْل بن عياض الأبيات المشهورة ، وكان بينهما أخوّة في الله تعالى ، وكان الفُضَيْل قد لزم العبادة بحرم مكة ، وابن المبارك قد لزم الجهاد والرباط بأرض الشام والأبيات هذه :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمتَ أنك في العبادة تلْعَبُ
من كان يتعبُ خيلَهُ في باطلٍ فخيولنا يوم الكريهة تتعبُ

أو كان يَخْضبُ خدَّه بـدمـوعـه   فنحـورنـا بـدمـائنـا تتخضَّبُ
ريـحُ العبير لكم ونحن عبيرنـــا   وهج السنـابك والغبـار الأشهبُ
ولقــد أتــانــا عن مقــال نبيّنــا   قــول صحيـح صـادق لا يكـذب
لا يستـوي وغبــار خيــل الله في   أنف امرئ ودخـــان نـــار تُلْهِبُ

فلما بلغته الأبيات بكى الفضيل وقال : « صدق أخي ونصحني » .

وبظاهر الرحبة مشهد البوق ، وهو موضع كان علي بن أبي طـالب نـازلاً بـه لما توجه إلى قتال معاوية . وبها مشهد ، يانس ولؤلؤ ، صـاحبي أبي محمد البطّـال كما ذكروا . وبهذا المشهد عظم الفخـذ لبعض الجبـابرة طولـه مقـدار ثلاثـة أذرع ، وعرضه مقدار شبر ، وقيل : وزنه خمسة وثلاثون رطلاً بـالرحبيّ ، كما ذكروا والله أعلم . وذكر بعض العلماء أن الرحبـة لم يكن لهـا أثر ، وإنمـا أحـدثها مـالـك بن طوق ، وليس بصحيح ، وإنمـا الرحبـة بنـاهـا النمرود بن كـوش ، وهي مـدينـة مذكورة في التوراة في السفر الأول في الجزء الثاني والله أعلم .

مدينة الأنبار بها الإمـام السفّـاح ابن محمـد بن عليّ بن عبـد الله بن العبـاس (رضي الله عنه) ، وبها ربيعة بن عبد الرحمن الرأي ، والله أعلم » .

ابْنُ سَعِيْد

٦١٠ هـ / ١٢٠٨ أو ١٢١٤ م ـ ٦٨٥ هـ / ١٢٧٤ أو ١٢٧٦ م

ولد أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي في غرناطة ، ليلة الفطر سنة ٦١٠ للهجرة ، في أسرة عريقة في الحسب والنسب ، كان لأفرادها صلة بالملوك ، وكان أبوه من أهل الأدب والتأليف . فقد بدأ جده في تأليف كتاب (المُغْرِب في أخبار المَغْرب) وعمل فيه أبوه وأتمه هو .

نال ابن سعيد حظه من العلم بإشبيلية ، ثم عمل لابن جامع وزير الموحدين بإفريقية ، وكان له ابن عم يعمل في خدمة الموحدين أيضاً . فوقعت بينهما جفوة خشي ابن سعيد على نفسه من عاقبتها ، فاستأذن في الرحيل برسم الحج . ولما جاء موسم الحج صحب أباه إلى الديار المقدسة عام ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م ، ثم وصل الإسكندرية سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م بعد أن سبقه والده إليها وأقام بها ، ولكن الأب توفي في الإسكندرية بعد العودة سنة ١٢٤٣ ، ثم زار في طريقه أهم مدن جزيرة المغرب . وكان وصوله متأخراً عن موعد الحج ، فقصد القاهرة ولقي بها إيدمر التركي والبهاء زهير وابن يغمور ، وهو يومئذ رئيس الأمور بالديار المصرية . وقد استدعى سيف الدين بنْ سابق ابن سعيد إلى مجلس بضفة النيل مبسوط بالورد وقد قامت شمامات نرجس فقال ابن سعيد :

من فَضَّلَ النرجسَ فهو الذي	يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعداً	وقام في خدمته النرجس

ووافق ذلك وقوف المماليك الترك في الخدمة فطرب الحاضرون .

وتخلف ابن سعيد بالقاهرة حتى عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .

وحدث أن جاء مصر رسول من الملك الناصر هو جمال الدين بن القيم لزيارة كلَّفه بها مليكه ، فتعرف ابن سعيد إليه ، فأكرمه وحبَّب إليه الرحلة إلى حلب ليغترف مما في خزائنها من كنوز أدبية ، فلما دخل على الملك الناصر أنشده قصيدة أعجبته ، فاستجلبه وتلطف به ، وأقبل عليه ، وسأله عن قصده من رحلته ، وقدم له ما استطاع من مساعدات ، وأغدق عليه الخلع والأموال .

وتعرف ابن سعيد على عدد كبير من رجال السيف والقلم ، الذين كانوا في حاشية الناصر ، وأقام حيناً من الدهر بالموصل وبغداد والبصرة بعد أن تحول إلى دمشق ، ودخل مجلس السلطان المعظم ٦٣٧ هـ ـ ٦٤٧ ، وحضر مجلس خلوته . وقبل استيلاء هولاكو على بغداد بأعوام قليلة ، تمكن ابن سعيد من متابعة دراسته بمكتباتها البالغة ستاً وثلاثين مكتبة عدداً ، والتي يصفها بشغف يماثل الحماس والإعجاب الذي وصف به ياقوت مكتبات مرو لعهده . ثم رحل إلى حلب ودمشق في صحبة المؤرخ الشهير ابن العديم ، وحج إلى مكة مرة ثانية ، وعاد إلى المغرب حيث عمل ببلاط أمير تونس سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م ..

وفي ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م أعاده حب السفر المتملك فيه إلى الشرق فخرج في رحلة أخرى فمر بالإسكندرية وحلب قاصداً أرمينية ، حيث دفعه فضوله ليرى بعيني رأسه هولاكو الجبار . وعلم ما حل بالناصر من قتل التتار له ، ويروي ابن سعيد ما علمه من أخبار هجوم هولاكو على حلب ، وما تركته حملته من آثار التخريب والتدمير .

وقد توفي ابن سعيد كما تذكر إحدى الروايات بدمشق خلال عودته من هذه الرحلة وذلك في عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م على قول تغري بردي ، وترجح رواية أخرى حدوث وفاته إلى ما بعد هذا التاريخ ، وفي تونس بالذات ، على قول السيوطي والمقرّي وذلك في عام ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م .

ويعتبر ابن سعيد من أخصب الكتاب إنتاجاً على الرغم من كثرة أسفاره التي لم تنقطع ، هذا إلى جانب ميوله البارزة نحو الأدب الفنّي ، وخاصة الشعر الذي نال فيه حظاً وافراً من الشهرة . وكما عبر عن ذلك أحد علماء القرن التاسع عشر ، فإنه انتقل في تجواله (من المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي والتقى بأكابر العلماء ورأى أفضل الكتب) .

وأكبر الظن أن ابن سعيد جال في غربي إفريقية ، ورأى مصب نهر السنغال ، أو لعله نقل ما كتبه في هذا الصدد عن الرحالة ابن فاطمة ، الذي قام برحلة بحرية جنوبي مراكش ، وغرقت السفينة التي كان على متنها عند الرأس الأبيض (جنوب ساقية الذهب . ريودو أورو) بعد أن توغل في كشف الساحل الإفريقي الغربي إلى أبعد مما كان معروفاً عند الأوروبيين حينذاك .

ومؤلفات ابن سعيد ، الذي يعتبر أديباً وشاعراً ، كثيرة منها (المقتطف من أزاهير الطرف) و (الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد) وهو تاريخ أسرته وبلده و (المُشرق في حلي المَشرق) ثم (المُغرب في حلي المَغرب) وهو الذي أنجز تأليفه . والكتابان الأخيران يجمعهما كتاب (فلك الأرب المحيط بحلي لسان العرب) . وقد مهد لهما بمقدمة جغرافية عامة تعرف باسم (فلك الأرب) وكلا الكتابين تناول ذكر البلاد وأقاليمها ومدنها ، وأهم أبوابه القسم الخاص بالأندلس والذي يسمى (وشي الطُّرس في حلي جزيرة الأندلس) . ووضع ابن سعيد كذلك وجيزاً لجغرافية بطليوس اعتمد عليه أبو

الفدا في جغرافيته ، كما وضع كتاباً آخر عن رحلته إلى مكة هو (النفحة المسكية في الرحلة المكية) بالإضافة إلى (عدة المستنجز وعقلة المستوفز) ..

ويؤخذ على ابن سعيد أنه خلط بين الأقاليم ، وفي بعض الأحيان يشوب أوصافه الخطأ ، وقد وثق به أبو الفدا أول الأمر فنقل عنه ، ثم تبين أخطاءه فيما بعد فصححها ، ويمكن القول بأن (جغرافية) ابن سعيد تعتمد على الإدريسي اعتماداً كبيراً في مادتها الأساسية وفي تبويبها . فالأقاليم فيها مقسمة إلى سبعة وكل واحد منها مجزأ بدوره إلى عشرة أقسام ، ورغم ذلك فقد أثنى عليه أبو الفدا والمقريزي وابن خلدون وابن خلكان وغيرهم .

النص الأول

ومن طريف ما خلفه ابن سعيد وصف للقاهرة والفسطاط ، نقله المقّري في كتابه (نفح الطيب) ، وقد جاء في هذا الوصف ما يلي :

« ولما استقررت بالقاهرة تشوّقت إلى معاينة الفسطاط ، فسار معي إليها أحد أصحاب القرية ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لي بمثلها في بلد . فركب منها حماراً وأشار إليَّ أن أركب حماراً آخر ، فأنفت من ذلك على عادة من اختلفته في بلاد المغرب ، فأخبرني أنه غير معيب على أعيان مصر ، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزّة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت . وعندما استويت راكباً أشار المكاري إلى الحمار فطار بي ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ، ودنّس ثيابي ، وعاينت ما كرهته . ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدْوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكاري ، وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت :

لقيت بمصر أشد البوار ... ركوب الحمير وكحل الغبار
وخلفي مكارٍ يفوق الرياح ... ولا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يرعوي ... إلى أن سجدت سجود العثار
وقد مدّ خوفي رواق الثرى ... وألحد فيها ضياء النهار

فدفعت إلى المكاري أجرته ، وقلت له إحسانك أن تتركني أمشي على رجلي ، ومشيت إلى أن بلغتها ، وقدَّرت في الطريق بين الفسطاط والقاهرة ، وحقَّقته بعد ذلك نحو ميلين ، ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرَّة ، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء ، وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها ، وهو دون غلق ، يفضي إلى خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطين الأدكن والقصب والنخيل ، طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ، ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف . فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن صرت في أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق ، والروايا التي على الجمال ، ما لا تفي به إلا مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت ضده في جامع إشبيلية وجامع مراكش ، ثم دخلت إليه فعاينت جامعاً كبيراً قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه وتنبسط فيه . وأبصرت العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب ليقرب عليهم الطريق . والبياعون يبيعون فيه أصناف المسكَّرات والكعك وما سوى ذلك . والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً . وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع ، وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون في صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة . إلا أنَّ مع ذلك ، على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع إشبيلية مع زخرفة .

واستحسنت ما أبصرته من خلق المتصدِّرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في

عدة أماكن ، وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك . ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلاَّ بالجاه والتعب .

والحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والألفة ، مما يطول ذكره . وأما ما يرد على الفُسطاط من متاجر البحر الإسكندراني والبحر الحجازي فإنه فوق ما يوصف ، وبه مجمع ذلك بالقاهرة ، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد . وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى . لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما أن جميع زيّ الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط . وكثير ما ينسج ويُصاغ ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والخراب في الفسطاط كثير . والقاهرة أجدّ وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان إليها وسكنى الأجناد فيها .

والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني لأن هنالك مساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية . ولكن ذلك أمدٌ قليل ، ثم تسير منه إلى أمدٍ أضيق ، وتمر في مكان كدر حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون . ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء ، وهو في موكب جليل ، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان في موضع طباخين ، والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم . وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة ، قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها . ولم أرَ في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً في ذلك . ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري ، وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين . ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل

الأعظم ، ويموت الإنسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها . وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة في نيلها مشى مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس ، وجوُّها لا يبرح كدراً مما تثيره الأرض من التراب الأسود .

والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط . والمراكب التي تصل بالخيرات هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة . والقاهرة هي أكثر عمارةً واحتراماً وحشمةً من الفسطاط ، لأنها أجلُّ مدارس وأضخم خانات وأعظم دياراً يسكن الأمراء فيها ، لأنها المحفوفة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها . فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز ، وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء ... ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة ... والمعايش فيها متعذرة نزرة لاسيا أصناف الفضلاء ، وجوامك المدارس قليلة كدرة ... والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ... » .

النص الثاني

وكان ابن سعيد محباً لوطنه الأندلس ، وانعكس حنينه إلى الوطن في قصائد عاطفية عميقة . وقد رد على ابن حوقل الذي غمز من أخلاق الأندلس ، كما أنه وضع سائر المدن التي زارها في مرتبة دون مرتبة مدن الأندلس ، وقد عبر عن أحاسيسه هذه بإيجاز في قوله :

« وأنا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة الأندلس ، وطفت في بر العدوة(١) ، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ، ثم طفت في

---

(١) العدوة أي المغرب الأقصى .

إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط[٢] ، فرأيت بجاية وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط ، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلباً وما بينهما ، لم أرَ ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ، وفي حماة مسحة أندلسية ، ولم أرَ ما يشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن ، وبعض أماكن تونس ، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسح شوارع وأبسط ، وأبدع مباني حلب داخلة فيما يستحسن لأنها من حجارة صلبة وفي وضعها وترتيبها إتقان » .

(٢) إفريقية ، القطر التونسي ، والمغرب الأوسط والجزائر .

العَبْدَرِيّ

القرن السابع هجري / الثالث عشر ميلادي

هو محمد بن محمد علي العبدري ، وتشير نسبته إلى أنه ينحدر من صلب عبد الدار بن قصي القرشي الذي وحد شمل قبيلته قريش ، وأصل أسرته من بلنسية ، ولكنها أقامت بالمغرب في طفولة العبدري أو صباه . أما سيرة العبدري فلا نكاد نعرف عنها شيئاً . وقد سافر من مدينة الصويرة الواقعة على ساحل المغرب الأقصى ، تاركاً أسرته مع قبيلة حاحه ، مع ابنه لتأدية فريضة الحج في أيلول من عام ١٢٨٩ / ٦٨٨ هـ عن طريق البر . وفي البداية سارت الرحلة ببطء وتوقف الرحالة خلالها وقفات طويلة بالمدن الكبرى . ومن مصر رافق قافلة الحج ، وأقام بعد الحج فترة من الزمن بفلسطين ، ثم قفل معرجاً على الإسكندرية ، وغادرها إلى وطنه ماراً في طريقه بتلمسان وفاس ومكناس حتى بلغ آزمور على المحيط ، وهناك أقام لبعض الوقت ريثما تلحق به أسرته . وقد سلك طريق البر في الذهاب والإياب تحاشياً لمخاطر ركوب البحر في ذلك الزمن ، وقد بدأ بتدوين وصف رحلته وهو بتلمسان وأسهب بشكل خاص في وصف المدن في أقطار المغرب . وابتداءً من القاهرة يفقد الوصف كثيراً من رونقه وحيويته . أما الرحلة ، التي أشار فيها إلى مواطنه ابن جبير ، فتمثل إلى حد ما نوعاً جديداً عند مقارنتها بمن سبقه في هذا المضار . فهي تحفل بالكثير من المعلومات الجغرافية لأن المؤلف يقدم لنا فيها وصفاً صحيحاً ودقيقاً للمواضع والبقاع المختلفة مع تفاصيل وافية عن المواقع الأثرية وأخلاق السكان المحليين .

وأول من اشتغل برحلة العبدري من المستشرقين : فانسان ، في مقال نشره بالجريدة الآسيوية عام ١٨٤٥ ، ثم نشر المستشرق الفرنسي شيربونو Cherbouneau بالجريدة الآسيوية كذلك سنة ١٨٥٤ مقالاً عنها ، أتبعه بترجمة بعض فصولها وختم بحثه بقوله :

« إنني ما رأيت كتاباً عربياً مفيداً ممتعاً لدرجة رحلة العبدري ، وذلك ليس فقط لصحة تحقيقاته الجغرافية ، ولكن أيضاً لتفاصيله عن الآثار القديمة ، ولدراسة للعوائد ، ولتقديمه لنا جل علماء القرن السابع المسلمين » .

ومن كتب عنه أو أشار إليه آماري وموتيلانسكي ورينو وكاسيري ورايت وفوستنفلد وبروكلمان وغيرهم ، وقد أثنوا جميعاً على هذه الرحلة ، ولم يكن إعجابهم بها بأقل من إعجاب شيربونو ، ومن ذلك ما قاله عنها المستشرق الإسباني بونس يوبكس في كتابه عن طبقات المؤرخين الأندلسيين بعد أن أورد فقرات منها .

وقد لاحظ أن عرضه يتميز : « بالصدق والدقة في الرواية والحيوية والرشاقة في الأسلوب ، وأسلوبه فيها حي جميل » ثم قال بعد ذلك : « وهذا هو السر في إقبال الناس عليها ، وفي النجاح الذي صادفته لدى هواة الأدب التاريخي العربي » . إذ تمكن هذا العالم في أثناء رحلة قام بها في الجزائر وتونس من أن يتأكد شخصياً من دقة ملاحظات العبدري التي تتخذ أحياناً لوناً محلياً خاصاً .

وأخيراً نشرت رحلة العبدري المسماة (الرحلة المغربية) في عام ١٩٦٨ بجهود العلامة محمد الفاسي ، رئيس جامعة محمد الخامس في الرباط ، الذي قام بتحقيقها ، وقدم لها وعلق عليها ضمن سلسلة الرحلات .

النص الأول

لقد عني العبدري في رحلته بالكلام عن المواقع الجغرافية ، وذكر المعالم الأثرية ، ودراسة عادات سكان البلاد التي مر بها ، فضلاً عن الكلام عن أعلام الفقهاء المسلمين في عصره .

« إن حصون الجزائر تتحدى الأعداء بمتانتها ، لكنها خالية من العلم .. وليس فيها من يمكن أن يُعَدَّ من العلماء ...

مدينة تونس مطمح الآمال ... ومحط الرحال ، من الغرب والشرق ، وملتقى الركاب والفلك ، وناظمة فضائل الدين في سلك ، فإن شئت أصحرت في موكب ، وإن شئت أبحرت في مركب ، كأنها ملك والأرباض لها إكليل ، وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بليل .

وهذه المدينة - كلأها الله - من المدن العجيبة الغريبة وهي في غاية الاتساع ونهاية الإتقان ، والرخام كثير بها ، وأكثر أبواب ديارها معمول منه ، عضائد

وعتباً ، رجُلٌ مبانيها من حجر منحوت محكم العمل ، ولها أبواب عديـدة ، وعنـد كل باب منها مربض متسع على قدر البلـد المستقل ، ولو اتفق أن يكون بها مـاء جار لكانت معدومة النظير شرقاً وغرباً ، ولكنْ ماؤها قليل وفي ديـارهـا مصـانع لماء المطر .

وأما الساقية المجلوبة من نـاحيـة (زغوان) فقـد استـأثر بهـا قصر السلطـان وجنانـه ، إلا رشحـاً يسيراً سرب إلى سقـايـة جـامع الزيتونـة ، يترشف منهـا في أنابيب من رصاص ، ويستقي منها الغرباء ومن ليس في بيته ماء .

وجامع الزيتونة من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقـاً ، ودائره سقف ، ووسطه فضاء قد نصبت فيه أعمـدة من خشب على قـدر ارتفـاع الجـدر ، وشـدت إليها حبال متينة في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شداً محكماً ، فإذا كان يوم الجمعـة ، ونشرت عليهـا شقق الكتـان المطبقـة الموصولـة ، حتى تظلـل جميـع الفضاء (الصحن) ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف » .

ولمدينة تونس عدة أبواب يمكن الدخول منهـا ، وخـارج كل منهـا ضـاحيـة جميلة تكاد تكون في اتساع المدينـة نفسهـا ... ولو أن تونس يتـاح لهـا نهر يروي عطشها ، لفاقت جميع حواضر الإسلام ، ولكن من سوء الحظ فـاؤهـا نزر يسير ، والناس يشربونه من ماء المطر الذي يخزنونه في الآبار .

وتونس مدينة كبيرة الأهمية إذ هي عاصمة إفريقيـة[1] ... ولم أر لا في الشرق ولا في الغرب قوماً كأهلها في دمـاثـة الخلق ورقـة الطبع ... وفي أهلهـا من بلغ في العلم الدرجـة القصوى ، وبينهم من يمتـاز بعلو الهمـة ... وهنـاك من يترك عملـه ليتمتع بصحبة عالم ... كما حدث لي .

ويقول عن أهل برقة : « إنهم يتكلمون العربية بصفاء أهل الحجاز بحيث أن

(١) الجمهورية التونسية الحالية .

ولداً سأل الحجاج قائلاً لهم : « يا حجاج ... أمعكم شيئاً تبيعونه ؟ وقد شكَّل كل كلمة في السؤال » .

وبعد أن أتى العبدري على وصف الإسكندرية وعجائبها لمّا زارها سنة ٦٨٨ هـ قال : « ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم[٢] أنهم يعترضون الحجاج ، ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج ، ويأخذون على وفدهم الطريق والفجاج ، ويبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال ، وقد رأيت من ذلك يوم وردنا عليهم ما اشتد له عجبي ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربي ، وذلك لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس ، لا حرس الله مهجتهم الخسيسة ، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة ، فمدوا في الحجاج أيديهم ، وفتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعاً من المظالم ، وأذاقوهم ألواناً من الهوان ، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله ، وما رأيت هذه العادة الذميمة والشيمة اللئيمة في بلد من البلاد ، ولا رأيت في الناس أقسى قلوباً ، ولا أقل حياء ومروءة ، ولا أكثر إعراضاً عن الله سبحانه وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد ، نعوذ بالله من الخذلان » .

النص الثاني

يتميز العبدري بالاهتمام بطبائع الناس وتصرفاتهم تجاه الغرباء ، كان لا يغفل عن الوصف الدقيق للمشاهد التي تقع تحت نظره ، أثناء اجتيازه المناطق الواقعة على طريق قافلته التي تقصد بيت الله الحرام ، أو أثناء عودته من أداء فريضة الحج . ونجد هذا بشكل خاص عند كلامه عن تلمسان ومليانة وبجاية وذلك بأسلوب شيق ، وإن كان لا يخلو من السجع المتكلف :

---

(٢) أي أهل الإسكندرية .

« ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلدة حلت بها زمانة الزمان ، وأحلت بها حوادث الحدثان ، فلم تبق بها علالة ولا تبصر في أرجائه للظمآن بلالة ، وقد شاهدت جمعاً من الحجاج ينيفون عن الألف ، وردوها فوقفوا إلى ملكها ، فأعطاهم ديناراً واحداً .

وأغرب من هذا ما شاهدته من منصور صاحب ليكش ، وهو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين ، وقفوا إليه في محلته عند بيته فكلموه في عشائهم ، فرحب بهم واحتفل في السلام عليهم ثم أخذ ينادي : يا أهل الدوار[1] : هؤلاء ضيفان الله من يحمل منهم إلى بيته واحداً ، وجعل يكرر ذلك كما يصنع المدر من أهل المدر . فلما لم يجبه أحد ولى عنهم ، ووراءه جمع كثيف من الفرسان وهو سلطان تلك النواحي .

وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر ، مقسومة باثنتين ، بينهما سور ، ولها جامع مليح متسع ، وبها أسواق قائمة ، وأهلها ذوو ليانة ، ولا بأس بأخلاقهم ، وبظاهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعباد ، وهو مدفن الصالحين وأهل الخير وبه مزارات كثيرة ... والدائرة بالبلد كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار ، وسوره من أوثق الأسوار وأصحها ، وبه حمامات نظيفة ، ومن أوسعها وأحسنها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور ، وقل أن يرى له نظير ، وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر ، وأنظارها متسعة ، ومبانيها مرتفعة ، ولكنها مساكن بلا ساكن ومنازل بغير نازل ، ومعاهد أقفرت من متعاهد ، تبكي عليها فتنسكب الغمام الهمع ، وترثي لها فتندب الحمام الوقع ، إن نزل بها مستضيف قرته بؤساً ، أو حل فيها ضيف كسته من رداء الردى لبوساً ، وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد ، وغاضت أنهاره فازدحم على الثماد ، فما ظنك بها وهي رسم عفا طلله ، ومنهل جف وشله ...

---

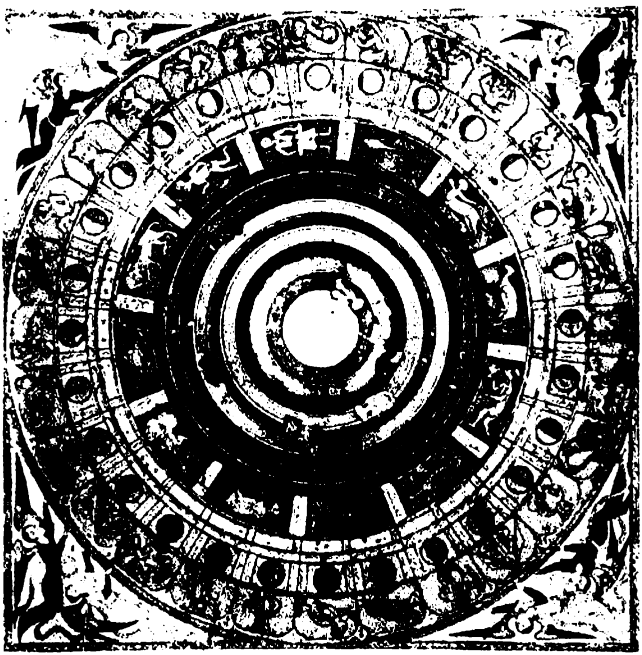
(١) الدوار لفظة تطلق في المغرب على القرية عند الرحيل ، حيث يضربون خيامهم على صورة مستديرة ، ثم عمت اللفظة في بعض النواحي ، وصارت تطلق على القرية عموماً .

وكان رحيلنا من تلمسان بعد المقام الطويل لخمس خلون من شهر ربيع الأول ، فنكبنا عن طريق البرية يساراً ، وسرنا لا نألو جداً وانشماراً . ثم وصلنا وقد ألفى حمل الإعياء جرانه ، وغنى بلبل العناء ألوانه ، إلى البلدة الخصيبة مليانة ، وهي مدينة مجموعة مختصرة ، وليست مع ذلك عن أمهات المدن مقصرة ، أشرفت من كثب على وادي شلف ، واستشرفت نسيم طرفهـا من شرف ، في روضة جمة الأزهار والطرف . فرعت في سفح جبل حمى حماها أن يرام ، وشرعت في أصل نهر يشفي المقيم من الهيام ، شاق منظراً ومخبراً ، وشفا الظما مورداً ومصدراً ، يشتهي الناظر إليه وهو ريان الشروع ويقول : لو رشّ به لفاق المصروع ، كان حصباءه جمان ، والماء من رقته دموع ، وبها جامع مليح عجيب ، يدعو الشوق من رآه فيجيب ، ولكن الزمان قد عوضه من حلاه عطلاً ، وأداله من حكمه خطلاً ، وأبدل هالته السهى من تلك الأقمار ، وكساه بعد الحبر الأطمار ، وأحل جلاله بعد الأنس بأنسها وحشة العمار ، فلو صرحت في الجوى بالجواب ، وأفصحت عن وقوع النوى بالنوائب النواب .

الوصول إلى بجاية :

ثم وصلنا إلى مدينة بجاية ، مبدأ الإتقان والنهاية ، وهي مدينة كبيرة ، حصينة منيعة شهيرة ، برية بحرية سنية سرية . وثيقة البنيان . عجيبة الإتقان . رفيعة المباني غريبة المعاني ، موضوعة في أسفل جبل وعر . ومقطوعة بنهر وبحر . مشرفة عليها إشراف الطليعة ، متحصنة بها منيعة ، فلا طمع فيها لحارب ، ولا متسع بها لطاعن وضارب ، ولها جامع عجيب ، منفرد في حسنه غريب ، من الجوامع المشهورة ، الموصوفة المذكورة ، وهو مشرف على برها وبحرها ، وموضوع بين سحرها ، ونحرها ، فهو غاية في الفرجة والأنس ، ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس ، وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية ، ولهم في القيام به تهمم وعناية ، فهو بهم مأهول عامر ، يتخلل أنسه سلك الأرواح

ويخامر . وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ، ومحل حله من العلماء أعلام ، وله مع حسن المنظر طيب المخبر ، ومع الرأى الرائق ، المعنى الفائق ، ومن الحصانة ووثاقة البنيان ، ما أزرى بإرم وغمدان ، ولأهله من حسن الخلق والأخلاق ، ما أنبأ عن طيب الهواء والماء والتربة والأعراق . غير أنه قد اعترته من الغيَر ، ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر ، وقد غاض العلم الذي به حتى وشلاً ، وعفا رسم حتى صار طللاً . وبه آحاد من طلبة العلم قد اقتصروا على مطالعة الصحف والدفاتر وسلكوا في ترك تصحيح الرواية طريقاً لم يرضه الأعلام الأكابر .



القزويني

(٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ـ ٦٨٢ / ١٢٨٣ م)

ولد زكريا بن محمد بن محمود القزويني سنة ٦٠٠ هجرية أو ١٢٠٣ ميلادية ، في بلدة قزوين الواقعة في شمال إيران ، ومن ذلك جاء لقبه الترويني الذي اشتهر به . وهو ينحدر من أسرة عربية أصيلة ، استوطنت العراق العجمي منذ عهد طويل . ومن الملاحظ أن الغريب يكثر في لغته العربية ، ولا ترتفع إلى مستوى اللغة التي عرفناها عند معاصريه ، مما دفع المستشرق كراتشكوفسكي إلى الافتراض بأن العربية ربما لم تكن لغة طفولته .

وعندما بلغ الخامسة والعشرين قصد بلاد الشام ، ودرس الصوفية في دمشق حوالي عام ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م ، حيث تأثر تأثراً كبيراً بالصوفي الشهير محيي الدين بن عربي ، كما ربطته صداقة بالكاتب والأديب الكبير ضياء الدين بن الأثير ، شقيق المؤرخ المشهور ، وكان آنذاك مقيماً بالموصل . ومن المؤكد أن القزويني درس الفقه لدرجة الفقه لدرجة أهلته لأن يتولى منصب القضاء في مدينتي واسط والحلّة في العراق ، وذلك في عهد الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ، وظل في منصبه حتى سقطت بغداد في يد المغول بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ ، ولكن هذا الحدث الجلل لم يمنعه من متابعة دراساته العلمية . وقد توفي بعد ذلك بمدة طويلة ، بعد أن بلغ الثمانين ، وذلك في عام ٦٨٢ هـ / أو ١٢٨٣ م .

وقد خلف لنا القزويني معجماً جغرافياً يحمل عنوانين مختلفين أقدمها: (عجائب البلدان) والعنوان الثاني : (آثار البلاد وأخبار العباد) ، ويبحث في الجغرافية التاريخية والوصفية وما يتصل بها ، وفيه وصف لأحوال البلاد وسكانها ، وقد قسمها إلى سبعة أقاليم ، وتحدث عن بلاد كل إقليم . كما لم يهمل التراجم ، وزينه ببعض الصور والرسوم . ولم يقتصر فيه على الأقطار الإسلامية بل تعرض لذكر الأقطار الأوروبية وسواها . وقد نقل القزويني في هذا الكتاب الكثير مما كتبه سابقوه من الجغرافيين المسلمين ، كما اتصل بكثير من الرحالة وقرأ آثارهم ، وأفاد من مشاهداتهم ، ولاسيما فيما يتعلق بالأندلس وبلاد أوروبا الغربية ، من أمثال أبي الربيع سليمان الملتاني الرحالة الذي توغل حتى أواسط إفريقية . وإبراهيم الطرطوشي الأندلسي وأحمد بن عمر العذري اللذين توفيا حوالي عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م بعد أن أتيح لهما زيارة بعض المدن في فرنسا وأوروبا الوسطى .

أما الكتاب الثاني فيمكن أن نطلق عليه من قبيل التجاوز اسم (كوزموغرافيا) ودعاه : (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) ، وقد رفعه إلى حاكم بغداد في عهد المغول عطا ملك الجويني . وقد جمع به ما عرف وسمع من خصائص البلاد والعباد ، ولكنه ضم الغث والسمين من المعلومات دون نقد أو تمحيص . وقد وصل إلينا هذا الكتاب على شكل عدة تحقيقات مختلفة نوعاً ما ، وقد ترجم إلى الفارسية وإلى التركية . ويحتفظ هذا الكتاب بشهرته حتى العصر الحديث .

ويتراءى لنا من أول نظرة نلقيها عليه أنه يشتمل على قسمين : الأول : يكاد يكون فلكياً بحتاً يتعرض فيه لدراسة الكواكب السيارة ، والقمر والشمس ، والنجوم وسكان السماء أي الملائكة ، والنيازك والشهب إلخ .. أما القسم الثاني : فيتناول الأشياء الأرضية إذ ينصرف لوصف الأرض عامة وما يوجد على سطحها كالجو والماء (بحار ، بحيرات ، أنهار ، ينابيع) وأشكال سطحها نفسه كالجبال والفلزات والنبات والحيوان والإنسان .

ويرى كراتشكوفسكي أن من الممكن اعتبار ابن رستة أستاذاً للكوزموغرافي القزويني الذي رغم افتقاره للدقة ، فهو كوزموغرافي القرن الثالث عشر بلا منازع . وكوزموغرافيته تمثل الأوج في نمطه الخاص . فهو ينتحي ناحية العجائب ولم يترك ، في هذا البلدان ، زيادة لمستزيد . والذين جاؤوا بعده إنما اكتفوا باختصار كتابه أو بتنقيحه في صورة أخرى .

وقد نقل القزويني عن الطرطوشي حديث مدينة النساء ، وهي مدينة كبيرة واسعة الرقعة تقع في جزيرة من جزائر بحر المغرب ، وهي من العجائب التي ينفيها العقل ولا يقبلها التصديق فيقول : أهلها نساء لا حكم للرجال عليهنّ ، يركبن الخيل ويباشرن الحرب بأنفسهن ، ذوات بأس شديد عند اللقاء ، ولهن مماليك يختلف كل مملوك إلى سيدته ، ويقوم بالسحر ليخرج مستتراً قبل انبلاج الصبح فإذا وضعت إحداهنّ ذكراً وأدته في الحال » .

ويتكلم عن جزيرة النساء التي تقع في بحر الصين والتي لا يسكنها إلا النساء : « لا رجال معهنّ أصلاً ، وإنهن يلقحن من الريح ، ويلدن النساء مثلهن ، وقيل : إنهن يلقحن من ثمرة شجرة يأكلن منها ، فيلقحن ويلدن نساءً » .

ويذكر عن حلب : « إنه ظهر بها سنة ٦٢٤ هـ تنين بغلظ منارة وطول مفرط ، ينساب على الأرض ، يبلع كل حيوان يجده ، ويخرج من فمه ناراً تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات ، واجتاز على بيوت أحرقها ، والناس يهربون منه يميناً ويساراً ، حتى انساب قدر اثني عشر فرسخاً ، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت وتدلت إليه ، فاحتملته ، وكان قد لفّ ذنبه في كلب ، فرفع الكلب وهو يعوي في الهواء ، والسحاب يمشي به ، والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين » .

وقد كان للقزويني في عصره وفي العصور التالية أكبر صيت في هذا المضمار ، إذ كاد أن يكون أكثر الكتاب العرب قاطبة شعبيّة وقرباً من الجماهير ، ذلك أن معرفة جمهرة القراء بالمصنفات الأدبية لم ترتبط بالطبع دائماً بأسماء كبار العلماء ، بل كانت غالباً من نصيب تلك المصنفات المحببة إلى نفوسهم والمتجاوبة مع رغباتهم ، وإذا كان ياقوت قد بلغ الأوج في نمط المعاجم فإن القزويني يعتبر أكبر كوزموغرافي ومبسّط للعلوم من أجل سواد الناس .

والخلاصة ينضم القزويني لفئة الناقلين ، كما نجدهم في آداب عصور الانحطاط فثقافته واسعة جداً ، ولكنه لا يستنتج من مطالعاته أي أمر جديد ، أو أية نظرية ذات أصالة . وإذا كان ذكاء القزويني يؤهله لإدراك كل شيء لكنه لا يقوده لأكثر من تركيب يشمل كل معارف عصره . وتقتصر مساهمته الشخصية تقريباً على وضوح مواضيعه ، وهذا من أكبر مزاياه . فالقزويني مفطور على حب التبسيط ويحسّ بالمدى الذي يجب أن تصل إليه (التقنية technique) دون أن تنفّر القارئ غير المختص . وهو يعرف عندما يستعين بحكايات قصيرة وجذابة أن يجعل أكثر الظاهرات تعقيداً مفهومة . فأسلوبه واضح وبسيط ومتنوع يبعد السأم . وعلى كل تبدو كتابته كفسيفساء مصنوعة من استعارات مقتبسة عن مؤلفين سبقوه كابن الفقيه ، وأبي حامد الغرناطي وموسى الرازي .

النص الأول

عن الشمس وأثرها في الطبيعة

نستشف من قراءة النبذة التالية ، المقتبسة من القسم الكوزموغرافي البحت في كتاب القزويني ، كيف يستطيع هذا المؤلف أن يضيف دقة الخبير التقني إلى بساطة ووضوح الكاتب المبسّط .

« (الشمس) هي أعظم الكواكب جرْماً وأشدُّها ضوءاً ، ومكانها الطبيعي الكرة الرابعة[1] وهي بين الكواكب كالملك ، وسائر الكواكب كالأعوان والجنود ،

(١) لقد تخيل الجغرافيون العرب الذين تأثروا ببطليموس ، الكون على شكل كرات متداخلة بعضها في بعض ، وتقع الشمس في رابع كرة . وإليكم ما يراه القزويني عن طبيعة هذه الكرات : « ذهب الحكماء إلى أن الفلك جسم بسيط كروي ، مشتمل على الوسط متحرك عليه ، ليس بخفيف ولا ثقيل ولا بارد ولا حار ولا رطب ولا يابس . والأفلاك كُراتٌ محيطة ببعض حتى حصلت من جملتها كرة واحدة يقال لها العالم » .

فـالقمرُ كالـوزير ، وعُطـارد كالكاتب ، والمرِّيـخ كصـاحب الجيش ، والمشتري كالقـاضي ، وزُحلُ كصـاحب الخـزائن ، والـزُّهرَة كالخـدم والجـاريـة ، والأفـلاك كالإقليم[٢] ، والبروجُ كالبلـدان ، والـوجـوه[٣] كالمـدن ، والـدرجـاتُ كالقرى ، والدقائق كالمحالّ ، والثواني ، كالمنازل ، وهذا تشبيه جيد .

ومن لطف الله جعلها في وسط الكواكب لتبقى الطبائعَ والمطبوعاتُ في هذا العـالم بحركتهـا على حـدّهـا الاعتـدالي ، إذ لو كانت في فلـكِ الثوابت[٤] لفَسُـدتِ الطبائع من شدة البرد . ولو انحدرت إلى فلك القمر لاحترق هذا العالم بـالكلّيـة ، وخَلقَهـا سـائرة غير واقفـة ، وإلاّ اشتـدت السخـونـة في مـوضـع والبرودة في آخَرَ ولا يخفى فسـادهـا . بل تطلُعُ كل يوم من المشرق ، ولا تزال تمشي موضعـاً بعـد موضع إلى أن تنتهي إلى المغرب ، فلا يبقى موضعٌ مكشـوف إلاّ ويـأخـذ مـوضـعُ شعـاعهـا . وتميل كل سنـة مرة إلى الجنوب ومرة إلى الشمال لتعمّ فـائـدتُهـا . وأمـا جرْمها فضعف جرم الأرض مئة وستون مرة ، وقطر جرمها واحـدة وأربعون ألف وتسعمئة وثمانية وسبعون ميلاً[٢](●) .

فصلٌ في كسوفها . سبَبـه كونُ القمر حـائلاً بين الشمس وأبصـارنـا ، لأنّ جرْم القمر كـدّ فيحجب مـا وراءه عن الأبصـار ، فـإذا قـارن الشمسَ يمرُّ تحت الشمس فيصير حائلاً بينها وبين الأبصـار ، لأن الخطوط الموهومـة الشعـاعيـة التي تخرج من أبصارنا متصلةً بالبصر على هيئة مخروطٍ ، رأسهُ نقطة البُصر ، وقاعـدتـه المُبصرُ[٥] ، فإذا حـال بيننـا وبين الشمس يتحصّل[٦] مخروط الشعـاع أولاً بـالقمر ،

---

(٢) وكان الجغرافيون يقولون غالباً بوجود سبع كرات . (انظر نص الكوزموغرافيا عند المسعودي) .

(٣) جمع وجه وهو ثلث أو نصف إشارة بروج الفلك (زودياك) .

(٤) النجوم الثابتة .

(●) الواقع هو أن قطر الشمس يعادل ١٠٩ مرات قطر الأرض أو ١٣٩١٠٠٠ كم .

(٥) أي الشيء المأخوذ بعين الاعتبار .

(٦) يقع على ...

فـإن لم يكن للقمر عرضٌ عن فلـك البروج وقـع جرْمُ القمر في وسـط المخروط فتنكسف الشمس كلها . وإن كان للقمر عرضٌ ينحرف المخروط عن الشمس بمقدار مـا يـوجب العرضُ ، فينكسف بعضهـا ، وذلـك إذا كان العرض أقَـلّ من مجمـوع نصف القطرين ، فإذا كان يَماسُّ جرمُ القمر مخروط الشعـاع لا تنكسف الشمس . ثم الشمس إذا انكسفت لا يكون لكسوفهـا مكثٌ لأن قـاعـدة المخروط إذا انطبـق على صفحة القمر انحرف عنه في الحال فتبتدئ الشمس بالانجلاء ولكن يختلف قـدْرُ الكسوفات باختلاف أوضـاع الأمـاكن بسبب اختلاف المنظر وقـد لا تنكسف في بعض البلاد أصلاً .

فصـل في خـواص الشمس وعجيبُ تـأثيرهـا : أمـا في العلـويّـاتِ[٧] فإخفاؤها جميعَ الكواكب لكمالِ شُعاعِها وإعطاؤها القمر النور بسبب قربه منها . وأما في السفليات فمنها تأثيرها في البحار ، فإنها إذا أشرقت على الماء صَعِدَتْ منهـا أبخرة بسبب السخونة ، فإذا بلغ البخـار إلى الهواء البـارد تكاثفَ من البرد وانعقـد سحاباً . ثم تذهب به الرياح إلى الأمـاكن البعيـدة عن البحـار فينزل المطر الـذي يحيي به الله الأرض بعد موتها ، وتظهر منـه العيون والأنهـار ، ويصير سبباً لبقـاء الحيوان وخروج النبات وتكوُّن المعادن . ومنها أمر النبات فإن الزرع والأشجـار لا تنبت إلا في المواضع التي تطلع عليها الشمس . وكـذلـك لا ينبت تحت النخل والأشجار العظيمة التي لها ظلال واسعة شيء من الزروع ، لأنها تمنع شعـاع الشمس عمَّا تحتها . وحسبُك ما ترى من تـأثير الشمس بحسب الحركـة اليوميـة في النّيلوفَرِ والأذَريونِ وورق الخروع ، فإنها تنمو وتزداد عند أخذ الشمس في الارتفاع ، فـإذا زالت الشمسُ أخذت في الـذبول حتى إذا غـابت ذبُلَت وضعفت ثم عـادت في اليوم الثاني إلى حالها » .

---

(٧) أي الأجسام السماوية وعكسها السفليات .

النص الثاني

عن الزلازل

وقد يتوصل القزويني أحياناً ، كما في النص التالي ، إلى تقديم نظريات أيدتها فيما بعد الكشوف العلمية الحديثة :

« **فصل فيما يَعْرِض للأرض من الزلزلةِ** : زعموا أن الأبخرة والأدْخنة الكثيرة إذا اجتمعت تحت الأرض ، ولا يُقاومُها برودة ، تصير ماء ، وتكون مادتها كثيرةً ، لا تقبلُ التحليل بأدنى حرارة ، ويكون وجه الأرض صلْباً لا يكونُ فيها منافذُ ، فالبخاراتُ إذا قصَدَت الصعودَ ولا تجد المسامَ ، تهتزُّ منها بقاع الأرض تضطرب ، كما يضطرب بدن المحموم عند شدة الحُمَّى ، بسبب رطوبات عفِنةٍ احتبسَتْ في خلال أجزاء البدن ، فتشتعلُ فيها للحرارة الغريزيَّة فتذيبُها وتُحلِّلُها ، وتصيرُها بخاراً ودخاناً فيخرج من مسام جلد البدن ، فيهتز من ذلك البدن ويرتعدُ ، ولا يزال كذلك إلى أن تخرج تلك المواد فإذا خرجت سكن . وهكذا حركات بقاع الأرض بالزلازل ، فربما ينشقُّ ظاهر الأرض ويخرج من ذلك الشقّ تلك المواد المحتَبسةُ دفعةً واحدة والله أعلم » .

النص الثالث

جزية زابج

لقد أفسح القزويني لعجائب الطبيعة مكانة كبيرة في كتابه (عجائب المخلوقات) . وهذا القسم هو أكثر أقسام كتاب القزويني استعارة . وفي مثل هذه الحالة يكتفي بنقل نصوص المؤلفات الشهيرة السابقة :

(من جزائر بحر الصين) جزيرةُ زابَجَ[8] : وهي كبيرة في حدود الصين أقصى بلاد الهند ، يملكها ملك يقال له المهراجُ . قال محمدُ بن زكرياءَ[9] : للمهراج جباية تقع في كلّ يوم مئتان من الذهب ، زنة كل منها ستمئة درهمٍ ، يتخذ منها لبناً ، ويطرحه في الماء ، وخزانته الماءُ .

وقال ابن الفقيه : بها سكان شبه الآدميين ، إلاّ أنّ أخلاقهم بالوحش أشبه ، ولهم كلام لا يُفهم ، وبها أشجار وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة . وبها نوع من النَّسانيسِ له أجنحةٌ كأجنحة الخنافِسِ من أصل الأذُن إلى الذنب . وفيها وعولٌ كالبقر الوحشية ، ألوانها حُمْر منقطة بالبياضِ ، وأذنابها كأذناب الظباء ، ولحومها حامضة .

قال زكرياءَ بنُ خاقانَ[10] : بجزيرة الزابجِ صنف من الببغاء بيضٌ وحمر وصفر ، يتكلم بأي لغةٍ تكونُ . وبها خلْق على صورة الإنسان يتكلم بكلام لا يُفهم ، يأكل ويشرب كالإنسانِ ، وهم بيض وسود وخضْر ، ولها أجنحة تطير بها .

قال ابن بحرٍ السيرافيّ[10] : كنت في بعض جزائر الزابج فرأيت ورداً كثيراً أحمرَ وأصفرَ وأزرقَ وغير ذلك ، فأخذت مُلاءةً حمراءَ وجعلت فيها شيئاً من الورد الأزرق . فلما أردتُ حمْلها رأيت ناراً في الملاءة فسألت الناس عنها فقالوا : إن في هذا الورد منافع كثيرةً ولا يمكن إخراجه من هذه الغيضة .

قال محمد بن زكرياءَ : من عجائب هذه الجزيرة شجر الكافور وهو عظيم جداً . الشجرة تُظِلُّ مئة إنسانٍ وأكثر . ويُنْقَرُ أعلى الشجرة فيسيل ماء الكافور

---

(٨) ارجع إلى نص الجغرافي برزك بن شهريار . وزابج هي أندونيسيا .

(٩) المشهور بالرازي وهو طبيب شهير وعالم من علماء الطبيعة في فارس . توفي عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م .

(١٠) اسم ملاّح .

عدّة[١١] جرارٍ ، ثم يُنْقرُ أسفلَ من ذلك وسَطَ الشجرة فتَنتشرُ منها قطع الكافور ، وهو صمغُ تلك الشجرة ، فإذا أخِذَ منها ذلك يَبِسَ .

النص الرابع

القزويني الأثنوغرافي

يحتل وصف أخلاق الشعوب أو معتقداتها الغريبة مكاناً كبيراً أيضاً في كتاب عجائب المخلوقات . وتكون هذه الأبحاث مصحوبة ، كما هو الحال عند البيروني ، بأمثال شعبية أو بملاحظات تتعلق بالتقويم الزراعي . وإليكم ما يكتبه مثلاً عن العادات المتبعة في بلاد الشام ومصر خلال شهري كانون الأول (ديسمبر) وشباط (فبراير) .

« كانون الأول واحد وثلاثون يوماً ، في اليوم الأول منه يقومُ سوقَ ثوما بدمشق ويغرس قضيبُ البان ، وفي الحادي عشَرَ قيامُ سوق الأرْدنّ . والرابع عشر أول الأربعينيات[١٢] ، والسابع عشَرَ يُنْهى عن تناول لحم البقر والأتْرُنجِ وشربِ الماء بعد النوم وعن الحجامة وطَلْيِ النُّورة ، ويسمون هذا اليوم الميلاد الأكبر ينعون به الانقلابَ الشتوي ، ويقولون : إنّ فيه مخرج النور من النُّقْصان إلى حدّ الزيادة ، وتأخذ الإنْسُ في النشوء والنماء ، والجِنُّ في الذبول والفناء .

وفي التاسع عشَرَ غايةُ طولِ الليل وقِصر النهار . وفي الثالث والعشرين تنتهي زيادةُ النيل وتكثر الأنْداء ويسْقط ورق الأشجار ، وفي الخامس والعشرين ميلادُ المسيح عليه السلام ، وفي التاسع والعشرينَ ينْهى عن شرب الماء عند النوم ، ويقولون : إنّ الجنّ تتقيأ في الماء ، ومَنْ شربهُ غلبَ عليه البلَهُ .

---

(١١) أي ما يملئ عدداً كبيراً من الجرار .

(١٢) الصوم الكبير أو صوم الأربعين .

شباط ثمانيـة وعشرون يومـاً ، في السـابع منـه تسقـط الجمرة الأولى[١٣] . وفي الثالث عشر يجري الماء[١٤] في العود من أسفلـه إلى أعلاه . وتتقيَّأ الضفـادع . وفي الرابع عشرَ صومُ النصارى وتسقـط الجمرة الثـانيـة . وفي العشرينَ يخرج الـذئب . وفي الخامس والعشرين تزرعُ القِثّاء والبطيخُ ، وتلـد الوحشُ ، ويصوت الطير ، وتطير الخطـاطيف ، ويلـد المـاعزُ ، ويُغْرسُ شجر الـورد ، ويـزرع اليـاسمين والنرجس ، ويورقُ الكرْمُ ، ويكثر العنب . وفي الحـادي والعشرينَ تسقـط الجمرة الآخرة .

ومعنى سقوط الجمرات أن الناس كانوا يتّخذون في قديم الزمان أخْبيةً ثلاثةً في الشتـاء مُحيطـاً بعضهـا ببعض ، وكانت دوابهم الكبـار كالإبـل والبقر في البيت الأول ، ودوابُّهم الصغـار كالغنم في البيت الثـاني ، وهم كانـوا في البيت الثـالث . وكانوا يشعلـونَ جمراتِ النـار في كلّ بيتٍ ويتخـذون الجمرَ لـلاصطـلاء . فلما كان السابع من شُباطَ أخرجوا دوابَّهم الكبـار إلى الصحراء ، وجعلوا الصغـار مكانهـا ، وهم سكنوا مكان الصغار ، فحينئـذ سقطتْ من الجمرات الثلاث جمرةٌ . فـإذا مضى أسبوع آخر أخرجوا الغنم أيضاً إلى الصحراء ، وهم سكنوا مكانهـا ، وسقطت جمرة أخرى . فإذا مضى أسبوعٌ آخر خرجوا إلى الصحراء وتركوا إشْعال النار لقلّـة البرد وطيب الهواء فسقطت الجمرات الثلاث .

وفي الخـامس والعشرين يظهرُ الـدّفـاءُ وتهبُّ الريـاح اللـوافـح وتكْسَـحُ الكرومُ . وفي السـادس والعشرينَ أول أيـام العجوز ؛ وأيـام العجـوز سبعـة أيـام ثلاثةٌ من شباط وأربعـة من آذار . قيلَ : إنهـا سميت أيـام العجوزِ لأن الله تعـالى أهلكَ قومَ عادٍ[١٥] في هذه الأيـام فَتَخلَّفتْ منهم عجوزٌ كانت تنوحُ عليهم كل سنـةٍ

(١٣) انظر بالنسبة لهذا التقويم الزراعي ما سيأتي بعد قليل .

(١٤) أي النسغ . ويقول المثل عندنا : « سعد السعود سلاّخ الجلود ، فيه يموت المبرود ويدب الماء بالعود » .

(١٥) قوم عاد : شعب يذكره القرآن الكريم وعاش في جزيرة العرب ، ويشير القرآن إلى إبادتهم عقاباً على كثرة معاصيهم .

في هذه الأبام . فهذه الأيامَ لا تخلو من بردٍ أو رياح أو كدورةٍ . وذهب بعضهم إلى أنها من الأمور الطبيعية ، وأن البردَ يشتدُّ في آخر الشتاء ، كما أنَّ الحرَّ يشتد في آخر الصيف ، وذلك يجري مجرى السّراج[١٦] الذي فَنيتْ رطوبتُه فإنَّه عند انطفائه يشتدُّ ضوءُه دفْعاتٍ » .



ملحوظة : ان الخارطة الأصلية كانت مقلوبة على الطريقة القديمة أي أن الشمال في أسفل الخارطة والجنوب في أعلاها وقد عكسناها مجاراة للطريقة الحديثة في رسم الخرائط لتسهيل المراجعة

(١٦) أي يحدث له ما يحدث للمصباح .

شمسُ الدين الدمَشقي أو شيخُ الربوة

(٦٥٤ ـ ٧٢٧ هـ . ١٢٥٦ ـ ١٣٢٧ م)

هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري المعروف بالدمشقي ، والملقب بشيخ الربوة ، والمعروف أيضاً باسم شيخ حطين . ولد بدمشق بعد استيلاء هولاكو على بغداد بعامين ، وكان ذكياً فطناً ، فكه المحاضرة ، له القدرة على الدخول في كل علم ، وجرأة على التصنيف في كل فن ، عذب الحديث ، متقشفاً صبوراً على الفقر والوحدة ، وولي إمامة جامع الربوة ، من ضواحي دمشق الغربية ، وفي أواخر أيام حياته أصبح فريسة الأسقام والأوجاع ، وتوفي في صفد في شمال فلسطين بعد أن أصابه صمم شديد قبل موته بعشر سنين وعانى من آلام في عينه الواحدة . وقد أمضى الدمشقي معظم حياته في مسقط رأسه دمشق ، يعمل إماماً في المسجد المذكور ، ولقب بالصوفي لميوله الصوفية . ويبدو أن هذا الاتجاه هو المسؤول عن اعتزاله العالم في السنين الأخيرة من حياته ، وإقامته في مدينة صفد حيث عاش عيشة الزهادة إلى أن وافته المنية في بيمارستان الأمير سيف الدين تنكز ، قبل وفاة معاصره ملك حماة أبي الفدا بأربعة أعوام عن عمر يناهز السبعين عاماً .

يتمتع الدمشقي بروحة علمية متعددة الفروع رغم جنوحه إلى التصوف ، إذ ترك وراءه عدداً لابأس به من المؤلفات التي تنم عن سعة اطلاعه وتضلعه بالعلوم العصرية المعهودة في زمانه ، وأبرزها من الزاوية الجغرافية كتابه الكوزموغرافي في : « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » . وهو كتاب يتعرض لعلم الجغرافية في معناه العريض ، ويشابه إلى حد كبير كتاب « عجائب المخلوقات » للقزويني .

وعلى الرغم من خلو وجهة نظر المؤلف بشكل واضح من أي حس نقدي ، ففي كتابه الكثير من المعلومات التي لانجدها عند سواه . ومع أن كتابه ينتسب للجغرافية الوصفية ، فهو أقل قيمة ، من عدة نواح ، من كتاب معاصره الشهير أبي الفدا ، لاسيما وأنه يهمل إحداثيات الجغرافية الرياضية ، ولا يقدم لنا الموجز الوصفي الذي يسبق تعداد المدن عند ملك حماة ، فإننا نعثر في كتابه على كمية من النبذات المنفصلة التي تختص بمختلف ضروب العلوم ، وترد غالباً في أماكنها المناسبة وليس على شكل استطراد .

وهكذا قدّم لنا التاريخ وعلم النبات وعلم الحيوان ، وعلم المعادن وطبقات الأرض ، ومختلف

المعلومات عن منتجات الصناعة الشرقية ، أقول : قدم لنا مواضيع متنوعة جداً تؤلف بمجملها نوعاً من مزيج يحمل طابع سعة الاطلاع . والدمشقي كما يظهر ، من كتابه هو مؤلف جَماعة ظل يعمل على غرار الكثيرين من أمثال المسعودي والبكري الخ ... غير أنه عالج في بعض أجزاء كتابه ، مثلاً الفصل الخاص بالمعادن ، مواضيع لا نعهدها عند أي مؤلف عربي آخر معروف في عصره ، ومن جملة المراجع التي اعتمد عليها الدمشقي نذكر خاصة كتاب أحمد التيني أو المصري الوراق المتوفي سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ، وعنوانه « مباهج الفكر ومباهج العبر » ولكنه نادراً مايشير إلى مصادره ، وهي جميعاً أسماء معروفة لنا مثل ابن حوقل والمسعودي والبكري والإدريسي .

هذا ويقسم شيخ الربوة كتابه إلى تسعة فصول ، يعالج في الفصل الأول : شكل الأرض ووصف الأقاليم السبعة وفصول السنة وبعض الآثار القديمة ، وفي الثاني : المعادن والجواهر والأحجار الكريمة ، وفي الثالث : الأنهار والآبار والعيون التي ورد اسمها في كتب التاريخ ، وفي الرابع : البحار ، وفي الخامس : يتكلم عن البحر الأبيض المتوسط مع وصف مفصل لميناء الإسكندرية ، ويتكلم في السادس عن بحر الجنوب أي المحيط الهندي .

ويخصص الفصول الثلاث الباقية لدراسة القارات ، وهنا نجده يتقيد بمفهوم الأقاليم السبعة ، فيبدأ من الشرق حيث تقع مملكة الصين ، مع عاصمتها خمدان ، ومدينة صينيا ، ويتابع وصفه متقدماً من الشرق نحو الغرب حسب ثلاثة نطاقات متوازية ؛ يمتد الأول من أقصى حدود الهند والصين حتى خليج البنغال وساحل كوروماندل ، ويشتمل النطاق الثاني على ساحل كوروماندل وهندستان وسجستان وعراق العجم والعراق العربي وإقليم الجبال واذربيجان وأرمينية والجزيرة وبلاد الشام حتى شبه جزيرة العرب ، ويبدأ النطاق الثالث من تركستان وفرغانة وجيلان والديلم وآسيا الصغرى والساحل الجنوبي للبحر الأسود .

ويخصص الدمشقي فصلاً خاصاً لوصف الجزء الغربي من الأرض الذي يقسم بدوره إلى نطاقات ، ولكن دون نظام واضح ، فيبدأ بمصر ثم يصف ساحل برقة حتى المحيط ، ثم مملكة المغرب وبلاد البربر الواقعة على تخوم الصحراء ، ثم السودان وبلاد الزنج حول منابع النيل والنيجر ويترك القسم الأخير لشبه جزيرة إيبرية .

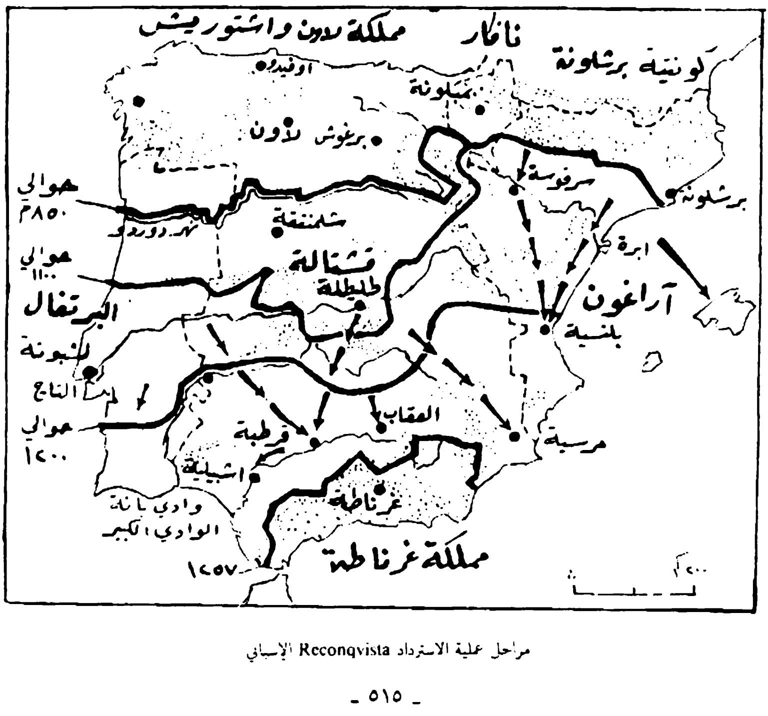
واستناداً إلى مقدمة مخطوط كوبنهاغن ولندن يصف المؤلف خارطة ينوي توضيح كتابه بها ، غير أن الباحثين لم يعثروا حتى الآن على الخارطة المذكورة في أي من المخطوطات . وعلى كل صبَّ الدمشقي الكثير من اهتمامه على تعريفنا ببلاد الشام وفلسطين حيث عاش كل أيام حياته ، والتي يعتبر كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة لجغرافيتها وتاريخها .

وقد جرت أول محاولة لدراسة كوزموغرافية الدمشقي على يد المستشرق السويدي نوربورغ

Norberg الـذي نشر مقتطفـات صغيرة منـه في عـام ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ كما اهتم بـه المستشرق فرين Frahn الذي أخرج طبعة كاملة للكتاب ، قـامت بنشرهـا كلية العلوم الروسيـة ، مثلمـا أخرجهـا المستعرب الدانماركي مهرن Mehren مع مقدمة إضافية طبعت في ليبزيغ عام ١٩٢٣ م .

وللدمشقي مؤلف آخر أقل شهرة ، ولكنه ذو فائدة كبيرة وهو « المقامـات الفلسفيـة والترجمـات الصوفية » ويقع في ٥٠ مقامة تؤلف موسوعة في الفيزيـاء والريـاضيـات والفقـه ، تروى على لسـان أبي القاسم التواب بإشراف أبي القاسم الأواب ، هـذا كما ترك لنـا الـدمشقي دفـاعـاً عن الإسلام تحت عنوان « جواب رسالة أهل قبرص » وتظهر فيه آثار الزهد الصوفي ، وله كتاب آخر مطبوع اسمه « الرسالـة في علم الفراسة » ظهر في القاهرة عام ١٣٠٠ هـ .

ظروف عصر الدمشقي : لقد عاش الدمشقي في زمن أخذ فيه بريق دولة الإسلام بالشحوب حيث ظهرت بوادر الانحلال السيـاسي في مشرق العـالم الإسلامي ومغربـه ، فقـد تلاشى آخر أمل بقيـام



مراحل عملية الاسترداد Reconqvista الإسباني

حلف بين الشعوب الإسلامية على طرفي البحر الأبيض المتوسط في أعقاب ضعف سلطة الموحدين في الأندلس ، وفي نفس الوقت أخذ فيه أمراء النصارى ، في هذا البلد يدركون أن الاتحاد يصنع القوة .

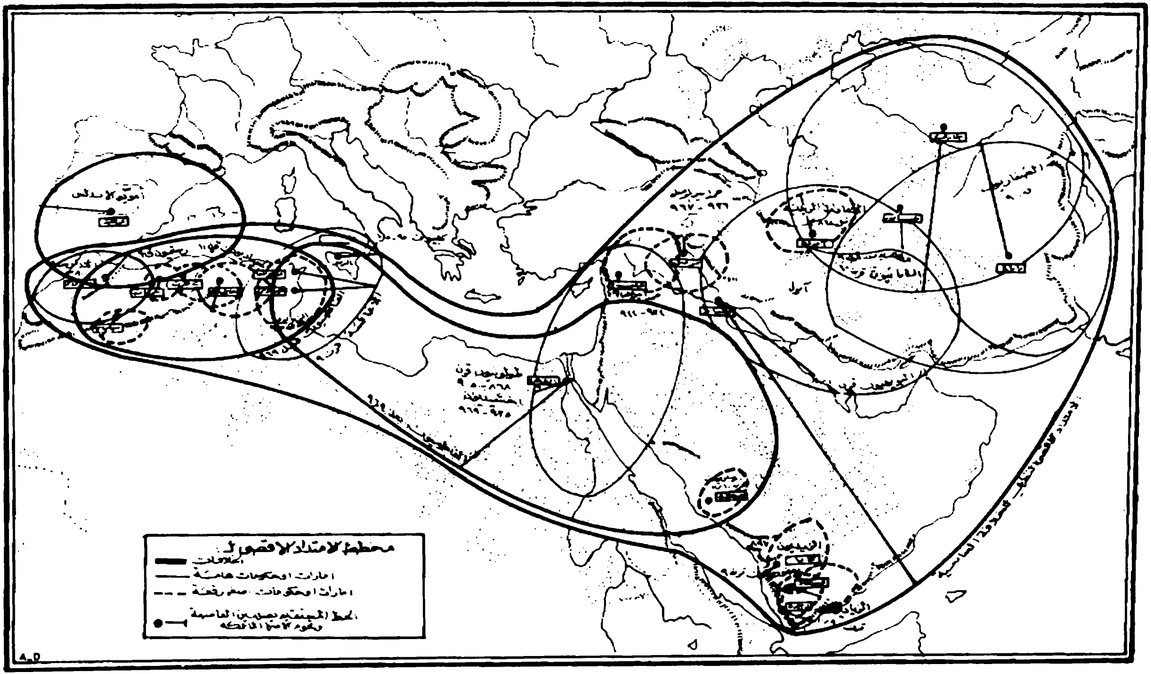
ففي عام ١٣٢٨ م احتل جاك أمير آراغون بلنسية ، وفي وقت قريب من ذلك اجتاح فرديناند الثالث القشتالي مرسية ، بيد أنه تقدم نحو جنوب غرب شبه الجزيرة ، ونصب راية الصليب فوق مآذن قرطبة ، وبعد قليل خسر العرب مدناً هامة مثل اشتبة وأسيجة والمدور . وسقطت إشبيلية في أيدي النصارى عام ١٢٤٨ م كما احتل البرتغاليون آلينتجو ومنطقة الغرب في الزاوية الجنوبية الغربية . Algarve

وتركزت بقايا حكم العرب المجيد حينئذ في غرناطة ، حيث انطفأت آخر أشعة حضارة سبق لها أن أنعشت أوروبا ، تاركة بقايا لاتزال ماثلة في أدب شعوب جنوبي أوروبا . ولهذا نجد الدمشقي عند كلامه عن البيرة يقول : « وسميت دمشق لشبهها بكثرة الأشجار والأنهار ، وكانت قصبتها في صدر الإسلام ، ثم صارت القصبة غرناطة من بعدها ، ولما استولى الفرنج على معظم الجزيرة انتقل أهلها إليها وصارت المصر المقصود » .

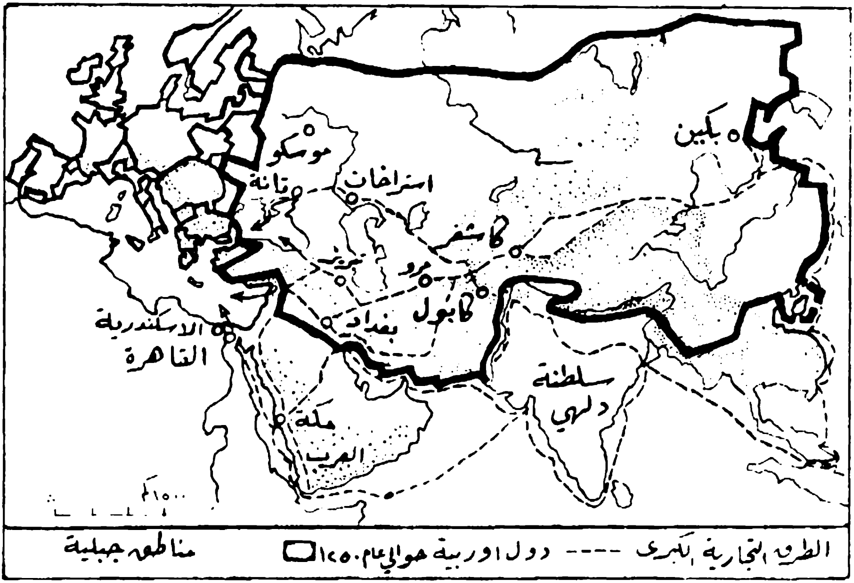
ومن ثم ينتقل إلى الكلام عن المرية : « ولما خربت بجّانة انتقل أهلها إلى المرية وقصدها التجار لشراء الحرير وما يعمل فيها من الستور وغيرها ، ثم انتقل الناس إلى غرناطة في زمن بني مناد الصناهجة لما ملكوها وعمروها وهي اليوم دار ملوك الأندلس » .

وبينما كانت أطراف دار الإسلام تتداعى تحت ضربات السلاح النصراني في الغرب ، كانت تتعرض في أواخر القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر إلى تبدل هام في الشرق ، فبعد أن تفتتت الخلافة إلى أسر حاكمة مختلفة وشبه مستقلة ، ولم يبق منها أكثر من اسمها ، إلى أن خمدت جذوتها بصورة مخزية في شخص آخر خليفة عباسي هو المستعصم وذلك في عام ١٢٥٨ م ، وبعد احتلال المغول لبلاد ما وراء النهر ، حيث التجأ الملك محمد ، سلطان خوارزم ، إلى جزيرة في بحر الخزر ، تاركاً العرش لولده جلال الدين ، نجح أقطاي بن جنكيز خان بالقضاء ، وبسهولة ، على آخر مقاومة حاولها جلال الدين في وجه زحف البرابرة .

وما إن سقطت بغداد حتى أضحت بلاد الشام ومصر مفتوحتين أمام الغزاة . وقامت أسرة جديدة كي تحتفظ موقتاً بما تبقى من الخلافة القديمة ، وهم المماليك ، وأصلهم من المرتزقة الشراكسة القوقازية ، والذين أسكنهم صلاح الدين الأيوبي في جزيرة الروضة في النيل ، ومنها جاء اسمهم المماليك البحرية ، مستفيدين من ضعف الأيوبيين ، فنصبوا إيبك أشهر رؤسائهم ، إلى المرتبة الملوكية . ولكن المغول بعد أن استولوا على دمشق وخربوا حلب وبعلبك وحماة ، اقتربوا من حدود



مخطط الامتداد الأقصى



الامبراطورية المنغولية بحدود عام ١٢٥٠ م

مصر ، فنهض أحد زعماء المماليك ، ركن الدين بيبرس ، واعترضهم وكسرهم في عين جالوت قرب عكا . وبعد هذا الفشل زهد المغول في سورية ، وتسمى بيبرس بلقب سلطان ، بعد قتل قطز ، الملقب بالملك المنصور ، وهو الابن الأصغر لإيبك سنة ١٢٦٠ م .

وقد قضى الدمشقي شبابه في سورية تحت تقلبات هذه الأسرة يعمل في وظيفة إمام جامع الربوة ويدعو للصوفية . وبعد أن احتل الصليبيون أكثر الأماكن الحصينة في سورية ، وتحالفوا مع المغول ، اندحروا بدورهم على يد بيبرس الذي استطاع بعد انتصاراته الرائعة أن يستعيد سورية ، ومن ثم سقطت قيصرية وارسوف وصفد وقلعة الحصن ويافا وأنطاكية وعكا بين ١٢٦٦ م و ١٢٦٩ م في أيدي المسلمين الذين نجحوا في صد المغول في زحفهم نحو الغرب . كما أن الإسماعيليين الذين كانوا سادة قصر بانياس ، أصبحوا من أتباع بيبرس وتخلوا له عن أهم قلاعهم . وعند وفاة بيبرس عام ١٢٧٧ م كان بيبرس قد أنشأ مملكة كانت حدودها تمتد إلى دنقلة في النوبة وتساير الفرات حتى قرقيسية .

كما عاصر الدمشقي خلفاء بيبرس الذين كانوا أقل منه نجاحاً ، مثل الملك السعيد ، والملك المنصور سيف الدين قلاوون ، المعروف في تاريخ الصليبيين بقسوته عليهم . وفي عصر قلاوون سقطت طرابلس بيد المسلمين سنة ١٢٨٩ م ، وفي عهد ابنه ناصر الدين محمد الذي خلع بعد أن صعد للعرش للمرة الثالثة توفي الدمشقي في صفد ، بعد أن تكلم على أسرة المماليك في الفقرة ١١ من الفصل الثاني ، وفي الفقرة الرابعة من الفصل التاسع تحت عنوان (التتر) : « فحاربهم خوارزم شاه ، فلم يقف في وجوههم فانهزم منهم فتبعوه إلى أن ألجؤوه إلى جزيرة في بحر الخزر مما يلي طبرستان ، فمات بها سنة ٦١٠ هـ . ومن هذه السنة خرجوا من بلادهم ، ولم يزل أمرهم يتفاقم وسلطانهم يتعاظم إلى أن ملكوا بلاد خراسان وفارس وبلاد الجبل وآذربيجان وأرّان[1] وبلاد أرمينية وما جاورها وتاخمها ، ثم العراق والشام وخربوا جميع ما ملكوه وقتلوا أهلها .

وأنفذ الله جيشاً من الديار المصرية من الترك الذين قدمنا ذكرهم أيدهم بنصره فردوهم على أعقابهم وأغمدوا السيوف في رقابهم وتبعوهم بلاد الشام واستخلصوا ما صار في أيديهم منها وغسلوا أوضار آثارهم عنهم ، وهذا الجيش هم العصابة المحمدية الظاهرون بالحق المؤيدون إلى يوم القيامة » وأواخر التواريخ السنوية التي نجدها في كتاب الدمشقي هي ٧١٩ هـ و ٧٢٣ هـ أو ١٣٢٠ م و ١٣٢٤ م أي قبل وفاته بثلاثة أعوام .

النص الأول

الفصل السادس في ذكر نبذ من الأخلاق وجمعها وتقسيمها بحسب البقاع والأمزجة وذكر صفات أهل الأقاليم المنحرفة والمعتدلة وما يتبع ذلك :

« وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحبار : صف لي ماتعلم من أخلاق أهل البلاد المحمودة والمذمومة غالباً . فقال : ياأمير المؤمنين أربعة لاتعرف في أربعة : السخاء في الروم ، والوفاء في الترك ، والشجاعة في القبط ، والغم في السودان .

وطلب النجدةُ الشامَ فقالت الفتنة : وأنا معك . وطلب الإيمان اليمن فقال الحياء : وأنا معك . وطلب الغنى والخصب مصر فقال الذل : وأنا معكما .

قـال : يـاأمير المؤمنين ، وقسمت القسـاوة عشرة أجزاء تسعـة منهـا في الترك وواحـد في النـاس ، وقسم الحـذق عشرة أجـزاء تسعـة منهـا في العرب وواحـد في الناس ، وقسم البخل عشرة أجزاء تسعة في الهنود وواحد في النـاس ، وقسم الحقـد عشرة أجزاء تسعة في العرب وواحد في الناس ، وقسم الكبر عشرة أجزاء تسعـة في الروم وواحـد في النـاس ، وقسم الطرب عشرة أجزاء تسعـة في الهنـود وواحـد في الناس .

وقيل : حكي عن الحجـاج أنـه قـال : أهـل اليمن أهـل سمـع وطـاعـة ولـزوم جماعة ، عرب استنبطَوا ، وأهل البحرين نبط استعربوا ، وأهل اليمامة أهل جفاء وخلاف آراء ، وأهل فارس أهل بأس شديـد وعز عتيـد ، وأهل العراق أبحث عن صغيرة وأضيـع لكبيرة ، وأهـل الجـزيرة أشجـع النـاس ، وأهـل الشـام أطـوعهم لمخلوق ، وأهل مصر عبيد لمن غلب وأكيس الناس صغـاراً وأجهلهم كبـاراً ، وأهل الحجاز أحبهم للمعارف وأسرعهم إلى فتنة ، والله أعلم .

وسئل الجاحظ عن البقاع التي رآها وطباع أهلها وأخلاقهم العامة فقال :

الهند بحرها در ، وجبالهـا يـاقوت ، وشجرهـا عود ، وورقهـا عطر ، ولأهل الهند الفكر والوهم والحدس والظن والبخل والحيلة والشعبذة .

وكرمان ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، وعدوها بطل ، وأهلها غُفّل عُمّل .

وخراسان ماؤها جامد ، وعدوها جاهد ، وأهلها مابين عـالم وقـائـد ذي كبر ومعاند .

وعمان حرها شديد ، وصيدها عتيد ، وأهلها مابين قائم وحصيد ، لاينفكون عن قتيل أو شريد .

والبحرين كناسة بين المصرين ، وأهلها زجاجة بين حجرين .

والبصرة ماؤها سبخ ، وحرسها صلح ، مأوى كل تاجر ، وطريق كل عابر ، وأهلها أهل شقاق ونفاق ومكر وسوء أخلاق .

والكوفة ارتفعت عن حر البحرين ، وسفلت عن برد الشام ، وأهلها أهل وفاء وخفاء مع جفاء .

وواسط جنة بين حماة وكنّة ، وأهلها قرّاء قابضون على الأعنّة ، طاعنون بالألسن والأسنّة .

والشام عروس بين نساء جلوس ، وأهلها ذو عيشة راضية ، وقلوب صافية مع طباع جافية ، ولا يخفى منهم خافية .

ومصر عوَاءها راكد ، وحرها متزايد ، تطول بها الأعمار ، وتسودَ بها الأبشار ، وأهلها جهلة هزلة ، أذكياء ولا عقل ، وفطن أغبياء .

وحكوا أصحاب التواريخ : أن عَمْرو بن عامر لّما تحقق كون سيل العرم قال لقومه : من كان ذا شياه وعبيد وجمل شديد فليلحق بشعب بّوان فلحقت به همدان ، ومن كان ذا سياسة وصبر على أزمات الدهر فليلحق ببطن مر فلحقت به خزاعة ، ومن كان يريد الراسخات في الوحل المطعمات فليلحق بيثرب ذات النخل فلحقت به الأوس ، ومن كان يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق والذهب والأوراق فليلحق بالعراق فلحقت به لخم ، ومن كان يريد البز والحرير والتأمير والخمر والنير فليلحق بالشام فلحقت به غسان .

ومثله : تميز العرب بالفصاحة والاستعارة في الألفاظ والإيجاز والاتساع والتصريف والسحر باللسان والخطابة والنجدة والوفاء والذمام والجود والقرى ، هذه الفضائل ليست لواحد من أفراد العرب بل الشائعة الغالبة على عموم أخلاقهم . كما للروم الاستنباط والغوص والكشف والاستقصاء ، وللهنود ماتقدم ذكره وللفرس الرويّة والأدب والسياسة والرسوم الملوكية والترتيب والمعبودية

والربوبية . واعتبار الشرف والفضل معتبر على ما خصّ به قوم دون قوم في أول الخلق ومبدأ الفطرة ، ومما يكتسبه قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار الجيد والردي والرأي الصائب وضده ، ولكل أمة فضائل ورذائل ومحاسن ومساوئ وكمال ونقص ، إذ الخيرات والشرور والفضائل والنقائص مضافة على جميع الخلائق ، ولا تخلو كل فرقة وطائفة ممن وصفوا بالحلم والعقل وأوصاف الكمال من جاهل خال من الأدب داخل في الرعاع والهمج ، ولا الموصوفون بالشجاعة من جبان جاهل طيّاش بخيل غني ، فالحكم للأغلب في كل أمة وكل طائفة والله أعلم » .

النص الثاني

لم يكن الدمشقي رجلاً يحب الأسفار ولكنه يقدم لنا في هذا النص وصفاً دقيقاً للمنطقة التي عاش فيها ، كما هو منتظر منه ، ونرى هنا ضعف اللغة وتعدد الأخطاء النحوية .

« ومن البلاد والأعمال المضافة إلى صفد ثغر **شقيف** ، وهو حصن منيع فتحه الملك الظاهر من الإفرنج ، وله عمل واسع ونهر ليطة[٢] يمر تحت جبله ، **ومَعَليا** قلعة مليحة جبلية حصينة ، وبأرض مَعَليا القُرَيْن قلعة مليحة منيعة بين جبلين كان ثغراً للفرنج فتحه الملك الظاهر رحمه الله ، وله وادٍ نزه معروف به من أنزه البقاع ، وبه من الكمثرى المسكي المعطر الرائحة الطيب الطعم ما لا بغيره ، ومن الأترج[٣] ما تكون الثمرة الواحدة نحو ستة أرطال دمشقية . وجبل **عاملة** عامرة بالكروم والزيتون والخروب والبطم وأهله رافضية إمامية ، وجبل **جَبَع** كذلك أهله رافضة ، وهو جبل عال كثير المياه والكروم والفواكه ، وجبل **جزّين** كثير المياه والفواكه ، وقلعة **شقيف** تيرون قلعة حصينة على جبل عال ، ولها عمل

(٢) نهر الليطاني في سهل البقاع اللبناني .

(٣) البرتقال ومنه جاءت كلمة أورانج المحرفة باللغات الأوروبية .

ولها نائب ولم يحكم عليها منجنيق . وجبل **تبنين** وله قلعة ولها أعمال وولاية وهم رافضة إمامية ، وقلعة **هونين** وهو على حجر واحد ولها أعمال . **والخيط** وهو قلعة من الغور الأعلى شبيه بأرض العراق في الأرز والطير والماء السخن والزروع المنجبة . ومن أعمال صفد **مرج عيون وأرض الجرمق** ، وهي مدينة قديمة عادية كانت بها طائفة من العبرانيين ينسبون إليها يقال لهم الجرامقة والكنعانيون بوادي كنعان بن نوح عليه السلام . ومن عملها جبل **بقيعة** ، وبها قرية يقال لها **البقيعة** لها أمياء جارية ولها سفرجل مليح وبه قرى كثيرة الزيتون والفواكه والكرم ، وجبل **الزابود** مشرف على صفد والزابود قرية وبها أيضاً قرى كثيرة ... ومن عملها **طبرية** وكانت قصبة الأردن وهي مدينة مستطيلة على شاطئ بحيرتها ، وطول البحيرة اثنا عشر ميلاً وعرضها ستة أميال ، والجبال تكتنفها ، ومنها يخرج نهر الشريعة ويصب في بحيرة زغر(٤) ، وعلى شاطئ بحيرة طبرية منابع حارة شديدة الحرارة تسمى الحمامات(٥) ، وماء هذه المنابع ملحي كبريتي نافع من ترهل البدن ومن الجرب الرطب ، ومن غلبة البلغام وإفراط العبالة .

يقال : إن في البحيرة قبر سليمان بن داود عليه السلام .

وحطّين بها قبر شعيب عليه السلام ، وعلى هذه القرية كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والإفرنج . وكان ملك المسلمين صلاح الدين وكسر الإفرنج على قرن حطين ، وقتل منهم خلق كثير وأسر ملوكهم وبنى على قرن حطين قبة يقال لها قبة النصر . ومن أعمالها **كفر كنّا** وهي قرية كبيرة بها مقدّمو العشائر ورؤساء الفتن والهوى ، يسمون قيس الحمراء . ولها من الأعمال **البطّوف** ويسمى مرج الغرق(٦) وهي بين جبال محيطة بها من كل مكان ومياهه الأمطار تجتمع فيها

---

(٤) أي البحر الميت أو بحيرة لوط .

(٥) الحمة الحالية في الأردن وسورية على ضفتي نهر اليرموك قبل مصبه في الأردن .

(٦) وهو مرج ابن عامر .

فتصير بحيرة متسعة ، تشرب مياهها الأرض ، وكلّ ما جف مكان منها زرعه الزراع كما يفعلون أهل مصر . ومن أعمال صفد أيضاً مدينة **الناصرة** وهي مدينة عبرانية تسمى ساعير ومنها ظهر المسيح عليه السلام ، وموضع البشارة به من الملائكة لأمه مريم عليها السلام معروف يزوره النصارى وغيرهم ، وفي التوراة تسميتها وتسمية مكة شرفها الله تعالى لتبين رسالتي المسيح ومحمد ﷺ وذلك ترجمته :

جاء الله من سينا (يعني موسى بن عمران والتوراة) وأشرق من ساعير وجبال الساعير ، يعني المسيح الناصري الذي خرج من الناصرة وجبال الساعير جبال الناصرة ، واستعلن بفاران وبرية فاران يعني مكة والحجاز (ونبينا محمد ﷺ والقرآن) . وأهل الناصرة كانوا مفتاح دين النصرانية ومنشأه وأساسه وذلك في زمن قسطنطين ... ومن أعمال صفد مدينة **اللجون** وهي مضافة إلى العشير والهوى (والين أهل الناصرة كما أهل كفر كنّا قيْس ولهذا القسم أيضاً) :

جنين : وهي مدينة صغيرة ، ولها عمل من أعمال صفد عكا وصور وأعمالها ، وصيدا وأعمالها ، وهي مدينة قديمة ولها أعمال كبار .

ويقال : إن الإسكندر نزل صور فلم يصل إليها من سهامه سهم ، ولا من حجارة مجانيقه حجر ، فأرسل من أهله خيفة من أهلها ، ورجع فأخبره أن قوماً قد صرفوا هممهم إلى صرف ما ترمونهم به ، فاجتمع رأي من مع الإسكندر في وضع الكوسات ، وأن يضربون عليها في وقت واحد عند السحر ، ويزحفون مع الضرب لها ، ففعلوا وفتحوها ، حين اشتغلت قلوب أولئك وتشوشت خواطرهم ففاتهم . ومدينة **عكا** بناها عبد الملك بن مروان وغلبت عليها النصارى ، ثم فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو الملك الناصر ، لم يفتح صور صلاح الدين يوسف فغلبت عليه النصارى ، ففتحها صلاح الدين خليل ابن الملك

المنصور رحمه الله وأخربها ، وفتح بفتحها عثليث وحيفا وإسكندرونة[٧] وصيدا وصور وبيروت وجبيل وأنفة والبترون وصرفند في مدة سبعة وأربعين يوماً وكان فتحاً مبيناً وثغراً غزيراً .

مملكة كرك : وهو حصن منيع عال على قبة جبل ، خندقه أودية بعيدة السفل يقال : إنه كان ديراً للروم فبني حصناً ، ومن جنده **الشوبك** حصن ، مدينة خصبة ولها فواكه كثيرة وعيون غزيرة . **ومعان** مدينة صغيرة على سيف البرية عمرها طائفة من بني أمية وسكنوها ثم ذهبوا ، وهي اليوم منزلة للحجاج ، يقام بها سوق في غدوهم ورواحهم ، **وإقليم الجبال ومدينة الشراة ، ومدينة قاب** على اثني عشر ميلاً منها قرية مؤتة ، **ومن جند الكرك** اللجون والحسا والأزرق والسلط ووادي موسى ووادي بني نمير وجبل الضباب وجبل بني مهدي وقلعة السلع ، وأرض مدين وأرض القلزم وأرض الريّان وبالغور الزرقا والأزرق والجفار والتيه ، وزغر وهي مدينة بالغور ومعها السافية وبها رطب شبيه بالبرني وأزاد بالعراق ، ومدينة عمان التي لم يبق إلا دمنتها وعملها ، وأرض البلقا ، وحصن الكرك خزانة الأتراك ومعقلهم وبه أبداً نائب مأمون عندهم » .

النص الثالث

الدمشقي يبرهن على كروية الأرض في افتتاحية كتابه

« أجمع المحققون لعلم الهيئة على أن الأرض جسم بسيط ، طباعه أن يكون بارداً يابساً متحركاً إلى الوسط . وإنما خلقت باسطة باردة يابسة للغلظ والتماسك ، إذ لولا ذلك لما أمكن قرار الحيوان عليها ولا حدث النبات والمعدن فيها . وهي كرية الشكل بالكلية ، مضرّسة بالجزوية من جهة الجبال البارزة

(٧) مدينة فلسطينية على الساحل جنوب حيفا .

والوهدات الغائرة ولا يخرجها ذلك من الكرية . وهي في الوسط من الفلك ولا نسبة لها إليه ، لأن أصغر كوكب من الثوابت بقدرها مرات ووسط الفلك هو السفل منها ، ومثلها فيه كمثل النقطة في الدائرة أو كالمح من البيضة ، فهي واقفة في الوسط والماء محيط بها إلا المقدار البارز الذي خلقه سبحانه وتعالى وجعله مقراً للحيوان ، فإنه بمنزلة التضاريس والخشونات على ظهر الكرة ، فمثلها بها كمثل ثمرة العفص المضرّسة مع الاستدارة . وجعل الله البارز منها مقراً للحيوان البري ، ووهداتها المغمورة بالماء مقراً للحيوان البحري . وجعل كل واحد من العناصر فلكاً محيطاً بما دونه إلا الماء فإنه منعته العناية الإلهية عن الإحاطة . لذلك المذكور ولما بين مركزي الشمس والأرض من المخالفة ، فإن الشمس تدور على مركزها الخاص بها الذي هو غير مركز الأرض ، فتقرب من جانب الأرض وهو الجنوب موضع حضيضها ، وتبعد من جانب الشمال موضع أوجها . ولما كان ذلك انجذبت المياه إلى جهة الجنوب ، وانحسرت من جهة الشمال ، فصار الشمال يبساً (أرضاً طافية) .

وجعل الله تعالى لون الأرض في الغالب أغبر أدكن ليظهر النور والضياء وليتمكن أبصار الحيوان من النظر فتمت الحكمة (وأتقن نظام الحيوان والنبات والمعدن) . قالوا : والدليل على أن الأرض كرية الشكل مستديرة أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع النواحي في وقت واحد ، بل يرى طلوعها في النواحي المشرقية من الأرض قبل طلوعها على النواحي المغربية[٨] ، وغيوبتها عن المشرقية قبل غيوبتها عن المغربية . وكذلك خسوف القمر ، إذا اعتبرناه ، وجدناه في النواحي المشرقية والمغربية مختلفاً متفاوت الوقت ، ولو كان طلوعه وغروبه في وقت واحد بالنسبة إلى النواحي لما

---

(٨) ومن ذلك جاءت كلمة أوروبا من الكلمة الفينيقية Ereb أي الغرب أو المغرب . والفينيقية هي إحدى فروع اللغة الآرامية شقيقة العربية .

اختلف . ولو أن إنساناً سار من ناحية الجنوب إلى ناحية الشمال رأى أنه يظهر لـه من الناحية الشماليـة بعض الكواكب التي كان لهـا غروب فتصير أبـديـة الظهور . وبحسب ذلك يكون عنده من ناحيـة الجنوب بعض الكواكب التي كان لهـا طلوع أبدية الخفاء على ترتيب واحد . والماء محيط بالأرض ولولا التضريس لغمرها حتى لم يبق منها شيء . ولكن العناية الإلهية اقتضت اللطف بالعالم الإنسي ، فأبرز لـه من المـاء جزءاً ليكون مركزاً للعـالم . وإحـاطـة المـاء لهـا بـالأمر الطبيعي إذ كل خفيف يعلو على الثقيل . والماء أخف من الأرض فكان مركزه بهـا والهواء جـاذب لها من جميع جهاتها إلى الفلك بالسوية كجذب المغناطيس الحديد ولـذلـك وقفت في الوسط .

وذهب آخرون إلى أنها واقفة في الوسط من دفع الفلك لهـا من جميع جهـاتهـا كتراب ملقى في قـارورة تـدور بسرعـة قـويـة دورانهـا مستمر فـإن ذلـك التراب ينجذب إلى وسطها ، وكذلك التبن إذا ألقي في طشت مملوء بماء وأدير ذلـك المـاء بقوة دار التبن معه وانضم إلى الوسط مجتمعاً بعضاً مع بعض . وذهب آخرون إلى أن الأرض بطبعها هاربة من الفلك إلى ذاتها على ذاتها فهي إذاً منضمـة منـه من سـائر جهات إحاطته بها انضماماً إلى نفسها عنه بالتساوي ، وإذا زال الفلك يوم القيامـة وانتثرت كـواكبـه وطـوي طي السجـل ذهب عنهـا المـوجب لهروبهـا فـامتـدت وانتشرت واهتزت وتسـاوت بـالانفراش إلى قريب من أذيـال السماء الثـانيـة (الثابتة) والله أعلم .

ثم أنهم مثّلوا حلول الساكن فيها بتفاحة غرز فيهـا شعير من سـائر جهـاتهـا ، فكل شعيرة منتصبة إلى مـا قـابلهـا من جميع جهـاتهـا ، لا فرق بين شيء منهـا في استقامته ، وحيث كان النـاس في استيطانهم فإن أرجلهم إلى الأرض ورؤوسهم إلى السماء . وكل فريـق يرى أن أرضـه التي هـو عليهـا هي المستقيمة في الاعتـدال . وقالوا في تحقيق هذه الـدعوى : لو أن أهل نـاحيـة من نواحي الأرض حفروا بئراً

وأطالوها إلى المركز ، وحفر أهل الناحية التي تقابلهم بئراً أخرى ، وأطالوها إلى أن يلتقي الحفيران ويكون الماء واحداً لأرسل كل واحد دلوهم ، وكان أسفل هذا الدلو مقابلاً لأسفل الدلو الآخر ، وكان هؤلاء يجرون دلوهم ، والآخرون كذلك ، لا يشك كل واحد منهم أنه جاذب دلوه من أسفل البئر إلى أعلاه . واستدلوا أيضاً على ذلك أن الإنسان إذا كان في موضع من الأرض ، وأخرج خطاً مستقيماً من مكانه إلى مركز الأرض ، وانتهى به إلى الجهة الأخرى . فإنه يمكن أن يكون على طرف الخط من الجهة الأخرى من رجليه ، حتى إنهم قالوا متى قيس بين أهل الصين وبين أهل الأندلس ، اللذين هما على طرف المعمور ، كانت أقدامهم متقابلة[٩] ، وكان طلوع الشمس والقمر عند هؤلاء غروبها عند هؤلاء ، وليل هؤلاء نهار هؤلاء وبالعكس » .

---

(٩) وهو ما يسمى باللغة الفرنسية antipodes أي الأرض المتقابلة .

عَبْدُ اللهِ التّجاني

(٦٧٠ هـ ، ١٢٧٢ م وفاته ١٣١٨ م)

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني ، ولد في مدينة تونس بين ٦٧٠ و ٦٧٥ هـ والتي كانت حينذاك عاصمة الحفصيين ودار ملكهم . ويبدو أن أسرته وفدت إلى العاصمة التونسية مع جيش الموحدين في أواسط القرن السادس الهجري . وقد كان والده وجده وأبناء عمومته من أهل العلم والأدب والفقه[1] . إذن فقد نشأ أبو محمد التجاني في بيت عرف قيمة العلم ، ونشأ في أكناف أبيه الذي كان أحد شيوخه . وكانت للأسرة مكتبة حافلة بأنواع المعارف من العلوم والفقه والأدب والشعر والتاريخ وما إلى ذلك ، أضف إلى ذلك أن تونس نفسها كانت من بؤر العلم والأدب في العالم العربي ، فقد قال العبدري الرحالة الذي زارها في أيام رحالتنا عبد الله عن تونس : « ولو لم أدخل تونس لقلت : إن المغرب خلا كله من العلم ... ولكن الله أراد لي أن أرى هذه المدينة ... التي يجد فيها المرء علماء لكل فرع من فروع المعرفة ، وطلابها مثل أساتذتها ، يبذلون الوقت والجهد في سبيل الدرس » .

إذن فقد تهيأ لعبد الله التجاني كل ما يؤهل المرء للنبوغ من ظروف وأحوال وفرص ، وهمة عالية وجهد لا يفتر ورغبة في التعلم ، وصبر وأناة كانت خليقة بأن تبوئه المركز اللائق بسليل الأدباء والعلماء ، وأدرك أبا عصيدة ، أحد سلاطين بني حفص في مطلع القرن الثامن الهجري فالتحق التجاني بحاشيته . وكان على رأس الدولة يومئذ شيخ الموحدين الأمير أبو يحيى بن اللحياني ، فاختص التجاني بعنايته ، وأوكل إليه وظيفة الكاتب الخاص . وقد رغب ابن اللحياني في أن يتفقد شؤون الدولة ، وربما كان يقصد الحج إلى بيت الله الحرام ، وإن لم يفصح عن ذلك بصورة مسبقة ، مع جمع من وجوه تونس ، كان بينهم عبد الله التجاني الذي عهد إليه بالإشراف على رسائل الرئيس ابن اللحياني .

وخرج ابن اللحياني من تونس في حاشية كبيرة في أواسط شهر جمادى الأولى سنة ٧١٦ هـ ، أي أواخر عام ١٣٠٩ م ، سالكاً طريق الساحل مروراً بسوسة ، ثم انحرفت القافلة باتجاه الداخل وسلكوا طريقاً قادتهم إلى الجم ثم إلى صفاقس فقابس . ومن هذه اتجهوا غرباً في اتجاه منخفض الجريد فزاروا واحة توزر ، وعادوا إلى قابس فتجفت حيث عرجوا على جزيرة جربة . وانكفؤوا كرة أخرى إلى

---

(١) نقولا زيادة . مجلة العربي . شهر آب ١٩٦١ م عدد ٣٢ .

عمراسن في سهل الجفارة كي يعودوا إلى الساحل ، ومروا بزوارة وطرابلس ومصراته ، كي يتابعوا مسيرتهم شرقاً لأداء فريضة الحج ، ولكن التجاني عاد إلى تونس فوصلها في صفر من سنة ٧٠٨ هـ بعد غياب عن موطنه استغرق اثنين وثلاثين شهراً تقريباً .

لما عاد ابن اللحياني من الديار الحجازية لم يرجع إلى تونس بسبب ما ثار فيها من فتن وفوضى واضطراب ، بل استقر في طرابلس يرقب الأوضاع والأمور عن كثب ، إلى أن سنحت له الفرصة المواتية ، فهاجم تونس في شهر رجب ٧١١ هـ (١٣١١ م) واحتل البلد وبويع بالسلطنة وارتقى العرش الحفصي من سنة ٧١١ هـ إلى ٧١٧ هـ (١٣١١ ـ ١٣١٧ م) . ولما لم تستتب له الأوضاع غادر البلاد والسلطة وارتحل إلى الإسكندرية حيث وافته المنية سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) .

ومع أن ابنه تولى الأمر بعده فإنه تعرض في السنة التالية لهجوم عنيف ، قام به أبو يحيى أبو بكر الذي انتزع السلطنة وحكم دولة الحفصيين من ٧١٨ إلى ٧٤٧ هـ (١٣١٨ ـ ١٣٤٦ م) وأعاد للبلاد وحدتها . وفي عهد ابن اللحياني تقلد التجاني خطة العلامة الكبرى أي رياسة دواوين رسائله .

ويقول العلامة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب : « لا مراء في أن عبد الله التجاني باشر ما ألقي على عاتقه من المهام أحسن مباشرة طيلة إقامة هذا السلطان في الملك ... ولم يزل صاحبنا يخدم بعمله وعلمه وقلمه البلاد ويؤلف بين الفينة والفينة التصانيف المفيدة ، إلى أن عقد العزم على مغادرة تونس » .

ويرى هذا العلامة التونسي الكبير ، الذي نشر متن الرحلة عام ١٩٥٨ ، أن التجاني وسائر أفراد أسرته لاقوا مصرعهم قتلاً على إثر انتصار أبي يحيى أبي بكر سنة ٧١٨ هـ ، ١٣١٨ م . وللتجاني مؤلفات عديدة ، أكثرها مفقود ، في الفقه والأدب والتاريخ والتراجم والحديث والمراسلات ، مثل مراسلاته مع ابن شبرين ، وفي العلامة وفي الأدب النسائي .

وهكذا عاش التجاني في ظل دولة الحفصيين التي لم تكن أيامها كلها هادئة تسودها الطمأنينة فقد تنازعت هذه الدولة الأهواء ، وتضاربت فيها المصالح ، ومزقتها الحروب الأهلية في أكثر من مرة في تاريخها ، ولعل أكثرها ضراوة هي التي عاش فيها أبو محمد التجاني .

ولكن رحلة التجاني (كانت كلها خيراً وبركة على الأدب والتاريخ) ، إذ سجل فيها أخبار رحلته . وسجل مشاهداته وعبر عن انطباعاته في (تقييده) الذي سمّى به أخبار رحلته . وهو عبارة عن كتاب في الأدب والتاريخ والجغرافية ووصف المجتمع الذي شاهده التجاني وخالطه ، مدبّج بأسلوب جلي وعبارة أنيقة وصف بها رحالتنا صفاقس وقابس وتوزر وطرابلس[٢] .

---

(٢) أحمد أبو أسعد . أدب الرحلات . ص ١٦٦ .



طريق الذهاب والإياب الذي اتبعه الرحالة التجاني .

نقلاً عن طبعة حسن حسني عبد الوهاب (تونس ١٩٥٨) .

ولما كان سير الرحلة بطيئاً ومجالها محدوداً ، فقد تمكن التجاني من الوقوف على كل ما يمكن ملاحظته في طريق سيره القصير . وللرحلة أهمية كبرى إذ زودتنا بمعلومات وافية عن سائر المناطق التي زارها وعن الأصقاع المجاورة لها . وهي تتعرض لمسائل الجغرافية مثلما تتناول قضايا التاريخ الطبيعي ولاسيما التاريخ البشري . وأسلوب التجاني في العرض أدبي صرف ولكنه لا يثقله بالانطباعات الشخصية أو بمحاولته التدليل على سعة معارفه ومهارته كاتباً . وبعد قرن من الزمان قدّره ابن خلدون تقديراً كبيراً . وأفاد من مصنفه مراراً عديدة في تلك الأجزاء من تاريخه التي أفردها للمغرب العربي .

وقد دلّلت أبحاث أماري على أن التجاني يقدم معلومات تاريخية وجغرافية ذات قيمة كبرى ، من ذلك ما كتبه عن جزيرة جربة وعن صقلية نفسها . وتظهر شذرات من الرحلة في ترجمة روسو التي ترجع لأواسط القرن الماضي ، وتستند على اختيار اعتباطي للنصوص مع سوء فهم للمتن أحياناً . أما المستشرق الإيطالي أماري والمستشرق بل فلم يتعرضا في كتابيهما إلا لقسم يسير من الرحلة .

النص الأول

وصف صفاقس : ووصلنا إلى صفاقس ظهراً ، فرأيت مدينة حاضرة ذات سورين ، يمشي الراكب بينهما ويضرب البحر في الخارج منهما . وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها ، فأفسدها العربان ، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة . وفواكهها مجلوبة إليها من قابس . وماؤها شراب لا يساغ ، وإنما يعتمدون في شربهم على ما يدخرونه من مياه الأمطار . ويُصطاد بها من السمك أنواع تفوت الإحصاء . وببحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه الثياب الرفيعة الملوكية . وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب . ومرساها مرسى حسن ميت الماء ، والماء يمده به ويجزر عنه كل يوم ، فإذا جزر استوت السفن على الحمأة ، وإذا مدّ عامت .

وصف قابس : وأصبحنا يوم الإثنين مرتحلين فأشرفنا على غابة قابس ، ووصلنا إليها ضحى فرأينا بلداً قد استوفى المحاسن واستغرقها . وأذكر بمنظره الأنضر ، وورقه الأخضر ، جنة الخلد واستبرقها ، وقد أحدقت غابته به من جميع جهاته . وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق ، ما يستوقف الطرف ، ويستوفي الحسن والظرف ، ويحقق ما قيل : إن قابس جنة الدنيا ، وإنها دمشق الصغرى ، وهي مدينة بحرية صحراوية فإن الصحراء متصلة بها ، والبحر على ثلاثة أميال منها .

وصف جزيرة جربة : وجزيرة جربة من أعظم الجزائر خطراً وأشهرها في سالف الزمن عمارة وذكراً ، وطولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً ... وأما عرضها فمختلف ، فعرض الرأس الغربي منها عشرون ميلاً ، وهو الطرف الواسع ، ومن هذا الموضع إلى جزيرة قرقنة في البحر ستون ميلاً . وعرض الرأس الشرقي

منها خمسة عشر ميلاً ، وهو أضيق مكان بها . وهي أرض كريمة المزارع ، عذبة المشارع ، وأكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين . وبها أصناف كثيرة من سائر الفواكه . إلا أن هذه هي أكثر ثمرها وعليها مدار غلاّتها . وغيرها من كرائم الأرضين لا يقاربها على الجملة في ثمارها أو يساويها . وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير ، لما يوجد به من صفاء وجفاف وطيب مذاق ، وعطارة استنشاق ، ورائحته توجد من المسافة المديدة ، والأميال العديدة . وكان من شجره بهذه الجزيرة قبل هذا كثير ، ثم قلّ الآن بسبب أن النصارى يتحفون به ملوكهم وكبارهم دون تعويض لأربابه عنه ، فرأى أهل الجزيرة أن غيره من الشجر أعود بالفائدة عليهم فقطعوا أكثره .

واختصت بهذه الجزيرة أيضاً دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف ، التي ليس بإفريقية لما يُنْسَج من أثوابها نظير ، وذلك معلوم من أمرها شهير . وأكثر مساكن أهلها أخصاص من النخيل ، يجعل كل واحد منهم في أرضه واحداً أو اثنين أو أكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله . وليس بها بناء قائم إلاّ دور قليلة .

وصف طرابلس : ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها من شعاع الشمس يُعشي الأبصار ، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء . وخرج جميع أهلها مظهرين الاستبشار رافعين أصواتهم بالدعاء ، وتخلّى والي البلد إذ ذاك عن موضع سكناه ، وهو قصبة البلد ، فنزلنا بها . ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة ، غير أن الخراب قد تمكن منها وقد باع الولاة أكثرها . فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن إنما استخرجت منها . ولها رحبتان متسعتان . وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة ، لأن عشرة من أشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون أمر البلد ، وذلك قبل تملك الموحدين لها ، فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم ، وزال عن المسجد ذلك الاسم .

ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة . فرأيت حماماً صغير المساحة ، إلا أنه بلغ من الحسن غايته ، وتجاوز من الظرف نهايته ، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها ، وهو الآن مُحبَس على بعض المساجد . وبالبلد حمامان آخران غيره إلا أنهما في الحسن دونه . ورأيت شوارعها فلم أر أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة ، وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية ... ورأيت بسورها من الاعتناء ، واحتفال البناء ، ما لم أره لمدينة سواها ، وسبب ذلك أن لأهلها خطأ من مُجْباها ، يصرفونه في رمّ سورها ، وما تحتاج إليهم من مهم أمورها ، فهم لا يزالون أبداً يجددون البناء فيه يتداركون تلاشيه بتلافيه .

وبخارج باب البحر منها منظر من أنزه المناظر ، مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة ، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر ، وتصطف هناك اصطفاف الجياد في أواريها .

وبداخل البلد مدارس كثيرة وأحسنها المدرسة المستنصرية ، التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا رحمه الله تعالى ، وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين ، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وضعاً وأظرفها صنعاً ...

وصف توزر : توزر هي قاعدة البلاد الجريدية ، وليس في بلاد الجريد غابة أكبر منها ولا أكثر مياهاً . وأصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد متسع ، تتشعب منه جداول كثيرة ، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب[٣] ، يقسمونها بينهم على أملاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة . ولهم على قَسمها أمناء من ذوي الصلاح فيهم ، يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف ، وأمر مقرر مألوف . وعلى ذلك الماء أرجاء

(٣) جداول ضيقة .

كثيرة منصوبة . ومن العجب أن هـذا الوادي يحتمل مـا يحتمل من غثـاء أو غيره ، فإذا انتهى إلى المقسم افترق هنالك أجزاء بالسويـة على عـدد المسـارب ، فمضى كل منها إلى مسرب منها ، وهذا مما شاهدته فيها عياناً . وكثير من أهلها إنما يسكنون بغابتها . ولا مناسبة بين مباني الغابة ومباني داخل البلد ، فإن مباني الغابة أضخم وأحسن . وبداخل البلـد جـامعـان للخطبـة وحمـام واحـد . ومتفرّجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر ، وهو من أحسن المتفرّجات لأن مجتمع الماء هنـالـك ، ومنـه تتفرع كما تقدم . ويجتمع بـه القصارون فينشرون هنـالـك من الثيـاب الملـونـة والأمتعة المُوْشية ما يعمه على كبره ، فيخيل للناظر أنـه روض تفتحت أزهـاره ، واطردت أنهـاره . وليس بتوزر أحسن من هـذا الموضع . وهو خـارج عن غـابتهـا والغابة ملاصقة لسور المدينة فهي بذلك تمت حصانتها .

أبُو الفِدَاء

(٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م - ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)

هو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي الأيوبي الشهير بقونية أبي الفداء ، وينتهي نسبه إلى المظفر بن شاهنشاه ابن أخي صلاح الدين الأيوبي . وينتسب إلى فرع دوحة عريقة هي أسرة الأيوبيين التي تولت زمام الحكم في المشرق العربي ، وقد ولد أبو الفداء عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٣ م بمدينة دمشق وكان أجداده أمراء حماة ، في بلاد الشام ، ولكن والده اضطر إلى التخلي عن إمارته أمام الغزو المغولي والتجأ إلى دمشق . وقد سارت مهمة تثقيفه بالأدب جنباً إلى جنب مع تدريبه على فنون القتال ، إذ انخرط في السلك العسكري منذ نعومة أظفاره ، وصحب أباه وهو لم يناهز الثانية عشر من عمره في الكفاح ضد الصليبيين ، وبذلك ساهم في الحملة التي انتزعت من أيديهم قلعة المرقب . كما اشترك وهو في سن السادسة عشرة في طرد الصليبيين من طرابلس ، مثلما ساهم في عام ٦٩١ هـ / ١٢٩١ م في حملة على أرمينية الصغرى قادها السلطان لاشين .

هذا وقد تحالف أبو الفدا مع المماليك وربط مصيره بهم نهائياً في عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م ، وذلك في عهد خليفة لاشين السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ودخل في خدمته وظل وفياً له طول حياته . وفي عام ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م أخذ أبو الفدا طرفاً في حملة المماليك الثانية على آسيا الصغرى . وبعد قليل قام بزيارة لبلاط السلطان بالقاهرة لأول مرة فقوبل بما يستحق من حفاوة واحترام ، وأعيدت له حقوقه الشرعية بعد عامين ، فأعاده الناصر نائباً عنه في حماة سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م ، ثم أقره كسلطان وراثي في هذا المنصب سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م مع لقب الملك المؤيد . وقد سلك أبو الفدا سلوكاً ندر في عصره ، وهو أنه ظل مخلصاً لسيده سلطان مصر ، واستمرت العلاقات طيبة بينهما ، إلى أن أدركته الوفاة في ٣ محرم ٧٣٢ هـ /٢٦ تشرين الأول ١٣٣١ م .

ولا تزال مقبرة أبي الفدا قائمة حتى أيامنا هذه بمدينة حماة ، قرب المسجد المعروف بمسجد الحيايا ، الذي بناه أبو الفدا نفسه كما يمكن الاستدلال على ذلك من كتابة موجودة بالمسجد حالياً يعود تاريخها إلى عام ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م .

وإذا كان أبو الفدا قائداً فذاً وأميراً ساهراً على ازدهار إمارته ، وشاعراً رقيقاً في ساعات

صفاته ، فهو لم يشتهر إلا في سعة أبحاثه العلمية ، فقد ترك لنا بصفته مؤرخاً وجيزاً في التاريخ العام منذ خليقة الكون حتى ٧٢٩ هـ و ١٣٢٩ م دعاه : (المختصر في أخبار البشر) ويعرف بتاريخ أبي الفدا ، وقد نشر في القسطنطينية عام ١٨٦٩ ، كما ترجمت أجزاء عديدة منه إلى مختلف اللغات الأوروبية ، وله كتاب في الفقه اسمه (الحاوي) وكتاب في الطب عنوانه (كناش) وكتاب (الموازين) .

وندين له كجغرافي شهير ، بكتاب عنوانه (تقويم البلدان) الذي يشكل حلقة وصل بين الجغرافية الأدبية والجغرافية الرياضية . وأبو الفدا الذي عاصر الرحالة ماركو بولو (١٢٥٦ ـ ١٣٢٣) لم يكن مثله رجل رحلات ، وإن كان قد زار مصر مراراً ، وطاف بأغلب بلاد الشام ، والجزء الشرقي من آسيا الصغرى ، وبلاد الجزيرة العليا ، بل كان جغرافياً نقّالة ، جمّاعاً ، يستقي مادته من الآثار المعروفة وأحياناً من قصص التجار والرحالة التي سمعها بالشام ، وقد اعتمد على مؤلفات سابقيه أمثال ابن حوقل ، وابن سعيد ، وعلى كتابي (العزيزي) و (اللباب) لابن الأثير . وقد أتم مسودة كتابه هذا في أيلول من عام ١٣٢١ م ، ويعتقد بعض الباحثين أنه ظل يزيد عليه حتى لحظة وفاته . وتوجد في مكتبة ليدن مخطوطة له راجعها أبو الفدا شخصياً ، وقد طبع تقويم البلدان في باريس عام ١٨٥٠ م .

وقد كتب اسمه بالخط العريض على جدار قاعة الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس إلى جانب أسماء كبار الجغرافيين العالميين .

ويبدأ الكتاب بمدخل كوزموغرافي ، بعد أن مهد له بمقدمة بين فيها الدافع على تأليفه فقال : « لما طالعت الكتب المؤلفة في البلاد ونواحي الأرض من الجبال والبحار وغيرها ، لم أجد فيها كتاباً موفياً بغرضي » . ثم ذكر بعض هذه المصنفات وانتقدها كإغفال ذكر إحداثياتها الجغرافية من طول وعرض ، وإهمال ضبط الأسماء . ثم يقدم نظرة إجمالية على الأرض ، لا تحوي مادتها على معلومات ذات أصالة ، ثم ينتقل أبو الفدا إلى وصف الكرة الأرضية فيدرس فيها بالتعاقب جزيرة العرب ، مصر ، المغرب ، إفريقية الاستوائية ، إسبانيا والجزر الشمالية ، بلاد الشام ، بلاد ما بين النهرين ، خوزستان ، فارس Fars ، سجستان ، البنجاب ، الهند والصين ، الجزر الأندونيسية وبحر الصين ، أرمينية ، القفقاس ، إيران الشمالية ، أقاليم الخزر ، خراسان ، طوخاريستان [1] خوارزم ، وبلاد ما وراء النهر ، أي شرق آموداريا .

ويبدو مخطط كل من هذه الفصول التي أتينا على ذكرها مرسوماً حسب خطة متماثلة ويشمل

---

(١) إقليم تقع أراضيه اليوم في كل من إيران الشمالية الشرقية وجمهورية تركمانستان السوفييتية .

جزأين : فالأول يحتوي على نظرة إجمالية على المنطقة التي ستكون موضوع بحثه ، أي حدودها وتضاريسها ، وأقسامها السياسية ، وعناصرها العرقية ، وعاداتهم الطريفة ، والأبنية الأثرية الهامة ، والمسالك المعروفة إلخ . وتتفاوت هذه الأجزاء طولاً حسب ما لدى أبي الفداء من معلومات عنها . أما الجزء الثاني فيضم جداول تشتمل على المصادر التي استقى منها هذه المعلومات ، ودرجة طول وعرض المدن الرئيسية ، والإشارة إلى المناخ والإقليم ، وضبط كتابة الأسماء ، ووصف موجز لكل مدينة .

وهذا التنظيم على شكل جداول فقد استقاه من طبيب عربي ظهر في القرن العاشر الميلادي ، وهو ابن جزله ، وطبقه أبو الفداء على الجغرافية فكان بذلك مبدعاً حقاً ورائداً ذا أصالة . وتظهر في كتاب أبي الفداء دقته في التعبير عن الحقائق العلمية المعروفة في عهده ، كما يشعر القارئ بإلمامه بكل ما يكتب فيه مع اهتمامه بالتحقيق والضبط ، وقد ذكر في مقدمته أنه جمعه مما تفرق في كتب عديدة ، وقد أورد في كتابه الكثير من النظريات التي لا يزال عدد كبير منها صحيحاً ، ككروية الأرض ، وتحدث عن خط الاستواء والجهات المعمورة في أيامه .

ويعد كتابه مفخرة من المفاخر العلمية للعصر المملوكي ، كما يعتبر من الكتب الجغرافية الجليلة التي خلفها لنا علماء العرب .

وعلى كل حال يظهر لنا أبو الفداء نموذجاً لأولئك الناقلين الجامعين في عصر الانحطاط الذين عجزوا عن الإبداع فاقتصروا على تكثيف ، وترتيب ، واختصار ، وتصحيح بعض تفاصيل مؤلفات سابقيهم . ولكن لا يجوز لنا أن ننكر على أبي الفداء نجاحه في تزويد أبناء عصره بكتاب شامل سهل الاستعمال . وفيما عدا ذلك فلم يأت بجديد ينتسب إليه دون سواه .

وقد نشرت جغرافية أبي الفداء وطبعت لأول مرة في باريس عام ١٨٥٠ على يد المستشرقين رينو والبارون ماك كوكين دوسلان .

النص الأول

جزء من الفصل المتعلق بأوروبا

ذكر الجانب الشمالي من الأرض

« ومن بلاد تلك الجهات مملكةُ بوليـة(١) ، وهي مملكـة على بحر الروم عنـد فم جون البنادقة(٢) من غربيّه ،وهي تقابلُ مملكة البـاسيليسَـة(٣) التي من البر الآخر . وملك بولية في زمَاننا يقالُ له الريدشارُ(٤) ويقال لبوليةَ أنبوليـةُ(٥) أيضـاً . وغربي بلاد بولية بلادُ قلَّفريةَ(٦) ، ويقال لها قلورية بالواو أيضاً ، وهي داخلـة في مملكـة الريدشار صاحب بوليةَ . وأهل قلَّفرية يونانٌ وهي بلادٌ على ساحل بحر الروم . ومن تلك الممالك مملكةُ الباسيليسةِ ، وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون تقابل مملكة بوليـة التي من البر الآخر ، وبلاد البـاسليسـةِ هي من فم جون البنـادقـة إلى جهة قُسطنطينية . والباسليسةُ امرأةٌ هي صاحبةُ هذه البلاد في زماننا .

ومن تلك البلاد بلاد المرا(٧) ، وهي مملكـة تبتـدئ من فم الخليج القسطنطيني على ساحل بحر الروم ، وتمتد مغرّبـاً ، وتشتمل على قطعـةٍ من سـاحل الروم وعلى

---

(١) وكانت تدعى بالماضي أبوليا ، وهي منطقة La Pouille في جنوب إيطاليا .

(٢) خليج البندقية أي البحر الأدرياتيكي .

(٣) تعني عبارة مملكة البـاسليسـة منطقة في جنوب مقدونيا وهي منطقة Epire وقد تأسـست في مطلع القرن الثالث عشر فيها إمارة تحت اسم إمارة إبير .

وفي أيام أبي الفداء كان تحكمها أميرة اسمها أن كومين وتحمل لقباً يونانياً هو باسليسـة .

(٤) وهو الملك شارل أنجو الثاني والمتوفى عام ١٣٠٩ م .

(٥) مملكة نابولي .

(٦) أي كالابريا .

(٧) الموره باليونان .

بلادٍ وجبال خارجةٍ عن البحر ، وهذه المملكة مناصفةً بين صاحب قسطنطينيَّة وبين جنسٍ من الفرَنج يقال لهم القيتلانُ[(٨)] ، ويجاور هذه المملكة من غربيها بلاد المُلفجوطِ[(٩)] . وبلادُ المُلفجوط غربي بلاد المرا على ساحل بحر الروم ، وهي من أعمال قُسطنطينيَّة ، والمُلفجوطُ جنسٌ من الروم لهم لسانٌ يتفردونَ به . وغربي بلاد المُلفجوط بلاد أقْلَرَنس[(١٠)] ، وهي بلادٌ أهلها يونانٌ تحت حكْم الباسليسةِ ، وهي على ساحل بحر الروم غربي بلاد المُلفجوط وهي واقعة بين الملفجوط وبين الباسليسةِ .

قال الشريف الإدريسي[(١١)] امتداد كنيسة روميةَ[(١٢)] ستمايةُ ذراعٍ في مثله ، وهي مسقَّفة بالرصاص ، ومفروشة بالرخام ، وفيها أعمدة كثيرة عظيمة ، وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوضٌ رخام عظيم للمعمودية ، وفيه ماءٌ جارٍ أبداً ، وفي صدر الكنيسة كرسيٌّ من ذهب يجلس عليه البابا ، وتحته باب مصفَّح بالفضَّة يدخلُ منه إلى أربعة أبواب ، واحدٍ بعد آخر ، يُفضي إلى سِرْداب فيه مدفونٌ بطرس حواريُّ عيسى عليه السلام . ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفونٌ فيه بولُص[(١٣)] . وبحذاء قبر بطرسَ حوض رخام منقوشٌ عظيم ، فيه فرشُ الكنيسة وستُورُها التي تَزيَّنُ بها في أعيادهم . وفي خارج الكنيسة عند ركْنٍ منها اثنا عشر ذراعاً وكلما صُعدَ العمودُ يدقُّ ، وفي أعلاه عمودُ نحاسٍ في أعلاه كُرةٌ مذهَّبة يكونُ

---

(٨) أي القشتاليون .

(٩) أي شعب الفالاخ في رومانيا أو (الأفلاق) .

(١٠) ربما قصد بها كلارانتزا في الساحل الغربي من منطقة البيلوبونيز .

(١١) أي الجغرافي الإدريسي الذي سبق لنا الكلام عنه .

(١٢) إن كنيسة روما المذكورة هي الكنيسة التي بناها قسطنطين في عام ٣٢٤ م ، وقد خربها البابا يوليوس الثاني عام ١٥٠٦ كي تحل محلها كنيسة القديس بطرس الحالية . انظر إلى الوصف الذي قدمه ابن خرادذبة لهذه الكنيسة .

(١٣) أي كنيسة القديس بطرس خارج الأسوار ، وقد خربها حريق في عام ١٨٢٣ .

قطرها نحو باعٍ ، ولها بريقٌ ولمعانٍ وتظهر من ثلاثة عشرة ميلاً فيُعْلَمُ بها موضع الكنيسة ...

وغربي بلاد رومية على الساحل بلاد التسقان (Toscane) ، وهم جنس من الفرنج ليس لهم ملك بعينه يحكم عليهم ، وإنما لهم أكابر يحكمون عليهم . وبلاد التسقان هي معدن الزعفران . ومن بعض من رأى تلك البلاد قال : وقبالة رومية في البحر جبلان شامخان لا يزال يظهر منهما الدخان نهاراً ، والنار ليلاً ، واسم أحد الجبلين بركان ، واسم الآخر استنبري (Stromboli) . ومعنى بركان واستنبري الرعد والبرق . وأما الشريف الإدريسي فقال : بركان اسم لجبلين ، أحدهما في جزيرة منقطعة في الشمال عن صقلية في أرض خفيفة التربة كثيرة الكهوف . قال : ولا يزال يصعد من ذلك الجبل لهب النار تارة والدخان أخرى .

ومما يقع في شماليّ العمارة بلادُ الرُّوس ، وهم في شماليّ مدينة بُلارَ[١٤] المذكورة في الجدول ، وشماليُّ الروسِ القومُ الذين يُبايعون مُغايبةً[١٥] . قال بعضُ من سافر إلى تلك البلاد : إنهم يتصلون بساحل البحر الشمالي . قالَ : فإذا وصلَ القفلُ إلى تخومهم أقاموا حتى يعلَّموا به . ثم يتقدمون إلى المكان المعروف بالبيع والشراء ، ويُحطُّ كل تاجرٍ بضاعتهُ مُعَلَّمةً[١٦] ، ويرجعون إلى منازلهم ، فيحضرُ أولئك القومُ ويضعون قبالة تلك البضاعة السمُّورَ والثعلبَ والوشَقَ[١٧] وما شاكل ذلك . ويدعونهُ ويمضونَ . ثم يحضرُ التجار فمن أعجبه ذلك أخذه وإلاّ تركه حتى يتفاصلوا على الرضى .

---

(١٤) بولار هي عاصمة بلاد البلغار حسب رأي أبي الفداء .

(١٥) أي غيابياً ، دون حضور أحد الطرفين .

(١٦) أي مؤشر عليها ، والمعنى هنا تحمل كل بضاعة سعرها .

(١٧) أي الهر الجبلي .

قال ابن سعيد[18] : وعلى ساحل البحر المحيط[19] في الإقليم السابع بلادُ بيطُو[20] ، وسكانها الفَرَنجُ ، ومنها يجتاز الملوكُ لإفْرنسةَ إذا عدموا في إفْرنسة عادةً متوالية لهم . وفي شمال بيطو مصبُّ نهر بريس[21] قاعدةُ إفرْنسةَ ، وهي ثلاث قطع كما هي مدينة الباب[22] ، فالوسطى التي هي الجزيرة لفرنسيس[23] وهو : سلطان الفرنْج ، والجنوبية للجُندِ ، والشمالية لسائر قوامِسِهم[24] وتجارهم ورعيَّتهم . وهذا النهر ينزل من جبل دَنُبْيوس[25] الكبير ، ويقال له في الشمال جبلُ مَليحة . ومن شرقيهِ منبع نهر دَنُبْيوس الذي قال أنه أكبر من النيل ومن جَيْحون[26] وهو مشهور بنهر دونا ويسمّيه التركُ طُنا ، وعلى جانبيه وفي جُزُره إلى مصبه في بحر القسطنطينية من[27] المدن والعمائر الكثيرة إلاّ أنّها مُعْجَمةُ الأسماء خاملةُ الذكر عندنا » .

ويتابع أبو الفدا عرضه الإجمالي عن أوروبا وآسيا الشمالية ، ثم يعطي ، حسب طريقته المألوفة ، زمرة من الجداول التي نقدم أحدها كمثال عن ذلك[28] .

---

(١٨) جغرافي يذكره أبو الفداء عدة مرات . وهو مؤلف كتاب الجغرافية الذي اعتمد فيه على كتاب الإدريسي . وقد توفي ابن سعيد عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م .

(١٩) أي المحيط الأطلسي .

(٢٠) أي بلاد إقليم Poitou في فرنسا وفيها تقع مدينة بواتييه .

(٢١) أي پاريس عاصمة فرنسة والنهر هو نهر السين .

(٢٢) أو دربنت . مدينة في داغستان على بحر الخزر . وتوجد مدينة الباب في جبال البيرنه بين فرنسا وإسبانيا وكذا كل ممر بين الجبال يسمونه (بابا) .

(٢٣) يستعمل أبو الفدا هذه الكلمة كاسم شخص Francois .

(٢٤) قومس تعني لقب كونت .

(٢٥) الدانوب .

(٢٦) أو آمودار يا .

(٢٧) أي وعلى جانبيه ... يوجد عدد من ...

(٢٨) وهنا يقدم أبو الفداء المصادر التي اعتمد عليها كالخوارزمي وهو فلكي مات بعد عام ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م . وابن سعيد الذي سبق ذكره والبيروني بصفته مؤلف (قانون المسعودي) والإدريسي ، والمهلبي (القرن الحادي عشر =

الأسماء	أسماء المنقول عنهم	الطول درج	الطول دقائق	العرض درج	العرض دقائق	الإقليم الحقيقي	الإقليم العرفي	ضبط الأسماء	الأوصاف والاخبار العامة
رومية	الخوارزمي	ل	ل	مح	ن	من الخامس والسادس	الأرض الكبيرة	يقال لها رومة وضبطها مشهور ثم خلي	قال ابن سعيد : هي على نهر الصفر وهي مدينة مشهورة ومقر خليفة النصارى المسمى بالبابا . وهي على جنوبي جون البنادقة . ومن كتاب الإدريسي : مدينة رومية دور وسورها ٢٤ ميلا وهو مبني بالآجر . ولها واد يشق المدينة وعليه قناطر يجاز عليها من الجهة الشرقية إلى الغربية. قال المهلبي : مدينة رومية عظيمة وتتصل بها الجبال من جهة الغرب والجنوب وشرقيها سهل والبحر في شمالها .
	ابن سعيد	لح		ما	لا				
	قانون	له	له	م	ن				

= ميلادي) مؤلف أحد كتب المسالك والممالك المفقود حالياً ، وقد كتبه للخليفة الفاطمي العزيز والمشهور باسم العزيزي ، ويقصد أبو الفداء من عبارة إقليم حقيقي الإقليم الوهمي المحدد بوسائل رياضية . أما بالإقليم العرفي فيقصد ، بكل بساطة ، المنطقة الطبيعية وأحياناً التقسيم السياسي . ونرى أن أبا الفداء يقارن أحياناً ، بالنسبة للمكان نفسه ، مختلف العروض والأطوال التي يذكرها سابقوه . ويذكر أبو الفداء دوماً هذه المواضع مستعيناً بالحروف فمثلاً : ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، ج = ٣ ، ن = ٥٠ ، أ = ١ ، هـ = ٥ ، ك = ٢٠ ، و = ٦ . مثلاً حلب تقع في عرض لو أي ٣٦ درجة !..

النُّوَيْرِيّ

(٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م - ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م)

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم القرشي التيمي البكري الشهير بالنويري .

عالم بحاث غزير الاطلاع ، نسبته إلى نويرة ، من قرى بني سويف في مصر ، ومولده ومنشأه بقوص . اتصل بالسلطان الملك الناصر الذي وكله في بعض أموره ، وتقلب في الخدمة الديوانية ، وباشر نظر الجيش في طرابلس ، وتولى نظر الديوان بالدقهلية والمرتاحية . وكان ذكي الفطرة حسن الشكل ، فيه أريحية وود لأصحابه ، وله نظم يسير ونثر جيد ، ويكفيه أنه مُصَنِفُ نهاية الأرب في فنون الأدب . وهو مصنف كبير جداً أشبه بدائرة معارف لما وصل إليه العلم عند العرب في عصره .

ويقول فازيلييف : إن نهاية الأرب على الرغم من تأخر عصره يحوي أخباراً خطيرة عن صقلية ، نقلها عن مؤرخين قدماء ، لم تصل إلينا كتبهم مثل ابن الرقيق وابن رشيق وابن شداد وغيره . وتوفي في القاهرة .

النص الأول

الأنهار الشرقية

لا تشغل الأبحاث الجغرافية حيزاً كبيراً في (نهاية الأرب) ولكنها تكون دقيقة يعتمد فيها النويري على مصنفات سابقيه دون أن يهمل ما تصل أسماعه من معلومات .

وأما نهر مِهْران[١] : وهو نهر السند ، فهو يشبه نيلَ مصر في زيادته ونَقْصه وأصناف حيوانه وما يتفرَّع منه من الخُلجان . وهو يستمد من أربعة أنهر : نهران

(١) لا يزال اسم مهران علماً يطلقه بعض الهنود إلى الآن على الحوض الأسفل من نهر السند .

يجريان من السند ، ونهر من ناحية كابُل ، ونهر من بلاد قشْمير . وتجتمع فتكون نهراً واحداً ، ويجري حتى ينتهي إلى الدور فيمرُّ بها ، ومن ثم يسمى نهر مهْران ، ثم يمر بالمولْتان ، ثم بالمنصورة ، ثم يجري إلى دَيْبُل . فإذا تجاوزها صب في بحر الهند على ستة أميال منها . وطوله ألف فرسخ . وأما نهر جَيْحون[٢] ويسمى بالفارسية .. به روذ (وهو) نهر بلخ . وانبعاثه من بحيرة في بلاد التُبْت . مقدارها طولاً وعرضاً أربعون ميلاً ، تجتمع من أنهار الخُتَّل ، فإذا خرج منها مرّ بوخّان فيسمى نهر بوخّان ، فيسمى نهر جرياب ، ويجري من المشرق إلى المغرب إلى أعلى حدود بلخ . ثم يعطف إلى ناحية الشمال إلى أن يصير إلى التِّرمِذ ، ثم منها إلى زمّ وآمُل من بلاد خراسان ، ثم يجري إلى أن يمر ببلاد خوارزم فيشقّ قصَبَتها . فإذا تجاوزها تشعَّب منه أنهار وخلجان يميناً وشمالاً ، تصب إلى مستنقعات وبطائح يصاد فيها السمك . ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عموداً واحداً ، تجري مقدار أربعة وعشرين فرسخاً ، ثم تصب في بحيرة خوارزم[٣] . ويكون مقدار جريه من مبدئه إلى نهايته ثلثمئة وخمسين فرسخاً . وقيل أربعمئة ، وساحله يسمى السُّروذَبار . ويقال : إنه يخرج منه خليج يأخذ سمت المغرب حتى يقرب من كَرْمان ، ثم يمضي حتى يصب في بحر فارس[٤] . ونهر جيحون ربما جَمدَ في الشتاء حتى تعبر عليه القفول . قالوا ويبتدئ جموده من ناحية خوارزم .

وأما نهر سيْحون : ويسمى نهر الشاش ، وهو فارز بين بلاد الهياطلة وبلاد تركستان . قال ابن حوقل : مبتدؤه من أنهار تجتمع في حدود بلاد الترك والإسلام ، فتصير عموداً واحداً وتجري حتى تظهر في حدود أوزْكَنْدُ من بلاد

---

(٢) في الأصل جيحان ، وهو خطأ لأن جيحان نهر آخر في آسية الصغرى ويعرف بنهر المصيصة ويصب في بحر الشام . والنهر المذكور هو آموداريا .

(٣) بحر آرال .

(٤) نهر داثر لا يزال واديه باقياً وقد أحياه السوفيات وتسمى قناة التركستان . وبحر فارس يقصد به بحر الخزر .

فرغانة فتصب فيه فيعظم ويكثر ماؤه ، ثم يمتد إلى فاراب . فإذا تجاوزها يجري في برِّية فيكون على جانبيه الأتراك الغُزِّيَّة ، ويمر إلى أن يصب في نهر جيحون ، وبين موقعه[٥] في النهر وبين بحيرة خوارزم عشرة أيام .

وأما نهر الكَنْك[٦] : وهو نهر تعظِّمه الهند ، فينبعث من بلاد قِشْمير ويجري في أعالي بلاد الهند وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظمونه غاية التعظيم . ومن عجائبه أنه إذا أُلقي فيه شيء من القاذورات ، أظلم جوّه ورَجَفت أرجاؤه وكثرت الأمطار والرياح والصواعق ، وقد وصفه العُتبي في (التاريخ اليمني) فقال :

« وهذا النهر الذي يتواصف الهنود قدره وشرفه ، فيروْن من عين الخلد التي في السماء مُغْتَرفة ، إذا أُحْرق منهم ميت ذَرُّوه فيه بعظامه ، فيظنون أن ذلك طُهْر لآثامه ، وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فَيُغْرق نفسه فيه ، يرى أن هذا الفعل ينجيه . والهنود يفرطون في تعظيمه حتى أن الرجل منهم إذا أراد الفوز ، أحرق نفسه وألقي رماده فيه ، أو يأتي إلى النهر (وهناك شجر القَنا في غاية الارتفاع ، وقوم هناك بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر) فيرْبِط نفسه في طرف قناة ، ثم يحزُّ رأسه بيده فيبقى الرأس معلقاً في طرف القناة وتسقط الجثة ، أو يلقي نفسه من شاهق على تلك السيوف والخناجر فيتقطع ، ومنهم من يلقي نفسه في النهر فيغرق .

وأما نهر الكُر : فهو نهر بأرض أرمينية . وانبعاثه من بلاد اللاَّن ، فيمر ببلاد الأبخاز حتى يأتي ثغر تفليس[٧] فيشق ويجري في بلاد الساورْديّة[٨] ثم يجري بأرض بَرْذعة ، ويجري إلى بَرْزنج فيصب فيه نهر الرسّ . وهذا النهر هو المذكور في

---

(٥) مقرنه . مصبه . هذا خطأ لأن النهر المذكور يصب مستقلاً في بحر آرال .

(٦) الغانج .

(٧) مدينة على تخوم العالم الإسلامي ، وهي عاصمة جورجيا حالياً .

(٨) جيل من الأرمن يسميهم العرب أيضاً (السياوردية) ويصفونهم بأنهم : « أهل العبث والنساء والتلصص » .

القرآن العزيز في قوله تعالى : ﴿ وأصحاب الرسّ ﴾[٩] على ما ذهب إليه بعض المفسرين . فإذا صب فيه هذا النهر صار نهراً واحداً يصب في بحر الخزر ، ونهر الرسّ يخرج من أقاصي بلاد الروم على ما زعم المسعودي .

وأما نهر أتِل[١٠] : وهو نهر عظيم ، فهو نهر الخزر ، ويمر جانبه الشرقي على ناحية خرخير ، ويجري ما بين الكيماكية[١١] والغُزّية . ثم يمتد غرباً على ظهر بُلْغار[١٢] وبرطاس والخزر . ثم ينقسم قسمين : أحدهما إلى أتل[١٣] يشقها بنصفين ويجري إلى أن يصب في الخزر ، ويجري الآخر فيمر ببلد الروس حتى يصب في بحرهم وهو بحر سُوداق . ويقال : إنه يتشعب منه نيف وتسعون نهراً ، وإذا وقع في البحر ، يجري فيه مسيرة يومين ثم يغلب عليه . وقيل إنه يجمدُ في الشتاء ، ويتبين لونه في لون البحر . والله سبحانه وتعالى أعلم .



---

(٩) الفرقان ٢٥ / ٣٨ ، و ق ٥٠ / ١٢ .

(١٠) نهر الفولغا .

(١١) ربما يقصد بهم الكالموك .

(١٢) مدينة كانت على نهر الأتل ببلاد الروسيا تقع إلى جنوب قازان الحالية ، ومنها خرج البلغار إلى البلاد المعروفة الآن باسمهم .

(١٣) لعلها استراخان الحالية .

العُمَرِيّ

(٧٠٠ هـ / ١٣٠١ م ـ ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، ينتسب لأسرة سورية ، تنحدر من سلالة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، ومن ذلك نسبتهم آل العمري . أما أجداده الأقربون فقد استقروا حيناً من الدهر في البرلّس بمصر السفلى ، ولكنهم كانوا يشعرون بأنهم أكثر ارتباطاً بدمشق منهم بمصر فاحتفظوا بكنية الدمشقي كنسبة أصلية لهم .

ولد العمري بدمشق عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠١ م وأتم دراسته بها قبل أن يستقر بالقاهرة عام ٧٣١ هـ / ١٣٣٢ م مع والده الذي كان كاتباً عند السلطان المملوكي الملك الناصر ، وقد ربطته تقاليد أسرته بعمل الدواوين ، فإلى جانب عمله اليومي في الكتابة الديوانية ، فقد تتلمذ العمري على أساتذة بارزين في مختلف فروع المعرفة ، ومعروفين بسعة الأفق ، أمثال برهان الدين بن الفركاح الذي كان نشاطه العلمي يمتد حتى الميدان الجغرافي أيضاً ، كما تتلمذ على أحد علماء البلاغة وهو شهاب الدين الحلبي . وعلى كل لم يتخذ العمري العلم وسيلة للارتزاق ، إذ تولى منصب القضاء في القاهرة ، كما خلف أباه في رئاسة ديوان الإنشاء في عهد السلطان الناصر ، وفي عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م كان عضواً في بعثة الحج المصرية . ولكن حدة طباعه ساقته إلى النزاع مع وليّ نعمته وفقدان مكانته سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٨ م ، وأمضى الأعوام الباقية من حياته بدمشق منفيّاً فيها ، وفي دمشق أدركته الوفاة في سن مبكرة بسبب الربو ، لا من الطاعون الذي وقع آنذاك ببلاد الشام ، كما تذكر أكثر المصادر .

هذا ولم يكن العمري متصفاً بضيق الأفق الذي يصاب به عادة العاملون في الوسط الوظيفي ، والحياة في الدواوين التي أمضى فيها معظم سني عمره القصير ، بل كان يتمتع بثقافة واسعة المدى وبذوق أدبي مرهف ، فكان ناثراً وشاعراً أيضاً . وتبدو مؤلفاته متنوعة وضخمة ، تقدرها المصادر المختلفة بما يقارب أحد عشر مصنفاً ، تشتمل على رسائل وعلى دواوين شعرية ، وعلى مجلد لخدمة كاتب الدولة اسمه (التعريف بالمصطلح الشريف) ، نشر بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٤ م . وإذا كان قصد به عرض كل ما يحتاج إليه العاملون في الدواوين ، وذلك بالمعنى الضيق لهذه الكلمة ، وإذا كان قد رغب أن يكون أنموذجاً في فن الكتابة ، فقد أصبح هذا الكتاب ، بفضل المنهج الذي اتبعه المؤلف ، مصدراً هاماً بالنسبة للتاريخ والجغرافية التاريخية . ويرجع تأليفه إلى الفترة التالية لعام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م .

وأهم مؤلفاته بالنسبة إلينا هو موسوعته الضخمة التي تشتمل على أكثر من عشرين مجلداً ، عنوانها : (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) وهو عمدة بين الكتب ، استمد منه الكثيرون من بعده ، وفيه موضوعات شتى . منها وصف الأرض وسكانها وحيوانها ، وأقطارها ومساكنها ، وما فيها من أنهار وجبال وجزر وبحار وبحيرات ومبان ، فضلاً عن استطرادات تاريخية وأدبية يندر وجود أمثالها عند سواه ، بالإضافة إلى تراجم الكثير من رجالات الإسلام .

وينقسم مصنف العمري الضخم إلى قسمين ، ينقسم أولهما بدوره إلى شطرين ، ويعالج الجغرافية العامة والإمبراطوريات الكبرى . وقد ترجمت الفصول المتعلقة بإفريقية ، باستثناء مصر ، إلى الفرنسية على يد المستشرق غودفروي دومومبين (باريس ١٩١٧) ، وينقسم الثاني بدوره إلى قسمين ، ويعالج تاريخ الأمم قبل وبعد ظهور الإسلام .

وإذا اعتمدنا على قراءة بعض الأجزاء المنشورة منه لكفانا ذلك أن نجد في العمري أنموذجاً للموسوعي الذي يقدم القرن الذي عاش فيه عدداً لا بأس به من أضرابه . وهو مؤلف تركيبي لا يقدم الكثير من المساهمة الشخصية ، ولكنه واسع الاطلاع إلى حد كبير ، وقرأ الكثير ، ولا يخلو كتابه من نظرات صائبة ، فيها الكثير من الصحة ، مثل افتراضه وجود قارة أمريكا ، قبل اكتشافها بقرن ونصف من الزمن ، خلف البحر الكبير ، فيقول في الصفحة ٣١ من الجزء الأول : « لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى ، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى » .

وقد سمحت له مناصبه الإدارية أن يدرس وأن يطّلع على (أرشيف) الدولة ، كما كانت وسائله في الحصول على المعلومات كبيرة جداً ، وبفضل كل ما توفر لديه جهد في رسم لوحة كاملة ، ومفصلة بآن واحد ، عن حالة العالم في عصره لفائدة جمهور محدود ، ولكنه مثقف . وللقيام بإخراج مثل هذه المصنفات إلى حيز الوجود ، كان لا بد من أن يكون لدى كاتبها نفسية نقادة كان يتميز بها العمري . فهو لم يكن يقبل سوى النظريات التي لم يكن هناك ما يناقضها في عصره . كما كان لدى العمري حسٌ التعرف على الحاجات والاتجاهات الأدبية في عصره ، فلم يكن كتابه عبارة عن موسوعة تاريخية وجغرافية فحسب ، بل كان ، وإلى حد ما ، نوعاً من منتخبات شعرية تتحدث عن أسماء الأمكنة الشهيرة .

النص الأول

المنظومة الجبلية في الكرة الأرضية

لا شيء يستدعي ذكره من كوزموغرافية العمري ، لأنها تماثل تماماً كوزموغرافية ابن رستة أو المسعودي مثلاً . ولكن لا بأس من إلقاء نظرة إجمالية على ما يكتبه عن الجبال ، والذي يدل على جهد تركيبي بذله المؤلف .

« إن الجبال كُلها متشعّبة من الجبل المستدير بغالب معمور الأرض وهو المسمى بجبل قافٍ[1] وهو أم الجبال . كلها تتشعب منه فتتصل في موضعٍ وتنقطع في آخر ، وهو كالدائرة لا يعرف له أول على التحقيق ، إذ كانت الحلقةُ المستديرة لا يُعرف طرفاها وإن لم تكن استداراته استدارةً كريَّةً ولكنها استدارةُ إحاطةٍ أو كالإحاطة . فلما لم نقف له على أول على التحقيق قدَّرنا له أولاً وهو كتفُ السدِّ الجنوبي ، ونديرُهُ بالمعمور ليتصل في موضع اتصاله وينقطع في موضع انقطاعه كتفُ السدِّ الشمالي . ومجموع هذا الجبل متصلة ومنقطعة في كل مكان شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً هو جبل قافٍ ، وهذا هو المستفيض على الألسنة الطائر بين العالم بما يعبَّرُ به عند كل منهم على ما يقتضيه اختلاف الألسنة واللغات .

وقد زعم بعضهم أن أمهات الجبال جبَلان خرج أحدهما من لدُن البحر المحيط في المغرب وأخذ جنوباً . وخرج الآخر لدُنَ البحر الرومي وأخذ شمالاً حتى تلاقى عند السدِّ وسمّوا الشمالي جبل قافونا[2] وسمّوا الجنوبي جبل قافٍ ؛ والأظهر والله

---

(١) وذلك استناداً إلى رواية تقول أن القارات والبحار محاطة بسلسلة جبلية لا يمكن ارتقاؤها يطلق عليها اسم قاف . وأصالة العمري تقوم هنا على محاولته التوفيق بين هذا المفهوم القديم وبين النظريات الجديدة نسبياً ، وعلى القول بوحدة المنظومة الجبلية على سطح الأرض .

(٢) وتدعى هذه السلسلة كما ورد في كتاب الدمشقي جبل قاقونيا وتعني سلسلة في شمال الصين ، ومن هنا ندرك مقدار تناقض وغموض كل هذه المفاهيم . وتعني كلمة السد في كل هذا النص سد يأجوج ومأجوج الذي بناه =

أعلم أنه جبل واحد محيط بغالب بسيط المعمور ، لا كما هو البحر محيطٌ بجميع كرة الأرض هو الذي تصدق عليه التسميةُ بجبل قافٍ بكل قطر ومكان ولا يعرف في الجنوب إلا بهذه التسمية ويعرف في الشمال بجبل قافونا وبهذا تزول شُبهةُ من ظن أن كلاً منهما غيرُ الآخر والله أعلمُ .

والذي نقول وبالله التوفيق : أنَّ هذا الجبل المحيط بغالب المعمور مبدؤه من كتفِ السُّدِّ آخذاً من وراء صنم الخطا المحجوج إليه إلى شُعْبتِه الخارجة منه المعمول بها بابُ الصين آخذاً على غربي صين الصين ثم ينعطف على جنوبيِّه مستقيماً في نهاية الشرق على جانب البحر المحيط[3] مع الفُرجة المنْفرجة بينه[4] وبين البحر الهندي الداخلة ثم ينقطع عند مخرج البحر الهندي المحيط مع خط الاستواء حيث الطول مئة وسبعون درجةً . ثم يتصل من شُعبة البحر الهندي الملاقي لشعبة المحيط الخارجة على بحر الظلمات من الشرق بجنوب كثير[5] من وراء مخرج البحر الهندي . وتبقى الظلماتُ بين هاتين الشعبتين شُعبةِ المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقاً بغرب ، وشعبة البحر الهندي الجائية على الظلمات غرباً بشرق ، حتى تتلاقى الشعبتان عند مخرج هذا الجبل كتفصيل السراويل . ثم ينفرج رأسُ البحرين المتلاقيين شعبتين على مبدأ الجبل بينهما ، كأنه خارج من نفس الماء .

ومبدأ هذا الجبل وراءَ قبَّةِ أرينَ عن شرقها وبُعدهُ منها خمس عشرة درجةً ، ويقال لهذا الجبل في أوله المجرَّد . ثم يمتدُّ حتى ينتهي في القسم الغربيِّ إلى طول خمس وستين درجة من أول المغرب ، وهناك يتشعَّبُ من الجبل المذكور جبلٌ

= الإسكندر ، كما تقول الرواية ، لمنع هذين الشعبين من الانقضاض على العالم المتمدن . ويقع كتف هذا السور ، أي نهايته ، في خارج العالم المسكون قرب الجبال العالية .

(3) لا يقصد به هنا المحيط الأطلسي الذي يدعى دوماً البحر المحيط بل البحر (الوهمي) الذي يطيف بكل البحار الأخرى والتي هي عبارة عن امتداد له ويفصلها عن جبل قاف .

(4) بينه - بين البحر المحيط .

(5) أي بعيداً جداً باتجاه الجنوب .

القمرِ وينصبُّ منه النيل ، ويقال : إن به أحجاراً براقةً كالفضة البيضاء تتلألأ ، كلُّ من نظرها ضحكَ ، والتصق بها حتى يموت ، وتسمَّى مغناطيسَ الناسِ . قال صاحب جغرافيا[6] : وقد ذكرها أرسْطو طليس في كتاب الأحجار[7] وتتشعَّب منه شُعبٌ تسمى آسيفي يقال : إنها مسكونة وأهلها كالوحش والله أعلم بصحة ذلك . ثم تنفرج منه فُرْجةٌ ويمر منه شُعبٌ إلى نهاية المغرب في البحر المحيط تسمَّى جبلَ وحشيَّة ، به سباعٌ لها قرون طوال لا تطاق . وينعطف منه دون تلك الفُرْجة شعبٌ ، منها شعبتان إلى خط الاستواء ، يكتنفان مجرى النيل من المشرق والمغرب ؛ فالشرقيُّ ينقطع عند خط الاستواء ، والغربيُّ تلقاء مجالات الحبشة .

ووراء هذه الشعبة تمتد شعبةٌ منه هي الأمّ[8] من الموضع المعروف فيه الجبل بآسيفي المتقدم الذكر إلى خط الاستواء ، حيث الطول هناك ثلاثون درجة ، ويعرف هناك بجبل كرسقانة ، وبه وحوش ضارية . ثم ينتهي إلى البحر المحيط الغربي[9] ، وينقطع دونه بفرجةٍ مفروجةٍ . ووراءَ هذا الجبل هناك سودانٌ يأكلون الناس .

ثم تتصل الأمُّ من شاطئ البحر الشأميّ في شماله شرقيّ روما الكبرى ، مسامتاً للشعبة المسماة أدَمدَمَةَ لا تكاد تُخطِّيها ، حيث الطول ثلاثون درجةً ، وتنتهي وصلة هذه الأمّ إلى البحر المحيط الغربي من نهاية الشمال قبالة جزيرة بريطانية ، ثم تمتد هذه الأمُّ بعد انقطاع لطيف وتنعطف مع انعطاف خرجة[10] البحر المحيط

---

(٦) أي بطليوس .

(٧) أي كتاب علم المعادن (المينير الوجيا) المنسوب خطأً إلى أرسطو .

(٨) الجبل الأم بالنسبة لكل الجبال الأخرى هو السلسلة الرئيسية .

(٩) يقصد به هنا المحيط الأطلسي .

(١٠) خرجة أي ذراع بحري (خرجة البحر ... المسماة) .

في الشمال على الصَّقْلب[11] المسماة ببحر الأنقليشين[12] ، ممتداً إلى غـايـة المشرق ، ويسمى هناك بجبل قاقونيا ، ويبقى وراءه البحر الجامد لشدة البرد . ثم ينعطف من الشمال المشرّقِ[13] جنـوبـاً بتغريب إلى كتف السـدّ الشمالي فيتـلاقى الطرفـان هناك ، وبينهما في الفُرجة المنفرجة ساوى الإسكندرُ بين الصَّدفين[14] .

النص الثاني

منابع النيل

نجد في كتاب العمري رغبة المؤلف في أن يقدم للقارئ تركيباً لكل النتـائج التي حصل عليهـا ، حسب ترتيب المواضيع المدروسة . وكثيراً ما يقوده هذا إلى نقـد المعلومـات والمصـادر التي اعتمـد عليهـا بأسلـوب لطيف ومنطقي . وقـد يـؤدي بـه الأمر أحيـانـاً إلى الريبـة العلميـة ممـا يجعلـه يحجم عن الاستنتاج ، وإليكم كيف يعرض مثلاً قضية منابع النيل .

« حدثني الشيخُ الثيبُ سعيدٌ الدكاليُّ ، وهو ممّن أقام بمالي خمساً وثلاثين سنـةً مضْطرباً في بلادهـا مجتمعـاً بـأهلهـا قـال : المستفيضُ ببلاد السودان : أن النيل في أصلِه ينحـدر من جبـالٍ سود تبـان على بعـد كأن عليهـا الغمائم ، ثم يتفرق نهْرينِ يصب أحدهما في البحر المحيـط إلى جهـة بحرِ الظلمـاتِ الجنوبيِّ[15] ، والآخر يصلُ

---

(11) كان الجغرافيون العرب يقولون : إن أوروبـا كانت مـأهولـة بـالإفرنج القـاطـنين في فرنسـا وبلجيكا وإيطـاليـا الشمالية ، وبالصقلب الذين يسكنون كل مناطق أوروبا الشمالية والشرقية وتنقسم هاتـان المجموعتـان بـدورهمـا إلى عدة فروع . وعبارة (على الصقلب) تعادل إذن هنا الأقطار الجرمانية .

(12) أي بحر الشمال والإنقليشين معناهما الإنكليز .

(13) أي الشمال الشرقي .

(14) القرآن الكريم سورة الكهف ١٨ / ٩٦ .

(15) يتفق معظم الجغرافيين العرب على أن النيجر ، الذي يسمونه نهر النيل أيضاً ، ينبع من نفس الجبـال التي ينبع منها نهر النيل المصري . انظر خارطة الإدريسي .

إلى مصر حتى يصب في البحر الشامي . قال : ولقد توغلْتُ في أسفاري في الجنوب مع النيل ، فرأيتهُ متفرقاً على سبعة أنهر ، تدخل في صحراء منقطعةٍ ، ثم تجتمع تلك الأنهر وتخرج من تلك الصحراء نهراً واحداً مجتمعاً . كلا الرؤيتين في بلاد السودان ولم أرَهُ لما اجتمع بالصحراء لأننا لم ندخلها إذ لم تكن بنا حاجةٌ إلى الدخول إليها .

قلت[١٦] : والأقوالُ في أول مجرى النيل كثيرة . ذكر فيها المسعودي[١٧] وغيره ما لا فائدةَ منه . والشائعُ على ألسنةِ الناس أن أحداً ما وقف على أوَّله بالمشاهدة ، وجعل كل واحد منهم سبباً لعدم الوقوف على حقيقة أوَّله . فقال بعضهم : إنه انتهى أناسٌ وصعدوا الجبل[١٨] ، فرأوا بحراً عجاجاً ، ماؤه أسود كالليل ، يشقه نهرٌ أبيض كالنهار ، يدخل الجبل من جنوبه ويخرج من شماله ، ويتشبَّثُ على قبَّةِ هَرْمَسَ المبنيَّة هناك .

(وزعموا أنَّه هرْمَسُ الهرامِسَةِ[١٩] وهو المسمى بالمثلَّثِ[٢٠] بالحكمة[٢١] ويزعم بعضهم أنَّهُ إدريسُ عليه السلام[٢٢]) .

وقال بعضهم : إنَّ أناساً صعدوا الجبل وبقيَ كلما تقدم أحد منهم ضحِكَ وصفَّق بيده وألقى روحهُ إلى ما وراء الجبل ، فخاف البقية أن يُصيبَهم مثل ذلك فرجَعوا . وقال بعضهم : إنَّ مَلِكاً من ملوك مصر الأول جهز أناساً للوقوف على

---

(١٦) القائل هو العمري .

(١٧) انظر المسعودي النص الرابع .

(١٨) أي كتلة جبل القمر التي يخرج منها نهر النيل .

(١٩) هرمس : أي جوبيتر ، رسول الآلهة وهو إله البلاغة والتجارة واللصوص عند الأقوام الوثنية القديمة .

(٢٠) أي الكبير ثلاث مرات .

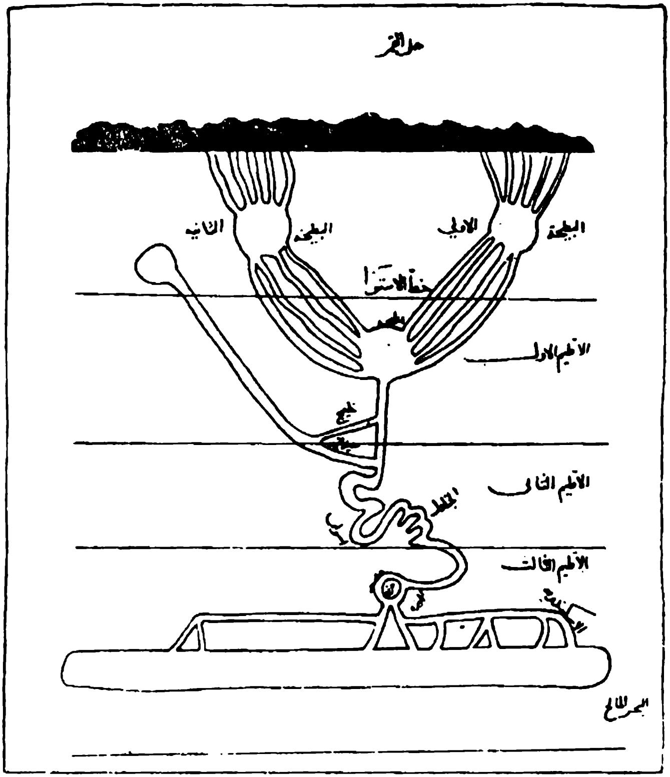
(٢١) أي السحر .

(٢٢) إدريس هو أحد الأنبياء ، ويدعى حينوش بالتوراة ، أو إلياس الخضر . ويقال : إنه علم البشر العلوم والفنون ، وخلط بعضهم بينه وبين هرمس الإله اليوناني .

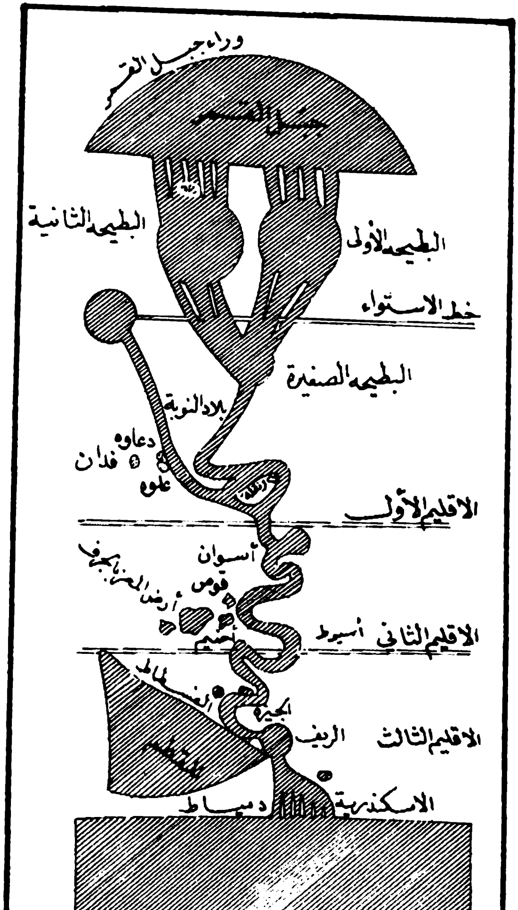
أوّلـه . فـانتهـوا إلى جبـالٍ من نحـاسٍ ، لمـا طلعت عليهم الشمسُ انعكست عليهـا أشعتُها أحرقَتْ غالبهم فرجع البقيةُ .

وقال بعضهم : إنهم انتهوا إلى جبال براقةٍ لماعةٍ كالبلور ، فلما انعكست عليهـا أشعةُ الشمس الواقعةُ عليها أحرقتهُمْ .

وقـال بعضهم وهـو الصحيـح والله أعلم : أنَّ التـوغـل إلى منبعـه في الخراب



مصور الأرض لابن حوقل المتوفى عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م



خريطة النيل للخوارزمي

هذه الخريطة شأنها شأن الخرائط العربية القديمة يجب أن ينظر إليها والصفحة معكوسة لأن اتجاه الشمال لأسفل

المنقطع من وراء خط الاستواء تعذّرَ السلوكُ إليه لبعد المسافة وشدة الحرّ .

فإن قال قائلٌ : فما منعَ قُدماءَ الملوكِ مع ولع بمعرفة أحوال البلاد وحقائق ما هي عليه أن يجهزوا من يقفُ على حقيقة أوّلِهِ قلْنا له : وأي فائدةٍ تفي بركوب هذا المهلك في أرضٍ لا ينبتُ بها نباتٌ ولا يعيشُ حيوان ولا يعرف مقدارٌ ما يستعدُّ له المسافر ولا ما يستظهرُ به الظهرُ(٢٣) .

وإنما غالب ما يقال في هذا ـ والله أعلم ـ مما أظهرهُ نظرُ العلم لا نظرُ العيانُ والله من ورائهم محيط » .

النص الثالث

دير الباعوث ودير صبّاعي

لقد اختصّ قسم من مسالك الأبصار بوصف الأمكنة الجغرافية والأبنية ، والمعابد الشهيرة في الأوساط المثقفة في المشرق . وهذا أكثر الأقسام ميلاً للأدب في كتاب العمري .

ديرُ(٢٤) الباعوثِ : هو على شاطئ الفرات من جانبها الغربي في موضع نزه وكانت العمارةُ قليلة حولَه ولهُ خفراء من الأعراب وله مزارعُ ومباقل وجنيناتٌ .

---

(٢٣) أي حيوانات النقل .

(٢٤) كلمة من أصل سرياني تعني معبد . وترد كثيراً في أسماء القرى والمدن . وقد لعبت هذه الأديرة دوراً كبيراً قبل ظهور الإسلام وفي القرون الأولى بعد ظهوره ، فهي لم تكن مراكز تبشير ديني فحسب ، بل كانت أيضاً بؤرة ثقافية إغريقية وسريانية ، وهي دون ريب لم تجتذب اهتام المجتمع العربي والشعراء العرب بوصفها أماكن لعبادة المسيحيين ، بقدر ما اجتذبتهم بسبب الشهرة التي نالتها في إنتاج النبيذ وبيعه . ولهذا كان تأثير هذه الأديرة مشؤوماً من الناحية الأخلاقية ، فكثيراً ما كانت هذه الأديرة توفر الخمر ومجالس الشراب المقتصرة عدا وسائل الدعارة للمترفين من المسلمين بعيداً عن أعين الرقباء (انظر تاريخ الأب لامنس ، بحث معاوية ، ص ٣٧٨) .

وكان يقال الشعر فيها أو ينظم خلال حفلات المجون ، كي يجمع فيما بعد منتخبات تدعى« كتب الديارات » .

وهكذا كانت هذه المجالس تقدم لنا صورة حية ودقيقة عن جانب من حياة ذلك العصر ، وكان عدد هذه =

وفي هيكله صورة دقيقة الصَّنعة عجيبةُ الحسن ، يقال : إنها لها ثلاثُ مئة سنة لم تتغير أصباغها ولا حالة ألوانها .

قالَ المنبجيُّ : اجتزت بدير الباعوث واستحسنته واستطبته فلولا الوطن لاستوطنتهُ . ورأيت في رهبانه غلاماً عذَّر قد ترهَّبَ فخاطبته ، وإذا به أحلى الناس ألفاظاً على لثغةٍ فيه تجعل السين ثاء . فشدَّيتُ سمَّاريتي[٢٥] إلى جانب الدير ، واشتريت شراباً من الرهبانِ ، وبتُّ هناك منادياً لذلك الغلام ، فلما أردتُ الرحيلَ قال : أتنصرفُ من عندنا ، وأنت شاعرٌ ولم تقل فينا شيئاً ؟ فقلتُ : بلى ، وأنشدته (من الكامل) :

يا طيبَ ليلةِ ديرِ مرْ[٢٦] باعوثِ ... فسقاهُ ربُّ العرْش صرفَ غيوثِ
ومُوَرِّدِ[٢٧] الوجناتِ من رهبانه ... هو بينهم كالظَّبي بين ليُوثِ ...

ديْر صَبَّاعي : وهو على شاطئ دجلة الشرقيّ فوق تكريتَ بقليلٍ ، وهو كثير الرهبانِ وله مزارع وجنينات . ولرهبانه يَسارٌ وغنى . وفيه يقول بعض لُصوصِ بني شيبان (من الوافر) :

ألا يا ربِّ سلِّمْ ديرَ صبَّاعى ... وزدْ رَهبانَ هيكله اجتماعا
فكم جئناهُ أمواتاً سِغاباً ... ورُحْنا منه أحياءً شِباعا
فيا لِلْقَصفِ ما أشرى نَبيذاً ... ألَذْ طِلاً وأحْسَنُه شُعاعا
لنعمتِه ومنَّتِه علينا ... عَمَرْناهُ وخرَّبْنا الضِّياعا

= الديارات كبيراً وسرعان ماشعر اللغويون بالحاجة إلى وضع مرجع عام عنها ، كما فعلوا من قبل عن مواضع الجزيرة العربية الواردة في الشعر ، مع شروح وافية لها ، أما من وجهة النظر الاجتماعية فقد كانت الأديرة مراكز إنسانية أحياناً تساعد المرضى والمعوزين كما كانت في عهود الاضطرابات تتخذ كملاجئ للذين يبحثون عن العزلة » عن المستشرق ريجيس بلاشير » .

(٢٥) نوع من يخت للنتمة كان يستعمل على نهر الفرات في القرن الرابع هـ /العاشر م .

(٢٦) مار بالسرياني = قديس .

(٢٧) و = رب أي رب مورد الوجنات .

ابنُ بَطوطَة

(٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م - ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)

ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي في طنجة في ٢٤ شباط ١٣٠٤ م أو رجب ٧٠٣ هـ . وينتسب إلى قبيلة « لواته » البربرية (ايلواتن بلغة البربر) التي انتشرت بطونها على طول ساحل إفريقية حتى مصر ، وينحدر من اسرة عالية ، أتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى منصب القضاء والنبوغ في العلوم الشرعية ، وكان والده قاضياً . وفي طنجة أتم دراسته الشرعية وفقاً للمذهب المالكي السائد في أقطار المغرب . إلا أن حوادث طفولته ومستوى تعليمه مجهولة لدينا . ولا شك في أنه قد تمتع ببعض المعرفة في هذا المجال ، فقد حدث له أن شغل خلال رحلته منصب القضاء وهو في ريعان شبابه .

وفي عام ٧٢٥ هـ / أو حزيران ١٣٢٥ م : ذهب ابن بطوطة ، إلى مكة حاجاً ، وليس له من العمر غير اثنين وعشرين عاماً ، عن طريق تونس ومصر وسورية ، فزار الحجاز والعراق والعجم وبلاد الجزيرة العليا ، وفي أعقاب الحجة الثانية إلى مكة التي أتمها في سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م قصد اليمن ثم إفريقية الشرقية ، ومن ثم ركب البحر عائداً إلى هرمز الواقعة عند مدخل الخليج العربي .

وابتداءً من ميناء هرمز قام في سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م بحجة ثالثة إلى مكة المكرمة ثم قطع البحر الأحمر ،فوصل وادي النيل كي يحاذيه باتجاه الشمال قاصداً سورية ، ثم ركب البحر من اللاذقية قاصداً آسيا الصغرى حيث نزل في ميناء آلايا ثم وصل إلى ميناء سينوب على البحر الأسود ، ومن ثم قصد شبه جزيرة القرم وتوغل حتى بلاد الروسيا الشرقية ، وهناك انضم إلى سفارة السلطان محمد يزبك الذاهبة إلى القسطنطينية ، وعاد إلى القرم كي ينطلق منها إلى بخارى وبلاد الأفغان ، إلى أن وصل إلى دلهي (دهلي) على نهر الغانج فاستقر بها مدة عامين عمل خلالها قاضياً للمذهب المالكي ، ولقد حاول أن يرافق بعثة سياسية أرسلها سلطان الهند محمد شاه إلى ملك الصين فلم يتجاوز جزائر ذبية المَهَل Maldives ، حيث استقر مدة سنة ونصف سنة تولى فيها منصب القضاء . وبعدها استمر في رحلته عن طريق ساحل البنغال ودخل بلاد الهند الشرقية وجزر أندونيسيا ، ووفق إلى زيارة الثغرين الصينيين زيْتون « تسوتونج » وكانتون ، ثم قفل إلى الجزيرة العربية عن طريق سومطرة والهند في ٧٤٨ هـ /

١٣٤٧ م ، ومنها صعد في الخليج العربي كرة أخرى ، وعاد إلى بلاد فارس عن طريق ميناء هرمز ، ثم سافر إلى العراق فبلاد الشام ، فمصر ، ومنها انطلق إلى مكة كي يؤدي فريضة الحج للمرة الرابعة والأخيرة . وعندما عاد إلى فلسطين قرر العودة إلى المغرب في شهر صفر ٧٥٠ هـ / نيسان ١٣٤٩ م ، وهكذا وصل بلاد تونس ثم ركب البحر إلى مدينة تناس الجزائرية ، ومنها ذهب إلى تلمسان ، ووصل فاس التي كانت حينذاك عاصمة السلطان المريني أبي عنان ، في اخر شعبان ٧٥٠ هـ / تشرين الأول ١٣٤٩ م .

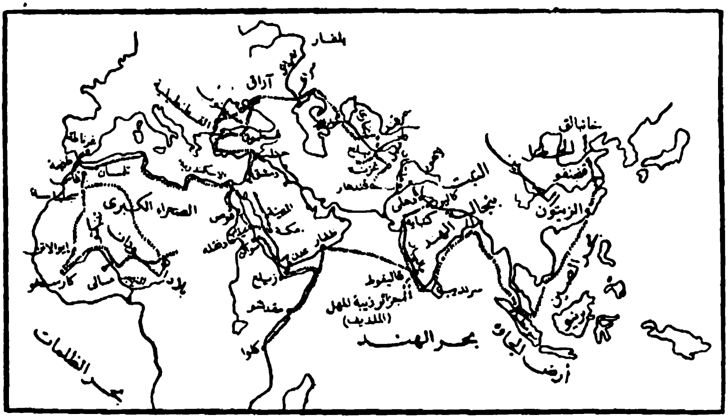
ويغلب على الظن أن ابن بطوطة كان ينوي أداء فريضة الحج فحسب ولم يدر بخلده أن عصا الترحال ستلقي به في مختلف البلاد فلم يكتب له العودة إلى وطنه إلا بعد ربع قرن من الزمن .

ولم يطل به المقام في فاس ، إذ استأنف ابن بطوطة أسفاره قاصداً بلاد الأندلس ، فزار غرناطة وعند عودته منها في سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م توجه إلى السودان « إفريقية الغربية » ودخل تومبوكتو وهكّار ، ومنها عاد إلى المغرب عن طريق مدينة توات كيلا يغادر المغرب بعدها أبداً ، إلى أن أدركته المنية في ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م .

وقد اتصل ابن بطوطة بكثير من الملوك والأمراء خلال رحلاته فمدحهم لأنه كان ينظم الشعر ، واستعان بهباتهم ، وما كان يدر عليه منصب القضاء على أسفاره . وفي فاس انقطع إلى السلطان أبي عنان فأقام في بلاده حيث أملى وقائع أسفاره على أحد كتاب السلطان وهو محمد بن جُزَي الكلبي المتوفى سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م وهو شاعر في بلاط السلطان المريني .

والغريب أن ابن بطوطة لم يخلف وراءه أي انتاج أدبي ، إذ لم يرد في كتاب الرحلة أو في المصادر الأخرى ذكر ما لمؤلفات أدبية منسوبة إليه ، وهكذا وصلنا سرد لقصة أسفار ابن بطوطة على شكل كتاب عنوانه « تحفة النظار في عجائب الأمصار » الشهير بكتاب « رحلة ابن بطوطة » .

وقد دبّجه ابن جزي بناء على تكليف من السلطان المريني . وهذه الخاصة في إنشاء الرحلة تفسر التناقضات التي لاتخفى على الدارس الناقد ، فيكون الاسلوب تارة مألوفاً ومبسطاً ، ولكنه جدياً ، عندما يعمل الكاتب نقلاً عن لسان ابن بطوطة نفسه ، ولكن الاسلوب يصبح تارة أخرى منمقاً وفارغاً عندما يحاول ابن جزي ربط المعلومات المتفرقة سوية أو عندما يعمل على تزويق الأوصاف الجافة التي يسمعها من رحالتنا . وربما يقع على عاتق محمد بن جزي مسؤولية الفقرات المنتحلة عن ابن جبير وغيره من المؤلفين ، والتي استفاد منها ابن جزي بشكل غير محتشم ، ولا سيما فيما يتعلق بوصف المناطق التي زارها كلا الرحالتين ، والتي كثيراً ماتجدها في « رحلة ابن بطوطة » .



رحلة ابن بطوطة

أخلاقه وطباعه :

كان ابن بطوطة ، رقيق الشعور ، سريع التأثر ، متديناً تقياً ، مكرّماً لرجال الله ، محباً لوالديه ، وقد حفظ كل هذه العواطف في كل أسفاره ، فكان يذكر جميع من شاهدهم من المشايخ والزاهدين والفقراء والمتعبدين ، ويثني عليهم ، ويطلب بركتهم ، كذلك يورد كل مايسمعه عن أعمال الخير ومنشآت الصالحين من أوقاف وملاجئ وغيرها ، سائلاً الله أن يجزي رجال الإحسان خير جزاء .. وكم من مرة رأيناه يتبرك بقبور الأولياء ومزارات الصالحين ، ويبيت في الزوايا ، وقد حج إلى مكة أربع مرات ، وهو لا يفتر عن ذكر ماناله من الخيرات بسبب ذلك ، أما حبه لوالديه فيظهر جلياً ، في مقدمته ، إذ يذكر أنه تركهما وهما على قيد الحياة . ولم يعد في رحلته الاولى سنة ١٣٤٩ حتى بلغه أن أمه توفيت ، فحزن ، وترك حاشية الملك أبي عنان في فاس إلى بلده طنجة ، « قاصداً زيارة قبر الوالدة » .

ومن سرعة تأثره فرحه الجزيل لدى أقل إنعام يحصل عليه ، وحزنه الصبياني ، الممزوج بالتباكي ، أو الغضب ، إذ لم يكترث له أحد ، وكيف برجل لا يكاد يضيفه إنسان إلا أصبح أعز صديق له ، حتى إذا دخل مدينة فلم يسلّم عليه أحد لعدم معرفتهم به ، يجد من ذلك في نفسه مالا يملك معه سوابق العَبْرة ، فيشتد بكاؤه إلى أن يشعر بحاله بعض الحجاج فيقبلون عليه بالسلام والإيناس . وإن سرعة التأثر هذه ، التي من نتيجتها سرعة التبلُّد ، أي موافقة أخلاق الرجل لأخلاق البلد النازل فيه ،

تشرح لنا تعّود ابن بطوطة مفارقة أهله ، والإقامة في بلاد غريبة عنه ، وهو على مارأينا من شدة التعلق ورقة العاطفة[1].

ويقول المستشرق ريجيس بلاشير : رغم كل مايقال فإن لهذا الكتاب أهمية فائقة في التعرف على العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي ، ففي هذا الكتاب الذي يكثر فيه الاستطراد وتختلط فيه الأساطير مع الحكايات البعيدة عن التصديق ، والأوصاف المتكررة ، نكتشف فيه أيضاً معلومات تاريخية دقيقة ومفيدة لاسيا تلك التي لاتحصى والمتعلقة بعقائد وبعادات وأخلاق السكان كما يراها هذا الرحالة المسلم الذي يتفوق عنده حب الاستطلاع على حدة الذكاء » .

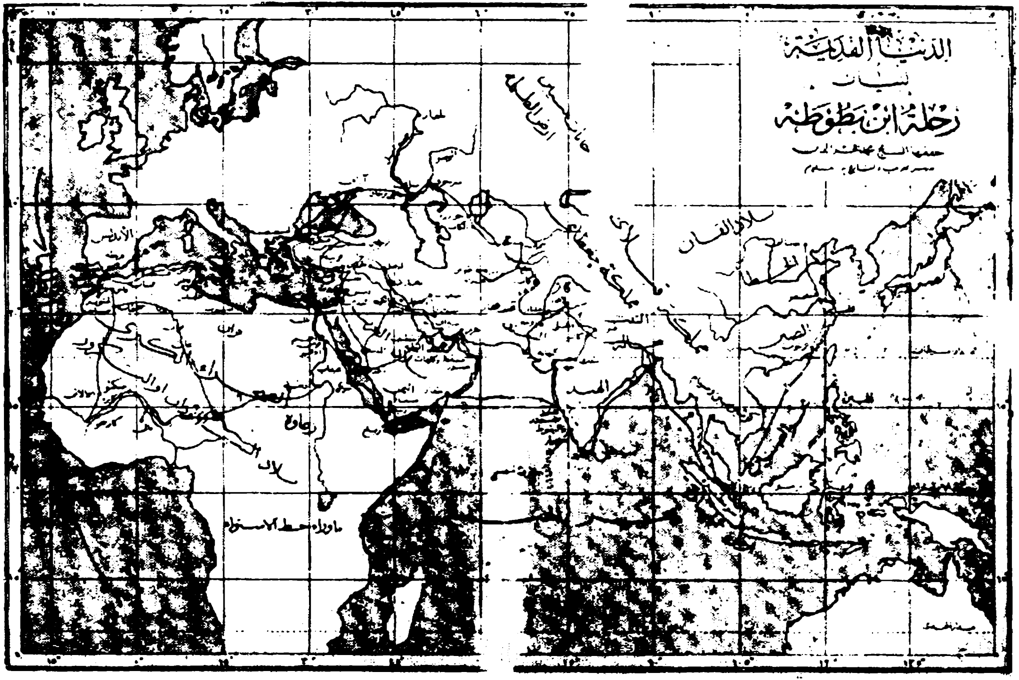
أما كراتشكوفسكي فيعتبره « آخر جغرافي عالمي من الناحية العملية . أي أنه لم يكن نقّالة اعتمد على كتب الغير بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره عدداً كبيراً من الأقطار . وقد جاوز تجواله مقدار مئة وخمسة وسبعين ألف ميل (شكل ٢١) ، فهو بهذا يعد منافساً خطيراً لمعاصره الأكبر منه سناً « ماركو بولو » البندقي الإيطالي (١٢٥٤ ـ ١٣٢٣ م) الذي دفعه حب الأسفار إلى اجتياز كل آسيا عن طريق منغوليا ، وعاد عن طريق سومطرا ، والذي عهد إلى كاتب له في إخراج مذكراته إخراجاً أدبياً واسمه « كتاب ماركو بولو » .

والحق أن أحداً من الرحالين لايداني ابن بطوطة في سعة استشراقه العالمي غير معاصره الإيطالي ، ويؤلف كل من هذين الأثرين تتمة صالحة للآخر فيما يتصل بمعرفتنا بآسيا ، لأن الرحالة البندقي وفق إلى أن يقدم إلينا حقائق عن الشرق الأقصى أصح بكثير من تلك التي تسنى للرحالة المراكشي إيرادها ، في حين عوّض ابن بطوطة من ذلك النقص بما كان له من معرفة أوثق بالأحوال الثقافية في العالم الذي وصفه .

إن أحداً منهما لم يكن عالماً جغرافياً ، ولكن معلومات الرحالة المسلم الطبوغرافية أوثق وأجدر بالاعتماد من تلك التي نجدها في رحلة زميله النصراني كما يقول بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية « ص ٢١٠ ج ٢ » لأنه كان يحسن التركية والفارسية . ولم يسمح ابن بطوطة لنفسه بأن يُخدع ، عن طريق النقل من مصدر أدبي ، إلا في وصفه لأرض الظلمات بسبب من أنه اطرح ، في جنوب الروسيا ، فكرة الرحلة الطويلة الشاقة إلى أرض البلغار ، الذين كانوا لايزالون ، آنذاك ، ينزلون على ضفاف الفولغا الأعلى .

ويقول البحاثة الياباني ياموتو : « إنه من العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هي من نسج الخيال وحده ، حقاً إن وصفه لتلك البلاد يشمل عدداً من النقاط الغامضة ،

(١) فؤاد أفرام البستاني . ابن بطوطة ج١ ص١٩٦ .



الشكل (٢١) نقلاً عن كتاب « مهذب رحلة ابن بطوطة »

ولكنـه لايخلو أحيـانـاً من فقرات معينـة تعتمـد على مـلاحظـة مبـاشرة عن الصين ، فضلاً عن أنـه من المستحيل القول بأن رواياته التي وجدت توكيداً في المصـادر الصينيـة وفي أسفـار مـاركو بولو قـد كانت من تلفيق مخيلته » .

فنجد في « تحفة النظار » أقدم إشارة إلى اعتماد ورق النقد في المعاملات ، فقـد ذكر ابن بطوطـة في كتـابـه هـذا أن « أهل الصين لايتبـايعون بـدينـار ولا درهم ، وجميع مـايتحصل ببـلادهم من ذلـك يسكبونه قطعاً كما رأينا ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطـابع السلطان ، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد الإنسان حملها إلى دار كدار السكـة عنـدنـا فـأخـذ عوضهـا جـدداً ، ودفع تلـك ، ولا يعطي عن ذلـك أجرة ولا سواهـا ، لأن الـذين يتـولـون عملهـا لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان ، وقد وكّل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء » .

وقـد طبعت رحلـة ابن بطـوطـة في بـاريس مـع ترجمـة فرنسيـة على يـد المستشرقين ديفريمري وسـانغينيتي بين ١٨٧٩ و ١٨٩٣ . ونشر الاستـاذ جب Gibb ملخصـاً بـالإنكليزيـة سنـة ١٩٢٩ قـدم لـه بتصدير طيب تحدث فيه عن الرحّالة وعصره ، كما ترجمت فصول منها إلى الألمانية .

النص الأول

لقد أفاض ابن بطوطة في الحديث عن دمشق ، فوصف مسجدها الجـامع وصفـاً دقيقـاً ، ووصف حلقات التدريس فيه . ومن أطرف حديثه عن دمشق ذكره للأوقاف المخصصة للأمور الاجتماعيـة . فمن هـذه « المؤسسـات الاجتماعيـة » أوقـاف تجهيز البنـات إلى أزواجهن ، وهن اللواتي عجـز أهلهن عن تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفك الأسرى ، ومنها أوقاف لأبنـاء السبيل يعطون منهـا مـايـأكلون ويلبسـون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعبيد الطريق ورصفها الخ .

ذكر أوقاف دمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم

«والأوقاف بـدمشق لاتحصر أنواعهـا ومصـارفهـا لكثرتهـا ، فمنهـا أوقـاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنهـا أوقـاف على تجهيز البنـات إلى أزواجهن ، وهن اللـواتي لاقـدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنهـا أوقاف لفكاك الأسـارى ، ومنهـا أوقـاف لأبنـاء السبيل يعطون منهـا مـايـأكلون

ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير .

(حكاية) مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني فجمعها وذهب الرجل معه إليه ، فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ؛ فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه ، ويتغير لأجل ذلك . فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا . وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد . وهم يحسنون الظن بالمغاربة ، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد . ولهم أيضاً في اتباع الجنائز رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة والقراء يقرؤون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة . وهم يصلون على الجنائز بالمسجد قبالة المقصورة . فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه ، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنازة . وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤون فيها ، ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون : بسم الله فلان الدين من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك . فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه

النص الثاني

يصف ابن بطوطة طراز المسكن في جزر المديف بتفصيل يدعو للإعجاب ، مثلما يصف بعض عادات سكانها الفلكلورية . ولما كان العرب والمسلمون في الغالبأعِفّاء بحكم أوامر الدين الإسلامي الذي ألزم بالعفة ، وعاقب من لايتحلل عقاباً صارماً ، فقد أباح هذا الدين الحنيف للمسلم أن يتزوج أكثر من امرأة واحدة في بعض الشرائط ولا سيا عند الضرورة . وابن بطوطة مزواج ، تزوج في مصر مرتين على الأقل وكانت له في جزر المديف أربع زوجات . وقد تحدث عن بعض عادات الأسر في هذه الجزائر .

« وبنيانهم بالخشب ، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقياً من الرطوبات ، لأن أرضهم ندية ، وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ، ويجعلونها صفوفاً ، ويعرضون عليها خشب النارجيل ، ثم يصنعون الحيطان من الخشب ، ولهم صناعة عجيبة في ذلك ، ويبنون في أسطوان الدار بيتاً يسمونه المالم ، يجلس الرجل مع أصحابه ، ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الاسطوان يدخل منه الناس ، والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها ويكون عند هذا البيت خابية مملؤة ماءً ولها مستقى يسمونه الوانج ، وهو من قشر النارجيل ، وله نصاب طوله ذراعان ، وبه يستقون الماء من الآبار لقربها ، وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار فالماشي بها كأنه بستان . ومع ذلك لابد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية بالمالم ، ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ، ثم يدخل بيته ، وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد .

ومن عوائدهم إذا قدم مركب (شكل ٢٢) أن تخرج إليه الكنادر ، وهي القوارب الصغار ، واحدها كُنْدُرة ، وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول والكزنبة وهو جوز النارجيل الأخضر ، فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل



الشكل (٢٢)

رسم سفينة عربية في مخطوط من القرن السابع الهجري (١٣ م) عن فييت

المركب ، ويكون نزيله ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه . ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج ، فإذا حان سفره طلق المرأة لأنهن لايخرجن عن بلادهن . ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر وترضى منه في مقابلة ذلك بأيسر شيء من الإحسان ... ونساؤها لايغطين رؤوسهن ولا سلطانتهم تغطي رأسها ويمشطن شعورهن يجمعنها إلى جهة واحدة . ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل . وسائر أجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها . ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك . فكنت

لاتدخل إلي منهن امرأة في خصومة إلا مسترة الجسد . وما عدا ذلك لم تكن عليه قدرة ، ولباس بعضهن قمص على الفوطة ، وقمصهن قصار الأكام عراضها » ...

والتزوج بهذه الجزر سهل لنزارة الصّداق وحسن معاشرة النساء وأكثر النساء لا يسمّي صداقاً إنما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها ، وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن وذلك نوع من المتعة ، وهن لايخرجن عن بلادهن أبداً . ولم أر في الدنيا أ .سن معاشرة منهن ، ولا تَكِلُ المرأة عندهم خدمة زوجها لسواها ، بل هي تأتيه بالطعام ، وترفعه بين يديه ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء ، وتغمم رجليه عند النوم ، ومن عوائدهن أن لاتأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ماتأكل المرأة . ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معي بعضهن بعد محاولة ، وبعضهن لم تأكل معي ، ولا استطعت أن أراها تأكل ، ولا نفعتني حيلة في ذلك .

النص الثالث

وصف مصر

ركبنا النيل مصعّدين إلى مصر ، مابين مدائن وقرى منتظمةٍ متصلٍ بعضها ببعض ، ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد ، لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك . والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد . ثم وصلت إلى وهي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد(٢). ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد

(٢) لقد وردت تسمية ذي الأوتاد ، الذي يقصد بها فرعون مصر ، بالقرآن الكريم في سورة ص ١١/٣٨ وفي سورة الفجر ٩/٨٩ . ويرى بعض المفسرين أن هذا اللقب يعود إلى أن فرعون كان يقتل المحكوم عليهم بالاعدام بواسطة الأوتاد (الخازوق) ، أو أن جيوشه المديدة كانت تحتاج للكثير من الخيام وبالتالي إلى أعداد هائلة من الأوتاد

الأريضهْ ، المتناهية في كثرة العمارهْ ، المتباهية بالحسن والنضاره ، مجمع الوارد والصادر ، ومحطُّ رحل الضعيف والقادر ، وبها ماشئت من عالمٍ وجاهل ، وجادٌّ وهازل ، وحليم وسفيهْ ، ووضيعٍ ونبيه ، وشريفٍ ومشروف ، ومنكرٍ ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها ، شبابها يجدُّ على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد . قهرت قاهرتُها الأمم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم ، ولها خصوصية النيل التي جل خطرها ، وأغناها عن أن يستمد القطْر قُطْرُها . وأرضها مسيرة شهرٍ لمجدّ السير كريمةَ التربهْ ، مؤنسةٌ لذوي الغُربه . قال ابنُ جُزيّ : وفيها يقول الشاعر (من الطويل) :

لعمرُكَ ما مصْرُ بمِصْرٍ وإنما هي الجنة الدنيا لمن يَتَبَّصرُ
فأولادها الْولدان والحورُ عينُها وروضتها الفردوسُ والنيل كوثر[٣]

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهِضٍ (من الرجز) :

شاطئُ مِصْرَ جنَّةٌ مامثلها من بلدِ
لا سيما مُذْ زُخْرفتْ بنيلها المُطَّرِدِ
وللرياح فوقهُ سوابغٌ من زَرَدِ
مسرودة ما مسَّها داودُها بِمبْرَدِ
سائلةٌ هواؤُها يُرعدُ عاري الجسدِ
والفُلْكُ كالأفلاكِ بين حادرٍ ومُصعدِ

(رجَعَ) . وعلى ضفة النيل مما يواجه مصرَ الموضعُ المعروفُ بالروضة وهو مكان النزهة والتفرُّجِ وبها البساتينُ الكثيرةُ الحسنةُ . وأهل مصرَ ذوو طربٍ وسرورٍ ولهوٍ . شاهدت بها مرةً فرجةً بسبب برء الملكِ الناصرِ من كسر أصاب

(٣) نهر من أنهار الجنة

يـده . فزيَّن كل أهل السوق سوقهم وعَلَّقوا بحوانيتهم الحُلَلَ والحُلي وثيـاب الحرير وبقوا على ذلك أياماً .

ومسجد عمْرو بن العاص مسجدٌ شريف كبير القدر شهيرُ الـذكر . تقـامُ فيـه الجمعةُ والطريقُ يعترضهُ من شرقٍ غربٍ . وبشرقـه الزاويـة حيث كان يـدرس أبو عبد الله الشافعي[٤]. وأمـا المـدارس بمصر فلا يحيـط أحـد بحصرهـا لكثرتهـا . وأمـا المارستان الـذي بين القصرين عنـد تربـة الملـك المنصور قلاوون[٥] فيعجز الوصف عن محاسنه ، وقد أُعدَّ فيه من المرافق والأدوية مالا يحصرُ ، ويذكرُ أن مجباهُ ألفُ دينـارٍ كل يوم . وأمـا الزوايـا فكثيرةٌ وهم يسمونهـا الخوانـقَ واحـدتُها خـانقَـةٌ . والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل منها معينـةٌ لطـائفـةٍ من الفقراء[٦] ، وأكثرهم الأعاجمُ ، وهم أهل أدب ومعرفـة بطريقـة التصوف . ولكل زاويـة شيخٌ وحـارس ، وترتيب أمـورهم عجيب . ومن عـوائـدهم في الطعـام أنـه يـأتي خـديمُ الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعينُ له كل واحد مايشتهيه من الطعام ، فـإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسـان خُبزَةَ ومَرقـةَ في إنـاء على حـدة لايشـاركـه فيـه أحـد . وطعـامهم مرتـان في اليوم . ولهم كسوة الشتـاء وكسوة الصيف ومرتبٌ شهري من عشرين درهمـاً للواحـد في الشهر إلى ثلاثين . ولهم الحُلـوةُ من السكَّر في كل ليلـة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم ، والأجرة لدخول الحمـام ، والزيت للاستصبـاح . وهم أعزابٌ وللمتزوجين زوايـا على حـدة . ومن المشترطِ عليهم حضـور الصلـوات الخمس ، والمبيت بـالزاويـة ، واجتماعهم بقبـة داخل الـزاويـة . ومن عـوائـدهم أن يجلس كل واحـد منهم على سجـادةٍ مختصـةٍ بـه ، وإذا صلُّـوا صـلاة الصبـح قرؤوا سورة الفتـح وسـورة المُلْـكِ وسـور عَمّ ، ثم يـؤتى بنسـخٍ من القرآن العظيم مُجـزَّأةٍ فيأخذ كل فقير جزءاً ويختمون القرآن ، ويـذكرون ، ثم يقرأ القراءُ على عـادة أهل

---

(٤) مؤسس المذهب الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م . والمدفون بالقاهرة .

(٥) من سلاطين المماليك في مصر وحكم من سنة ١٢٧٩ حتى ١٢٩٦ م .

(٦) أرباب طريقة من الزهاد .

المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر . ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدودَ الوسطِ ، وعلى كاهلِ سجادة وبيمناه العكازُ وبيسراه الإبريقُ ، فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه ، فيخرج إليه ويسأله من أيّ البلاد أتى ، وبأيّ الزوايا نزل في طريقه ، ومن شيخه ، فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته فيحلُّ وسطهُ ويصلي ركعتين ، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم . ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجادته فإذا فرغوا من الصلاة قرؤوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون .

ولمصر القرافة[٧] العظيمةُ الشأن في التبرُّك بها ، وقد جاء في فضلها أثرٌ[٨] أخرجه القرطبي[٩] وغيره ، لأنها من جملة الجبل المقطَّم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة . وهم يبنون بالقَرافة القبابَ الحسنةَ ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ، ويبنون البيوت ، ويرتِّبون القراء ، يقرؤون ليلاً نهاراً بالأصوات الحسانِ ، ومنهم من يبني الزاوية أو المدرسة إلى جانب التربة ، ويخرجون في كل ليلة جمعة للمبيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفونَ على المزارات الشهيرة ، ويخرجون أيضاً للمبيت بها ليلة النصف من شعبانَ ، ويخرج أهل الأسواق بصنوف المآكل . ومن المزارات الشريفة المشهدُ المقدس العظيم الشأن حيث رأسُ الحسين بن علي[١٠] عليهما السلام ، وعليه رباطٌ ضخم عجيب البناء ، على أبوابه حَلَقُ الفضة وصفائحها أيضاً كذلك ، وهو موفَّى الحق من الإجلال

---

(٧) اسم مقبرة شهيرة في القاهرة .

(٨) أثر : أي حديث منسوب للرسول عليه السلام .

(٩) محمد بن أحمد القرطبي المتوفى ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م ومؤلف كتاب التذكرة الذي يضم كثيراً من الأحاديث .

(١٠) هو الحسين بن علي بن أبي طالب الذي قتل في واقعة كربلاء في ١٠ محرم ٦١ هـ أو ١٠ تشرين الأول ٦٨٠ م ويقال أن رأسه نقل إلى دمشق ومن ثم دفن بالقاهرة .

والتعظيم ... ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه ، وعليها رباط كبير ، ولها جراية ضخمة ، وبها القبة الشهيرة البديعة الإتقان العجيبة البنيان المتناهية الأحكام المفرطة السموَ وسعتها أزْيَدُ من ثلاثين ذراعاً ... والشافعي ساعده الجدُّ في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته ومماته فظهر من أمره مصداق قوله (من الكامل) :

الجِدُّ يُدني كل أمر شاسعٍ والجِدُّ يفتح كل باب مُغْلَقِ

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاقٍ ، واتساع قطرٍ ، وعظمَ منفعة . والمدن والقرى منتظمةٌ بضفَّتيْهِ ليس في المعمور[11] مثلها . ولا يعلمُ نهرٌ يُزْدرَعُ عليه مايزدرع على النيل . وليس في الأرض نهرٌ يسمى بحراً غيرهُ . قال الله تعالى : ﴿ فإذا خفتِ عليه فألقيه في اليم ﴾ [القصص : ٧/٢٨] فسماه يمّاً وهو البحر .

وفي الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ وصلَ ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى ، فإذا في أصلها أربعة أنهار ، نهرانِ ظاهرانِ ونهران باطنانِ فسأل عنهما جبريلُ عليه السلام فقال : أما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفراتُ .

وفي الحديث أيضاً : أن النيل وسَيْحون وجيْحون كلٌّ من أنهار الجنة ، ويجري من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار ، ومن عجائبه أنَّ ابتداءَ زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها ، وابتداءَ نقصِه حين زيادةُ الأنهر وفيضها ، ونهرُ السندِ مثله في ذلك . وأول ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه . فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً تمَّ خراجُ السلطان . فإذا زاد ذراعاً كان الخصبُ في العام والصلاح التام . فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضرَّ بالضياع وأعقبَ الوباءَ .

---

(١١) أي البلاد المعمورة ، المأهولة .

وإنْ نَقَص ذراعاً عن ستة عشر نقَصَ خراجُ السلطانِ ، وإن نقصَ ذراعين استسقى[١٢] الناسُ ، وكان الضرر الشديد .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسةِ الكبار ، وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون ، وتماثلها أنهار خمسة أيضاً ، نهر السند ويسمى بنج آب ، ونهر الهند ويسمى الكنك وإليه تحج الهنود ، وإذا أحرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ، ويقولون هو في الجنة ، ونهر الجون بالهند أيضاً ، ونهر أتل[١٣] بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ، ونهر السرو بأرض الخطا وعلى ضفته مدينة خان بالق ، ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا ثم إلى مدينة الزيتون بأرض الصين ... والنيل يفترق بعد مسافةٍ من مصر على ثلاثة أقسامٍ ، ولا يعبر نهرٌ منها إلا في السفن شتاءً وصيفاً . وأهل كل بلد لهم خلجانٌ[١٤] تخرج من النيل فإذا مدَّ أتْرَعها ففاضت على المزارع .

ذكر الأهرام والبرابي

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور ، وللناس فيها كلام كثير ، وخوض في شأنها ، وأوليَّة بنائها ، ويزعمون : « أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الأول[١٥] الساكن بصعيد مصر الأعلى ، ويسمى خَنوخَ ، وهو إدريسُ عليه السلام[١٦] ، وأنه أول من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلويَّة[١٧] ، وأول من بنى الهياكل ومجَّدَ الله تعالى فيها ، وأنه أنذر الناس

---

(١٢) أي قاموا بمسيرات يتضرعون فيها كي تزيد مياه النيل أو قاموا لصلاة الاستسقاء .

(١٣) نهر الفولغا .

(١٤) جمع خليج ومعناه قناة في مصر .

(١٥) لقد أطلق مؤرخو العصر الوسيط اسم هرمس على عدة شخصيات أسطورية . وهم مخترعو العلوم لدى مختلف الشعوب .

(١٦) خنوخ أو إدريس وهو من أنبياء بني إسرائيل كما في سورة مريم ١٩ / ٥٧ .

(١٧) أي المواد السماوية ويقصد بها هنا طبيعة وروح الأجرام السماوية .

بالطوفان ، وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع[١٨] ، فبنى الأهرام والبرابي ، وصوَّر فيها جميع الصنائع والآلات ، ورسم العلومَ فيها لتبقى مخلَّدةً »[١٩] . ويقال إن دار العلم والمُلْكِ منوف وهي على بريدٍ من الفسطاط . فلما بُنيت الإسكندريةُ انتقل الناس إليها ، وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الإسلام فاختطَّ عمرو بن العاص[٢٠] رضي الله عنه مدينة الفُسطاط فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد .

والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو مستديرٌ متَّسع الأسفل ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها . ولا تُعلَمُ كيفية بنائها ، ومما يذكر في شأنها أن ملكاً مَن ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبتْهُ أنَّه بنى تلك الأهرامَ بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعاً للعلوم ولجثة الملوك ، وأنه سأل المنجمين هل يُفتح منها موضعٌ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي وعيَّنوا له الموضع الذي تُفتح منه ومبلغ الإنفاق في فتحه ، فأمر بأن يجعلَ بذلك الموضع من المال قدرُ ما أخبروه أنه ينفقُ في فتحه فاشتد في البناء فأتمه في ستين سنة ... فلما أفْضتِ الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون[٢١] أراد هدمها ، فأشار عليه بعض مشائخ مصر ألاَّ يفعل ، فلجَّ في ذلك وأمر أن تفتحَ من الجانب الشمالي ، فكانوا يوقدون النار عليها ، ثم يرشونها بالخلِّ ، ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمةُ التي بها إلى اليوم ووجدوا بإزاء النَّقبِ مالاً أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدهما سواء .

وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملكَ الناصرَ أبا الفتح محمدَ[٢٢] بنَ

---

(١٨) الصنائع - الفنون .

(١٩) إن كل الفقرة الموجودة بين قوسين مأخوذة من كتاب سعيد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦١ هـ أو ١٠٧٠ م وعنوانه (طبقات الأمم) ويعالج فيه تاريخ العلوم .

(٢٠) فاتح مصر وواليها حتى عام ٤٣ هـ / ٦٦٤ م .

(٢١) خليفة عباسي حكم من ١٩٨ هـ / ٨١٣ م حتى ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م .

(٢٢) من سلاطين مصر المماليك . حكم من سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م إلى ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م . ولكنه حج عدة مرات .

الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحيَ ... وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة ، وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين ، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعينُ الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر وضعفَ عن المشي في البر بين المصريّ والشأمي[٢٣] ، وبنى زاوية عظمة خارج القاهرة ...

ذكر يوم المحمل بمصر : وهو يوم دوران الجمل ، يومٌ مشهودٌ وكيفية ترتيبهم فيه ، أنه يركب فيه القضاة الأربعة[٢٤] ووكيل بيت المال والمحتسبُ . ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم على جملٍ وأمامه الأمير المعينُ لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومعهُ عسكرهُ والسقاؤونَ على جمالهم . ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل ، وجميعُ من ذكرناه معه بمدينتي القاهرة ومصر[٢٥] . والحداةُ يحدون أمامهم ويكونُ ذلك في رجب ، فعند ذلك تهيجُ العزماتُ ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث ويُلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد ...

ثم سافرت من بَهْنَسا إلى مدينة منْيَةِ ابن الخصيب ، وهي مدينة كبيرة الساحة ، متسعة المساحة ، مبنيةٌ على شاطئ النيل ، وحقّ لها على بلاد الصعيد التفضيل ، بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجدْ . وكانت في القديم مُنْية[٢٦] لخصيب عامل مصر .

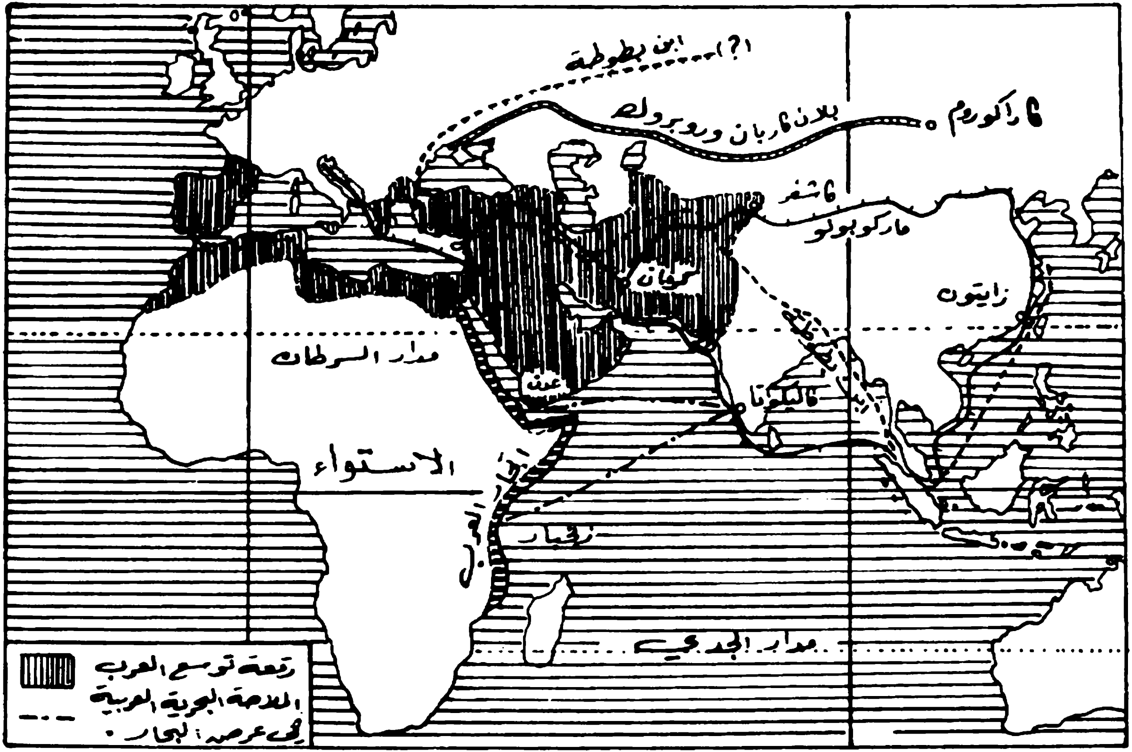
---

(٢٣) أي بين بر مصر والشام .

(٢٤) أي قضاة المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي .

(٢٥) لقد بنى الفاطميون القاهرة عام ٩٦٩ م أما مصر فيقصد بها القاهرة القديمة أو الفسطاط .

(٢٦) منية : بستان كبير مزدان أحياناً بالقصور (الفيلات) ويقع في ضاحية مدينة ، ويتخذ كمكان نزهة .



الطرق الكبرى في العصر الوسيط وتوسع العرب

حكاية خصيب : يذكر أن أحد خلفاء مصر من بني العباس رضي الله عنه غضب على أهل مصر ، فآلى أن يولّيَ عبيده وأصغرهم شأناً معداً لأرذالهم والتنكيل بهم ، وكان خصيب أحقرهم ، إذ كان يتولى تسخين الحمام . فخلع[٢٧] عليه وأمَّرهُ على مصر وظنه يسير فيهم سيرة سوء ، ويقصُدهم بإذايةٍ ، حسبما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعزّة ، فلما استقر خصيبٌ وشهرَ بالكرم والإيثار وسار في أهلها أحسن سيرة ، فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه ويجزل العطاء لهم ، ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم . واتفق أن الخليفة افتقد بعض العباسيين ، وغاب عنه مدة ، ثم أتاه فسأله عن مغيبه ، فأخبره أنه قصد خصيباً وذكر ما أعطاه ، وكان عطاءً جزيلاً ، فغضب الخليفة وأمر بسَمْلِ عيني خصيب وإخراجه من مصر إلى بغداد ، وأن يطرح في أسواقها ، فلما ورد الأمر بالقبض عليه حيلَ بينه وبين دخول منزله ، وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها عنده ، وخاطها في ثوبٍ له ليْلَ سُمِلَتْ عيناه وطُرِحَ في أسواق بغداد . فمر به بعض الشعراء فقال له : يا خصيبُ إني كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحاً لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأرحِّبُ أن تسمعها . قال : كيف بسماعها وأنا على ما تراه ؟ . قال : إنما قصدي سماعُك لها ، وأما العطاءُ فقد أعطيتَ الناسَ وأجزلت جزاك الله خيراً . قال : فافعل . فأنشده (من الكامل) :

أنت الخصيبُ وهذه مصر فتدفَّقا فكلاكما بَحْرُ

فلما أتى على آخرها قال له : افتُقْ هذه الخياطة . ففعل ذلك . فقال له : خذ هذه الياقوتة . فأبى فأقسم عليه أن يأخذها ، فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين . فلما عرضها عليهم قالوا : إن هذه لا تصلح إلا للخليفة فرفعوا أمرها إلى الخليفة فأمر بإحضار الشاعر واستفهمهُ عن شأن الياقوتة فأخبره بخبرها .

---

(٢٧) أي أعطاه خلعة وهي ثياب فاخرة من خزانة الملك وتعطى كرمز للتنصيب على ولاية أو كتعبير عن امتنان لخدمات قام بها الذي نال الخلعة .

فأسفَ على ما فعله بخصيب ، فأمر بمثوله بين يديه ، وأجزل له العطاء ، وحكَّمه فيما يريد . فرغب أن يعطيه هذه المنيةَ ففعل ذلك ، وسكنها خصيب إلى أن توفي ، وأورثها عقبةُ إلى أن انقرضوا .

وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي إليها فخر الدين النويري المالكيّ ، وواليها شمس الدين . وسافرتُ من مَنْيَة ابن خصيب إلى مدينة مَنْلوي وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل ، وقاضيها شرف الدين الدَّميري الشافعي ، وكبارها يعرفون ببني فضيْل ، بنى أحدهم جامعاً أنفق فيه صميمَ مالِه .

وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرةً للسكَّر . ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيراً من دخول معصرةٍ منها ، فيأتي الفقير بالخبزةِ الحارة ، فيطرحُها في القدر التي يطبخ السكر فيها ، وقد امتلأت سكَّراً فينصرف بها .

وسافرت من مَنْلوي المذكورة إلى مدينة منفلوطَ ، وهي مدينة حسنة رواؤها مؤنقٌ بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة ... ويصنع بهذه المدينة شبهُ العسلِ يستخرجونه من القمح ويسمونه النَّيْدا[٢٨] يباع بأسواق مصر .

وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوطَ ، وهي مدينة رفيعة أسواقها بديعة ، وقاضيها شرف الدين ابن عبد الرحيم الملقب بـ (حاصل ما ثَمَّ) ، لقبٌ شُهر به . وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل . فإذا أتى فقيرٌ لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ما قَدر له ، فكان هذا القاضي إذا أتاه الفقير يقول له : حاصلٌ ما ثَمَّ ، أي : لم يبق من المال الحاصلِ شيءٌ ، فلقَّبَ بذلك ولزمهُ .

وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين ابن الصباغ أضافني براويته . وسافرت منها إلى مدينة إخْميمَ ، وهي مدينة عظيمة أصليةُ البنيان عجيبة

---

(٢٨) ويرجح أنه نوع من دقيق الشعر الحلّي .

الشأن ، بها البربي المعروف باسمها ، وهو مبنيٌّ بالحجارة ، في داخله نقوشٌ وكتابة للأوائل لا تُفْهم في هذا العهد ، وصور الأفلاك والكواكب ، ويزعمون أنها بنيت ، والنسرُ الطائرُ ببرج العقرب ، وبها صور الحيوانات وسواها ، وعند الناس في هذه الصور أكاذيبُ لا يعرجُ عليها .

وسافرت من مدينة إخميمَ إلى هو مدينةٍ كبيرة نزلتُ منها بمدينة تقي الدين بن السراج ، رأيتهم يقرؤون بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزْباً من القرآن ، ثم يقرؤون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي(٢٩) وحزب البحر . وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسَني من كبار الصالحين .

كرامة له : دخلت إلى هذا الشريف مُتبرّكاً برؤيته والسلام عليه ، فسألني عن قصدي ، فأخبرته أني أريد حجَّ البيت الحرام على طريق جُدَّةَ فقال لي : لا يحصل لك هذا الوقت فارجع ، وإنما تحج أول حجةٍ على الدرب الشامي . فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ، ومضيت في طريقي حتى وصلتُ إلى عيذابَ ، فلم يتمكن لي السفر فعدتُ راجعاً إلى مصر ثم إلى الشام ، وكان طريقي في أول حجّاتي على الدرب الشامي كما أخبر به الشريف نفع الله به .

---

(٢٩) هو علي بن عبد الله الشاذلي ، وهو صوفي مراكشي شهير . توفي في مصر عام ٦٥٦ هـ / ١٢٣٨ م وهو مؤسس الطريقة الشاذلية .

اِبْنُ خَلدُون

(٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م - ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م)

ابن خلدون من المؤلفين الذين تركوا في الفكر العربي والإسلامي أثراً عميقاً . وهو من كبار المؤرخين الذي أنجبتهم الإنسانية .

واسمه الكامل أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي . وكني بأبي زيد لابنه الأكبر .

وينتمي ابن خلدون إلى فرع من كندة كان يقيم قبل الإسلام بحضرموت . فلما ظهر الدين الجديد واتسع الفتح حتى بلغ مشارف جبل البيرينيه هاجر إلى الأندلس أحد جدود ابن خلدون واسمه خالد بن عثمان ، فأبدل هذا الاسم خلدوناً ، ومثل هذا الإبدال يشير إلى التعظيم ، أي خالد الكبير ، لأن (ون) في اللغة الإسبانية تلحق الاسم فتفيد تفخيه .

واستقر خلدون بقرمونة وإشبيلية ، وظهر من بينهم على مر القرون عدد من رجال الإدارة والفقهاء ، وظلت الأسرة في إشبيلية حتى سقوطها بيد الإسبان في عام ١٢٤٨ م ، فأجليت عنها إذ ذاك في جملة الأسر التي أجليت إلى المغرب ، واستقروا بتونس ، وبها توفي والده سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م الذي كان فقيهاً ومن رجال الإدارة ، وقد هلك أبواه بالطاعون الذي انتشر في ذلك العهد في أوروبا وبعض البلاد الإسلامية ، وكان ابن خلدون حينذاك في السابعة عشرة من عمره ، لأن ولادته كانت في ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م في مدينة تونس .

وبدأ وهو في سن مبكرة حياته المستقلة التي أحاط بها الكثير من القلق والاضطراب ، فانصرف بعض الشيء عن متابعة دراسته فتقلب في المناصب الحكومية ، وكان به نزوع إلى المغامرات السياسية وربما ورث هذا الاستعداد عن أسرته ، لأن كثيراً من أفرادها اشتغلوا في السياسة ، مما زوده بخبرة واسعة في شؤون الدول وقضايا الحياة الاجتماعية ، وذلك بعد حفظ القرآن الكريم وأخذ الفقه المالكي والنحو عن أبيه ، ودرس سائر العلوم المعروفة في زمنه على أساتيذها المشهورين ، وحصل منهم على شهادات بتفوقه فيها . ثم رحل إلى فاس فأسند إليه سلطانها أبو عنان من بني مرين ، وهو نفس السلطان الذي عاش في كنفه ابن بطوطة ، أمانة ديوانه ، أي جعله كاتباً خاصاً له ، وهو منصب

يعادل رئيس الوزراء اليوم . وما لبث أن اتهم بمكاتبة أحد الأمراء المسجونين لإحداث ثورة فسجن ثلاث سنين ، ثم أطلق سراحه ، فقصد الأندلس وشغل فيها منصباً في ديوان غرناطة . وكان من أصدقائه حين إقامته بغرناطة الوزير المشهور والأديب الكبير ابن الخطيب[1] الذي حسده بعد قليل وأصبح من ألد أعدائه .

وفي عام ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م اختاره أمير غرناطة ليكون سفيره إلى ملك قشتالة . ثم نزح إلى بجاية فجعله صاحبها وزيراً له جزاء مساعدته إياه . ثم طلبه صاحب تلمسان وعرض عليه أن يجعله أميناً له فشغل هذه الوظيفة مدة . ثم اضطر إن يعود إلى فاس ومنها قصد إلى الأندلس سنة ٧٧٦ هـ ، فلم يصادف حظاً من سلطان غرناطة . فعاد إلى تلمسان بعد أن سئم السياسة وصروفها ، وكره المناصب الحكومية فاعتزلها سبعة أعوام ، وذلك ابتداءً من عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م قطع الأربع الأولى منها عند أصدقائه بني عريف ، في بقعة شبه بدوية في قلعة ابن سلامة جنوب إقليم قسطينة ، ويقال : من أعمال وهران في المغرب الأوسط ، وهناك انقطع فيها للمطالعة والتأليف عاملاً دون كلل فأخرج مقدمته المشهورة في مدة خمسة أشهر . وفي خلال زيارة له إلى تونس بقصد جمع المادة العلمية لتاريخه تبين له أن الإقامة بالمغرب لم تعد في صالحه بسبب الاضطرابات السياسية . فقرر مغادرة تونس إلى المشرق متعللاً بالحج وخرج من المغرب إلى غير رجعة في عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م . وبعد أن أقام بعض الوقت بالإسكندرية غادرها إلى القاهرة التي كانت عاصمة الثقافة الإسلامية بلا منازع للاطلاع على أمهات مؤلفاتها ، فعينه السلطان المملوكي برقوق قاضياً للمالكية . ثم عزله برقوق ، ثم شغل عند ابنه السلطان فرج منصب قاضي قضاة المالكية لمرات عديدة ابتداءً من عام ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م كما حاضر في الجامع الأزهر .

وأدى فريضة الحج لأول مرة في عام ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م ، وعند عودته طاردته الدسائس أيضاً في مصر فأعفي من منصبه القضائي ست مرات ، وعاش في عزلة كان من جملة أسبابها الحزن العميق الذي انتابه بسبب نكبة أسرته التي استدعاها فغرقت في الطريق . ولم يبرح مصر حتى هجوم تيمورلنك ، في بداية القرن الخامس عشر ، على الشام فكان في بعثة السلطان فرج عام ٨٠٣ هـ /

---

(١) يعقبر لسان الدين بن الخطيب من ألمع أدباء عصره وكأنه استشعر قرب زوال سلطان بني قومه العرب عن الأندلس فكتب يقول : « العرب لم تفتخر قط بذهب يجمع ، ولا بقصر يرفع ، إنما فخرها عدو يُغلب ، وثناء يجلب ، وجزر تنحر ، وجود على الفاقة وسماحة بحسب الطاقة . فلقد ذهب الذهب ، وفني النشب ، وتمزقت الأثواب ، وهلكت الخيل العراب ، وكل الذي فوق التراب تراب ، وبقيت المحاسن تروى وتنقل ، والأعراض تجلى وتصقل » . قال عليه الصلاة والسلام : « أحبوا العرب لثلاث لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة عربي » .

١٤٠٠ م الذي خرج لصد التتر . وكان بدمشق حين حاصرها تيمورلنك ، وقد اتصل ابن خلدون مع طائفة من العلماء لمفاوضته في أمر تسليم المدينة فلم يتم لهم مرادهم ، وبقي ضيفاً عليه خمسة وثلاثين يوماً ، بعد أن أعجب به عاهل المغول ودعاه للبقاء في حاشيته . لكنه اعتذر بلباقة فأذن له تيمور في الرجوع إلى مصر في آذار من عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م فأمضى خمسة أعوام ، وهي ما تبقى له من حياته ، بالقاهرة تارة يقال من منصبه ، وطوراً يعود إليه ، إلى أن وافته المنية سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م .

كتب ابن خلدون عدة كتب وصلْ إلينا منها : (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ومقدمة هذا الكتاب مع الجزء الأول هي ما عرف بمقدمة ابن خلدون الشهيرة . وفيها بحوث عن حقيقة التاريخ والعمران الإنساني والجغرافية ، وقضايا الثقافة والملك والسلطان ، وما يتعلق بذلك كله . وهي تجعل ابن خلدون الرائد الأول Pionnier في علم الاجتماع وفي فلسفة التاريخ . ومقدمته هذه كنز يشتمل على معلومات متعددة مفيدة في شتى المجالات والميادين . وقد طبعت عدة طبعات ، وصل إلينا من كتبه أيضاً (شفاء السائل لتهذيب المسائل) وكتاب (التعريف بابن خلدون) ورحلته غرباً وشرقاً وهو عبارة عن قصة حياته كتبها هو بنفسه ، وكلا هذين الكتابين مطبوع .

ومما يسجل لابن خلدون بمداد الفخر إنصافه لابن بطوطة عندما رماه سامعوه بالمغالاة والمبالغة ، واعترافه بفضل سابقيه فيما تصدى له من بحوث ، وتواضعه العلمي الذي يتجلى في قوله : على الرغم مما بذله من جهد في مقدمته إلا أنه قانع بأن يعد نفسه مجرد ممهد طريق لمن يأتي بعده .

النص الأول

الإقليم الأول

وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات ، التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد ، وليست في بسيط الإقليم وإنما هي في البحر المحيط ، جزر متكاثرة أكبرها وأشهرها ثلاثة ، ويقال إنها معمورة . وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المئة وقاتلوهم فغنموا منهم ، وسبوا وباعوا بعض أساراهم بسواحل المغرب الأقصى ، وصاروا إلى خدمة السلطان . فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا

عن حال جزائرهم ، وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون ، وأن الحديد مفقود بأرضهم ، وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز ، وقتالهم بالحجارة يرمونها إلى خلف ، وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت ، ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوة . ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلا بالعثور لا بالقصد إليها ، لأن سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ، ومعرفة جهات مهابها ، وإلى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب ، وإذا اختلف المهب ، وعلم حيث يوصل على الاستقامة ، حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين ، الذين هم رؤساء السفن في البحر ، والبلاد التي في حفافي البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما ، هي عليه في الوجود ، وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ، ومهاب الرياح وممراتها على اختلاف مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص[٢] ، وعليها يعتمدون في أسفارهم ، وهذا كله مفقود في البحر المحيط ، فلذلك لا تلج السفن ، لأنها إن غابت عن مرأى السواحل فقلَّ أن تهتدي إلى الرجوع إليها على ما نعتقد في جو هذا البحر ، وعلى سطحه من الأبخرة المانعة للسفن في مسيرها ، وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها ، فلذلك عسر الاهتداء إليها ، وصعب الوقوف على خبرها .

وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ، ويذهب إلى البحر المحيط فيصب منه عند جزيرة أوليك ، وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة ، وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السودان ، وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى ، وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونه وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها ، وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم ، وهم كفار ، ويكتوون في

---

(٢) واسمها بالفرنسي Compas وهي أداة تستخدم في التوجه على متن البحار .

وجوههم وأصداغهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وكلهم عامة . وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر ، الأناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق . يسكنون الفيافي والكهوف ، ويأكلون العشب ، والحبوب غير مهيأة ، وربما يأكل بعضهم بعضاً ، وليسوا في عداد البشر ، وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرادين وركلان .

فكان في غانة مما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح ، وقال صاحب كتاب رجار : إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف هذا في ولد عبد الله بن حسن ، وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العصر وصارت غانة لسلطان مالي .

وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من هذا الإقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك ، ويمر نهر بأفيفوص في رمال الجزء الثاني ، وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ، ثم استولى عليها سلطان مالي ، وأصبحت في مملكته ، وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر .

وفي جنوبي بلاد كوكو بلاد كانم من أمم السودان وبعدهم ونفارة على ضفة النيل من شماليه . وفي شرقي بلاد ونفاره وكانم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم . وفيه يمر نهر النيل ذاهباً من مبدئه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال ، ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة . واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه . وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند ، وكذا ضبطه ابن سعيد ، فيخرج من هذا الجبل عشر عيون ، تجتمع كل خمسة منها

في بحيرة ، وبينهما ستة أميـال ، ويخرج من كل واحـدة من البحيرتين ثلاثـة أنهـار تجتمع كلها في بطيحة واحـدة ، في أسفلهـا جبل معترض يشق البحيرة من نـاحيـة الشمال ، وينقسم مـاؤهـا بقسمين : فيمر الغربي منـه إلى بلاد السـودان مغربـاً حتى يصب في البحر المحيـط ، ويخرج الشرقي منـه ذاهبـاً إلى الشمال على بـلاد الحبشـة والنـوبَـة وفيما بينهما ، وينقسم في أعلى مصر فيصب ثـلاثـة من جـداولـه في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط ، ويصب واحد في بحيرة ملحـة قبل أن يتصل بالبحر في وسط الإقليم الأول .

وعلى هـذا النيل بلاد النوبـة والحبشـة وبعض بـلاد الـواحـات إلى أسـوان ، وحاضرة بلاد النوبـة مـدينـة دنقلـة ، وهي في غربي هـذا النيل ، وبعـدهـا علوه وبلاق ، وبعدهما جبل الجنـادل على ستـة مراحل من بلاق في الشمال ، وهو جبل عـال من جهـة مصر ، ومنخفض من جهـة النوبـة ، فينفـذ فيـه النيل ويصب في مهوى بعيـد صبـاً مجهـولاً ، فـلا يمكن أن تسلكـه المراكب بـل يحـول الـوسـق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلاد أسوان قاعـدة الصعيـد ، وكـذا وسق مراكب الصعيـد إلى فـوق الجنـادل ، وبين الجنـادل وأسـوان اثنـا عشر مرحلـة ، والواحات في غربيها عدوة النيل ، وفي الآن خراب ، وبها آثار العمارة القديمة .

وفي وسط هـذا الإقليم في الجزء الخـامس منـه بلاد الحبشـة على وادٍ يـأتي من وراء خـط الاستواء ذاهبـاً إلى أرض النوبـة ، فيصب هنـاك في النيل الهـابـط إلى مصر ، وقد وهم فيه كثير من النـاس وزعموا أنـه من نيل القمر ، وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافية وذكر أنه ليس من هذا النيل .

وإلى وسط هذا الإقليم في الجزء الخـامس ينتهي بحر الهنـد الـذي يـدخل من ناحية الصين ، ويغمر عامـة هـذا الإقليم إلى هـذا الجزء الخـامس ، فلا يبقى فيـه عمران إلا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة ، يقـال : تنتهي إلى ألف جزيرة ، أو فيما على سواحلـه الجنوبيـة ، وهي آخر المعمور في الجنـوب أو فيما على

سواحله من جهة الشمال ، وليس منها في هذا الإقليم الأول إلا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن .

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي إلى جهة الشمال ، وهما بحر قلزم وبحر فارس ، وفيما بينهما جزيرة العرب وتشتمل على بلاد اليمن ، وبلاد الشحر في شرقها على ساحل هذا البحر الهندي ، وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما إليهما .

النص الثاني

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم

« يبين ابن خلدون في هذا النص أثر البيئة على معايش الناس وأنماط حياتهم ونفسياتهم » .

قد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال ، ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً . فالإقليم الرابع أعدل العمران والذي حفّ فيه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال ، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها .

ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية والشمالية ، وذلك أن الأنبياء

والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم . قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران ٣ / ١١٠] وذلك ليتم القبول لما تأتيهم به الأنبياء من عند الله . وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم ، فتجدهم في غاية من التوسط في مساكنهم وأقواتهم وصنائعهم ، يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة ، المنمقة بالصناعة ، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين ، ويذهبون في ذلك إلى الغاية . وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ، ويتصرفون في معاملتهم بالنقدين العزيزين ، ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم . وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين ، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين ، ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منه في هذه الأقاليم المعتدلة ، ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات .

وأما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم ، فبناؤهم بالطين والقصب ، وأقواتهم من الذرة والعشب ، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود ، وأكثرهم عريان من اللباس ، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين ، مائلة إلى الانحراف ، ومعاملتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات ، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العُجْم ، حتى ينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول ، أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً ، وكذا السقالبة ، والسبب في ذلك أنهم لبعدهم من الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك ، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً ، فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال ، وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين

لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وما بعده لهذا العهد ، ومثل أهالي مـالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد ، يقـال : إنهم دانوا به في المئة السابعة ، ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال ، ومَنْ سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبـاً وشمالاً فـالـدين مجهول عنـدهم ، والعلم مفقود بينهم ، وجميـع أحـوالهم بعيـدة من أحـوال الأناسي ، قريبة من أطوار البهائم ، ويخلق مـا لا تعلمون . ولا يعترض على هـذا القول بوجود اليمن وحضرموت والأحقـاف وبـلاد الحجـاز واليمامـة ومـا إليهـا من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثـاني ، فـإن جـزيرة العرب كلهـا أحـاطت بهـا البحـار من الجهـات الثلاث كما ذكرنـا ، فكان لرطوبتهـا أثر في رطوبـة هوائهـا ، فنقص بذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر ، وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر .

وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لـديـه بطبـائع الكائنـات أن السودان هم ولد حام بن نوح ، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيـه ، ظهر أثرهـا في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه ، وينقلون في ذلك حكايـة من خرافـات القصاص .

ودعاء نوح على ابنه حـام قـد وقع في التوراة وليس فيـه ذكر السواد ، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد إخوته لا غير .

وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيـه من الحيوانـات ، وذلـك أن هـذا اللـون شمـل أهـل الإقليم الأول والثـاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضـاعفـة بـالجنوب ، فـإن الشمس تسـامت[٢] رؤوسهم مرتين في كل سنة ، قريبة إحداهما من الأخرى ، فتطول المسامتة عـامـة

---

(٢) أي تمر فوق رؤوسهم عمودية مرتين كما في المناخ السوداني (مالي) .

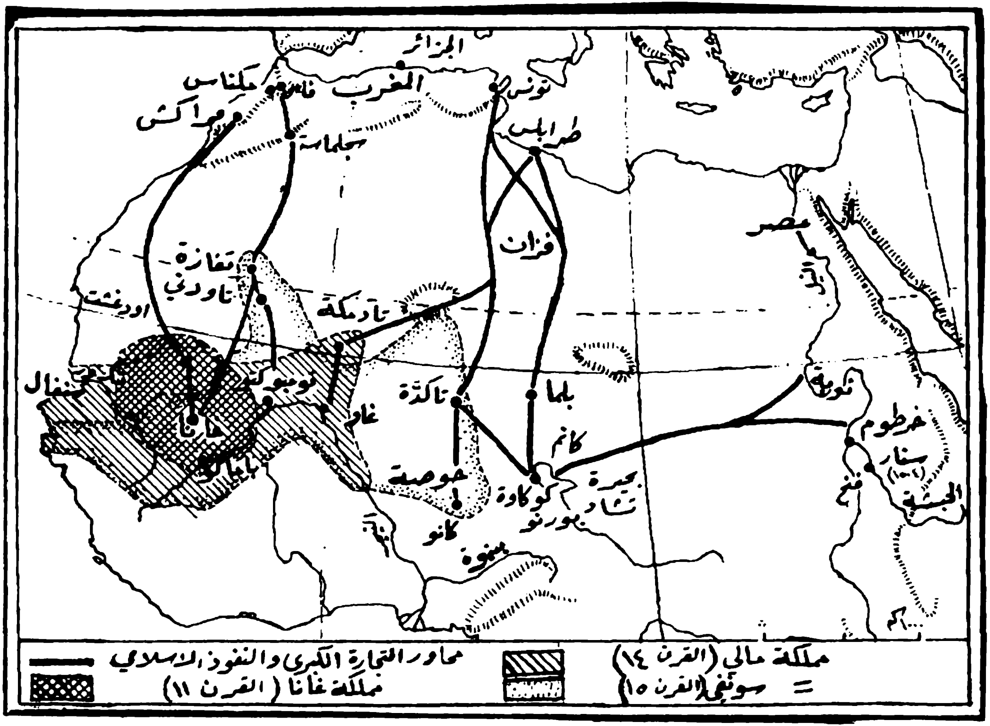
الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ، ويلح القيظ الشديد عليهم ، وتسوَدّ جلودهم لإفراط الحر .

ونظير هذين الإقليمين فيما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس ، شمل سكانها البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال ، إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين ، أو ما يقرب منها ، ولا ترتفع المسامتة ولا ما قرب منها ، فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول ، فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة ، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور .

وتوسطت بينها الأقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر ، والرابع أبلغها في الاعتدال ، غاية لنهايته في التوسط كما قدمناه .

في أثر الهواء في أخلاق البشر

قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق في كل قطر ؛ والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة ، أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه ، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته ، ولهذا يجد في المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه ، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها ثورة الخمر في الروح من مزاجه ، فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح . وكذلك تجد المتنعمين بالحمامات ، إذا تنفسوا في هوائها ، واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك ، حدث لهم فرح ، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور .



الإسلام في السودان حتى القرن ١٥ ميلادي

ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار ، واستولى الحر على أمزجتهم ، وفي أصل تكوينهم ، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً ، فتكون أكثر تفشياً ، فتكون أسرع فرحاً وأكثر انبساطاً ، ويجيء الطيش على إثر هذه ، وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية ، لَمَّا كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته ، كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة .

وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها ، لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول ، واعتبر ذلك بأهل مصر ، فإنها في مثل عرض البلاد الجزرية أو قريباً منها ، كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب ، حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم ولا عامة مآكلهم من أسواقهم .

ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها ، التوغل في التلول الباردة ، كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن ، وكيف أفرطوا في نظر العواقب ، حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيء من مدخره ، وتتبعْ ذلك في الأقاليم والبلدان تجدْ في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم .

وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم ، وحاول تعليله ، فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي ، أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم ، وهذا كلام محصل لا برهان عليه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

القَلْقَشَنْدِي

(ولد في ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م ـ توفي عام ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)

هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الشهّاب بن الجمال بن أبي اليمن القلقشندي القاهري الشافعي . ولد عام ٧٥٦ هـ في قلقشندة من أعمال مديرية القليوبية بالديار المصرية من أصل عربي صميم ، من بني بدر بن فزارة من قيس عيلان . وكان بنو فزارة وردوا مصر مع من وردها من العرب أيام الفتح الإسلامي وبعده ، ونزلوا بإقليم القليوبية ، واستولى بنو بدر منهم على أجلّ بلاده ، وكانت لهم الرئاسة والغلبة على جيرانهم من بني عمهم بني مازن بن فزارة . وكان بقلقشندة فرقتان فرقة من بدر وفرقة من بني مازن .

ونشأ نشأة حسنة وتربى تربية علمية صحيحة ، وتوجه إلى ثغر الإسكندرية ، وأقام به مدة من عمره ، وطلب العلوم الشرعية على مشهوري العلماء مثل ابن الشيخة ، واشتغل بفنون العربية والأدب حتى اجتمع له مقدار وافر منها ، وكان ممن برع في الفقه والأدب وغيرهما ، واطلع على كثير من الكتب والأسفار في مختلف العلوم والفنون ، وكان فيه تواضع ومروءة وخير ، مفضالاً وقوراً في الدولة .

وفي سنة ٧٧٨ هـ حينما كان مقيماً بثغر الإسكندرية أجازه الشيخ سراج الدين أبو جعفر عمر بن أبي الحسن الشهير بابن الملقّن بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي ، ولم تكن سنُّه إذ ذاك تتعدى إحدى وعشرين سنة ، كما أجازه بأن يروي عنه كل ما له من التآليف في الفقه والحديث وغيرهما ، وأن يروي كل ما جازت له روايته بشرطه عند أهله ، كالكتب الصحاح الستة ومسند الشافعي ومسند أحمد بن حنبل .

وفي ٧٩١ هـ التحق بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وأنشأ مقامة في تقريظ القاضي بدر الدين رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ سماها : (الكواكب الدرية في المناقب البدرية) بناها على التعريف بكتابة الإنشاء وعلو قدرها ومعظم خطرها ، وأنها الحرفة التي لا يليق بطالب العلم غيرها ، والصناعة التي لا يجوز له العدول عنها إلى ما سواها . وضمنها كثيراً من أصول الصنعة في الكتابة وفروعها ، وشرحها في كتابه (صبح الأعشى) الذي فرغ من تأليفه في يوم الجمعة ٢٨ شوال ٨١٤ هـ .

وشرح قطعاً من (جامع المختصرات) ، بل شرع في نظمه ، وله (الحاوي) ، وألّف كتاباً في (أنساب العرب) . وتوفي يوم السبت ١٠ جمادى الآخرة سنة ٨٢١ هـ وعمره خمس وستون سنة .

ويهم الجغرافيين ما ورد في صبح الأعشى من معلومات عن أجزاء الوطن العربي والإسلامي جمعها من مصادر عديدة ومن روايات بعض الرحّالة والسفّار الذين تعرف عليهم ، فهو يعتبر بذلك نقّالة ، جمّاعة ، تميز بالدقة وسعة الاطلاع .

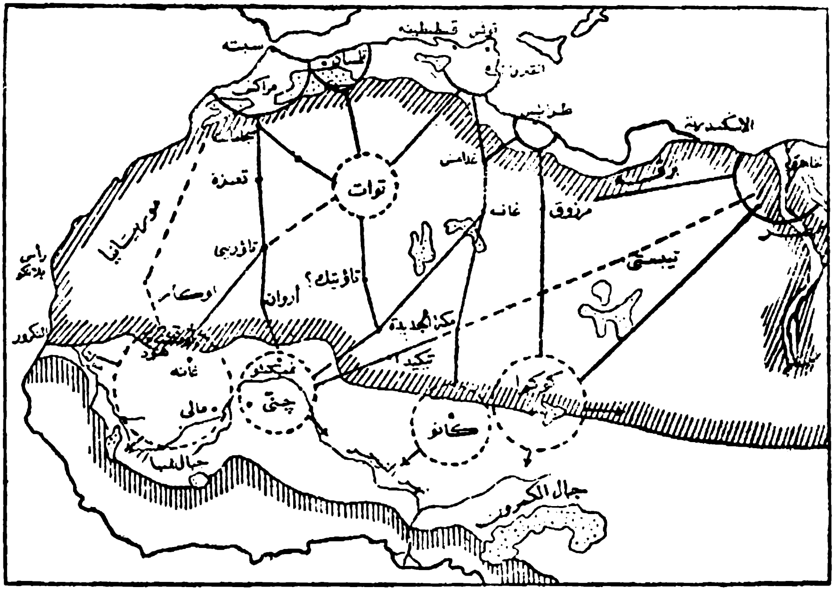
وقد طبع كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) بالقاهرة في أربعة عشر مجلداً بين عامي ١٩١٣ و ١٩٢٢ وهو مملوء بالمعلومات الجغرافية والتاريخية عن مصر وسورية بشكل خاص ، وعن بقية العالم الإسلامي بشكل عام .

النص الأول

يتميز القلقشندي بدقة معلوماته وتفاصيله القيّمة التي لا تفتقر للتعليل بالإضافة إلى أسلوبه الشيّق النابض بالحياة .

طرابلس : وهي الآن مدينة ممتدة كثيرة الزحام وبها مساجد ومدارس وزوايا وبيمارستان وأسواق جليلة وحمامات حسان . وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيّضاً ظاهراً وباطناً ، وغوطتها محيطة بها ، وتحيط بغوطتها مزروعاتها . وهي بديعة المشترف ولها نهر يحكم على ديارها وطباقها ، يتخرّق الماء في مواضع من أعالي بيوتها لا يرقى إليها إلا بالدرج العلية . وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات أشجار وكروم ومروج ومواش . وميناها مينا جليلة تهوي إليها وفود البحر الرومي ، وترسو بها مراكبهم وتباع بها بضائعهم . وهي بلدة متجر وزروع كثيرة الفائدة (صبح الأعشى ٤ ـ ١٤٣) .

عدن : وعدن على ساحل البحر ذات حطٍّ وإقلاع وهي أعظم المراسي باليمن .. وبها قلعة حصينة . وهي خزانة ملوك اليمن ، إلا أنه ليس بها زرع ولا ضرع ، وهي فرضة اليمن ومحطُّ رحال التجار . ولم تزل بلد تجارة من زمن



غانة وطرق القوافل الموصلة إليها من شمالي إفريقية

التبابعة وإلى زماننا . عليها ترد المراكب الموصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة . ويمتازُ أهل كل إقليم منها ما يحتاجون إليه من البضائع ... ولا يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتّى ومتاجر منوّعة .

والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجائر مربحة . ولحطّ المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهورة ، فإذا أراد ناخوذة[1] السفر بمركب إلى جهة من الجهات ، أقام فيها عَلَماً برنك خاص به ، فيعلم التجار بسفره ويتسامع الناس . فيبقى كذلك

(١) أي وكيل السفينة .

أياماً ، ويقع الاهتمام بالرحيل وتسارع التجار في نقل أمتعتهم ، وحولهم العبيد بالقماش السري والأسلحة النافعة ، وتنصب على شاطئ البحر الأسواق ويخرج أهل عدن للتفرج هناك ... والمقيم في عدن يحتاج إلى كلفة في النفقات لارتفاع الأسعار بها في المآكل والمشارب . ويحتاج المقيم بها إلى ما يتبرَّد به في اليوم مرات في زمن قوة الحر ... ولكن أهلها لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الأموال النامية .

بلاد العسير واليمن

وحدثني أبو جعفر بن غانم : إن بلاد الشُّرفاء هؤلاء متصلة ببلاد السراة إلى الطائف إلى مكة المعظَّمة . قال : وهي جبال شامخة ، ذات عيون دافقة ومياه جارية ، على قرى متصلة ، الواحدة إلى جانب الأخرى ، وليس لواحدة تعلُّق بالأخرى ، بل لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم ، لا يضمُّهم مُلْك مَلِك ، ولا يجمعهم حكم سلطان ، ولا تخلو قرية منها من أشجار وعُروش ذوات فواكه أكثرها العنب واللوز ، ولها زروع أكثرها الشعير ، ولأهلها ماشية أعوزتها الزرائب وضاقت بها الحظائر .

قال : وأهلها أهل سلامة وخَير وتمسُّك بالشريعة ووقوف معها ، يعضُّون على دينهم بالنواجذ ، ويَقْرون كل من يمرُّ بهم ويضيِّفونه مدة مقامه حتى يفارقهم . وإذا ذبحوا لضيفهم شاة ، قدَّموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكبدها وقلبها وكرشها ، فيأكل ويحمل معه ما يحمل ، ولا يسافر أحد منهم من قرية إلى أخرى إلا برفيق يَسْترفقه منها فَيَخْفره لوقوع العداوة بينهم . ثم هي تشتمل على عدة حصون وبلاد مخصبة .

وقاعدتها مدينة صنعاء . قال في (تقويم البلدان) لأبي الفداء : وهي مدينة من نجود اليمن ، واقعة في أوائل الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال : في

(الأطوال) حيث الطول سبع وستون درجة ، والعرض أربع عشرة درجة وثلاثون دقيقة . قال في (الروض المعطار) : واسمها الأول (أوال)[٢] . فلما وافتها الحبشة ونظروا إلى بنائها قالوا : هذه صنعة ، ومعناه بلغتهم حصينة فسميت صنعاء من يومئذ . قال : والنسبة إليها صنعائيٌّ على غير قياس . ويقال : إنها أول مدينة بنيت باليمن .

ثَمَّ اختلاف : فقيل بناها سام بن نوح عليه السلام ، وذلك أنه طلب مكانها معتدل الحرارة والبرودة ، فلم يجد ذلك إلا مكان صنعاء ، فبنى هذه المدينة هناك . وقيل بنتها عاد .

قال في (تقويم البلدان) : وهي أعظم مدن اليمن ، وبها أسواق ومتاجر كثيرة ، ولها شبه بدمشق لكثرة مياهها وأشجارها ، وهواؤها معتدل ، وتتقارب فيها ساعات الشتاء والصيف ، وفي أطول يوم في السنة يكون الشاخص عند الاستواء لا ظلَّ له .

وقال في موضع آخر : تشبه بعلبك في الشام لتمامها الحسَن وحسْنها التام وكثرة الفواكه . تقع بها الأمطار والبَرَد ، وهي كرسي ملوك اليمن في القديم ، ويقال : إنها كانت دار ملك التبابعة . قال في (الروض المعطار) : وهي على نهر صغير يأتي إليها من جبل في شماليها ، ويمر منحدراً إلى مدينة ذمار ، ويصب في البحر الهندي . وعمارتها متصلة ، وليس في بلاد اليمن أقدم منها عمارة ولا أوسع منها قطْراً .

قال في (تقويم البلدان) : وكانت في القديم كرسي مملكة اليمن . قال : وبها تل عظيم يعرف بغُمْدان ، كان مقراً ينزله ملوكها . قال في (الروض المعطار) : هو أحد البيوت السبعة التي بنيت على اسم الكواكب السبعة ، بناه الضحَّاك على

---

(٢) وقد أطلق هذا الاسم على جزر البحرين .

اسم الزُّهرة ، وكانت الأمم تحجه ، فهدمه عثمان رضي الله عنه فصار تلاً عظيماً .

منها (كَحْلان) وهي قلعة من عمل صنعاء على القرب منها . قال ابن سعيد : كان بها في أول المئة الرابعة بنو يَنْفُرَ من بقايا التبابعة . قال : ولم يكن لها نباهة في المُلك إلى أن سكنها بنو الصُّلَيحي ، وغلب عليها الزيديَّة ثم السليمانيون بعد بني الصليحي .

ومنها (**نجران**) . قال الأزهري : وسميت بنجران بن زيد بن سبأ بن يَهْجُر بن يعْرُب بن قحطان . وهي بلدة من بلاد قبيلة هَمَدان واقعة في الإقليم الأول . قال في (الأطوال) حيث الطول سبع وستون درجة ، والعرض تسع عشرة درجة . قال في (تقويم البلدان) وهي بليدة فيها نخيل بين عدن وحضرموت في جبال بين قرى ومدن وعمائر ومياه ، تشتمل على أحياء من أيْمن وبها يُتخَّذ الأدَم ، وهي شرقي صنعاء بشمال . وبها أشجار وبينها وبين صنعاء عشر مراحل ، ومنها إلى مكة عشرون يوماً في طريق معتدل . وجعلها صاحب (الكمام) صُعقاً مفرداً من اليمن .

ومنها (**مأرب**) . قال في (تقويم البلدان) وهي مدينة على ثلاث مراحل من صنعاء واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في (الأطوال) حيث الطول ثمان وستون درجة ، والعرض أربع عشرة درجة . قال في (تقويم البلدان) : وهي في آخر جبال حضرموت ويقال لها مدينة **سبأ** تسمية لها باسم بانيها . وبها كان السدُّ . قال : « وكانت قاعدة التبابعة وهي اليوم خراب » .

ومنها (**حضرموت**) . قال في (اللباب) وهي ناحية من نواحي اليمن وأعمالها أعمال عريضة ذات شجر ونخل ومزارع . قال الأزهري وسميت حضرموت بحاضر بن سنان بن إبراهيم وكان أول من نزلها .

خليل الظاهري

(المتوفى في عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م)

هو غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، أحد كبار رجال دولة المماليك ، وكان والده من مماليك السلطان الظاهر سيف الدين وإليه نسب الابن .

وقد ولد خليل الظاهري في القدس التي عرفها معرفة مباشرة ، غير أنه ارتحل إلى مصر طلباً للعلم وابتداءً من عام ١٤٣٠ م أخذ يتقلّب في العديد من المناصب الحكومية الهامة في الدولة المملوكية ، فكان والياً على ثغر الاسكندرية لفترة من الوقت ، ثم نجده أميراً للحج في عام ٨٤٠ هـ (١٤٣٦ م) كي يعود والياً فيما بعد على بعض مناطق بلاد الشام مثل الكرك وصفد ، وتولى في النهاية منصباً مرموقاً بدمشق .

وقد كان لتقلبه في الوظائف الحكومية السامية المختلفة أن تمكن من التعرف عن كثب على الولايات الكبرى في السلطنة المملوكية ، ولعل نشاطه الإداري هو الذي حدا به في أيام السلطان جقمق ، الذي حكم بين ١٤٣٨ و ١٤٥٣ ، إلى التفكير في وضع مؤلف لخدمة عمال الدولة ، وباشر مشروعه بكتابة مجلدين ضخمين في أربعين باباً ، ولكنه لما أبصر ضخامة مؤلفه اختصره في اثني عشر باباً وسماه (زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك) .

ولا فائدة من أن نستنتج من عنوان الكتاب أن الظاهري أراد أن يقدم لنا مصنفاً من نمط (المسالك) المألوف لدينا ، ذلك أن لفظ الممالك اقتضاه عنوان الكتاب المسجوع ، ذلك أن الكتاب هو بالواقع عبارة عن تقويم رسمي لممتلكات دولة المماليك ، الهدف منه أن يكون مرجعاً لموظفي الدولة وللمهتمين بالقضايا السياسية والدبلوماسية ، وعلى هذا يبدو شبيهاً بكتاب (التعريف) للعمري وهذا الشبه لم يأت مصادفة ، كما أثبت هارتمان Hartmann الذي قام بتحليل دقيق للمؤلَّفين .

والواقع هو أن الظاهري لم يقصد من وراء كتابه الفائدة والمعرفة فقط كالعمري ، بل كان يرمي أيضاً للمتعة والتهذيب ، فخرج الكتاب قريباً من كتاب الرحالة عبد الغني النابلسي أو من سابقه الهروي نظراً لاهتماماته الدينية وسرد الأخبار الكثيرة عن الأماكن المقدسة . كذلك كان من سماته الإعجاب بالذات ، إذ يورد بعض قصائد المدح التي قيلت فيه بالإضافة إلى عدد ضخم من قصائده .

غير أن خليل الظـاهري لا يفتقر إلى بعض الميزات ، فهو قـد جهـد في تقـديم صـورة متكاملـة الجوانب للنظام الإداري بمصر ، كا أن الباب الأول من كتابه الذي يعد أوسع فصوله جيعاً يعرض لنا تحليلاً جغرافياً عاماً للحجاز ومصر وبلاد الشام ، وينتقل في الباب الثاني للكلام عن نظام السلطنـة ، وما يتحلى به السلطان من الصفات ، ويصف الموكب الشريف والملبوس . وفي الباب الثالث وما يليـه يتكلم بالتوالي على الخليفة (أمير المؤمنين) وقاضي القضاة وأئمة الدين ، وعلى الوزارة وما يلحق بها من مناصب ودواوين . وقـد خصص بعض الأبواب المختصرة للكلام على أولاد الملوك والأمراء . وفي البـاب السـابع يصف بعض دور الحكومة ، بينما يكرس الثامن للكلام على ملحقات الدور السلطانية ، والتـاسع للكلام عن صيانة الجسور والطرق وعن تقسيم الولايات . ويقـدم لنـا في البـاب العـاشر وصفاً لنظـام الجيوش عند المماليك ، بينما يتناول في الباب الحادي عشر الحديث عن العربان والتركمان والأكراد خاصة من زاوية تزويدهم مصر بأفواج المماليك .

وعلى كل حال فقد استطـاع الظـاهري بفضل وظـائفـه الحكوميـة المتتـاليـة أن يفيـد كثيراً من الوثائق الرسمية ، وهذا ما يلاحظه هـارتمـان على الخصوص في القسم الـذي أفرده للكلام على البريـد ، وهو أهم ما في الكتاب قاطبة : ويكتسب أهمية فريدة تعداده لمنازل البريد ومحطاتـه مع تفـاصيل ذات أهمية قصوى . وإلى جانب المادة الإخبارية التي يوردهـا والتي رأينـا أنهـا لا تخلو من القيمـة ، فـإن من الواجب الاعتراف بأن الكتاب لا يخلو من أهمية في حد ذاته ، لأنه ينتمي إلى عصر لم تصلنـا منـه مـادة جغرافية غزيرة ، إنه يمكن اعتبار كتاب الظاهري لوحة سياسية وإدارية لسلطنة الممـاليـك ، بين القرن الثالث عشر والخامس عشر ، ويغلب على الظن لدى العديـد من البـاحثين أن الرحـالـة الفرنسي فولني اعتمد على هذا الكتاب في وصف رحلته في مصر وسوريا عام ١٧٨٧ ، وعد نشر الكتاب لأول مرة بجهود بولس رافيس Paul Ravaisse المحاضر في معهد اللغات الحية في باريس عام ١٨٩٣ .

مقدمة الكتاب

« ... فلذلـك يقول العبـد الفقير إلى الله تعـالى خليل بن شـاهين الظـاهري لطف الله بـه ، أنني صنفت كتـابـاً سميتـه (كشف الممالـك وبيـان الطرق والمسالك) ، ويشتمل على مجلدين ضخمين يشتملان على أربعين باباً ، جملـة ذلـك ستين كراساً في قطع الكامل . معتمداً في ذلك ما شاهده العيان أو تحققتـه من نقل الثقـاة الأعيـان ، الـذين يركن إليهم غـايـة الإركان ، اطلعت عليـه من كتب المتقـدمين ومـا وجـدتـه منقولاً عن المشـائخ المعتبرين ، ثم رأيت ذلـك الكتـاب

المصنف مطولاً فانتخبت من ملخصه هذا المجلد وسميته : (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) وجعلته اثني عشر باباً واختصرت الكلام فيه لكون اشتغالي بغيره من المصنفات .

النص الأول

نبذة من الباب الحادي عشر

إخضاع جزيرة قبرص

(وقد ظلت شوكة في خاصرة الممالك العربية المجاورة بعد طرد الصليبيين تماماً من بلاد الشام) فتحصنوا بها وأصبحت قاعدة لهم . وأما الجزائر القبرصية فإنها من أعجب الجزائر وأعظم مدنها الأفقسية[١] بها تخت الملك كان تعدّى على المسلمين وبغى ، فأرسل السلطان نهاه عن ذلك فتكلم بصفته ، فأرسل السلطان أربعة أغربة[٢] بها جيش ليكشفوا حقيقة الأمر ، وما يعتمده ملك قبرص مع المسلمين ، وكان السلطان أرسل غراباً موسوقاً هدايا إلى ابن عثمان[٣] ، فأرسل صاحب قبرص غرابين فأخذوهما ... فسارت الأغربة الأربعة إلى أن وصلو إلى رأس إلياق من جزيرة قبرص ، فوجدوا مركباً موسوقاً[٤] ، فهرب مهربه فأخذو ما فيه وأحرقوه ثم وصلوا إلى اللمسون[٥] فوجدو ثلاثة أغربة مجهزة لتسير إلى

---

(١) نيقوسيا .

(٢) جمع غراب وهو سفينة شراعية حربية .

(٣) أي هدايا من ملك مصر إلى أحد سلاطين بني عثمان .

(٤) أي مشحوناً بالبضاعة .

(٥) أي ليماسول .

السواحل وتؤذين (؟) ، فأخذوا ما فيها وأحرقوها أيضاً ، فظهر أمير اللمسون فكسروه وقتلوه ، وأخذوا المدينة ونهبوا وأحرقوا . ثم إنهم وجدوا حصن اللمسون معنياً تطول محاصرته فعادوا إلى السلطان وصحبتهم الغنائم ، وأعلموه حقيقة الأمر ، ثم إن السلطان أمر بعمارة أغربة وهي الغزوة الثانية وشرع في تحصين البلاد والسواحل ...

أما ما كان من جانوس صاحب قبرص لما بلغه ما حصل على اللمسون أرسل غرابين مشحونين بالرجال والعدّة إلى سواحل مصر والشام ليأخذوا من وجدوه من المسلمين ، فصاروا كلما وصل إلى ساحل وجدوا عليه حرسيّة فجاؤوا إلى مكان يقال نهر الكلب ، ليأخذوا منه ماءً ، فأطلقوا مدفعاً لينظروا إن كان به أحد فأكمن المسلمون إلى أن طلعت الفرنج البر ودقّوا عليهم ، فمسكوا منهم جماعة ، وأحضروهم إلى السلطان بعد أن هربت الأغربة ومن بها مجرحين .

ثم إن العمارة[٦] تكمّلت وهي خمس قراقير وتسع عشرة غراباً وست حمّالات برسم الخيول وثلاثة عشر خيطياً ، ونزل من عُيّن من العساكر المنصورة فيها ، وكان السير من طرابلس . وكان بها من الأمراء الأمير جرباش قاشق ، والأمير يشبك المشدّ ، والأمير مراد خواخة الشعبانيّ ، وكثير من الخاصكيّة المطوّعين وغير ذلك . وكان ذلك في رجب سنة ثمان وعشرين وثمانمئة ، واستمروا سائرين إلى أن وصلوا إلى الماغوصة[٧] فطلعت الخيالة وقدّامهم بعض المشاة ، فأرسل أمير الماغوصة قصّاده يقول : أنا مملوك السلطان ، والمدينة مدينته ، والرعية رعيته ، ونسأل في الأمان ، وعلّقوا الراية السلطانية على القلعة ، وأرسل تقادم لها صورة ثم إن العسكر سار ، وكذلك المراكب ، وإذا بجيش الفرنج أقبل ، وابن أخي الملك معهم ، وصحبته ألف خيال وثلاثة آلاف ماش ، وقد صعد مكاناً عالياً ، فلما رأى

(٦) أي الأسطول .

(٧) ميناء فاماغوستا .

المسلمين وقع في قلبه الرعب ، وولّى مدبراً ، فلما وصلوا إلى رأس العجوز وجدوا أميراً من الفرنج ، ومعه جماعة جاؤوا للكشف فمسكوه ، ولما وصلوا إلى الملاّحة أقبل إليهم تسعة أغربة وقرقورة[٨] بها نيف عن ألفي مقاتل من الفرنج ، وابن أخي الملك الذي هرب منتظر مجيء المراكب المذكورة ، فلما رأى القلوع وقد حطمت مراكب المسلمين على مراكب الفرنج فانكسر وهرب ، وأخذوا مركباً من مراكب الفرنج فقيل في ذلك :

إن تهربوا منا فشأنكم الهرب	أفٍ عليكم يا كلاباً للعرب
هلاّ ثبتّم للقتال وضربنا	أنتم معاذير توفّون العطب
فاخسؤا جميعاً أنتم ولعينكم	خشي الكلاب العاديات من الجرب

ثم إن بعض العسكر وجد عين الغزال ، وكان من خواصّ صاحب قبرص ، ومعه زرد خاناه ، وهو قاصد اللمسون فمسكوه ، ثم حاصروا اللمسون محاصرة شديدة إلى أن ملكوه ، وهو أعظم حصون جزيرة قبرص ، وأسروا من به وقتلوا خلقاً لا يحصى ، وأخربوا البلدان ، وأسروا أهلها ، وملكوا غنائم كثيرة ، ثم عادوا .

فلما طلعوا إلى قلعة الجبل المنصورة وصحبتهم الغنائم والأسارى كان يوماً مشهوداً ثم بلغ السلطان أن ملك قبرص راسل ملوك الفرنج واستنجدهم على المسير إلى ثغر الإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس وغير ذلك ، فأمر السلطان بعمارة أغربة وحمّالات بجميع السواحل واتباع قراقير حتى إنها تجمعت القراقير والحمالات والأغربة والبرصانيّات والخياطي والقوارب قريباً من مئة وثمانين قطعة وعيّنَ من الأمراء الأعيان باشين : أحدهما بالبرّ ، وهو ثغرى بردي المحمودي ، والآخر بالبحر وهو إينال الجكميّ ، وعين أمراء وجيشاً ضخماً ... وكان عسكراً

---

(٨) سفينة طويلة .

عظيماً لا يكاد يقابل لقوّته ، ثم ساروا على بركة الله إلى أن وصلوا جزيرة قبرص ، وأتوا إلى الحصن المقدم ذكره وحاصروه إلى أن أخذوه وأرسلوا بريدياً إلى صاحب قبرص يأمروه بالدخول تحت الطاعة الشريفة ، فأبى وأحرق البريدي ، وأخذ في عرض عساكره وهو ثلاثة وعشرون ألف خيال وجهز سبعة قراقير وسبعة أغربة ، حتى إذا ظهر عسكر الإسلام للقائه يحطمون على المراكب ويأخذونها ، وقطع وجزم أنه هو الغالب ، فلما أقبلوا إلى المسلمين لاقاهم المسلمون على الملك استعداداً ، فحملوا على المسلمين حملة واحدة وكانوا بين غابة وشجر ففي الحال انكسروا وانهزموا وولوا مدبرين ، ووقع ملكهم جانوس في القبضة ، وقتل منهم ما لا يحصي عددهم إلا الله .

وكانت هذه الوقعة في يوم الأحد مستهل شهر رمضان سنة تسع وعشرين وثمانمئة وقت الظهر ، وضبط من قتل في تلك الوقعة من أهل الجزيرة ما يزيد عن ستة آلاف نفر ، ثم إنهم أودعوا جانوس بمراكب المسلمين ... وأتوا بالكيتلانيّ الذي أتى نجدة لصاحب قبرص ، ثم إن الأمير تغري بردي المحمودي سار إلى الأفقسيّة ، وهي أعظم مدن جزيرة قبرص ، وبها تخت الملك ، فلما أقبل إليها وصحبه فرقة من العسكر ، وإذا بأكابرها وأساقفتها وقسّيسيها ورهبانها معهم الإنجيل ، وهم داعون للمسلمين ، وطلبوا الأمان ، فأمنهم الأمير ، ثم فتحوا المدينة فدخل الأمير والعسكر يوم الجمعة خامس رمضان ، وصعد الأمير إلى قصر الملك ووجد فيه فرشاً ومواعين لا تكاد تحصى وتصاوير عجيبة وصلبان كثيرة ، ووجد يرغل[9] إذا تحرك يخرج منه سائر الأنغام المطربة ، ثم أعلن المسلمون بالتكبير والتهليل والأذان ، ثم عاد الأمير إلى العسكر بعد ما كسبوا من غنائم كثيرة ثم إنهم أقلعوا من بلاد الفرنج ووصلوا إلى الديار المصرية ، وطلعت الغنائم على رؤوس ثلاثة آلاف حمّال وأحمال محزومة على جمال ، وثلاثة آلاف وستمئة يسير[10] وملك

---

(٩) أرغن .

(١٠) أسير .

قبرص راكب على بغل وأمراؤه ووزراؤه مغلولون قدّامه ، وأعلامه منكّسة ، وأهل الديار المصرية يتفرجون عليهم إلى أن وصل ملك قبرص إلى حضرة السلطان الملك الأشرف ... ثم توجهوا به إلى برج بالقلعة . ثم إن السلطان شكر الأمير تغري بردي على فعاله وأنعم عليه غاية الإنعام ، ثم إن جانوس قرر عليه جزية ، وسأل السلطان في العفو عنه ، وأنه يقيم ضمّان بذلك ، فأجابه السلطان إلى سؤاله ... ثم إنه اقترض من الفرنج بالممالك الإسلامية جملة ، وأقام بها ، وألبس تشريفاً شريفاً ، واستقر نائباً عن السلطان بالجزائر القبرصية وتوجه إلى ملكه ، وهذه الاتفاقية من غرائب الدهر .

الباب الثامن

في وصف البيوتات والمطبخ والإصطبلات الشريفة وما بها من الآلات على حسب الاختصار ووصف الشكارخاناه والسرحات والصيد والأحواش على ما يأتي تفصيل ذلك :

« أما البيوتات فهي الشربخاناه التي توضع بها الأشربة والسكر والحلوى والعقاقير والفواكه وما أشبه ذلك ولها مهتار[1] وعمدة شرابدارية .

وأما الطشتخاناه فهي التي بها الملبوس الشريفة والأقمشة وتغسل فيها الثياب ، وبها آلات كثيرة ، يطول شرح وصفها ، ولها مهتار وعدة طشتدارية ورختوانية[2] .

وأما الركبخاناه فهي التي توضع بها آلات الخيل مما تدعو الضرورة إليه ، قيل إن عدّة ما بالركبخاناه مما تحتاج الضرورة إليه ثلاثة آلاف قطعة مختلفة الأسماء

---

(١) رئيس .

(٢) الذين يهتمون بالأثاث الخشبي .

والألوان ، ولها مهتار وركابدارية وسنجقدارية ومهمزدارية وقراغلامية وغلمان مماليك ونقباء غلمان والجميع من تعلقات الإصطبل الآتي ذكره .

وأما الفراش خاناه فهي التي بها الخيم والبسط والأسمطة والقناديل وما أشبه ذلك ، ولها مهتار وعدة فراشين ، وعملة عليهم الكنس والبسط والخدمة ومد الأسمطة .

وأما الطبلخاناه بها من الكوسات التي تدق على باب السلطان أربعون حملاً ، وأربعة طبل دهول ، وأربعة زمور ، وعشرون نفيراً ، ولها مهتار وبها عدة خدام .

وأما المطبخ فهو معروف لا تنتفي النار منه أبداً ، تطبخ فيه الأسمطة[٣] المتنوعة ونذكر بعض أسماء الأطعمة : مأمونية ، خيطية ، سفرجلية ، رمانية ، زيرباج ، مسكية ، رز مفلفل ، دنارشته ، قلقاس ثلاثة ألوان ، حب رمان لونين ، شيش بورك لونين ، أقساوية رومية ، نرجسية ، محمصة ، سادجة ، مسكوبة ، بورانية ، معرّقة ، فقّاعية[٤] ، قرطمية ، حرمزة ، نوفرية ، مكمور ، مرقّدة ، حصرمية ، كبريتية ، كَمونية ، سنبوسك لونين ، هليونية ، فولية ، هريسية لونين ، بستانية ، لبنية ، سماقية ، ملوخية ، قرعية لونين ، بامية لونين ، كرنب سبعة ألوان ، كشك مسبّع ، قلوبية ، ممزَجة ، قرنفلية ، مشمشية ، ريباسية ، صلما ، مصلوقة ، هندية ، زركوشتي ، مطجّن ، مشوي ، بصما ، مقلي ، رشتا ، وغير ذلك ، وبه من الآلات العجيبة ، وله طباخ ومرقدارية وصبيان .

وأما الاصطبلات الشريفة فهي متعددة ، إصطبل الخاص الشريف الذي به

---

(٣) جمع سماط وهي المائدة لعديد من الأشخاص في الولائم الكبرى .

(٤) ربما من الفقّاع وهو نبات الفطر .

المراكب الشريفة ، وإصطبل الحجورة التي تنتخب منها للعب الكرة ، وإصطبل البيمارستان الذي يوضع به الخيول الضعاف ، وإصطبل الجوق الذي به خيول الخرج للمماليك الكتّابية ، وإصطبل البغال ، وإصطبل البريد ، والمناخ الذي به الجمال النجاتيّ ، والذي به الجمال النفر ، فهو مضاف إلى الإصطبلات الشريفة وكذلك إصطبلي الهجن والنياق ، وإصطبل الفيل فهو من جملة الإصطبلات الشريفة ، وكذلك إصطبل السباع وإصطبل الدشار وقد تقدم وصف أكركبخاناه وما بها ، وأما بقية ما يتعلق بالإصطبل من الوظائف فالأوجاقية[٥] كانوا قديماً جملة مستكثرة قيل كانوا ثمانمائة نفر ولهم رؤوس باشات ، ومنهم أوجاقية الخاص ستة عشر نفراً ، والسلاخورية[٦] وسوّاقي البريد والشحن[٧] الذي على الناخات والسروانية[٨] والجمالة والنفريّة ، والعرب الذين يركبون المسايرات كان عدتهم ثلاثمئة نفر ، الخاصّ منهم ثلاثون نفراً والسوّاس وسُوّاس الخاصّ ، والهجانة الذي يتعلق بهم الهجن ، كان عدتهم أيضاً قديماً ثلاثمئة نفر ، ومكاريّة البغال والدشاريّة والبياطرة والسقّاؤون والخَوَل وغير ذلك مما يطول شرحه ، والمتكلم على ذلك جميعه أمير آخور كبير .

وأما وصف الشكارخاناه فهي التي تتعلق بالطيور والمتكلم عليها أمير شكار ، وبها من الآلات ما يطول شرحه . ونبين أسماء الطيور الجوارح فالشائع عند الناس أن سلطان الطيور إنما هو العقاب ، وفي الحقيقة إنما هو السنقر لأنه أمير الطيور ، حتى إنه إذا كان شبعاناً ورأى طيراً وثب عليه بخلاف بقية الجوارح ، والكوهية دونه ، والباز دون الكوهيّة ، والشاهن على هيئة الكوهيّة ، لكن بينهما فرق ، والفيفيّة دون ذلك ، والصقر على نوعين : أحسنها الكبيدي ، والسقارة

---

(٥) من الكلمة التركية أوجاق أي موقد

(٦) من الفارسي سلاحشور .

(٧) من الفارسي شحنة أي (المتولّي) .

(٨) من الفارسية سربان أي جمّال .

دون ذلك ، والباشق والقطـامـيّ منهم أدقّ الجوارح ، وكل من هؤلاء ذكر وأنثى ، وأما طيور الواجب فهي أربعـة عشر صنفـاً : منهـا ثمـانيـة تحمل بـأعنـاقهـا عنـد العبيـد ، وستـة تحمـل بـأسبـاقهـا ، فـالثمانيـة الأولى هي الثمّ والكي والإوزّ الحبيّ والأنيسة والإوزّ اللغلغ والحُبْرُج والنسر والعقاب ، وأما الستة التي تشـال بسبوقهـا فهي الكركي والغرنوق والصوغ والمرزم والشيطر والعناز ، وبقية الطيور فأصناف متعددة جداً ، يطول شرحهـا ولهـا جرائـد بـديوان الشكارخـانـاه ، ولهـا جمـاعـة خواندارية ومعلمين وطعمدارية وبازدارية[٩] .

وأمـا السرحـات والصيـد فهي في أيـام الربيع يسرح السلطـان عـدة مرار ، وجميع الأعيان بخدمته بالموكب الكامل إلى مواضع مخصوصـة ، فيرمي الطيور على الكركي ، والجيش حلقة ، ويكون الصيد على قدر الفتح .

مما اتفق في أيام الملك الناصر محسن بن قلاوون أرمى رمايـة البركـة ، وكان بالشكارخاناه صقر يسمى لِغْياط ، ما رمي قط إلا وصاد ، فأخـذه على يـده على العادة في يوم الخميس سابع ذي القعدة أحد شهور سنة أربعين وسبعمئـة ، وأرمـاه في جملة الرماية ، فلم يصد ذلك الطير ولا غيره في تلك الرماية ، فسأل السلطـان عن الصقر المذكور فلم يجدوه فتوهم في نفسه أنه هرب ، وعاد وهو منقبض الخـاطر أولاً لعدم الصيد ، وثانياً لهرب الصقر .

فلمـا كان خـامس عشر ذي القعـدة ورد هجـان من دمشق المحروسـة ، وتمثل بالمواقف الشريفة ، ومعه كركي مقدد وطير على يده وقدم ما معه من المطـالعـة ، فقرأها كاتب السر :

ناشئة من كافل الشام يقبل الأرض ، وينهي أنـه يوم الخميس المبـارك سـابع ذي القعدة بعد صلاة الظهر ، حضر جماعـة من أهل دمشق ، وأخبروا أنهم وجـدوا

---

(٩) بازدار كلمة فارسية معناها (مربي الصقور) .

طيراً منقضاً على كركي بجامع بني أمية فمسكوهما وأحضروهما فذبح المملوك الكركي وغبّ الطير منه ، وجوّف الكركي وملّحه ، وجهّزهما لخدمة الشكارخاناه الشريفة ، فأنعم السلطان على كافل الشام المحروسة بفرس مشدود ملجوم بسرج ذهب وكنبوش زركش وريش وخلعة على الهجان المذكور بمئة أفلوريّ ، وعلى من أحضر الطير للكافل الشام بمئة أفلوريّ ، وكان كافل الشام عرف أنه من طيور الشكارخاناه الشريفة لما رآه برجله من اللوح الذهب المنقوش عليه اسم السلطان ، والسرحات متعددة بأماكن معينة وصفة الصيد وآلات الشكارخاناه وما ينسب إليها يطول شرحها ...



أَحْمَد سبْط بنُ العَجَمِيّ

(٨١٨ هـ / ١٤١٥ م - ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م)

هو أحمد بن إبراهيم بن محمد (وقيل ابن محمود) بن خليل الطرابلسي الأصل ، الحلبي المولد والدار ، الشافعي المذهب وكني بأبي ذر ، والبرهان ، وموفق الدين واشتهر بابن العجمي .

كان أديباً شارك في بعض العلوم ولكنه اشتغل في الأدب بشكل خاص وجمع فيه تصانيف نظماً ونثراً منها :

- عروس الأفراح فيما قال في الراح .

- التوضيح للأوهام الواقعة في الصحيح ، وهو شرح لخصه من شروح ابن حجر والكرماني والرهاوي البرماوي .

- عقد المدرر واللآلئ فيما يقال في السلسال .

- سير الجمال فيما يقال في الخال .

- شرح تلفيقات المصابيح لقطب الدين محمد النكيدي الأزنيقي المتوفى سنة ٨٢١ هـ وتوفي ولم يكمله .

- كتاب في مبهمات مسلم .

قرة العين في فضائل الشيخين والصهرين والسبطين ... وله الحمد لله الذي طهر قلوب أهل السنة من الأدناس ... رتبه على ثلاثة عشر فصلاً .

- كنوز الذهب في تاريخ حلب وهو ذيل على بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم .

- الهلال المستنير في الغذاء المستدير .

وهنا نترك الكلام للعلامة المؤرخ الحلبي الشيخ كامل الغزي مؤلف كتاب (نهر الذهب في تاريخ حلب) لما كتبه في مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٣٢ عدد آذار / نيسان ، لنتعرف على

ظروف نشر هذه القصيدة المتعلقة بالجغرافية النفسية : « هذه أرجوزة تعد ٢٣٢ بيتاً تضمنت ذكر فضائل الأجناس ، وما خص كل جنس من جميل الطبع وقبيح الخلق ، وأثر كل بلد بأهله - على سبيل الاختصار - وهي من النوادر العزيزة الوجود ، إذ لم أرها في غير مسودة كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب لأحمد بن إبراهيم موفق الدين أبي ذر ابن العجمي المتوفى سنة ٨٨٤ هـ . وقد كتب هذه القصيدة بخط يده وعنه نسختها ، وكان المرحوم العلامة الشيخ طاهر الجزائري رآها عندي في إحدى زياراته منزلي وطلب مني أن أسمح له بنقلها ، فاعتذرت له ولم أجب طلبه حرصاً عليها ، وأخبرني أنه لم يرها مدة حياته سوى مرتين ، هذه المرة إحداهما مع كثرة اطلاعه وولعه بالبحث والتنقيب عن الكتب المخطوطة النادرة .

والذي يغلب على الظن استدلالاً من أسلوبها واستنباطاً من تسميتها ، البلدان والأقاليم وأجناس الناس بأسمائها المذكورة فيها » ، أنها مما نظم في القرن الرابع أو الخامس هجري .

وليس الغرض من نشرها بيان نعوت البلدان والسكان التي ذكرت فيها ، ولا ذكر محاسنهم ومساويهم ، إنما الغرض من نشرها بيان عقلية ذوي الثقافة في أهل الزمن الذي نظمت فيه فيما حكته عنهم ، وهي من جهة أخرى قد تعدّ أثراً تاريخياً قديماً يستحق أن يحرص على حفظه وصونه من الفقدان والضياع .

والذي أعتقده من ذوي الثقافة في هذه الأيام أنهم يحفظون ما يرونه في هذه القصيدة من ذكر مساوئ بلادهم أو أجناسهم ، فإن سعة مداركهم ترشدهم إلى أن أطباع الناس والأقاليم قد استحال الكثير منها إلى الضد والنقيض ، إن من نظر في مرآة الوجود وبحث في أحوال تلك البلاد وأخلاق أهلها ، وطبق محاسنها ومساويها على ما ورد في هذه الأرجوزة ، تراءى له أن أكثر ما تضمنته قد أحاله الزمان إلى عكسه فانقلب البلد العامر خرباً ، والخرب عامراً ، وهذا مصداق ما قاله الحكيم : « ليس ترداد حركات الفلك إلا إحالة الكائنات عن حقائقها . ومنه أخذ المتنبي قوله :

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلّبت ... على عينه حتى يرى صدقها كذبا

إن الكائنات تتأثر بالزمان أكثر من تأثرها بالمكان . وقال فيلسوف العرب النابغة المعري :

أما المكان فثابت لا ينطوي ... لكن زمانك ذاهب لا يثبت

وله :

يقال إن زماناً يستقيد لهم ... حتى يبدل من بؤس بنعماء

وله :

إن المواهب كلها عارية ... ومن السفاهة غبطة بعطائها

وله :

زمــــان يخـــــاطب أبنـــــاءه		جهـــاراً وقـــد جهلـوا مـــا عنى
يبـــدل بـــاليــر أعـــدامهم		وتهـــدم أحـــداثـــه مـــا بنى

ولأبي تمام في المعنى :

أرض مصرّدة وأخرى تسجم		تلـــــك التي رزقت وأخرى تحرم
وإذا تـــأملت البـــلاد رأيتهـــا		تثري كما تثري الرجـــال وتعـــدم
حـــظ تعـــاوره البقـــاع لـــوقتـــه		واد بـــــــــه صفر وواد مفعم

وفيما يلي بعض المقتطفات من القصيدة التي يرجح كامل الغزي أنها لشاعر مجهول ، ولكن فضل أحمد العجمي في أنه حفظها لنا في مسودة كتابه كنوز الذهب في تاريخ حلب . ونقرأ في مطلع الأرجوزة :

الحمـــد لله على الهـــدايـــة		والعلم والتـوفيـق والـدرايـة
هذي قصيد الحدس والفراسة		نـافعـة لصـاحب السيـاسـة
يعرف منهـــــا كل مستسرّ		في الناس من ذي صـالح وشرّ
وأي جنس فيهم النجـــابـــة		والرأي والتحريف والإصابة
وأيهم يرغب في الســـــداد		ويقتنى للمهن الشـــــداد
وأيهم في طبعـــه شراســـة		وأيهم ليس لـــه ريـــاســـة
ومن يكون صالحاً للخـدمـة		ومن لـــه عـــزيـــة وهمـــة
وعلم مـــــا أثّرت البـــلاد		في طبعهم ومـالـه استفـادوا
فافهم مقـالي فهو عين الرشـد		إن كنت تبغي بغيتي وقصـدي

ذكر العرب

خير البرايـا والأنـام العرب		كـذلـك قـال العـالم المجرب
طـابوا فروعاً وزكـوا أصولاً		لأنهم لم يلـــدوا مجهـــولا
ونـــزلـــوا نجـداً وأرض نجـد		سليمـــة من كل طبـــع مرد

فسلموا من شرة العراق | وغلظة الشآم والرستاق
ففيهم العزة والحمية | والشيمة الطاهرة الزكية
كراهة الغدر وبذل الجود | والطعن بالمثقف الأملود
وفيهم الخداع والعداوة | والشر والإرهاب والقساوة
وفيهم نجابة الأولاد | وعندهم فضائل الأمجاد
رعاية الجار وحق الضيف | موجودة فيهم وضرب السيف
وفيهم تراحم وعطف | وفيهم عتب وفيهم عنف
أمنيتهم ليس لها مماثل | كما الخؤون ما له معادل

ذكر الروم

والروم فيهم أدب وظرف | وغلمة ونغمة ولطف
وفيهم العقول والألباب | وفيهم الآراء والصواب
وفيهم فوارس الشجاعة | والعلم والحكمة والصناعه
وفيهم اللذة والتمتع | لكنهم ما فيهم تصنع
وفيهم البخل وذل النفس | وفيهم الفهم وصدق الحدس
لكل شيء يصلح الغلام | منهم وهذا الشرف التمام

ذكر الفرنج

كذلك الفرنج شر الأمم | في غلظ الطبع وخبث الشيم
أبخل من براه رب الناس | من سائر الضروب والأجناس
لكنهم أبطال يوم الحرب | وأعمل الخلق بحد القضب
وعندهم سياسة قليلة | وحكمة لكنها ضئيلة
وفيهم رشاقة القدود | وحمرة الوجنات والخدود

ذكر البربر

أنجب أجناس الرقيق البربر　　لاسيما الجنس اللطيف الأصفر
للوطء والأولاد والبيوت　　يختزن لا للكد والتعنيت
نعم وفيهم للغناء طبع　　وللعلوم الرائقات جمع
والكيس والظرف لهم شعار　　فاخترهم فجنسهم مختار
وفيهم سوء وخبث دخلة　　وعندهم بخل وفيهم خلّة

ذكر بغداد

وعند بغداد اعتدال تام　　في أرضها ليس له اكتتام
مولودها أفهم كل ناطق　　بالعلم والآداب والخلائق
وعندهم كيس وفضل شامل　　لكنه يشوبه مخائل
وفيهم عجب وتيه وصلف　　ودين كل ما حووه لطف
وعندهم سوء وفسق زائد　　وفطنة لكنها مكائد
قد جبلوا على السرور والطرب
والسعي بين الناس بالأمر العجب
ليس لهم عهد ولا ميثاق　　خُصّ بهذا الخلق العراق

ذكر حلب

وحلب خزانة الذكاء　　وموطن العفة والحياء
طالعها للغرباء سعد　　وهي لمن فيها شقاء وكد
لكنها تعطي دفين العلم　　لأهلها من بعد لطف الفهم

لكنهــا نتيجــة التــلاحي ومــوطن المــواء والكفـــاح
والعصبيـــات لــديهم وافرة وعلقـة الحـذق عليهم ظـاهرة

ذكر حمص

وعنــد حمص كل أمر معجب من نجـــدة وفطنـــة وأدب
لكنهـــا منزلـــة الرقـــاعـــة ومــوطن الخفـــة والفراغـــة
وفيهم الحـــدة والبســـالـــة وفيهم القــوة والجهـــالـــة

ذكر الحجاز

وفي الحجـــاز العلم والـــذكاء واللطف والنجـــدة والعــزاء
وفيهم دمـــاثـــة الأخـــلاق والبأس يوم الخلف والشقـاق
وفيهم الغصب وسلب المـــال والســوء والمكر على الرجــال
ولهم وداد ولهم جمـــــــال وفيهم الإعطـــاء والإفضـــال
وفيهم ميــل إلى اللـــــذات والعشـق والغنـاء والفرحـات

وهكذا نستشف من خلال هذه القصائد الصغيرة التي تتضمنها الأرجوزة لوناً من ألوان الأدب الجغرافي اقتصر على الناحية النفسية والطباع السائدة ، ولكنها لا يجوز أن تعتبر مسلمات نهائية ، فالعادات والقيم تتبدل بتبدل الظروف والأوضاع المادية والاجتماعية والسياسية ولاسيما الدينية .

ولا تزال الجغرافية النفسية من البحوث شبه السرية التي تكتب لحساب دوائر وزارة الخارجية في الدول العظمى بقصد التعامل مع الدول وشعوبها ، ولاسيما الضرب على الوتر العاطفي في المراسلات وحتى في العلاقات الدقيقة . ويروى عن الرسول الكريم قوله : إنما أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم .

ابنُ مَاجِد

(٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ م ؟ ـ ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ؟)

هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي ابن أبي الركائب النجدي .

ولد بجُلفار على الساحل الجنوبي من الخليج العربي حيث تقوم إمارة رأس الخيمة الحالية . ونجهل عام ميلاده أو عام وفاته بوجه الدقة . واستناداً إلى تاريخ تأليفه مصنفاته نجد أن أوج نشاطه يقع في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وهو يذكر في إحداها أن وراءه تجربة أربعين عاماً في الملاحة مما يقودنا للافتراض بأن ميلاده يرجع إلى السنوات الثلاثينيات من القرن المذكور . ومن هذا يتبين أن إرشاده لسفن فاسكو دوغاما كان في أواخر أعماله الملاحية الكبرى .

وينحدر ابن ماجد من صلب أسرة انصرف أفرادها لقيادة السفن . فكان والده من قبله بحاراً ماهراً ، كما كان جده متمكناً من علم البحر ، مالكاً لناصيته ، وخلّفا اسميهما في عالم الملاحة وفي الأدب بل في الأسطورة أيضاً . وهكذا تلقن ابن ماجد هذا الفن كابراً عن كابر فكان جديراً بالاسم الذي أطلقه عليه معاصروه ، ومن خلفهم حينما سموه بأسد البحار الهائج . وكان من عادة البحارة حين يخرجون من البحر الأحمر إلى مياه المحيط الهندي يقرؤون الفاتحة زيادة في شرف الشيخ ابن ماجد ، وظل هذا التقليد متوارثاً عند الملاحين العرب حتى منتصف القرن الماضي على وجه التقريب .

وهو يستشهد على صحة علم والده بحادثة جرت له سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م ، حيث نجا هو ومن معه في السفينة من الهلاك بفضل ما أودعه والده أرجوزته المشهورة (بالحجازية) التي تزيد عن ألف بيت ، من علم الملاحة على سواحل البحر الأحمر . ثم يقول ابن ماجد : وكانت أرجوزة الوالد خيراً لي من جميع ميراثه في ذلك المكان .

ويبدو أن ملاحنا حصل على بعض العلوم في صغره ، واطلع على كثير من الكتب في فنون مختلفة ، وأفاد منها في مصنفاته ، ومن هذه الكتب معرّب المجسطي البطليموسي ، وكتب البتّاني وأبي حنيفة الدينوري وكتاب المشترك لياقوت الحموي وكتب ابن سعيد وابن حوقل .

وقد بلغ في علم الفلك وفن الملاحة ومسالك البحار ومعرفة الأقوام ما لم يبلغه غيره ممن تقدمه أو عاصره أو لحق به ، وخلّف لنا في هذا كله قصائد وأراجيز عرفنا أسماء أكثر من خمسة وثلاثين منها ، وسلم لنا منها خمسة وعشرون وكتاباً واحداً[1] . وقد أخرجها ابن ماجد من عام ١٤٦٢ إلى ١٤٩٠ م ، وكان أهمها وآخرها (كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) الذي اشتمل على معظم المعلومات النظرية والعملية التي تهم الملاحين في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي وفي بحر الصين . وقد جمع فيه خبراته الكثيرة التي اكتسبها عن هذه البحار وأعماقها وأرصفة المرجان فيها وجزرها وموانيها ورياحها التي تهب عليها إلى غير ذلك من الأمور التي تهم الملاحين . وقد نشر غابريال فران Ferrand في باريس عام ١٩٢١ كتاب الفوائد مصوّراً في مجلدين مع مؤلفات سليمان المهري . وقد تكشف لنا الأيام المقبلة عن تصانيف أخرى خطتها يراعته ولم نطلع عليها بعد . ومما يحز في النفس أن هذه التصانيف التي أورثنا علمه فيها ، لم يطبع العرب منها شيئاً باستثناء كتاب (العلوم البحرية عند العرب) تحقيق وتحليل إبراهيم خوري وعزة حسن ، الذي صدر في جملة مطبوعات اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م .

وقد عني عدد من المستشرقين بدراسة آثاره العلمية ، ففضلاً عن غابريال فران الذي سبق ذكره ، اهتم بدراسته كل من شوموفسكي ، وكراتشكوفسكي ودومومبين ودوسوسور السويسري .

واهتمام هؤلاء بدراسته لا تعود لقيمته العلمية فحسب ، وإنما لعلاقته بحادثة حاسمة في تاريخ الشرق والغرب ، هذه الحادثة هي قيام ابن ماجد بإرشاد الملاحين البرتغال ورئيسهم فاسكو دو غاما سنة ١٤٩٨ على الطريق التي تصل إفريقية الشرقية بالهند ، وتوطّئ للبرتغاليين استعمار سواحل جزيرة العرب وشطراً من بلاد الهند بعد أن رست مراكبهم في قاليقوط سنة ١٤٩٨ ، مما أتاح لهم الاستغناء عن طريق البحر الأبيض المتوسط وبلاد المشرق العربية مما أدى إلى إنزال ضربة قاصمة على اقتصاديات المنطقة كلها .

ونجد ذلك فيما كتبه بحارة فاسكو دوغاما ، وهم معه على السفينة في طريقهم إلى الهند ، وفيما ذكره المؤرخون البرتغاليون الذين سردوا لنا في القرن السادس عشر أخبار هذه الفترة .

ويذكر فرنانيو لويتز دوكاستانهيدا في كتابه (تاريخ كشف البرتغال للهند وفتحهم لها) أن فاسكو دوغاما وصل إلى مالندي ، وهي مدينة تقع على الساحل شرقي إفريقية بالقرب من موقع ممباسا الحالية ، في ١٥ أذار من عام ١٤٩٨ وأرسى في مينائها ، فزاره أحد خواص ملك مالندي ، فاحتجزه

---

(١) انظر كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، ص ٧ ، ٨ ، ٩ . دمشق ١٣٩٠ هـ .

فاسكو دوغاما ، ولم يطلقه إلا بعد أن أرسل ذلك الملك إلى السفينة البرتغالية نوتياً من كجرات اسمه (كاناكا) يدله على طريق الهند ، فأطلق دوغاما أسيره وأقلع بسفينته مع الدليل ...[٢] .

ويقول خوانيو دوباروس في قصة طويلة : صعد بعض الهنادكة إلى سفينة فاسكو دوغاما الراسية في ميناء ملندي وكان معهم مسلم من كجرات اسمه (ماليوكان) . فأحب هذا المسلم أن يستجيب إلى طلب ملك ملندي ، وينْعَمَ برفقة دوغاما وبحارته . ورضي أن يذهب معهم فيدلهم على طريق الهند . وكان دوغاما قد دهش لسعة علم الملاح المسلم عندما أراه خريطة الساحل الهندي كله وعليها خطوط الطول والعرض بتفصيل ... ثم دعا دوغاما الملاح المسلم ليشاهد الأسطرلاب الكبير (شكل ٢٣) الذي كان يحمله على سفينته ، وآلات فلكية أخرى ، فلم يعجب المسلم لما رأى ، وأنبأ دوغاما أن للملاحين العرب في البحر الأحمر آلات متقنة مصنوعة على غير مثال ما بيد البرتغال ... ثم أطلعه على آلة له مؤلفة من ثلاث لوحات ... فلما عرف دوغاما قيمة هذا الكنز الذي ظفر به أحب الاحتفاظ بهذا (المعلم) المسلم وأقلع متوجهاً إلى الهند في ٢٤ من شهر نيسان ، فجاز الخليج الكبير وطوله ٦٠٠ فرسخ في اثنين وعشرين يوماً ، دون أن يلقى في طريقه عقبة أو مشقة ، ثم أرسى دوغاما في كاليكوت وبعث بـ (ماليوكانا) ليخبر ملك الناحية بقدم الأسطول البرتغالي .

وكلمة ماليمو تعني معلّم وقد حرفها عجز لسان هؤلاء الفرنجة عن نطقها العربي الصحيح فليست العين من أبجديتهم أما (كانا) أو (كاناكا) فهي كلمة سنسكريتية انتقلت محرفة إلى لغة التامول ، وكان معناها الفلكي الرياضي الكاتب .

فهل من مصدر يعيننا على معرفة اسمه الحقيقي ؟ نعم إنه كتاب عربي لا يزال إلى اليوم مخطوطاً واسمه : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ومؤلفه هو قطب الدين النهروالي (١٥١١ ـ ١٥٨٢) وقد نص علينا حديث هذا الكشف فقال ما خلاصته :

« وقع في أول القرن العاشر الهجري أي بعد عام ١٤٩٥ م من الحوادث الفوادح النوادر دخول البرتغال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر ، ويلجون في الظلمات ، ويمرون خلف جبال القُمْر[٣] ، ويصلون إلى المشرق ، ويمرون بموضع

---

(٢) إن معظم عناصر هذا البحث مقتبسة من محاضرة الدكتور عبد الهادي هاشم عن ابن ماجد التي ألقاها في الكويت عام ١٩٥٩ وعنوانها (ليث البحر أحمد بن ماجد) .

(٣) جبال القمر هي الجبال التي كان يقول جغرافيو العرب أن نهر النيل ينبع منها ، ولا يجوز خلط هذا الاسم بجزر القُمْر وهي جزر عربية تقع بين ساحل تانزانيا ومدغسكر ويسكنها قرابة ربع مليون عربي وتؤلف سياسياً إحدى المقاطعات الفرنسية لما وراء البحار . وقد استقلت في ١٩٧٤ وتحاول الانتساب للجامعة العربية .



اسطرلاب اسلامي

القرن الخامس

الشكل (٢٣)

قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل[٤] ، والجانب الثاني بحر الظلمات ، في مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب (نوع من السفن) إلى الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلّهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحَبَهُ كبير الفرنج ، وكان يقال له الأملندي ، أي أمير البحر ، وعاشره في السُكْر فعلمه الطريق في حال سُكْره ، قال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند ، وبنوْا في كُوه[٥] من بلاد الدكان قلعة يسمونها كوتا ، ثم أخذوا هرموز وتقووا بها ، وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال ، فساروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً . ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعمَّ أذاهم على المسافرين » .

وعلى كل سواء صحت رواية سكر ابن ماجد أم لم تصح ، فقد اقترف ابن ماجد هذا الجرم ، وقد يكون فعل ذلك غير حاسب للعواقب حساباً . ولكنه سرعان ما ندم على ما اقترفت يداه عندما عرف أخلاق هؤلاء الفرنجة عن كثب ، واستشف ما سيلقاه قومه منهم . وفي أشعاره ما يدل على معرفته بطوية هؤلاء الفرنجة ، وكرهه لهم وخشيته مما يحل بالبلاد منهم ، واستحواذ القلق والاضطراب على نفسه ، وتأنيب ضميره له وفزعه مما سينتج عن تمكينه للفرنجة من رقاب أبناء وطنه ، فهو يسرد لنا في أرجوزته السفالية ما فعل الفرنجة عندما ساموا ساحل إفريقية ثم كيف انساحوا في البلاد ويقول :

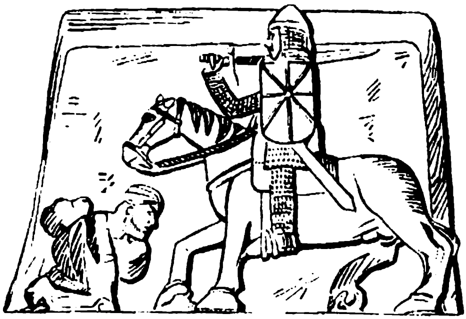
وساحل البحر وكل جزره	فحكمها للبرتغال ... الكفرهْ
والبرتغالي حكم الجميعا	كُفيت كل الشر والتصديعا
وجاء لكاليكوت خذ ذي الفائدة	لعام تسعماية وسنة زائدة
وباع فيها واشترى وحكما	والسامري برطله وظلما
وسار فيها مبغضي الإسلام	والناس في خوف وفي اهتمام
وخبرتي بحملة الفرنجي	من جانب السودان شطُّ اللجي
وهو الذي قد قهر المغاربة	وأندلسٌ في حكمه مناسبه

---

(٤) ويقصد به جبل الطاولة Table المشرف على مدينة الكاب في رأس الرجاء الصالح .

(٥) غوا الحالية التي لم يتخل عنها البرتغاليون إلا عنوةً عام ١٩٦١ .

وصفتهم حقاً وهذا جهدي ولست أدري ما يكون بعدي
وبينهم وبين أهل الهند من العلاج ومن التعدي ...

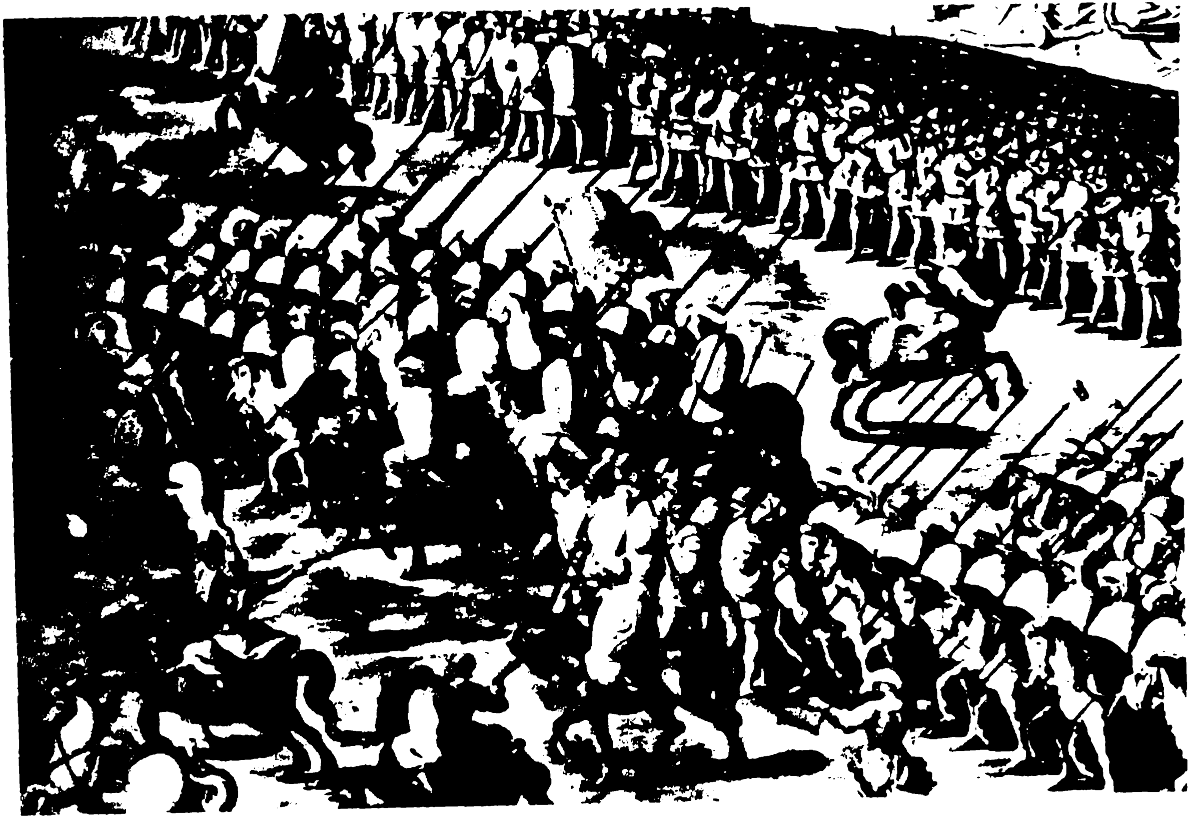


النصرانية في حربها ضد المسلمين في أسبانيا في القرن الثاني عشر

ثم يصف أخلاق أولئك الفرنجة وقد عرفهم وخالطهم فيقول :

عندهم السرقة قد سنّوها ما بينهم فليس ينكروها
ويشربون الخمر في الأسواق ولا يصلّون على الإطلاق
وينقضون العهد والهداية يسعوا لها بالدخْل والأذيّة
صنعتهم الكذب والمطال في المشترى والبيع والأشغال

وكانت النتائج فوق ما يتصور الفكر ، وكانت الكارثة التي نزلت بالبلاد العربية والآسيوية من أعظم الكوارث التي حلت بها في تاريخها . كان من ذلك أن جازى البرتغاليون جميل ابن ماجد أن احتلوا من بعد بلده والبلاد المعاقبة والمجاورة له : ثم استولوا على شطر من الهند واستطالوا على الجزيرة العربية ، واحتلوا أجزاء كثيرة من شاطئها الجنوبي والشرقي كالبحرين والقطيف .



جزء من لوحة في الأسكوريال خلدت فيها المعارك بين العرب والإسبان

يقول الشاعر أحمد شوقي في سينيته الأندلسية المشهورة :

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عَرْك من الزمان وخَرْس
فتراها تقول : راية جيش ... باد بالأمس بين أسر وحَسْ
ومفاتيحها مقاليد مُلْك ... باعها الوارث المُضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صُمّْ ... من حفاظ ، كموكب الدفن خُرْسِ
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت ... تحت آبائهم هي العرش أمْسِ
رُبَّ بانٍ لهادم ، وجموع ... لِمُشِتٍّ ، ومحسنٍ لِمُخسٍ

وفي الأرجوزة السفالية المنشورة حديثاً . وهي نسبة إلى سفالة من شواطئ إفريقية الشرقية ، بيان للمجاري وتحديد للقياسات من مالابار إلى كنكن وجوزرات (كجرات)[٦] والسند والأطواح (جنوبي الجزيرة الشرقي) إلى السيفْ الطويل ، وفي هذه الأرجوزة وصف للساحل الإفريقي الشرقي وما فيه من مدن كرأس غردافوي ومقديشو ومنبسّة وزنجبار . وفي أرجوزة المعلقية (مالاقا اليوم) وصف الطريق بين الهند وسيلان وجاوه والفور والصين .

ويقول في مقدمة أرجوزة (حاوية الاختصار في أصول علم البحار) :

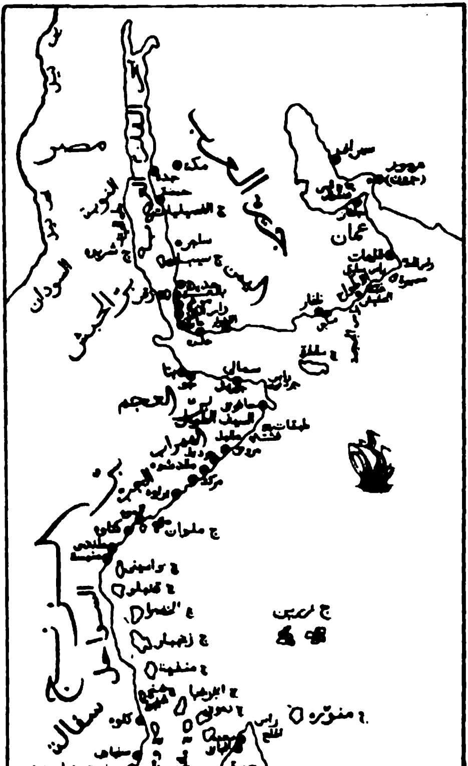
« كان التصنيف لمثل هذه الأرجوزة ، زكاة الأفهام ، وتجديد سر درسته الليالي والأيام ... ووضعت فيها من الألفاظ الغريبة ، والحكمة الربانية ، بمشيئة الله تعالى ، ما أرجو به انشراح صدور ذوي الألباب ، عندما تدْهاهم شدّة أو مصاب ، صفيتها مما سلك في عصري من الأراجيز المصنفة ، والرهمانجات[٧] الواسعة المؤلفة ... تصنيف بقية السلف ، وعمدة الخلف ، المعلم الشهير أحمد بن ماجد » .

وفي الألف بيت التي تؤلف فصول هذه الأرجوزة الأحد عشر ، معلومات ثمينة جمة تتعلق بمنازل القمر ومهاب الرياح وبالتقويم العربي والرومي والقبطي والفارسي . وبالطريق البحرية من جزيرة

---

(٦) كجرات عاصمتها حيدر أباد وتقابل ساحل الملابار الهندي .

(٧) كتب طرق البحار .



أخذت هذه الخريطة نقلاً عن كتاب «ثلاث راهمانجات المجهولة» للملاح العربي أحمد بن ماجد

سومطرة وبلاد الصين وجزيرة الفور (فورموزا) وجزر الفال (لاكديف) وجزيرة مدغسكر ، وبلاد اليمن والحبش والصومال وجزيرة العرب وبعض بلاد فارس ، وتيارات البحر المحيط الممتد بين بلاد الزنج والهند والصين .

النص الأول

يعتز ابن ماجد بقومه البحارة البواسل الذين لم تكن براعتهم في فن الحروب البحرية بأقل من مهارتهم في التجارة والملاحة الطويلة في عرض البحر والمحيطات :

رعى الله جلفاراً ومن قد نشا بها — وأسقى ثراها واكف متتابع
بها من أسود البحر كلُّ مجرِّب — وفارس يمٍّ في الشدائد بارع
يسرك في الأوصاف إن وصفت له — جذور جسور في المهمات شاجع
إذا قام في شيء تُرَجِّي كما له — يقوم ولم يمنعه عن ذاك مانع

ويقول مبيناً خبرة والده وجده في فن قيادة السفن وعلم البحار :

« وقد كان جدّي محققاً فيه مدققاً ، وزاد عليه الوالد ... بالتجريب والتكرار ، وفاق علمُه علم أبيه ، فلما جاء زماننا هذا وكررنا قرابة من أربعين سنة حررنا وقدرنا علم الرجلين النادرين .. وكان الوالد ... يسميه الربابين ربان البرّين » .

ونقتطف من كتابه هذه الفقرة وهي عنوان للفائدة العاشرة التي تتكلم عن : « الجزر الكبار المشهورات المعمورات وهي جزيرة العرب وجزيرة القمر وهي مدكسكر وشمطرة وجاوة والجور (فورموزا) وسيلان وزنجبار والبحرين وجزيرة ابن جاوان وسقطرة » .

ويصف البحرين قائلاً : « البحرين وتسمى (أوال) وفيها ثلاثمئة وستون قرية وفيها الماء الحالي (العذب) ، من جملة جوانبها وحوالها معدن اللؤلؤ . وعدة جزر كلها معادن اللؤلؤ ، يأوي إليها قريب ألف مركب ، وفيها جملة

قبـائل من العرب وجملـة تجـار . وفيهـا جملـة من النخيل المثمرات والخيل والإبـل والأغنام ، وفيها عيون جارية ورمان وتين وأترج وهي غاية في العمارة » .

ويقول عن جزيرة ابن جاوان أو بريخيت : « مما يلي الهراميز وفيها خمسئـة حـائـك يحـوكـون الحرير ويسكنهـا العرب والعجم وفيهـا الفـواكـه والكروم والبطيخ » .

(مواسم السفر)

اعلم أيها الطالب أنّا شرحنا هذا العلم المحتـاج إليـه ، ولم نترك منـه إلا (مـالا عليـه عمـدة ، فيجب أن نـذكر مـواسم السفر التي لا يستـوي السفر إلاّ بهـا ، لأن فوات الموسم) وتقديمه وتأخيره داع إلى ما لا خير فيه .

(الخروج من بر العرب)

فأولاً نبـدأ في الخروج من بر العرب ، أعني اليمن (وجـدّة) ومـا يليهـا مثل باب المندب ، وبر الزيالع[٨] والتهـائم[٩] ، ومـا يتعلق بهـا في أيـام مبتـدأ الشمال . وكلهم معلقون بعضهم ببعض ، وكلهم مـوسمهم في الأصـل في البحر الكبير واحـد ، يخرجون في أول ريح الدبور وفي آخره . فأوله مئـة وسبعون في تلـك الأمـاكن ، وهي أول الحايـات الخـالصـة إلى هراميز وَقُلَهَـات وأطرافهـا ، وقـد يخـالف عليهم الريح في بعض الأحيـان ، وعنـدهم نفس في الموسم لمن يجـاري البر لهرموز . وأمـا الهند فلا . وأما الذي يخرج في أول المئتين ببرّ قلهات وهراميز ، فهو يلج خصوصـاً في العيكار عند العدة الخفيفة ، ولا خير فيما بعد ذلك .

---

(٨) نسبة إلى زيلع على ساحل الصومال الشمالي .

(٩) نسبة إلى تهامة .

وأما خير الخروج من باب المندب وما يليه مثل الحديدة وعدن ، ففي أول مئة وثمانين النيروز ، وأما صاحب مليبار وكُنْكَن ، إذا خرج معهم ، فيغلق عليه بحر الهند ، وكثرت أمطاره ، وصلبت أرياحه وعلقت خيراته . وأما الجوزراتي فيلحق أن يخرج بحاية القران من اليمن ويخرج في مئة وخمسين لقلة أمطارها ، يفلت فلتات ، يحصل له الشمال في اليمن ، فيخرج بها من الخليج البربري إلى الشحر وفرتك ونواحيها ، ولو حصلت له شمال يومين أو ثلاثاً في مئة وعشرين إلى الشحر ، ولَجَ إلى الهند ، والذي يتوّه في برّ العرب من المُخا ، وربما يتوّه إلا في الشحر لأنها بارزة عن عسر الأزيب وطارقة للكوس ، يولج الهند قبل غلق البحر الهندي ، إذا خرج منها في مئة وعشر من النيروز وما قاربه .

فهذه مواسم أول ريح الكوس ، ويسمى أولها غلق الموسم ، وأخرها تسمّيه المعالمة مفتاح البحر أول الموسم . فافهم أيها المعلم هذه الإشارات بحسب العبارة المختصرة .

الحَسَن بْنُ مُحَمَّد الوَزَّان الزيَّاتِي

(ليون الإفريقي)

(٨٩٤ هـ / ١٤٨٦ م - ٩٥٨ هـ / ١٥٤٦ ؟)

لم يكن الحسن بن محمد الوزان الزياتي ، الذي نقلنا كتابه لأول مرة إلى اللغة العربية سنة ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م ، أقول لم تكن شخصيته غير مرموقة في الأوساط العلمية الأوروبية - وذلك في منتصف القرن العاشر الهجري (١٦ م) - بقدر ما ظل مجهولاً بصورة تكاد تكون تامة في العالمين العربي والإسلامي ، حتى أواسط القرن الثالث عشر هجري (١٩ م) .

فقد نشر راموزيو كتابه (وصف إفريقية) سنة ١٥٥٠ م (٩٥٧ هـ) في مدينة البندقية ، وبعد فترة لا تزيد عن ٢٤ عاماً من فراغ الحسن الوزان من تأليفه باللغة الإيطالية ، وذلك في جملة قصص رحلات جغرافية ، وأهداه لشخصية علمية سياسية كبيرة هو جيروم فراكاستور ، وأعاد راموزيو نشره للمرة الرابعة عام ١٥٥٨ بعد نجاح منقطع النظير في ذلك العصر . وفي سنة ١٥٥٥ ظهرت الترجمة الفرنسية بجهود تامبورال . وبعد فترة وجيزة تمت ترجمته إلى اللاتينية بقلم جان فلوريان سنة ١٥٥٦ (٩٦٦ هـ) في مدينة انفرس البلجيكية . وفي سنة ١٦٠٠ ظهرت ترجمة إنكليزية على يد جون بوري . وظهرت ترجمة هولندية سنة ١٦٦٥ ، وفي ١٨٠٥ تمت ترجمته إلى الألمانية ، وفي ١٨٩٦ صدرت طبعة إيطالية حديثة له ، وأعاد براون نشره بالإنكليزية للمرة الثانية اعتماداً على طبعة بوري سنة ١٨٩٦ ، كي يستأنف ش . شيفر نشره بالفرنسية في باريس ، في سنتي ١٨٩٦ و ١٨٩٨ .

هذا وقد خصصت له الأستاذة كودازي مقالة ممتازة في الموسوعة الإيطالية للعلوم والآداب والفنون الصادرة في روما سنة ١٩٣٣ . كما كان للمستشرق الإيطالي آلدو ميالي الفضل في إبراز عروبة (يوحنا الغرناطي) وإسلامه في كتابه(العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) . هذا وقد كرس له المستشرق الفرنسي ماسينيون دراسة مستفيضة ضمن بحثه عن تاريخ المغرب المعنون (المملكة المغربية في أوائل سني القرن السادس عشر ، لوحة جغرافية استناداً إلى ليون الإفريقي) . وفي عام ١٩٥٢ ظهرت في مدريد الترجمة الإسبانية ، وفي الفترة نفسها أفرد له المستشرق الروسي أ . كراتشكوفسكي بحثاً طيباً في مؤلفه الضخم (الأدب الجغرافي عند العرب) .

وبعد نفاذ الطبعة الفرنسية التي نشرها شيفر ، قام الطبيب الجنرال الفرنسي أ . إيبولار ، الذي قضى شطراً كبيراً من حياته في أقطار المغرب العربي ، ولاسيا في المملكة المغربية ، قام بتحقيق كتاب الوزان مع شروح إضافية ، ولكن المنية عاجلته سنة ١٩٤٩ وحالت دون نشر مخطوطه ، إلى أن حصل لفيف من أصدقائه على المخطوط المذكور وعملوا على طباعته مع إضافات لا يستهان بها على الشروح والتعليق ، وذلك سنة ١٩٥٦ ، في جزأين ، وهذه النسخة هي التي اعتمدناها في الترجمة وذلك بمبادرة من كلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول في شهر صفر ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩) بالرياض .

أما التعريف بالحسن الوزان في الأوساط العلمية العربية فقد جاء ـ ويا للأسف ـ متأخراً جداً . فقد ورد ذكره لأول مرة في مجلة المقتطف المصرية ضمن (بحث الجغرافية وجغرافيي الإسلام) ضمن خطبة ألقاها سليم ميخائيل شحادة الغزيري ، في الجمع العلمي الشرقي ، في آذار ١٨٨٣ م ، كما خصص له الباحث المغربي محمد المهدي الحجوي ، مقالة بالفرنسية نشرت في مجلة هسبيريس ، الصادرة في باريس ، مثلما تعرض له الأستاذ عزيز بن عبد الله في كتابه (الطب والأطباء في المغرب) المطبوع سنة ١٩٦٠ ، وفي سنة ١٩٦٢ كتب محمد عبد الله عنان مقالة عن (الحسن الوزان أو ليون الإفريقي) في مجلة العربي الكويتية ، وبعد عشرة أعوام عادت المجلة ذاتها فنشرت مقالة ثانية تحت عنوان (الحسن بن الوزان ، رحالة عربي ، ومصنف أجنبي) للدكتور جمال زكريا قاسم .

وكتب زميلنا الدكتور مصطفى مسعد في سنة ١٩٧٠ ، بحثاً في مجلة جامعة القاهرة ، تحت عنوان (الحسن بن محمد الوزان (ليو الإفريقي) أضواء على رحلته في بلاد السودان ومصر) . وفي ١٩٧٢ كتب الدكتور الطبيب شوكت الشطي ، المتوفى عام ١٣٩٨ هـ ، بحثاً يحمل عنوان (نظرات إلى ثقافة العرب الطبية في الحضارة الأندلسية) خصصه للحسن الوزان ، وأخيراً قام محمد أحمد زوام بكتابة رسالة ماجستير في الجغرافية عن الحسن الوزان وناقشها في عام ١٩٧٨ .

ويكفي أن نورد هنا بعض الشواهد من كتابات العلماء الأوروبيين للتدليل على قيمة كتاب الوزان على الصعيد العلمي ، « إذ ظل كتابه ـ حسب قول توماس ديكين ـ المرجع العمدة طيلة قرنين من الزمن في أوروبا . في كل ما يختص بالأقطار العربية الإفريقية ودول شعوب أقطار الساحل ، أي الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى » ويقول هارتمان الألماني بعد قرابة قرنين من الزمن من ظهور كتابه : « إن ما يتصف به مصنّفه من ميزات أمر معروف للجميع ، ولن أتردد في تكرار ما قاله البحاثة قبلي من : « أن كتابه كنز من الذهب ولولا وجوده بين يديّ لخفيت عليّ أشياء كثيرة » ، ويقول شيفر في أواخر القرن الماضي : « إن ما يورده ليون الإفريقي من تفاصيل في وصف المغرب تتميز بالدقة الشديدة ، بل لقد أثبتت الأبحاث الأخيرة صدق قوله حتى في المواضيع التي أثارت الشك فيها مضى » .

هذا ولا يزال الكثير من جوانب حياة الحسن الوزان غامضاً ، ولا سيما عن فترة إقامته في إيطاليا ، وعلى الأخص بعد عودته إلى تونس . فالمعروف أن ولادته كانت سنة ٨٩٤ هـ في غرناطة ، وأنه سقط بالأسر عام ٩٢٦ هـ (١٥١٨ م) . وكان عمره حينذاك في حدود ٣٢ سنة عندما كان عائداً من رحلته الأخيرة من الإسكندرية إلى المغرب إذ سقط أسيراً في قبضة قرصان إيطاليين تجاه ساحل جزيرة جربة التونسية .



بعد سقوط الأندلس في ١٤٩٢ أجبر من بقي من المسلمين هناك على اعتناق النصرانية . ويمثل هذا المنظر المؤثر مجموعة من النساء المسلمات يقفن في صفوف بانتظار دورهن في التعميد الإجباري وقد بدت عليهن آثار المحنة النفسية عن الرسم الموجود في المصلى الملكي في غرناطة . الدكتور عبدو حمامله



روما : قصر سانتانج حيث عاش الحسن بن محمد الوزان مدة عام كامل اقامة جبرية قبل اجباره على التنصر



تعميد مسلمي غرناطة وإجبارهم على اعتناق النصرانية ، صورة من كاتدرائية غرناطة

ولسبب ما لا نعلمه لم يفتد الوزان بالمال ، وقد يكون سبب ذلك أن القراصنة رأوا فيه أسيراً غير عادي يمتاز بعلمه ، فنقلوه إلى نابولي ومنها إلى روما ، وقدموه هدية إلى البابا ، وهو يومئذ ليون العاشر الذي كان من حماة العلوم والآداب ، وقد أنس البابا في أسيره قيمة علمية خاصة ، فعتقه وقرر له معاشاً سخياً حتى لا يفكر في الهرب وناشده البابا اعتناق النصرانية ، وحضر حفلة تنصيره شبيناً له ، وأطلق عليه اسمه جيوفاني ليوني أي يوحنا الأسد وكنى نفسه بالغرناطي وعرف واشتهر باسم ليون الإفريقي .

وعاش ليون في روما حياة علمية وأقام صلات ودية مع العلماء ، ودرّس العربية في البلاط البابوي ، وقد شجعه جوه العلمي على الاضطلاع بعدد من المشاريع العلمية ، وأنه ألف كتابه « وصف



أبو عبد الله محمد .. آخر ملوك الأندلس ..
عن الصورة التي كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة

إفريقية » لقرائه الطليان سنة ١٥٢٦ ، أي بعد ثمانية أعوام من الإقامة في إيطاليا . درس خلالها الإيطالية واللاتينية . وقرأ كتاب بلين المؤرخ الروماني الشهير . وألمّ بالثقافة الأوربية التي كانت تعيش « عصر النهضة » . ويبدو أن تعلمه الإيطالية واللاتينية لم يكن عسيراً عليه ، وإذ يرى كراتشكوفسكي أنه كان يعرف اللغة الإسبانية التي كانت بالنسبة له لغة مفهومة ، لأنه أمضى طفولته في غرناطة التي غادرها بعد سقوطها بأيدي الملكيين الكاثوليكيين سنة ١٤٩٢ .

هذا كما تشير أكثر المصادر التي أوردناها إلى أنه استطاع الإفلات من إيطاليا بعد عتقه ، بين عامي ١٥٢٨ و ١٥٣٠ إلى تونس ، بعد إقامة في الغربة امتدت إلى عشرة أو اثني عشر عاماً . ويدعم هذه الرواية كاتب معاصر اسمه فيدمانشتات الذي يقول : إن الوزان مات في تونس سنة ٩٤٤ هـ ، وعمره خمسون عاماً . ويقول الدوميالي : « إن إقامة الحسن الوزان معزل عن محيطه الأصلي كانت بلا ريب ثقيلة على نفسه ، والواقع أنه عاد إلى تونس سنة ١٥٥٠ م ليحظى بالوفاة في أرض الإسلام المقدسة



المصلّى الملكي في غرناطة . لوحة تمثل أبا عبد الله الصغير وهو يتقدم نحو الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا في يسلمهما مفتاح غرناطة في شهر كانون الثاني (يناير) ١٤٩٢



لوحة من المتحف الملكي في غرناطة تمثل أبا عبد الله الصغير مترجلاً عن جواده وقد اتجه نحو الملكين الكاثوليكيين ليسلم مفاتيح غرناطة

(عن الدكتور عبدو حتاملة)

وفي حمى دينه الحقيقي ، ونفتقد آثاره منذ ذلك الحين ، ويبدو أننا لن نعرف تاريخ وفاته » مما يدل حسب هذه الرواية على أن إقامته في إيطاليا امتدت فترة تناهز اثنين وثلاثين عاماً . أي عاد إلى تونس وعمره ٦٤ سنة تقريباً .

ويقول كراتشكوفسكي : « وعقب فراغه من تأليف كتابه بقليل ، وربما كان ذلك في عام ١٥٢٨ ، تمكن بطريقة ما من الإفلات راجعاً إلى إفريقية . وما لبث أن اطّرح المسيحية إلى دينه القديم ، وقد توفي الوزان ، على ما يبدو بتونس في عهد آخر ملوك بني حفص ، وذلك عام ١٥٥٢ » عن عمر يناهز الستين عاماً . ويرى بعض الباحثين الطليان أن أصدقاءه الكرادلة أرسلوا له مبعوثين وحاولوا إقناعه بالعودة لإيطاليا ولكن بدون طائل .

والواقع لقد كانت حياته العلمية في إيطاليا خصيبة للغاية . ففي عام ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م نجده يؤلف معجماً عبرياً عربياً لاتينياً من أجل طبيب يهودي هو يعقوب بن سيمون ، لا تزال مخطوطته

التي عثر عليها الحجوي محفوظة بمكتبة الأسكوريال ، مثلما عثرت الأستاذة كودازي على رسالة له في القياس المسطح ، وفي العاشر من آذار ١٥٢٦ أنجز تدبيج كتاب (وصف إفريقية) الذي يرجح بعض الباحثين أنه وضعه أصلاً بالعربية ، وأن الكتاب كان بحوزته عند وقوعه بالأسر .

ويقول كراتشكوفسكي : « إن مخطوطته قد وجدت طريقها إلى أحد هواة الكتب الطليان . وهو ف . بينللي ، ولكنها فقدت في الطريق إلى نابولي عند هجوم القراصنة » ويؤيد ذلك قول شيفر الذي يقول : « إن الوزان دبّج كتابه بالعربية ، ثم باللغة التوسكانية ، ونقدمها الآن بالفرنسية » .

وفي سنة ١٥٢٧ ألف باللاتينية كتاباً جامعاً في سير ثلاثين من مشاهير العرب في الفلسفة والطب ، والذي نشره هوتينغر في عام ١٦٦٤ في زوريخ ثم أعيد نشره سنة ١٧٤٦ في هامبورغ ، وكان أول سفر يقدم معلومات ذات أهمية بالنسبة لأوروبا في تاريخ تطور العلوم عند العرب . هذا كما تحوي مكتبة الأسكوريال نسخة في نحو اللغة العربية، وربما يكون قد ألّفه لتلامذته الطليان أثناء تدريسه اللغة العربية في مدينة بولونية . ويذكر لنا في عدة مناسبات كتابه (الوجيز في الشريعة الإسلامية) الذي أنجزه ولكن لم يصلنا ، مثلما نذكر لنا اعتزامه على تأليف ثلاثة مصنفات يسرد لنا فيها أوصاف الأقطار التي زارها في جزيرة العرب وآسيا الصغرى وأرمينية وبلاد أوروبا وبلاد فارس والتتر والقسطنطينية وأخرها الكتاب المخصص لإفريقية .

والحسن الوزان الذي خاض في شبابه معارك عديدة ضد البرتغاليين ، يوردها في تضاعيف كتابه ، مع جيوش بني مرين الوطاسيين ، لا يخفي كرهه للبرتغاليين والإسبان وسواهم من نصارى أوروبا الذين جعلوا ديدنهم الإغارة على ثغور أرض الإسلام مدفوعين بنزعة صليبية مقيتة ، مثلما لا يضمر مقته للأعراب الذين كانت بعض قبائلهم لا تتورع عن الانخراط في صفوف البرتغاليين ، لاسيما وهم الذين أساؤوا ، عن طريق نشرهم الفوضى والتخريب ، أيما إساءة للاقتصاد والعمران في المغرب . فقوضوا أركان الزراعة في أرياف المغرب حيثما حلّوا ، مما أدّى بصورة مباشرة لوهن ممالك المغرب ، وبالتالي لتمهيد السبيل للإسبان والبرتغال لانتزاع بقاع عديدة من أقطار المغرب مثل تونس ، التي ربطوا خيولهم في أقدس مكان فيها ، أي في جامع الزيتونة ، وطرابلس وبجاية ووهران وآزمور وأسفي ، وحيث لا يزال بعضها في أيديهم حتى هذه الساعة مثل سبتة ومليلة ولولا أن قيّض الله العثمانيين للتصدي لهم لكان تاريخ المغرب العربي وربما المشرق غيره اليوم .

والوزان ، الذي نشأ نشأة دينية طيبة وأدى فريضة الحج ، يزدري الصوفيين وأصحاب المذاهب المنشقة وما أدخلوه على الإسلام من ترّهات وبدع ، كانت نتائجها اللا أخلاقية وخيمة على المجتمع ، مثلما يهزأ بسخريته اللاذعة من المشعوذين والعرّافين والسحرة وكثيراً ما يمسك ويعف عن فضح تفاصيل حياتهم استحياءً منه وحشمة .

والخلاصة يتميز كتاب الوزان بروح نقدية وبأسلوب نستشف فيه التلاقح الثقافي الخصيب مما يضفي على مصنفه طابعاً ذا أصالة يشد القارئ إليه ، مثلما يجد فيه الجغرافي والمؤرخ مصدراً غنياً ، هذا فضلاً عن أن ترجمته عن الإيطالية إلى الفرنسية وشرحه والتعليق عليه تعتبر جميعاً نموذجاً عن فعالية روح البحث العلمي والاندفاع في الاستقصاء والتحري .

النص الأول

يقدم لنا الحسن الوزان في هذا النص لوحة تاريخية موجزة عن أوائل العرب الذين كانوا مع جيش الفتح في إفريقية الشمالية وكيف اندمجوا مع البربر المحليين وانصهروا في بوتقة واحدة ونجد في الهامش طريقة المحقق ألكسيس إيبولار في التعليق على النص وشرحه .

العرب الذين يسكنون مدن إفريقية

لقد جلب الجيش الذي بعثه الخليفة الثالث عثمان ، في عام ٢٤ للهجرة ، إلى إفريقية جالية كبيرة من العرب يبلغ عددها حوالي ثمانين ألفاً من العشائر العريقة ومن غيرها[١] .

---

(١) لا نزال نفتقر لمعلومات دقيقة عن الفتح الإسلامي لإفريقية . ومع هذا يبدو أن من المسلّم به أن الجيش الذي أرسله الخليفة عثمان إلى إفريقية عام ٢٤ هـ / ٦٤٨ م ، لم يكن يضم سوى ٢٠٠٠٠ رجلاً . وقد سبق أن قام القائد العربي عمرو بن العاص في عام ٢١ هـ ، مطلع عام ٦٤٢ م في أعقاب فتح مصر ، بغارة ناجحة على برقة ، وبعدئذ ، بعد عام واحد أو عامين أغار على منطقة طرابلس البيزنطية . ولكن الخليفة عمر بن الخطاب لم يوافقه على التوغل إلى أبعد من ذلك . لأن المحاولة كانت خطيرة للغاية . وفي عام ٦٤٦ م ، وعلى أثر اضطرابات سياسية انتابت الحكومة الإمبراطورية في القسطنطينية ، أعلن حاكم إفريقية البيزنطي ، وهو غريغوار ، استقلاله واتخذ لقب باسيلوس ، وحكم المنطقة الممتدة من طرابلس إلى طنجة متخذاً مدينة سبيطلة التونسية عاصمة له . وقد أرسل الخليفة عثمان حملة عسكرية ضد هذا الحاكم ، ونشبت معركة في صيف ٦٤٨ م انتهت بهزيمة الجيش البيزنطي ومقتل غريغوار ، وهي معركة كان لها صدى بعيد في عالم النصرانية . وظلت الجيوش الإسلامية مدة خمسة عشر شهراً في هذه البلاد ثم عادت إلى المشرق حاملة معها غنائم ضخمة . ويبدو أن المسلمين لم يتركوا محلياً سوى مندوب دبلوماسي . واسترد البيزنطيون حكم إفريقية ، ولم يستأنف الخليفة معاوية اهتمامه بإفريقية إلاّ في عام ٦٦٥ م وأرسل جيشاً قوامه ١٠٠٠٠ رجل بقيادة بن حديج . وقد ظل هذا مدة خمس سنوات عند سفوح المنطقة الجبلية في إفريقية دون أن يقوم ، كما يبدو ، بأكثر من غزوات قادت لانتصارات محدودة محلية . وأخيراً في عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م حل محل هذا القائد قائد جديد هو عقبة بن نافع ، الوجه اللامع في حروب إفريقية ، مع دعم عسكري قوامه ١٠٠٠٠ جندي .

وعندما أتموا فتح بضع مناطق عادت كل الشخصيات الكبرى والنبلاء إلى جزيرة العرب . ولم يبق محلياً مع الآخرين سوى القائد العام للجيش ، الذي يدعى عقبة بن نافع ، وقد سبق لهذا أن اختط مدينة القيروان وأقام فيها تحصيناته . وقد ظل بالفعل متوجساً من أن يخونه سكان الساحل ، وأن يتلقوا بعض الدعم من جزيرة صقلية ، وتصل إليهم نجدات قد تشن عليه الحرب . وهكذا انسحب باتجاه الصحراء ، في داخل الأراضي ، مع كل الغنائم التي غنمها ، وأسس مدينة القيروان على مسافة ١٢٠ ميلاً تقريباً[٢] من قرطاج . وأعطى الأمر لزعماء الجيش والمدنيين الذين ظلوا معه بأن يقيموا في أكثر المناطق مناعة وأكثرها مواءمة للدفاع ، وأن يشيدوا فيها قلاعاً وحصوناً لم يكن لها نظائر من قبل . وقد تم تشييد كثير من هذه القلاع والحصون[٣] .

وقد أصبح العرب ، الذين ظلوا في طمأنينة ، مواطنيين في هذه البلاد واختلطوا بالأفارقة ، الذين تبنوا في ذلك العصر ، اللغة الإيطالية ، لأنهم كانوا محكومين خلال سنوات طويلة من قبل الطليان . وبنتيجة هذا الواقع ، وعلى إثر العلاقات المستمرة مع الأفارقة الذين كانوا يعيشون بينهم ، فسدت لغتهم الأصلية ، وأصبحت هذه خليطاً من كل اللهجات الإفريقية ، وهكذا انصهر

---

(٢) تقع مدينة القيروان على مسافة ١٩٢ كم من تونس .

(٣) الحقيقة هي أن سلفه معاوية بن حديج قد جعل قاعدة عملياته العسكرية عند وصوله عام ٦٦٥ م ، أي قيروانه ، كما كان يقال حينئذ ، عند حضيض جبل وسلات ، ولكن عمد عقبة ، على أثر وصوله ، إلى نقل هذا المعسكر وأقامه على مسافة بضعة كيلومترات إلى الشرق من ذلك ، في السهل الرملي حيث لا تزال تقوم القيروان الحالية ، وذلك لكي يكون في منأى عن المباغتات التي قد تصدر من المنطقة الجبلية . ولا يبدو أن عقبة قد أحرز نجاحات أكثر من سلفه . ولكن الذي منحهُ شهرته هي الغارة الرائعة التي اندفع بها حتى المحيط والسوس ملتفاً من خلف جبال الأطلس حيث لا يبدو أنه اصطدم بشدة بالقوى الإمبراطورية البيزنطية . وقد لاقي حتفه عند عودته في عام ٦٨٢ م أو ٦٨٣ م في كمين نصب له في موقع تهودة ، قرب بسكرة في الجزائر الحالية .

شعبان مختلفان وأصبحا شعباً واحداً[٤] ولكن كان كل عربي يحتفظ دائماً بعادة حفظ نسب آبائه العرب ، وكذلك كان يفعل كل بربري . وهذا أمر هام كي يستطيع كل كاتب عدل أو محرر عقد رسمي أن يسجل اسم صاحب المعاملة ، سواء أكان عربياً أم بربرياً[٥] .

النص الثاني

لقد عمل الحسن الوزان لمدة عامين في مارستان فاس ، فأضاف إلى ثقافته الطبية معلومات عملية في مجال الطب تظهر في النص الآتي ، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى اعتباره في عداد الأطباء العرب في عصره ، وإن لم يشتهر بهذه الصفة أو يمارسها مهنة .

---

(٤) على أثر موت عقبة ، اضطر العرب للانسحاب إلى برقة حيث ظلوا خمسة أعوام ، في حين أصبح الزعيم البربري كسيلة حاكماً على إفريقية . وفي عام ٦٨٧ أرسل الخليفة عبد الملك ، الذي سبق له أن اشترك في حملة عام ٦٦٥ م ، نجدات لجيش برقة كي يمكنه من تجريد حملة تأديبية ضد كسيلة . فانكسر الزعيم البربري وقتل في المعركة . ولكن اضطرت الجيوش العربية للتوقف . وحوالي العام ٦٩٣ م أراد الخليفة عبد الملك أن يحسم مشكلة إفريقية ، وذلك بانتزاع قرطاج من الإمبراطورية الرومانية في القسطنطينية وتحطيم قوة أكبر زعيمة بربرية في ذلك العصر وهي كاهنة ديا . ملكة الأوراس ، فأرسل أكبر جيش عربي بعث إلى إفريقية قوامه ٤٠٠٠٠ رجلاً تحت إمرة الحسن بن النعمان ، فاستولى هذا على قرطاج ولكن استردتها القوات الرومانية بعد عامين ، وانتهى الأمر بانهزام جيش الحسن أمام جيش الكاهنة ، واضطر للانسحاب لمدة خمسة أعوام أخرى حتى منطقة طرابلس وصحراء سيرت . وعلى إثر ذلك ، أي حوالي العام ٦٩٨ م أرسل عبد الملك نجدات جديدة . وفي هذه المرة اندحرت الكاهنة وقتلت بتاريخ ومكان لا يزالان مجهولين . وهكذا أخضع الحسن كل المنطقة وعاد إلى القيروان حوالي العام ٧٠٤ م ، بعد أن استتب له الأمر وأخضع البربر والرومان للجزية . وابتداءً من تلك الفترة استطاع العرب فعلاً أن يستقروا في بلاد البربر . ويستحيل علينا تخمين عددهم . هذا وعلى الرغم من انصهار أكثرية عرب المدن في السكان الإفريقيين ، فقد ظلت جماعات نقية منهم في مواقع مختلفة من هذه البلاد .

(٥) وهذه الإشارة تعني فقط الأصل القبلي ، بحيث لا نستطيع تحديد ما إذا كان الشخص عربياً أو بربرياً إلا بعد معرفة نسب قبيلته لأحد هذين الشعبين . وهكذا كان الحسن الزياتي ينتسب أصلاً لقبيلة زيات ، وربما كانت بربرية رغم أن أسرته كانت تسكن غرناطة ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بذلك .

أكثر الأمراض شيوعاً عند الأفارقة

من الشائع رؤية مرض القرع فوق رؤوس الأولاد الصغار وفوق رؤوس النساء البالغات. ويعانون الكثير في سبيل شفائه، كما يصاب الكثير من الرجال بآلام الرأس التي تعتورهم أحياناً دون أن يصابوا بالحمّى. وتكثر أوجاع الأسنان بصورة كبيرة بينهم. والمعتقد أن سببها يرجع إلى أن الناس يشربون الماء البارد فور تناولهم حساءً ساخناً. ويشكون أيضاً من آلام المعدة التي يسمونها عن جهل آلام القلب.

وكثيرون منهم يتألمون في كل أيامهم من الزحار ومن آلام شديدة في الأحشاء، ويعود هذا أيضاً للماء البارد الذي يشربونه. هذا ويكثر الذين يشكون من أمراض عرق النساء وأوجاع الركبة. وتنتج هذه من عادة الناس هناك الجلوس على الأرض دون لبس أي نوع من السراويل. وهناك القليل من الأشخاص الذين يشكون من النقرس. غير أنه يلاحظ وجوده لدى بعض الأمراء المصابين به، لأنهم ألفوا شرب الخمر وأكل الدجاج أو الوجبات اللذيذة. ويؤدي استهلاك الكثير من الزيتون والجوز وبعض الأطعمة الغليظة التي ليس لها كبير قيمة في التغذية إلى مرض الجرب الشديد الألم للذين يصابون به[٦]، أما المرض الإفرنجي[٧] الموجع جداً، والذي تصاحبه الآلام، مع بثور وقروح، فهو شديد الانتشار للغاية في كل بلاد البربر، حتى إن القليل من الناس ينجون منه، ولكن من الصحيح أننا لا نكاد نجد فرداً واحداً مصاباً به في الأرياف وفي جبال الأطلس، كما لا يوجد مطلقاً بين العرب إلا في نوميديا، أي بلاد النخيل وليبيا، كما لا يأتي حتى ذكر هذا المرض في بلاد السودان، وعندما يصاب به

(٦) ونرى من هذا أن الأصل هو الطفيلي لمرض الجرب وسريانه بالعدوى لم يكن معروفاً حينذاك.

(٧) وهو مرض الزهري أو السيفليس، الذي لم يكن يميز حينذاك عن مرض القروح والسيلان.

إنسـان مـا ، فـإنـه يشفى حـالاً بمجرد أن يغير الهواء ، أي إذا ذهب إلى نوميـديـا مثلاً .

وفي الماضي لم ير أحد هذا المرض ، كما لم يسبق أن سمع أحد باسمـه . ولكن في العصر الذي أخذ فيه دون فرديناند ملك إسبانيا ، بطرد اليهود من هذا البلـد[٨] ، وفد كثير من هؤلاء إلى بلاد البربر . ومنذ ذلك الوقت أخذ هـذا المرض بـالظهور فيها . لأن عـدداً من هؤلاء اليهود نقلوه معهم من إسبـانيـا ، وكان من سوء حـظ بعض الأفراد المسـاكين من المسلمين أن حـدثت لهم علاقـات مـع نسـاء من هـؤلاء اليهوديـات . وهكـذا ، وشيئـاً فشيئـاً ، لم تبق أسرة واحـدة سليمـة منـه في خلال عشرة أعوام . والمصابون الأوائل بالعـدوى اعتبرهم النـاس مجـذومين ، وطردوا من بيوتهم كي يقيموا مع المجذومين . ولكن عندما ظهر أن عدد الأشخـاص المصـابين بـه يتزايد يومياً ، وعندما لوحظ أن هذا التعفن قد انتاب عدداً عظيمـاً من النـاس في كل إسبانيا ، راح المرضى يتابعون حياتهم اليومية العادية ، وعاد إلى بيوتهم الـذين أبعدوا عنها ، ويؤكد الناس في بلاد البربر ، أن أصل هذا المرض هو من إسبانيا ، ويحمل نفس الاسم كما في إسبـانيـا ، ولا سيما في موريتـانيـا . ويسميـه أهل تونس المرض الإفرنجي كالإيطاليين ، وكذلك الحال في مصر وفي بلاد الشـام ، وقـد أدّى ما[illegible]رض إلى كثير من الكوارث ، ولا سيما في مملكة تونس[٩] .

---

(٨) مرسوم ٣ آذار ١٤٩٢ م أي بعد سقوط غرناطة بحوالي أقل من شهرين .

(٩) تعتبر هـذه الفقرة تقليـديـة في وصف المرض الإفرنجي . ومن المتفق عليـه أن جرثـومـة اللولبيـات الشـديـدة التخريب ، والتي أدت للجـائحـة الكبرى في هـذا المرض في القرن ١٦ ، قـد نقلت من أمريكا بـواسطـة رفـاق كريستوف كولومب الذين عادوا ونزلوا في إسبانيـا في شهر تشرين الأول ١٤٩٢ م . ولكن قبل هـذه الجـائحة كانت هناك في إسبانيا جائحة خطيرة من مرض القروح الجنسيـة Chancrelle وهو المرض الـذي أعطوه اسم (لاس بـوبـاس) ومن الإغريقي ، بـوبـون ، أو مرض الحـالب . وقـد أطلق المغاربـة على ظـاهرات مرض الإفرنجي الجلـديـة اسم الحبوب ، وهي عبـارة لا تزال دارجـة بين العوام ، والـذين خـدعوا بتـوافـق الأصـوات اللفظية . أما تسميته بالمرض الإفرنجي (الإفرنسي) وهو الاسم الذي عرف في إيطاليا . والذي شاع في كل الأصقاع التي كانت على علاقـات تجـارية مـع الملاحين الطليـان فيعود إلى أن الجيـوش الفرنسيـة التي كانت منهمكة في عمليات حربية في إيطاليا في ذلك العصر ، كانت مصابة بعدوى شديدة من هذا المرض .

وهناك عدد من الناس المصابين بمرض الخاصرة[١٠] .

وقليل من الناس في بلاد البربر يشكون من المرض الذي يسميه اللاتين الهرني hernic (الفتاق) . ولكن الكثير من الناس يشكون منه في مصر . وأحياناً تصبح الخصيتان عند بعضهم متورمتين لدرجة تبدو عند رؤيتهما شيئاً غير عادي . ويعتقد أن علة كهذه تنجم عن أكل الصمغ والكثير من الجبن المالح[١١] .

ويلاحظ مرض القرع في كثير من الأحيان بين أطفال إفريقية . ولكن هؤلاء لا يشفون منه مع تقدم سنهم ، وتصاب الكثيرات من النسوة بهذا المرض وخاصة في بلاد البربر وفي بلاد السودان . ويعتبر بعضهم هؤلاء المرضى كأن بهم مسّاً من الشيطان ، وهذا من الحمق .

ويظهر الطاعون في بلاد البربر مرة في كل عشرة أعوام ، أو خمسة عشر عاماً أو كل خمسة وعشرين عاماً[١٢] . وعندما يداهم الطاعون الناس . يقضي على الكثير منهم لأنه لا يوجد إنسان يهتم بهذا المرض ولا باستعمال أي علاج ، فيما عدا دهن الجسم بتراب أرمينية حول الدمامل . ولم يظهر في بلاد نوميديا منذ مئة سنة . ولم يظهر مطلقاً في بلاد السودان .

النص الثالث

يسرد لنا المؤلف فيما يلي قصة نشوء مدينة الرباط ، عاصمة المملكة المغربية الحالية ، وازدهارها ، ثم انحطاطها على إثر النزاعات التي حدثت بين الملوك المرينيين ، وبسبب التهديد البرتغالي الجاثم .

---

(١٠) وربما كان مغصاً كلوياً أو كبدياً .

(١١) ويخلط المؤلف هنا مرض الفتاق أو الفتق مع مرض داء الفيل الذي يصيب الصفن . وهو مرض منتشر فعلاً في مصر ، وهو ناجم عن دودة طفيلية هي الخيطية .

(١٢) لقد كان هذا التوقيت في الجانحات الطاعونية يعود إلى يقظة البؤر المحلية للطاعون ، والكامنة دوماً ، وكان هذا ملحوظاً وصحيحاً قبل نصف قرن تقريباً .

الرباط

الرباط مدينة كبيرة بنيت في الأزمنة الحديثة من قبل المنصور، ملك وخليفة مراكش، ويمر على طولها من الشرق نهر أبو الرقراق. وهو يصب في البحر. وبنيت قلعة المدينة عند مصبه، فهي على النهر من جهة وعلى البحر من جهة أخرى. وتشبه هذه المدينة في أسوارها وأبنيتها مدينة مراكش، لأنها بنيت من قبل المنصور للغرض نفسه، ولكنها تبدو صغيرة جداً بالموازنة مع مراكش. وإليك سبب تأسيس الرباط :

لقد كان المنصور يحكم حينذاك على كل إقليم غرناطة وعلى جزء من إسبانيا. ولما كانت هذه البلاد نائية جداً عن مراكش، فقد خطر ببال الملك أن هذه المدينة إذا ما تعرضت لهجوم من طرف النصارى، فلن يتمكن أن يهب لنجدتها بسهولة. وهكذا فكر في أن يشيد مدينة على سيف البحر ذاته حيث يستطيع أن يبقى طيلة الصيف مع قواته. وقد نصحه بعضهم بالإقامة في سبتة التي هي مدينة واقعة على مضيق جبل طارق. ولكن الملك لاحظ أن هذه ليست بالمدينة التي تستطيع أن تكفي لمرابطة جيش في أثناء مدة ثلاثة أو أربعة شهور، بسبب عقم الأرض في هذه المنطقة. كما فكر أيضاً في أن هذا لن يمر دون أن يسبب امتعاضات لدى أهل سبتة بسبب سكنى العسكريين وموظفي البلاط الملكي. ولهذا عمل على بناء مدينة الرباط في بضعة أشهر. وزودها بالمساجد والمدارس وكل أنواع القصور والبيوت والدكاكين والحمامات ومخازن الأدوية. وشيد في خارج الباب الذي يتجه نحو الجنوب منارة مماثلة لمنارة مراكش، ولكن مع مطلع أكثر عرضاً بكثير، وفي الواقع يستطيع ثلاثة فرسان أن يصعدوا إليها جنباً إلى جنب. ويقال : إنه من الممكن من أعلاها رؤية سفينة في عرض البحر على

مسافة كبيرة جداً . وأعتقد أنها تعتبر ، نظراً لارتفاعها ، من أجمل الأبنية في العالم[١٣] .

وأراد الملك أيضاً أن يستوطن في المدينة العديد من الصناع والمثقفين والتجار . وأعطى الملك أمراً بأن كل مواطن فيها ينال مكافأة علاوة على الربح المادي الذي تدره عليه مهنته . وقد أدى ذلك إلى اجتذاب أناس إلى هذه المدينة من كل الأصناف ومن كل المهن ، حتى لقد غدت الرباط ، خلال وقت طويل ، من أشرف المدن في كل إفريقية وأغناها ، إذ كان لسكانها دخل مزدوج ؛ أولاً المكافأة المقررة ، وثانياً ربح التجارة مع العسكريين ومع رجال الحاشية الملكية .

وكان المنصور يسكن هذه المدينة من بداية شهر نيسان إلى شهر أيلول . ولما كانت المدينة قائمة في موقع يفتقر للماء الجيد ، لأن ماء البحر يختلط عندها بماء النهر ، ولما كانت موجة المد تصعد لمسافة اثني عشر ميلاً من المدينة ، فقد جلب إليها الماء بواسطة قناة بديعة البناء ، قائمة فوق حنايا تماثل تلك التي ترى في كل إيطاليا ، لاسيا بجوار روما . وتنقسم هذه القناة إلى عدة فروع تقود إحداها الماء إلى المساجد والمعاهد والقصور الملكية والأحواض العامة التي أقيمت في كل الأنحاء[١٤] .

---

(١٣) الواقع أن برج حسان يرتفع لأكثر من ٤٤ م ولكن موقعه يمنحه بروزاً بديعاً جداً ، وعرض مطلعه متران .

(١٤) لقد كانت كلمة الرباط تعني عند العرب المسلمين الثغر المتقدم لإقامة الفرسان ، وحيث كانت تربط الخيول فيه ، فالكلمة مأخوذة من ربط الخيل ومن رابط بمعنى أقام بانتظار الجهاد . وهكذا تجهزت كل الجبهة الأرضية والبحرية لجيوش الفتح الإسلامي بهذه المراكز العسكرية التي تمنح منعة للمجاهدين في سبيل الله وتدعم إيمانهم . وقد أنشئ رباط الضفة اليسرى لمصب نهر أبو الرقراق ، أي رباط سلا ، كرأس جسر ضد المارقين من قبيلة برغواطة . وفي أواسط القرن التاسع كان يتواجد أحياناً في هذه الرباطات كما في الرباطات المجاورة حوالي مئة ألف من المرابطين مجتمعين ، وظل اسم بلد المجاهدين معروفاً بجوار البحر ، جنوبي الرباط ، ويعود إنشاء مدينة في هذه المنطقة ، في الغالب ، للخليفة عبد المؤمن الذي كان عليه أن يقمع في سنة ١١٤٩ م آخر تمرد قامت به برغواطة ، الذين عجز المرابطون عن إبادتهم جميعاً في عامي ١٠٥٩ ـ ١٠٦٠ م .

وقد بنى المدينة في مكان قصر كان يخص بني كنانة ، وسماه المهدية ، تخليداً لذكرى المهدي بن تومرت . ولكن =

وبعد وفاة المنصور أخذت هذه المدينة في التدهور حتى إنه لم يبق منها سوى العشر . فقد تقطعت القناة وتخربت أثناء حروب المرينيين ضد أسرة المنصور . والرباط الآن في أسوأ حالة عرفتها ، وأعتقد أنه لا يمكن العثور فيها . إلا بصعوبة على أربعمئة بيت مسكون قرب القلعة ، مع بعض الدكاكين الصغيرة . وفضلاً عن ذلك فهي مهددة باحتلال البرتغاليين لها . والحقيقة أن كل ملوك البرتغال السابقين خططوا المشاريع لاحتلالها ، على اعتبار أنهم إذا ما استولوا على الرباط فإنهم سيتمكنون بسهولة من احتلال المملكة . ولكن ملك فاس زود هذه المدينة بمخازن أقوات كبيرة وهو يدعمها قدر استطاعته .

وقد ذهبت إليها وتملكتني الشفقة والأسى عندما فكرت بما كانت عليه في الماضي وما آل إليه حالها اليوم .

= الاستعمال الدارج عمل على تفوق اسم رباط الفتح ، وهذا بلا شك بسبب نجاح تلك الحملة ضد برعواطة . وفي سنة ١١٥٠ م عمل عبد المؤمن على جر مياه عين غابولة ، وهو نبع يقع على مسافة ٢٠ كم نحو الجنوب . وبعد ثلاثين عاماً عمل حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور الذي حقق بتاريخ ١٥ تموز ١١٩٥ م الظفر المؤزر في معركة آلاركوس في الأندلس (معركة الزلاقة) ، أقول عمل على تنفيذ مشروع التنظيم الذي يلخصه هنا المؤلف :

أي جعل من الرباط قاعدة لتركز الجيوش على أن يمتد تمركزها هذا على البلاد الهامة الواقعة على ساحل المحيط من الرباط حتى القصر الصغير شمالاً . وقد شيد في الرباط ، على الخصوص ، حصن الفرح الذي لا يزال بابه البديع ماثلاً ، والمسمى حالياً باب الأودايه ، وكذلك الجامع الكبير الذي كان برج حسان منارته ، كما أعاد بناء سور شلا (سلا) حيث أقام فيها مدينة ملكية ودينية وعسكرية ، لأن الرباط كانت مدينة تجارية وعمالية . وقد سمحت له الغنائم المذهلة التي تحققت من وراء حملته في إسبانيا في فترة ١١٩٥ م إلى ١١٩٨ م بتحويل هذه الإنجازات وكثير غيرها في إمبراطوريته . ويعتبر عام ١١٩٧ م تاريخ تأسيس الرباط ولكن تحقيق هذه المشاريع استدعى بالتأكيد زمناً طويلاً نوعاً ما .

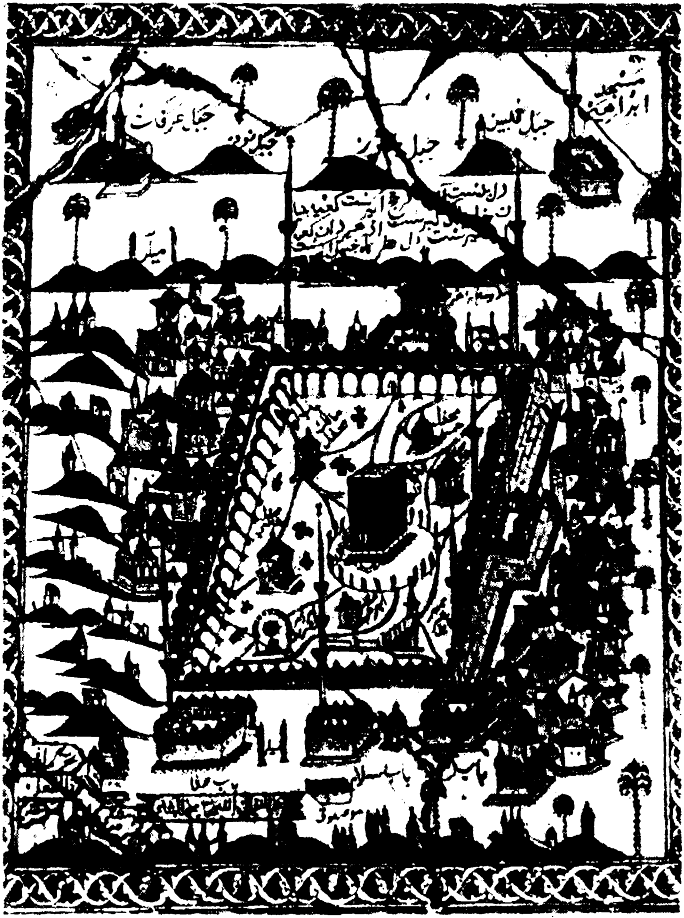
العَيّاشيّ

(١٠٣٧ هـ / ١٦٢٨ م - ١٠٩٠ هـ / ١٦٧٩ م)

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي ، ينحدر من أصل بربري من قبيلة آيت عياش التي كانت تقيم بأحواز سجلماسة مركز واحة تافيلالت في جنوب المغرب الأقصى ، وهو كجميع معاصريه ممن دفعتهم الرغبة في طلب العلم إلى الرحلة منذ نعومة أظفاره ، فاشتهر في وطنه فقيهاً ومحدثاً وصوفياً ، فقصد مدينة فاس التي كانت تمثل آنذاك مركز الثقافة في كل المغرب . وقد انصرف اهتمامه إلى ثلاثة فروع من علوم الدين وهي الحديث والشريعة والتصوف . وفي سنة ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م أدى فريضة الحج لأول مرة ، فمر بطريقه بمدينة توات وواحة ورقله وطرابلس ومصر . ثم تابع دراسته لبعض الوقت في كل من القاهرة ومكة (شكل ٢٤) . وقد أتبع هذه الرحلة إلى الديار المقدسة بحجة ثانية عام ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٤ م أقام خلالها مدة قصيرة بمكة والمدينة . وبعد عودته منها كتب قصة رحلته ولكنه توفي بموطنه من الطاعون سنة ١٠٩٠ هـ .

وقد دون مذكراته المتقطعة أثناء الحج ، غير أن رحلته الأخيرة دفعته إلى تبييض المسوّدة النهائية لوصف رحلته المعروفة بعنوانين : أحدهما : تقليدي صرف هو (الرحلة العياشية) ، والآخر : تغلب عليه الصنعة هو (ماء الموائد) في مجلدين .

ولا يستطيع العياشي ، المحدث والصوفي ، أن يقدم لنا سرداً عن رحلته يماثل كتاب ابن جبير أو تحفة النظار لابن بطوطة . فقد وجه اهتمامه بالدرجة الأولى إلى الكلام عن الأولياء والعلماء والدراويش وأهل التصوف دون أن يهمل ذكر الأقطار التي يجتازها ، والمدن والقرى التي يتوقف فيها ، والشرائط التي تمت فيها رحلته . ويغلب على عرضه أحياناً طابع متعدد الألوان لمادة متنوعة من محيط الجغرافية والعادات ، ولكن يسجل بكل أمانة تفاصيل حياة الأولياء والعلماء والمتصوفة الذين يتحدث إليهم أو يسمع عنهم ، مما يشهد على مراكز اهتمامات المؤلف . وهكذا تشتمل (رحلة) العياشي على معطيات مختلفة من كل نوع ، من جغرافية وأخلاق وفقه وحركة صوفية ، ونشاط أهل الحديث في القرن السابع عشر . وإلى جانب أهمية هذا الكتاب مصدراً جغرافياً يجب أن لا نهمل فائدته من وجهة النظر التاريخية ، رغماً من أن أوصافه عموماً جافة وتفتقر إلى الحيوية . أما أسلوبه الأدبي فيشهد على



صورة مكة والكعبة من مخطوط فارسي قديم

الانحطاط العميق الذي اعترى هذا النمط من النشاط الأدبي ، ولكنه يتميز بالبساطة ، رغم انعدام الرشاقة فيه ، ولكنه يقع أحياناً في الغموض عندما يعالج الموضوعات الصوفية ، فيلجأ إلى لغة متكلفة مغلقة ، وتكثر الاستطرادات عنده لدرجة تتقطع فيها خيوط روايته أحياناً .

ولكتابه أهمية خاصة في وصف طرق القوافل من المغرب إلى مكة مع تعداد واف للمراحل المختلفة ، كما نعثر على تفاصيل توضح الحد الفاصل بين الأراضي الصحراوية والأراضي الصالحة للزراعة . وللعياشي كتاب (إظهار المنة على المبشرين بالجنة) ، ومسالك الهداية ، وتحفة الأخلاء بأسانيد الأجلاء ، ومنظومة الينبوع وشرحها ، وتنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية . ولحفيده محمد بن حمزة بن أبي سالم كتابٍ فيه دعاه (الزهرة الباسم في جملة من كلام أبي سالم) .

النص الأول

إقامة العيّاشي في المدينة المنورة

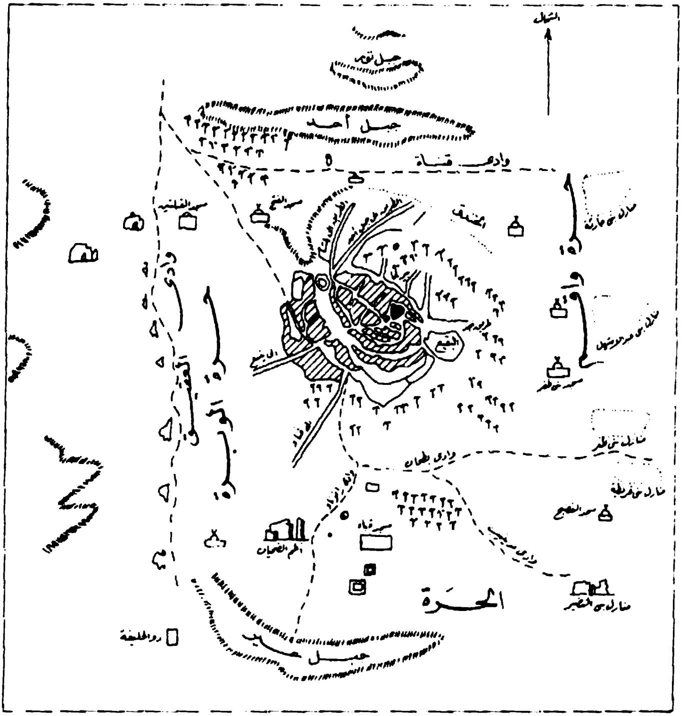
« كانت مدة إقامتنا بالمدينة المشرفة سبعة أشهر ونصف ؛ وكنا نسكنُ أولاً في محل نزولنا بجوار مشهد السيد إسماعيل ، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس ، به أخْليةٌ للوضوء وبئران ، وكان قيِّم المشهد أحَدَ أصحابنا المغاربة المجاورين[١] .

وهو الذي أنزلنا به ، وكان يتولَّى إصْباحَهُ وكنْسه وإغلاق أبوابه ، ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه ، ولاّهُ ذلك مفتي المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيبُ أحمدُ وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولايةَ المشهد لهما . فإذا اجتمع من الصدقات ماله بال[٢] دفَعَ لهما حصةً وانتفع بالباقي كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة بل بغيرها .

---

(١) الذين يستوطنون مكة أو المدينة ويدعى واحدهم المجاور : جار الله .

(٢) أي ما له أهمية .



الخريطة الطبُوغرافية للمَدينة المنورَة

وكنا مدة نزولنا به في أرغد عيشٍ وألذه ، لا يزاحمنا فيه غيرنا لولا بعدٌ من المسجد ، فكنا إذا خرجنا لصلاة الظهر في أيام الحر تكاد الرمضاء تُحْرقنا ، إنما نتقي ببقايا الظلال ومبادئ الفيء تحت الجدران ، ومع ذلك يلفحنا لفحاً ، فلا نصل إلى المسجد إلاّ بعد مشقة ، ولكننا نحتسبُ[٣] في ذلك خطأنا ، ونغتفر ذلك

(٣) احتسب : قام بعمل خيري محبب لله وتقرباً منه .

لما اغتبطنا به من السّعة وجوار أهل البقيع[٤] ، ونسلّم على أهله وندعو . ومن طلع منا على سطح المشهد أشرف على البقيع كله ، وما والاه من الأجنة وحدائق النخل ، ويكون جبل أحُدٌ[٥] الذي أحَدُ جبال الجنة قبال وجهه . وما كان ينغّصُ علينا فيه إلاّ كثرة النخّاولةِ إلى ذلك المحل ، وهم الروافض[٦] الساكنون خارجةَ المدينة في العوالي وغيرها من الجهات ، فإن جلٌّ من يسكنُ هناك ويتولّى العمل في البساتين والفلاحة فيه روافضُ ، ويسميهم أهل المدينة النخاولةَ ولا أدري معنى هذا الاسم .

وللنخاولة عادةٌ في كل يوم الخميس غالباً . يأتون إلى المشهد من أول النهار ، ويطبخون هناك طعاماً كثيراً ، ويجتمعون رجالاً ونساءً بأولادهم ، وفي الغالب يأتون لختان أولادهم ، فإنّ من له ولد يريد ختانه لا يختنه إلا في ذلك اليوم في ذلك المكان ، وربما جاؤوا لغير ختانٍ بل لمجرد زيارةٍ وإطعام طعام ، ولا يحْضُرُ معهم غيرهم وغالبُ ما يَطْبخونَ هناك الأرز والهريسة واللحم[٧] ...

ولم نزلْ ساكنينَ في المشهد المذكور إلى أواسِط ربيع الأول ، ومرضتُ فيه بالحمى الصفراوية ، ومرض الجلُّ من أصحابنا ، وضعفْنا عن الوصول إلى المسجد من المرض ، وكان الناس يسمون ذلك المحل الذي سكنّا فيه مع كونه أفسح المحالّ بثقل السُّكنى ، ولذلك شاهدٌ[٨] ؛ فإن هذا المحلَّ قريبٌ من ذنب مشْعطَ الذي قال فيه ﷺ : « اللهم حبّبْ إلينا المدينة وانقلْ وباءها إلى مهْيعَةَ ، وما بقي منه

---

(٤) مقبرة بالمدينة .

(٥) جبل قرب المدينة كان فيه للمسلمين معركة ضد المشركين في العام الثالث للهجرة أو ٦٢٥ م .

(٦) اسم فريق من الشيعة .

(٧) ويتلو ذلك وصف طريقة تحضير الهريسة وهي نوع من حساء يدخل القمح واللحم في تركيبه .

(٨) برهان ، دليل .

فاجعلْه تحت ذنب مشعط[٩] » فخرجنا منه واكترينا رباطاً آخر منسوباً لقطب الأولياء مولاي عبد القادر الجيلاني[١٠] ...

ولما كان أول شهر صفرٍ ألجأني أصحابي المالكيةُ بالمدينة المنورة أن أقرأ لهم مختصرَ الشيخِ خليلٍ[١١] في فقه مالكٍ ، فتعللتُ لهم بقلة الممارسة له ، وشغل البال ، وعدم ما يستعينُ به الإنسان من الشروح والحواشي ، فلم يُجْدِ تعلُّلي لديهم بل زادهم إغراءً ، فابتدأنا قراءته في مؤخّرِ المسجد بالجانب الغربي منه ، وكانت قراءتنا من بعد صلاة العصر إلى قرب صلاة المغرب قرأنا لهم قراءةً لا بأس بها ...

وأما أنا فأول من قرأتُ عليه بالمدينة ، وأخذت عنه بقية السلف الصالحْ ، وقدوة كل غادٍ في اكتساب الحمد ورائحْ ، أستاذ المقرئين وإمامُ المحدثين الشيخ أبو الحسن عليُّ بن محمدٍ ... الزبيدي زاده الله شرفاً وأسكنه من منازل التقرب غرفاً . من قدماء مشائخي . لقيتُه بمكة سنة ألفٍ وأربع وستين فأخذت عنه ما تيسرَ ... ولما قدِمَ المدينة ، ونزل بجوار المشهد ، وكان قدم بأهله قاصداً للزيارة ، واجتمعت به في الحرم الشريف وأنستُ به ، وكنتُ إذ ذاك حديثَ عهدٍ بسكنى المدينة لم أخالطْ كثيراً من أهلها ، فسألته أن أقرأ عليه خَتْمة القرآن العظيم بقراءة الإمام عبد الله بن كثيرٍ فأذنَ في ذلك ، وجعل لي وقتاً معلوماً بين من يقرأ عليه ...

لطيفة : تذاكرنا يوماً بحضرة شيخنا أبي الحسن الزبيدي دفْنَ الموتى بالبقيع ، على مرور الأزمان في محل واحد ، مع أنه لا يجوز الدفن في قبرٍ مادام صاحبه به . فقال لي الشيخُ : إن هذه الأرض لملوحتها ونداوتها تفْني الأجساد بسرعةٍ ، فقلّما يجاوز فيها الإنسانُ سبعَ سنين إلاّ وتبلى عظامه فلا يبقى لها أثر .

---

(٩) اسم مكان بالمدينة .

(١٠) صوفي شهير توفي عام ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م .

(١١) فقيه مالكي مصري مات سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م ومؤلف وجيز يتمتع باعتبار كبير لدى المالكية .

وممْ قرأتُ عليه بالمدينة شيْخُنا العلامةْ ، الدرّاكُ الفهّامةْ ، محقّق العلوم على اختلاف أنواعها ، ومقيّدُ شواردها في بطئها وإسراعها ، ومُداوي أدواء القلوب مع تباين طباعها ، ومؤهّلُ إضْلال المعارف بعد إقواء رباعها ، نادرة الأعصارْ ، وعديم الشكل في سائر الأمصارْ[١٢] ... سيدنا وشيخُنا وقدوتُنا وإمامنا الملاّ إبراهيمُ بن الحسن الكورانيُّ ، زاده الله من نوره القُدسيِّ على نوره النفسي[١٣] ...

لما قدمت للمدينة وكانت أيامَ الموسم وكثرة الأشغال ، وعلمت أنه لا يتفرغ لي ، وكنت أؤخر لقاءه يوماً فيوماً لكون منزله خارج المدينة ، فلم يُقدَّر لي لقاؤه حتى قدمَ شيخنا أبو الحسن ، وكان بينهما ودٌّ وإخاءٌ ، فذهبت معه إليه ، ودخلنا إليه في مكانه الذي يجلس فيه خارج البلد ، فوجدناه في عَليّةٍ له ، فيها كتبه التي يُطالع فيها ، فرحّب بنا كثيراً ، وأعلمه الشيخ أبو الحسن بشأني ، وأني ممن صحبَ الشيخ[١٤] وانتسب إليه ، فرعى لي ذلك حق رعايته ، وهَشَّ وبشَّ وأنسَ ورحّب ودعا بخير ، وكنت كتبت قصيدةً في مدحه قبل الاجتماع به ، فناولها إيّاه الشيخُ أبو الحسن وهي هذه (من الطويل) :

أشافي قلبي بعدما كنت جارحهْ   يحبُّك مني كل عضوٍ وجارحهْ[١٥]
وجئتُ أؤدي ما يحقُّ عليَّ من   سلامي عليك اليوم إذ فات بارحهْ

فلما فرغ من قراءته استحسنها ودعا بخير وبالغ في التحفّي[١٦] ، وقدم لنا كِسَراً من الكعك من ملحٍ وسعْتَر ، فلم ألذَّ من تلك الكسر ، وأتى بالقهوة على ما هو المعتاد منهم وكنت غير راغب فيها[١٧] ولكن تناولتُ منها مساعدةً ،

---

(١٢) ويتلو ذلك سبعة سطور من النعوت من طراز ما ذكر .

(١٣) ويعقب ذلك نبذة عن حياة هذا الصوفي الذي ولد في كردستان وتوفي بالمدينة سنة ١١٠١ هـ / ١٦٩٠ م .

(١٤) أي الشيخ القشاشي أحد أساتذة الملاّ إبراهيم .

(١٥) إن ألف النداء في أول البيت تشير إلى مخاطبة الملا إبراهيم . وتشتمل القصيدة على أربعة وعشرين بيتاً .

(١٦) التبجيل والإكرام .

(١٧) دخلت عادة شرب القهوة إلى شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع هجري أو الخامس عشر ميلادي . وقد صدرت فتاوى بمنعها عام ٩١٧ هـ / ١٥١١ م . ومع ذلك استمر الكثيرون في شربها ولا سيا المتصوفون .

وعندما أنِسَ مني رضي الله عنه وتفاوضنا الكلامَ ، وأنَّ لي حاجة ماسَّة بطلب الحديث سألني : هل حصلت لك رواية الحديث المسلْسلِ[١٨] بالأوليةِ بشرْطه ، فقلت له : نعم . فقال : إن كنت راغباً في تحصيله بشرطه ، ولم يتفق لي ذلك إلى الآن ، وهذا أول مجلس لقيتك فيه ، فأحب سماعهُ منك قبل سماع شيء من الحديث . فحدثته به فرأى ذلك غنيمة حصلت له . والحديث المسلسل بالأوَّلية هو ما أخرجه البخاري[١٩] ، وأخرجه غيره أيضاً ، عن عمرو بن دينارٍ عن أبي قابوسَ مولى عبد الله بن عمر بن العاص عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : الراحمونَ يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، اِرحموا من في الأرض يرحمْكمْ من في السماء . وهذا الحديث رواه سفيان بنُ عُيَيْنة (رضي الله عنه) عن عمرو بن دينارٍ ثم لم يزل الأئمةُ من لدُنِ سفيانَ يرويه بعضهم عن بعضٍ بصفةِ الأوَّلية إلى أن وصل إلينا بصفتِه بشرطه » .

---

(١٨) الحديث المسلسل هو الذي تصعد سلسلة الرواة فيه (الإسناد) حتى الرسول عليه الصلاة والسلام بلا انقطاع ، والذي يذكر فيه الرواة بعض الظروف المتعلقة بنقله كحلف اليمين على صحته ، والتأكيد بأنه أول حديث مستقى بالأولية إلخ .

(١٩) محدث شهير توفي عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م له الكتاب الشهير بصحيح البخاري الذي يضم الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة .

حَاجِي خَلِيفَة

(ولد عام ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م ـ توفي في ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م)

ولد حاجي خليفة بالقسطنطينية عام ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م في أسرة موظف صغير يعمل بديوان العسكرية ، واسمه الأصلي مصطفى بن عبد الله ، لكن غلب عليه لقب جلبي وحاجي خليفة . وبعد أن حصل على التعليم الأولي المعهود آنذاك سار في اتجاه أبيه فالتحق عام ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٣ م بالديوان ليتدرب على الأعمال الكتابية ، ولم يلبث أن شغل وظيفة كتابية بسيطة هي وظيفة محاسب بوحدات الجيش في الأناضول ، وبذلك اشترك في الحملة العسكرية على بلاد فارس التي لم تنجح في حصارها لبغداد سنة ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٦ م ، وشهد حصار أرضروم عام ١٠٣٦ هـ وعام ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ ـ ١٦٢٨ م عند قتال أبازه باشا للانكشارية ، وبعد أعوام من هذا عاد إلى القسطنطينية ليشغل وظيفة رئيس للكتبة ولهذا لقب بكاتب جلبي .

هذا وقد أيقظت في نفسه دروس شيخ العلماء قاضي زاده الشوق نحو العلم ، ووجد في هذا تشجيعاً من أبيه فاتجه في بادئ الأمر إلى دراسة العربية ، غير أن اندلاع الحرب مع العجم اضطره إلى التوقف عن الدراسة في عام ١٠٣٩ هـ / ١٦٢٩ م ، فلحق بالقوات العثمانية إلى همذان وبغداد ، ولم يرجع إلى موطنه إلا في عام ١٠٤١ هـ / ١٦٣٠ م حيث شغل نفسه بدراسة التفسير ، وتعمق في فهم البيضاوي والغزالي على قاضي زاده المذكور .

وفي عام ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٣ ـ ١٦٣٤ م ذهب إلى بلاد الشام مع جيش الصدر الأعظم محمد باشا ، واشترك في الحملة الكبرى على بلاد فارس لعام ١٠٤٣ هـ / ١٠٤٥ هـ ـ ١٦٣٣ / ١٦٣٥ م التي قادها السلطان محمد الرابع بنفسه . وعندما رابط الجيش بحلب لقضاء الشتاء اغتنم حاجي خليفة هذه الفرصة فأدى فريضة الحج ، ثم اشترك في حصار أريفان ، القاعدة الأرمنية ، عام ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٥ م وكان شوقه وشغفه بالعلم قد قوي لديه عقب إقامته بحلب التي كانت لا تزال محتفظة بمكانتها الثقافية آنذاك ، وقد دفعه هذا إلى المطالبة بإحالته على الاستيداع ، وعاد إلى القسطنطينية حيث انصرف انصرافاً تاماً لمدة عشرة أعوام إلى دراسة التفسير والحديث والمنطق واللغة ، ثم تحول بعد ذلك إلى دراسة الرياضيات والفلك والجغرافية والطب . وقد ساعده على التفرغ للدراسة ثروة آلت إليه عن بعض قرابته ، وهو

يفصّل لنا في ترجمته لسيرة حياته كيف كان يصرف مبالغ طائلة لاقتناء الكتب . ثم ما لبث أن ذاعت شهرته ، وبدأ يخطو شيئاً فشيئاً في مجال التدريس . وقد هرع إلى مد يد العون إليه قائد الجيش العثماني الذي كان يعرفه شخصياً ، وهو محمد باشا فعينه في عام ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م نائباً ثانياً بالإدارة المالية الرئيسية لديوان الجيش (باش محاسبه ده ايكنجي خليفة) وبهذا ثبت عليه بالتالي لقب حاجي خليفة .

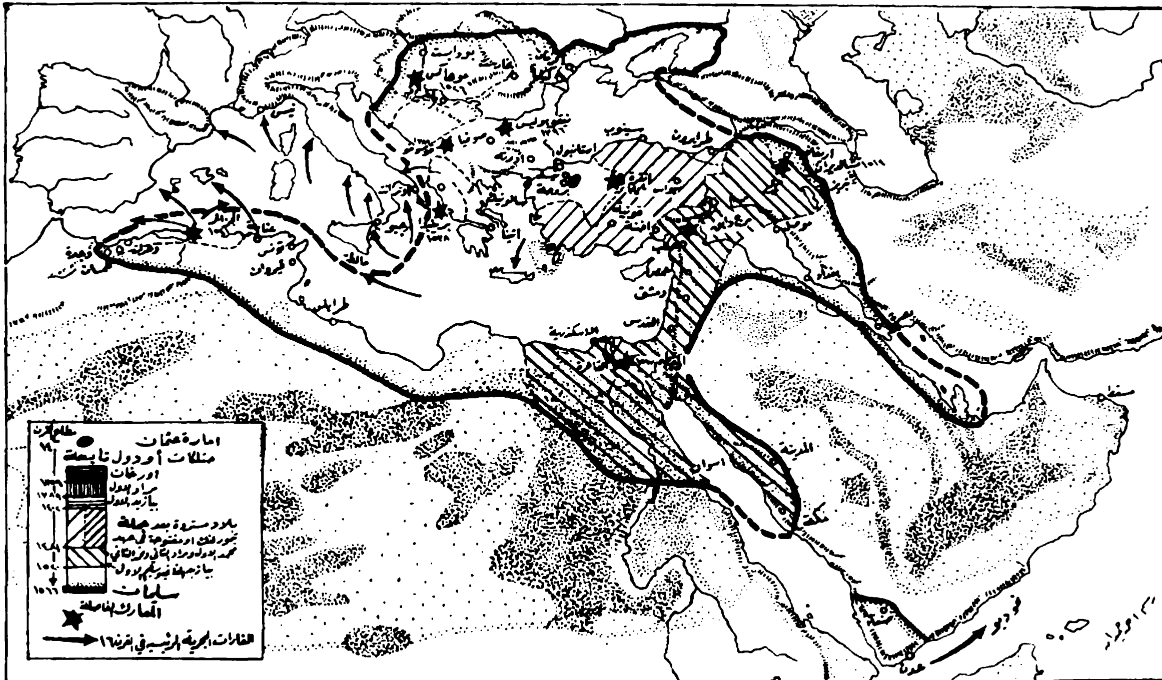
وكانت هذه الوظيفة اسمية فقط ، فقد كلّف بالحضور إلى الخدمة مرتين في الأسبوع . غير أن خبرته في الشؤون المالية لم تكن بأقل من شهرة سمعته العلمية فدعي عام ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٣ م إلى الاشتراك في لجنة خاصة برئاسة السلطان محمد الرابع لبحث الوسائل الناجعة لإجراء التحسينات على ميزانية الدولة . وقد وضع حاجي خليفة بهذه المناسبة مذكرة رفعت بعد أعوام إلى المفتي الأكبر . وظل حاجي خليفة مدة أربعة أعوام بعد هذا يعمل في البحث والتدريس إلى أن وافاه الأجل بسقط رأسه في عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م نتيجة توعك طارئ ألمّ به ، ولما يبلغ الخمسين من عمره[١] .

ويعتبر حاجي خليفة من أعظم العلماء العثمانيين ، فقد سمحت له مشاركته في الحملات الآسيوية موظفاً إدارياً بالجيش أن يتعرف على جزء عظيم من الإمبراطورية عن طريق الملاحظة الشخصية ؛ فنجده بعد سنة ١٦٥٤ ـ ١٦٥٥ م كتاب (لوامع النور في ظلمة أطلس مينور) وهو ترجمة تركية للأطلس الصغير الذي وضعه مركاتور وهونډياس . واستعمل حاجي خليفة لترجمته هذه طبعة آرنهايم سنة ١٦٢١ م ، مستعيناً بإفرنسي كان قد اعتنق الدين الإسلامي وتسمى باسم إخلاصي شيخ محمد أفندي . وقد رفع إلى السلطان محمد الرابع سنة ١٦٤٨ م كتاباً في تاريخ الكون والموجودات اسمه جهانّنما ، فلما أنجز ترجمة (الأطلس الصغير) عمد إلى كتابه هذا فأخرجه إخراجاً جديداً بالكلية على أساس الأطلس المشار إليه وغيره من المصادر الأوروبية ، ولكن المنية لم تمهله فعاجلته قبل إتمامه . وكان قد نشر في السنة التي سبقت كتاباً في تاريخ البحرية العثمانية اسمه (تحفة الكبار في أسفار البحار) .

وله كتاب (كشف الظنون) وهو أشبه بدائرة معارف وسجل عام في تواريخ المصنفات المختلفة . بيد أن الغالبية العظمى من مصنفاته إنما تعني قبل كل شيء بالتاريخ بل وبالجغرافية أيضاً القدر نفسه . أما بالنسبة لنا فتشغل المكانة الأولى بالطبع مؤلفاته المخصصة للجغرافية أو المتعلقة بها اتصالاً مباشراً وعددها أربعة وهي : كشف الظنون الذي وضعه بالعربية والذي يحيط بسائر فروع العلم والأدب ، ثم كتابه الأساسي في الجغرافية العامة باللغة التركية ، وأخيراً (لوامع النور) و (تحفة الكبار) المتعلق بالجغرافية الملاحية .

---

(١) اقتبسنا معظم ترجمة حياة حاجي خليفة من كراتشكوفسكي ، ص ٦١٨ .



شكل (٢٤)

الامبراطورية العثمانية في عهد سليمان القانوني



رسم جون سبيل في عام ١٦٢٦ والتي تحمل اسم الخليج العربي بالإنكليزية (عن مجلة جيش الشعب السورية ١٩٧١)

النص الأول

نبذة من تحفة الكبار عن علم الملاحة

« وهو علم باحث عن كيفية صنعة السفن وكيفية ترتيب آلاتها وكيفية إجرائها في البحر ، ويتوقف على معرفة سموت البحار والبلدان والأقاليم ، ومعرفة ساعات الأيام والليالي ، ومعرفة مهابّ الريح وعواصفها ورخائها وممطرها وغير ممطرها ، ومن مبادئه علم الميقات وعلم الهندسة » ويقول في (كشف الظنون) :

أما بعد ، لما كان كشف دقائق العلوم وتبين حقائقها من أجل المواهب وأعز المطالب ، قيّض الله سبحانه في كل عصر علماء قاموا بأعباء ذلك الأمر العظيم ، وكشفوا عن ساق الجد والاهتمام بالتعليم والتفهيم ، سيما الأئمة الأعلام من علماء الإسلام ، الذين قال فيهم النبي عليه السلام : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » فإنهم سبق غايات ، وأساطين روايات ودراسات ، فمنهم من استنبط المسائل من الدلائل فأصّل وفرّع ، ومنهم من جمع وصنّف فأبدع ، ومنهم من هذّب وحرّر فأجاد ، وحقّق المباحث فوق ما يراد ، رحم الله أسلافهم ، وأيّد أخلافهم ، غير أن أسماء تدويناتهم لم تدون بعد على فصل وباب ، ولم يرد فيه خبر كتاب .

ولاشك أن تكحيل العين بغبار أخبار آثارهم على وجه الاستقصاء ، لعمري ، إنه أجدى من تفاريق العصاة ، إذ العلوم والكتب كثيرة ، والأعمار عزيزة قصيرة ، والوقوف على تفاصيلها متعسر بل متعذر ، وإنما المطلوب ضبط معاقدها والشعور على مقاصدها ، وقد ألهمني الله تعالى جمع أشتاتها ، وفتح عليّ أبواب أسبابها ، فكتبت جميع ما رأيته في خلال تتبع المؤلفات ، وتصفح كتب التواريخ والطبقات . ولما تم تسويده في عنفوان الشباب ، بتيسير الفيّاض الوهّاب ،



فرقاطة جزائرية

أسقطته عن حيِّز الاعتداد ، وأسبلت عليه رداء الأبعاد ، غير أني كلما وجدت شيئاً ألحقته ، إلى أن جاء أجله المقدّر في تبييضه ، وكان أمر الله قدراً فشرعت به بب من الأسباب ، وكان ذلك في الكتاب سطوراً ، ورتبته على الحروف المعجمة كالمغرب والأساس ، حذراً من التكرار والالتباس .

وقال يعرّف علم الجغرافية :

« علم جغرافيا . وهي كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض ، ويقال : جغراويا بالواو على الأصل ، وهو علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض ، وعروض البلدان الواقعة فيها ، وأطوالها ، وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها ، إلى غير ذلك من أحوال الربع ، كذا في مفتاح السعادة .

قال الشيخ داوود في تذكرته : « جغرافيا علم بأحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار ، وما يختلف حال السكان باختلافه . انتهى » . وهو الصواب لشموله على غير السبعة ، وجغرافيا علَمَ لم ينقل له في العربية لفظ مخصوص ، وأول من صنف فيه بطليموس القلوذي ، فإنه صنّف كتابه المعروف بجغرافيا أيضاً بعدما صنف المجسطي ، وذكر أن عدد المدن أربعة آلاف وخمسئة وثلاثون مدينة في عصره ، وسماها مدينة مدنيّة ، وأن عدد جبال الدنيا مئتا جبل ونيف وذكر مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر . وذكر البحار أيضاً وما فيها من الجزائر والحيوانات وخواصها . وذكر أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صورهم وأخلاقهم ، وما يأكلون وما يشربون ، وما في كل صقع مما ليس في الآخر غيره من الأرزاق والتحف والأمتعة ، فصار أصلاً يرْجعُ إليه من صنّف بعده ، ولكن اندرس كثيراً ذكره وتغيرت أسماؤه وخبره ، فانسدَّ باب الانتفاع منه . وقد عربوه في عهد المأمون ولم يوجد الآن تعريبه » .

مُحمَّدُ بنُ عُمَرَ التُّونسيّ

(١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م - ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م)

هو محمد بن عمر بن سليمان التونسي ، ولد في مدينة تونس يوم الجمعة ١٥ من ذي القعدة عام ١٢٠٤ هـ . وقد نشأ في أسرة علم وتجارة . جبلت على حب الاغتراب والأسفار سعياً في طلب العلم والمال . فقد عمل جده سليمان بعد أدائه فريضة الحج في نسخ الكتب بالأجرة ، في مدينة جدة ، حيث تعرف على جماعة من أهل سنّار دعوه للذهاب معهم ، حيث حظي بمقابلة ملكها ، الذي عرف أنه من أهل العلم (غريب الديار ، قد انكسرت سفينته الموسوقة بتجارته ، وضاع ما كان في حيلته من أموال ، فأنعم عليه بجارية حبشية ، بهيّة سنيّة ، غالية القيمة ، تسمى حليمة) .

وبقي والده في تونس مع إخوته الصغار بكفالة خاله العلامة أحمد بن سليمان الأزهري ، وتلمذ والده على خاله . ثم قصد والده الديار المقدسة مع خال والده ، وفي الطريق إلى القصير ، عرضت لهم قافلة قادمة من سنّار ، فتعرف الولد عمر على أبيه سليمان . وتواعد الثلاثة على التلاقي في القاهرة مرة ثانية بعد انتهاء موسم الحج . ولكن عمر لم يجد أباه في القاهرة بعد عودته ، فانصرف إلى تلقي العلوم الدينية في الأزهر ، ثم سئم الانتظار ، فرحل إلى سنّار ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة بعد أن قنط من إقناع والده بالعودة إلى تونس . وواصل عمر دراسته في الأزهر ، وتزوج من فتاة مصرية وأصبح نقيب رواق المغاربة . ثم سافر والده مع أمه وجدته إلى تونس حيث ولد محمد هناك . ولكن والده عاد بأسرته بعد ثلاثة أعوام إلى القاهرة . ولما علم عمر بوفاة أبيه ، سليمان ، سافر إلى سنّار ليضم إليه أخوة غير أشقاء ، بيد أنه لم يعد إلى مصر أو إلى تونس ، بل طاب له كذلك العيش في سنّار ، وانتقل بعدها إلى دارفور .

أما صاحبنا محمد فإنه نشأ في مصر ، وتلقى دروسه في الأزهر ، حتى إذا بلغ سن الرابعة عشرة ، اعتزم البحث عن أبيه في بلاد السودان ، بصحبة صديق والده التاجر أحمد البدوي ، وسافر إلى دارفور ، سالكاً درب الأربعين ، وهو الطريق الذي سلكه قبل ذلك بعشرة أعوام الرحالة الإنكليزي براون ، ولما بلغ محمد دارفور استقبله هناك عمه غير الشقيق أحمد زرّوق ، وصحبه إلى حيث يقيم أبوه عمر التونسي في إقطاعه الذي منحه إياه السلطان عبد الرحمن الرشيد في (أم الجدول) .

وعاش محمد بن عمر التونسي في دارفور نحو سبع سنوات ونصف ، ألمَّ خلالها بأحوال البلاد إلماماً تاماً ، وسافر بعدها إلى واداي على رأس وفد من قبل السلطان محمد فضل . ولكن إقامته في واداي لم تطل ، إذ استأذن سلطانها في السفر إلى تونس ، فأذن له وبلغها سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م ، أي بعد عشر سنوات من مغادرته القاهرة إلى دارفور .

ولكن محمد لم يلبث طويلاً في تونس ، بل رحل إلى القاهرة ليعمل في خدمة جيش محمد علي باشا كما يقول في مقدمة كتابه : « وكان أول خدمتي بوظيفة واعظ في الآلاي الثامن من المشاة ، وسافرت معه إلى المورة . وكابدت المشقات ، وكنت قبل ذلك سافرت إلى بلاد السودان ، ورأيت فيها من العجائب ما إذا سطّر يكون كزهر بستان ، ثم استخدمت في مدرسة أبي زعبل لتصحيح الكتب الطبية ، وخصصت فيها بتصحيح كتب الاجزاجية . ومكثت على ذلك حتى اجتمعت بأبرع أهل زمانه حذاقة وفهماً ، وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً ، معلم الكيميا الحكيم (بيرون Perron) الفرنساوي ، وقرأ عليَّ كتاب (كليلة ودمنة) باللغة العربية ، فذكرت له بعض ما عاينته في أسفاري من العجائب البهية ، فحملني على أن أزيّن وجه الدفتر بإيضاح ما شاهدته من العجائب ، وأخبره بما حصل لي في تلك الأسفار من الغرائب ، فامتثلت أمره لما له عليّ من اليد البيضا ، ورأيت أن ذلك أجمل بي أيضاً » .

وإذا كان براون الإنكليزي قد كتب عن دارفور من خلال رحلته إليها عام ١٧٩٣ ـ ١٧٩٧ ، فقد كان بالواقع شبه سجين لارتياب سلطانها في نواياه . كما أن الرحالة الألماني ناخينغال ، الذي زار دارفور عام ١٨٧٤ م أي بعد التونسي ، والذي ابتدأ رحلته من طرابلس الغرب متجهاً إلى دارفور عن طريق التشاد وباجرمي وواداي ، أقام في مدينة الفاشر عاصمة دارفور مدة ٦ شهور ، جمع أثناءها كل ما استطاع جمعه من روايات شفوية ومكتوبة عن تاريخ دارفور بمساعدة سلطانها آنذاك إبراهيم بن محمد حسين وأحد أمرائها باسي طاهر ، ولكن لم يسمح له بالتجول بحرية في أرجاء البلاد .

أما محمد التونسي فيختلف عن الرحالة الأوروبيين ، فهو تونسي الأب والجد ، مصري الأم والنشأة ، أفادته عروبته في الوصول إلى دارفور ، موطن كثير من القبائل العربية التي تشده إليها وشائج الدم والدين واللغة ، وإذا كان محمد بن عمر التونسي لم يقصد دارفور رغبة في الاستطلاع أو الدراسة ، بل ذهب للحاق بأبيه عمر التونسي الذي نزح قبله إلى سنّار ثم إلى دارفور ، فقد استطاع محمد التونسي الإلمام بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والتاريخية ، كما استفاد من علاقة أبيه وجدّه من قبل بهذه البلاد التي صاهرا أهلها ، وأضحى لمحمد فيها أخوة وأعمام . وقد اشتغل هؤلاء جميعاً بالعلم وبالتجارة ، وتنقلوا بين مصر وتونس والحجاز وسنّار ودارفور وواداي . وقد تسنّى للتونسي بفضل مكانته أن يحضر مجالس السلطان ، ووقف على كثير من أسرار السياسة وتقاليد البلاط ، وشهد الكثير

من الأحداث السياسية والحربية الهامة ، كما أتيح له أن يتجول في كل أنحاء دارفور في حرية مطلقة ، وأن يمر بمدنها وقراها وأسواقها ، وأن يدخل منطقة جبل مرّة البركانية الوعرة .

ولم يقتصر نشاطه العلمي على كتاب (تشحيذ الأذهان) بل ترك التونسي مؤلفاً يدعى (رحلة وادي) وترجمها بيرون إلى الفرنسية .

ولما عيّن بيرون المذكور مديراً لمدرسة الطب بالقصر العيني سنة ١٨٣٩ أوصى بتعيين التونسي كبيراً للمراجعين فيها . فأتاحت له هذه الوظيفة الجديدة فرصة الإسهام في خدمة اللغة العربية في عصر الترجمة في مصر في منتصف القرن التاسع عشر . وفضلاً عما قام به من تصحيح الكتب المترجمة إلى العربية ، أو الموضوعة في العلوم الحديثة ، فقد ساعد على استخدام كثير من المصطلحات العلمية المتعلقة بعلوم الطب والنبات والحيوان ومن مؤلفاته في هذا المجال :

- الشذوذ الذهبية في المصطلحات الطبية ، وقد صنفه بتكليف من الدكتور كلوت بك .

أما الكتب الطبية والعلمية التي تم نقلها إلى العربية وقام التونسي بتصحيحها وتحريرها فهي :

- الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع .

- كنوز الصحة ويواقيت المنحة .

- روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى .

- الدر الغوال في معالجة أمراض الأطفال .

وقد نشرت (رحلة تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) لأول مرة عام ١٨٥٠ على يد بيرون أي قبل وفاة المؤلف بسبع سنوات ، ولكن الترجمة الفرنسية ظهرت في باريس قبل ذلك بخمسة أعوام . وقد قام الدكتوران خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد بتحقيق هذا المؤلف ، وبكتابة حواشيه في عام ١٩٦٥ وراجعه الدكتور محمد مصطفى زيادة .

وجرى محمد بن عمر التونسي ، في أواخر أيامه ، على إلقاء دروس في الحديث بمسجد السيدة زينب ، في يوم الجمعة من كل أسبوع . ووافته المنية في القاهرة سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م ، بعد أن بلغ من العمر سبعين سنة هجرية .

النص الأول

في صفة دارفور وأهلها وعوائد ملوكهم وأسماء مناصبهم ومراتبهم

أما دارفور فهو الإقليم الثالث من ممالك السودان ، وذلك أن القادم من المشرق إلى بلاد السودان ، أول مملكة وإقليم يعرض له ، مملكة سنار[1] ثم كردفال ، ثم دارفور ، فظهر أنها الإقليم الثالث ، وبحسب ذلك (يكون) إقليم ودّاي هو الرابع ، والباقرمة[2] الخامس ، وبرنو[3] السادس ، وأدقز[4] السابع ، ونفه[5] الثامن ، ودار تنبكتو[6] التاسع ، ودار ملا[7] أو ملي العاشر ، وهي قاعدة

(١) مملكة سنار هي مملكة الفونج وهي المعروفة في السودان باسم السلطنة الزرقاء . قامت هذه المملكة على أنقاض مملكة علوة المسيحية في أوائل القرن ١٦ م على يد زعيم الفونج عمارة دونقس وحليفه عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة . وامتدت رقعة هذه المملكة من سواكن شرقاً إلى النيل غرباً ومن أقصى جبال فازوغلي جنوباً إلى الشلال الثالث شمالاً .

(٢) الباقرمة ، بجرمي ، الباغرمي : تقع هذه المملكة جنوبي بحيرة تشاد وتأسست في القرن العاشر الهجري / ١٦ م على يد جماعة من المغامرين الذين قدموا من ناحية الشرق . واستطاع هؤلاء أن يتغلبوا على البلالة ، ثم اندمجوا فيهم ، واستطاعوا بمساعدتهم أن يبسطوا سلطانهم على الغلبة والعرب المستوطنين في هذه البلاد ، وزعم أولئك الغزاة أنهم عرب ، وأنهم قدموا من بلاد اليمن . واعتنق أحدهم الإسلام ، ثم اعتنق أهل البلاد الإسلام على يديه .

(٣) برنو من دول السودان الأوسط . تحدها الصحراء الكبرى شمالاً ، وغرباً بلاد الحوصا (شمال نيجيريا) وجنوباً أدموه . وتحد من ناحية الجنوب الشرقي بباقرمي وشرقاً ببحيرة تشاد . وورد ذكر بورنو في كتب كثير من الجغرافيين العرب مثل ابن سعيد ، وابن خلدون ، والحسن الوزان ، والمقريزي ، وابن فضل الله العمري . ويسكن برنو أجناس مختلفة وهم الكنوري والسودان والعرب والبربر . وحكمت برنو أسرة تدّعي الانتساب إلى سيف بن ذي يزن وظلت على حكمها حتى حوالي منتصف القرن ١٩ م .

(٤) أغادس .

(٥) نفه إقليم يقع إلى الغرب من أغادس .

(٦) تأسست مدينة تمبكتو على نهر النيجر حوالي سنة ١١٠٠ م . وكانت تمبكتو ـ إلى جانب شهرتها التجارية ـ مدينة إسلامية منذ نشأتها ما دنستها عبادة الأوثان ، وما سجد على أديمها قط لغير الرحمن . وغدت تمبكتو مركزاً للتعاليم الإسلامية ، وتوافد عليها الطلاب والعلماء ، وبلغت عصرها الذهبي في عهد أسكيا الهادي محمد ثم أصبحت تابعة لمراكش من ١٥٩٠ إلى ١٧٥٠ م ثم استولى عليها الفولبة سنة ١٨٣٧ ثم وقعت في أيدي التكارير .

(٧) مملكة مالي .

ملك الفُلاَّن ، وهم الفلاَّتا كما ذكرنا . وأما الذي يأتي من المغرب فإنه يعد ملاً الأول ، وتنبكتو الثاني ، ونفه الثالث وهكذا .

ثم إن جبل مَرَّة لا يسكنه إلا أعاجم الفور ، وأعجام الفور ثلاث قبائل . أحدها : كنجارة ، وهي تسكن من قِرْلي إلى بعد الجبيل الصغير المسمّى مَرّة بالخصوص ، وهو مرّة حقيقة . وبعده بقليل إلى حدّ دار أباديا ، تسكنه الفور المسمّون كراكريت ، أما الفور الساكنون بدار أديما فيسمّون ، تموْركه .

لطيفة : هذا الجبل لا يرتفع عنه السحاب في السنة إلاّ أياماً قلائل ، ولكثرة المطر يزرعون القمح ، وينبت عندهم قمح لا يوجد نظيره إلاّ في بلاد المغرب ، أو في بلاد أوروبا ، لأنه حسن جداً . وبقية دارفور لا ينبت عندهم قمح لعدم الأرض الصالحة ، ولعدم الأمطار إلاّ ما قلّ ، كأرض كوبيه وكبكابيّة فإنه يزرع فيها القمح ويسقى بماء الآبار ، حتى يتم نضجه .

ومن غرائب عوائدهم أن الرجل لا يتزوج المرأة حتى يصاحبها مدة وتحمل منه مرة أو مرتين . وحينئذ يقال إنها ولود ، فيعقد عليها ويعاشرها ...

ومن طبيعتهم الجفاء وسوء الخلق ، خصوصاً إذا كانوا سكارى .

ومن طبيعتهم البخل الزائد ، لا يقرون ضيفاً إلا إذا كان من ذوي قرابتهم ، أو لهم به عُلْقة ، أو كان إنساناً يخافون منه .

ومن عوائدهم أن الصبيان والبنات الصغار ، لا يستترون إلا بعد البلوغ ، فيلبس الصبي قميصاً ، وتشد الأنثى وسطها بميزل ، ويبقى ما زاد عن السرّة إلى وجهها بارزاً .

ومن عادتهم عدم الترّفه والتفنّن في المأكل ، بل كل ما وجدوه أكلوه ، لا يأنفون طعاماً ، مرّاً كان أو نتناً ، بل ربما أحبوا أكل الطعام المر ، واللحم النتن ، واستحسنوه على غيره .

ومن العجيب في أهل جبل مرّة ، أنهم لا يأكلون من القمح الذي يزرعونه ، بل يبيعونه ويستبدلون بثمنه دخناً . وأعجب من ذلك غِلظ قلوبهم وجفاوتُهم ، مع أنهم يمتزجون بالنساء امتزاجاً كلياً . وهذا خلاف المشاع على ألسنة جميع أهل بلاد أوروبا ، من أن الرجال إذا امتزجوا بالنساء تذهب غلاظة قلوبهم ، ويكتسبون الرقّة وحسن الطبع .

باب : فيما ينبت في دارفور من النبات وفي السحر والتعزيم ، وضرب الرمل ، وغير ذلك .

اعلم أن الغنيّ عن المتى والأين والكيف ، والمنزّه عن الجور والظلم والحيف ، قسّم الأشياء وعدّلها ، وأنزل كلاً منها منزلها ، فجعل في البلاد الشمالية البرد الشديد ، وفي الجنوبية الحرّ الذي ما عليه من مزيد . لكن لرحمته بعباده ، منَّ على أهل الشمال بالدفء بالملابس ، وبالأكنان[8] التي لا يبْرد فيها المجالس . ونظر لأهل الجنوب بعين الإسعاف والتلطيف ، فجعل المطر ينزل عليهم وقت اشتداد المصيف .

ولما كانت أرض الفور من هذا القبيل ، في وقت الصيف يشتد فيها الغليل ، كان مدرار الوبْلِ مطفئاً لوهج ذلك الحرور ، لطفاً من العزيز الغفور . فيزرعون على مطر الصيف ، ويسمّون ذلك الفصل بالخريف . فلذلك - على ظنّي - لا يزرعون بُرّاً ولا شعيراً ، ولا فولاً ، ولا عدساً ، ولا حمّصاً ، ولا ينبت عندهم المشمش ، ولا الخوخ ، ولا التفاح ، ولا الرمان ، ولا الزيتون ، ولا البرقوق ، ولا الكمثرى ، ولا الترنج ، ولا الليمون الحلو ، ولا البرتقال ، ولا اللوز ، ولا البندق ، ولا الفستق ، ولا الجوز ، ولا الزعرور ، ونحو ذلك . بل يزرعون الدخن ، وهو حب صغير أصفر ، منه يقتاتون هم ودوابّهم ومواشيهم فهو الغذاء الرئيسي عندهم .

---

(٨) جمع كن ، بالكسر ، وهو البيت ، أو وقاء كل شيء وستره .

وأما أنواع الذرة فلا يألفون منها إلا الأبيض ، ومع إلفتهم له لا يكثرون من تناوله ، وأما أبو أباط ، وهو الذرة المعروفة في مصر بالذرة الشامي[٩] ، فيزرعون قليلاً منه للشهوة ، فيأكلونه مشوياً ، ولا يخزنون منه حباً . وأما العزير فهو مبغوض عندهم لا يأكله إلا الفقراء ، وعند الاضطرار .

وينبت عندهم في البِرَك والغدران أرز ينبت بدون زراع ، فيجمعون منه ما قدروا عليه في أيام الربيع ، فيطبخونه باللبن منن قبيل الترفّه .

ويزرعون من السمسم شيئاً كثيراً . ومن العجب أنهم لا ينتفعون منه بزيت ، بل يأكلونه حباً ، ويطبخون منه في أطعمتهم . كما أن العسل النحلي كثير عندهم ، ولا ينتفعون بشمعه ، بل يأخذون العسل ويرمون الشمع ، وهم أحوج الأنام إليه وإلى زيت السمسم ، لأنهم يستصبحون في بيوتهم بالحطب ، ومع كثرة الحطب عندهم ، لا يفحّمون منه فحماً ينفعهم ، ولا يعرفونه .

وهناك واد بين البلد المسماة بمربوطة والفاشر ، يسمى : وادي الكوع ، يفيض وقت الخريف من كثرة الأمطار ، فلا يعبره إلا من يعرف السباحة . وفيه تيار شديد ، فإذا فاض هذا الوادي وطفا الماء على شاطئيه ، ثم نضب ، ينبت فيه من البامية شيء كثير ، فيهرعون إليه من الجهات القريبة له . ويجمعون تلك البامية ويجففونها ، ويدخرونها لأدمهم العام كله . وهذا الوادي يشقّ دارفور بالعرض من أولها إلى آخرها . ونشأته من جبال مرة ، وعلى شاطئيه سياج من شجر السنط . وإذا فاض يعمّ من كل جهة من جهتيه ما ينوف عن فرسخين ، إلاّ في بعض المحالّ ضايقته الرمال . وسعته في بعض المحالّ كخليج مصر ، وفي بعضها أوسع بمرتين .

والتبلدي : وهو شجر عظيم ضخم ، أجوف الجذع ، ينبت في الفيافي . وأهل

---

(٩) أو الذرة الصفراء المصرية في بلاد الشام .

البادية إذا اشتدّ بهم العطش في غير وقت الأمطار ، يأتون إلى التبلدي فيجدون في تجويفه ماءً مجتمعاً من المطر فيشربون منه و. ذهب أوامهم . ولهذا الشجر ثمر مستطيل كبير كالألواز في باطنه بزر أحمر ، كحب الترمس في الحجم ، وكبزر الخروب في اللون ، إلا أنه فيه دقيق أبيض حامض الطعم ، يستفّ منه فيوجد مُرّاً . والاستفاف منه على الريق يقبض إطلاق البطن . وتعمل منه الكريمة مع الدقيق فتصير لذيذة .

وشجر الدلب : وهو المسمّى في عرف مصر بالجوز الهندي ، إلاّ أن هذا الشجر لا يوجد في جميع دارفور ، بل لا يوجد إلاّ في الجهة الجنوبية منها ، ويسمى في عرف الفور بالدليب . وهو شجر طوال كالنخل أو أطول ، وينتج جوزاً كبيراً ، إذا كسر غلافه وجد ما في باطنه في غاية اللذة ، لا سيما قبل تمام نضجه ، فإنه يكون كاللبن مع الحلاوة واللذة .

النص الثاني

عادات الفور عند الزواج

ومن عاداتهم في سن ما قبل الزواج أن الشبان ـ ذكوراً وإناثاً ـ ينشؤون جميعاً ، ويسود بينهم الاختلاط . ففي صغرهم يرعون الأغنام ولا حجاب بينهم أبداً . وربما اصطحب الشاب والصبية من عهد الرعي ، وعقدت بينهما المودة التي لا تبلى على مر السنين ، فمتى أحبها وأحبته ركن إليها ، وصار يغار عليها ، ولا يرضاها تحادث غيره . وحينئذ يرسل أباه وأمه وأحد أقاربه فيخطبها . فإذا تم الاتفاق بين آل الخطيب والخطيبة جُمع الناس لكتابة العقد ، وحضر الشهود . فيطلب أهل الخطيبة أموالاً كثيرة ، وهذه يأخذها الأب والأم ، ولكنهم لا يذكرون في عقد الزواج إلا شيئاً قليلاً منه فإذا تم العقد يترك الأمر نسياً منسياً لمدة طويلة .

ثم يجتمعون بعد ذلك ـ أهل الزوج والزوجة ـ ويتشاورون ، فيحددون وقتاً يزفون فيه العروسين . فإن كانوا من ذوي الثراء ابتدأ أهلها في تهيئة الذبائح والشراب قبل العرس بأيام كثيرة . ثم يرسلون الرسل إلى أصدقائهم وأحبابهم في البلاد يخبرونهم بيوم العرس . ويكونون قد أحضروا أثناء ذلك ما فيه الكفاية من النبيذ الأحمر المسمى عندهم (أم بلبل) والبقر والغنم مما سيذبح . فيأتي الناس في اليوم الموعود أفواجاً أفواجاً .

وفي يوم الزواج يأتي نساء معهن طبول صغار وكبار ، مع كل امرأة ثلاثة طبول : اثنان صغيران والثالث كبير يسمى الدربكة . فتضع كل امرأة الطبل الكبير تحت إبطها اليسرى ، وتضع الصغيرين تحته في وضع محاذ له . وتضرب بيدها على الثلاثة . ومجموعة هذه الطبول تسمى (الدلوكة) .

وكلما جاءت طائفة من الزائرين خرج النساء بالطبول يضربنها ويغنين كلاماً فيه مدح للفتاة . يستقبل أهل العرس كل طائفة من الزائرين ـ رجالاً ونساءً ـ ثم يضعونهم في مكان خاص ، ويأتون لهم بالأطعمة والأشربة على حسب مقامهم . فمنهم من يقدمون لهم العصيدة واللحم المسلوق والمزر ـ المسمى في مصر بالبوظة ـ ومنهم من يأتون لهم بالفطير والنبيذ الأحمر المسمى (أم بلبل) . أما إذا حضر جماعة من العلماء أو الفقهاء فإنهم يقدمون لهم العصيدة واللحم المشوي والسوبيا لأنها لا تسكر .

أَحْمَد فَارِس الشِّدْيَاق

(ولد سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م - توفي عام ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧ م)

ولد فارس الشدياق في قرية عشقوت بلبنان سنة ١٨٠٤ م ، ولأحوال سياسية انتقل والده منصور إلى قرية الحدث على مقربة من بيروت ١٨٠٩ م فترعرع فيها ، وتعلم في مدرسة عين ورقة . ولما مات والده انكب على المطالعة ، واحترف مهنة نسخ الكتب .

ولما مات أخوه بطرس الذي كان حبيس البطريرك الماروني في دير قنوبين خاف فارس على نفسه فعاف وطنه مغاضباً ، وسافر إلى القاهرة ليكون أستاذ اللغة العربية عند رجال البعثات الأميركيين . وهناك انكب على دراسة اللغة العربية وعلى الاتصال بالأئمة المصريين والعلماء ، فبلغ أبعد أعماقها . ولذلك عهد إليه محمد علي الكبير والي مصر بتحرير جريدة الحكومة (الوقائع المصرية) .

وفي سنة ١٨٢٤ م ذهب إلى مالطة بناء على طلب المرسلين الأميركان ، ولبث في تلك الجزيرة أربع عشرة سنة يعلم في مدرسة هؤلاء ، ويصحح مطبوعات مطبعتهم .

وفي سنة ١٨٤٨ م طلبته وزارة الخارجية الإنكليزية من حاكم مالطة ليعاون الدكتور (لي) على ترجمة التوراة ، فلبى طلبها ومكث في لندن عشر سنوات ، تعرف خلالها بأكبر علماء أوروبا وأدبائها . وهناك ألف كتبه (الواسطة) و (كشف المخبأ) و (الفارياق) الذي طبعه في باريس سنة ١٨٥٥ م .

وفي باريس ألف وأصدر كتباً أخرى أبرزها (سر الليالي) الذي كشف به الغطاء عن عظمة اللغة العربية وصادف أن جاء باريس وقتئذ أحمد باشا باي تونس ، فمدحه الشدياق بقصيدة كان أولها (زارت سعاد) ، ثم بعث بها إليه بعد عودة الباي إلى بلاده فأعجب هذا بها ، وأرسل يستقدمه إلى تونس على سفينة بحارية ليبحر الشدياق عليها هو وعائلته .

وفي تونس غمر الباي الشدياق بنعمه ، وقلده أسمى المناصب ، وفضلاً عن مديرية المعارف عهد إليه برياسة تحرير جريدة الرائد التونسي . وفي غمرة هذه النعم أعلن فارس الشدياق إسلامه ، وأضاف إلى اسمه أحمد ، وتكنى بأبي العباس .

وحينئذ ، وقد ذاع صيته في الشرق والغرب ، استدعاه السلطان عبد المجيد العثماني بوساطة

الباي . ولما جاء دار السعادة (إسطامبول) رحب به السلطان ، وعهد إليه بإدارة المطبعة السلطانية طوال عدة سنوات . وفي سنة ١٨٦١ م أنشأ الشدياق جريدة الجوائب ، فكانت تنطق بلسان الشرق . ومرجعاً للصحف الأوروبية في القضايا الشرقية التي كان يطلق عليها (المسألة الشرقية) . وكانت هذه الجريدة تحمل لواء العرب والعربية الأمر الذي أفضى إلى إسكاتها سنة ١٨٨٤ م .

وفي ١٨٨٦ م زار أحمد الشدياق القاهرة ، وهو شيخ ، فأكرمه الخديوي توفيق باشا ، ونوه بخدماته للشرق أفضل تنويه ، ولكنه مع ذلك ظل يحن إلى العاصمة العثمانية فعاد إليها ، وقضى نحبه سنة ١٨٨٧ م . وقد احتفل بمأتمه أحسن احتفال ، واشترك فيه ممثل السلطان ، وصدرت إرادة سنية بدفنه في تربة السلطان محمود ، بينما رثته صحف العالم على اختلاف لغاتها ، ونقل البرق نعيه إلى العواصم الأخرى . وقالت عنه جريدة الاجيبشيان غازيت ما يلي :

« ضع الكتبة الإنجليز سكيث وإمرسون ودوار دروث ووايكلف وبلويز في شخصية واحدة ، فحينئذ يمكنك أن تتصور جيداً عظمة أحمد فارس الشدياق . ولو ولد الشدياق في أوروبا لدفن مع نخبة العظماء ، ولنصبت له التماثيل في أكثر مدن بلاده » . ولكن الشدياق (على ما جاء في دائرة معارف البستاني) كان يريد أن لا يدفن في غير مسقط رأسه ، ولذلك فإن ولده سليماً التمس الإذن بأن يدفن في قرية الحدث عملاً بتوصية والده . وكان يوم نقل جثمانه إلى لبنان من أعظم أيامه ، كما كان يوم استقبال جثمانه في بيروت يوماً مشهوداً اشترك فيه العلماء وعلى رأسهم مفتي البلدة ، والأعيان والأدباء ، وكانت الرايات والأعلام تمشي أمام الجنازة ، ومشائخ الطرق يمشون وراءها يهللون ويكبرون .

وبعد الصلاة عليه في الجامع العمري الكبير ، وسماع المراثي من نظم ونثر (على ما ذكرت جريدة لسان الحال في اليوم التالي) نقل جثمانه إلى قرية الحدث ، ولكنه لم يدفن فيها ، وإنما دفن على مقربة منها في محلة الحازمية على جانب الطريق بين بيروت ودمشق حيث شيدت له الدولة ضريحاً مرموقاً على نسق مقامات الباشوات والحكام .

لقد ترك أحمد الشدياق عدداً من المؤلفات اللغوية مثل : (الجاسوس على القاموس) و (كشف المخبا في فنون أوروبا) و (الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنكليزية) و (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب) اختارها ابنه سليم من مقالاته في الجوائب و (سر الليال في القلب والإبدال) و (اللطيف في كل معنى ظريف) و (الساق على الساق في ما هو الفارياق) و (سند الراوي في المصرف الفرنساوي) و (المرآة في عكس التوراة) و (تراجم الرجال) و (علم البديع) ومن أهمها كتاب (مجالي الغرر لكتّاب القرن التاسع عشر) و (الواسطة في أخبار مالطة) .

النص الأول

أقام الشدياق أربع عشرة سنة في مالطة غريباً نائياً عن وطنه ، وما استغربه في هذه الجزيرة بقايا ثقافية عربية مشوهة ، ولكنه كان حريصاً على مصالح أمته ، يتمنى لها أن تقتبس من حضارة الغرب فنونها ، ويعتز بأخلاق أبناء العروبة وتمسكهم بالقيم الخلقية التي افتقدها عند أكثرية الأوروبيين ، من فرنسيين وإنكليز .

« ويعلم الله أني مع كثرة ما شاهدته في تلك البلاد من الغرائب ، وأدركت فيها من الرغائب ، كنت أبداً منغَّص العيش مكدَّره ، كمن فقد وطره ، ولزمته معسرة ، لا يروقني نضار ولا نضرة ، ولا نعمة ولا مسرة ، ولا طرب ولا لهو ، ولا حسن ولا زهو ، لما أني دائم التفكر في خلو بلادنا عما عندهم من التمدن ، والبراعة والتفنن ، ثم تعرض لي عوارض من السلوان ، بأن أهل بلادنا قد اختصُّوا بأخلاقٍ حسان ، وكرمٍ يغطِّي العيوب ويستر ما شان ، ولا سيما الغيرة على الحرم ، وصون العرض عما من هذا الصوب يذم ، ثم أعود إلى التفكر في المصالح المدنية ، والأسباب المعاشية ، وانتشار المعارف العمومية ، وإلى إتقان الصنائع ، وتعميم الفوائد والمنافع ، فيجفل ذلك السلوان ، وأعود إلى الأشجان ، وكذا كانت حالة السيد الأكرم المونس ، أمير الأمراء حسين باشا من أمراء تونس . فإن لبث في باريس مدة طويلة وخواطره ببلاده أبداً مشغولة ، فكان يلازمه الأرق ، والهم والقلق ، حتى مكَّنه اليوم الباري تعالى من تحسين تلك الحاضرة ، وإمدادها بالمرافق الوافرة ، فلله الحمد على بلوغ أربه ، وحصول مطلبه ، فإن تنْبِهية الأقطار الإسلامية ، أشهى إليَّ والله من كل أمنية ، كيف لا وعن المسلمين كان أخذ التمدن والفنون في الأعصر الغوابر ، وكانوا قدوة في جميع المناقب والمفاخر » .

النص الثاني

رحلة الشدياق من مالطا إلى أوروبا بالباخرة

(من كشف المخبّا عن تمدن أوروبا)

أقول بعد الحمد لله : إنه في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من أيلول سنة ١٨٤٨ م سافرنا من مالطا إلى إنكلترة وبعد نحو ساعتين غابت عنا أرضها ولكن لم أقلع كما قال الشريف الرضي :

وتلفتت عيني فمذ خفيت عنا الطلول تلفت القلب

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا أرض جزيرة صقلية ، وفي نحو الساعة الثامنة من صباح الغد أرسينا في مرسى مسينه ، وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولي لحصار البلد ، فكانت تطلق المدافع عليه ، ويأتيها جوابها من القلعة ، فلذلك لم نقم بها إلا بضع دقائق . ويقال : إن سكان صقلية الأقدمين كانوا من إسبانيا وكان يقال لهم سيكاني ، ثم قدم إليها الأطروسكان من إيطاليا في سنة ١٢٩٤ ، قبل الميلاد ثم استوطنها الفينيقيون واليونان ، ثم جاء القرطاجيون واستولوا على الجزيرة كلها إلى أن أخرجهم منها الرومانيون .

وفي سنة ٨٢١ للميلاد فتحها المسلمون وجعلوا مقر الحكومة بالرمو ، ولبثوا فيا مئتي سنة إلى أن أخرجهم منها الأمير روجر الروماني ، وفي تاريخ الرومانيين لغيبون : أنها فتحت في زمن المأمون في سنة ٨٢٣ ، وزعم بعض المؤرخين أنها كانت متصلة بالأرض ففصلتها الزلازل المتتالية . وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين : بلغنا نابولي وهي مدينة ظريفة مشهورة بكثرة العواجل والملاهي والحظ والمنتزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة . وفيها عدة كنائس

حسنة وأحسن طرقها حيث الحوانيت العظام الطريق المسمى توليدو ، ولولا أن مملكة نابولي عرضة للزلازل لكانت أحسن بقاع الأرض لخصبها واعتدال هوائها . ثم سافرنا منها في ذلك اليوم فوصلنا شيفتا فكيه في صباح الثلاثاء ، فأقمنا فيها ساعات وليس فيها شيء يقر العين ، ثم سافرنا منها يوم الثلاثاء ، وقد تزودنا بعض فاكهة ، فوصلنا إلى ليفورنو في صباح الأربعاء . وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر نابولي ، ولكنها من داخل أكبر ، وطرقها أوسع ، وبناؤها من الآجر المحكم ، وديارها شاهقة ، إلا أنها ليس لطرقها ممشى على الجوانب للناس ، وكذا هي مدينة نابولي .

ومرسى ليفورنو حسن ، وفيها ملهى وعدة أعلام ومدارس لليهود يقال : إنه أعظم مدارس لهم في أوروبا ومكتبة موقوفة ، وهي ذات أشغال وتجارة ، وأهلها نحو ٧٦٠٠٠ نسمة . وفي القرن الثالث عشر لم تكن إلا قرية حقيرة . ثم سافرنا منها إلى جينوى فبلغناها فجر الخميس ، وهذه المدينة مشهورة بكثرة الصروح العالية والديار الشاهقة جداً ، وفيها قصور كثيرة من المرمر وبساتين ناضرة وفاكهة طيبة ، وهي في نجوة من الأرض متفاوضة الوضع ، وطرقها أضيق من طرق ليفورنو ، ولهذا كانت عواجلها أقل من تلك إلا أن الشمس لا تستحكم في مسالكها لكثرة شرفات الديار المائلة ، فكأنها مبنية من أصلها لحجب الشمس . وفيها حوانيت بهيجة ولاسيما حوانيت الصاغة ، ولها قنطرة قديمة شاهقة جداً إذا نظرت منها إلى الحضيض هالك ارتفاعها ، وفيها الفاكهة الطيبة والخبز النظيف ، ومحل قهوة في غيضة أنيقة ، وهي في الحقيقة نزهة للناظرين ، وما أشبهها إلا بدمشق ، وليس على من يدخلها أن يدفع شيئاً .

كان تأسيسها في سنة ٧٠٧ م ، صارت مضاهئة لفينيسية في الغنى والثروة حيث كانت مورداً للعساكر التي كان يراد تجريدها إلى البلاد المشرقية ، ثم وقع فيها من الفتن والتحزب ما أضعف دولتها ، فدخلت في حماية دولة فرنسا في

عهدة شارلكان (أي كارلوس الخامس الشهير) ، فاستخلصها من الفرنسيس ، وصارت تتحزّب مع إسبانيا عليهم . وفي سنة ١٧٩٦ م استولى عليها الفرنسيس أيضاً ، وفي سنة ١٨٠٠ م حاصرهم فيها الإنكليز والروس وعساكر أوستريا حصاراً شديداً فاضطروا إلى تسليمها ، ثم رجعت إلى عهدة فرنسا ، وفي سنة المهادنة وهي سنة ١٨١٤ م سلمت لملك سردينية .

ثم سافرنا منها يوم الخميس بعد الظهر فبلغنا مرسيليا في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة ، ولهذه المدينة مرسى عظيم يسع ألفاً ومئتي سفينة ، ولا يزال مشحوناً بالبواخر ، ولكثرة ورود المراكب إليها قطعوا خليجاً من البحر ووصلوه به ، وفيها عدة مكاتب وملهى يعد من أحسن ملاهي أوروبا ، وبستان للنباتات ومكتبة موقوفة ومصرف فسيح أعني البورس وفي ضواحيها أكثر من خمسة آلاف دار ، ولها تجارة واسعة مع المشرق وإفريقية وأميركا وإنكلترة والبحر الأسود . كان تأسيسها في سنة ٥٩٩ قبل الميلاد ، وكانت في الزمن القديم ملحقة بولايات الرومانيين ، ومنها توصلوا إلى فتح فرنسا . وفي هذه المدينة محال عظيمة للقهوة مغشاة حيطانها وسقوفها بالمرايا والنقوش والتماثيل ، وأمامها مصاطب يقعد عليها الناس وإن لم يشتروا شيئاً منها . وأهل هذه المدينة يصرفون فيها أكثر أوقاتهم كل طبقة منهم تنتاب منها محلاً خاصاً . وفي بعضها ترى قياناً حساناً يغنين وهن كاشفات الصدور ... وهي وسخة الحارات والأطراف ، لكنها بهية الحوانيت والديار ، مبلطة الطرق ، وليس في ديارها مراحيض ، وإنما يجمعون أقذارهم في وعاء إلى أن يأتي رجل معه عجلة ، وعليها برميل كبير فيناولونه الوعاء فيفرغه في البرميل ، وما يجمعه فيه فإنه يبيعه لتدميل الأرض ، ولا أعرف مدينة أخرى بهذه الصفة ، ومنهم من يقذف بالأقذار أمام البيوت ليلاً فلهذا يشم الماشي في أكثر طرقها رائحة كريهة .

النص الثالث

الحياة عند الإنكليز

ومن العجيب أن الإنكليز قد يبلغ أحدهم السبعين ولا يخطه الشيب لا في رأسه ولا في عارضه ، وإنما يغلب عليهم في هذا السن الدرم والدرد أعني سقوط الأسنان ، وعندي أعظم أسباب الشيب في الأصل هو الهم والخوف من ظلم الولاة وذي الإمرة ؛ فإن أحد الإنكليز إذا كان يملك مثلاً مليون ليرة ، لم يخش أن أميره أو ملكه ينفس عليه بذلك ، لا بل يتباهى به ماشاء لاعتقاده أن غناه وغنى أمثاله موجب لغنى الدولة وشرفها ، ولا يخشى أيضاً أن يتطاول عليه في حقوقه أحد ممن هو أعلى منه ، فإن الجميع في الحقوق متساوون ، وإن القاضي والجرنال[1] عتيدان لكل من الغني والصعلوك ، والنبيه والخامل ، وحسبك أن بعض باعة الشراب أقام دعوى على دوك كمبريج ابن عم الملكة (فكتوريا) فما وسعه إلا الحضور بين أيدي القاضي . ثم الغالب عليهم أيضاً الكلوح والعبوس ولا سيا أهل القرى ، وإن يكن جوهم أصفى من جو أهل المدن ، وذلك لأن في المدن كثيراً من الملاهي والملاعب ومن العازفين بآلات الطرب ، فمتى سمعت الأم الموسيقى أخذت طفلها ورقصته عليها ، أو غنت له فيدرب بذلك ، فيغرس فيه حب الطرب والخفة والبشاشة ، فأما البلاد الخالية من ذلك فلا بد وأن ترى وجوه أهلها عابسة باسرة وطباعهم بليدة .

ولنساء القرى خصلة ذميمة ، وهي أنهن يشرقن بنخامتهن ، وهذه تقابل خصلة نساء فرنسا في لحسهن أصابعهن بعد أكل الحلواء ونحوها ، ويقابلها من خصال أهل المشرق التجشؤ وهو حباق المعدة . غير أن خصلة الفرنساويات أقل أذى . لأنها لا تكون إلا عقب الأكل ومدتها لا تطول ، وجميع النساء اللائي استخدمناهن كن يلمسن شعورهن ووجوههن وأيديهن وسخة ، ويغسلن وجوههن

وأعناقهن ويمسحنها بالخرق التي يمسحن بها آنية المطبخ . والخصلة الأولى رأيتها في لندرة أيضاً ، وقد سمعت أن نساء فرنسا المتظرفات لا يغسلن وجوههن بالصابون مخافة أن تمجل بشرتهن وإنما يغسلن بماء النخالة ..

ومن ذلك الأمن في الخروج ليلاً من دون فانوس ولا باب يقفل على الساري ، والأمن للمسافر أيضاً في البلاد ، فإن الإنسان ليسافر فيها ليلاً وهو في آمن حال وأصفى بال ، مما لو سافر في بلادنا نهاراً . وترى الولد يمشي في المدن الكبار وحده ليلاً ولا يخشى شيئاً . ولا هيبة لذوي المراتب والمناصب منهم أو للعسكر والشرطة عند المارين بهم . وإن البنت لم تبلغ عشر سنين لتسعى بعد نصف الليل ، وتمر بالشرطة فكأنها مرت على بعض أقاربها ، فتسألهم ويجيبونها وتسترشدهم بغير حشمة ولا انقباض فيرشدونها ويذهبون معها . وليس للشرطي حق أن يدخل بيت أحد إلا بإذن الديوان لسبب خطير ولا يأخذ غريماً محقوقاً إلا من الطريق . وفي البلاد الشرقية إذا كلمت المرأة بعض الشرطة أو العسس ليلاً ، لم يلبث أن يمد إليها يده ، ويهتك حجابها ، وهيهات أن ينتقم منه منتقم . وعندي أن عدم الهيبة والخوف على صغر هو الذي يورث جيل الإفرنج جميعاً الإقدام والجرأة على الأمور والكلام ، ويزيدهم بسطة في الجسم والعقل ويبطئ بهم عن الشيب والهرم ، فإن إلقاء الرعب في قلب الصغير كلوافح الرياح العاصفة على الفرس . فمتى تمكن منه جعله بعد ذلك غير صالح للمساعي الجليلة ، وما عدا خوف الكلام الحكام والظلاّم ورؤساء الديانة في بعض البلاد الشرقية ، فإن الأمهات يزرعن في قلوب أطفالهن الخوف من العفريت والروح الشرير والخيال والظلام وغير ذلك فتثبت العادتان . ولولا أن أهل المشرق من طبعهم التسليم للمقدور لما رأيت منهم أحداً تصدق عليه صفة الرجولية .

أما أخلاق الفرنساوية فالكلام عليها يستغرق زمناً طويلاً ، لأن الطبيعة البشرية فيهم لحمتها من نوع وسداها من نوع ، أولاً : فلأن سحنهم وبنية

أجسامهم متفاوتة جداً فأهل جنوب فرنسا سمر كأهل البلاد الحارة ، وأهل شمالها بيض شقر . والثاني : أن ما يظهر للغريب أولاً إنما هو الأنس وحسن المعاشرة ، فإذا رأى ذلك منهم أول وهلة ظن أنهم يزدادون من مؤانسته وألفته ، وإن هذا الأنس لابد وأن يتبعه كرم وصداقة ، ويزيد تعجبه من ذلك على الخصوص ما إذا واجههم على هذه الصفة المستحبة بعد مفارقة الانكليز على حالة الانقباض والعبوس ، ولكن هيهات فإن أنيسك منهم اليوم إذا رآك غداً ظننت أن ملاقاتكما إنما كانت حلماً ، وعلى فرض استمرار الألفة بينك وبينه فلا يدعوك إلى منزله ولا يعرفك بأهله . ومن ذلك أن أهل البلاد الباردة كباريس وغيرها تراهم أخف حركة وأحفد إلى الأشغال من أهل البلاد الحارة أو المعتدلة كمرسيلية ونحوها ، فإن الناس هنا لا حركة لهم ولا نبض ، فمن قدم إليها من باريس ورأى بلادة أهلها عجب كل العجب ، فأين هم من أهل مالطة الذين يبادرون إلى العمل بأدنى إشارة . ومن ذلك أن كثيراً منهم ولاسيما أهل باريس يعيشون مع النساء عيشة المتعة ، ويأتي لهم بنون وبنات وهم على هذه الحالة ، ولا يتزوجونهن زواجاً شرعياً ، فكيف يحب الرجل امرأة ولا يتزوجها لاسيما وقد ولدت له أولاداً وربتهم ، وزواجهم الشرعي هو الذي يعقد في الديوان لا في الكنيسة ، ومنهم من يعقده في كلا الموضعين وهم المتدينون العابدون ...

ومن ذلك ، إن نساء عامة الفرنسيس مع زهوهن وإعجابهن ، إذ الزهو صفة عامة لجميع إناث هذا الجيل ، تراهن يتعاطين من الأعمال الخسيسة ما تأنف منه أخس نساء الإنكليز ، كتكنيس الطرق وحمل الأحمال وتنظيف الأحذية وصيد السمك والمناظرة على المراحيض ونحو ذلك . ولا بد من أن تخاطب كل واحدة من هؤلاء الخسيسات المبتذلات بلفظة مادام .

فأما الستات المترفات من هذا الجيل فالعزة لله الواحد القهار ، فإن ما نقص من مترفية سادة الإنكليز وجلالهم ومجدهم تتلقاه فيهن وافياً فهن نساء صورة وشكلاً ورجال أمراً ونهياً .

الحَشائِشيّ

(١٢٧١ ـ ١٣٣٠ هـ ـ ١٨٥٥ ـ ١٩١٢ م)[١]

هو محمد بن عثمان الحشائشي . ولد على الأرجح في مدينة تونس ، ويرى صاحب كتاب (علماء بنزرت) أنه رأى النور في المدينة المذكورة . وكان والده الشيخ عثمان من علماء جامع الزيتونة في العاصمة التونسية ، فلا غرابة أن يحفظ القرآن الكريم قبل أن يلتحق بالدراسة في المعهد المذكور ، وتتلمذ على بعض العلماء المستنيرين من دعاة الإصلاح من أمثال سالم بو حاجب ، ومحمود بن الخوجة ، ومحمد بيرم ، وعمر بن الشيخ ، وأحمد الورتتاني .

وهكذا عاش الحشائشي في فترة أخذت فيها تونس تحتك بالفكر الأوروبي منذ عام ١٨٤٠ م ، وذلك بعد قيام المكتب العسكري في ضاحية الباردو بجهود الباي أحمد ، وعن طريق المدرسة الصادقية التي أنشئت سنة ١٨٧٦ م ، ولاسيما بعد أن احتلت فرنسا القطر الجزائري الجاور ، وراحت تتدخل بشكل أو بآخر في شؤون القطر التونسي رغم تبعيته للسلطنة العثمانية اسمياً .

إذاً عاش الحشائش فترة ثقافية مخضرمة ، فإلى جانب نواحي الثقافة العربية الإسلامية التقليدية ، كان هناك نوع من التعرف على تيارات الفكر الأوروبي . وقد كان محمد بن عثمان في سن السابعة والعشرين عندما دخلت القوات الفرنسية تونس باسم الحماية .

ويقول علي مصطفى المصراتي : « رغم حوالك الوضع السياسي ، وتسلّط السيطرة الاستعمارية ، كانت حلقات الدراسة الزيتونية كوّات ومنافذ ينبثق منها نور المعرفة ، ويدوي في جنباتها التفكير الإسلامي » .

وما إن حصل صاحبنا محمد على شهادة التطويع من الزيتونة حتى سار على نهج أبيه ، فعمل مدرساً في الجامعة المذكورة . ولكنه انصرف إلى دراسة الأدب أيضاً ، وكان من جيل الأدباء المرحين وذوي المزاج الدعابي والفكاهة المليحة ، وإنه كان يقرض الشعر وينثره في الصحف المحلية عدا النثر .

يذكر المصراتي أنه له ستة كتب هي : (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب) وهي الرحلة التي تهمنا ، (ورحلة الشتاء) إلى بعض أنحاء القطر التونسي و (وصف معرض باريس) الذي زاره سنة

---

(١) نقولا زيادة . الحشائشي . مجلة العربي عدد ١٦٨ (١٩٧٢) .

١٩٠٠ م و (كتاب العادات والتقاليد) ولا يزال مخطوطاً و (كتاب الرحلة الصحراوية) و (ديوان شعر) .

وقد استغرقت رحلته إلى ليبيا حوالي العام الكامل ، زار خلالها طرابلس وسهل الجفارة وجبال المنطقة مثل غريان وترهونة ونفوسة ، كما قصد منطقة برقة فزار الجبل الأخضر ، وعرج جنوباً على منطقة فزان . وقد زار ليبيا للاطلاع عليها بالذات ، أي لم يزرها كحاج عابر أو لطلب العلم أو للتجارة ، من أمثال ابن بطوطة أو العياشي أو ابن ناصر ، من الذين ساروا على طريق القوافل الساحلي ، وتوقفوا في المراكز الحضرية الهامة الواقعة عليه .

ويتميز الحشائشي عن سواه باهتمامه في وصف الأماكن التي زارها من مساجد وأسوار ، واهتم بالناس وبعباداتهم وأخلاقهم ، وهذا ما لم يهتم به الرحالة السابقون كثيراً ، فتكلم عن قاضي مرزق ونسائها وعادات الطوارق . كما اهتم بالفلاحة وأساليب الفلاحين في عصره ، مثلما تكلم بالتفصيل عن التجارة والأسواق وتناول غش التجار لبعض السلع ، أي أن الحشائشي كان يجيد استعمال حواسه وذهنه حريصاً على ألا يهمل شيئاً ـ يستحق الذكر وخاصة الحركة السنوسية في الجنوب .

ويبدو أن الحشائشي لم يفكر بكتابة انطباعاته عن ليبيا بشكل مفصل ، لولا إعجاب من تحدث إليهم عنها ، وطلبهم إليه أن يدون ذلك في كتاب فيقول :

« أما بعد : فقد سألني بعض الأحباء الأصدقاء النجباء الألباء ، من أهل العلم والأدب ، أن أحرر له كتابة مفيدة فيما يتعلق بتاريخ طرابلس ، علماً منه أنني أحسن صنع هذا المطلوب ، حيث اشتهرت سياحتي في تلك المسارب والدروب ، ومكثي بين تلك القبائل والشعوب ، فبت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، ولما وقع الإلحاح في المسألة ، وتواردت عليّ في هذا الغرض عدة أسئلة ، استخرت الله في الموضوع وطلبت منه فيض مدده الرباني للاستعانة على المشروع ، راغباً من ذوي الإحسان وأهل الفضل والشأن غض الطرف عن الخطأ والنسيان ، فإني أول معترف بقصور الباع ، وعدم الاستطاعة والاطلاع » .

وجرياً على عادة كثير من الكتاب في عصره نظم لنا أبياتاً فيها الاعتذار وفيها التاريخ ننقل بعضها لطرافتها :

هذا كتاب صاغه فكري فيما أعلم
يا دهر إني سائل فأجب سؤالي تكرم
فأجابني أرخ لها هذا كتاب قيّم

ومجموع مدلولات التاريخ هو عام ١٣٣٠ هـ .

النص الأول

فصل في أهل بلد طرابلس

« اعلم أن غـــالبهم من البرابرة[٢] ، وطبـــاعهم تميــل إلى البـــداوة أكثر من الحضارة ، وهم على كمال بشري في أنفسهم ، وغالبهم يميلون إلى التجارة خصوصاً في هاته السنين الأخيرة ، فلهم متجر عظيم مع أهل السودان من برنو ووادای والشـاد وغـات وغير ذلـك . ولا يميلـون إلى الغربـاء في أول الأمر ، وقـد ذكرت هــذا في رحلتي ، لكن تحققت بعــد ذلــك أنهم إذا عــاشروا الغريب أكرمـوه ، واعتبروه كأنفسهم ، وصـدق الله تحقيقي هــذا ببيتين من الشعر وجـدتها ببعض التقـارير للفقيه ابن الحسن :

لأهـل طرابلس عـــادة ... من البر تنسي الغريب الحميـــا
حللت بهـــا مكرهـــاً ثم لمـــا أقمت بهـا أبـدلـوا الهـــاء ميا

أمـا العلـوم والمعـارف العصريـة فـلا تـوجـد عنـدهم علمـاء أعـلام من فقهـاء الإسلام ، على أن هاته المدينة اشتهرت بأكابر من علماء الأمة المحمدية كالفقيـه أبي علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي ... » .

« وفي رمضان سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) دخلت جامع السوق داخل البلد ، وهو جامع بهيج عليـه رونق عظيم ، فوجـدت كثيراً من أعيـان الترك من ضبـاط وغيرهم ، كل منهم جـالس على ركبتيـه بخشوع وتؤدة ووقـار ، يسمعـون في كـلام رب العالمين من مجرد عالم بالتلاوة ، مصري لـه صوت حسن ، كأنـه من مزامير آل داود .

---

(٢) الأصح من البربر لأن عبارة البرابرة تعني البدائيين المتوحشين .

وفي مدة إقامتي بهاته المدينة ، رأيت أوباش البلد لهم مخالطة مع الجنس الطلياني ، وغالبهم يتكلمون معه باللغة الطليانية . وأكثر الأوروبيين طليان .

والبلد القديم بناؤه على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس ، إلا أماكن الإفرنج فإنها على الشكل الأورباوي ، والبلد الجديد المعروف بالمنشية على الشكل الجيد مثل تونس . أما هواء البلد فهو معتدل ليس برديء ، وتوجد به الحمّى في زمن الصيف .

أما لحوم البلد وفواكهها وغلاتها فجميعها طيبة . وفيها من كل ما خلق الله لعباده من أصناف النعم بثمن متهاود ، ويعظم فيها الدّلاع[٣] إلى أمر عظيم بحيث أن الجمل لا يمكنه حمل دلاعتين إلا بمشقة[٤] ، وهو في غاية الحلاوة مع لذاذة الطعم .

ويأتيها من أوروبا غالب السلع التي تأتي إلى بلد تونس . ويخرج منها القمح والشعير والغنم والصوف والتمر وبعض الغلال كالبردقان والليم [٥] الحامض والحلو والفلفل الأحمر الشايح والحنا وسلع السودان كالجلد المسمى بالرقعة وريش النعام وناب الفيل وغير ذلك . وهاته السلع الخارجة ليس عليها ضرائب دولية إلاّ شيء قليل وجميع ما يأتيها من السلع براً مع القوافل السودانية وغيرها لا يؤدي شيء من الضرائب .

وغالب تجارها من أهل البلد وبعض المالطيين واليهود ، ولا يوجد فيها بانكه مالية[٦] في وقت حلولي بها ، ولا حراق من الحديد ، ولا معامل أوروبية

---

(٣) أي البطيخ الأحمر الذي يسمى الحبحب أو الجح في جزيرة العرب والجبس في حلب ، والدبشي في دير الزور ، والرقّي في العراق .

(٤) وهنا تظهر المبالغة حسب عادة الكتاب الأقدمين .

(٥) أي الليمون .

(٦) أي بنك أو مصرف .

نـاريـة ، ولا قهـاوي منتظمـة على الشكل الأوروبي . وهي لا زالت بعيـدة عن التنظيمات الأوروبية والتحسنات .

أما الفلاحة في هذا البلد فتنقسم على قسمين : القسم الأول أصحاب البسـاتين الكبيرة والأراضي المجاورة ، يعني أحواز طرابلس وأصحـاب الآبـار والميـاه ، فـإن هؤلاء يتقنون الفلاحة ويخدمون الأرض جيداً ، وأما العرب والعروش[٧] البعيـدة عن البلـد ، وهم القسم الثـاني ، فليسوا بـأصحـاب حـزم وكـد على أصلهـا مـع أن أراضيهم جيـدة في غـايـة الخصب ، لكن يميلـون إلى المتـاجر أكثر ممـا يميلـون إلى الفلاحة ، على عكس أهل بني غازي كما سنعرف (إن شاء الله) في هذا التـاريخ . ومرسى البلـد ليس بمرسى صنـاعي ، بـل تقف فيـه السفن قريبـة من البر ، وإن اشتـد البحر يصعب النزول من السفن على الركاب . ولـما كنت هنـاك وجـدت بمرساها مدرعة واحدة للعثمانيين وبابورين[٨] للبوسطة ، أحدهما فرنساوي والآخر طلياني ، وكان الطلياني متوجهاً إلى تونس وهو الذي حملني إلى مسقط رأسي .

النص الثاني

(إقليم فزان)

يحتوي هذا الصقع على ثلاثمئة قرية[٩] بناؤها من الطوب ، إذا أصابهـا الغيث الوابل تنهدم سريعاً ، وماؤهم من الآبار والعيون ، وبكل قريـة من النخيل مـا لم يعلم علمه إلا الله تعالى ، إذا لم يحص عدده ، والصحراء والتوارك[١٠] يمتارون منه ،

---

(٧) أي البدو والقبائل شبه البدوية .

(٨) أي باخرة ، والكلمة محرفة من كلمة vapeur ، أي السفينة التي تسير على المحركات البخارية .

(٩) تقدير تظهر فيه المبالغة المفرطة وربما هذا يعود لسذاجته في تصديق معلومات محلية سمعها من أفواه أبناء المنطقة .

(١٠) أي الطوارق ومفردها طارقي .

وغالب أراضيه ليست بصالحة للفلاحة ، ولا وجود للبقر بأراضيهم إلا بقر الوحش البري[١١] ، وأغلبها إن لم نقل كلها رمال وجبال من الرمال رحالة ، وجبال من الحجر لونها أكحل لا نبات فيها . وتبلغ الحرارة هناك إلى درجة عالية ، ويقع عندهم الجمود في المياه ، فكثرته من أكتوبر إلى فبراير إن هبت عليهم الرياح الغربية . والرقيق في بلدانهم كثير يباع ويشترى من غير إشهار . ويمكن أن الثلاثة أيام أو أربعة تمشي في أراضي لونها كالقار أو أشد سواداً . وجبالها وأراضيها صلدة لا نبات بها ، وأياماً تمشي في رمال متصلة بعضها ببعض ، وبها جبال شامخة من الرمل رحالة ، وأياماً في بساط متسع ، وتنايف ممتد الأطراف ، ومجاهل تمكث فيها القوافل العديدة ، وأهلها لا خدمة لهم إلا حركة النخيل ، وفيها التجار الذين يذهبون إلى السودان وبلدانه ، وكثير منهم يقصد بنغازي وطرابلس وتونس لأجل الخدمة والتمعش ، ولهم محبة عظيمة في خوض تونس على غيرها لكثرة أرباحهم بها ، ومن مكث مدة في تونس ثم رجع إلى بلده يحسب غنياً في عرفهم ويتفاخرون بالذهاب إلى تونس .

وطباع أهلها التأني والرزانة على طريقة الشيخ السنوسي إلا القليل ، ولا توجد بلدة من بلدانهم المشهورة لم تكن به زاوية من زوايا السنوسيين .

بلدانهم المشهورة : أما بلدانهم الكبيرة المشهورة فأولها مرزق : هي قاعدة فزان الكبيرة التي بها المتصرف والعسكر ، تبعد عن طرابلس بمسير ثلاثين يوماً تقريباً للقوافل .

ولتعلم السلع الداخلة لطرابلس : القماش الأبيض بأنواع كالحمودي والعنبرفني وغيره . القماش المصبوغ من المالطي وغيره ، أنواع السكر خصوصاً السكر القالب[١٢] . التاي[١٣] بأنواعه الأبيض والأسود . اللفة بأنواعها . الملف بأنواعه .

---

(١١) ويسمى في ليبيا الودّان .

(١٢) كان السكر حتى عام ١٩٣٠ يصدر على شكل اسطوانات طولها حوالي ٣٥ سم وقطرها ١٣ سم تقريباً .

(١٣) أي الشاي أو الشاهي .

الجرود يعني الحوالي[١٤] بـأنواعهـا ، وغـالبهـا تـأتيهم من جربـة والجريـد من عمل تونس . البرانس . الكساوي المحروجة والجبـايب . أنواع الشـاشيـة التونسيـة[١٥] . القرمسود بأنواعه جميع الروائح الطيبة من أعطار ومسك . أبرزة بأنواعها . أنواع الأسلحـة . الحلي من المجوهرات وأنواع السـاعـات ومن الـذهب والفضـة والعقيـق بأصنافه وألوانه ومن المرجان ، محارم من الخيـط والقطن والحرير . أنواع الأقمشـة المديانية وغيرها . قوالب صـابون أوربـاوي ممسّـك . الأرز . أنواع الكولونيـة من جميع الروائح الطيبـة . أنـواع الأقمشـة بـالفضـة وغير ذلـك مما يطـول بنـا ذكره تفصيلاً . جميع هاته السلع تأتي إلى طرابلس من أوروبا وتونس والإسكنـدريـة ، ومنها يرفعونها التجار إلى غات وغدامس وفزان والأقطـار السودانيـة ، يـذهبون بها تجاراً من أهل طرابلس وغدامس فتباع بأثمان باهظة .

السلـع الخـارجـة من طرابلس إلى أوروبـا : ريش النعـام بـأنـواعـه . نـاب الفيل . الزبـد . طيور من النعـام . وأنواع الببغـاء . وكل مـا يـأتيهـا من السلع السودانيـة . ويحزم منهـا القمح والشعير والسمن . والزيت . والفحم والطرونـة . والملح . والبقر . والغنم . والمـاعز . والـدجـاج . والبيض والتمر والفلفل . والحنـا والفول والعـدس والحمص والزيت . ويبـاع بثمن عـال في وطن فزان والعسل وغير ذلك .

---

(١٤) وهو قماش صوفي أبيض يلفه الليبيون حول أجسامهم .

(١٥) قبعات حمراء .

أَحْمَد حَسَنِيْن بَاشَا

(ولد عام ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م ـ توفي سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م)

أحمد محمد بن أحمد حسنين البولاقي ، وكان أبوه من علماء الأزهر وجَدُّه فريقاً في الجيش المصري من أهل البحيرة . ولد بالقاهرة وتعلم بها ثم أتم دراسته في أكسفورد ببريطانيا . وعاد إلى القاهرة سنة ١٩١٤ فتولى بعض الوظائف .

واتصل بالملك فؤاد ، فأعانه على القيام برحلته الشهيرة التي قام بها عام ١٩٢٣ ، جاب بها صحراء مصر الغربية من ساحل البحر الأبيض المتوسط منطلقاً من السلوم مع قافلة من الإبل خاصة به ، فزار واحة سيوه ، والجغبوب ، ثم اتجه غرباً حتى واحة جالو جنوب بنغازي ، ثم سلك طريقاً جنوبياً حتى واحات الكفرة عاصمة السنوسيين ، ثم اتجه نحو الجنوب الشرقي فوصل إلى جبل العوينات ، ثم توغل في صحراء السودان الغربية حتى موقع بئر أردي ، ثم أجاه ، ثم أنبياه ، وأخيراً باو ، وكلها في التشاد ، ثم دخل أراضي السودان المصري ـ الإنكليزي كما كان يسمى حينذاك في موقع فوراويه ، وآبار فنجو ، وبئر أم الرحيق ، وبئر مطرح إلى أن بلغ الفاشر ، فالنهود إلى أن بلغ الأبيض المدينة السودانية الغربية ، ثم عاد إلى مصر متابعاً مجرى وادي النيل . وكان قد اكتشف بعض الواحات كالعوينات وأركنو .

وقد احتفلت به مصر أيما احتفال ، وجرت له حفلة تكريم أقيمت للرحالة المصري بكازينو سان استفانو بالإسكندرية تحت رعاية الملك ، وحياه أمير الشعراء شوقي بقصيدة يقول فيها :

أقـــدم فليس على الإقـــدام ممتنـــع ... واصنـع بـه المجـد فهـو البـارع الصنـع
للنــاس في كل يـوم من عجــائبــه ... ومــا لم يكن لامرئ في خــاطر يقـع
هــل كان في الـوهم أن الطيرَ يخلفهـــا ... على السماء لطيف الصنـــــع مخترع
قــل للشبـــاب بمصر عصركم بطـــل ... بكل غــايـــة إقــدام لـــه ولـع
أسُّ الممالـــك فيـــه همـــة وحجى ... لا الترهـــات لهـــا أسٌّ ولا الخـــدع
يعطي الشعـوب على مقـدار مـا نبغـوا ... وليس يبخسهم شيئـــاً إذا برعـــوا
مــاذا تعــدون بعــد البرلمــان لــه ... إذا (صفـاركـو) بـالـدولـة اضطلعـوا



(شكل ٢٥)

أحمد حسنين باشا في بستان ١٩٤٠ عندما كان رئيساً للديوان الملكي ويظهر في الصف الأول وإلى يمينه رئيس الوزراء علي ماهر باشا ثم الملك فاروق فشيخ الأزهر فشقيق أمير البحرين

البر ليس لكم في طـــــولــــــه لجم
والبحر ليس لكم في عرضــــــــه شرع

هـل تنهضـون عــــاكم تلجقـون بــــه
فليس يلحـــق أهـــل السير مضطجـــع

كم في الحيـــــاة من الصحراء من شبـــه
كلتـــاهمــــا في مفــــاجــــاة الفتى شرع

وراء كل سبيــــــل فيها قـــــــدر
لا تعلم النفس مـــا يـــأتي ومـــا يـــدع

فلست تـــــدري وإن كنت الحريص متى
تهب ريحها أو يطلـــــع السبـــــع

ولست تـــأمن عنـــد الصحـو فـــاجـــة
من العـــواصف فيهـــا الخـــوف والهلـــع

أكبرت من (حسنين) همـــــــة طمحت
تروم مـــــا لا يروم الفتيـــــة القَنـــع

رحـــالـــة الشرق إن البيـــد قـــد علمت
بـــأنـــك الليث لم يخلـق لـــه الفـــزع

وهـــل مررت بـــــأقـــوام كفطرتهم
من عهـــــد آدم لا خبث ولا طبـــع

ومن عجيب لغير الله مـــــا سجــــدوا
على الفــــلا ولغير الله مــــا ركعـــوا

أجـــزت مصر ثنــــاء أنت مـــوضعـــــه
فـــلا تـــذب من حيــــاء حين تـمتـــع

وقد وضع أحمد حسنين كتاباً عن رحلته سماه (في صحراء ليبيا) ويقع في مجلدين . وانتدبته الحكومة المصرية لمفاوضته إيطاليا بشأن الحدود الغربية سنة ١٩٢٤ ، ثم أصبح أميناً للملك فؤاد ، فاستمر في منصبه خمسة عشر عاماً . وتولى رئاسة الديوان الملكي ، وانتدب لملازمة ولي العهد فاروق في رحلة دراسية إلى لندن . ولما توفي فؤاد وتولى فاروق جعله رئيساً لديوانه (شكل ٢٥) . ومرت بالدولة والعرش أزمات كان فيها الرسول بين السلطات الثلاث : القصر والوزارة والسفارة البريطانية . وتوفي بالقاهرة صريعاً صدمته سيارة بريطانية وهو في سيارته . وكان دمث الخلق محبوباً ، مقداماً تعلّم الطيران وامتاز بألعاب الرياضة ولا سيا لعبة السيف المعروفة بالشيش . وبعد سقوط فاروق سنة ١٩٥٢ وجهت إليه انتقادات مرة منها زواجه سراً بالملكة نازلي ، ثم زين للملك فاروق حياة الشهوات caprices التي أدت به إلى التنازل واللجوء إلى جزيرة كابري Capri ، ومن ثم إلى مونت كارلو ، وعاش بقية حياته كشخص مقامر منحل خلقياً إلى أن مات سنة ١٩٧٠ .

النص الأول

زوابع الرمال في طريق جالو

تركت الجغبوب في يوم من خير الأيام التي جرت عادة البدو أن يتفاءلوا بها .

كان ذلك يوماً عاصفاً تسفي فيه الريح الرمال ، والعرب يقولون : إن

القافلة التي تبدأ رحلة في عاصفة يكون نصيبها التوفيق وتصيب حظاً طيباً .

وأكبر ظني أن العرب ابتدعوا هذه الفكرة قديماً للرضا بما هم واقعون فيه كل يوم ، والنزول على ما تضطرهم إليه طبيعة الصحراء ، وإلاَّ فإن البدوي في هذا يكون كالمصري أو السوداني إذا قال : إن السفر محبوب في يوم مشمس ، أو الإيقوسي إذا تمنى اليوم الممطر لسفره . إذ زوابع الرمال في الصحراء أمر عادي قد يلقاه مجتازها في أي مكان وآونة . على أنها تجربة شاقة ومحنة قاسية يعاني الإنسان هولاً شديداً في احتمالها .

يصبح والسماء صافية ، والجو مما ينذر بعاصفة أو يشعر بريح . وتبسم الصحراء لنا ، ونحن نهم بالرحيل ، فتتحرك القافلة فرحة مبتهجة وتسير فرحة طروبة . وما هو إلا قليل زمن حتى يهب نسيم بليل لا يعرف مأتاه ، يمضي همساً فوق الرمال ، ثم يشتد دون أن نشعر بذلك ، وإلى هذا الحد لا نلقى من هبوبه ما يضايقنا .

ثم ينظر الإنسان إلى وجه الصحراء ، فإذا سطح الأرض قد تغير تغيراً غريباً ، وإذا ذرات الرمال ترتفع قليلاً ، وتنبجس وتدور كأنها بخار يتصاعد من ثقوب لا عدَّ لها في أنابيب مدت تحت ذلك السطح . وتزداد ثورة الرمال شيئاً فشيئاً كلما ازدادت الريح قوة حتى يخيل للإنسان أن سطح الصحراء كله يرتفع إطاعة لقوة دافعة رافعة تحته .

ويتطاير الحصى ويتناثر فيصيب قصب الأرجل والركب والأفخاذ ، ويتصاعد رشاش حبات الرمال الراقصة على الأجسام حتى يلطم الوجه ويدوّم فوق الرؤوس .

ثم تغيم السماء فلا يرى البصر إلا أشباح الجمال القريبة منه ، وتثور الطبيعة فكأن في الجو قوى خفية تصب العذاب لطماً وقذفاً ولدغاً .

وخير لمن تدهمه الزوبعة أن تهب الريح من ورائه ، لأن لطم الرمال في وجهه عذاب أليم . وفوق هذا فليس في وسعه أن يبقى مفتوح العينين ، ولا هو يجسر أن يغمضها ، فلئن كان لدغ حبات الرمال شراً وبلاء ففقد الطريق شر أعظم وبلاء كبير .

ولحسن الحظ أن الريح تهب في عصفات متلاحقة تتراوح بين الثلاث والأربع ، وتعقب كل طائفة منها ثوان قليلة تسكن فيها الريح فتريح النفوس ، ذلك أن الإنسان عند عصفها يدير وجهه ويتقي الرمال بطرف كوفيته ، ويكاد يمسك عن التنفس حتى تجيء فترة السكون فيكشف عن وجهه ، ويلقي نظرة سريعة يتبين الطريق ويعجل بالتأهب للهبّة الثانية . وكأن هناك شيطاناً هائلاً عاتياً ينفخ تلك العصفات والهبات الداوية في الرمال ، فيسفيها فوق رؤوس المسافرين ، ويدوي في الفضاء صوت يصم الآذان ، وكأن هذا الصوت من يد ذلك الشيطان تضرب بأصابع قوية خشنة ضربات متناسقة على أوتار مشدودة من الحرير .

متى بدأت زوبعة الرمال لم يكن للمسافر إلا أن يندفع في سيره غير وانٍ ، فإن الرمال إذا أصابت شيئاً ثابتاً سواءً أكان ذلك الشيء عاموداً أم جملاً أم رجلاً تكدست حوله حتى تصبح ركاماً ، وهكذا إذا كان في السير عذاب وأهوال ، ففي الوقوف الموت الزؤام .

وقد تظل زوبعة الرمال على أشدها خمس أو ست ساعات ، وليس في ميسور القافلة أن تتابع التقدم حينئذ إلا مع الحرص الشديد على تبين الطريق حتى لا تخطئه .

وإذا تمردت العاصفة واشتدت ، فإن الإبل تكاد لا تتقدم ، ولكن غريزتها تجعلها تتوقع الموت إذا وقفت عن السير . ويتجلى ذكاؤها الغريزي فيها ، عندما يبدأ نزول المطر إذ لا تحس خطراً فتقف بغتة أو ترقد .

وتدفع العاصفة ذرات الرمل فتخترق كل شيء يحمله الإنسان . تملأ ثيابه وطعامه . تملأ حوائجه وآلاته العلمية . تبحث عن موضع الضعف فيما يذروها فتنفذ إليه منه حتى يحس بها ويتنفسها ويأكلها ويشربها . وربما نفذت ذرات الرمل الدقيقة في مسام جلده فآذته كثيراً .

ويعرف البدوي خصائص هذه العواصف فيحيط بها علماً كل غريب عن الصحراء . يقول البدو إن الريح التي تنذر بالعاصفة تهب مع النهار أو تقرُّ مع غروب الشمس . ولا تقوم العاصفة في ليلة ولا تثور بين العصر والمساء .

ولكن كل هذه القواعد الطيبة اختلت في رحلتنا إلى جالو ، فقد ثارت العواصف والقمر مشرق . وثارت والليل بهيم ، وأصابتنا زوابع بدأت قبل الفجر ، وأخرى ظلت إلى ما بعد الغروب بزمن طويل ، ودهتنا عواصف جمعت بين العصر والمغرب حتى ما أحسسنا لضوء النهار بين هذين فارقاً .

واختلفت أنواع العواصف التي أصابتنا . فكان منها الضعيف والقوي .. والقصير الأمد والطويل الهبوب . الثائر بالنهار والقائم بالليل .

هذا حال الصحراء في شدتها وقسوتها ، في غضبها وثورتها ، على أنها لا تلبث أن تكشف لنا عن وجهها الجميل ، وتطلع علينا بصحيفة جديدة من صحف سحرها ، فقد يحدث في المساء أن تكون في صراع هائل مع كتائب الرمال السافية ، فتسكن الريح فجأة ، كأنها أمرت فامتثلت ، ثم تقر حبات الرمل الدقيقة ، كأنها ضباب يستقر ، ويشرق القمر ، فتأخذ الصحراء شكلاً جديداً تحت ضوئه السحري الباهت الذي يغمر نواحيها .

أكانت هناك منذ هنيهة زوبعة ثائرة كادت تودي بحياة القافلة ؟ من يستطيع أن يذكر ذلك ؟ هل يعقل أن هذا الفضاء الهادئ البديع كان قاسياً قط ؟ من يستطيع أن يصدق هذا ؟.



الرحالة أحمد حسنين باشا على جواده (بركة) ورجال قافلته الذين رافقوه في الرحلة في عام ١٩٢٣م

وهكذا لم تكن رحلتنا إلى جالو بالسهلة ، فقد كانت زوابع الرمال تضايقنا باستمرار . وبلغت في بعض الأحايين حد الخطر . وكان الشق الثاني من الطريق مملوءاً بغرود من الرمل ، اضطرت القافلة إلى تجنبها بالسير حولها مع ما في هذا التعرج من إجهاد الفكر ومشقة كبرى في تتبع البوصلة .

وقد زاد هذا الواجب مشقة من جراء ثورة الزوابع وسفيها الرمال في أبصار رجال القافلة ، ورغماً من هذا تابعنا السير مجدين . وكان لنا ساعات لهو وسرور أثناء هذه الرحلة رغم ما لاقينا من أذى الرمال . فإن الذاكرة لا تنسى الليالي البهيجة التي كنا نجتمع فيها حول نار الحطب ، نتناول كؤوس الشاي بعد العشاء . فيبدأ الحديث رفيقنا مغَيِّب ، الشيخ الكبير ، وألسنة النيران الراقصة تنعكس على لحيته الشعثاء التي وخطها الشيب ، ويقص علينا فصولاً من تاريخ قبيلة زوي ، أيام كان جدُّه يقصد واداي لمحاربة قبائل السود ويغنم الجمال والعبيد .

ويتبعه الرفيق صالح ، فيطرفنا بأخبار الربح الطائل الذي جناه ابن عمه حين سافر سفرته الأخيرة إلى واداي ، فلم يحارب أحداً ، وإنما جاء منها بالجلود وريش النعام والعاج وباع كل ذلك في أسواق برقة .

واجتزنا بئر أبي سلامة وهي بعد الجغبوب بسفر يوم ، فاخترقنا ناحية بها بقايا غابة متحجرة ، وكنا نمر في سيرتنا بقطع كبيرة من الأحجار قائمة كأنها أعلام في الطريق ، وكانت هذه الصخور منذ أجيال بعيدة أشجاراً نامية ، ولكن عوامل الطبيعة نقلتها من مملكة النبات إلى مملكة الجماد . وكان هناك قطع قليلة متناثرة من الأخشاب المتحجرة ، ولكن أغلبها كان مدفوناً تحت الرمال . وإنما بقيت القطع الكبيرة ظاهرة ، لأن عوائد الصحراء تقضي على من يمر بعلم ساقط من هذه الأعلام أن يقيمه . ومن العادات أيضاً أن توضع في الدروب الجديدة أكداس من الصخر متقطعات تدل القوافل على تلك الدروب .

وقد يحدث أن يمر الإنسان بشجرة أو شجيرة قد علق بها خرق من الأثواب ، ويتعين عليه أن يضيف إليها شيئاً من حوائجه ، فيكون تكدس هذه الأشياء دليلاً على وجود الشجرة في درب مطروق ، يشجع التابعين على مواصلة السير فيه . لأن الشعور بمرور زميل سابق أمر ينعش قاطع الصحراء في ذلك السكون الشامل والفضاء الممل بتشابه مناظره . وإن رؤية روث الجمل وعظامه المبيضة ، بل العثور بهيكل عظمي لمسافر قضى في الطريق يسر عين المار بها ، لأنها تؤكد له مرور قافلة في تلك الطريق من قبل .

النص الثاني

وصف عادات بدو برقة

وبدوي برقة يجري في عروقه دم العرب الذين اجتازوا شمال إفريقية في طريقهم إلى الأندلس ، وهو بالرغم من اختلاطه برجال القبائل الأخرى محافظ على كثير من تقاليده العربية القديمة ، فجريمة القتل عند السنوسيين تفصل فيها قوانين البدو الخاصة . والعادة أن يتداخل الأخواني في الخصومات ، ويصلح ذات البين بين المتخاصمين ، فيأخذ القاتل وشيخاً من شيوخ قبيلته ، ويقصد خيام المقتول فينصب خيامه على مقربة منها ، ثم يتقدم مع القاتل إلى أفراد أسرة القتيل قائلاً : « معي قاتل رجلكم » ثم يأخذ بيده ويقول : « هذا قاتل ولدكم أسلمكم إياه فافعلوا به ما أنتم فاعلون » فيكون الجواب عادة : « سامحه الله وأنزل عليه عدله ورحمته » .

ثم يأخذ الأخواني بعد ذلك في تسوية مقدار الدِيَّة وهي في الغالب ثلاث آلاف ريال وعبد يكون معروف الثمن في سوق الرقيق . ولأقارب القتيل حق الاختيار بين قبض المال أو أخذ قيمته جمالاً وغنماً وما إليهما من حوائج البدو . فإن آثروا المال قسم دفعه على أقساط تجري من سنة إلى ثلاث سنين واتفق على ذلك

وانتهى الأمر . وقد يحدث في أحوال نـادرة أو يقع إذا كان طلب الثـأر مستحكمـاً بين رجال القبيلتين أن يرفض قبول الديَّة ، ومعنى هذا أن في نية قبيلة القتيل أن تقتل قاتله أو أحد أقاربه أو رأساً من رؤوس قبيلته .

وشبـان البـدو وعـذاراهم مطلقـون في الاختـلاط بعضهم ببعض ، ولا تحجب المرأة إلاَّ في الأسر الكبيرة . ويعرف الشاب موضع أمله في الزواج فيقصد خيامهـا فيغنيها من شعره ، فإن مالت نفسها إليه خرجت وساجلتـه الغنـاء من مقولهـا أو من منقولها . ويقصد الشاب أهلها بعد ذلك ويدفع المهر إن تمّ الاتفـاق . ثم يعود إليها في حفل من أصَحابها ، ويـأخـذهـا إلى داره ، تحف بها الفرسـان المتخطرة ، وتدوي فوق رؤوسها طلقات البنادق .

وقد يفر الحبيب بحبيبته فينتهي الأمر بين قبيلتيها بسفك الدماء لأن البـدو يعدون الفار بحبيبتـه سـارقـاً لهـا . وعقود الزواج يجريهـا الأخواني ، ويتم العقـد وفقـاً للشرع الإسلامي الشريف ، والزواج عنـد العرب في سنٍّ مبكرة تتوقف على نمو البنت ، والغـالب أن تتزوج البنت في سن الثـالثـة عشرة أو الرابعـة عشرة ، ويتزوج الشاب بين السابعة عشرة والعشرين ، والقادر من البدو يتزوج اثنتين أو أكثر ، ولكن الأولى في هـذه الحـال تبقى سيـدة الـدار ، بيـدهـا أمر تـدبيرهــا ، وتفضل على ضرَّاتها بما فيهن أقربهن وأجلهن إلى بعلهـا في كل مـا يتعلق بـالشؤون المنزلية .

مُحمَّد ثابِت

رحالة مصري معاصر . جغرافي متأدّب من أهل القاهرة ، كان يعلّم في بعض المدارس الثانوية ، ويقوم في عطلة الصيف ، من كل سنة برحلة يدوّن مشاهداته فيها . وعيّن مراقباً للنشاط الاجتماعي في وزارة التربية ، وعميداً لمعهد المعلمين الابتدائي بالزيتون . ثم اختير لتدريس المواد الاجتماعية في كلية النصر بالمعادي (من ضواحي القاهرة) . وقد قام في الفترة الواقعة بين الحربين العالميين بعدة رحلات ، شملت تقريباً معظم أنحاء العالم المعروفة براً وبحراً . وتتميز كتابته بالبساطة وخلوها من التكلف ، وإن كانت لا تخلو من النظرات الثاقبة والملاحظات الدقيقة .

وقد ألّف عدة كتب عن رحلاته أهمها (العالم الديموقراطي كما رأيته) و (العالم العربي كما رأيته) ، (جولة في ربوع آسيا) يصف فيها بلاد الصين واليابان ، (الموجز في الجغرافية الإقليمية) و (جولة في ربوع إفريقية) و (جولة في ربوع أوروبا) و (جولة في ربوع الدنيا الجديدة) و (رحلاته في مشارق الأرض ومغاربها) و (نساء العالم كما رأيتهن) و (دنيا الجنس اللطيف) .

ويعتبر المصري الوحيد ـ حتى اليوم ـ الذي استطاع أن يزور أغلب أرجاء المعمورة ، إذ تجول في أكثر الدول المعروفة في القارات الخمس لا طلباً للرياضة والنزهة ، بل حباً في الدرس والاطلاع . وأصيب وهو يحاضر تلاميذه في كلية النصر بالمعادي بنزيف في المخ توفي على أثره عام ١٩٥٨ ميلادي .

النص الأول

عادات الإنكليز في بيوتهم

قمنا إلى أدجوير وهي ضاحية من لندن تعد موطن الطبقات الوسطى ، بيوتها صغيرة متواضعة وليست متلاصقة ولا مرتفعة ، يحيط بكلٍّ حديقتان صغيرتان ، ويفصل بين كل مجموعة من المساكن مرج فسيح أخضر ، ويسترعي النظر فيها نظافتها وبساطة بنائها فهي تقام بالآجر الأحمر ، وتكسى واجهتها

بالزجاج الذي يبالغ القوم في مسحه ، تغطيه الستائر من داخله ، وترى في مدخل كل واحد صالون الاستقبال ، وقد نسق في بساطة ، وعلقت على جدرانه الصور الزيتية وباقات الزهور فوق المناضد . وقد زرنا إحدى العائلات هناك في رفقة زميل لنا كريم ، وتصادف أن كان وقت الغذاء وقد مد السماط ، وعجيب أنهم جميعاً قابلونا بترحاب . وأجلسونا حولهم وهم يأكلون ، ولم يتعرض واحد منهم لدعوتنا للطعام ، فكنا ونحن جلوس نحس بشي من الخجل ، وظننا أنهم سيقدمون لنا تحية من القهوة أو ما شاكلها كا نفعل نحن ، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل مطلقاً ، فودعناهم ونحن ذاهلون .

سكان لندن : قوم صحيحو الجسوم بفضل ميلهم للرياضة ، نظيفو الهندام ، يسيرون في نشاط الشباب ، حتى الشيوخ لا يضيعون وقتهم الثمين في التلكؤ في الطرقات أو التسكع على المقاهي ، ولا عجيب ألا توجد المقاهي هناك قط ، اللهم إلا أماكن تفتح ساعة أو ساعتين في اليوم ، و يؤمها العمال لتناول الشاي أو القهوة . فكم بحثنا عن مكان نجلس فيه لتناول بعض المرطبات فلا نجد إليه سبيلاً في جميع الأرجاء ، وقد أعيانا التعب ونال منا ، فهم قد استعاضوا عنها بالأندية التي لا تكاد تجد فرداً إلا وهو مساهم في واحد منها ، والنساء هناك رشيقات ، يمشين في وقار ، ولا يتكلفن في أرديتهن ، ولا يطلين وجوههن بشيء إلا نادراً ، على عكس مايفعل الباريسيات ، على أن اختلاطهن بالشبان كثير جداً في المنتزهات ، ولعل أجل صفات الإنكليز رزانتهم وقلة الجلبة بينهم على نقيض الفرنسي .

حدث مرة أن إنكليزياً كان راكباً في قطار فرنسي إلى باريس في المقعد الذي يواجهنا ، فأقبل الفرنسي ولم يجد له مكاناً ، وكان في المقعد الجانب للإنكليزي حقيبة فأشار عليه أن يرفعها ليجلس ، فلم يعن الإنكليزي بأمره ، واستمر يقرأ كتابه ، فما كان من الفرنسي إلا أن هدده بإلقائها من النافذة ، فتمادى

الإنكليزي في جموده ، فحملها الرجل وألقى بها من النافذة ، والقطار يسير كالبرق ثم جلس مكانها ، فلم يحرك الإنكليزي ساكناً ، وبعد قليل ونحن نتهامس عجباً ، جاء صاحب الحقيبة وبحث عنها ، فارتبك الفرنسي وأقبل على الإنكليزي يلومه ، وأخذ يعتذر لصاحبه ويتكفل له بالعمل على إحضارها له . فانظر مبلغ تسرع الفرنسي وطيشه وجمود الإنكليزي ورزانته .

وهم يراعون النظام في كل شيء ولا يتعدون حقهم أبداً ، وكذلك لا يسمحون لغيرهم أن يسبقهم إلى حقهم ، حدث مرة أن رجلاً أخطأ وتعجل دوره في طريق مزدحم ، وكان يحمل ابنته الصغيرة على ذراعه فلكمه الثاني بيده غاضباً وهو يقول : الزم مكانك خلفي فتقبلها الرجل في برود ، وخاطب طفلته متهكماً وهو يقول : يظهر أن صاحبنا رجل مفتول العضلات .

النص الثاني

في جزيرة نيوزيلندا الشمالية

ويقول العالم الأثنولوجيست : الماوري Ti Rangi Hirowa إن سبب هجرتهم الضغط عليهم بالحروب في جزائرهم الأولى ، وتكاثر عددهم في تلك المساحات الضيقة ، ولا يعرف منشأهم باليقين . ففيهم الدم المغولي ، وبعض أسماء أماكنهم وكذلك هم قريبو شبه بالزنوج في ضخامة أنوفهم وشفاههم ، ولكن المظهر الغالب الأبيض القوقازي ، فهل كان أصلهم من هنود أمريكا وفد إلى الجزائر أو من مصر ، جاؤوا عن طريق الهند واليابان ؟ وذلك أمر لا يزال يفتقر إلى إثبات . ولقد جاء العلماء في ذلك حتى أسموا الماوري (لغز المحيط الهادي) .

ولقد ظلوا أصحاب البلاد حتى جاء الجنس الأبيض ، وأول من رآهم طاسمان سنة ١٦٤٢ ثم تلاه كابتن كوك سنة ١٧٦٩ ، ولما بدأ وفود الأوروبيين خشي

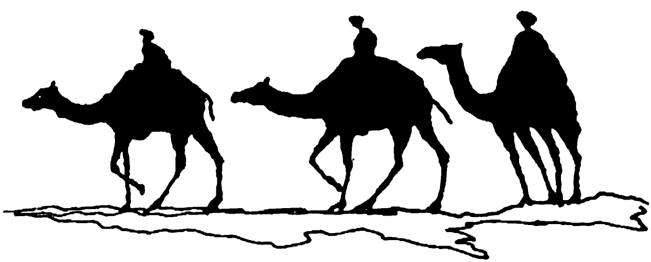
الماوري أن يغلبوا في بلادهم ، فشنوا الحروب عليهم ، خصوصاً وأن طبقة المهاجرين الأوائل لم تكن من خيرة الناس خلقاً بل من المنفيين والمجرمين ، فأساؤوا إلى الماوري واستبوا نساءهم . ولقد دوخت تلك الحروب الأوروبيين وأدهشتهم بمهارة استعدادها وخفة حركاتها ، على أن عدداً لا بأس به ظل موالياً للإنكليز وذلك هو الذي قصر أمد الحروب ـ وتخصهم الدولة الآن بزهاء ستة ملايين من الأفدنة هي وقف عليهم وعلى ذويهم .

ولما رآهم كوك لم يكونوا يعرفون زراعة الحبوب ولا صناعة الخزف والمعادن والجلود ولم يمارسوا الرعاية . وجهلوا الكتابة والقراءة ولكنهم استطاعوا أن يعيشوا بين الهمج مسودين ممتازين بفضل جدهم وذكائهم ، ولقد كانوا موضع الاحترام ومثار الفزع بوجوههم المنقوشة ، وحروبهم الشعواء ، وشجاعتهم لنادرة ، خصوصاً في الملاحة وجوب البحار . على أن ميلهم للمعاشرة ، وفرط دبهم ، وحبهم للاستطلاع ، واستعدادهم للتعليم والتجارة ساعد على سرعة ختلاطهم بالأجانب وكانت معيشتهم في نظام (كميوني) شيوعي يسوده زعماء عراء ، ويدعمه سياج من تقاليد أسموها تابو ، وكانت تقوم ديانتهم على عبادة لأصنام المنوعة وكان قساوستهم الملقبون (توهونغا) هم أطباؤهم ورواتهم ولم يزد ـددهم على ١٥٠ ألفاً ، وقد نزل اليوم إلى ٨٠ ألفاً بسبب الحروب ، وفتك أمراض الصدرية بهم ، ورداءة الحال الصحية بينهم ، ولاستخدام الطباق والخمور لملابس الأوروبية . لكن ظهر منهم علماء خدموا جنسهم ، وعنوا بثقافة بني لدتهم ، وبدأت دماؤهم تختلط بالبيض . وأكثرهم ينزل حول منابع المياه الحارة ، نهم استخدموها في شؤونهم ، ولا يزالون يحتفظون بالكثير من عاداتهم من نها : التحية بمسح الأنوف ووضع اليد على اليد . أما التقبيل فيحتقرونه بمجونه (وزهاء نصف سكان العالم كذلك المغول والملايو والبولينيزيون) إلى ك لبس المعاطف من أهداب الكتان والتزين بالريش وسماع الموسيقا وممارسة

الرقص ، وهم ميالون إلى الرياضة ، ورغم أنهم مهروا في كرة القدم والجلف ، فإنهم يحتفظون بألعابهم وبخاصة السباحة وقنص الطيور والمسابقة بالزوارق .

أقلني القطار عائداً إلى أوكلند ، وقد كثرت في الطريق مزارع الأغنام ، وتعددت البلاد الصغيرة التي يشتغل أهلها بتصديرها هي ومنتجاتها ، وكنا نرى كثيراً من مصانع الجبن والزبد واللحوم ، ويقولون : إن مقدار الفيتامين الذي بها يفوق نظائرها في البلاد الأخرى بفضل وفرة الشمس وجودة العشب ، وقد استرعى نظري في الطريق أشجار يسمونها Cobbage tree كالنخيل الرفيع ، ينتهي بفروع على شكل شوشة مسننة ، وكذلك فاكهة مستديرة الشكل Passion frut بغشاء قرنفلي مسود سميك كالجلد ، إذا كسرته ظهرت به مادة كالطماطم شكلاً وطعماً ، وهم يحبونها جميعاً رغم أني ألفيتها منفرة المذاق جداً .

وفي صباح السبت ٢٥ يولية غادرت زيلندة الجديدة ، تلك البلاد التي أحببتها الحب كله ، فهي قارة أو عالم مصغر حوى بدائع الطبيعة جميعها من جبال وثلوج وغابات ووديان وبراكين وفوارات وسهول ومروج ، كل ذلك تراه في الجزيرة الشمالية .



بَقِيَّةُ الجَغْرَافيِّين العَرَب في سُطور

(الأهواني) عبد الله بن سليم ٤٠ / هـ . عمل على نشر الإسلام في السودان والحبشة والصومال .

(الأزرقي) توفي عام ٨٩٣ م . له (أخبار مكة) .

(الأسواني) ابن سليمان . رحالة جاب السودان الشمالي . له (أخبار النوبة) كتبه حوالي عام ١٩٧٥ م .

(الإفريقي) ابن منظور . توفي ٧١١ هـ / ١٣١١ م . لـه (سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) .

(إياس) ابن . توفي في عام ١٥٢٨ م . له (نشق الأزهار في عجائب الأمصار) .

(بسترس) سليم . القرن ١٩ . له (الرحلة السليمية) .

(البغدادي) الخطيب . توفي عام ١٠٧٠ م . له (تاريخ بغداد) .

(البلنسي) أبو عبيدة . القرن العاشر الميلادي .

(البلوي) أبو البقاء خالد بن عيسى . غادر الأندلس عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م فرغ من مؤلفه (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م .

(الترجمان) سلام (القرن الثالث هـ / التاسع م) .

(الجيعان) شرف الدين بن . ألف (التحفة السنية في أسماء البلدان المصرية) عام ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م .

(الجيهاني) له (المسالك والممالك) . الثالث هـ .

(الحنفي) عماد الدين (توفي ٩٢٠ هـ ١٥١٤ م له فضائل الشام) .

(الخاصكي) أقبغا وزير قانصوه الغوري . توفي ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م له (التحفة الفاخرة في ذكر خطط القاهرة) .

(الخوارزمي) توفي سنة ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م له (صورة الأرض) .

(دقماق) ابن . توفي عام ١٤٤٢ م له (الانتصار) .

(الدمشقي) أبو عبد الله الأنصاري .

(سامي) عبد الرحمن . له (سفر السلام في بلاد الشام) مصر ١٨٩٢ .

(السرخسي) أحمد بن الطيب . توفي عام ٨٩٩ م له (المسالك والممالك) و (رسالة البحار والمياه والجبال) .

(السلامي) ابن الأصبح . ألف حوالي عام ٨٤٥ م كتاب (أسماء تهامة وأماكنها) .

(السمعاني) عبد الكريم بن أبي بكر . ولد ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م .

(السيرافي) سليمان . زار الهند والصين وكتب عن رحلته سنة٢٣٧ هـ / ٨٥١ م .

(السيوطي) توفي عام ١٥٠٥ م له (حسن المحاضرة) .

(السلمي) عرام بن الأصبغ له (أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه) القرن ٣ هـ .

(الصفدي) له فضائل مصر . توفي سنة ١٣٦١ م .

(الطهطاوي) رفاعة . تخليص الإبريز في تلخيص باريس . القرن ١٩ .

(الظاهري) عبد الباسط بن خليل بن شاهين . ولد في رجب ٨٢٤ هـ / كانون الأول ١٤٤٠ م . له (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) و (الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم) .

(عبد الحكم) ابن . توفي عام ٨٧١ له (فتوح مصر) .

(القاوقجي) أبو المحاسن شمس الدين . القرن ١٩ . (سياحة في الأقطار المصرية والبلاد الحجازية والشامية) .

(القرشي) ابن وهب . رحلة للصين سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م .

(قو) محمد بن قو سلطان مالي . رحالة مر بمصر للحج سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م .

(القيرواني) توفي عام ١٤٥٠ م له (المؤنس) .

(الكلبي) توفي ٨٢٠ م .

(الكندي) أبو يوسف يعقوب . توفي ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م (رسم المعمور من الأرض) .

(المارديني) أنطوان صراف . القرن ١٩ . له (رحلة إلى فلسطين) .

(المازني) أبو حامد توفي سنة ١١٧٠ م في غرناطة . زار منطقة الفولغا وجنوب روسيا . له (تحفة الألباب) .

(المراكشي) عبد الواحد . له (المعجب) كتبه عام ١٢٢٤ م .

(مراش) فرنسيس . القرن ١٩ . (رحلة إلى باريس) بيروت ١٨٦٧ م .

(المروزي) جعفر بن أحمد . توفي سنة ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م . (المسالك والممالك) .

(المتوج) ابن . توفي سنة ١٣٢٥ م . (إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل) .

(مستوفي) حمد الله . توفي سنة ١٣٤٠ م (نزهة القلوب) .

(المنجم) إسحاق بن حسين . له (آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان) كتبه بين ٩٥١ و ١٠٦٣ م .

(مماتي) ابن . توفي ١٢٠٩ م . له (قوانين الدواوين) .

(المهلبي) الحسن بن محمد . رحلة للسودان كتب عنها في ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م .

(المصري) أبو حامد القدسي . توفي عام ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م له (الفضائل الباهرة في محاسن مصر القاهرة) .

(النابلسي) توفي عام ١٢٤٣ م له (وصف الغيوم) .

(الوراق) محمد بن يوسف . توفي عام ٩٧٣ م (المسالك والممالك) .

(الوطواط) جمال الدين محمد بن إبراهيم توفي ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م . له (مباهج الفكر ومناهج العبر) .



المراجع

آ ـ المجلات

١ ـ **مجلة كلية الآداب** : (كتاب البلدان لعمرو بن بحر الجاحظ) ، نشر مع مقدمة وتعليقات . مطبعة الحكومة . بغداد ١٩٧٠ . للدكتور صالح أحمد العلي .

٢ ـ **مجلة أهل النفط** : (المكتبة الجغرافية العربية) . عدد ٤٥ سنة ٤ ـ ١٩٥٥ م ميخائيل عواد .

٣ ـ **مجلة العالم** : (العرب اكتشفوا الشرق الأقصى) ، ١٩٥٦ ـ الدكتور صياح محيي الدين .

٤ ـ **مجلة الضياء** : (علم الجغرافية والعرب) ، لكنو . الهند . مقالات العلامة سليمان الندوي ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ .

٥ ـ **مجلة محاضرات المكتبة الوطنية بحلب** : (فكرة الجغرافية عند العرب) . حلب ١٩٥٧ محاضرة الدكتور محمد محمود الصياد .

٦ ـ **مجلة كويتية ؟** : (ابن ماجد) ، الكويت ١٩٥٩ محاضرة الدكتور عبد الهادي هاشم .

٧ ـ **مجلة العربي** : (التجاني ، الرحالة التونسي) آب ١٩٦١ . نقولا زيادة .

مجلة العربي : (الحشائشي) ، تشرين الثاني ١٩٧٢ . نقولا زيادة .

مجلة العربي : (الحسن الوزان أو ليون الإفريقي) ، ١٩٦٢ عدد ٤٣ . محمد عبد الله عنان .

مجلة العربي : (الحسن بن محمد الوزان) ، ١٩٧٢ عدد ١٦٣ . د . جمال زكريا قاسم .
٨ ـ **مجلة هنا لندن** : (رحلة ابن فضلان) ، نيسان ١٩٧٦ عدد ٣٣٠ . نجدة فتحي صفوة .
٩ ـ **مجلة الخفجي** : (أبو حامد الأندلسي) ، آذار ١٩٧٩ . د . صلاح الدين المنجد .
١٠ ـ **المجلة العربية** : (أدب الرحلات في الإسلام) ، الرياض ١٩٧٦ .
١١ ـ **مجلة الجمعية الجغرافية العراقية** : بغداد ١٩٦٩ . الأبحاث الطبيعية في الجغرافية العربية . د . شاكر خصباك .
١٢ ـ **مجلة الجمعية الجغرافية العراقية** : بغداد ١٩٧٠ . رحلة ابن جبير . د . شاكر خصباك .
١٣ ـ **مجلة جيش الشعب السورية** .

ب ـ الكتب

ابن بطوطة . الرحلة . سلسلة كتب ثقافية . الجزء الأول والثاني . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٠ .
أحمد أبو سعد : أدب الرحلات . بيروت ١٩٦١ .
د . أحمد بدر : دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها . دمشق ١٩٧٢ .
ابن حوقل : صورة الأرض . ليدن ـ ١٩٣٨ .
ابن بلهيد النجدي : الهمداني .
أبو عبيد الله البكري : جغرافية الأندلس وأوروبا . تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي . بيروت وبغداد ١٩٦٨ .
ابن فضلان : رسالة . الدكتور سامي الدهان . المجمع العلمي العربي . دمشق ١٩٦٠ .

ابن خلدون : المقدمة .
أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار . تحقيق فيليب حتي . برنستون ١٩٣٠ .
شمس الدين الأنصاري الدمشقي (شيخ الربوة) : (نخبة الدهر في عجائب العصر) نشر ميهرن . ليبزيغ ١٩٢٣ م .
نفيس أحمد : دور المسلمين في الجغرافية . ترجمة الدكتور فتحي عثمان . الكويت ١٩٧٩ .
أبو الفداء : تقويم البلدان . نشر وتحقيق رينو والبارون دوسلان . باريس ١٨٥٠ .

ابن جبير : رحلة ابن جبير . دار التراث . بيروت ١٩٦٨ .
بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٥٠ .
فؤاد أفرام البستاني : ابن بطوطة . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٢٧ .
ر . بلاشي و . هـ . درمون : منتخبات من آثار الجغرافيين العرب في القرون الوسطى . باريس ١٩٥٧ .
عبد الرحمن بدوي : موفق الدين عبد اللطيف البغدادي . في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده . القاهرة ١٩٦٤ .
محمد بن عمر التونسي : تحقيق د . خليل محمود عساكر ود . مصطفى محمد مسعد (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) . القاهرة ١٩٦٥ .
محمد ثابت : العالم الديموقراطي كما رأيته . القاهرة ١٩٤٥ .
محمد ثابت : العالم العربي كما رأيته .
د . جورج حداد : المدخل إلى تاريخ الحضارة . دمشق ١٩٦١ .
د . زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . دار المعارف . مصر ١٩٤٥ .
محمود الحصري : رحلاتي في الإسلام . القاهرة ١٩٦٣ .

محمد عبد الغني حسن : غرائب من الرحلات . دار المعارف . سلسلة اقرأ . القاهرة ١٩٥٦ .

أحمد حسنين باشا : (في صحراء ليبيا) . القاهرة ١٩٢٤ .

د . شاكر خصباك : في الجغرافية العربية . بغداد ١٩٧٥ .

محمد حسين هيكل : في منزل الوحي . القاهرة ١٣٥٦ هـ .

د . محمد عبد المنعم خفاجي : أبو دلف الخزرجي . المكتبة الصغيرة . الرياض ١٩٧٢ م .

برزك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي : كتاب (عجائب الهند بره وبحره وجزائره) القاهرة ١٩٠٨ .

د . نقولا زيادة : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى . القدس ١٩٤٣ .

د . نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت ١٩٨٠ .

خير الدين الزركلي : الأعلام . القاهرة .

محمد الزهري : كتاب الجغرافية . تحقيق محمد حج صادق . دمشق ١٩٦٨ .

الأمير مصطفى الشهابي : الجغرافيون العرب . دار المعارف . مصر . سلسلة اقرأ ١٩٦٢ .

د . عبد العال عبد المنعم الشامي : جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط . نشرة قسم الجغرافية بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية ١٩٨١ م ، ١٤٠٢ هـ .

أحمد فارس الشدياق : كشف المخبا عن تمدن أوروبا . القسطنطينية ١٢٩٩ هـ .

د . إبراهيم أحمد الندوي : ابن بطوطة في العالم الإسلامي . دار المعارف . سلسلة اقرأ . القاهرة ١٩٥٤ .

د . إبراهيم أحمد العدوي : السفارات الإسلامية إلى أوروبا في القرون الوسطى . سلسلة اقرأ . عدد ١٧٩ .

د . عبد الله يوسف الغنيم : جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري . الكويت ١٩٧٧ .

د . عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكري ومنهجه الجغرافي . الكويت ١٩٧٤ .

خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . نشر بولس رافيس . باريس ١٨٩٣ .

آ . فولكوف : الأرض والسماء . ترجمة الدكتور أدهم السمان . دمشق ١٩٦٨ .

كراتشكوفسكي : الأدب الجغرافي عند العرب ـ ١٩٥٧ لينينغراد . ترجمة الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم . القاهرة ١٩٦٣ . في جزأين .

زهير الكتبي : محمد بن موسى الخوارزمي . منشورات وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٦٩ .

لجنة من أدباء الأقطار العربية : الرحلات . دار المعارف . القاهرة ١٩٥٩ .

د . صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب ـ ٣ أجزاء بيروت ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ .

المطهر بن طاهر المقدسي : (كتاب البدء والتاريخ) المنسوب تأليفه لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي : نشر كليمان هوا ـ باريس ١٩٠٣ .

علي الهروي : الإشارات إلى معرفة الزيارات . تحقيق جانين سورديل طومين . دمشق ١٩٥٣ .

الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني : تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي . منشورات دار اليمامة . الرياض . المملكة العربية السعودية .

د . عبد الكريم اليافي : في علم الاجتماع . دمشق ١٩٦٠ .

جـ ـ المراجع الأجنبية :

René Clozier: Les étapes de la géographie. P. U. F. Paris 1949.

Collin Delavaud: Vers l'inconnu. Paris 1950.

André Miquel: La Civilisation de l'I'slam Paris 1970.

André Miquel: La Géographie humaine du monde musulman Paris 1974-1978.

René Clozier: Les étapes de la géographie. P. U. F. Paris. 1950.

للمؤلف

مبادئ الجيولوجيا : ترجمة . بالاشتراك مع الدكتور يوسف خوري . مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٢ .
الصخور الرسوبية : ترجمة . المجلس الأعلى للعلوم . دمشق ١٩٦٣ .
محافظة حلب : سلسلة بلادنا (٥) . وزارة الثقافة . دمشق ١٩٦٤ .
علم المناخ : مطبعة جامعة دمشق . دمشق ١٩٦٩ .
دراسات في جغرافية الدول الكبرى : بالاشتراك مع الدكتور محمود رمزي . دمشق ١٩٧٠ .

جغرافية سورية البشرية : معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧١ .
المملكة المغربية : معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧٢ .
الجمهورية التونسية : معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧٣ .
مبادئ الجيومورفولوجيا : ترجمة . دار الفكر . دمشق ١٩٧٤ .
بحث عن سورية وثان عن دمشق : الموسوعة البريطانية . شيكاغو ١٩٧٤ .
إدلب : بحث في دائرة المعارف اللبنانية . بيروت ١٩٧٥ .
دراسة المصورات الجيولوجية : ترجمة . مكتب الإدريسي . دمشق ١٩٧٨ .
وصف إفريقية : ترجمة . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الرياض ١٩٧٩ .
الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي . ترجمة . دار الفكر . دمشق ١٩٨٠ .
تطور الفكر الجغرافي . دار الفكر . دمشق ١٩٨٢ .
أطلس العالم للخرائط الصماء . دار الفكر . دمشق ١٩٨٢ .
مدينة الرقة . ترجمة . وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق ١٩٨٢ .
الجغرافية البريدية : بالاشتراك . معهد البريد العربي . دمشق ١٩٨٣ .
جيومورفولوجية الشرق الأدنى : ترجمة . جامعة دمشق . تحت الطبع .
جغرافية الدول الكبرى : دار الفكر . دمشق .
جغرافية أوربا الغربية : دار الفكر . دمشق .
جغرافية أوربا الشرقية والاتحاد السوفييتي : دار الفكر . دمشق .
جغرافية آسيا : دار الفكر . دمشق .

المحتوى[1]

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة
النص الرابع « ابن جبير : ملاحظ ممتاز وناقد عند اللزوم »	٤٢٧
النص الخامس « مسلمو عكة »	٤٣٣
ابن المجاور :	٤٣٦
ذكر مكة وصفاتها	٤٣٨
صفة باب المندب ، بناء عدن	٤٤١
صفة البحرين	٤٤٥
ياقوت الحموي :	٤٤٧
النص الأول « مقتطفات من معجم البلدان »	٤٥١
التميمي المراكشي : النص الأول	٤٥٨
« ذكر جزيرة الأندلس وأسماء مدنها وأنهارها »	٤٦٢
النص الثاني « ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد والكبريت والرصاص والزئبق وغير ذلك وأسماء مواضعها »	٤٧٠
« ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب »	٤٧١
محمد الزهري :	٤٧٣
النص الأول « مقدمة المؤلف »	٤٧٤
النص الثاني « مناقشة كروية الأرض »	٤٧٥
النص الثالث « بصرى وطرطوس وحمص »	٤٧٦
النص الرابع « جزر حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي »	٤٧٧
الهروي :	٤٨٢
النص الأول	٤٨٤
النص الثاني « الطريق من الجيزة إلى مصر القديمة »	٤٨٦
النص الثالث « بلد الخابور »	٤٨٧
ابن سعيد :	٤٨٩
النص الأول : « وصف القاهرة »	٤٩١
النص الثاني : « ابن سعيد يوازن بين المدن التي زارها »	٤٩٤

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة
محمد بن عمر التونسي :	٦٦٠
النص الأول « في صفة دارفور وأهلها وعوائد ملوكهم وأسماء مناصبهم ومراتبهم »	٦٦٣
النص الثاني « عادات الفور عند الزواج »	٦٦٧
أحمد فارس الشدياق :	٦٦٩
النص الأول	٦٧١
النص الثاني « رحلة الشدياق من مالطا إلى أوروبة بالباخرة ، من كشف المخبا عن تمدن أوروبة »	٦٧٢
النص الثالث « الحياة عند الإنكليز »	٦٧٥
الحشائشي :	٦٧٨
النص الأول « في أهل طرابلس »	٦٨٠
النص الثاني « إقليم فزان »	٦٨٢
أحمد حسنين باشا :	٦٨٥
النص الأول « زوابع الرمال في طريق جالو »	٦٨٧
النص الثاني « وصف عادات بدو برقة »	٦٩٣
محمد ثابت : النص الأول « عادات الإنكليز في بيوتهم »	٦٩٥
النص الثاني « في جزيرة نيوزيلندا الشمالية »	٦٩٧
بقية الجغرافيين العرب في سطور	٧٠٠
المراجع	٧٠٤
من آثار المؤلف	٧١٠
المحتوى	٧١١

☆ ☆ ☆